جامعة الأزهر

حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة

يحررها نخبة من أساتذة الكلية

العدد ٢١

يشرف على تحريرها

أ. د. علي البدري
عميد الكلية ورئيس قسم البلاغة والنقد

أ. د. عزيز نافع
وكيل الكلية


صفحة فارغة

صفحة فارغة

صفحة فارغة

صفحة فارغة

صفحة فارغة

صفحة فارغة

صفحة فارغة

صفحة فارغة

الحكمة .. والمثل .. والتمثيل

نظرات فى أصولها وخصائصها الفنية

تتفاوت قيم الكلام كما تتفاوت قيم " النقود " فهى قد تتساوى فى "العـدد" ولا تتساوى فى " القيمة " فقطعة واحدة منها تساوى فى القيمة عشرات القطع ، بل مئاتها ، وإن أطلق على كل منهما رقم واحد .

أو تتفاوت قيمه – أى الكلام – تفاوت قطعتين من " المعادن " وزنـهما واحد ، فليس مثقال من " الفضة " يعدل مثقالا من " الذهب " ولا مثقـال مـن " النحاس " يعدل واحدا منهما ، وإن اتحد الوزن .

أو كما تتفاوت قيم " الحجوم " المتماثلة فى المقدار ، إذا اختلفت طبيعـة المادة المكونة لها ، لأن الحجوم لا ينظر فيها عند " الموازنة " والتقويم إلى ما يشغله كل حجم من الفراغ ، وإنما ينظر فيها إلى أعيانها وأجناسها .

بم يتفاضل الكلام ؟

هذه مثل ثلاثة لتفاوت قيم الكلام . فهو لا ينظر فيه إلى طوله وقصـره، وكونه كلاما وكفى ، وإنما ينظر فيه إلى مضامينـه ومعانيـه وتراكيبـه ، ومبانيه ، وبقدر مـا يحمله الكلام من تلك الخصائص تكون قيمه ، وبها يقـدم كلام على كلام. وفى الحكم والأمثال والتمثيل تظهر خصائص الكلام البليغ فى مبانيه ومعانيه ، وتجمع بين الإقناع والإمتاع وهما غايتان تضفيـان علـى الكلام الذى يؤديها جمالاً وسحراً ، وروعة وخلابة ، وبـها صـارت الحكـم والأمثال حكما وأمثالاً ، فخف محملها على اللسان ، وثقل وزنهما ، وتغنـت بها الركبان ورددتها الأفواه فى كل محفل وحلى بهما جيد كـل كـلام بليـغ وأصاب الرامى بهما شوارد العقول ، وحاز محاسن النقول ، فهو بها – أبدا – لا يكبو له جواد ، ولا هاض له جناح ولا كسر له سهم .

ثناء النقاد على الحكم والأمثال

وقد أطنب العلماء والنقاد فى الثناء على هـذا الضـرب مـن البيـان واستجلاء خصائص النظم فيه ، وقوة أسره وجماع بلاغته.

يقول جار الله محمود بن عمر الزمخشرى : " هى قصـارى فصاحـة العرب العرباء ، وجوامع كلمها ، وبيضة منطقها ، وزبدة حوارها وبلاغتـها التى أعربت بها عن القرائح السليمة ، والركن البديع إلـى ذرابـة اللسـان ، وغرابة اللسن ، حيث أوجزت اللفظ فأشبعت المعنى، وقصرت العبارة فأطالت المغزى ، ولوحت فأغرقت فى التصريح ، وكنّت فـأغنت عـن الإفصـاح ، وللنثر أنّى سلكت أثناءه طلاوة ، وللشعر كيف انساقت فى تضاعيفه متانـة .. حتى شبهوا بها كل سائر أمعنوا فى وصفه ، وشارد لم يألوا فى نعته" . (١)

ونقل الميدانى ، وغـيره ، عـن إبراهيـم النظـام نصـا فـى هـذا المعنى : هو مع وجازته أبلغ ما قيل عن الحكـم والأمثـال ، وهـو قولـه : " يجتمع فى المثل أربعة ، لا تجتمـع فـى غيـره مـن الكـلام ، إيجـاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشـبيه ، وجـودة الكنايـة فـهو نهايـة البلاغة ". (٢)

قارن هذا الكلام بكلام الزمخشرى تجده على قصره البالغ قد جمع مـا تفرق فى كلام الزمخشرى ، فالرجلان ينزحان من بئر واحـد وإن اختلفـت الدّلاء .

ويستشهد أبو هلال العسكرى على بلاغة هذه الأسـاليب مـن القـرآن الحكيم ، فيقول :

---

(١) مقدمه المستقصى ج١ ص ب ، ج .

(٢) مجمع الأمثال ٦/١.

" ثم إنى رأيت حاجة الشريف إلى شئ من أدب اللسان بعد سلامته من اللحن ، كحاجته إلى الشاهد والمثل والشذرة والكلمة السائرة ، فإن ذلك يزيد المنطق تفخيماً ، ويكسبه قبولاً ، ويجعل له قدراً فى النفوس ، وحلاوة فى الصدور ويدعو القلوب إلى وعيه ويبعثها على حفظه ، ويأخذها باستعداده لأوقات المذاكرة ، والاستظهار به أوان المحاولة فى ميدان المجادلة ، والمصاولة فى حلبات المقاولة وإنما هى فى الكلام كالتفصيل فى العقد ، والتنوير فى الروض والتسهيم فى البرد ، فينبغى أن يستكثر من أنواعه ، لأن الإقلال منها كاسمه إقلال ، والتقصير فى التماسه قصور وما كان منه مثلا سائرا فمعرفته ألزم به لأن منفعته أعم ، والجهل به أقبح".([1])

نقلنا نص أبى هلال بطوله ، لأن أبا هلال أديب بلاغى ناقد لذا تراه بعد أن أجمل القول فى صدر كلامه ، عاد فأوضحه بثلاث صور تشبيهية : فشبهه مرة بالتفصيل فى العقد وهو اختلاف حياته فى التلوين ، ومرة بتفتح النّور فى الروض المزهر ومرة بالتلوين فى خطوط " البرود " المحبرة .

ويعزى ابن قيم الجوزية الأمثال إلى ثمرات العقل ، ويفوه بما لها من جمال المعنى فيقول :

" الأمثال شواهد المعنى المراد ، وهى خاصية النقل ، ولُبّه وثمرته". ([2]) .

ويوجز ابن رشيق جمال المثل وبلاغته فى الإيجاز والصدق ، قال : " المثل السائر فى كلام العرب كثير نظما ونثراً ، وأفضله أوجزه ، وأحكمه أصدقه " .([3])

([1]) مقدمة جمهرة الأمثال ٤/١.

([2]) أعلام الموقعين ٢٣٩/١

([3]) العمدة ٢٨٠/١ .

ويذكر طائفة من أمثال القرآن ، والبيان النبوى ، ثم يردفها بنصوص شعرية وركز على رأى أن فيه أكثر من مثل واحد فى البيت الواحد وأورد ضمنها بيتا للقرزاز – السفاط ، وقال إن أمثالاً خمسة قد حواها ، وهو قوله :

خاطر تفد ، وارتد تجد ، وأكرم تَسُد وانقد تقد ، واصغر تعد الأكبرا [1]

وليس فى البيت – هنا أمثال – وإنما هى حِكَم . وسوف نعود لإيضاح هذا عند التفرقة بين الحكم والأمثال .

أما التمثيل ، فهو على ثلاثة أنواع كما سيأتى ، فإن الإمام عبد القاهر الجرجانى قد أفاض فى الكشف عن الأسرار البيانية لنوع منه واستقصى وجوه القول فى استكناه بلاغته وأثره فى النفوس ، وتبعه الخطيب والشراح ، وسيأتى الحديث عنه فى شيء من التفصيل إن شاء الله [2] .

وصانعو الأمثال – ابتداء – اجتهدوا من أجلها ، فأودعوها ثمرات عقولهم وخالص تجاربهم ، والألفاظ والمعانى فيها تراها تتناسب تناسبا عكسيا : لفظ موجز قصير ومعنى كثير وفير ، هذا هو الغالب فيها ، وكأنَّ صانعيها قصدوا ذلك قصدا حتى تخف على اللسان ، فيسهل استعمالها ويكثر إيرادها ، ويشيع أمرها ، ويسرع معناها إلى القلب كلمح البصر . وإلى هذا المعنى يشير أبو هلال بقوله :

" ولما عرفت العرب أن الأمثال تتصرف فى أكثر وجوه الكلام وتدخل فى جل أساليب القول ، أخرجوها فى أقواها من الألفاظ ، ليخف استعمالها ، ويسهل تداولها ، فهى من أجل الكلام وأنبله ، وأشرفه وأفضله ، لقلة ألفاظها ، وكثرة معانيها ، ويسير مؤونتها على المتكلم ، مع

---

[1] السابق ١/٢٨٤.

[2] أى عند بيان أنواع التمثيل المتقدم ذكرها آنفا .

كبير عنايتها ، وجسيم عائدتها ، ومن عجائبها أنها تعمل عمل الإطناب ولـها روعة إذا بـرزت فى أثناء الخطاب ، والحفظ موكل بما راع من اللفظ ، وبما ندر من المعنى " . (1)

الدلالة اللغوية لمادة " حكَم "

تدور مادة (ح ك م) فى اللغة حول معانى الضبط والمنع ، والحـذق والإصابة ، وتأتى وصفا للأفعال والأقوال فى المحسوسات والمعقـولات وإذا أخذنا بالرأى القائل " إن المعانى المحسوسة سـابقة وجـودا علـى المعـانى المعقولة ، وأنها أصل لها وعنها تولدت .فإن ما يتبادر الى الذهن من معنـى هذه المادة هى " حَكْمَةُ الفرس " لأنها المحسـوس البـارز فيـها . وحكمـة الفرس لها معنيان فى معاجم اللغة . نص الجوهرى على أحدهمـا ، ونـص الزبيدى على الإثنين معا .

قال الجوهرى :

" وحكمة اللجام ما أحاط بالحنك " . (2)

أما الزبيدى فقال :

" والحكمة محركة ما أحاط بحنكى الفرس .. من لجامه سـميت بذلـك لأنها تمنعه من الجرى الشديد .. وقال ابن شميل : الحكمة حلقة تكون فى فـم الفرس " (3)

وتلخص من هذا أن حكمة الفرس أو الدابة بوجه عام هى :

(أ) ما أحاط بالحنك من سير اللجام المصنوع من الجلد السميك .

---

(1) جمهرة الأمثال ١/٥.

(2) الصحاح (ج ٥ ص ١٩٠٢) .

(3) تاج العروس (ج ٨ ص ٣٥٣) .

(ب) الحديد المقوسة التى توضع فى فم الفرس أو الدابة ، وتشـد وترخـى بواسطة سير اللجام الممسوك طرفه بيد الراكب .

وما نقله الزبيدى عن ابن شميل أقوى ، لأن الذى يؤثر فـى ضبـط حركة الفرس إنما هو " الحديد " الموضوعة فى فمها ما أحاط بحنكها من سير اللجام وتأثير يشبه تأثير " السنارة " التى تصاد بها الأسماك .

ووظيفة " الحَكَمة " ضبط حركة الدابة وكبح جماحها ومنعها من الاندفاع والانحراف والتمكن من وقفها من السير حين يراد ذلك ، فـهى تقـوم مقـام جهازى التوجيه والتوقف فى مقاود السيارات الحديثة سواء بسواء .

وهذا المعنى جدير بأن يكون أصلا لكل ما ورد فـى تصريفـات هـذه المادة فالحَكَم وهو : القضاء المانع من نزاع الخصوم ، ونقل الزبيـدى عـن الأزهرى أن قوما خصوه بالقضاء العادل (1) ، لأنه يكـون أقطـع للعـذر . صالح (2) لأن يكون متفرعا عن المعنى الذى تقدم فى حكمة الدابة ، وكذلـك " الحاكم "و " الحكيم " و" الإحكام " و" المحكم " و" الحِكْمة " .

فالحاكم هو السلطان ، والشأن فيه أن يسوس الأمـور ويمنـع تنـازع الرغبات والشهوات والحكيم هو المجرب للأمور الضابط لتصرفاته والقـائل المصيب والفاعل المجيد ، والإحكام هو الإتقـان والحـذق ، والمحكـم هـو المتقن ، والحكم هو المانع من الفوضى والاضطراب . والحكمة هى ما أصاب المرمى من قول أو فعل . وحكيم الحكماء هو " الله " لأن قوله وفعله وتصرفه هو " عين الحق " سام فوق كل مقال .

وهكذا إذا تتبعنا تقبات المادة فإن معانيها يصح إرجاعها الى ما تقدم من معنى " حكمة الدابة " :

---

(1) نفس المصدر والموضع .

(2) صالح هو خبر عن " فالحاكم فى أول الفقرة " .

وقد جاءت " أحكم " بمعنى نهى ، وذكر صاحب التاج حديثا عن ابن عباس فى هذا المعنى ([1]) والنهى منع ، والمنع هو معنى حكمة الدابة .

ويؤيد هذا أن الفيومى ذهب الى القول بأن " الحِكَمة " التى تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل مشتقة من " حكمة الفرس " أو الدابة الممتطاة بوجه عام " ([2]).

الدلالة اللغوية لمادة " مثل "

فى كتب اللغة يكاد ينحصر معنى المَثَل ، والمِثْل والمثيل فى التنظير والتشبيه والفضل وقوة الظهور ، وفى معنى " صفة " مضافة لما بعدها . فإذا زيد فيها " تاء الافتعال " كقولنا : " امتثل " دلت على المطاوعة والاتباع وقد تزداد التاء مع حرف آخر كقولنا " تماثل " فتدل على بدء الأخذ فى الشىء ، كتماثل المريض للشفاء . وقد تزداد الألف بعد التاء ومنه : تِمْثال وتَمْثال بكسر التاء فى الأولى وفتحها فى الثانية ومعنى الأولى بمعنى التمثيل فى كونه مصدرا لمثل المضعف العين ، وعنى الثانية الصورة . والمثول ـ بزيادة الواو : القيام والانتصاب ، وجاء منها : المثال بمعنى الفراش . والأمثل والمثلى بمعنى الأفضل والفُضلى ، والمَثُل جمع مُثْله بمعنى العقوبة والعقوبات والمَثْل بفتح فسكون ـ التنكيل بالقتيل بجدع أنفه وقطع أطرافه " ([3]) .

وهذه المعانى على اختلافها ترجع إلى المقارنة بين شيئين هذا هو الغالب فيها وما خرج عن هذا المعنى يمكن إرجاعه إليه عند التحقيق ،وأشد خروجا عنه – فى الظاهر – كونه بمعنى العقوبة والتنكيل والفراش ، وهذه يمكن حملها عليه ، لأن العقوبة البالغة تصبح ماثلة فى الأذهان وتصور

([1]) تاج العروس ٢٤٥/٨(حكم) .

([2]) المصباح المنير (١٤٥) " مثل " .

([3]) انظر الصحاح ١٨١٦/٥ والتاج ١١٠/٨ والمصباح المنير ٥٦٣ "مثل" .

الناس للزجر والاتعاظ يؤيد هذا قوله تعالى :- ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الرعد : ٦) فسياق الكلام يدل على التعجب من شأنهم حيث يستعجلون السيئة ، وما فعله الله بأمثالهم ماثل لهم كأنهم يرونه ، فكان حريا بهم أن يرتدعوا وفاصلة الآية " لشديد العقاب " تؤذن بهذا المعنى . قال ابن جنى – عقب هذه الآية : أى العقوبات التى تزجر عن مثل ما وقعت لأجله ، ويحتمل أنها التى تنزل بالإنسان فتجعل مثالا ينزجر به ويرتدع غيره " ([1]) .

وكذلك التنكيل بجدع الأنف وقص الأطراف صورة بشعة تُمثِّل للنفس وتقر . فالصورة الذهنية فى هاتين تماثل الصورة الحسية التى وقعت ، وأما كونها بمعنى " الفراش " فقد تأولته تأويلا أسعدنى أن ابن جنى صرح به فقال : " والمثال الفراش وهو شىء يماثل ما تحته وما فوقه " ([2]) .

والخلاصة : أن مادة (م ث ل) فى اللغة تأتى لمعانٍ كثيرة بالتصرف فى الصياغة وأن هذه المعانى ترجع الى أصل عام واحد ، وإن شذ بعض المعانى عنه ، فهو شذوذ من حيث الظاهر ، وعند التحقيق تلتقى كل معانيها فى التصوير والتجسيم والمماثلة .

الحكمة والمثل فى الاصطلاح البلاغى

الحديث عن الحكمة وضبطها ومعرفتها يتضح بيسر بعد بيان المراد بالمثل وضبط معناه ومعرفة خصائصه الفنية لذا سنرجئ الحديث عن الحكمة بعد الفراغ من الحديث عن المثل ، وإن تقدمت فى الترجمة .

([1]) مقاييس اللغة ٢٩٧/٥.

([2]) السابق .

أما الحديث عن المثل فسنشطره شطرين كبيرين :

الأول : بيان المقصود اصطلاحا من مادة " م ث ل " فى أشهر تصريفاتـــها : مَثَل ، ومِثْل ، ومثيل .

الثانى : بيان المقصود من المثل ، وهذا التقســيم مــهم بالنســبة لموضــوع الدراسة ، فقد وقفت فيها على خلط كثير وقع فيه بعض الكاتبين قديمــا وحديثا . فرأيت من الواجب أن نحرر القــول فيــها قــدر الطاقــة ، مستمدين الدليل والشاهد من أنماط التراكيب الفصيحة وبخاصة البيــان القرآنى الحكيم ، والبيان النبوى الشريف مضافا إليــهما نمــاذج مــن التراث العربى : شعره ونثره .

أدوات التمثيل

نقصد من أدوات التمثيل تصريفات المادة المشار إليها ، وهــى مَثَــل ، ومِثْل ، ومثيل ، فقد خصها الاصطلاح بالتشبيه ، والتنظير ، والمساواة بيــن أمرين أو عدة أمور ، والكاتبون لا يفرقون – غالبا – بين تصريفات المــادة الثلاثة ، فهى عندهم بمعنى واحد وهو التشبيه كما مــرّ ، يقــول الميدانــى : أربعة أحرف سمع فيها فَعَل وفِعْل ، وهى مَثَل ومِثْل وشَبَه وشِبْه .. وفعيل فى ثلاثة من هذه الأربعــة يقال هذا مَثيله وشبيهه وبديله .. غــير أن المِثْــل لا يوضع موضع هذا المثل وإن كان المَثل يوضع موضعه .(1)

وخلاصة كلام الميدانى أن مَثَلَ مثل شَبَه ومِثْل كشِبْه ، ومثيل كشــبيه . غاية ما فى الأمر فإن مِثْل لا توضع موضع المَثَل المشبه مع جــواز وقــوع المَثَل موضع المِثْل .

---

(1) مجمع الأمثال ٦/١.

وفى كلام الميدانى غموض ووضوح ، فالغموض فى تجويزه وضع مَثَل موضع مِثْل ، وهذا غير واضح الدلالة على المراد منه . والوضوح حيث قابل بين مَثَل وشَبَه ومِثْل وشِبْه ، ومثيل وشبيه ، فجعلها كلها أدوات تشبيه ، وليس الأمر كما قال ، وسنبين وجه الصواب فى هذه الكلمات : مَثَل ومِثْل ومثيل إن شاء الله . وقصدنا من نقل كلامه أنه لم ير فرقا بينها ، وهذا من الخلط الذى أشرنا إليه .

وكذلك سلك أبو هلال ، فلم يفرق بين مَثَل ومِثْل فى جعل كل منهما أداة تشبيه فقال : أصل المثل التماثل بين الشيئين فى الكلام ، وهو من قولك هذا مثلى الشىء كما تقول شَبَهُ وشِبْهُه " . (١)

وذهب ابن رشيق مذهبهما فى عدم التفرقة فقال : " المَثَل والمِثْل الشبيه والنظير . (٢)

ويشيع فى كتابات المعاصرين أن يصدروا كتاباتهم فى هذا الفن بقوله : المَثَل والمِثْل والمثيل كالشبه والشبه والشبيه .

يعنون بهذا أن كل هذه الكلمات تفيد معنى التشبيه دون تفرقة ومن العلماء من استشعر وجود فرق بين مَثَل ومِثْل ، فابن العربى — مثلا — يرى أنهما ليستا سواء ، وزعم أن الفرق بينهما أن (مَثَل) بفتح الميم والثاء تستعمل فى تشابه المعانى المعقولة وأن (مِثْل) بكسر الميم وسكون الثاء مخصوصة بتشابه الأشخاص المحسوسة (٣).

ونحن مع ابن العربى فى التفرقة بين الكلمتين ، ولسنا معه فى الفرق الذى ذكره لأن كلامه فى حاجة الى تحقيق ، لأن الواقع يدفعه جملة وتفصيلا.

---

(١) جمهرة الأمثال ١/٦ .

(٢) العمدة ١/٢٨٠ ت : محمد محى الدين عبد الحميد .

(٣) شرح الترمذى ١/٢٦٥ .

وأول ما يعترض به على كلام ابن العربى ورود الكلمتين فى البيان القرآنى – وهو أفصح الأساليب – على غير ما ذكره فقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾(الفتح : ٢٩).

وقوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ (الكهف: ٤٥) .

وقوله تعالى:﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾(الحديد : ٢٠)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.(يونس: ٢٤)

فى الآيات الأربع الحكيمة جاء المشبه به صورة حسية بلا أدنى جدال وإن كان الوجه معقولا . أما المشبه فهو فى الأولى " مثلهم " وفى الثانية " مثل الحياة الدنيا " وفى الثالثة " حال الدنيا فى ازدهارها ونموها وسرعة زوالها وتذبلها " ، وفى الرابعة " مثل الحياة الدنيا " ولم تخل واحدة من الصور المشبهة فى هذه الآيات الأربع من اعتبار بعض العناصر الحسية فيها ، فهى جميعها مزيج من الحسيات والمعقولات .

ومقتضى كلام ابن العربى أن لا تأتى " مثل " إلا لتشابه المعقولات ، ولو كان الأمر كما قال لما جاء شىء منها هكذا فى القرآن الكريم ، وورودها فى القرآن على هذا الوجه يبطل ما ادعاه ابن العربى بلا نزاع هذه واحدة .

والثانية فإن " مثل " فى هذه الآيات لم تأت فى واحدة منها أداة تشبيه وإنما أتت إما مشبهة هى بغيرها " مثلهم .. كزرع " وأما مشبها بها غيرها

" كمثل غيث " بديل دخول حرف التشبيه عليها . وهذا يبطل ما ادعاه آخرون – ومنهم ابن العربى – أنها تأتى أداه تشبيه ، وهى لم تأت أداة تشبيه لا فى هذه النصوص ، ولا فى غيرها قرآنا وغير قرآن ؟

وخرجت " مِثْل " عما قرره ابن العربى كما خرجت " مَثَل " بمجيئها فى تشبيهات المعقولات ، كما جاءت " مَثَل " فى سياق المحسوسات .(1)

ومن مواضع خروج " مِثْل " قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .(البقرة : ١١٨) .

فليس المراد تشبيه قول بقوله فى كونه لفظا ، بل المراد تشبيه القول الأول بالقول الثانى فى أن كلا منهما باطل وتكذيب ولا تدل المثلية على التماثل فى نفس القول ، بل يحتمل أن من قبلهم اقترحوا غير ذلك ، وأن المثلية وقعت فى اقتراح ما لا يليق سؤاله – وإن لم تكن نفس تلك المقالة ، إذ المثلية تصدق بهذا المعنى . (2) وكذلك قوله تعالى : ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ .(3)

فإذا تجاوزنا اختلاق العلماء فى " بمثل " هل الباء زائدة أم مثل هى الزائدة أم لا زيادة فى شيء منها وهو الصحيح ، فإن الذى لا خلاف فيه أن مثل هنا لتشبيه إيمان بإيمان فى أن كلا منهما صدق ، والإيمان أمر معنوى معقول لا محسوس ، وغير ذلك وارد فى القرآن الحكيم ، إذن

---

(1) قلنا فى سياق المحسوسات ولم نقل فى تشبيهات ... " لما علم من أنها ليست أداة تشبيه قط .

(2)البحر المحيط لأبى حيان ٣٦٧/١.

(3) انظر البحر المحيط ، والكشاف ، وتفسير أبى السعود فى تفسير هذه الآيات من سورة البقرة الجزء الأول .

فإن ما ذهب إليه ابن العربى ليس بمسلم له،لمجىء أفصح الأساليب على خلافه .

وفى حديث له ﷺ جاءت هذه العبارة :- " تعرض الفتن على القلوب مثل الحصير عودا عودا " ([1])

وعرض الفتن على القلوب أمر معنوى معقول ،وليس محسوسا ففى الكلام تشبيه معنى بحسى لا تشبيه حسيين كما هو مقتضى كلام ابن العربى؟!

ومن الشعر الفصيح المحتج به عند علماء اللغة العربية :

تزود مثل زاد أبيك فينا فنعم الزاد زاد أبيك زادا ([2]).

والمعنى تزود فينا زادا مثل زاد أبيك . والمراد بالزاد الممدوح هنا إنما هو صنائع المعروف الجميل وليس زادا حسيا .

الفروق كما ينبئ عنها الاستعمال بين مِثْل ومَثَل

لم يستقم ما ذكره ابن العربى من فرق بين مِثْل ومَثَل لمخالفة الكلام الفصيح لما قال . وتحديد الفرق بينهما إنما يرجع فيه الى النصوص الواردة فيها والموازنة بين دلالتها ، وهذا ما نعرض له الآن ، على أننا سنقدم البيان القرآنى فى الاستدلال والاستشهاد ، لأنه أبلغ الكلام وأفصحه ، ونثنى بالبيان النبوى ، لأنه أرفع أساليب البشر ثم يستوى عندنا بعد ذلك كلام الأقدمين والمحدثين .

([1]) الترغيب والترهيب .

([2]) البيت لجرير : انظر شرح المفصل لابن يعيش ١٣٢/٦ والموازنة للآمدى (٢٩٢/١) .

" استعمال مَثَل "

ففى حديث القرآن عن المنافقين جاء قوله تعالى :- ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ البقرة :(١٧)

وقوله جل ثناؤه :

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ البقرة (١٩: ٢٠)

فى الآية الأولى مثل الله حال المنافقين بحال من استوقد ناراً وما استتبع ذلك من أوضاع تضامت وانتظمت فتكون من مجموعها الصورة المشبه بها .

وفى الآيتين (١٩، ٢٠) مثل حالهم بحال ذوى صيب فيه ظلمات ورعد وبرق وتقلب أحوالهم النفسية فى خضم هذه الظاهرة المخيفة ، وهى صورة حسية شبهت بها حال المنافقين وسلوكهم مع الدعوة وصاحبها ﷺ .

وفى فضل المنفقين فى سبيل الله وابتغاء مرضاته جاء قوله تعالى : **﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾** (البقرة : ٢٦١) .

وقوله تعالى :

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾
(البقرة : ٢٦٥)

والمشبه به فى هاتين الآيتين صورة أو هيئة تركيبية تألفت من عدة عناصر . فهى فى الأولى حبة واحدة تفرعت عنها سبع سنابل (هكذا) وكل

سنبلة أفرخت مائة حبة (هكذا) وهى صورة حسية ماثلة أمام النظر لمن تأمل وهى صورة عجيبة إذا لا عهد للزراع بمثلها ، تقرب للأفكار تكثير الله لثواب المنفقين المخلصين .

وهى فى الثانية جنة بربوة (هكذا) جنة فيها أشجار مختلفة متعـــددة ، نزل عليها مطر غزير فأنماها وباركها فأثمرت بما حلا وطاب وأمتع ، كـــل نوع من أشجارها يثمر فى حينه وهكذا يستمر إثمارها فى كل حين ، فخيرهـــا لا ينقطع وثمارها ﴿ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ (١) فإن لم يصبها مطر غزير أصابها ما خف منه ، فهى على كل حال جنة مثمرة لأن أعمال الخير تتفـاوت فى نفسها ويتفاوت ثواب الله عليهما . والله يضاعف لمن يشاء.

وسياق الآيات الأربع يدلنا على حقيقتين بارزتين :

أولاهما : القرآن الحكيم لم تر فيه كلمة " مَثَل " إلا مشبهة ومشبها بها وليسـت هى أداة تشبيه فى نفسها كما يدل عليه ظاهر كلام القوم .

والثانية : أنها لم تأت فيه إلا فى سياق تشبيه إما طرفاه مركبان معا كما فـــى تمثيلى حال المنافقين السابقين ، أو أحد طرفيه مركب وهو- هنـــا- الثانى دائما ، أى المشبه به ، ولم تأت لتشبيه مفردين قط.

هذا منهج أسلوبى بيانى مطرد فى القرآن الحكيم ولم يتخلف فى موضـــع واحد من مواضع ورود " مَثَل " فيه :

استعمال " مِثْل "

أما " مِثْل " فدلالتها فيه تختلف عن دلالة " مثل " اختلافـــا بينـــا ومـــن أمثلتها قوله تعالى :

---

(١) سورة الواقعة الآية ٣٣.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾(الكهف : ١١٠)

وقولـــه تعالـــى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُـــنَّ ﴾ الطلاق : ١٢)

وقولـــه تعالـــى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ (الأنعام : ١٦٠) .

وقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾(البقرة: ١٠٦)

وهذه الآيات تكشف لنا القرآن حقيقتين أخريين بارزتين :

أولاهما : أن القرآن الحكيم لا ترد فيه كلمة (مِثْل) إلا فـــى تشـــبيه طرفين لا تركيب فى واحد منهما ، ولا تركيب فى وجه الشبه فالآية الأولـــى تفيد مجرد التشبيه والتنظير فى (العدد) بدليل اختلاف حقائق السموات عـــن حقائق الأرض .

والآية الثانية تفيد مجرد التشبيه والتنظير فى (النوعية) فالجزاء مـــن جنس العمل ، والآية الرابعة تفيد مجرد التشبيه والتنظير بين معجـــزة قائمـــة وأخرى منسوخة أو مُنَساة .

والحقيقة الثانية : أن (مِثْل) فى القرآن الحكيم إنما هى أداة تشبيه فلـــم تقع مشبهة ولا مشبها بها على خلاف كلمة (مَثَـــل) فيـــه حيـــث اختصـــت بالتراكيب وبكونها مشبهة أو مشبها بها لا أداة تشبيه .وعلى هذا المنهج نفســـه سار البيان النبوى الشريف فى إيراد هاتين الكلمتين .

فقد وردت فيه طائفة من الأحاديث بنى الأمر فيها على التمثيل بكلمـــة (مَثَل) مشبهة ومشبها بها للجمع بين صورتين أو تركيبين معناهما كلـــى لا إفرادى .

وقد جمع الإمام الترمذى (١) سبعة عشر حديثاً منها ، ومن ذلك :-

---

(١) ووردت متفرقة فى الصحيحين وغيرهما .

قوله ﷺ (مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير).

وقوله : (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة).

وقوله : (مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة منه) .

وقوله : (مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة ، طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مُرّ ولا ريح لها ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ولا طعم لها) .

فهذه الأحاديث الأربعة مثل الآيات الأربع التى شبه فيها مَثَل بمَثَل فى أن طرفى التشبيه فيها مركبان إما معاً ، وإما الطرف الثانى هو المركب وذلك مطرد فيها ، وكذلك وجه الشبه لا يأتى معها إلا مركباً ولا شأن لها قط بتشبيه المفردات .

والمعانى التى اشتملت عليها الأطراف فى هذه التراكيب القرآنية والنبوية معان كلية يسهب مفسرها إذا أراد الإيجاز فى بيان دقائقها . كما أن كلمة " مَثَل " جاءت فيها مشبهاً ومشبهاً بها وليست أداة تشبيه ، وهاتان الحقيقتان قد رأيناهما بوضوح فى النصوص القرآنية المتقدمة .

(دلالة مِثْل فيهما)

ودلالة مِثْل " فى الأدب النبوى كدلالتها فى القرآن الحكيم فهى فيه أداة تشبيه للتنظير بين المفردين ، ولا تركيب فى طرفىَ التشبيه معها . ومن ذلك قوله ﷺ " : —

" إن أحدكم يُجمَع خلقُه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم ينفخ فيــه الروح ..([1])

وقوله : " أنه من أحيا سنة من سنتى أميتت بعدى فإنه له من الأجــر مثل مَنْ عمل بها "..([2])

وقوله : " ومن سن فى الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده ، كتــب لــه أجر من عمل بها ، ولا ينقص من أجورهم شئ ، ومن سن فى الإسلام سنــة سيئــة فعمل بها بعده ، كتب عليه مثل وزر من عمل بها .. ([3])

فلم تَعْدُ " مِثْل " فى هذه النصوص أكثر من مجرد " التنظير " بين المدد الثلاث الممكوثة فى بطن الأم فى الحديث الأول ، ولا أكثر من مجرد التنظـير بين أجر وأجر ووزر ووزر فى الحديثين الثانى والثالث.

وصفوة القول أن (مَثَل مِثْل) تسيران فى القرآن والبيان النبوى علــى منهج واحد ولا شذوذ فيها فيما نعلم .

" مَثَل " خاصة بالتراكيب والمعانى الكلية ، وهى إما مشبهة أو مشــبه بها ولا تأتى أداة تشبيه قط .

" مِثْل " خاصة بالمفردات فى اللفظ والمعنى ، وهى أداة تشبيه كيفمــا كانت .

دلالتهما فى التراث

وفى التراث العربى : شعره ونثره لم تختلف دلالتا الكلمتين عما ثبــت لهما فى البيان القرآنى ، والبيان النبوى ولكن فرقا جليا يلحظ الباحث بين هــذه

([1]) الشيخان وأبو داود والترمذى .

([2]) الترمذى بإسناد حسن .

([3]) مسلم والترمذى .

المصادر الثلاثة ، لا من حيث اختلاف الدلالة ، ولكن من حيث ورود الكلمتين (مِثْل ومَثَل) فيها .

فكلمة " مَثَل " وردت بكثرة فى القرآن الكريم والسنة المطهرة وكذلك كلمة " ومِثْل " وأما فى التراث الإسلامى فإن كلمة " مَثَل " نادرة الورود ندرة ملحوظة ، فعلى كثرة ما اطلعت لم أعثر لها فى الشعر إلا على ثلاثة مواضع وفى النثر على موضع واحد .

أما كلمة " ومِثْل " فهى كثيرة الورود فى الشعر والنثر ، وهى فى الشعر أكثر منها فى النثر فيما أرى .

ولعل السر فى ذلك أن كلمة "مِثْل" أخف مؤنة من كلمة "مَثَل" وأن عقد المقارنات بين " الإفراديات " أكثر خطورا على قرائح الأدباء من عقدها بين الصور والتراكيب ، فإذا احتاجوا لعقدها بينها أسعفتهم أدوات التشبيه الأخرى " كالكاف وكأن " فآثروها على كلمة " مَثَل " لخفتها . وبقى سبب آخر أراه فى هذا الملحظ ، وهو أن الأصل فى " مَثَل " أن تستعمل فى كل ما اشتهر من صور المماثلات والتنظيرات الطارئة ، أو ما حقه أن يكون كذلك .

ولهذا كانت " مِثْل " آلف عند الأدباء والشعراء من " مَثَل " فكثر طروقهم لها ، لأنها أسلس انقيادا ، وأوثر مهدا ، وأوطأ ظَهْراً .

فمن النادر ما نقله الزبيدى عن ابن الأعرابى :-

من لم يضع بالرملة المعاولا يلقى من القمامة مَثَلا ماثلا .

وهو أحد تصاريف الكلمة ومعناها : جهدا جاهدا [1] فهو بهذا الاعتبار لم يُرد منه تشبيه شئ بشىء .

(1) تاج العروس (ج٨ ص ١١٢)

ومنه ما استشهد به البيانيون فى التشبيهات المركبة :-

فى شجر السرو ومنهم مثل   له رواء وماله ثمر ([1])

ومنه قوله كعب بن زهير فى لاميته المعروفة التى أنشدها أمام الرسول عليه السلام :-

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا   وما مواعيدها إلا الأباطيل.

ومن النثر قول الإمام على رضى الله عنه وكرم وجهه : إنما مثَلى ومَثَل عُثمان . كمَثَل أثوار ثلاثة أسود وأبيض وأحمر كنَّ فى أجمه ومعهن فيها أسد ، فكان لا يقدر منهن على شئ لاجتماعهن.

فقال للثور الأسود والثور الأحمر : لا يدل علينا فى أجمتنا إلا الثور الأبيض فإن لونه مشهور ، ولونى كلونكما ، فلو تركتمانى آكله صفتْ لنا الأجمه : فقالا دونك فكله ، فأكله ثم قال للأحمر : لونى لونك فدعنى آكل الأسود لتصفو لنا الأجمة ، فقال : دونك فكُلْه فأكله ، ثم قال للأحمر : إنى آكلك الآن لا محالة ؟ فقال دعنى أنادى ثلاثا فجعل ينادى : ألا أنى أكلت يوم أكل الثور الأبيض ؟ ([2])

كلمة " مَثَل " فى هذه النصوص جاءت مشبها بها ومشبهة وطرفا التشبيه معها تراكيب وليسا أفرادا ، ووجه الشبه مركب مثلها وبيت ابن لنكك من التشبيه المقلوب – فيما أرى – لأنه جعل المتحدث عنها أصلا فى " العقم " ثم حمل شجر السرو عليهم ، فهو على حد قول الشاعر :

فى طلعة الشمس شئ من محاسنها   وفى القضيب نصيب من تثنيتها.

([1]) الإيضاح ١١٢/٨ والبيت لابن لنكك .

([2]) مجمع الأمثال ٢٥/١ وهو مثل يضرب لمن فرط ثم ندم .

أما كلمة " مِثْل " فكثيرة ذائعة ، يستوى التمثيل لـــها وعدمـــه لشـــهرة ورودها ، ومن ذلك الكثير قول الفرزدق يهجو جريرا :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم واعتد أن أهجو كليبا بدارم ([1])

وقوله :

ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزرا مثل الشفيع الذى يأتيك عريانا ([2])

وقول كعب بن سعد :-

مالام نفسى مثل نفسى لائم ولاسدَّ فقرى مثل ما ملكت يدى ([3])

ومن أمثلتها فى النثر قول من اعترض على حكم رسول الله فـــى ديّـــة الجنين الذى ولد ميتا بغرة .

" يا رسول الله : أأدى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ومثـــل ذلك يطل ". ([4])

وقول خالد بن صفوان يذم المزح :-

" يشق أحدكم أخاه مثل الخردل ، ويفرغ عليه مثل المرجل ، ويرميـــه مثل الجندل " ؟ ثم يقول إنما كنت أمزح . ([5])

فهذه ثمانى مرات ترد فيها كلمة " مِثْل " فلا تفيد أكثر من تمثيل مفـــرد بمفرد ، وتنظير معنى بمعنى ، لا تركيب فى واحد منهما ، ومثِيل كمِثْل ، ولم

([1]) معاهد التنصيص ٤٧/١.

([2]) بهجة المجالس لابن عبد البر ٤١/٣.

([3]) معجم الشعراء للمرزبانى (٤٣٢) .

([4]) البخارى (٧-٢٦) ومسلم (٥-١١١) والبيان والتبيين (١-١١٢) .

([5]) مجانى الأدب (٣-١٢٠) .

تعثر على شاهد لها إلا ما يساق فى المؤلفات فى شرح معنى التمثيل حيث يقولون :-

المَثَل والمِثْل والمثيل كالشَّبه والشِّبه والشبيه ، وهذا القول مسوق على عواهنه للفروق الكثيرة بين " المَثَل " و "المِثْل " والمثيل من جهة وبين الشَّبه والشِّبه والشبيه من جهة أخرى ، ولفارق مهم سوف نذكره بين مادة (م ث ل) عموما ، ومادة (ش ب ه) ونثبت فيما يلى أبرز ما نراه من فروق بين " مَثَل " بفتح الميم والثاء ، " مِثْل " بكسر الميم وتحمل عليها نظيرتها " مثيل ":

(أ) كلمة " مَثَل " تأتى فى سياق التنظير بين الصور والهيئات ، فلا يصاحبها فى هذا الشأن إلا التراكيب .

أما كلمة " مِثْل " فتأتى لمجرد التنظير والتشبيه بين مفردين ، ولا شأن لها بالتراكيب .

(ب) كلمة " مَثَل " تأتى فى سياق التشبيهات والتنظيرات المشهورة أو ما حقه أن يكون كذلك .

أما كلمة " مِثْل " فالأصل فيها – كما تفيد دلالة الاستقراء – أن تأتى للتشبيه العارض واللمحة البارقة .

(ج) كلمة " مَثَل " لا تأتى إلا مشبها ومشبها به ، وليست به ، وليست هى – فى نفسها – أداة تشبيه ، كما يفهم من ظاهر الكلام ، أما كلمة " مِثْل " فهى أداة تشبيه كيفما وقعت .

(د) كلمة " مثل " الأصل فيها أن تدخل عليها أداة تشبيه ، وهى هنا الكلف وحدها كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ (البقرة :١٧)

وقوله تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ . (الأعراف : ١٧٦)

وقوله سبحانه ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ (الحديد : ٢٠) وقوله الرسول ﷺ : (مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد ...) ([1]) فإن لم تدخل عليها أداة تشبيه فهى للتأكيد ، وإن صاحب حذف الأداة حذف الوجه صار التشبيه بليغا .

أما كلمة " مِثْل " فلأنها هى نفسها أداة تشبيه فلا تدخل عليها أداة أخرى ودخول الأداة عليها نادر كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى:١١) حتى ذهب بعض المفسرين الى القول بزيادتها . ([2])

(٥) كلمة " مَثَل " شائعة كثيرة الاستعمال فى البيان القرآنى والبيان النبوى وهى تؤدى فيها دورا بيانيا عظيم الشأن فى التربية والتوجيه والتوضيح ، وتبرز مكونات المعانى والأحاسيس والمشاعر فى معارض بلاغية آسرة ، فيها للعقول إقناع وللعواطف ، إمتاع أما فى أدب البشر من الشعراء والناثرين فهى نادرة الورود قليلة الماء .

(دلالتا شِبْه ومِثْل) :

ظاهر كلام المصنفين أن (شبه ومِثْل) دلالتهما واحدة ، لذا تراهم يقابلون بين (مَثَل وشَبَه ومِثْل وشِبْه ، ومثيل وشبيه) ولكن التذوق والواقع والاستعمال ، كل هذه المصادر تشعر بوجود فارق كبير بين دلالتى هذه الكلمات ، فذوات الميم والثاء واللام معناها مباين نوعا ما لمعنى ذوات الشين والباء والهاء بعد التقائها جميعا فى أصل الدلالة وهى التنظير بوجه عام فإذا كان التشبيه يتحقق بوجود — وصف مشترك بين الطرفين أو أوصاف فإن من حق التمثيل أن يتعدى هذا الحد ، فتكون دلالته على أن الطرفين يشتركان فى

([1]) البخارى .

([2]) رد القول بالزيادة العالم الملهم المرحوم محمد عبد الله دراز ، ولم يكتف بنفى الضرر من وجود " الكاف " بل أثبت لها مزايا بيانية قيمة (نظرات جديدة فى القرآن (١٣٢) .

أوصاف كثيرة حتى يظن أن كلا من الطرفين هو الآخر ، أو يشـــتركان فـــى جميع الأوصاف وتكون المماثلة – عند التحقيق – غير المشابهة ، فالمماثلـــة تقتضى الاشتراك فى جميع الأوصاف المعتبرة والمشابهة تقتضى الاشـــتراك فى وصف واحد ، أو أوصاف بحيث يكون المختلف فيه ، أكثر من المشـــترك فيه وفى المماثلة يصلح كل من الطرفين لأن يكون مشبها به لانعدام التفـــاوت بينهما ، فليس واحد منهما أصلا ولا الثانى فرعا محمولا عليه ، بل ذلك مـــن خواص التشبيه ، فإذا خرج به على هذا النسق عد التشبيه مقلوبا وليس هـــذا بوارد فى التمثيل .

والدليل على ذلك أن القرآن الحكيم وكذلك الحديث الشـــريف ، جـــاءت فيه (مِثْل) أداة للتشبيه فى ما فيه مماثلة ، تامة بين الطرفين ، ومـــن ذلـــك ﴿ اللَّـــهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْـــعَ سَمَاوَاتٍ وَمِـــنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ (الطلاق :١٢) لأن المراد مجرد التساوى فى العدد (سبع وسبع) لا تفاوت فى هذا الوجه .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُـــمْ صَاعِقَـــةً مِثْـــلَ صَاعِقَـــةِ عَـــادٍ وَثَمُودَ ﴾ (فصلت : ١٣)

ومن الأحاديث مرت طائفة فيها مماثلة ، تامة بين مـــدة مكـــث خلـــق الإنسان فى بطن أمه أربعين يوما لكل طور من الأطوار الثلاثة النطفة والعلقة والمضغة ،ومماثلة تامة بين أجر وأجر ، ووزر ووزر وهذا المعنى الذى تفيده (المماثلة) هو المعنى الذى يفيده (التشابه) بين الطرفين ، المستشهد عليـــه بقول أبى اسحق الصابى :

تشابه دمعى إذ جرى ومدامتـــى فمن مثل ما فى الكأس عينى تســـكب

فو الله ما أدرى أبـــا لخمر أسلبت جفونى أم من عبرتى كنت أشرب (٢)

---

(١) يتيمة الدهر (٢-٢٣٣) .

قال العباسى معلقا عليها :

والشاهد فى هذا ترك التشبيه ، والعدول إلى الحكم بالتشابه ! ليكون كل واحد من الشيئين مشبها ومشبها به ، احترازا عن ترجيح أحد المتساويين فى وجه الشبه فإن الشاعر لما اعتقد التساوى بين الخمر والدمع ، ولم يعتقد أن أحدهما زائد فى الحُمرة والآخر ناقص به حكم بينهما بالتشابه وترك التشبيه .([1])

وهذا ملحظ دقيق المسلك يستبين به الفرق بين دلالتى التمثيل والتشبيه بالمعنى الذى أشرنا إليه ، وبه يظهر ما فى التسوية بين هذه الأدوات من تسامح فقد رأينا الفروق بين دلالة (مَثَل) ودلالة (مِثْل) ثم الفرق بين دلالة التمثيل والتشبيه وإن اشتركا فى الأصل العام للدلالة ، وهو التنظير والاتفاق ، وهذا سر من خصائص اللغة العربية التى اختارها الحكيم الخبير لغة لكتابه ووعاء لوحيه الصادق الأمين الذى أعجب أرباب اللسن وأمراء البيان .

(الحكمة والمثل فى الاصطلاح)

نبدأ حديثنا هنا بسؤال : ما الفرق بين الحكمة والمثل فى الاصطلاح ؟ أهما بمعنى واحد أم مختلفان ؟

والإجابة تتلخص فى الآتى : حقيقةً يُطلق على المثل حِكمة ومجازا أو اتساعاً يُطلق على الحكمة (مثل) .

هذه خلاصة موجزة وأمينة لصلة الحكمة بالمثل ، وصلة المثل بالحكمة.

([1]) معاهد التنصيص ٢/٥٩ .

فالمثل حكمة ، والحكمة ليست مثلا فهما – كما يقال – بينهما عموم وخصوص . والصحيح هو التفرقة بينهما على الوجه الذى قدمناه وإن كان بعض الباحثين يسوى بينهما ولا يفرق .

وقد نقل الميدانى جملا فى تعريف المثل وحده ، فنقل عن المبرد قوله : المثل مأخوذ من المثال وهو قول سائر يشبه به الحال الثانى بالأول والأصل فيه التشبيه ([1]) ثم استطرد فقال :

(فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول كقول كعب بن زهير :

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا ... وما مواعيدها إلا الأباطيل .

فمواعيد عرقوب علم لكل ما لا يصح من المواعيد .([2])

ثم ذكر رأى ابن السكيت : المثل لفظ يخالف لفظ المضروب ويوافق معناه معنى اللفظ ، شبهوه بالمثال الذى يعمل عليه غيره .

ثم قال : " وقال غيرهما : سميت الحكم القائم صدقها فى النفوس أمثالا ، لانتصاب صورها فى العقول مشتقة من المثول الذى هو الانتصاب ." ([3])

وفى نقل الميدانى عمن لم يسمه الجمع بين الحكم والأمثال ، فقد قال : سميت الحكم المائل صدقها فى العقول أمثالا .

ومعنى هذا أن ما تحقق صدقه من الحكم فهى أمثال وحكم معا . وما لم يتحقق صدقه منها فهى حكم .

أما أبو هلال فقد فرق بين الحكمة والمثل بأن المثل حكمة فى الأصل ، ولكنه سار واشتهر فصار مثلا ، وهذا نصه :

([1]) انظر مجمع الأمثال (ج١ ص ٢٦) .

([2]) انظر مجمع الأمثال ١/٢٥-٢٦ .

([3]) جمهرة الأمثال ٧/٧ ت: تحقيق د . عبد المجيد قطامش وأبو الفضل إبراهيم .

(ثم جعل كل حكمة سائرة مثلا ، وقد يأتى القائل بما يحسن أن يتمثل به إلا أنه لا يتفق أن يسير فلا يكون مثلا) وكلام أبى هلال غير دقيق إذ جعل الفرق بين الحكمة والمثل مجرد الشهرة ؛ لأن من الحكم ما هو سائر مشهورة ولا يطلق عليها " مثل " .

والتفرقة الحقه بين الحكمة والمثل إنما تكون على الوجه الآتى:

المثل لابد فيه من ستة أمور :

1. الإيجاز .
2. الإصابة .
3. التشبيه .
4. الشهرة .
5. المورد .
6. المضرب .

فهو " قول موجز صائب يشبه فيه مضربه بمورده "، وهذا الضابط بين مستقى من أقوالهم المتعددة فى تحديد المثل .

أما الحكمة فتشترك مع المثل فى :

الإصابة _ الإيجاز ، وليس التشبيه ولا المضرب من شروطها ، وقد تشاركه فى الشهرة ، لكن لا تخرج بها عن معنى الحكمة لعدم إفادتها التشبيه وبهذا يتضح الفرق جليا بين ما هو مثل حقيقة ، وما هو حكمة ، وبدهى أن تشبيه المضرب بالمورد هو أهم ما بين الحكمة والمثل من فروق فهو فصل المقال بينهما .

تحليل صور من الحكم والأمثال

اتضح لنا الفرق نظريا بين الحكمة والمثل فى الفقرات السابقة وهذه صور منها يتضح لنا الفرق عمليا منها بين الحكم والأمثال :

- رأس الحكمة مخافة الله .

- العقل السليم فى الجسم السليم .
- الحياء نظام الإيمان (نسبه الشريف فى " المجازات النبوية " للنبى عليه السلام) .
- ما حكَّ جلدك مِثْل ظفرك .
- الغنى فى الغربة وطن ، والفقر فى الوطن غربة ؟
- إذا أقبلت الدنيا على شخص أعطته محاسن غيره ، وان أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه . (من كلام الإمام على فى نهج البلاغة).
- العيال سوس المال .
- شهداء الحق أيتام الخلق . من الأقوال المعاصرة .
- شهداء الحق أيتام الخلق . منالأقوال المعاصرة .
- الدنيا جيفة فإن أردت منها شيئا فاصبر على مهارشة الكلاب .
- أحسن الى من شئت تكن أميره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج الى من شئت تكن أسيره (من كلام الإمام على رضى الله عنه) .

هذه الأقوال كلها حكم لا أمثال : إذ لم يُرد به تشبيه المناسبة التى قيلت فيها بالمناسبة التى وردت فيها لأول مرة . وإنما يذكرها من يذكرها فى درج الكلام لإيضاح معنى أو تقريره وتوكيده : وبعضها يشترك مع المثل والشهرة والذيوع كالحكمة الأولى والثانية والرابعة والسابعة .

وكلها تشترك مع المثل فى الإيجاز والصدق والإصابة وقوة التأثير فى النفس . فلا حكمة مثل مخافة الله ، والجسم إذا لم يكن به إلا مرض العقل فكفاه مرضا .

والحياء يحفظ الإيمان كما يحفظ النظم حبات العقد . والإنسان لا يجيد أداء واجباته ومواجهة مشكلاته أحد سواه . والغنى يجد راحة واحتفاء فى كل مكان نزح إليه أما الفقير فلا وزن له فى حساب الناس ولو بين أهله وعشيرته ، فإذا اغترب ازداد هوانا .

والناس يجعلون من ملك مالا أو جاها وينسبون إليه فضائل ليست فيه تملقا ونفاقا .

ومن تعاديه الدنيا عاداه الناس وعدوا محاسنه مساوئ وفى هذا المعنى يقول القطامى :

الناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهى ولأم المخطئ الهبل .

ويقول آخر :

تحالف الناس والزمان فأينما كان الزمان كانوا

عادانى الدهر نصف يوم فانكشف الناس لى وبانوا

ويقول ثالث فيحسن أيما إحسان :

إذا محاسنى اللاتى أدلُّ بها عُدتْ عيوبا ، فقُل لى كيف اعتذر

وذو العيال كثير النفقة فكأن من يعولهم آفات لما له يبددون فى يوم ما يجمعه فى شهر .

والإخوان المخلصون زينة فى الرخاء وعون فى البلاء يثقل بهم وزن صديقهم ويشتد أمره .

والذين يقولون الحق لا يرضون الناس ، لأن الحق يثقل محمله على ذوى الأهواء ، وأنصار الزيف والباطل ، يحبون المنافق اللئيم ويبغضون

الجرىء الأمين : فهو يتيم الكبار فى الأرض ثقيل الظل كـأن كلامـه علقـم يتجرعه السامع ولا يكاد يسيغه ؟

والإحسان إلى الناس : وبخاصة الكـرام الطبـع منـهم يملـك عليـهم مشاعرهم .

وقد جلبت النفوس على حب من أحسن إليها : فاللهم لا تجعـل لفاسـق علىَّ يدا فيحبه قلبى (1) .

كما أن الاستغناء عما فى أيدى الناس يضع صاحبه فى درجة مسـاوية لهم لا عليه ولا له وفى الأثر . " ازهد فى ما فى أيدى الناس يحبك الناس " .

أما الاحتياج الى الناس فنتيجته على النقيض مـن الإحسـاس إليـهم : فيصبح المحتاج أسيرا لهم لا يخالف لهم أمرا ، ولا يعصى لهم هوى إنه رقٌ مقنع تنحط فيه الأقدار وتنقلب الموازين .

فها أنت ترى صدق تلك " الحِكَم " وإصابتها مقاتل المعانى ؛ فهى زبـدة تجارب ذكية ، ووليدة فكر حصيف .

ولو لم يكن فى هذه " الحكم " إلا فضيلة الإيجاز لكفاها سحرا وجمـالا ، فكيف إذا انضم إليه صدق المعنى وإحكام النظم والتأثير وشاعت فيها الفنـون البلاغية بلا تكلف ولا استكراه .

فتأمل سحر الاستعارة المكنية فى رأس الحكمة ، والسجع اللطيف فـى : العقل السليم فى الجسم السليم ، والتشبيه البليغ الآسر فـى " الحيـاء نظـام الإيمان " والكناية البديعة " ما حك جلدك مثل ظفرك " وقارنها بقـول طرفـة ابن العبد :

إذا كنت لا تستطيع دفع منيّتى	فدعنى أبادرها بما ملكت يدى .

---

(1) أثر وارد .

تجدها أجمل موقعا ، وأكثر دلالة ، وأبدع خيالا ، وأوجزها لفظا.

والمقابلة الحكيمة والعكس والتبديل فى : الغنى فـــى الغربـــة وطـــن ، الفقر فى الوطن غربة ...؟

وكذلك الاستعارة المكنية والمقابلة الجميلة فى إذا أقبلـــت الدنيـــا علـــى شخص أعطته محاسن غيره ، وان أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه ؟ .

والتشبيه البليغ فى " العيال سوس المال وما يشى به من خيـــال بديـــع " ومثله التشبيه البليغ والجناس المسجوع فى " شـــهداء الحـــق أيتـــام الخلـــق " وروعة الإضافة فى " أيتام الخلق " أى أنهم ليسوا أيتاما حقيقة ولكن النـــاس يعاملونهم معاملة الأيتام فلا يكترثون بهم ، لأنهم ليسوا لهم آباء أحياء يتملقـــهم الناس بالإحسان إليهم .

واقرأ الحكمة العاشرة بشعبها الثلاث تجد لها حلاوة وسحرا وقوة ألفـــاظ وإحكام بناء وتآزر معان ؛ وحسن تشبيه وأنغام أسجاع ، حتى لتبدو وكأنـــها عقد مرصع ضم إلى روعة نظمه كرم معادنه . نعم : إن من البيان لسحرا .

أما الحكمة الأخيرة (الدنيا جيفة فإن أردت منها شيئا فاصبر نفسك على مهارشة الكلاب) فهى من أبلغ ما قيل فى ذم الدنيا وطلابها الذيـــن لا هم لـــهم سواها ، فهى تطالعك بتشبيه بليغ يشى بمعنى رائـــع ، صارت الدنيـــا فيـــه " جيفة " فهى فى أول أمرها تبدو صيدا سمينا ، ولكن سرعان ما تتعفن وتبلى ، فتزهدها الطباع السليمة ، بل تنفر عنها نفورا . ثم تنتهى بك –أى الحكمـــة– باستعارة أليفة بينها وبين المطلع عرى وثقى صار فيها طلاب الدنيا النهمون " كلاب " وهذه الاستعارة قد مهد لها التشبيه فى المطلع " جيفة " والخيال يجمـــع بينها " " الجيفة والكلاب " جمعا لا يكاد ينفك ، وهذا هو المجاز المرشح فـــى أدق صورة وأبهاها ، وفيها — فـــوق ما تقـــدم ـــ فن بديعى يسمى " مراعـــاة

النظير " وضابطه أن تجمع فى الكلام بين لفظين فأكثر إذا ذكر أحد النظيرين أو النظراء لاح فى الشعور ذكر الآخر ، لأن النظيرين أو النظراء يربط بينهما الخيال فى دائرة واحدة ، فهى تتداعى فيه تداعى المعانى المتآلفة (1) .

وقارن المعنى المدلول عليه " مهارشة الكلاب " وهو ما يحدث من الكلاب من تحرش حول الجيفة بمنازعة طلاب الدنيا بعضهم بعضا للفوز بها ، والخصومات التى تجرى بينهم حولها ، تجد بين المعنيين ألفة وعناقا حتى أصبحا شيئا واحدا ، ذاك هذا وهذا ذاك ، فما أروع هذا الكلام ، وما أخطر دور البلاغة فيه .

إن كل ما تقدم حكم وأمثال ، وقد يختلط الأمر بينهما فتُعدَّ الحكم أمثالا ، وهذا كثيرا ما يقع ، والعذر فيه بيّن ، إذ لا فرق بينهما من حيث الصياغة والتركيب والخصائص البيانية ، وإنما الفرق بينهما فى أمور خارجية لا شأن لها بالتراكيب والبناء التركيبى ،والنظام اللغوى لكل منها والتشبيه والمورد والمضرب الذى هو عمدة المثل ليس فى الكلام ما يدل عليه ، وإنما هو تشبيه مضمر فى نفس الضارب للمثل ، فهو فعل من أفعال النفس يدرك بالملابسات وقرائن الأحوال ، وليست له أداة فى اللفظ ، ولا هو من قبيل التشبيهات المصرحة التى تذكر فيها الحكم وكشفنا عن خصائصها البلاغية ، نذكر فيما يأتى طائفة من الأمثال وننهج فيها نفس النهج المتقدم .

تحليل صور من الأمثال

- إنك لا تجنى من الشوك العنب .(2)

---

(1) هذا الضابط الذى ذكرناه ليس موجودا بلفظه فى كتب الأقدمين ولا فى بحوث المحدثين ، ولكن ما ذكروه فى حده لا ينافى ما ذكرناه ، وهو أضبط فى المسألة .

(2) جمهرة الأمثال ١/١٠٥ مجمع الأمثال ٢/١٢٠ المستقصى ١/٤١٦ .

- قبل الرماء تملأ الكنائن . [1]
- رمتنى بدائها وانسلت . [2]
- الصيف ضيعت اللبن .[3]
- قطعت جهيزة قول كل خطيب .[4]
- الحليم مطية الجهول . [5]
- إن المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى . [6]

هذه كلها أمثال لا حكم اصطلاحية ، وإن كانت حِكَما من حيث صدقها وقوة تأثيرها وإيجازها ووفرة معانيها ، وإنما تمحضت للأمثال لأن لكل قول منها موردا ــ أى حالة أولى قيلت فيها ــ ومضربا ، أى حالة أو حالات أخرى ترد فيها وكل ذلك منصوص عليه فى مصادرها التى أشرنا إليها فى الهامش ، فليراجعها من شاء ، والذى نعرض له الآن إنما هى المضارب التى يحسن التمثيل بها ، والخصائص البلاغية والأصول الفنية التى حكيت هذه المأثورات ، على أننا سنخص المثل الأخير بفضل بيان لسبب سنذكره عند الحديث عنه بإذن الله .

---

(1) المستقصى ١٨٦/٢ .

(2) نفس المصدر ١٠٣/٢ .

(3) مجمع الأمثال ١٠/٢ .

(4) جمهرة الأمثال ٣٥١/١مجمع الأمثال ١٤٢/٢ المستقصى ٢/١ .

(5) جمهرة الأمثال الجزء الأول .

(6) مجمع الأمثال ٧/١ المستقصى ٤١٠/١ .

المثل الأول : (إنك لاتجنى من الشوك العنب) وهو لأكثم بين صيفـــى ويضرب لكل امرئ صنع شراً فجوزى بمثله ، وفى معناه ورد : كما تديـــن تدان الجزاء من جنس العمل . وقد نظم هذا المعنى شعراً ومنه :

إن تزرع الشر تحصد فى عواقبه ندامـــة ، ولحصـــد الــزرع ابان

إذا وترت امرءاً فاحذر عداوتـــــه من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا

هذا المثل قانون مطرد من قوانين الحياة ، وجماله فى صدقه ، وفـــى تشبيهه مطلق الشر بالشوك ، لأن كلاً منهما مؤذ ، ومطلق الخير بالعنب ، لأن كلاً منهما له حلاوة تستطيبها النفس وتستريح إليها ، وهو فـــى جملتـــه إمـــا استعارة تمثيلية بحسب تركيبه اللغوى شبهت فيها حالة من يرجو الإحسان من الإساءة بحالة من يبحث عن العنب فى كومة شوك .

أو كناية عن شدة الحمق عند من لا يعرف حقائق الأمور فـــهو كمـــن يبحث فى الماء عن جذوة نار على حد قول الشاعر :

ومكلف الأيام ضد طباعهـــــا متطلب فى الماء جذوة نار

وقول الآخر :

إياك تجنى سكرا من حنظل فالشىء يرجع فى المذاق لأصله

والمثل الثانى : " **قبل الرماء تملأ الكنائن** " يضرب فى الحـــث علـــى الاستعداد للأمر قبل الأخذ فيه ، فذاك أقوى الأسباب الموصلـــة للمطلـــوب . وهذه سنة مطردة من سنن الحياة فالله قد جعل لكل شئ سبباً ، وربـــط بيـــن الأسباب ومسبباتها ربطاً حكيماً . ومن يطمع فى المسببات ، دون الأخذ فـــى الأسباب عظمت خيبة الرجاء عنده وفى ذلك يقول مثل آخر : (قبـــل الرمـــى

يراش السهم) ([1]) وهما بمعنى واحد وقد نظم هذا المعنى شـعراً فـى قـول بعضهم :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها   إن السفينة لا تجرى على اليبس

وقد أدرك العقلاء أن الأخذ فى الأسباب يدفع اللـوم إذا لـم يتحقـق المطلوب ومن مأثورهم فيه قول الشاعر :

وعلـىّ أن أسـعى   وليـس علـىّ إدراك النجـاح

وقول الآخر :

لا تلم عزمى إذا السـيف نبـا   صح منى القصـد والسـيف أبـى

أما بناؤه البلاغى ، وفقهه البيانى فهو التكنية عن المبادرة إلى إعـداد العدة للأمر قبل الشروع فيه ، وفيه من إيجاز الحذف بعد إيجاز القصر حـذف الفاعل وبناء الفعل للمفعول (تملأ الكنائن) والأصل : يملأ الرامى الكنـائن . وفى هذا الحذف من الفخامة ما فيه لأن المعول عليه فى هذا المجال هـو أن تكون الكنائن مملوءة وصالحة للعمل ؛ بصرف النظر عمن ملأها ، الرامى أم غيره . ؟

أما المثل الثالث : (رمتنى بدائها وانسلت) فمضربه كل حالة تنصـل جان فيها مما جناه ونسبه إلى غيره من الأبرياء ، وهذا ما أكثر وقوعه فـى دنيانا ، ولو أن الجناة قصروا دفاعهم عن أنفسهم بنفى ما جنوه لهان الخطب ، ولكن إلصاقهم ما جنوه بغيرهم هو الداهية الدهياء.

وليس لمن أصيب بسهامهم عذر أبلغ ولا أقطع مـن أن يـردد هـذا المثل : رمتنى بدائها وانسلت . وإنها كلمات ثلاث يعجز دهاة المحامين عـن أن يأتوا بمثلها فى حلبة الدفاع ولو سودوا عشرات الصحائف .

([1]) أمثال ابن سلام (٢٣٣) .

وهذا المثل على قصره بديع النظم ، شديد الإيحاء غزير المعنى ، كثيف الظلال .

ففيه استعارة " الرمى " للاتهام ، والاتهام أمر معنوى ، أما الرمى فحسى لا يكون حقيقة إلا للأجسام كحَجَر ونحوه . واستعارة المحسوس للمعقول فيها تجسيم للمعقول حتى لكأنه يحس ويرى والمرمى به داء فهو – إذن – رمى مهلك ، وزاد من قبح الرمى إضافة الرمى إلى ضمير الرامى " دائها " فلهذه الإضافة روعة لا يخفى أثرها على ذى فقه بمرامى الكلام ، ولو قال : رمتنى بداء وانسلت لذهب من المثل شطر جماله ، وتأمل سحر الاستعارة فى " انسلت " فإنك تحس بما لها من لطف ورشاقة ، فهى شعاع رقيق يومض أمام ناظريك ولا يلبث أن ينماع فكأنك لم تر شيئاً قط ، ثم قارنها بما لو قال : " وذهبت " تجد الفروق بين التعبيرين جد شاسعة .

والمثل الرابع : (الصيف ضيعت اللبن) يضرب فى شأن كل من أضاع خيراً كان ينعم فى ظلاله ، ثم طلبه بعد فوات الأوان ، وهذه الكلمات الثلاث التى قالها شيخ لمن كانت زوجاً له منذ مئات السنين كان يمكن أن تذهب هباء لولا ما تحمله من معان راقت فرددتها الأفواه فى مناسباتها وعلقت بالشمس شهرة وذيوعاً .

وهو فى أصله التركيبى خبر لم يُرد منه فائدته ولا لازمها كما يراد من الأخبار فى أصل وضعها ، وإنما أريد منه التذكير بالقصور وخطل الرأى المقترن به التوبيخ وهو آلم فى النفس من النضح بالسهام ، إذ ليس آلم على النفس من توبيخها على خير أضاعته فى لحظة طيش هى أشد ما تكون حاجة إليه ساعة مواجهتها بالتوبيخ واللبن فى المثل من جوامع الكلم ، فلا يراد به خصوص اللبن بل كل خير وفضل يقيم الأود ويصون ماء الوجه .

أما المثل الخامس : (قطعت جهيزة قول كل خطيب) فمهما قيل فـــى جهيزة هذه من وصفها بالخرق والحمق ، فهو الضوء الأحمر المؤذن بقطـــع كل كلام لأن جهيزة جاءت بفصل المقال ، ومورد هذا المثل أن حيا من أحياء العرب قتل رجلاً من حى آخر ، فاجتمع الخطبــاء مــن مريــدى الإصـــلاح ليتوددوا لأولياء القتيل بأخذ الدية فدخلت عليهم أمَة يقـــال لـــها " جـــهيزة " وقالت : لقد ظفر بعض أولياء الدم بالقاتل فقتلوه وهنا تعادلت كفتـــا المـــيزان وسكت الخطباء فقيل " قطعت " جهيزة قول كل خطيب " فصـــار مثلاً يضرب لكل حالة انتهى فيها وصارت جهيزة رمزاً لكل حاسم أمر . ولست ادرى لماذا يصف الكاتبون جهيزة بالحمق فإن كان ما قالته حقاً فهى ليست بحمقـاء ، وإن كان باطلاً وكذباً فهى لم تقطع أقوال الخطباء ، فإما أن يبقى المثل صحيحاً مع سلامة جهيزة من الحمق ، وإما أن يمحى المثل ويمحى معه ذكر جهيزة — فلا هى حمقاء ولا فطنهْ ؟!

وفى المثل استعارة القطع للإبطال ، والإبطال أمر معنوى والقطـــع لا يكون إلا للأجسام المحسوسة ، وفى هذا تنزيل للمعقـــول منزلـــة المحســـوس لإبرازه فى صورته مبالغة فى بيان أثر قول جهيزة فى حسم الأمر والفصــــل فيه فصلاً قوياً .

والمثال السادس : " الحليم مطية الجهول " ، أى العاقل الحليم يحتمـــل نزق الأحمق اللئيم كما تحمل المطية ممتطيها ، ويضرب فى كل حالة اتســـع فيها صدر الكريم لتفاهة الحمقى ، وصبر على أذاهم ولم يقم لهم وزناً .

والمثل على إيجازه فيه صورتان بلاغيتان فهو تشبيه بليغ ينم عن خيال مُوحٍ ؛ وفيه طباق بين الحليم والجهول ، وفى العدول عن " الجـــاهل " إلـــى " الجهول " وهو صيغة مبالغة فيه ، حسن رعاية لفضل الحليم وقوة احتمالـــه ،

فهو مادام يحتمل كثير الجهل فإن احتماله لقليله من المسلمات التـــى لا تقبـل جدلاً .

المثل السابع :

وعدنا أننا سنفصل هذا المثل تفصيلاً نستقصى فيـــه جوانــب القــول والسبب أنه جزء من حديث ، فله شرف النبوة وكرامـــة الوحـــى وعصمـــة الرسالة .

وللحديث سبب ورود يراجع فى مظانه ، وقد قاله عليه السلام لرجـــل يشتد على نفسه فى العبادة ، فنصحه عليه السلام بالاعتدال فيها وكـــان ممـــا قال " إن المُنبَت لا أرضا قطع ، ولا ظهراً أبقى " فصار يضرب به المثـــل ، وهو أبلغ الأمثال فى بابه ، يضرب لمن يستعجل فى عمل اســـتعجالاً يوهـــن عزمه ، ويبدد طاقته ، ولا يتحقق معه المطلوب لعجزه عن مواصلة العمل .

الفروق بين الحكم والأمثال :

تشيع فى هذا المقطع من الحديث الشريف كثير من خصائص النظـــم وإحكام البناء والقيم البلاغية مما لا نظير له من كلام الناس وتكسوه حالة من جلال النبوة كلما لمستها ازددت بها إعجاباً وغمرتك أنساً .

فهو فى جملته " استعارة تمثيلية " شبهت فيها حالة من يغلو فى عمـــل ما ويبدد طاقته فى غير روية حتى يكل عـــن العمـــل ويفقـــد قدرتـــه عليـــه دون تحقيق المقصد ، بحالة من يزجر مطية ويحثها على السير بلا هـــوادة ، فتتعثر وتعطب دون الهدف بجامع ما يترتب على كل منها من إضاعة ما فـــى اليد بلا طائل مفيد ثم صار يُضرب فى كل حالة مشابهة ، وهو من جوامـــع كلمه ﷺ .

وهو فى تفصيله مفعم بدقائق النظم وأسرار البيان :

- وأول ما يطالعك التوكيد الحاصل بـ " إنّ " المؤذن بحصول مضمون الجملة عند حصول أسبابه ، فالعجلة غير المدروسة لا يعقبها إلاّ الخسارة والندم ، وقليل من ينجو منها ، وحال المخاطب – هنا – لما كان يغلو فى أمر العبادة صار كأنه منكر لمضار الغلو ، فنُزّل منزلته وأكد له الخطاب بمؤكدين الأداة ، واسمية الجملة ولم يزد عليهما ، لأن الرجل لم يكن منكراً حقيقة ، ولكنه مجتهد فى طلب المثوبة فنصح بما يليق بحاله .
- والمُنْبَت فى اللغة المنقطع عن الركب مطلقاً ([1]) ، وكان حق الكلام أن يقال : إن " **المتسرع** " ولكنه عدل عنه إلى " **المنبت** " إشعاراً بما يؤول إليه حاله " المتسرع " وهو الانبتات ، فهو من إقامة المسبب مقام السبب ، فهو مجاز مرسل علاقته المسببة أو السببية ([2]) .

وفى معاجلة المتسرع بمواجهة بما يؤول إليه حالة " الانبتات " وفاء بحق المعنى لأن المقصود هو التحذير من التسرع .

- ثم انظر إلى تقديم المعمولين : " أرضاً ، وظهراً " ، على عامليهما : " قطع وأبقى " وكان حق الكلام أن يكون : " لا قطع أرضاً ولا أبقى ظهراً " ولكنهما قدما فوليا حرف النفى . وفى هذا التقديم تعجيل بتصور الخسار الذى يقع فيه المتعجل ، لأنه يهمه بالدرجة الأولى أن يحقق لنفسه النفع من عمله أياً كان سيراً أو غير سير وأن يحتفظ بطاقته التى يستثمرها فى ممارسة العمل .

([1]) انظر أمثال الميدانى (جـ١ ص ١٠) .

([2]) يجوز انتزاع العلاقة من المذكور وهو المسبب فتكون العلاقة المسببية ، ويجوز انتزاعها من المعدول عنه وهو السبب فتكون العلاقة السببية . وهذا يجرى فى المجاز العقلى كما يجرى فى المجاز المرسل .

وسر هذا التعجيل المبادرة بالتحذير من الغلو المفضى إلى الخسارة والتندم .

- وقد حرص عليه السلام أن يجمع بين ضياع الطاقة وبقاء العبء الذى يتطلب استمرار العمل لإنهائه .

وهذا أبلغ فى تصوير مضار العجلة ، لأنه لو اقتصر على ضياع الطاقة مع بلوغ القصد ، أو على بقاء العبء مع سلامة الطاقة لكان ذلك أيسر على نفس المتعجل ، ولم يف بالمراد من التنفير من المغالاة والعجلة ، فكانت نهاية البلاغة فى الجمع بينهما .

- وبهذا تدرك جمال توسط حرف العطف بين الجملتين . لا أرضاً قطع ولا ظهرا أبقى لأن الجملة الثانية قسيمة الأولى فى الحكم والمعنى فحق وصلهما بالواو لوجود المناسبة . (1)

- وأوثر " الواو " من بين حرف العطف ، لأن المقام مقامه هو لا مقام غيره ، ولو عطف بالفاء لفسد المعنى ، لأنها تفيد الترتيب مع التعقيب ، ولا معنى للترتيب هنا لأن – المعطوف عليه " لا أرضا قطع " متأخر وجوداً على المعطوف " ولا ظهرا أبقى " وقطع الظهر أسبق وجوداً من نفى قطع الأرض ، فلو لم يعطب الظهر لما بقى العبء والعطف يقتضى ترتيب السابق على اللاحق ، وهذا فاسد كما علمت .

وكما بطل العطف بالفاء يبطل ببقية حروف العطف مثل ثم ، ولكن ، وبقى المقام للواو وحدها .

---

(1) يطلق البلاغيون على هذه المناسبة .. الجهة الجامعة بين الجملتين ، والجملة الثانية – هنا – شريكة الأولى فى الإعراب والمعنى لأنها جزء الخبر كما ترى .

يبطل العطف بـ " ثم " لأن فيها ما فى العطف بالفاء من فساد المعنى . لاقتضائها الترتيب ، والأمر على العكس كما تقدم ، ثم لاقتضائها " التراخى " ولا تراخى هنا ، كذلك ، لأن بقاء العبء يحدث عقب قطع الظهير وتبديد الطاقة مباشرة .

وكذلك يبطل العطف هنا بـ " لكن " لإفادتها الاستدراك ، وهو نفى ما يتوهم إثباته أو إثبات ما يتوهم نفيه ، ولا معنى له هنا بشقيه فلا يصح أن يقال : لكن لا ظهرا أبقى لأن نفى قطع الأرض يقتضى هلاك الظهر ، وزوال الطاقة الممكنة منه . فتقديم نفى القطع على إهلاك الظهر رافع لاحتمال توهم بقائه . ولذا تمنع " لكن " هنا ، كما امتنعت أختاه الفاء وثم ، وهكذا البواقى .

- وإنما كان المقام للواو وحدها ، لأنها تعطف السابق على اللاحق واللاحق على السابق وتعطف المتصاحبين . وهى فى الحديث لعطف السابق على اللاحق ، لأن بقاء الأرض بلا قطع حدث عقيب هلاك الظهر حدوثاً يكاد يكون مصاحباً له لشدة قربه منه .
- وهذا – يعنى تقديم ما حقه التأخير – يُفضى بنا إلى سؤال مؤداه إذا كان – إهلاك الظهر ، أو تبديد الطاقة سابقاً فى الحدوث على بقاء الأرض بلا قطع ، فلم أخّر فى النظم ، وما سره البلاغى إذن؟

والجواب ليس ببعيد – والله أعلم – أن يكون سر التقديم هنا لأن صاحب الطاقة المبذولة فى هدف ما ، يقصد من بذل طاقته تحقيق ما أراده منها قصد أوليا ، ويكون ذلك مطلوب نفسه ، لأن الطاقة الموجودة محققة ، والمطلوب ثمرتها فعوجل فى الحديث بفوات المطلوب ، ليكون ذلك أعون له على التنفير من العجلة .

• وبقى من دقائق النظم فى الحديث تنكير كلمتى " أرضا وظهرا " ولهذا التنكير سر بلاغى ملحوظ ، ومعلوم أن من معانى التنكير التعميم والشمول ، وهذا إذا وقع فى سياق النفى ازداد شمولاً ومؤدى التنكير هنا أن المتسرع بدد كل طاقته ولم يحرز أى نفع .

ولا ريب أن هذا المعنى أوثق صلة بشدة التحذير من العجلة التى هى مرمى هذا المثل الرائع حقاً .

إنه مثل فريد فى بابه ، توفرت فيه كل خصائص النظم المحكم البليغ ، والمثل السائر ، من حسن تشبيه وإيجاز وصدق وإصابة . وما قيل فى معناه لم يبلغ مبلغه من الروعة والجمال وإن كان فى نفسه بليغاً .

وممن قال فى معناه القطامى الشاعر :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون من المستعجل الزلل ([1])

فهذا كلام أطنب فى مبناه من " إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهرا أبقى " ولم يبلغ مبلغه من الصدق والإصابة فإن من حق الناقد أن يأخذ على القطامى قوله " بعض حاجته " لأن فى التبعيض تزهيداً فى الروية والأناة ، ولو أنه قال " جل حاجته " لكان أقرب إلى الهدف.

وقد جعل القطامى عاقبة العجلة " مجرد الزلل " وهو وإن وقع على وجه التكثير المستفاد من " قد " فإنه لا يتم به كمال التحذير من العجلة لأنه فى نفسه درجات أما الحديث فقد نص نصاً على أن العجلة تبدد الطاقة ولا تحقق القصد . فهو أبلغ فى التحذير .

([1]) الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام (٢٣٣) .

ولا يقال إن القطامى جمع فى حديثه بين التأنى والعجلة معاً أما الحديث فخاص بالعجلة فلا يعد أوجز منه مبنى ولا أكمل منه معنى فإن الحديث وإن كان منطوقه فى التحذير من العجلة ، فإن مفهومه الترغيب فى الحلم والأناة .

وقد خلا بيت القطامى من روعة التشبيه والتمثيل الذى ورد عليه المثل النبوى .

وبيت القطامى على قصوره عن الحديث أبلغ من قول النابغة الذبيانى :

الرفق يمن ، والأناة سلامة　　　فاستأن حلمك فى أمورك تسلم (1)

فبيت القطامى خلا من التكرار ، وبيت النابغة كرر فيه المعنى ثلاث مرات .

فقوله " الأناة سلامة " هو نفس قوله : " الرفق يمن " ثم عاد فكرر : فاستأن حلمك .. " وهو نفس قوله : والأناة سلامة ، إلا أنه أوجز ..

والمعنى الذى أراده النابغة من البيت كله كان يكفى فى تأديته فقرة واحدة من فقراته الثلاث .

الرفق يمن – الأناة سلامة – استأن حلمك تسلم .

والفقرتان الأوليان أبلغ من الثالثة ، لتأديتها المعنى مع فضيلة الإيجاز .

ومما قيل فى معنى المثل النبوى ما يردده الناس كثيراً : فى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة .

---

(1) العمدة ١ /٢٨٥ .

فهو نظير قول القطامى فى الجمع لفظاً بين الترغيب فى الأناة والترهيب من العجلة إلا أنه – فيما أرى – أبلغ منه ، لسلامته مما أخذ على القطامى مع اختصاصه بتوازن فقرتيه – والسجع غير المتكلف .

وأجود من قول النابغة ، لأنه أعم منه معنى ، ولسلامته من التكرار الذى وقع فيه النابغة .

وجميعها دون المثل النبوى الحكيم ، لما فيه من روعة التأثير وإحكام البناء ودقائق النظم ، وخلوه من الفضول والحشو .

الفروق بين الحكم والأمثال

ويحسن بنا – الآن – أن نثبت فى إيجاز أهم الفروق بين الحكم والأمثال :

١- الحكمة قول صائب وليدة التجارب تساق فى درج الكلام لتقوية المعنى وتقريره .

والمثل : قول صائب مشهور له مورد ومضرب ويراد منه تشبيه مضربه بمورده .

٢- الحكمة قد تكون مشهورة كالمثل وشهرتها لا تدخلها فى حكم الأمثال لأنها لا يراد منها التشبيه قط ، ولا هى صالحة له .

أما المثل : فعدم شهرته لا يخرجه عن حكم الأمثال ما دام له مورد ومضرب يصح تشبيه ثانيهما بأولهما .

واعتبار هذه الشروط فى الأمثال حمل بعض أهل العلم على القول بأن القرآن الحكيم لا أمثال فيه ، بحجة أن القرآن لم يردد أمثالاً قيلت قبله يشبه فيها مضربها بموردها حتى تتوافر فيه شروط المثل .

والواقع أن هذا ملحظ وجيه ، وهو مع وجاهته لا يمنع من القول بوجود الأمثال فى القرآن ، على أن يكون ذكر المثل فى القرآن هو " المورد " لا المضرب ، ويكون ذكره وترديده بعد وروده فى القرآن هو " المضرب " .

فمثلاً قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : ٤٣] .

وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : ٢١] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف : ٥٣] .

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

وهذه الآيات وأمثالها صالحة للترديد فى مناسبات كثيرة فيكون ترديدها هو مضربها ، ووردوها فى الذكر الحكيم أولاً هو المورد ولا ضير فى ذلك أبداً وبهذا تخرج من الحرج الذى أبداه بعض أهل العلم كما تقدم .

المثل والتمثيل

مثلما فرقنا بين المثل والحكمة يحسن أن نفرق بين المثل بمعناه المتقدم ، وبين التمثيل .

* وقد سبق القول أن المثل ما توفر له حظ من الشهرة والوجازة وأريد منه تشبيه مضربه بمورده ، وخف جريانه على اللسان .

وما كان هذا شأنه ، كان مثلاً ، لتوافر خصائص الأمثال فيه .

أما التمثيل فشىء آخر غير المثل ، وإن صح أن يطلق على المثل وعلى التمثيل مثل .

وعند المقارنة الدقيقة بينهما فإنهما يفترقان ، لأن التمثيل لا يشترط فيه إلا التشبيه أما الوجازة والشهرة والمورد والمضرب فلا شأن لها به ، وإن وجد بعضها فيه – لأن الفرق كبير بين وجود الشىء غير مشروط ، وبين وجوده مشروطاً .

والوظيفة البيانية فى المثل هى : مجرد تنظير حالتين شابهت إحداهما الأخرى – تشبيه المضرب بالمورد – ولا يراد من المثل أكثر من هذا .

أما التمثيل ، فله – بعد إفادة التشبيه والتنظير – أسرار بيانية تختلف من صورة إلى صورة . وتتجلى تلك الأسرار فى التمثيل القرآنى ، والتمثيل النبوى فى أبهى صورة وأروع بيان :

وللإمام عبد القاهر الجرجانى كلام قيم فى تحليل صور التمثيل ومكنون معانيها وشدة تأثيرها فى النفوس ([1]) ، وقد حذا حذوه من جاء بعده من علماء البيان ومنهم الخطيب القزوينى . ([2])

- والمثل ليس فى حاجة إلى أداة تشبيه تعقد شبها بينه وبين ما شبه به بل هو يساق بلا أداة ، فلا يقال لمن أضاع فرصة خير كانت سانحة له ثم طلبها بعد الفوات : أنت كمن ضيعت فى الصيف اللبن ، لأن المثل يحكى على هيئته التى ولد عليها أول مرة . والتشبيه المجمع عليه فى المثل تشبيه مضمر فى النفس وليس مصرحاً به فهو استعارة ، وإنما أطلق عليه تشبيه لأن الاستعارة تعتمد التشبيه وتنبنى عليه .
- أما التمثيل فالأصل فيه النص على أداة التشبيه ، لأنه تشبيه حقيقى فإذا لم تذكر الأداة وجب تقديرها ، ويكون حينئذ تشبيها مؤكدا لدعوى الاتحاد بين الطرفين .

وما ورد منه فى البيان القرآنى والبيان النبوى قد التزم فيه ذكر الأداة دائماً ، سواء كان مدخولها لفظ " مثل " أو غيره ومن الأول قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة : ٥] .

([1]) انظر أسرار البلاغة (٩٢) وما بعدها .

([2]) انظر الإيضاح (١٢١) وما بعدها .

وقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ [الحشر : ١٥]

وقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ [الحديد : ٢٠] .

ومن الثانى قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [الكهف : ٤٥] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

وللقرآن الحكيم طرائق أخرى فى تراكيب التمثيل جديرة بأن تتبع ويستقصى القول فيها ومنها :-

* أن يذكر المثل ابتداء دون أن يصدر بما يفهم أنه تمثيل ثم يعقب عليه فيصرح بأنه تمثيل . ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ [محمد : ٣] .

ومن أمثلته صدر آية سورة الفتح : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ﴾ [الفتح: ٩].

* ومنها أن يصدر الكلام المراد التمثيل به لفظ مثل ، ثم لا يذكر بعده مشبهاً به بل يأخذ فى ذكر أوصاف تقوم مقامه . ومن أمثلة هذه الطريقة : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ [محمد : ١٥] .

وهذا التصرف فى التعبير حمل الكثيرين على أن يقولوا إن المراد من كلمة " مثل " فى هذه النصوص كلمة " صفة " أى ذلك وصفهم فى التوارة ، ووصفهم فى الإنجيل وصفة الجنة التى وعد المتقون .

وممن ذهب هذا المذهب : الجوهرى وابن سيدة ، وقتادة وابن قتيبة وأبو السعود صاحب التفسير المعروف [1] وحكى الزبيدى أن النُحاة يخرجون " مثل الجنة " على أنه مبتدأ خبره محذوف ، أى : فيما يتلى عليكم مثل الجنة [2] .

والذى ذكره الزبيدى هو قول سيبويه وأضاف إليه صاحب إرشاد العقل السليم رأيين آخرين ، أحدهما للنضر بن شميل الذى قدر الكلام هكذا : " مثل الجنة ما تسمعون " ومال صاحب الإرشاد إلى ترجيحه [3] .

والذى حملهم على هذه التخريجات فيما أرى هو خلو الكلام من مشبه به مع التصريح بلفظ المثل .

طريقة أخرى للتمثيل

* وللتمثيل طريقة أخرى فى البيان القرآنى ، لم يذكر فيها لفظ المثل وإنما يكتفى بذكر أداة التشبيه ، ومن أمثلة هذه الطريقة قوله تعالى : **﴿ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾**[النحل: ٩١، ٩٢]

" مثل حال من ينقض العهود والمواثيق بعد توكيدها بالأيمان بحال من غزلت غزلاً وقوّته وشدّته ، ثم عادتْ فنقضت غزلها ونكثته [4] " .

فهذا تمثيل أو تشبيه تمثيلى لم يذكر فيه لفظ المثل ، بل وفَتْ أداة التشبيه فيه بالمراد وأمثلته فى القرآن الحكيم كثيرة .

والكلام فى هذا يطول ، وما أردنا إلا التمثيل للاستعانة به على الكشف والإيضاح عن ما بين المثل والتمثيل من فروق .

---

(1) انظر إرشاد العقل السليم (٥ / ٥٨٨) وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة (٤١٣) .

(2) انظر تاج العروس ٨ /١١٠ .

(3) انظر تفسيره ٥ / ٥٨٩ .

(4) البحر المحيط ٥ / ٥٣٠ .

وفيما يلى أهم الفروق :

- المثل قول موجز مشهور له مورد ومضرب يـــردد فيـــه ، والتمثيـــل لا يشترط فيه الإيجاز ولا الشهرة ، وليس له مضرب يذكر فيه وإن كان لـــه مورد .

- التشبيه فى المثل يصدق على حالات كثيرة مشابهة يحسن ترديده فيـــها : أما التمثيل فالتشبيه فيه مقصور على الحالة التى ورد فيه أو الشأن فيه أن يكون كذلك .

- المثل عند ترديده يصبح استعارة تمثيلية أو مجازاً مركباً دائماً يستعار فيـه المورد للمضرب .

أما التمثيل فليس بلازم فيه أن يكون مجازاً ، بل يجوز فيه ذلك – كما سيأتى – والكثير من صوره لا تخرج عن التشبيه الحقيقى (تشبيه تمثيلـــــى) استعملت فيه الألفاظ فى حقائقها اللغوية .

- أداة التشبيه فى المثل لا وجه لها إلا إذا كانت الأداة هى أصل المثل([1]).

أما فى التمثيل فأداة التشبيه أصل فيه ، فإذا لم تذكر لفظـــاً قُـدرتْ ، وتجرى عليه أحكام التشبيه المحذوف الأداة حينئذ ، من إفادة التوكيد والمبالغـة إذا قُرن بحذف الوجه ، وهو فى التمثيل كثير غالب .

- كثيراً ما يقترن " التمثيل " فى البيان القرآنى بكلمة : الضرب " على وجـه الخبر " ضرب ([2]) .

([1]) كثير من الأمثال مصدرة بأداة التشبيه عند موردها ، مثل " كمبتغى الصيد فـــى عرينـــة الأسد " ويضرب لمن أورده الطمع المهالك ، وهو نصف بيت للطرماح (المســـتقصى جـــ٢ص٢٣٢) فهذا وأمثاله عند ترديده يحكى على حالته لأن التركيب كله مشبه به.

([2]) كقوله تعالى : ﴿ وضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ ﴾ [النحل : ٧٦] .

أو الأمر والإنشاء " اضرب " ([1]) وقد يأتى الخبر فى صورة المضارع كذلك يضرب ([2]) .

ويأتى الإنشاء فى صورة النهى " فلا تضربوا " ([3]) ومعنى الضرب هنا " الذكر " .

أما فى المثل فلا يصرح بالضرب ، بل هو أمر مضمر فى النفس ومعنى الضرب فى المثل هو " الاستعمال " أى استعمال التركيب الذى ذكر أولاً فى مورده مستعاراً لمضربه .

فقوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ معناه اذكر لهم مثلها ، وهو بقية الآية الكريمة ﴿ كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ ﴾ هذا فى التمثيل .

أما المثل فإن من يقول لآخر : أن ترد الماء بماء أكيس " يحثه على حفظ ما فى يده فلا يبدده حتى يجد غيره فإنه قد ضرب له مثلاً باستعماله هذا التركيب . وبدهى أنه لم يقرنه به لفظاً ، وإنما الاستعمال نفسه هو الضروب ، وهذا من أخفى الفروق بين المثال والتمثيل .

معنى " الضرب " للأمثال

حقيقة الضرب فى اللغة هى إمساس جسم بجسم بعنف ([4]) هذا هو الأصل فيه ، ويخرج إلى معان كيثرة منها :

الجعل والاعتمال – السير فى الأرض – والوضع والصنع والنصب والمنع والإلزام . يقال : ضرب فى الأرض إذا سار فيها . وضربت له مثلاً

([1]) كقوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف : ٣٢]

([2]) آية (٣) من سورة القتال .

([3]) آية (٧٤) من سورة النحل .

([4]) البحر المحيط ١ / ١١٩ والجسم الأول هو المضروب والثانى المضروب به .

وضعته له وصنعته وجعلته واعتملته ، وضربت الخيمة نصبتها وأقمتها ، وضربت عليه كذا إذا ألزمته به ، وضربت على يديه أى منعته وأفسدت قصده . (1)

ويتعدى بنفسه مثل : ضربت مثلاً ، وبالحرف مثل : ضربت عليه ، وضربت له – وضربت فى الأرض .

فما معنى ضرب الأمثال والضرب للتمثيل إذن ؟

كل تلك المعانى صالحة لأن يفسر بها الضرب فى التمثيل والأمثال ، بيد أن أبا هلال اختار أن يكون بمعنى السير فقال :-

" وضرب المثل جعله يسير فى البلاد ، من قولك ضرب فى الأرض إذا سار فيها (2) " .

والزمخشرى يفهم من كلامه أن معنى ضرب الأمثال هو اشتهارها فقد قال فى مقدمة كتابه : " ولأمر ما سبقت أراعيل الرياح ، وتركتها كالراسفة فى القيود بتدارك سيرها فى البلاد مصعدة ومصوبة ، واختراقها الآفاق مشرقة ومغربة (3) " .

" وكذلك ذهب الشريف الرضى فشرح ضرب الأمثال بنصبها وذيوعها ومعان أخرى قريبة منها (4) " .

ومعلوم أن الأصل فى ضرب المثل " ذكره " وعدل عن الأصل إلى " الضرب " .

---

(1) انظر تاج العروس وصحاح الجوهرى والمصباح المنير مادة (ضرب) .

(2) جمهرة الأمثال ١ / ٧ .

(3) المستقصى ١ / ٢٠ .

(4) تلخيص البيان (١٠٧) .

وقد مضى تفسيرهم لمعناه ، ويتلخص من نقولنا عنهم أن ضرب المثل مستعار لذكره ولا يستعار شئ لشئ إلا لعلاقة تجمع بينهما ، هى المسماة بـــ " الجامع " فى الاستعارة وبـــ " الوجه " فى التشبيه . ولم أر من نـــص علـــى " الجامع " هنا صراحة ، ولكن يحضرنى فيه بيان لأستاذنا الشيخ عبد الغنـــى عوض الراجحى كان قد أبداه أيام الطلب ، يقول : " إن المراد مـــن ضـــرب المثل ذكره مؤثراً فى النفوس تأثيراً قوياً اقناعاً وإمتاعاً كما يؤثر الضرب فـــى المضروب " .

وأرانى ميالاً لهذا التوجيه ، لأنه يجعل " الجامع " بين المســـتعار لـــه (الذكر) وبين المستعار منه (الضرب) قوة الإحساس والتأثير فى كل منهما .

والمثل إذا أُحسن إيراده فى الكلام كان له وقع عظيـــم فـــى النفـــوس وإحساس قوى لا يكون لعادى الكلام ، لأنه كما سبق يجمع بين الإيجاز وحسن التشبيه ، والإصابة والصدق ، وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة .

التحليل البلاغى للتمثيل والأمثال :

المثل المضروب المشبه به مضربه بمورده لا ينفك بحال عن كونـــه مجازاً مركباً أو استعارة تمثيلية شبهت فيها هيئة تركيبية بهيئة تركيبية أخـــرى (المضرب بالمورد) فلكل مثل حالة أولى ورد فيها وحالات أخـــرى يـــردد فيها ، فمورد المثل واحد : أما المضرب فمتعدد . ومورد المثل شبيه بوضـــع المفـــرد فـــى أن كلا منهما حقيقتان لغويتان .(1)

وترديد المثل فى مضاربه شبيه بالمجاز فى المفـــرد ، فـــى أن كـــلاً منهما قد نقل من الأصل اللغوى له إلى الاستعمال المجازى الطـــارئ عليـــه

---

(1) شراح التلخيص يدعون " التركيب عموماً " بالوضع النوعى . وهو عندهم قسيم الوضـــع الافرادى شروح التلخيص ٤/١٤٦.

والمسوغ للنقل هو علاقة " المشابهة " بين المنقول والمنقـــول إليـه أو هـو " الجامع " كما مر .

قال الخطيب القزويني : " وأما المجاز المركب فهو اللفـظ المركـب المستعمل في ما شبه بمعناه الأصلي ومجيؤه على حد الاستعارة كان بسـبب حذف المشبه من الكلام واطراح أداة التشبيه لأن الأصل فيه أن يقـال : أراك في ترددك كمن يقدم رِجْلاً ، ويؤخر أخرى . (1)

والمعنى : تقدم رجلاً تارة وتؤخر أخرى . فالرِجْل المتصـرف فيـها واحدة لا رِجْلان ، وبعض الناس يحسب المعنى : تقدم رجلاً وتؤخر رجـلاً أخرى . والتركيب من حيث الظاهر يحتمل هذا التخريج لحذف مفعول "تؤخر" فصلح لتقدير مفعول مغاير لمفعول " تُقَدم " وهذا غير صحيـح ، لأن هيئـة المتردد أن يقدم الرِجْل مرة ثم يعود فيؤخرها هي مرة أخرى .

أما تأخير رجل أخرى غير المقدمة فلا وجود له في حالة المتردد قطعاً وكذلك فإن الطباع لم تجر به .

ولا حجة لمن يستدل على اختلاف الرِجْل المقدمة عن الرجل المؤخـرة بقوله : " فاعتمد على أيهما شئت " فثنى المضاف إليه " أي " وهو " همـا " وجعل الضمير عائداً على " الرِجْلين " .

لا حجة في هذا لأن الضمير عائد على التقديـم والتـأخير ؛ لا علـى رجلين .

وظاهر كلام الإمامين (عبد القاهر والخطيب) أنهما متفقان علـى أن في العبارة مجازاً مركباً (استعارة تمثيلية) وأن المعنى المـراد منـها هـو التردد . والذي حملهما على هذا هو علاقة المشابهة بين الحالتين وما أجمـع

---

(1) انظر الدلائل (54) .

عليه الشيخان تشبيه التمثيل ، للمبالغة فى التشبيه ، أى تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى . ثم تدخل المشبهة فى جنس المشبه بها ، مبالغة فى التشبيه فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه " ([1]) .

ثم مثّل الخطيب لهذا بقول الوليد بن يزيد إلى مروان بن محمد حين تباطأ فى عقد البيعة له :

" فإنى أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، فإذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت " ([2]) .

وفسره فقال " شبه صورة تردده فى المبالغة بصورة تردد من قام ليذهب فى أمر ، فتارة يريد الذهاب فيقدم رجلاً ، وتارة لا يريد فيؤخر أخرى ([3]) " .

فالصورة المشبهة صورة نفسية معنوية هى التردد فى عقد البيعة بين الإقدام عليها والإحجام عنها ، والصورة المشبهة بها صورة يغلب عليها الحس ، وهى تقديم الرجل تارة وتأخيرها تارة أخرى .

وقد ردد الإمام عبد القاهر من قبل هذه العبارة ، مصدراً لها بقوله : " وأما التمثيل الذى يكون مجازاً لمجيئك به على حد الاستعارة فمثاله قولك للرجل يتردد فى الشيء بين فعله وتركه : أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى".([4])

ليس بلازم فى تحليل التركيب بلاغياً ، بل يجوز فيه حمل الكلام على الكناية عن الصفة ، بل إن القول بأنه من باب الكناية أظهر مما أجمعا

([1]) الإيضاح (٤٣٨) شرح وتعليق د. محمد عبد المنعم خفاجى .

([2]) الإيضاح ٤٣٨.

([3]) السابق .

([4]) دلائل الإعجاز (٥٤) .

عليه . لأن الاستعارة مجاز ، والمجاز باتفاقهم لابد فيه من قرينة تمنـــع مـــن إرادة المعنى الأصلى ، ولا قرينة هنا ، لأن المعنى المراد ــ وهو الـــتردد ــ لا يمتنع فيه إرادة المعنى الأصلى ، وهو تقديم الرجل ثم تأخيرها حقيقة .

وربما كان الحامل للشيخين أن قائل تلك العبارة لم ير من بعث بها إليه يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، وإنما علم بتردده عن البيعة فالرؤيـــة علميـــة لا بصرية بدليل أنه أرسل إليه كتاباً ، ولم يكلمه مشافهة وإذا صح هذا التوجيـــه ــ وأراه صحيحاً ــ فإنه مفيد فى حالة المورد فى حمل الكلام علـــى المجـــاز ويكون عدم الرؤية البصرية هى القرينة المانعة ، من إرادة المعنى الأصلى .

وهذا التوجيه أولى مما ذهب إليه شراح التلخيص من أنه مجاز متفرع عن الكناية (1) ؟!

أما فى حالات المضرب فإن المعول عليه ضعيف ، فحالات المضرب غير مضبوطة ، فإذا قال أحد لآخر ، وقد رآه متردداً بين الإقدام والإحجـــام " أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى " ، فكيف يحمل هذا الكلام على المجاز قـــولاً واحداً ولا قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلى ؟!

إن قولهم : " فلان طويل النجاد " ؛ " وبعيدة مهوى القـــرط " كنايتـــان عن الطول بلا خلاف ، سواء كان للموصوف نجاد وقرط ، أو لم يكن علـــى اعتبار أنه لو كان له نجاد لكان طويلاً ولو كان " لها " قرط لكان مهواه بعيـــداً فالكناية لا يلزم فيها وجود المعنى الأصلى ، وكذلك لا يمتنع إن وجد .

وأياً كان القول المذكور : أراك تقدم " مجازاً تمثيليـــاً أو كنايـــة فـــإن للبلاغة فيه لحمته وسداه ، هذا من حيـــث صياغـــة العبـــارة ومـــن حيـــث بناؤها .

---

(1) انظر شروح التلخيص ٤/١٤٦ وما بعدها .

أما من حيث ضرب المثل بها فهى استعارة تمثيلية بلا نزاع شبه فيها المضرب بالمورد ، لأن المستعار هو التركيب نفسه المنزل منزلة المفرد في المجاز الإفرادى ، وكون المثل عند ترديده استعارة تمثيلية غير منظور فيه إلى هيئته فى حالة المورد ، أيا كان فيها حقيقة أو مجازاً .

فترديدنا لقول الشاعر :

.... **كالمستجير من الرمضاء بالنار**

يصبح عند ضرب المثل به مجازاً تركيبياً مع أنه فى الأصل حقيقة لغوية ، لأنه تشبيه حقيقى صريح .

ومثله قول لآخر :

.... **كمبتغى الصيد فى عرينة الأسد ؟**

وقولهم : إن الحديد بالحديد يفلح ([1]) " كلام جرى مجرى الحقائق اللغوية لكنه عند التمثيل به يصبح مجازاً مركباً " .

وقوله : من نجل الناس نجلوه ([2]) هو فى أصله مجاز معناه .

من تكلم فى الناس بالسوء تكلموا فيه بمثله ، والنجل من معانيه الحز والقطع بالمنجل وهو " آلة الحصاد " ، وحين يضرب به المثل يصير استعارة تمثيلية قطعاً وهو من صور مجاز المجاز .

وصفوة القول : إن المثل حين يشبه مضربه بمورده فهو ـ دائماً ـ مجاز استعارى مركب (استعارة تمثيلية) ما دامت العلاقة فى النقل هى " المشابهة " شريطة أن لا يتصرف فيه ، بل يترك على هيئته الوارد عليها بلا

([1]) الأمثال لابن سلام .

([2]) الأمثال لابن سلام .

أدنى تغيير ، فإن حصل فيه تصرف فلا يكون مجازاً ، لأنْ شرط الاستعارة أن يحافظ فيها على " المستعار " كما يعار الثوب وغيره من المنقولات التي يحصل الإذن بالتمتع بمنافعها دون التصرف فى ذواتها وأعيانها والتغيير فى المثل يخل بشرط المجاز فيه ، فيصبح الكلام بعد التغيير شيئاً آخر غير صورة المثل .

ويستوى فى كونه عند الضرب مجازاً : الحقيقة والتشبيه والكناية والمجاز ، إن كان الأصل وارداً على شئ منها ، وهذا أمر لا أرى فيه خلافاً.

هل التمثيلية تبعية ؟

قسم البلاغيون الاستعارة قسمين كبيرين :

أحدهما : الاستعار التصريحية وضابطها أن يصرح بذكر المشبه به فيها ، ويطوى ذكر المشبه من البين .

والآخر : أن يحذف المشبه به ويبقى المشبه على أن يرمز للمشبه به بذكر لازم من لوازمه يكون دليلاً على المحذوف ، ويطلقون على الاستعارة فى هذه الصورة الاستعارة المكنية .

ثم يعودون ويقسمون الاستعارة التصريحية قسمين آخرين أو نوعين :

إحداهما : الاستعارة الأصلية ، وضابطها : أن يكون المستعار فيها اسم جنس أو جامد لم يؤخذ من غيره كالمصادر ، مثل استعارة النور للعلم ، والحياة للإيمان والأسد للرجل الشجاع ، والعدل للعادل والنطق للإبانة ، والضحك لتفتح النوَّر وهكذا ... وسميت أصلية لأنّ المجاز جرى فيها فى نفس الكلمة ، بلا وساطة .

وثانيتهما : تبعية وضابطها أن يكون المستعار فيها فعلاً أو صفة مشتقة ، أو حرفاً من حروف المعانى . وسميت تبعية لأن المجاز جرى فى المصادر أولاً ثم سرى إلى فروعها .

وهذا كله جار فى الاستعارة المفردة دون المركبة (التمثيلية) التى مرَّ القول فيها . وسكوتهم عن تفصيل القول فى نسبتها هو الذى أملى علينا هذا السؤال هل التمثيلية تبعية ؟

ولا خلاف فى أنها استعارة تصريحية لانطباق ضابطها عليها فهى قد صرح فيها بالمشبه به وطوى ذكر المشبه . وبذلك صارت تصريحية قولاً واحداً .

ولكن إلى أى نوعى التصريحية تنتمى ؟ لم أجد فى كتاباتهم ما يحسم الأمر فيها اللهم إلا ما ذكره بعض شراح التلخيص تعقيباً على قول الزمخشرى فى شرح قوله تعالى :﴿ **أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ** ﴾ [البقرة : ٥] فقد قال فيه : " ومعنى الاستعلاء فى قوله تعالى ﴿ **أُولَئِكَ عَلَى هُدًى** ﴾ أنه مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم وتمسكهم به ، فشبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه (١) " وكلام الزمخشرى هنا لا نزاع فيه لجريه على الأصول المقررة بلاغة ، ولكن بعض الشراح قال معلقاً عليه : يعنى أن هذه استعارة تمثيلية تبعية " أما التبعية فلجريانها أولاً فى متعلق معنى الحرف وتبعيتها فى الحرف وأما التمثيلية فلكون كل من طرفى التشبيه حالة منتزعة من عدة أمور (٢) " .

---

(١) الكشاف (١/١٤٢-١٤٣) .

(٢) شروح التلخيص ٤/١١٢-١١٣.

وقد دفع السيد هذا التوجيه ، واستدل على دفعه بأن طرفي التشبيه في هذه الاستعارة مركبان فلا يكون معنى الحرف مشبهان أصالة حتى يمكن سراية التشبيه منه ، لأن التشبيه إنما وقع بين المركبين لا بين المفردين (1) .

هذا كلام السيد ، وهو دفع وجيه كما ترى . ونضيف إلى ما قاله السيد أن :-

(أ) الاستعارة التمثيلية تتكون من عدة ألفاظ كما تقدم بخلاف الأصلية والتبعية فكلتاهما تجريان في المفردات . فمن اليسير فيهما تحديد حقيقة المستعار من كونه جامداً أو مشتقاً ، وسيتبع ذلك تحديد الاستعارة نفسها أصلية هي أم تبعية ؟

أما التمثيلية فقد تتكون من جوامد ومشتقات معاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾ [الأعراف : ١٥٤] صالح لإجراء التمثيلية فيه ، والتركيب جمع بين الحروف والفعل ، والعلم " موسى " والاسم الجامد (الغضب) فأيهما تراعى جهته ؟ ما يقتضى تبعيتها من الحرف والفعل ، أو ما يقتضى أصالتها من ﴿ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾ هذه واحدة .

(ب) والثانية إن الاستعارة التمثيلية لا تجوز في مفرداتها ، فهي مستعملة في حقائقها اللغوية ، والتجوز واقع في مجموع التركيب وكون الاستعارة أصلية أو تبعية منظور فيه إلى حقيقة اللفظ المنقول ، ولا نقل هنا ، فيمتنع كون الاستعارة التمثلية أصلية أو تبعية مع التسليم بأنها تصريحية لكون المصرح بذكره فيها الصورة المشبهة بها ، ويترتب على هذا أن الاستعارة التصريحية ثلاثة أنواع لا نوعان ، والأنواع الثلاثة هي :

١- الاستعارة التصريحية الأصلية .

---

(1) حاشية السيد على الكشاف نفس الموضع .

٢- الاستعارة التصريحية التبعية .

٣- الاستعارة التصريحية التمثيلية .

التمثيل وصوره

يطلق التمثيل على أربعة معان أو صور :

١- التشبيه التمثيلى وهو حقيقة لغوية لم يصرح فيه بذكر المثل .

٢- التشبيه التمثيلى المصرح فيه بذكر المثل على نحو ما هو من البيان القرآنى والبيان النبوى ، وهو كسابقه حقيقة لغوية بيد أنه مثل خاص مضروب لحالة خاصة لا يتعداها لغيرها فمورده ومضربه واحد ، كالأمثال المضروبة للمنافقين وللحياة الدنيا فى القرآن الحكيم ، والأمثال المضروبة للعلم والهدى وللأنبياء وللجليس الصالح وجليس السوء فى البيان النبوى .

٣- المثل الذى له مورد ومضرب المشبه مضربه بمورده الذى له حظ من الشهرة .

٤- الاستعارة التمثيلية وهى نوعان :

(أ) تمثيل استعارى ليس مثلاً كقوله تعالى : ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

(ب) تمثيل على حد الاستعارة شبيه بالمثل وليس بمثل لعدم الشهرة مثل : يخط على الماء ، ويرقم فى الهواء ، ويطرق فى حديد بارد . كلها بمعنى واحد إذا كان يعمل بلا جدوى .

الفهـرس

من أسرار البيان
في حديث
سيد الاستغفار

أ٠د٠ رفعت إسماعيل السوداني

أستاذ البلاغة والنقد ووكيل الكلية

نص الحديث :

عن شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ ـ رَضِيَ اللَّه عَنْه ـ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال سَيِّدُ الاستِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ العبد : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ . مَنْ قَالَهَا بِالنَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَنْ قَالَهَا بِاللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ . (1)

مناسبة حال الراوى لمضمون الحديث :

راوى الحديث شداد بن أوس بن ثابت الخزرجى ابن أخى حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ كنيته أبو يعلى أو أبو عبد الرحمن ، وهو أنصارى بخارى مدنى قال فيه أبو الدرداء : إن الله عز وجل يؤتى الرجل العلم ولا يؤتيه الحلم ويؤتيه الحلم ولا يؤتيه العلم وأن أبا يعلى ممن آتاه الله العلم والحلم ، وقيل : فضل سداد ابن أوس بخصلتين : ببيان إذا نطق وبكظم إذا غضب .

وعند الطبرانى أنه كان عند رسول الله ﷺ - وهو يجود بنفسه فقال : مالك ياشداد ؟ قال ضاقت بى الدنيا فقال : ليس عليك إن الشام سيفتح وبيت المقدس سيفتح وتكون أنت وولد ك من بعدك أئمة فيهم إن شاء الله تعالى .

وكان عالما حليما كثير العباده والورع والخوف من الله تعالى ، وروى عن النبى ﷺ خمسين حديثا ، روى البخارى منها حديثا ومسلم آخر وروى عنه ابنه يعلى وجماعة من التابعين ، سكن جمص ، ومات ببيت المقدس سنه ٥٨هـ

---

(1) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر تحقيق طه عبد الرؤوف سعد وآخرون ١١٥/٢٣-١١٨ كتاب الدعوات باب فضل الاستغفار رقم ٦٣٠٦ ط ١٩٧٨م ، مكتبة القاهرة .

وقيل : ٤١ هـ وقيل : ٦٤هـ وهو ابن خمسة وسبعين عاماً وقبرة بظاهر باب الرحمة ، باق إلى زمن الإمام النووى .([1])

وقال حسان فيه وفى أبيه :

وَمِنَّا قَتِيلُ الشِّعْبِ أَوْسُ بْنُ ثَابِتٍ شَهِيدًا وَأَسْنَى الذِّكْرِ مِنَّى الْمَشَاهِدُ

وَمَنْ جَدُّه الأدْنَى أَبِى وابْنُ أُمِّهِ لأُمٍّ أَبِى ذَاكَ الشَّهِيدُ الْمَجَاهِدُ .

يريد فى البيت الأول والد شداد بن أوس راوى حديث سيد الاستغفار .([2])

أخى القارئ ألا تحب أن تقتدى بسيدنا شداد وتطلب من الله تعالى أن يزينك بالعلم والحلم معاً .

التحليل :

سيد الاستغفار :

لفظ "سيد " فى اللغة له معان عدة منها : الرئيس ، والذى فاق غيره بالعقل والمال والنفع والدفع والمعطى ماله فى حقوقه ، والمعين بنفسه ، والذى لا يغلبة غضبه ، والعابد ، والورع ، والحليم وكل مقهور مغمور بحلمه ، والكريم ، والملك ، والسخى ، ومولى العبد ، والزوج .

وفى الحديث " قالوا : فما فى أمتك من سيد ؟ قال : بلى من آتاه الله مالا ورزق سماحة فأدى شكره وقلَّت شكايته فى الناس " . ([3])

([1]) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ١٩٦،١٩٥/٢ رقم ٣٨٤٢ دار الكتب العلمية بيروت وتهذيب الأسماء واللغات للأمام النووى ٢٤٢/١ رقم ٢٤٧ دار الكتب العلمية ببروت .

([2]) شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصارى ضبط وتصحيح عبد الرحمن البرقوقى ١٧٣ ، ١٧٤ ، دار الأندلس بيروت .

([3]) تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدى تحقيق على شرى مادة سود ، دار الفكر بيروت . ١٩٩٤م.

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

وبين – ﷺ – أنه " لو لم تذنبوا لذهب الله تعالى بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم " . (1)

وكان الصحابة يَعُدُّون لرسول الله – ﷺ – فى المجلس الواحد مائة مرة " رب اغفر لى إنك أنت التواب الرحيم " . (2)

وبين لنا رسول الله – ﷺ – أن " من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل هَمٍّ فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب " . (3)

وأرشدنا – ﷺ – إلى صيغ الاستغفار :

فقد " كان رسول الله – ﷺ – إذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثاً وقال : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام " . (4)

وأنه " كان – ﷺ – يكثر أن يقول قبل موته : سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه " . (5) وأن " من قال : استغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد فَرَّ من الزحف " (6) إلى غير ذلك مما ورد فى الاستغفار .

وأفضل صيغ الاستغفار صيغة " سيد الاستغفار موضوع البحث ولذلك أسباب ستتضح من خلال الدراسة – إن شاء الله تعالى – .

---

(1) السابق نفسه ٤/٧٣٣ .

(2) السابق نفسه ٤/٧٣٣ – ٧٣٤ .

(3) السابق نفسه ٤/٧٣٤ .

(4) السابق ٤/٧٣٨ ، ٧٣٩ عن ثوبان .

(5) السابق نفسه ٤/٧٣٩ عن عائشة .

(6) السابق نفسه ٧/٧٣٤ ، ٧٣٥ عن ابن مسعود .

* **ومن مظاهر البلاغة فى اللفظ الشريف " سيد الاستغفار "**

أولاً : الاستعارة المكنية حيث شبه الاستغفار بإنسان ثم حذف المشبه به ورمز إليه بلازمه وهو " سيد " . وإسناده إليه استعارة تخيلية وفى ذلك تصوير للمعقول بالمحسوس وتجسيد للمعانى فلما كان هذا الدعاء جامعاً لمعانى التوبة كلها صار بمنزلة السيد من الناس الذى يقصد فى الحوائج ويرجع إليه فى الأمور ، وفى ذلك تأكيد للمعنى وتقوية له وكأنه قضية بدليلها فكما أن السيد من الناس يقضى حوائج من يسوسهم ويصونهم عن الضرر ويجلب لهم النفع كذلك هذا الدعاء ببركة ما يحتويه من المعانى الشريفة والأغراض السامية تغفر الذنوب ويستجاب الدعاء وتجلب الخيرات وتدفع المضار .

ثانياً : " أل " فى " الاستغفار " للعهد العلمى وهو الاستغفار المعهود شرعاً وهو الذى يتحقق فيه شرط القبول من التوبة الصادقة بشروطها الأربعة أو بعبارة أخرى : الاستغفار المراد شرعاً هو ما كان بالقول والفعل وإلا عُدَّ كذباً واستهزاء وتلاعباً .

ثالثاً : فيه إجمال مشوق إلى ما يأتى بعده من تفصيل وفى ذلك تثبيت المعانى وترسيخها فى النفس فلا تزول عن خاطر المؤمن أبداً ، وفيه حث على تعلمها وحفظها والمواظبة عليها لما تحمله من فوائد عظيمة فى الدنيا والآخرة .

رابعاً : أول ما يقرع سمع القارئ لفظ " سيد " مما يدخل على نفسه الفرح والسرور بما يحمله لفظ " سيد " من ظلال التفاؤل والبشرى بتحقق الإجابة وغفران الذنوب وفى ذلك براعة استهلال حيث بدئ الحديث بكلام مناسب للمقصود . (١)

---

(١) شروح التلخيص السعد وآخرون / ٥٣٤/٤ دار السرور - بيروت - صورة ، والأطول للعصام ٢٥٧/٢ المطبعة السلطانية - ١٢٨٤هـ .

" أن يقول العبد " :

ثم يأتى الخبر بالمصدر المؤول فتتم جملة القول مشوقة إلى مقُوله الـــذى يفصله الحديث الشريف وفى ذلك تحفيز وشحذ للهمة فى أن تتهيأ له فإذا جـــاء صادف نفساً مشوقة وعقلاً واعياً يحفظه ويعيه ويجعله منهجاً وسلوك حياة .

و " أل " فى " العبد " :

للعهد الذهنى وهى التى يشار بها للحقيقة ضمن فرد مبهم بمعنى أن يـأتى المعرف بلام الحقيقة مرادا به فرد مبهم " غير معين " من أفراد الحقيقة باعتبار عهديته فى الذهن لاشتمال الحقيقة عليه لقرينة دالة على ذلك مثـــل قولـــك : " ادخل السوق " وليس بينك وبين مخاطبك معهود فى الخارج يشار إليـــه بـــاللام فالمراد بالسوق فرد من أفراد جنس الســـوق بقرينـــه قولـــك : " ادخـــل " لأن المخاطب لا يستطيع أن يدخل جميع أفراد السوق بل الذى يمكنه أن يدخل سـوقاً واحدة منها .

ومثل قولهم : " المدرسة تعلمه ، والسجن يؤدبـــه ، والمســـجد يهذبـــه ، والعصا توجهه . والفرق بين العهد الخارجى والعهد الذهنـــى هـــو أن العـــهد الخارجى مشار فيه إلى حصة من الحقيقة واحدة أو اثنتيـــن أو جماعـــة تقـــدم العلم بها ، والعهد الذهنى مشار فيه إلى نفس الحقيقة ومفهوم المســـمى ضمـــن فرد مبهم منها . (1)

وذكر المسند إليه " الفاعل " للإشارة إلى ما يلقيه لفظ " العبد " من ظـــلال وإيحاءات تنعدم لو حذف أو ذكر مكانه لفـــظ غـــيره فمـــن هـــذه الإيحـــاءات والإشارات :

---

(1) شروح التلخيص ٣٢٦/١ - ٣٢٧ .

١- فى التعبير بلفظ " العبد " إشارة إلى مراعاة الداعى بـ "سيد الاستغفار" لقواعد العبودية فى قلبه ولسانه وجوارحه . (١)

٢- وفيه إشارة إلى أن من فى السموات ومن وفى الأرض لله تعالى عبيداً وملكاً وأن الملائكة الذين عنده تعالى لا يستكبرون عن عبادته (٢) . وسمى أولياءه عباد الرحمن (٣) ، وسمى أهل الجنة عباد الله (٤) ، وجعل العبودية وَصْفَ أكمل خلقه وأقربهم إليه من الأنبياء داود (٥) ، وأيوب (٦) وإبراهيم وإسحاق ويعقوب (٧) ، وسليمان (٨) ، والمسيح (٩).

ووصف أكرم خلقه عليه وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية سيدنا محمد - ﷺ - فى أشرف مقاماته حيث ذكره فى مقام إنزال الكتاب عليه (١٠) ، وفى مقام التحدى بأن يأتوا بمثل القرآن، وفى مقام الدعوة إلى الله تعالى (١١)، وفى مقام الإسراء (١٢) .

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم ١/١٢٣ - ١٣٧ دار الحديث بالقاهرة ط أولى ، ١٩٨٣م .

(٢) سورة النساء : الآية ١٧٢ ، وسورة الأعراف : الآية ٢٠٦ ، وسورة الأنبياء : الآية ١٩-٢٠ .

(٣) سورة الفرقان : الآية ٦٣ .

(٤) سورة الدهر : الآية ٦ .

(٥) سورة ص : الآية ١٧ .

(٦) سورة ص : الآية ٤١ .

(٧) سورة ص : الآية ٤٥ .

(٨) سورة ص : الآية ٣٠ .

(٩) سورة الزخرف : الآية ٥٩ .

(١٠) سورة البقرة : الآية ٢٥ ، وسورة الفرقان : الآية ١ ، وسورة الكهف : الآية ١ .

(١١) سورة الجن : الآية ١٩ .

(١٢) سورة الإسراء : الآية ١ .

وأخبر عن نفسه - ﷺ - بأنه عبد حيث يقول : لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم فقولوا عبد الله ورسوله " ويقول : " أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد " كما جاء وصفه - ﷺ - في التوراة بعبد الله ورسوله . [1]

٣- وفيه إشارة إلى أن البشارة والأمن المطلقين لعباد الله [2] وأن الله تعالى عزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به . [3]

٤- وفيه إشارة إلى أن إحسان العبودية أعلى مراتب الدين وهو الإحسان كما جاء في الحديث عند سؤال جبريل له - ﷺ - عن الإحسان : " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " . [4]

٥- وفيه دلالة على أن العبد لا ينفك من العبودية في الدنيا وفي القرب وفي يوم القيامة حتى إذا دخل العبد الجنة انقطع التكليف وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحاً مقروناً بأنفاسهم لا يجدون له تعباً ولا نصباً ، وأن العبد كلما تمكن في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه . [5]

٦- وفيه تأكيد على العبودية الخاصة التي هي عبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر وأن أهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته وقد شرفوا بإضافتهم إليه تعالى . [6]

---

[1] انظر مدارج السالكين ١/١١٥-١١٦ .

[2] سورة الزمر : الآية ١٨ ، وسورة الزخرف : الآية ٦٨ - ٦٩ .

[3] سورة الحجر : الآية ٤٢ ، وسورة النحل : الآية ٩٩-١٠٠ .

[4] مدارج السالكين ١/١١٦-١١٧ .

[5] المرجع السابق نفسه ١/١١٧ ، ١١٨ .

[6] المرجع السابق نفسه ١/١١٨ ، ١٢٠ .

٧- وفيه إشارة إلى أن العبد هو الذى تحققت فيه مراتب العبودية بنوعيها :

العلمية : بالعلم بذاته تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه وتنزيهه عما لا يليق به ، وبالعلم بدينه الأمرى الشرعى وهو الصراط المستقيم الموصل إليه ، وبدينه الجزائى المتضمن ثوابه وعقابه .

والعملية : فكان من أصحاب اليمين بل يرتقى إلى درجة السابقين المقربين الذين قاموا بالواجبات والمندوبات وتركوا المحرمات والمكروهات وزهدوا فيما لا ينفعهم فى معادهم وتورعوا عما يخافون ضرره بل وصل الأمر عندهم أن انقلبت المباحات فى حقهم طاعات وقربات بالنية . (١)

٨- وفيه إيحاء بأن العبد الذى تحقق فيه ما سبق يدرك التوجيه الإلهى للمؤمنين وتحذير الله لهم من أن يكون القول عندهم غاية فى ذاته دون أن يقترن القول بالعمل فيما يدخل تحت طاقة الإنسان فى قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ . (٢) بما يحمله من الاستفهام الإنكارى الذى يحمل التحذير والعتاب الشديد لقبح الاكتفاء بالأقوال عن الأفعال المتاح العمل بها بلا عناء شديد إذا كان العمل تطوعاً . (٣)

" **اللهم** " :

من أشهر استعمالاتها النداء المحض كما هنا ، وأصلها : يا ألله والميم زائدة وليست بأصل الكلمة وهذه الميم على مذهب سيبويه والبصريين زائدة فى

---

(١) المرجع السابق نفسه : ١/١٢١-١٢٣ .

(٢) سورة الصف : الآية ٢ ، ٣ .

(٣) التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الكريم د . عبد العظيم المطعنى ٤/٢٤٩ ، ٢٥٠ مكتبة وهبه ط أولى ١٩٩٩م .

الآخر عوضاً عن حرف النداء ولذا لا يجمع بينهما وزيدت في الآخر لئلا يجتمع زيادتان في الأول ، وخصت الميم لأنها هي التي عهدت زيادتها في الآخر ، وقيل : الله اسم للذات .

وقيل : الله اسم للذات والميم للصفات التسع والتسعين فجمع بينهما إيذاناً بالسؤال بجميع أسمائه تعالى وصفاته قال الحسن البصري : اللهم مجتمع الدعاء وقال غيره : من قال " اللهم " فقد دعا الله بجميع أسمائه وصفاته .

واختير الإتيان بـ " اللهم " في الأدعية كثيراً لما فيه من الدلالة على قرب الله تعالى من الداعي قرب علم لا قرب مسافة وتحديد ([1]) ولذا قيل : هذه اللفظة من أرفع ما يستفتح به الدعاء ([2]) فالله هو المنادى الأعظم يناديه كل محتاج ويطلب منه كفاء حاجاته وينشط ليقترب من آفاق الحكمة في الصبر والرضا . ([3])

والدعاء النبوي كثر فيه النداء بـ " اللهم " بخلاف الدعاء القرآني فلم يرد إلا في خمسة مواضع ([4]) . لعل كثرته في الدعاء النبوي يرجع إلى ما في " اللهم " من العموم – كما سبق – ولذا كان الرسول – ﷺ – يستفتح به أكثر دعائه مستحضرا عظمة المسمى ومتقرباً إلى الله بهذا الاسم المفرد الذي لا

([1]) انظر مقالي " من دقائق البيان النبوي في صيغي التلبية " في مجلة اللغة العربية بإيتاي البارود عدد ٣ ٢٠٠٣م ، ص ١٥-١٨ مستلة ، وبلاغة الدعاء في الحديث النبوي ٢١-٢١٣.

([2]) حاشية على مختصر ابن أبي حمزة – الشيخ محمد الشنواني ٧٧ ط عيسى البابي الحلبي.

([3]) علم المعاني ومقتضى الحال د . أسعد أحمد علي ٤٨ ، ٤٩ ، ٢٨٤ دار السؤال جامعة دمشق ١٩٨٧م .

([4]) سورة آل عمران : الآية ٢٦ ، وسورة المائدة : المائدة ١١٤ ، وسورة الأنفال : الآية ٣٢ ، سورة يونس : الآية ١٠ ، وسورة الزمر : الآية ٤٦ .

يطلق على غيره عز وجل ويحث على الدعاء به فى جميع الأمـــور صغيرهـــا وكبيرها . [1]

وحديث " سيد الاستغفار " يتكون من عشرة جمل : الجمل الخمس الأولى منها تمهيد بين يدى الدعاء

الجملة الأولى : " أنت ربى :

جاءت هذه الجملة مفصولة عن جملة النداء الإنشائية لكمال الانقطاع بــلا إيهام خلاف المقصود وبدئت بضمير الخطاب " أنت " مخاطبــاً بــه الــرب – سبحانه وتعالى – والأصل فى الخطاب أن يكون لمعين مشاهد وقد يترك هـــذا الأصل ويراد به غرضان :

الغرض الأول : التعميم ، والغرض الثانى : ادعاء أن المخاطب حــاضر فى الذهن مشاهد .

والغرض الثانى هو المراد هنا وذلك بأن يوجه الخطاب إلى غير مشــاهد وذلك بأن كان غير المشاهد مستحضراً فى القلب كأنه نصب العين وهذا يحــدث كثيراً عند من يحب أو يكره تراه يتخيل أن مطلوبه جالس أمامه فيخاطبه خطاب الحاضر وفى ذلك إفراغ لنفس المتكلم وتهدئة لعواطفه الثائرة . [2]

وهذا الغرض يكثر فى مقامات الفخر والمدح والغزل والرثاء لأنه أكــثر إيحاء عند التعبير عن المشاعر الإنسانية .

---

[1] بلاغة الدعاء فى الحديث النبوى د . سلامة جمعه داود ٢١٤ ، ٢١٥ ، رسالة دكتـــوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة ، ١٩٩٨م .

[2] من بلاغة النظم العربى د . عبد العزيز عبد المعطى عرفه ١/١٤٠ عالم الكتب – بيروت ط ثانية ١٩٨٤م .

وضمير الخطاب فى الجملة " أنت ربى " فيه استحضار مقـــام الربوبيـــة فى القلب مما يدل على أنه تعالى مطلع عليه رقيب على أحواله وهـــذه حالـــة المشاهدة القلبية التى لها أثر عظيم على سلوك المؤمن . وفيه ترقى الداعى بـــ " سيد الاستغفار " من حضيض بُعْدِ الحجاب والمغايبـــة إلـــى ذروة المشـــاهدة والمخاطبة .

وفيه الإشارة إلى أن مقام الداعى المستجاب الدعاء هو مقـــام الإحســـان الذى هو أن تعبد الله كأنك تراه وتخاطبه . ([1])

" ربـــى " :

الرب فى اللغة يطلق على المالك والســـيد المطـــاع والمدبـــر والمربـــى والقيم والمنعم والصاحب والمصلح ، ورَبَّ ولده يربه ربا بمعنى ربَّاه : أحســـن القيام عليه ووليه حتى يفارق الطفولية ، ولك نعمةَ تَرُبُّهَا أى تحفظها وترعاهـــا وتربيها ، والسحاب يَرُبُّ المطر أى يجمعه وينميه .

ومادة الراء والباء تدل على إصلاح الشىء والقيام عليه ولـــزوم الشـــىء وضم الشىء إلى الشىء والتربية إنشاء الشىء حالاً بعد حال إلى حـــد التمـــام فالمادة تدور حول الحفظ والرعاية والتعهد والحفظ والرب هو الله تعالى وهـــو رب كل شىء أى مالكه .. ولا يطلق لفظ الرب غير مضاف إلا على الله تعـــالى المتكفل بمصلحة الموجودات الإله الرب المعبود .. ولا يقال فى غير الله تعـــالى إلا بالإضافة . ([2])

([1]) الكشاف مع حاشية السيد ١/٦٤ ، ٦٥ فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين﴾ دار المعرفة – بيروت .

([2]) لسان العرب لابن منظور مادة ريب والمفردات فى غريب القرآن ١٨٤ ومعجـــم ألفـــاظ القرآن الكريم مجمع اللغة العربية ١/٤٤٤ ، ٤٤٥ .

ولعلك تلحظ معى سر تقديم هذه الجملة على جمل الحديث العشر فنظـــرا لما فيها من معانى التربية والإنعام والتفضل التى هى آثار لا تنقطع واعـــتراف بالربوبية ولجوء إلى مصدر الخير وتلطف واستعطاف بدىء بها جمـــل الثنـــاء الخمس التى جاءت تمهيداً للدعاء .

يقول ابن القيم عن جمع توحيد الربوبية " فيشهد صاحبه قيوميـــة الـــرب تعالى فوق عرشه يدبر أمر عباده وحده فلا خـــالق ولا رازق ولا معطـــى ولا مانع ولا مميت ولا محيى ولا مدبر لأمر المملكة ظاهرا وباطناً غيره فما شـــاء كان وما لم يشأن لم يكن لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ولا يجرى حادث إلا بمشـــيئته ولا تسقط ورقة إلا بعلمه ولا يعزب عنه مثقال ذرة فـــى الســـماوات ولا فـــى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه وأحـــاطت بـــه قدرتـــه ونفذت بها مشيئته واقتضتها حكمته فهذا جمع توحيد الربوبيـــة " .([1]) فتوحيـــد الربوبية والشعور بوجوده سبحانه حقيقة فطرية أقرها المشـــركون لـــه تعـــالى واعترفوا بعدم صلاحية آلهتهم لشىء من صفات الربوبية . ([2])

وجاء لفظ " رب " مضافاً إلى ضمـــير الداعـــى ممـــا يوحـــى بـــالوحدة والانفراد فى مناجاته لربه وطلبه منه ما يصلحه . ([3])

الجملة الثانية " لا إله إلا أنت " :

جاءت هذه الجملة مفصولة عما قبلها لأنها تأكيد لـــها فـــالأولى توحيـــد الربوبية وهذه توحيد الألوهية . والمعنى إفراده تعالى بالعبادة بكل ما شـــرع أن يعبد به من أعمال القلوب والجوارح وإسلام الوجه لله تعالى .

([1]) مدارج السالكين ٣/٥٣٢ .

([2]) المرجع السابق نفسه .

([3]) عقيدة المؤمن لأبى بكر الجزائرى ٧٤ .

وجاء فيها - أيضاً - ضمير الخطـــاب ليقــرر الحضــور والمشــاهدة الوجدانية لعظمة الله تعالى وسلطانه وأنه تعالى وحده المعبود بحق .

فبعد أن أقر الداعى بـــ " سيد الاستغفار " بوجدانية الربوبية يقــرر هنــا وحدانية الإلاهية . يقول ابن القيم عن جمع توحيد الإلهية : " فهو : أن يجمـــع قلبه وهمه وعزمه على الله وإرادته وحركاته على أداء حقـــه تعـــالى والقيـــام بعبوديته سبحانه فتجتمع شئون إرادته على مراده الدينى الشـــرعى " [1] ولـــذا كانت دعوة جميع الرسل أقوامهم إلى توحيد العبادة لله تعـــالى وأن لا يشـــركوا به شيئاً [2] .

وكلمة التوحيد لها أسماء عدة منها : كلمة التوحيد وكلمة الإخلاص وكلمة الإحسان وكلمة العدل والطيب من القول والكلمة الطيبة والكلمة الثابتة ودعـــوة الحق وكلمة التقوى والكلمة الباقية وكلمة الله العليا والمثل الأعلى وكلمة الســواء وكلمة النجاة والعهد وكلمة الاستقامة ومقاليد السموات والأرض والقول الســديد والبر والدين الخالص والصراط المستقيم وكلمة الحق والعروة الوثقـــى وكلمـــة الصدق .

والمتأمل فى هذه الأسماء يجد كلمة التوحيد تجمعها جميعاً .

وشروطها : العلم بمعناها نفياً وإثباتاً ، واليقيـــن بـــها ، والإخـــلاص ، والصدق ، والمحبة والسرور بها ، والانقياد بـــأداء حقوقـــها وهـــى الأعمـــال الواجبة إخلاصاً لله طلباً لمرضاته ، والقبول المنافى للرد .

وفوائدها كثير منها : أنها أفضل الذكر لأن الإيمان لا يصـــح إلا بهـــا ولأنها تؤثر تأثيراً بيناً فى تطهير القلب من كل وصف ذميم وهى النور الذاتـــى

---

(1) بلاغة الدعاء فى الحديث النبوى ١٢٩ .

(2) عقيدة المؤمن لأبى بكر الجزائرى ٨٥ .

طاردة للشيطان ويبقى أثرها وثوابها عظيم واسع ولا يعذب بالنار من قالها وهى أفضل الطاعات قليلة الحروف خفيفة على اللسان ثقيلة فى الميزان وثمنها الجنة وهى أمان من وحشة القبر وهول المحشر وهى شعار المؤمنين إذا قاموا من قبورهم وتفتح أبواب الجنة الثمانية لقائلها وإن دخل أهل النار بتقصيرهم فلابد من خروجهم منها .

وهى " قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحزافيرها فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة أو قامت على قاعدة أخرى معها أو عدة قواعد أجنبية عنها " . (1)

" لا إله إلا الله " ومغفرة الذنوب :

الداعى بـ " سيد الاستغفار " يعلم أن من أسباب المغفرة التوحيد فإن كَمَلَ توحيد العبدِ وإخلاصه لله فيه وقام بشروطه كلها بقلبه ولسانه وجوارحه فقد حقق أعظم أسباب المغفرة قال وهب لمن سأله : أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة ؟ قال : بلى ولكن ما من مفتاح إلا له أسنان فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك " (2) .

فالمفتاح كلمة التوحيد والأسنان الأعمال بمقتضاها . فمن تحقق لكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ما سوى الله تعالى محبة وتعظيماً وإجلالاً ومهابة وخشية ورجاء وتوكلاً .

---

(1) لا إله إلا الله منهج حياة سيد قطب من كتاب حقيقة لا إله إلا الله ، أبو الأعلى المودودى وسيد قطب وصالح بن فوزان ١٤١ مكتبة السنة ط أولى ١٩٩٢م القاهرة .
وينظر لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات للفخر الرازى ١٤٣-١٥٤ تعليق عبد الرؤوف سعد - دار الكتاب العربى بيروت ط ثانية ١٩٩٠م . والفتوحات الربانية على الأذكار النووية لابن علان ٢١٧/١ - ٢١٨ دار إحياء التراث العربى - بيروت.

(2) كلمة الإخلاص لابن رجب الحنبلى ١٣ .

ورد عن أم هانئ رضى الله عنها – أن النبى ﷺ – قال : " لا إلـه إلا الله لا تترك ذنبا ولا يسبقها عمل " .

وعن شداد بن أوس وعبادة بن الصامت – رضى الله عنهما – أن النبى ﷺ قال لأصحابه : " ارفعوا أيديكم وقولوا : لا إله إلا الله . فرفعنا أيدينا ساعة ثم وضع رسول الله – ﷺ – يده ثم قال : " الحمد لله اللهم بعثتنى بهذه الكلمة وأمرتنى بها ووعدتنى الجنة عليها وإنك لا تخلف الميعاد " ثم قال : " أبشروا فإن الله قد غفر لكم " (1)

وبعد كل هذا نجد أن الداعى بـ " سيد الاستغفار " يدرك كل هذه المعانى التى توصى بها كلمة التوحيد ويحق له أن يجعلها ثناء على الله تعالى تمهيدا لدعائه حتى تتحقق الإجابة ببركتها .

الجملة الثالثة : خلقتنى :

وورد :" أنت خلقتنى " وعليه فالخطاب مستمر فى استحضار الداعى بـ " سيد الاستغفار" الحضرة الإلهية وما تبثه فى القلب من مهابة وإجلال يمهد لإجابة الدعاء . (2)

وجاءت الجملة مفصولة لأنها تؤكد ما أكدته الجملتان السابقتان من توحيده عز وجل واستقلاله بالربوبية بذكر " الخلق " الذى هو من أعظم دلائل الألوهية .

" وتخصيص الخلق بإضافته إلى ضمير المتكلم " خلقتنى " مع أنه عز وجل خلقه وخلق كل شيء فيه إشعار بأن هذا المستغفر مستغرق فى حضوره

---

(1) انظر أسباب المغفرة لابن رجب الحنبلى تحقيق أشرف بن عبد المقصود ٨٣-٩١ مكتبة التراث الإسلامى ١٩٨٧م .

(2) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر ١١٦/٢٣.

مع ربه والبوح بحاله معه " [1] مما دفعه إلى الاعتراف بنعمه والإقرار بذنوبة فى قوله : " أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى " وعلى رواية " خلقتنى " بدون ضمير الخطاب " أنت " تكون الجملة خالية من القصر لأن معجزة الخلق ظاهرة لا تخطئها العيون وهى دليل ظاهر على ألوهيته ووحدانيته عز وجل .[2]

وفى تعبير الداعى بـ " خلقتنى " إشارة الى أنه يعى تماما ما أفاده الاستفهام الإنكارى فى قوله تعالى : ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [3] من الإنكار والنفى والانعدام التام لصفة الخلق عن غيره تعالى إذ لا خالق غير الله عز وجل .[4]

وفيه اقتداء بالتعبير القرآنى فى قوله تعالى ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [5] وأن الداعى يتمثل معنى الآية من أن " ذلكم الموصوف بتلك الأوصاف السابقة من كونه بديعا لم يتخذ صاحبة ولا ولدا خالق الموجودات عالما بكل شئ هو الله بدأ بالاسم العلم ثم قال : " ربكم " أى مالكم والناظر فى مصالحكم ثم كرر وصف خلقة كل شيء ثم أمر بعبادته لأن من استجمعت فيه هذه الصفات كان جديرا بالعبادة وأن يفرد بها " [6]

---

(1) بلاغة الدعاء فى الحديث النبوى ٢٦٩.

(2) المرجع السابق نفسه .

(3) سورة فاطر الآية ٣.

(4) التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم ٣/٣٠٢ ، ٣٠٣.

(5) سورة الأنعام الآية ١٠٢.

(6) البحر المحيط لأبى حيان الاندلسى ٤/١٩٥ دار الفكر ط ثانية ١٩٨٣م .

وجاءت جملة " خلقتنى " بعد الإقرار بصفتى توحيد الربوبية وتوحيد الأولهية وفى ذلك تأثر بالأسلوب القرآنى حيث جاءت صفة الخلق مطلقة فى آية الحشر فقط محوطة بحشد من الصفات الآخرى تسبقها وتلحقها بصورة غير متكررة قال تعالى ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ *هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . (١)

وختام هذه الصفات بقولة تعالى ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ دعا بعض العلماء إلى القول بأن هذه المجموعة من الأسماء تتضمن اسم الله الأعظم .(٢)

الجملة الرابعة " وأنا عبدك " :

نلاحظ فى جمل الحديث : " اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ " أن المسند إليه ذكر بضمير الخطاب أو ضمير التكلم وفى ذكره فى جملة " وأنا عبدك " فضل توكيد وتقرير للمعنى مما يتلاءم مع النمط التأكيدى الذى سار عليه الدعاء فكل جملة مؤكدة بالجملة التى تليها .(٣)

---

(١) سورة الحشر الآية رقم ٢٢-٢٤.

(٢) أسماء الله الحسنى دراسة فى البينة والدلالة د٠ أحمد مختار عمر ١٣٦-١٣٧ عالم الكتب بالقاهرة ط أولى ١٩٩٧م.

(٣) بلاغة الدعاء فى الحديث النبوى ٩٢.

والمقام اقتضى التعبير بضمير التكلم " أنا " فى هذه الجملة وفى الجملة التى تليها لأن المقام مقام اعتراف وإقرار بالعبودية فالداعى " يصور حاله وضعفه وانكساره فهو يحضر نفسه بين يدى الله بضمير المفرد المتكلم " أنا " ليرتاد الوقوف وحيداً بين يدى الله ويتمرس على خطاب الذات العلية حتى إذا وقف أمام الله يوم القيامة عبدا فردا ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا *لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا *وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ (1) كان له إلف بخطاب الله وعهد بمناجاته فلا يكون حاله حال الغريب مع الغريب ولكن حال القريب مع القريب والحبيب مع الحبيب .(2)

وفى جملة " وأنا عبدك " إشارة الى أن الداعى قد امتثل الأمر " فاعبدوه " فى قوله تعالى ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾(3) وصار عبدا صادقا يقوم بواجبات العبودية ويلتزم بموجبات المغفرة التى أوضحها القرآن الكريم كما سبق .(4)

وفيها أيضا إيحاء بأن الداعى بـ " سيد الاستغفار " قد حقق فى نفسه منازل العبودية من اليقظة وإدراك خطر المعاصى ومحاولة التخلص منها بالتوبة والاستغفار وعمل الحسنات والانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان فى الأيام لتدارك فائتها وتعمير باقيها .(5)

---

(1) سورة مريم الآية ٩٣-٩٥.

(2) بلاغة الدعاء فى الحديث النبوى ١٠٥.

(3) سورة الأنعام الآية ١٠٢

(4) انظر الايحاءات والاشارات للفظ العبد ، ص ص ٤١ ، ٤٢ .

(5) أنظر تفصيل ذلك مدارج المسالكين ١/١٥٨/١٦٧.

مواقع الجملة .. وأنا عبدك .. الإعرابى :

فى إعراب هذه الجملة رأيان :

الرأى الأول : الجملة حال فى موضع نصب " قال الطيبى " : يجوز أن تكون حالا مؤكدة ويجوز أن تكون مقررة أى أنا عابد لك ويؤيده عطف قوله وأنا على عهدك " [1]

والجملة الحالية قد نالت عناية الإمام عبد القاهر لما يترتب على إثبات الواو أو حذفها من فروق معنوية تحمل أسرارا يدركها الذوق البلاغى [2] وذلك بعد الصحة والجواز التى تكفل بها النحو فحين تدخل الواو فلا يكون الغرض متجها الى الحال وحدها ففى قولك : جاء زيد وهو راكب يقصد إلى أمرين على سبيل الاستقلال يجمع بينهما بواو الجمع فأنت تقصد إفادة السامع خبرين : أولهما مجىء زيد والثانى هيئته حين جاء .

وفى قولك : جاء زيد هو راكب بدون الواو يكون قصدك الإخبار بهيئة مجيئه لا بالمجىء نفسه .

والجملة الحالية المقترنة بالواو إذا جاءت مؤكدة لابد أن تصحبها زيادة معنى يتحقق به الغرض من الواو الموجبة بالمغايرة فهى تفيد الاستقلال والإخبار والتقرير فى ذاتها وأحيانا للإشعار بعلة الحكم وفى ذلك دليل على استقلالها وتقررها فى نفسها حتى صارت سببا فى وقوع الجملة المقيدة بها .

الفرق بين واو العطف وواو الحال :

الواو تشعر باستقلال الجملة فى إفادة معنى مقرر لها سواء كانت عاطفة أو حالية غير أنها مع الحالية تفيد زيادة تلبس جملة الحال بالجملة السابقة بحكم المقارنة بين هيئة الحال وصاحبها فى زمن الوقوع .

---

(1) عمدة القارئ شرح صحيح البخارى للعينى ٢٧٨/٢٢ دار إحياء التراث العربى بيروت .

(2) دلائل الأعجاز تعليق الشيخ محمود شاكر ٢٠٢-٢٢١ مكتبة الخانجى ط ثانية ١٩٨٩.

أما الواو العاطفة فإنها لا تقتضى تقييد المعطوف عليه بالوقوع فى زمن واحد كما أنها بحكم وضعها لا تقتضى ترتيبا ومن ثم فإنها عاطفة أدل على الاستقلال وإفادة حكم آخر غير المعطوف عليه من واو الحال التى تقتضى مزيد ارتباط بما قبلها بحكم محلها الإعرابى واتحاد زمن الوقوع .

أيهما أبلغ ؟

المقام هو الذى يحدد الأبلغية فإن أريد إظهار المعنيين فى صورة معنى واحد كانت الحالية أبلغ وإن أريد التعدد والاستقلال كان العطف بالواو أجدر . (1)

وأنا أرى أن الواو فى جملة " وأنا عبدك " للعطف لأن المقام هنا مقام تعدد واستقلال بالعطف يحقق إبراز المعطوف والمعطوف عليه فى صورة أمر مطلوب لذاته لا على وجه المقارنة التى تظهر القصد إلى غرض واحد من القيد والمقيد وبدليل قول الطيبى : " يجوز أن تكون حالا ، لأن عبارة " يجوز كذا " يفهم منها عرفا أن تركه أولى .

اعتراض :

قد رجحنا أن الواو فى الجملتين .. وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت عاطفة وأن هاتين الجملتين توكيد للوحدانية التى افتتح بها هذا الدعاء لأن الإقرار بالربوبية يستلزم الإقرار بالعبودية ويستلزم الوفاء بالعهد الذى أخذه الله على الإنسان وحق التوكيد أن يفصل عن المؤكد لأنهما شىء واحد ولا يعطف الشىء على نفسه .

---

(1) انظر تفصيل ذلك فى " الواو ومواقعها فى النظم القرآنى " د.محمد الأمين الخضرى ٤٧٢-٤٨٧ رسالة دكتوراه مخطوطة بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة ، ١٩٨٣م.

دفع الاعتراض :

ويدفع هذا الاعتراض بأن التوكيد كما اشتمل على معنى جديد كأنه غاير المؤكد فاستحق أن يعطف عليه فجملة : (وأنا عبدك) فيها معنى زائد على جملة : (أنت خلقتنى) هو الدلالة على العبودية فجىء معها بالواو تمييزا لهذا المعنى وتفخيما له واهتماما بشأنه .

وكذا جملة : (وأنا على عهدك ووعدك ما أستطعت) (1) تفيد الوفاء المطلق لله تعالى فى كل ما أخذه على العبد فجىء بالواو ولتشير الى تفخيم هذا المعنى والاهتمام بشأنه وأن له أثراً عميقاً فى إجابة الدعاء .

الجملة الخامسة : وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت

العهد :

العهد : حفظ الشئ ومراعاته حالا بعد حال ، هذا أصله ثم استعمل فى الموثق الذى تلزم مراعاته .(2)

ومادة عهد توحى بمعان كثيرة منها : الوصية والأمر والوفاء والحفاظ والتقدم إلى الأمر فى الشئ واليمن يحلف بها الرجل والميثاق والإلّ والذمة والعقد والأمان ورعاية الحرمة والبلاء وأول المطر والمطر بعد المطر والإمامة والتوحيد .

ويقال فى تجديد العهد : نظرية الوجه وتسلية القلب واكتحال العين وفوج الهم وبلوغ المنى . (3)

---

(1) بلاغة الدعاء فى الحديث النبوى ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(2) التعريفات للجرجانى تحقيق ابراهيم الابيارى ٢٠٤ دار الريان للحديث .

(3) تاج العروس ماده عهد ، والألفاظ المختلفة فى المعانى المؤتلفة لابن مالك الطائى الجبيائى تحقيق د. نجاه حسن عبد الله نولى ١٢٣-١٢٤ ، ١١٠ جامعة أم القرى - مكة المكرمة ط أولى ١٩٩١م والوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز للدافعانى تحقيق محمد حسن أبو العز الزفيتى ٧٨/٢ ، ٧٩ ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

والعهد : الموعد وبه فسر مجاهد فى قوله تعالى ﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ . (١)

ووعد الله تارة يكون بما ركزة فى عقولنا وتارة يكون بما أمرنا به بالكتاب وبسنة رسله وتارة بما نلتزمه وليس بلازم فى أصل الشرع كالنذور وما يجرى مجراها .(٢)

المراد بالعهد فى حديث " سيد الاستغفار "

العهد فى الحديث الشريف توحيد الله تعالى والمعنى : أنا مقيم على ما عاهدتك عليه من الإيمان بك والإقرار بوحدانيتك لا أزول عنه (٣)

وهو العهد الذى أخذه الله تعالى على عباده فى عالم الذر فى قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (٤)

الوعد :

وعده الأمر : مَنَّاه ووعد فلانا الشر هَدَّده وواعده على أن يوافيه فى وقت معين وفى موضع معين . والوعد يكون فى الخير والشر والوعيد فى الشر خاصة فإذا أسقط الخير والشر قيل : فى الخير وعد وفى الشر أوعد ، والوعد مصدر لا يجمع والمصادر لا تجمع إلا ما شَذَّ ، ووَعَدَ يقتضى مفعولين أحدهما زمانا أو مكانا أو أمرا من الأمور .

---

(١) طه ٨٦ ، ٨٧ وانظر تاج العروس مادة عهد .

(٢)المفردات ٣٥٠.

(٣) تاج العروس مادة عهد . فتح البارى ٢٣/١١٦ ، ١١٧ وعمدة القارئ ٢٢/٢٧٨.

(٤) سورة الأعراف الآية ١٧٢ .

ووَعَدَ الله المؤمنين العاملين الصالحات الحسنى وجنات عدن واستخلافهم فى الأرض ومغانم كثيرة ووَعْدُ الله حق وصدق ومفعول ومسئول وحسن ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ . (1)

المراد بالوعد فى الحديث والفرق بينه وبين العهد :

قيل : المراد بالوعد فى دعاء " سيد الاستغفار " ما قال على لسان نبيه - ﷺ - : " إن من مات لايشرك بالله شيئا وأدى ما افترض عليه أن يدخله الجنة " قال ابن حجر " وقوله " ما افترض عليه " زيادة ليست بشرط فى هذا المقام لأنه جعل المراد بالعهد الميثاق المأخوذ فى عالم الذر وهو التوحيد خاصة ، فالوعد هو إدخال من مات على ذلك الجنة " . (2)

وعلية فالمعنى : أنا مقيم على ما عاهدت إلى من أمرك ومتمسك به ومنتجز وعدك فى المثوبة والأجر وبذا يكون العهد والوعد متغايرين وقدم العهد على الوعد إشارة الى أن تحقيق وعد الله بالجنة لا ينال إلا بعد أداء التكاليف والفرائض .

أو المعنى كما قال الخطابى : يريد أنا ماعاهدتك عليه وواعدتك من الإيمان بك وإخلاص الطاعة لك ما استطعت من ذلك . (3)

وعلى هذا يكون العهد والوعد مترادفين إلا أن بينهما فرقاً دقيقاً كما يقرر أبو هلال العسكرى فى فروقة اللغوية .

" الفرق بين الوعد والعهد أن العهد ما كان مقرونا بشرط نحو قولك : إن فعلت كذا فعلت كذا وما دمت على ذلك فأنا عليه قال الله تعالى : ﴿ولَقَدْ عَهِدْنَا

---

(1) سورة إبراهيم الآية ٤٧

(2) فتح البارى ٢٣/١١٦، ١١٧.

(3) المرجع السابق نفسه .

إِلَى آدَمَ﴾ ([1]) أى أعلمناه أنك لا تخرج من الجنـــة ما لم تأكل من هـــذه الشجرة والعهد يقتضى الوفاء والوعد يقتضى الإنجاز ويقـــال نقـض العـــهد وأخلــف الوعد .([2])

وفى الجمع بينهما على هذا المعنى تأكيد على وفاء الداعى بـــــ " سـيد الاستغفار " المطلق لله فى كل ما أخذه على العبد سواء أكان مشـــروط بشــرط وهو العهد) أم لا (وهو الوعد) .

ولما كان العهد أشد وثاقة وتأكيدا من الوعد أطلق العهد على الوعد فـــى بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية للإشارة الى أن المواعيد المرادة فـــى هذه النصوص من المواعيد التى لا يتطرق إليها الخلف كالمواثيق مبالغة وزيادة تأكيد واعتناء بشأنها .([3])

وللترادف فى الدعاء النبوى صور أربع :

الصورة الأولى : أن يعطف أحد المترادفين على صاحبه بالواو ويمثـــل هـــذه الصورة " وأنا على عهدك ووعدك " على نحو ما سبق .

الصورة الثانية : أن يذكر أحد المترادفين فى جملة وصاحبه فى جملة أخرى.

الصورة الثالثة : أن يكون العطف بين ثلاثة مترادفات .

الصورة الرابعة : تكرار الترادف .([4])

وظاهرة الترادف فى الدعاء النبوى تناسب مقام الداعى " حيث " يســتفرغ المؤمن طاقته ويستجمع كل ما أوتى من براعة اللفظ ليحيط بما فى نفســـه مـــن

([1]) سورة طه الآية ١١٥.

([2]) الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى ٤٣ دار الكتب العلمية بيروت

([3]) بلاغة الدعاء فى الحديث النبوى ٣٧ ، ٣٨ .

([4]) أنظر تفصيل ذلك المرجع السابق ٣٧-٤٢ .

المعانى فتكثر المترادفات لتستوعب تدفق المعانى المتشابهة وتحيط بــها وهــذا دليل على المبالغة فى الاستقصاء وقوة الاحتشاد للدعاء .(1)

ما استطعت :

" ما " مصدرية زمانية لأنها تؤول مع ما بعدها بمصدر مع نيابتها مــع صلتها على الزمان . (2)

والمعنى " مدة دوام استطاعتى " (3) والراجح والــذى عليــه جمــهور النحويين أنها حرف ويدل على ذلك أنها تؤول مع ما بعدها بمصدر وليس لنــا اسم مؤول مع ما يليه بمصدر . (4)

والاستطاعة : فى اللغة عبارة عن عرض يخلقه الله تعالى فى الحيــوان يفعل أو يُفْعَل به الاختيارية ، وعند المتكلمين عبارة عــن صفــة يتمكــن بــها الحيوان من الفعل والترك والاستطاعة الحقيقية هى القدرة التامة التــى يجــب عندها صدور الفعل فهى لا تكون إلا مقارنة للفعل ، والاستطاعة الصحيحة هى أن ترتفع الموانع من المرض وغيره . (5)

وذكر أبو هلال العسكرى أن الاستطاعة تكون بمعنى انقيــاد الجــوارح لصاحبها وتكون بمعنى الإجابة كما فى قوله تعالى ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّــكَ﴾ (6) أى هل يجيبك الى ما تسأله ؟ (7)

---

(1) المرجع السابق نفسه . ٤٢.

(2) حديث "ما" أقسامها وأحكامها د٠ محمد بن عبد الرحمن المقدى ١٠٠-١٠٣ النادى الأدبى بالرياض ١٩٨٠م.

(3) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوى٤/١١٩دار إحياء السنة المحمدية عن طبعة ١٩٣٨م

(4) أنظر تفصيل الخلاف فى ذلك حديث ما ١٠٣-١٠٧ .

(5) التعريفات للحرجانى ٣٥ .

(6) سورة المائدة الآية رقم ١١٢ .

(7) الفروق اللغوية ٨٩.

وقول الداعى " ما استطعت " يعد صورة من صور الإطناب ألا وهى الاحتراس ، والاحتراس فى اصطلاح البلاغيين " أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه " . (1)

فقوله ﷺ " ما استطعت " إعلام الأمته أن أحداً لا يقدر على الإيتان بجميع ما يجب عليه لله ولا الوفاء بكمال الطاعات والشكر على النعم فرفق الله بعبادة فلم يكلفهم من ذلك إلا وسعهم " (2) فالمصدر المؤول النائب مع صلته عن الزمان احتراس لطيف يدفع ما قد يوهمه قونه : " وأنا على عهدك ووعدك " من أن الداعى قادر على الوفاء بحقوق الله تعالى على وجه الكمال وشرط الاستطاعة فى ذلك الاعتراف بالعجز والقصور عن كنه الواجب من حقه تعالى . (3)

الدعاء الأول :

الجملة السادسة " أعوذ بك من شر ما صنعت " .

فصلت هذه الجملة عما قبلها لأنها إنشائية معنى وإن كانت خبرية لفظا فهى لإنشاء الدعاء وما قبلها جمل خبرية .

أعوذ :

العوذ : الالتجاء الى الغير والتعلق به يقال : أعاذ فلان بفلان ومنه وأعذته بالله أعيذه التجئ إليه وأستنصر به أن أفعل ذلك فإن ذلك سوء نتحاشى من تعاطيه فالعوذ : اللجأ إلى الشيء يقى من يلجأ إليه ما يخافه واستعاذ إذا سأل غيره أن يعيذه .(4)

---

(1) شروح التلخيص ٢٣١/٣ .

(2) فتح البارى ١١٧/٢٣ .

(3) عمدى القارئ ٢٧٨/٢٢.

(4) تاج العروس مادة عوذ والمفردات ٣٥٢.

وصيغة الاستعاذة قبل القراءة على المختار لجميع القــــراء مـــن حيـــث الرواية " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " ([1]) والمختار أن يلتزم الداعى بلفـــظ" أعوذ" لأنه هو الذى أمر الله به نبيه وعلمه إياه فقال تعالى ﴿ قُلْ أَعُــوذُ بِــرَبِّ الْفَلَقِ﴾(الفلق ١) وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّـــاسِ﴾(النـاس ١) وقـــال تعـــالى : ﴿ وَقُـــلْ رَبِّ أَعُـــوذُ بِـــكَ مِـــنْ هَمَـــزَاتِ الشَّـــيَاطِينِ *وَأَعُـــوذُ بِـــكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِي﴾(المؤمنون ٩٧،٩٨) وقال تعالى عن موسى عليه السلام : ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ﴾(البقرة ٦٧) وقال تعالى : ﴿ وَإِنِّي عُـــذْتُ بِرَبِّـــي وَرَبِّكُـــمْ أَنْ تَرْجُمُونِي﴾(الدخان ٢٠) وقال تعالى عن نوح عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِـــكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾(هود٤٧) وقال تعالى عن السيدة مريم : ﴿إِنِّي أَعُــوذُ بِالرَّحْمَانِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا﴾(مريم ١٨) وقال تعـــــالى عـــــن امـــرأة عمـــران : ﴿ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(آل عمران ٣٦).

وكذلك الحال فى الأدعية النبوية أن الذى تواتر عن النبى - ﷺ - فـــى التعوذ للقراءة ولسائر تعوذاته من روايات لا تحصى كثرة هو لفـــظ " أعـــوذ " وأن الصحابة " لم يقولوا فى شىء من جوابه ــ ﷺ ــ : " نتعوذ بـــالله " ولا : " تعوذنا " على طبق اللفظ الذى أمروا به كما أنه ﷺ لم يقل " أستعيذ بـــالله " ولا " استعذت " على طبق اللفظ الذى أمره الله به ، ولا كـــان ــ ﷺ ــ وأصحابـــه يعدلون عن اللفظ المطابق الأول ([2]) إلى غيره بل كانوا هـــم أولـــى بالاتبـــاع وأقرب الى الصواب وأعرف بمراد الله تعالى . كيف وقد علمنا رســـول الله - ﷺ - كيف يستعاذ فقال : " إذا تشهد أحكم فليستعذ بالله من أربع يقول : اللـــهم

([1]) النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى تحقيق د. محمد سالم محيســـن ٣٣٨/١ مكتبـــة القاهرة .

([2]) أى " أعوذ " .

إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومـــن شر فتنة المسيخ الدجال " رواه مسلم وغيره ولا أصرح من ذلك " . (١)

وبيان الحكمة التى لأجلها لم تدخل السين والتـــاء فـــى فعـــل المســـتعيذ الماضى والمضارع فقد قيل له استعذ بل لا يقال إلا : أعوذ دون أستعيذ وأتعـوذ واستعذت وتعوذت ، وذلك لأن السين والتاء شأنهما الدلالة على الطلب فوردتـــا فى الأمر إيذانا بطلب التعوذ فمعنى : استعذت بالله أطلب منه أن يعيذك فامتثـال الأمر هو أن يقول : أعوذ بالله لأن قائله متعوذ أو مستعيذ قـــد عـــاذ والتجـــأ ، والقائل : أستعيذ بالله ليس بعائذ إنما هو طالب العياذ به ، كما تقول : أســـتخير الله أى أطلب خيرته ، وأستقيله أى أطلب إقالتة ، واستغفره أى أطلب مغفرتـــة فدخلت فى فعل الأمر إيذانا بطلب هذا المعنى من المعاذ به فإذا قال المـــأمور : أعوذ بالله فقد امتثل ما طلب منه نفس الاعتصام والالتجاء وفرق بين الاعتصـــام وبين طلب ذلك فلما كان المستعيذ هاربا ملتجئا معتصما بالله أتى بالفعل الـــدال على طلب ذلك فتأمله .

قال : والحكمة التى لأجلها امتثل المستغفر الأمر بقولـــــه : أســـتغفر الله أنه طلب منه أن بطلب المغفرة التى لا تتأتى إلا منه بخـــــلاف العيـــاذ واللجـــأ والاعتصام فامتثل الأمر بقوله : أســـــتغفر الله أى أطلـــب منـــه أن يغفـــر (٢) والإنشاء بأسلوب الخبر له أغراض تبرز ما فى نفس الداعى من معانى الأمـــل والرجاء والرغبة فى تحقيق المطلوب وهى التفاؤل وإظهار حـــرص الداعـــى

---

(١) النشر ١/٣٤٣ ، ٣٤٤ وانظر نماذج كثيرة له بلاغـــة الدعـــاء فـــى الحديـــث النبـــوى ٤٦٣/٤٦٤ .

(٢) النشر ١/٣٤١، ٣٤٢ نقلا عن ابن النقاش فى كتابه اللاحق السابق والناطق الصادق فـــى التفسير " .

على قبول دعائه والاحتراز عن صورة الأمر وحمل المخاطب على المطلـــوب إذا كان الأسلوب بصيغة الماضى .

يقول الخطيب : الخبر قد يقع موقع الإنشـــاء إمـــا التفـــاؤل أو لإظـــهار الحرص على وقوعه أو للاحتراز عن صورة الأمر كقول العبـــد للمولـــى إذا حول عنه وجهه : ينظر المولى إلى ساعة أو لحمل المخاطب على المطلـــــوب بأن يكون المخاطب ممن لا يجب أن يكذب الطالب أو لنحو ذلك . (1)

والدعاء إذا كان بلفظ الفعل المضارع نحو " أعوذ " فهو من قبيل الكنايـــة باعتبار أن حصول الفعل فى الاستقبال لازم لطلب الفعل فى الحال فذكر الـلازم وأريد الملزوم .(2)

والتعبير بالفعل المضارع فوق ذلك يدل على التعوذ متكرر من الداعـــى متجدد فى كل وقت ومكان شأن الفعل المضارع ، والداعى بذلـــك يكـــون قـــد استجاب للأمر الإلهى بالاستعاذة فى القرآن الكريم . (3)

ولذا كثر فى الدعاء النبوى تصوير اللهفة الظامئة إلى القبول والانفعـــال البالغ فى الدعاء . (4)

وفى اختيار " أعوذ " دون ألتجئ أو أعتصم مثلا فيـــه إعـــلان للتوحيـــد التام وتبرئة مما كان يفعله أهل الجاهلية من مظاهر الشرك من أنهم كـــانوا إذا نزلت رفقة منهم فى واد قالت : نعوذ بعزيز هـــذا الـــواد مـــن مـــردة الجـــن

---

(1) انظر تفصيل ذلك شروح التلخيص ٢/٣٣٨-٣٤٠ وبلاغة الدعاء فى الحديـــث النبـــوى ١٩٩-٢٠٢.

(2) بلاغة الدعاء فى الحديث النبوى ٢٠١ ، ٢٠٢ وشرح التلخيص ٢/٣٤٠ .

(3) الأعراف ٢٠٠ والنحل ٩٨ وغافر ٥٦ وفصلت ٣٦ .

(4) بلاغة الدعاء فى الحديث النبوى ٩٥.

وسفهائهم ، ومن تعوذ رجال من الإنس برجال من الجن .[1] وإعلانا للـــبراءة مما يفعله بعض الناس من التعاويذ أو المَعَاذَات أو التعوذ وهى الرقى أو التمـائم التى تكتب وتعلق على الإنسان من العين أو الفزع أو الجنون [2] فى أوهامهم .

وبهذه الاستعاذة يعترف الداعى العبدُ بِعَجْزِ نَفْسِهِ وبقدرة ربه ويَدَلّل على أنه لا وسيلة الى القرب من حضـــرة الله القـــوى القـــهار إلا بـــالعجز والـــذل والانكسار .

من شر :

التعبير بلفظ " شر " تلقى بظلالها على السياق فالشر نقيض الخير والسوء والفساد والظلم والحمى وإبليس والمكروه والعيب والمعاداة ، والشر ما يرغـــب عنه الكل كما أن الخير الذى يرغب فيه الكل . والداعى بـــ " سيد الاســـتغفار " يدرك جيداً ما يوصى به الحديث الشريف : " الخير كله بيديـــك والشـــر ليـــس إليك " من أن الشر لايتقرب به إليه تعالى ولا يبتغى به وجهـــة وإنمـــا يرفـــع الطيب من القول والعمل وأنه يجب استعمال الأدب فى الثناء على الله تعـــالى وأن تضاف إليه محاسن الأشياء دون مساوئها .[3]

ما صنعت :

" ما " اسم موصول مشترك أى يستعمل بلفظ واحـــد للمذكـــر والمؤنـــث مفردين ومثنيين ومجموعين وتسمى ناقصة لأنها تفتقر فـــى تمامـــها وظـــهور معناها إلى الصلة فلولا الصلة لكان الموصول ناقص المعنى مبهم الحقيقة .

---

(1) الجن :٦ .

(2) لسان العرب لابن منظور مادة " عوذ " طبعة دار المعارف .

(3) لسن العرب مادة شرر والمفردات ٢٥٧.

والأصل أن يراعى فيها اللفظ إلا إذا اقتضى المقام مراعاة المعنى وشرط جملة الصلة أن تكون معهودة للمخاطب خبرية .

والعائد محذوف والتقدير ما صنعته " وحذف لأنه لم يترتب على حذفه إيهام أن الصلة خالية من العائد ، وهنا المنصوب لأنه ضمير متصل منصوب بالفعل صنع وحذف العائد منصوب الفعل أكثر من حذف منصوب الوصف [1] وكثر حذفه فى الدعاء النبوى لتوافق النغم وتجانس مقاطع الكلام مما يوسع المعنى ويوضحه ويتم التفاعل بين العناصر الإيقاعية والمعنوية .[2]

وعبر بالموصول المشترك "ما" لما فيها من العموم وتوغلها فى الإبهام الذى يتناسب مع مقام الدعاء فيشمل كل ما صنعه العبد فيفيد العياذ من شر كل ما يصدق عليه فعل الصنع وفى ذلك مبالغة فى الدعاء وقوة الرجاء فى تحقيق الدعاء . [3]

صنع الصنيع : إجادة العمل فكل صنع فعل وليس كل فعل صنعا ولا ينسب إلى الحيوانات والجمادات كما ينسب إليها الفعل ، وللإجادة يقال للصانع الحاذق المجيد صَنَعٌ وللحاذقة المجيدة صناع ، والصنيعة : ما اصطنعته من خير ، وفرس صنيع : أحسن القيام عليه وعبر عن الحصون والأماكن الشريفة وأحواض المياه بالمصانع ، والاصطناع : المبالغة فى إصلاح الشىء ، والصنيع الطعام يصنع فيدعى إليه والإحسان والمعروف .[4]

---

(1) حديث " ما " ٣٩-٥١.

(2) بلاغة الدعاء فى الحديث النبوى ٧٤.

(3) المرجع السابق ١١٩ وبدائع الفوائد لابن القيم ١٣١/١ مكتبة ابن تيمية بالقاهرة ومكتبة العلم بجدة .

(4) تاج العروس مادة صنع والمفردات ٢٨٦-٢٨٧ .

مع ملاحظة أن العمل يدل على اتصال الحدث وامتداد الزمن مع هـدف العامل وقصده ويدل على الدأب والمثابرة ، والفعل : ظهور الأثر وسرعة الحدث والفعل وحدة فى العمل والزمن . والعمل والفعل كنايتان عن صدور حدث من محدث . ([1])

وبتأمل ذلك نجد أن الصنع أخص من العمل والفعل ، لأن مادة صنع تدل على التفنن والحبك لأن الصنع يقتضى خبرة سابقة على العمل وفى التعبير به إشارة الى أن التعوذ من شر ما صنع الداعى يلزم التعوذ مما دونه من الأعمال والأفعال .

وفيه إشارة إلى أن صنيع السوء من صفات النصارى ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة١٤) واليهود قال تعالى ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾(المائدة ٦٣) .

وأن صنيع السوء عقابه التدمير قال تعالى ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف ١٣٧) والإحباط قال تعالى ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ (هود١٦) والقارعة قال تعالى ﴿ ولا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾(الرعد ٣١)والجوع والخوف قال تعالى ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾(النحل ١١٢).

وفيه تبرئة من الأخسرين أعمالاً ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(الكهف ١٠٤).

وفى تعوذ الداعى من شر ما صنع إيحاء بأنه يأمل أن يتولاه الله ويحيطه بالرعاية كالتى حدثت لسيدنا موسى فى قوله تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى

([1]) أسرار الترادف فى القرآن الكريم على اليمنى دردير ١٣٤-١٣٦.

عَيْنِي﴾ (طه٣٩) وفى قوله تعالى ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾(طه٤١) ويطمع فيما قاله بعض الحكماء : " إن الله إذا أحب عبدا تفقده كما يتفقد الصديق صديقه .

بين يدى الدعاء الثانى

الجملتان السابعة والثامنة : أبو لك بنعمتك على وأبوء بذنبى

فصلت جملة " أبو لك بنعمتك على " عن التى قبلها " لأنها رأس معنى جديد يقوم على اعتراف الداعى بنعم الله عليه وهو مع هذا متصل بالمعنى السابق ، لأن الداعى لما طلب اللواذ بربة والاعتصام به من شر ما صنع ذكر أن هذا الشر الذى صنعه إنما هو قصور من نفسه لا من ربه لأن نعم الله عليه كثيرة فقال : " أبو لك بنعمتك على " ثم قال " " وأبوء بذنبى " فرجع مرة ثانية الى الاعتراف بالذنب زيادة فى التذلل وهضم النفس وكأنه لإسرافه على نفسه أحاط نعمة الله بالشرور والذنوب من كل جانب فلم يقدرها حق قدرها ولهذا وسط قوله : " أبو لك بنعمتك على " بين شر ما صنع وبين الذنب فى جملتى : " أعوذ بك من شر ما صنعت " و " أبوء بذنبى " .

ووصلت جملة :" وأبوء بذنبى " بالتى قبلها للمناسبة بينهما لأنهما معا تشتركان فى معنى الاعتراف والإقرار بالنعمة والذنب فهما اعترافان متتابعان متصلان "(١)

أبوء :

أصل البواء : مساواة الأجزاء فى المكان خلاف النبوة الذى هو منافاة الأجزاء ، وبوأت له مكانا : سويته ، وأبأت القوم منزلا وبوأتهم منزلا إذا نزلت بهم الى سند جبل أو قبل نهر والمباءة : المنزل ومنه مباءة الغنم ، وبوأة الله منزلا : أسكنه إياه ، والبواء : اللزوم .

---

(١) بلاغة الدعاء فى الحديث النبوى ٢٧٠ ونقلت الكلام بنصيه حبا ووفاء لأخى المؤلف .

فالمادة تدر حول الالتزام والرجـــوع والإقــرار واللــزوم والاعــتراف والمساواة والتعادل والتكافؤ . ([1])

وباء جاء فى القرآن على أربعة أوجه : استوجبوا ، وينزل ، وتُوُطِّـــن ، وترجع ([2]) وقيل : معناه أجمله برغمى لا أستطيع صرفه عنى .([3])

واختير " أبوء " على غيرها من هذه الألفاظ للآتى :

أولاً : فى النعمة للدلالة على أن نعم الله كثيرة قد أحاطت بالعبد حتـــى شـــملت المكان المهيأ فتمكنت منه ولازمته ويدل على ذلك قوله : " عَلَـــىَّ " التـــى تدل على الاستعلاء والتمكن .

ثانياً : فى الذنب للدلالة على أن الذنب قد كثر مع كـــثرة النعـــم حتـــى صـــار المذنب مأوى للذنب ، وهذا غاية فى التذلل وإبراز ضعف الإنسان الـــذى كان يجب أن يشكر على نعم ربه لا أن يعصى ويذنب .

لك بنعمتك :

" لك .. بنعمتك " بضمير الخطاب الـــذى يفيـــد الحضـــور الوجدانـــى والمشاهدة القلبية والأنس بربنا وولى نعمنا وفى ذلك الأمل والرجاء فى عفـــو الغفور الرحيم .

النعمة : مادة نعم ومشتقاتها وردت فى القرآن الكريم ١٤٤ مرة ولفظ نعمة ورد ٣٤ مرة .

والنعمة : الحالة الحسنة بناء الحالة التى يكون عليها الإنسان مشتقة من النعيـــم وهو راحة العيش وملائم الإنسان والترفه واليـــد البيضـــاء الصالحـــة

([1]) تاج العروس مادة بوأ والنهاية لابن الأثير ١٥٩/١ ، ١٦٠ والفائق للزمخشرى ١٣٣/١.

([2]) الوجه والنظائر ٢٦١/١.

([3]) فتح البارى ١١٧/٢٣.

والصنيعة والمَنّةَ والجمع نِعَم وأَنْعُمَ ونِعمات والفعل نَعِمَ يَنْعُم فالنِّعمةُ ذلك الشيء المتنعم به في حد ذاته وهي للجنس .

ونعمة الله : منه وما أعطاه الله تعالى العبد مما لايمكن غيره أن يعطيه إياه كالسمع والبصر .

ومتعلق النعمة : الذات الحسية ثم استعملت في اللذات المعنوية العائدة بالنفع ولو لم يحس بها صاحبها والمنفعة الحسنة المفعولة على وجه الإحسان إلى الغير ونفع الإنسان مَنْ دُونَهُ لغير عوض ، والخفض والدعة والمال ضد البأساء والبؤس .

والإنعام : إيصال ذلك الشيء المنعم به إلى المنعم عليه وخص بالعقلاء .

والتنعم : الانتفاع بالنعمة والتلذذ بها والترفه والنعيم .

والنعيم : النعمة الكثيرة .(1)

أنواع النِّعم :

النعم كلها من الله تعالى فكل ما يصل الى الخلق من النفع ودفع الضر فهو من الله تعالى وهي على أنواع :

النوع الأول : تفرد الله بإيجاده كالخلق والرزق والموت .

النوع الثاني : نعم وصلت من جهة غير الله تعالى في ظاهر الأمر وفي الحقيقة فإنما هي وصلت من الله تعالى لأنه تعالى الخالق لتلك النعمة والخالق لذلك المنعم والخالق لداعية الإنعام . فإنعام الخلق لا يتم إلا بإنعام الله .

---

(1) تاج العروس ولسان العرب مادة نعم والمفردات ٤٩٩-٥٠٠.

النوع الثالث : نِعَمٌ وصلت إلينا بسبب الطاعات فهى من الله حقيقة لأنه تعالى وفق للطاعات وأعان وأزاح الأعذار عنا .[1]

فعند التأمل جميع النعم فى الحقيقة من الله تعالى ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ ﴾(النحل ٥٣) .

أصل نِعم الله تعالى على العبيد :

أصل نعم الله تعالى على العبيد أن خلقهم أحياء فالحياة أصل جميع النعم ونعم الله تعالى مع استحالة حصرها تنحصر أصولها فى نعم دنيوية ونعم أخروية .

فالنِّعم الأخروية مغفرة الله ورضاه وجنته والمراد ما يكون وصلة إلى نيله فى الآخرة فإن ما عدا ذلك يشترك فيه المؤمن والكافر .[2]

مدى إحساس المؤمن بنِعَم الله تعالى عليه :

مما يسخط الناس على أنفسهم وعلى حياتهم ويحرمهم لذة الرضا أنهم قليلوا الإحساس بالنِّعم لأنها فقدت قيمتها بإلفها أو بسهولة الحصول عليها .

والمؤمن يكون عميق الإحساس بنعم الله تعالى عليه تحيط به ويرى آثار رحمة الله ونعمته فى كل شىء حوله ، ونعمة الله فى شخصه فهى أعظمها فقد منحه الله تعالى الخلق والإنسانية والإدراك والعلم والبيان النطقى والخطى والرزق والإيمان والهداية .

---

(١) التفسير الكبير ٢٦٢/١.

(٢) تفسير البيضاوى ١١/١ .

سر كثرة إضافة النعمة إلى لفظ الجلالة " الله " و " الرب " :

لهذه الإضافة أسرار منها :

١-إبراز محبة العبد لخالقه ، إذ النفس مجبولة على حب من يحسن إليها وينعم عليها .

٢-إقرار المنعم عليه بأن النعمة من الله تعالى .

٣-على المنعم عليه يجب أن يشكر الله تعالى واهب النِّعم .

٤-تذكير بعدم بطر من أنعم الله تعالى عليه لأن البطر يسلب النعمة .

٥-أن يعلم المنعم عليه أن الأيام مداولة بين الناس فكما أنعم الله عليه قادر على أن ينعم على غيره ويسلب منه تلك النعمة التى أولاها أياه .

٦-هذه الإضافة تكسو النعمة ثوبا من التعظيم مما يجعل تذكر واحدة منها كافيا فى سجود العبد لربة شكراً عليها فكيف بتذكر نعمه كلها أو بعضها كما [illegible] أن الإنسان مهما أطاع ربه لا يستطيع أن يؤدى شكر نعمة واحدة.

[illegible]نعمة :

ليس التحدث بنعم الله مقصورا على القول وحديث اللسان بل هو شامل للقول والفعل والحركة والسلوك ، فالنِّعْمَةُ اسم هيئة وهذا يوحى بأن تكون هيئة الإنسان المسلم مظهرا من مظاهر نعمة الله تعالى عليه ومصداقا لهذه النعمة وترجمة عملية لها ، ومن التحدث بنعمة الله تعالى الشكر عليها بالقول والفعل واستخدامها فى طاعة الله تعالى .(1)

---

(1) ينظر مقال " النعمة استقاقاتها - أنواعها فى السياق القرآنى دراسة بيانية تحليلية " د. محب جلال عبد الفراج ، مجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة ١/٣٧٧ -٤٦٥ عدد ٩ سنة ٢٠٠٣م.

بذنبى :

الذَّنْبُ : فى الأصل الأخذ بِذَنَب الشىء ، ذنبته : أصبت ذنبه ، ويستعمل فى كل فعل يُسْتَوْخَمُ عقباه اعتبارا بِذَنَبِ الشىء ولهذا يسمى الذَّنْبُ تبعة اعتبار لما يحصل من عاقبته فالذَّنْبُ : الإثم والجرم والمعصية ونظرا إلى أنه مأخوذ من الذَّنَبِ وهو الذيل صار يطلق على الشىء الدنىء الخسيس الرَّذْل يقال : ذَنَبُ الرجل وأذناب الناس : أتباعهم وسفلتهم دون الرؤساء وجاء فلان بِذَنَبِهِ أى بأتباعه ([1]) والمراد بالذنب فى الحديث التقصير عن أداء شكر النعم أو الذنب مطلقا وإضافة الذنب إلى ضمير الداعى مع ما فى الذنب من معانى الخسة والدناءه " والرزاله " مبالغة فى استجلاب العفو وإقرار بأن العبد لايقدر أن يخلص نفسه من قذاره الذنب إلا بعفو الله ومغفرته ، وأفرد الذنب تعظيما لخطر الذنب وأن الذنب الواحد محتاج إلى طلب مغفرة فكيف بالذنوب الكثيرة .([2])

وفى قول الداعى بـ " سيد الاستغفار " وأبو بذنبى " من الاعتراف بالذنب والإقرار به ما يأمل أن يكون مثل جماعة الأعرب الذين تخ
غزوة تبوك ثم اعترفوا بذنبهم فقبل الله عذرهم قال تعالى : ﴿
بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة ١٠٢) .

و"عسى" فعل رجاء كناية عن وقوع المرجو ، وأن الله قد تاب عليهم فـ" عسى" للإطماع وهو من أكرم الأكرمين إيجاب وأى إيجاب والاعتراف دال على التوبة لما بينهما من اللزوم عرفا قال مطرف : وأرجو أن أكون أنا وأنتم

([1]) تاج العروس ولسان العرب ماده ذنب والمفردات ١٨١ .

([2]) بلاغة الدعاء فى الحديث النبوى ٣٢.

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

الجملة العاشرة

تعليل الدعاء الثانى : " فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت "

" فإنـــه "

التعليل بالفاء والاستئناف بـــ " إنَّ " يأتيان فى مواضع الاحتجــــاج لمـــا قبلها والاستدلال على صحته .

والاستئناف بـــ " إنَّ " حين يكون الموقف موقف تردد وإنكار لإزالة هـذا التردد وإقناع المنكر " ولذلك ألفت " إنَّ " مواطن السؤال عن السبب الخاص لما يصاحبها من التردد والإنكار كما أنها تكثر عقب الأوامر والنواهى التى يحتــاج تنفيذها إلى كلفة ومشقة فكان ما فيها من مصارعة النفــــس ومغالبـــة الـــهوى والتثاقل فى أدائها بحاجة إلى ما فى حرف التوكيد من الإلهاب والتهيج " . (1)

" وأما التعليل بالفاء فإنه يخرج السبب مخرج الأمـــــر الـــذى لا ينكـــره المخاطب ولا يتردد فيه حقيقة أو تنزيلا ويكون فى مقام التوبيخ والتهديد أشـــــد لذعاً وأكثر إيجاعاً " . (2)

ويحل كل منهما مقام الآخر فى الربط بين جملة ال[illegible]ـــها إلا أن لكل منها مقامه فالفاء توحى بأسرار لا تفيدها " إنَّ " وك[illegible] إن " لها أسرارها التى لا تفيدها الفاء . (3) والضمير فى " فإنه " ضمير [illegible]قد صادف موقعه ففيه تفخيم لما يحققه من الإيضاح بعد الإبهام فالنفس [illegible]توف عند الضمــير

---

(1) من أسرار حروف العطف فى الذكر الحكيم " الفاء وثم " د. محمد الأمين الخضـوى ١١٣ مكتبة وهبة ط أولى ١٩٩٣ .

(2) المرجع السابق نفسه ١١٤ .

(3) المرجع السابق ١١٦ ، ١١٧ .

الذى لا عائد له تتشوق إلى معرفة إبهامه فيأتى ما بعده موضحاً فيتمكن المعنى فى الذهن ويستقر فى القلب . [1]

وفى جملة التعليل " فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت " قد جمع بين الفاء و " إن " فالفاء : تشير إلى الاعتراف بربوبيته تعالى ووجدانيته وبأنه الخالق وبالإقرار بالوفاء المطلق على عهده تعالى ووعده وبالاعتراف بنعمه وأن هذه الأمور ثابتة مقررة فى ذهن الداعى ليس فيها شبهة تردد أو إنكار وفى ذلك إيحاء إلى النفس المطمئنة التى اطمأنت إلى ربها بعبوديتها له ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه . [2]

و " إنّ " تشير إلى شر الصنيع المستعاذ منه والاعترف بالذنب وكأنه بارتكابه هذين الجرمين نزل نفسه منزلة المتردد وأتى بـ " إنّ " لتوحى بأن أمارات التردد والشك ينبغى أن تمحى من حياته وأن يطهرها دائماً من الرذائل.

وفيها دلالة على النفس اللوامة التى تلوم صاحبها على تقصيره فى طاعة الله مع بذله الجهد على النفس الأمارة التى تأمر بكل سوء وكأنه يشهر سلاح التوكيد لمواجهتها وإحباط دواعيها . [3]

ومن المقرر لدى جمهور النحويين أن الجملة التعليلية نوع من الجمل الاستئنافية لأن الجمل الاستئنافية تأتى تفسير لما قبلها أو بياناً أو توكيداً أو حالاً أو وصفاً أو تعليلاً وهذه الجمل لا محل لها من الإعراب . [4]

---

[1] شروح التلخيص ١/٤٥٠-٤٥١ .

[2] النفس فى القرآن د . أحمد عمر هاشم ٢٧-٢٩ دار الفيصل ١٩٩٦م .

[3] النفس فى القرآن ٢٩ - ٣٦ .

[4] انظر الجملة المستأنفة مغنى اللبيب لابن هشام مع حاشية الدسوقى ٢/٤١-٤٥ مطبعة المشهد الحسينى ١٣٨٦هـ .

وقد ذهب البعض إلى أن الجمل التى تأتى تعليلاً هى جملة تعليلية فى موضع نصب كالمفعول لأجله وتقدر اللام وتؤول بمصدر متعلق بما قبله تعلق المفردات فيكون لها موضع من الإعراب . (1)

وأوثر حرف النفى " لا " لأن " لا " هنا لنفى الحدث وتستعمل مع الفعل أكثر مما تستعمل مع الاسم لاسيما الفعل المضارع ولهذا فهى تدل على النفى على مطلق الزمن الماضى والحاضر والمستقبل فالفعل المضارع فيه من الشمول والاتساع بحيث يشمل الأزمنة الثلاثة .. . و " لا " هذه ليس لها أثر من حيث الإعراب النحوى فيما بعدها . (2)

و " أل " فى " الذنوب " إما للعهد الخارجى الصريحى حيث تقدم لمدخولها ذكر صريح فى الكلام فى قوله : " وأبوء بذنبى " ويكون الغرض من الجمع المبالغة فى تصوير خطر ذنبه وكأنه ذنوب كثيرة أحاطت به لما يترتب عليه من آثار نفسية واجتماعية واقتصادية خطيرة تضر بصاحبه وبمن حوله .

وإما للاستغراق بأن يراد بمدخولها جميع الأفراد المندرجين تحت الحقيقة عند قيام القرينة الدالة على ذلك وسميت لام الاستغراق لاستيعاب جميع أفراد الحقيقة .

وهى هنا للاستغراق الحقيقة أى هى التى يشار بها للحقيقة فى ضمن جميع الأفراد التى يتناولها اللفظ بحسب وضعه بقرينة حالية كما هنا لاستحالة أن يوجد غير الله تعالى يغفر الذنوب أو قرينة لفظية . (3)

---

(1) إعراب النص دراسة فى إعراب الجمل التى لا محل لها من الإعراب د. حسنى عبد الجليل يوسف ٩٣-١٠٣ دار الآفاق العربية بالقاهرة ١٩٩٧م .

(2) أسالب النفى فى القرآن " د. أحمد ماهر البقرى ٢٤-٢٩ دار المعارف ١٩٨٥م .

(3) شروح التلخيص ٣٢٨/١ ، ٣٢٩ .

ويكون الغرض من الجمع تأكيد العموم والشمول فالذنوب " تشمل ذنوب جميع العباد فى الماضى والحاضر والمستقبل من عهد آدم إلى قيام الساعة ".

والخطاب " أنت " يدل على استمرار الحضور الوجدانى والمشاهدة القلبية تأكيداً على منزلة الإحسان مما يوجد فى نفس الداعى الأنس والقرب ويعمق الرجاء فى إجابة دعائه ويحقق الأمل فى غفران ذنبه .

بلاغة القصر فى حديث " سيد الاستغفار " :

من الظواهر الفنية فى الدعاء النبوى أننا نجد تتابع جمل القصر فى الدعاء الواحد قصدا إلى زيادة توكيد المعنى ودلالة على شدة الإلحاح فى الدعاء والرغبة فى القبول والإجابة . (1)

وهذا ما تحقق فى دعاء " سيد الاستغفار " فقد جاء القصر فى أربعة مواضع بطريقين :

الطريق الأول : النفى والاستثناء فى قوله : " لا إله إلا أنت " وفى قوله : " لا يغفر الذنوب إلا أنت " .

الطريق الثانى : تعريف الطرفين فى قوله : " أنت ربى " وفى قوله : " وأنا عبدك " .

الطريق الأول : النفى والاستثناء

طريق النفى والاستثناء من أهم طرق القصر " فهو لا يتأتى إلا فى المعنى الذى يحتاج إلى فضل تقرير وتوكيد وفى المعانى الحاسمة وأن هذا الطريق فيه من الاقتدار والحدة ما يجعلها قادرة على أن تحمل تلك المعانى التى

---

(1) بلاغة الدعاء فى الحديث النبوى ١٨١ .

يراد بها لفت المخاطب إلى حقيقة قد أغفلها وسار في أمره على غير هداها . (1)

وفى حالة الدعاء لا يتصور فيه إنكار مخاطب أو تنزيله منزلة منكر لأن المخاطب فى الدعاء هو الله تعالى وإنما يراعى حال المتكلم الداعى وعمق إحساسه بالمعنى وتصويره له تصويراً يلائمه ويعبر عن حالة فى نفسه (2) . فـ " القضية عند التحقيق قضية متكلم لأن العبارة تتأثر بما وعاه المتكلم من حال المخاطب يعنى بحال المخاطب المنعكسة فى نفس المتكلم وليس حال المخاطب فى ذاته " . (3)

وطريق النفى والاستثناء من أساليب القصر الشديدة الوقع البالغة التأثير يعبر عن قوة الدعاء وشدة رغبة الداعى فى الإجابة ويشير إلى رسوخ معانى الدعاء فى عقيدة المسلم واستقرارها فى يقينه .

ففي قوله : " لا إله إلا أنت " قصر صفة الألوهية على ضمير المخاطب وهو الله تعالى قصر صفة على موصوف قصراً حقيقياً تحقيقياً بحسب الواقع .

وجاء القصر بطريق النفى والاستثناء مع أن الداعى يعلم التوحيد ويقر بتوحيد الألوهية ولكن لما كان حريصاً على الأخذ بأسباب الإجابة شغوفاً إلى مرضاة ربه صار فى حكم المنكر فنزل منزلته فجاء القصر بالنفى والاستثناء ليشير إلى هذه المعانى .

---

(1) دلائل الإعجاز تعليق الشيخ محمود شاكر ٣٢٨ - ٣٥٤ وشروح التلخيص ٢/١٩٣-٢٣٤ وبغية الإيضاح ٢/١٢ ، ١٣ ، ١٦ - ٢٩ .

(2) بلاغة الدعاء فى الحديث النبوى ١٧٧ .

(3) دلالات التراكيب د. محمد أبو موسى ٧٦ مكتبة وهبة ط ثانية ١٩٨٧م .

وفيه أيضاً الحرص على ذكر كلمة التوحيد " لا إله إلا الله " التى تعد من أعظم الثناء على الله تعالى مما يناسب التمهيد لإجابة الدعاء .

فقد جاء فى الحديث " أفضل الذكر لا إله إلا الله " وإنما كانت أفضل الذكر لأن الإيمان لا يصح إلا بها ولأنها كلمة التوحيد وكلمة الحق وكلمة الإخلاص ولأنها تؤثر تأثيراً بيناً فى تطهير القلب عن كل وصف ذميم راسخ فى باطن الداعى وسببه أن " لا إله " نفى لجميع أفراد الآلهة و " إلا الله " إثبات للواحد الحق الواجب الوجود لذاته المنزه عن كل ما لا يليق بجلاله .([1])

وفى التعبير بضمير الخطاب مع ما سبق فيه إشارة إلى أن يحقق له الإجابة السريعة اقتداء بسيدنا يونس ﴿ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . ([2])

وفى قوله : " فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت "

طريق النفى والاستثناء ناسب مقام الداعى هنا لأنه يطلب الغفر أى الستر للذنوب وهو مجاز فى عدم المؤاخذة عن الذنب وهذا لا يصدر إلا عن ندامة ونية إقلاع عن الذنب وعدم العودة إليه ولذا كان الاستغفار فى لسان الشارع بمعنى التوبة . ([3])

وطريق النفى والاستثناء يشير إلى هذه المعانى المهمة وإلى المعاناة النفسية التى يتحملها الداعى فى سبيل التخلص من أوزار الذنوب وإلى المشاعر المضطرمة فى نفس الداعى والمترددة بين الخوف من عدم الإجابة والرجاء فى

([1]) الفتوحات الربانية ١/٢١٣-٢١٤ .

([2]) سورة الأنبياء : الآية ٨٧ ، ٨٨ .

([3]) التحرير والتنوير ٤/٩٢ ، ٩٣ .

الإجابة من أجل هذا نزل الداعى منزلة الجاهل المنكر فاستعمل طريق النفى والاستثناء .

والجملة نظير قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ ﴾ (١) والاستفهام فى الآية للإنكار والنفى و " أن هذا الإنكار أو النفى لا لإنكار الواقع ونفيه ولا لإنكار الوقوع ولكنه نفى لتوهم الوقوع عند من يقع عنده هذا الوهم إذ لا أحد من الناس ادعى أنه يملك غفران الذنوب وصكوك الغفران التى ادعاها البابوات فى أوروبا وزعمهم أنهم يملكون العفو ومغفرة الذنوب حدثت بعد نزول القرآن بدهر طويل ولذلك فإن مواجهة هذه الظاهرة لم تكن ملحوظة فى عصر النزول " . (٢)

ففى الجملة وفى الآية قصر غفران الذنوب على الله تعالى قصر صفة على موصوف قصراً حقيقياً تحقيقياً . (٣)

والجملة توحى بأن الداعى يحاول أن يحقق فى نفسه مرتبة المتقين الذين أعدت لهم مغفرة من ربهم وجنة عرضها السموات والأرض والذين من أوصافهم ﴿ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.(٤)

ولا عجب فى ذلك فقد حققوا فى أنفسهم أركان التوبة فكان استغفارهم قولاً وعملاً مما يفتح باب الرجاء فى قبول الدعاء وغفران الذنوب من خير الغافرين سبحانه وتعالى . (٥)

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٣٥ .

(٢) التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم ١/١٨٠ ، ١٨١ .

(٣) علم المعانى د. بسيونى فيود ٢/٢٩ مؤسسة المختار بالقاهرة ودار المعالم الثقافية بالأحساء ط أولى ١٩٩٨م .

(٤) سورة آل عمران : الآية ١٣٥ .

(٥) انظر بلاغة الدعاء فى الحديث النبوى ٢٧١ .

الطريق الثانى : تعريف الطرفين :

ما عليه جمهور البلاغين أن طرق القصر أربعة : التقديم ، والعطف بـ " لا وبل ولكن " والنفى والاستثناء وإنما ، وأضاف بعضهم : تعريف أحد طرفى فى الجملة بـ " أل " ، وتوسط ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر (١) وتعريف الطرفين . وزاد بعضهم طرقا أخرى أو صلها السيوطى إلى أربعة عشر طريقا ، ولكن اقتصر على الأربعة لأنها غنية بالاعتبارات والملاحظات دون غيرها (٢) وتعريف الطرفين من الطرق التى يكون القصر فيها بدلالات فى الكلام تفهم من تعريف طرفى الإسناد فى الجملة ويكون فى الجمل الاسمية كما فى حديث سيد الاستغفار " أنت ربى " " وأنا عبدك " فقد يفيد تعريف طرفى الإسناد القصر بمساعدة قرائن الأحوال أو المقال مع إفادته تقوية الإسناد وتوكيد . (٣)

تعريف تحديد طرفى القصر : المقصور عليه فى طريق تعريف الطرفين .

فى طريق تعريف الطرفين يكون تحديد طرفى القصر : المقصور والمقصور عليه على حالتين :

الحالة الأولى : إذا كان أحد طرفى الجملة معرفاً بـ " أل " الجنسية قيل المقصور هو المعرف بـ " أل " الجنسية سواء تقدم أو

---

(١) علم المعانى د . بسيونى فيود ٢/٦/٢٣ .

(٢) من أسرار التركيب البلاغى د. السيد عبد الفتاح حجاب ١٢٠ المكتبة التوفيقية ط أولى ١٩٧٧ م .

(١) علم المعانى د . بسيونى فيود ٢/٤٤ .

(٢) الإتقان ٣/١٦٦ -١٧٨ النوع الخامس والخمسون فى الحصر والاختصاص الهيئة المصرية العامة للكتاب-والمطول ٢١٠ مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠ ه .

(٣) البلاغة العربية عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى ١/٥٣٦ ، ٥٤٤ وعلم المعانى د/بسيونى فيود ٢/٤٤ .

تأخر. ([1]) وقيل : المقصود هو المبتدأ الذى يجب فى هذه الحالة تقديمه ، والمقصور عليه الخبر الذى يجب فى هذه الحالة تأخيره .([2])

الحالة الثانية : إذا كان طرفا الجملة معرفين بـ " أل " الجنسية أو معرفين بغيرها يكون السياق هو الذى يحدد المراد ويعين المقصور عليه فى الجملة . ([3])

وفى قوله : " أنت ربى " قصر ﷺ فيه الربوبية على الله تعالى قصر صفة على موصوف قصرا حقيقيا فأنت ترى أن المقصور عليه " أنت " المبتدأ والمقصور " ربى " الخبر والسياق وقرائن الحال هى التى حددت ذلك لأنه يستحيل هنا أن تقصر المبتدأ أنت أى الله تعالى على الخبر .

وأنا أرى أنه لا قصر فى قوله : " أنت ربى " وأنها لإفادة تأكيد الحكم وتقريره لأن الربوبية ظاهرة بينية لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يشك فيها فعقلاء الناس فى كل زمان ومكان يتحاشون دائما أن ينسبوا شيئا من صفات الربوبية لغير الله تعالى الرب الخالق الذى لا رب غيره ولا إله سواه وذلك لما يعلم الإنسان العاقل ذو الفطرة السليمة من عدم صلاحية المخلوقين للاتصاف بصفات الربوبية وعجزهم عنها لأن المخلوق لا يخلق والمملوك لا يملك ، ويكفى شاهدا على هذه الحقيقة اعتراف مشركى العرب حين نزول القرآن وهم يدعون إلى عبادة الله تعالى وحده اعترافهم بعدم صلاحية آلهتهم لشىء من

([1]) البلاغة العربية عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى ١/٥٣٦ ، ٥٤٤ وعلم المعنى بسيونى فيود ٢/٤٤ .

([2]) من أسرار التركيب البلاغى د. السيد عبد الفتاح حجاب ١٢٠ المكتبة التوفيقية ط أولى ١٩٧٧ م .

([3])علم المعانى د . بسيونى فيود ٢/٤٤ .

صفات الربوبية وحقائقها مع شدة تعصبهم لتلك الآلهة وتقديسهم لها وتعظيمهم فإنهم كانوا لا يترددون فى الاعتراف بعدم صلاحية الإنسان فضلا عن غيره من التماثيل والأصنام للاتصاف بصفات الربوبية فلم يكونوا ينتحلونها لأفرادهم ولا لآلهتهم ولا يدعونها لها بحال وذلك لما وقر فى نفوسهم بحكم الفطرة البشرية من عجز المخلوقين عن الخلق والرزق والتدبير والملك " [1] .

وفى قوله : " وأنا عبدك " قصر نفسه - ﷺ - على صفة العبودية قصر موصوف على صفة قصرا حقيقيا تحقيقيا .

وفى هذا القصر دلالة على شدة خضوعه ﷺ وتذلله إليه - سبحانه وتعالى وهذا هو اللائق بمقام الدعاء .

" وتعريف الطرفين طريق ملائم للمعنى فى الجملتين لأنه يدل على أن هذا المعنى ظاهر معلوم لا يحتاج إلى تشدد فى بناء العبارة لأنه نابع من فطرة النفس فى يسر وسهولة " [2] .

كثرة الأساليب الخبرية فى الدعاء النبوى

من يقرأ حديث " سيد الاستغفار " يجد كثرة الجمل الخبرية تحيط بجملتى الدعاء " أعوذ بك من شر ما صنعت " ، و " فاغفر لى " وتتركز حول معنيين :

المعنى الأول : الثناء على الله تعالى بما هو أهله كما هو الحال فى أكثر فواتح الدعاء النبوى ومطالعه وذلك فى الجمل " أنت ربى " ، " لا إله إلا أنت " ، " أنت خلقتنى " وفى ذلك استعطاف الله تعالى والتقرب إليه بأسمائه وصفاته ، وفيه ترقيق لنفس الداعى

---

(1) عقيدة المؤمن أبو بكر الجزائرى ٧٤-٨٤ .

(2) بلاغة الدعاء فى الحديث النبوى ١٨٢ .

واستثارة لعواطفه بما تثيره هذه الأسماء والصفات في نفس الداعى من المعانى .

المعنى الثانى : وصف الداعى حاله وصفا يستعطف به ربه ويتناسب مع ما يطلبه فى دعائه وذلك فى الجمل " وأنا عبدك " ، و " ، " وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت " ، " أبوء لك بنعمتك على " ، " وأبوء بذنبى " .

ففى ذلك ذكر الله بأكمل الأوصاف وذكر الداعى نفسه بأنقص الحالات وهو أقصى غاية التضرع ونهاية الاستكانة لمن لا يستحقها إلا هو سبحانه وتعالى " مما يدل على التلطف فى الدعاء والتوطئة له وإكثار التذلل والاستعطاف قبله وبعده ليحاط بالقبول على قدر إحاطته بالثناء والتذلل " ([1]).

وأما قوله : " فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت " فهى جملة تعليلية – كما سبق – وذلك شأن الدعاء النبوى الذى كثرت فيه الجمل التعليلية للدعاء ([2]) تكشف علة الدعاء وتبين سببه مما يريح نفس الداعى ويبعث فى قلبه الطمأنينة ويقوى رجاءه فى الإجابة .

حديث " سيد الاستغفار " والإيجاز "

حديث " سيد الاستغفار " يمثل قمة إيجاز القصر الذى هو أن يقصر اللفظ عن أداء المعنى على وجه يطابق مقتضى الحال ([3]) أى ما قل لفظه وكثر معناه مع الوفاء بالمعنى من غير حذف وهو ما يعبر عنه بـ " جوامع الكلم " التى اختص بها الكلام النبوى عامة والدعاء النبوى خاصة فقد كان ﷺ يدعو بجوامع الدعاء ويعلمها أصحابه ويحثهم على اختيار الكوامل الجوامع .

([1]) انظر تفصيل هذه الظاهرة بلاغة الدعاء فى الحديث النبوى ٤٤-٤٨ .

([2]) المرجع السابق نفسه ٢٦٧ - ٢٧١ .

([3]) شروح التلخيص ١٧١/٣ .

وشرط إيجاز القصر أن يخلو من الأسباب التى يغمض الكلام لأجلها بأن يبعد المتكلم عن المبالغة فى الإيجاز والكلمة الوحشية والأسماء المشتركة أو بأن يكون المعنى فى نفسه دقيقاً أو يحتاج فهمه إلى مقدمات إذا تصورت بنى ذلك المعنى عليها .(١)

والبلاغة بعناصرها الثلاثة : القصد والخلوص والاستيفاء تحققت " فى البلاغة النبوية هذا النوع من الكلم الجامعة التى هى حكمة البلاغة " . (٢)

" وكان ﷺ طويل الصمت دائم السَّكْت يتكلم بجوامع الكلم لا فضل ولا تقصير وكان يبغض الثرثارين المتشدقين . (٣)

وأن رسالة النبى - ﷺ - تقوم على الإبلاغ وأن أقوى الإبلاغ " فى كلام النبى - ﷺ - هو اجتماع المعانى الكبار فى الكلمات القصار اجتماع العلوم الوافية فى بضع كلمات وقد يبسطها الشارحون فى مجلدات . (٤)

فالدعاء النبوى ينظر فيه إلى ألفاظه من حيث قلتها وكثرة معانيها فألفاظه قليلة ومعانيه كثيرة حَيَّرَتْ أرباب البلاغة وفرسان الفصاحة . وينظر فيه إلى أغراضه ومدى شمولها لخيرى الدنيا والآخرة ووفائها بحاجات النفوس فى عاجلها وآجلها " فجوامع الدعاء هى التى تجمع الأغراض الصالحة والمقاصد الصحيحة أو التى تجمع الثناء على الله وآداب المسألة وعلى غير

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى شرح عبد المتعال الصعيدى ٢١٢ ، ٢١٣ مكتبة محمد على صبيح ١٩٦٩م .

(٢) إعجاز القرآن البلاغية النبوية الرافعى ٣٣٩ دار الكتاب العربى بيروت .

(٣) رسائل الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ١٥١/٤ مكتبة الخفاجى .

(٤) عبقرية محمد العقاد ٦٩ ، ٧٧ دار النهضة مصر القاهرة .

ذلك وهى التى تشمل طلب حصول كل خير دينى ودنيوى وهذا معنى قولـــهم : الدعاء كلما عَمَّ تَمَّ " . [1]

وحديث سيد الاستغفار قد تحقق فيه كل ما سبق وأكتب ما نقله العلمـــاء عن ابن أبى حمزة فيما كتبه عن إيجاز الحديث : " جمع ﷺ فى هذا الحديـــث من بديع المعانى وحسن الألفاظ ما يحق له أن يسمى سيد الاستغفار ففيه الإقرار لله وحده بالإلهية والعبودية والاعتراف بأنه الخالق والإقرار بالعهد الذى يـــأخذه عليه والرجاء بما وعده بـــه والاستعاذة من شر ما جنـــى العبـــد علـــى نفســـه وإضافـــة النعماء إلـــى موجـــدها ، وإضافـــة الـــذنب إلى نفسه ، ورغبته فى المغفرة ، واعترافه بأنه لا يقدر أحد على ذلك إلا هو ، وفى كل ذلك الإشـــارة إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة فإن تكاليف الشريعة لا تحصل إلا إذا كان فـــى ذلك عون من الله تعالى الذى يكفر عنه بالحقيقية فلو اتفق أن العبد خالف حتـــى يجرى عليه ما قدر عليه وقامت الحجة عليه ببيان المخالفة لـــم يبـــق إلا أحـــد أمرين : إما العقوبة بمقتضى العدل أو العفو بمقتضى الفضل " .

ثم نقلوا عنه أيضا من شروط الاستغفار صحة النيـــة والتوجـــه والأدب فلو أن أحدا حصل الشروط واستغفر بغير هذا اللفظ الوارد لكن أخل بالشـــروط هل يستويان ؟ فالجواب أن الذى يظهر أن اللفظ المذكـــور إنمـــا يكـــون ســـيد الاستغفار إذا جمع الشروط المذكورة . [2]

البشرى للداعى بـــ " سيد الاستغفار "

من قالها بالنهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسى فهو مـــن أهـــل الجنة ومن قالها بالليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة .

---

(1) الفتوحات الربانية ١٩٣/٧ وبلاغة الدعاء فى الحديث النبوى ٢٨٥- ٢٩٣ .

(2) فتح البارى ٢٣ / ١١٧ ، ١١٨ .

يختتم النبى - ﷺ - حديث " سيد الاستغفار " ببيان جزاء قائلـه وتـأكيد البشرى باستحقاقه الجنة وذلك فى جملتين شرطيتين تبرزان الجزاء فى صـورة مؤكدة لا تقبل شكا أو إنكاراً وأحاول هنا – بعونه تعالى - أن أسجل شـيئا مـن خصائص نظم الجملتين الفنية على النحو الآتى : -

الجملة الشرطية : هى الجملة المركبة تركيبا شرطيا أى المكونة من أداة الشرط ومن جملتى الشرط والجواب .

وجملة الشرط : هى الجملة الفعلية أو الاسمية تلى أداة الشرط .

والشرط : تعليق شيء على آخر وجودا وعدما .

وأداة الشرط تحتاج إلى فعلين : فعل الشرط وجواب الشرط أو جزاؤه .

وفعل الشرط سمي بذلك لأن المتكلم يعتبر تحقيـق مدلـول الجـواب ووقوع معناه ولا يمكن عند المتكلم أن يتحقق معنى الجواب ويحصـل إلا بعـد تحقيق معنى فعل الشرط وحصوله سواء أكان الشرط سببا فى وجود الجـواب والجزاء أم غير سبب بأن يكون الشرط ملزوما والجواب لازما .

وجواب الشرط : الفعل الثانى المرتب على فعل الشرط ترتب الجـواب علـى السؤال ويسمى كذلك " جزاء " لأن مضمونة جـزاء لفعـل الشرط (1) .

وأداة الشرط هنا " مَنْ " وفعل الشرط " قالها " وجواب الشرط " فهو مـن أهل الجنة" ونظرا لأنه جملة اسمية لا تصلح أن تكون شـرطا اقـترن بالفـاء وجوبا.

---

(1) النحو الوافى عباس حسن ٤/٤٢٢ ، ٣٠٨ وشرح التصريح على التوضيح للشـيخ خـالد الأزهرى ٢/٢٤٨ دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابى الحلبى وشركاه .

هذا عند النحويين ، أما البلاغيون فقد ذكروا الجملة الشرطية فى أحـــوال المسند والتى منها تقييد الفعل الواقع فى جملة الجواب والجزاء بالشرط ويفـــهم من ذلك أن الجزاء (جملة الجواب) هو الكلام المقصود بالإفادة وأمـــا جملــة الشرط فليست كلاما مقصودا لذاته بل مذكورة على أنها قيد لحكم الجزاء بمنزلة الفضلات كالمفعول والظرف فإن قلت : إن جئتنى أكرمتك فـــالمعتبر لأصـــل الإفادة هو الإخبار بالإكرام وأما الشرط وهو المجـــىء ، فهو قيد فيـــه فكـــأنك قلت : أكرمك وقت مجيئك . ([1])

وبذلك يتبين لنا أن جملة الجزاء " فهو من أهل الجنـــة " هـــو الغـــرض من الكلام والهدف الـــذى تشحـــذ إليـــه الـــهمم وتبـــذل مـــن أجلـــه الأرواح والمنهج . ([2])

أداة الشرط " مَنْ "

" مَنْ " وضعت فى أصل معناها للدلالة على شىء يعقل فإذا تضمن معـــه معنى الشرط صارت أداة شرطية للعاقل فتفيد تعليق وقوع الشرط عنـــد عـــدم المانع ، وهى اسمية باتفاق ويمتنع اتصالها بـــ " ما " الزائدة عند استخدامها أداة شرط جازمة .

وعند تأمل استعمالات " مَنْ " الشرطية فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف نجدها وسيلة تقرر حقائق وتؤكد على قضايا خطيرة تتعلق بدين المـــرء وإيمانه وما يتعلق بذلك من أعمال وصفات يقتضيها الإيمان ولا يكمل إلا بـــها

([1]) مواهب الفتاح - ضمن شروح التلخيص ٢/ ٢٦ .

([2]) انظر " الجملة الشرطية عند النحاة وعند البلاغيين " الجملة الشرطية الواقعة فى خواتيـــم الآيات القرآنية ومقاماتها البلاغية رفعت السودانى ١٠-٣٤ط أولـــى ١٩٩٥ م الـــتركى بطنطا .

مع بيان الجزاء والعاقبة وتحذر من المعاصى وتعدى الحدود وارتكاب المخالفات وتبين العاقبة والعقاب ، وتُكَوِّن فى جملتها منهجا تربويا للنفوس المؤمنة وترغيبا وترهيبا لمن يريد النجاة ووعدا ووعيدا لمن يتحرى الصراط المستقيم ويتقى الضلال والمعاناة ، وهى هنا تبرز جزاء الجنة لمن قال سيد الاستغفار بآدابه وشروطه .

قيمة الأسلوب الشرطى الفنية

الأسلوب الشرطى عامة يمتاز بربط بين أجزاء الكلام ربطا ملاحظا فيه ترتب المسبب على السبب فإذا ذكرت أداة الشرط وأردفت بفعل الشرط تشوقت النفس إلى ذكر ما سيكون فإذا ذكر الجواب بعد هذه الإثارة وهذا التشويق تمكن أيما تمكن . (١)

وأسباب التشويق فى الجملة الشرطية ثلاثة :

الأول : جملة الشرط تشوق إلى تمام المعنى بجملة الجواب .

الثانى : جملة الشرط سبب إلى معرفة المسبب وهو جملة الجواب .

الثالث : أداة الشرط مبهمة تشوق إلى توضيحها بالشرط والجواب . (٢)

هل الجملة الشرطية إنشاء ؟

الجملة الشرطية يحكم عليها إنشاء أو خبرا باعتبار جوابها فإذا كان الجواب طلبيا فهى إنشائية وإن كان غير ذلك فهى جملة خبرية . (٣)

---

(١) راجع تفصيل ذلك " الجملة الشرطية التى أداتها " مَنْ " الواقعة فى خواتيم الآيات القرآنية المرجع السابق ٤٤٠-٥٠٩ .

(٢) التشويق خصائصه ووسائله فى البلاغة العربية السيد أحمد محمد موسى ٤٦٥ ، ٤٦٦ رسالة ماجستير كلية اللغة العربية بالمنصورة ٢٠٠٢ م .

(٣) أسلوب الشرط بين النحويين والبلاغيين د. فتحى بسيونى حموده ٢٦١-٢٦٢دار البيان العربى بجدة ١٩٨٥م، الأساليب الإنشائية عبد السلام هارون ١٨٠-١٩٥. مكتبة الخفاجى ١٩٧٩م .

" **قالها** " :

من خلال ما سبق يتضح أن الدعاء بـ " سيد الاستغفار " ليس مجرد قول بل لما كان طلب الصفح عن المؤاخذة بالذنب لا يصدر إلا عن ندامة ونية إقلاع عن الذنب وعدم العودة إليه كان الاستغفار فى لسان الشارع بمعنى التوبة إذ كيف يطلب العفو عن الذنب من هو مستمر عليه أو عازم على معاودته ولو طلب ذلك فى تلك الحالة لكان أكثر إساءة من الذنب فلذلك عد الاستغفار هنا مرتبة من مراتب التقوى . [1]

ومع هذا ففى ذكر القول إشارة إلى أهميته وأنه طريق يوصل إلى الخير حيث يتعود اللسان على الكلم الطيب ويهجر فحش الكلام وقبيح القول وفى ذلك نفع كبير وفائدة جليلة تبعث على العمل بما يقول وتدفعه إلى الاجتهاد فى الأعمال الصالحة .

وفى ذكر مفعول القول ضمير غائبة مفردة " ها " مع أن دعاء " سيد الاستغفار " كلمات وليس كلمة ففيه مع جوازه لغة إثارة وتنبيه للأذهان ومدعاة للتأمل لمخالفته ما تتوقعه النفس من سلوك الطريق المعهودة فى مطابقة الضمير لمرجعه إفرادا وتثنية وجمعا ، وفيه أيضا دلالة على أن دعاء " سيد الاستغفار " فى وحدته وتماسكه فى حكم الكلمة المفردة لا يجوز إسقاط جزء منه أو تغيير حرف من حروفه أو تبديل كلمة من كلماته وإلا فسد الدعاء وتعطلت فائدته المرجوة منه .

" **بالنهار** "

النهار ضد الليل وهو اسم لكل يوم ، وواحد النهار يوم وتثنية يومان وفى الشرع ما هو ضياء ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس وأصله من طلوع

---

[1] التحرير والتنوير ٩٢/٤ ، ٩٣ عند التفسير قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ .

الشمس إلى غروبها وجمعه قلة : أنهر وكثرة : نُهُر . (1)

وذكر النهار هنا ليقابله فى الجملة الشرطية بالليل وفى ذلك استقصاء لساعات النهار والليل وبعث للأمل فى قلب المؤمن وأنه إذا دعا بـ " سيد الاستغفار " فى أى ساعة من نهار أو ليل فأدركه الموت كان من أهل الجنة .

وقدم النهار على الليل مع أن عبادة الليل أعظم ليفيد أن العبد فى النهار مع انشغاله بمعاشه وتعرضه لمعاناة السعى والكسب يدعو الله ويطلب منه المغفرة مما يدل على أن قلبه عامر بذكر الله وأنه وصل إلى مرتبة المتقين الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله تعالى .

والباء هنا بمعنى " فى " الظرفية أى : فى النهار وأثر الباء هنا لدلالة على مطلق التلبس والمصاحبة لأى جزء من أجزاء الملتصق به دون الدلالة على الدخول فى أعماقه والاختفاء فيه (2) . فمن دعا بـ " سيد الاستغفار " فى أى وقت من أوقات النهار سواء فى أوله أو فى وسطه أو فى آخره فمات كان من أهل الجنة . (3)

" مؤمنا بها "

حال مفردة تبرز حالة الداعى وأنه قد تحقق فيه أهم صفات المتيقن وهو الإيقان فالموقن هو العالم علما لا يقبل الشك فى ثواب " سيد الاستغفار " وأن وعده - ﷺ - بدخول صاحبه الجنة حق وصدق لا مراء فيه .

---

(1) تابع العروس مادة نهر .

(2) من أسرار حروف الجر الذكر الحكيم د . محمد الأمين الخضرى ١٨٨ ، ١٨٩ مكتبة وهبة ط أولى ١٩٨٩م

(3) ما يقال هنا عن الباء فى " النهار " يقال عنها فى " بالليل " فى الجملة الشرطية الثانية.

وهذه مرحلة لا تأتى غالباً إلاَّ بعد مجاهدة وطــول معانـــاة لأن الإيقـــان بالشىء هو العلم بحقيقته بعــد النظـــر والاستدلال ولـــذا لا يوصف الله تعـــالى باليقين . (٤)

والمتأمل لحديث القرآن عن الموقنين يجد أن الموقنين من صفات المتقيــن وأنهم أهل لفهم الآيات الكونية والقرآنية وأهل لتطبيق حكم الله وهم أهل بصــيرة وهدى ورحمة ، وأول درجات النبوة . (٢)

واليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد وبه تفاضل العارفون وفيـــه تنافس المتنافسون وإليه شمر العاملون وعمل القوم إنما كان عليــــه وإشــــاراتهم كلها إليه وإذا تزوج الصبر باليقين ولد بينهما حصول الإمامة فى الدين"(٣).

واليقين روح أعمال القلوب وهو حقيقة الصديقية والله تعالى جعل الــرَّوْح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والســــخط ، والتوكـــل ثمرة اليقين ونتيجتة " ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورا وإشراقا وانتفــــى عنه كل ريب وشك وسخط وهَمٍّ وغَمٍّ فامتلأ محبة لله وخوفا منــــه ورضــــا بـــه وشكرا له وتوكلا عليه وإنابة إليه فهو مادة جميع المقامات والحامل لها " (٤) .

واليقين مركب السائر إلى الله تعالى وهو غاية درجات العامة إلية ينتهون وأول خطوة للخاصة يبتدئون منه سلوكهم وسيرهم إلى الله تعالى . (٥)

---

(١) التعريفات للجرجانى ٥٩ .

(٢) الآيات : البقرة ٤، ولقمان ٤، والبقرة ١١٨، والسجدة ٢٤ ، والجاثية ٤ ، والمـــائدة ٥٠ ، والجاثية ٢٠ ، والأنعام ٧٥ .

(٣) مدارج السالكين ٤١٣/٢ .

(٤) المرجع السابق ٤١٣/٢ – ٤١٤ .

(٥) انظر " درجات اليقين " المرجع السابق ٤١٨/٢ – ٤٢٢ .

وقال فى جانب النهار " موقنا بها " حالا مفردة وقال فى جـانب الليـل " وهو موقن بها " جملة اسمية حالية لأن الإنسان فى النهار تكثر شواغله سـعياً على المعاش واختلاطاً بالناس فيصدق عليه أولى درجات اليقين وهى التعبـير بالمفرد " موقناً " رحمة به ورأفة من الله تعالى فالعبد مع انشغاله بأمور أخـرى مجرد أن يقول دعاء " سيد الاستغفار " مع يقين بثوابتها فمات كان مـن أهـل الجنة مكافأة له على حرصه على الاتصال بالله والتوجه إليه مع أشغاله.

أما فى جانب الليل فجاء بالجملة الإسمية " وهو موقن بها " التى تكـرر فيها الإسناد إلى ضمير القائل مرتين ، مرة أسند إليه الخبر باعتباره مبتدأ ومرة أسند إليه الوصف باعتباره فاعلاً ، وتكرار الإسناد يدل على عمق اليقيـن فـى قلب الداعى بتعدد وسائله فالمؤمن بالليل ينشئ الصلاة بعد النوم فيتمكـن منـها بتفرغه لها وهدوء باله من الأشغال النهارية وتكون أوفق بالمصلى بين لسـانه وقلبه أى بين النطق بالألفاظ وتفهم معانيها للهدوء الذى فـى الليـل وانقطـاع الشواغل ، وصلاة الليل على هذا النحو أعون على تذكر القرآن والسلامة مـن نسيان بعض الآيات وأعون على المزيد من التدبر [1] قال تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلا ﴾ . [2]

وفى وسط هذا الجو يلجأ العبد إلى ربه بدعاء " سيد الاستغفار " فيكـون أعمق يقيناً وأكثر استيعاباً لمعانيه وآكد رغبة فى ثوابه وكأن يقينه ازداد درجـة بعد درجة فإذا مات فهو من أهل الجنة .

" فمات "

دلت الفاء العاطفة على أن موت القائل جاء عقب قولـه بدعـاء " سـيد الاستغفار " بلا مهلة وأن الدعاء بـ " سيد الاستغفار " المقترن بحالـة اليقيـن

---

[1] التحرير ولاتنوير ٢٩/٢٦٢-٢٦٥ .

[2] سورة المزمل : الآية ٦ .

كان سبباً فى الفوز بالجنة وأنه كان تطهيراً له من آثار اللمم وعاقبة الـــهفوات من الصغائر ، هذا ومقام الداعى بـــ " سيد الاستغفار " يوحى بأنه قد اجتـــنب الكبائر وأنه كان دائم التوبة والرجوع إلى الله تعالى وأنه أحســـن الظـــن بـــالله تعالى فكان الله تعالى عند حسن ظنه فكافأه بأعظم مما يتوقع بالفوز فى الآخـــرة وأسكنه جنته وجعله من أهلها . ([1])

" من يومه "

" مِنْ " بمعنى " فى " أى : فى يومه وأوثر " مِنْ " الدلالة على أن المـــوت قد يحصل فى أى جزء من النهار من أوله إلى آخره . ([2])

واليوم هو النهار أو مطلق الزمان أو الوقت مطلقاً وعليه فـــلا يختـــص بالنهار دون الليل ، وشاع عند المنجمين أن اليوم من الطلوع إلى الطلوع أو من الغروب إلى الغروب . ([3])

وانسجاماً مع دلالة " مِنْ " عبر بـــ " يومه " لما تحتمله من هذه المعـــانى ويكون المعنى : فمات من ساعته أو وقته أى وقع الموت عقب القول بـــ " ســـيد الاستغفار " مباشرة فى وقته وزمنه وساعته . ففيه إشارة إلى أن قـــول " ســـيد الاستغفار " بشروطه وآدابه بمثابة جواز سفر إلى الجنة وشـــهادة ملكيـــة فـــى الجنة ووثيقة تعارف على أهلها لم يذكر فى جانب الليل مقابل " مـــن يومـــه " فيقول : فمات من ليلته وذلك لأن الموت بالنهار عادة ما يكون مستبعد عند كثير من الناس لأن زمن النهار يكون للحركة والسعى فأتى " من يومه " ليزيل هـــذا

([1]) نفس الكلام يقال فى قوله : " فمات " فى جانب الليل .

([2]) من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم ٣٦٤-٣٦٩ .

([3]) تاج العروس مادة يوم .

الاستبعاد ويمحو ما قد يكون فى نفس البعض من شك أو تردد ويؤكد علـــى أن الموت متوقع فى كل وقت من أوقات النهار .

ولم يذكر فى جانب الليل " من ليلته " لأن الموت بالليل متوقـــع فالنـــاس جميعاً يشتركون فى الموتة الصغرى بنومهم بالليل وأمر عـــودة الـــروح بعـــد النوم أمر مرجوح بل الراجح الموتة الكبرى التى هى الوفاة الكاملة الحقيقية .

قال تعالـــى : ﴿ وَهُوَ الَّـــذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَـــــمُ مَـــا جَـــرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ﴾. (1)

وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِـــهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِـــي ذَلِـــكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . (2)

فلم يحتج إلى زيادة " من ليلته " لأنه لا إنكار ولا تردد حتى يزيلـــه بـــل الأمر متوقع يكفى فيه التعبير بالفعل " فمات " دون زيادة .

" قبل أن يمسى "

أى : قبل أن يدخل فى المساء وهو أول الليل من غروب الشـــمس إلـــى العشاء يقابله الصباح وهو أول النهار وقيل : المساء زمان يمتد من الظهر إلـــى المغرب أو إلى نصف الليل . (3)

ويلاحظ أن الكلام يتم بدون القيد بهذا الظرف ولكنه زيادة فـــى كـــلام لا يوهم خلاف المقصود يفيد المبالغة فهو تتميم (4) وفـــى ذلك إيضـــاح للمعنـــى

---

(1) سورة الأنعام : الآية ٦٠ .

(2) سورة المزمر : الآية ٤٢ .

(3) تاج العروس مادة مسو .

(4) الإيضاح مع البغية ١٤٥/٢ ، ١٤٦ ومثله فى جانب الليل " قبل أن يصبح " .

وتأكيد على من قال " سيد الاستغفار " فمات قبل الدخول فى المساء ثبت له الجزاء الآتى وفى ذلك مبالغة فى بث الأمل فى قلب المؤمن الداعى .

" **فهو من أهل الجنة** "

جملة جزاء الشرط جملة اسمية لا تصلح أن تكون فعل شرط ولذا وجب اقترانها بالفاء لربطها بجملة فعل الشرط .

واختيرت الفاء لأن حق الجواب أن يكون عقب الشرط متصلاً به والفاء توجب ذلك لأن ما بعدها فى العطف بعد الذى قبله متصل . (1)

وقد أطيل الكلام فى فعل الشرط وما عطف عليه تشويقاً للجزاء فخير الكلام ما يستنفر الملكات ويذكى الحس ويثير الاهتمام ويبعث على النشاط وكلما كان الكلام أقدر على تنشيط هذه القدرات كان أدخل فى القلب وأمس بسرائر النفس المشغوفة وأعلق بها من الخبر الذى يلقى غفلاً ساذجاً ويكون ذلك فى الأمور المهمة ذات البال التى تحتاج إلى مزيد من العناية والاهتمام وتوجيه الأنظار والقلوب نحوها فإذا جاءت وضعت موضعها اللائق بها وأَحَسَّ المتكلم أو المتلقى بقيمتها فتثبت فى ذهنه وتتأكد لديه (2) . ولا أهم لدى المؤمن من جزاء الجنة التى هى غاية الغايات وعقبى الفائزين ونهاية مطاف المتقين .

وجاءت جملة الجزاء جملة اسمية لتدل على الدوام والثبوت وأنه ثواب خالد لا انقطاع فيه ولا نهاية له بِنَصِّ الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

---

(1) الكتاب سيبويه تحقيق وشرح عبد السلام هارون ٤٣٥/١ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م .

(2) التشويق ٢١ .

" أهــل "

أهــل الرجل من يجمعه وإياهم نسب أو دين أو ما يجرى مجراهما مــن صناعة وبيت وبلد ، وتعورف فى أسرة النبى - ﷺ - مطلقا ، وأهــل الرجــل عشيرته وذوو قرباه ، وآل أصلها أهل بدليل تصغيرها على أُهَيِّــل ويختــص بالأشهر والأشرف ، والأهل للبيت سكانه ومن المجاز الأهل للرجــل زوجتــه ويدخل فيه الأولاد ، والأهل لكل نبــى أمتــه ، وأهــل لكــذا مســتوجب لــه ومستحق . (١)

" الجنة "

أصل معنى الجنة مأخوذ من جنَّ الشيء جنا: ستره وكل شيء ستر عنك فقد جن عنك والجنة المرة الواحدة من مصدر الفعل جَنَّة إذا ستره كأن الجنــة سترة واحدة . والجمع : جنان وهى الحديقة ذات الشجر والنخل وقيل:لا تكون الجنة فى كلام العرب إلا وفيها نخل وعنب فإن لم يكن فيها ذلك وكــانت ذات شجر فهى حديقة وليست بجنة والجنة من الاجتنان وهو الستر لتكاثف أشــجارها وتظليها بالتفاف أغصانها . وورد الجنة فى القرآن الكريم والحديــث النبــوى الشريف بمعنى دار النعيم فى الآخرة وإنما سميت بالجنة إما تقريباً لمفهوم النعيم الأخروى إلى العباد بتشبيهها بجنة الأرض وإن كان بينــهما بَــوْنٌ لا لتحديــد مفهومها وإما لستر الله تعالى عنا المشار إليها بقوله تعالــى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْــسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ . (٢) ووردت فى القــرآن الكريم " جنات " بلفظ الجمع لكون الجنان سبعاً : جنة الفردوس وعَــدْن وجنــة النعيم ودار الخلد وجنة المأوى ودار السلام وعليين . (٣)

---

(١) تاج العروس مادة أهل .

(٢) سورة السجدة : الآية ١٧ .

(٣) لسان العرب مادة جن ط دار المعارف والمفردات ٩٨ .

وأصحاب الجنة هم المتقون الذين آمنوا وعملوا الصالحات ودخلوا في تجارة رابحة مع الله تعالى باعوا أنفسهم جهاداً وتضحية وإعلاء لكلمة الحق واشتروا الجنة أعدها الله لهم وأزلفها وجعلها تعالى لهم أجراً وميراثاً تفضلاً منه تعالى وكرماً .

وأوثر " أهل " هنا لأن الرسول - ﷺ - المبعوث رحمة للعالمين وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم يدخل البشرى على قلب قائل " سيد الاستغفار " بأنه إذا كان دخل الجنة ووجد فيها ما يوحى به لفظ " أهل " من معان فهو يجد الأنس وعدم الوحشة فالعرب تقول فى التحية : مرحباً وأهلاً أى : أتيت سعة لا ضيقاً وأتيت أهلاً لا غرباء ولا أجانب فَاْسَتَأنِسْ ولا تستوحش وهكذا يكون مع أهل الجنة .

وكانوا يسمون القُرَّاءَ أهل الجنة أى حفظة القرآن العاملين به هم أولياء الله المختصون به اختصاص أهل الإنسان به فكذلك في الجنة هم أهلها ومختصون بها .

وكانوا يقولون لأهل مكة : أهل الله تعظيماً فكذلك الحال مع أهل الجنة فى الآخرة ينادون بأهل الجنة تكريماً وتشريفاً .

وأنهم استوجبوا الجنة واستحقوها فهم أهل لها وأنهم مشوقون إليها راغبين فيها كما قيل فى المثل : **الأهل إلى الأهل أسرع من السيل على السهل** . (1) ومما يؤكد ذلك دلالة " مِنْ " التبعيضية التى تدل على أنه مثل أهل الجنة ومن جنسهم تماثل البعض كله .

وأوثر لفظ " أصحاب " فى القرآن الكريم لأن القرآن كان يخطط لمنهج الإسلام ويرسم معالم الحياة المؤمنة فطلب من المؤمنين العمل وتنفيذ الأوامر

---

(1) تاج العروس مادة أهل .

واجتناب النواهى وطاعة الله وطاعة رسوله ولذا أوثر لفظ " أصحاب الجنة " لما يوحى به لفظ الصحبة من معنى الملازمة والانقياد والذلة بعد المجاهدة والصعوبة والاستقامة واستمداد العون من الله تعالى ([1]) وكل ذلك أسباب مهمة فى استحقاق الجنة فآثر القرآن لفظ " أصحاب " لأنها تشعر بأن مَنْ فى الجنة قد أخذ بالأسباب الموصلة إليها وتأتى الجملة الشرطية الثانية .

" **ومن قالها بالليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة** " .

وقد عرفنا كل ما يتعلق بأجزاء نظمها من خلال تحليل الجملة الشرطية الأولى ولم يبق إلا أن نشير إلى أنه بذكر الجملة الثانية قد تحقق طرف المقابلة الثانى وعليه فالمقابلة بين " بالنهار " و " يسمى " وبين " بالليل " و " يصبح " .

والمقابلة كالطباق يجمعان المعانى المتقابلة والألفاظ المتضادة فى ربقة واحدة تعطى الأسلوب قوة وحيوية فيجمعان أموراً لا تجتمع فى العادة ويجعلانها مقترنة متلاصقة ويريانا الحياة مع الموت والنور مع الظلام والصحة مع المرض والفقر مع الغنى . ([2])

وهذا الجمع " يحدث الائتلاف بين المختلفات ويحقق العناق بين المتنافرات وذلك مكمن الإبداع فى العربية " . ([3])

وأسلوب المقابلة فيه تشويق وإلهاب للمشاعر لأنه يؤثر فى الأسلوب شكلاً ومضموناً وكأنه يعقد مقارنة بين الطرفين مما يجلى الفرق بينهما ماثلاً أمام العيون . ([4])

([1]) المرجع السابق مادة صحب .

([2]) بلاغة الدعاء فى الحديث النبوى ٣٨٢ .

([3]) البلاغة ذوق ومنهج د. عبد الحميد العبيسى ٥٠٢ مطبعة حسان ط أولى ١٩٨٤م .

([4]) التشويق ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

الإطناب فى الجملتين الشرطيتين :

مما سبق فى التحليل يتضح لنا أن معنى الجملتين يمكن أن يؤدى فى أقل الألفاظ كأن يقال مثلاً : من قالها بالنهار أو بالليل فمات فهو من أهل الجنة .

ولكن من خلال التحليل وقفنا على سر كل حرف وكل كلمة وعرفنا أن الزيادات جاءت لأغراض بلاغية يختل معها الكلام إذا حذف شيء منها فكل كلمة لها دلالاتها التى تلقيها فى نفس الداعى فتبعث فى نفسه الأمل وقوة الرجاء فى المثوبة والمغفرة ولها ظلالها التى تبعث الطمأنينة فى قلب الداعى وترسخ الثقة فى نفسه بوعد الله تعالى على لسان رسوله - ﷺ - وبذا نجد الدعاء وهو من جوامع الكلم – كما عرفنا – فى قمة الإيجاز يتشابك ويتكامل مع الإطناب فى الجملتين الأخيرتين مما يدل " على أن أروع أساليب الإيجاز قد تحتوى على صور من الإطناب كما أن أشهر أساليب الإطناب قد تحتوى على غرر من روائع الإيجاز " . (1)

تشابه الأطراف فى حديث " سيد الاستغفار ":

من المحسنات المعنوية البديعة تشابه الأطراف الذى هو نوع من مراعاة النظير فيه مناسبة المعنى للمعنى وهو أن يختم الكلام بما يناسب أوله فى المعنى فهو مختص بالجمع بين متناسبين أحدهما فى الابتداء والآخر فى الانتهاء . (2)

وهذا متحقق فى حديث " سيد الاستغفار " حيث بدأه بـ " سيد " وختمه بما يناسبه وهو " أهل " وهذا فى غاية المناسبة حيث ربط بين أول الحديث وآخره وكأن الحديث جملة واحدة يبدؤه الداعى وهو مشدود إلى نهايته وفى

---

(1) بلاغة الدعاء فى الحديث النبوى ٢٩٤ .

(2) شروح التلخيص ٣٠٤/٤ وبغية الإيضاح ١٨/٤ .

ذلك راحة للداعى واستقرار نفسه حيث أورثه سيد الاستغفار أن يكون من أهل الجنة .

وبعد فهذا آخر ما فتح الله به علينا والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وأرجو من الله تعالى أن يسامحنا فى تجاوزنا وأن يستر لنا عيوبنا ويجعل هذا العمل فاتحة خير لكل من يقرأه وباب قبول لمن تأمله إنه نعم المولى ونعم المجيب .

وكان الفراغ منه فى مغرب يوم الخميس الثالث من شهر جمادى الأولى سنة ألف وأربعمائة وأربع وعشرين من الهجرة المشرفة الموافق الثالث من يوليو سنة ألفين وثلاث .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،،

المراجـــــع

١- الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى – الهيئـــة المصريـــة العامـــة للكتـــاب ١٩٧٤م .

٢- الأساليب الإنشائية فى النحو العربى عبد السلام هارون – مكتبة الخـــانجى ١٩٧٩م .

٣- أساليب النفى فى القرآن د. أحمد ماهر البقرى – دار المعارف ١٩٨٥م.

٤- أسباب المغفرة لابن رجب الحنبلى تحقيق أشرف عبد المقصود – مكتبـــة التراث الإسلامى ١٩٨٧م .

٥- أسرار الترادف فى القرآن الكريم على اليمنى دردير - دار ابـــن حنظـــل ١٩٨٥م .

٦- أسلوب الشرط بين النحويين والبلاغيين د. فتحى بسيونى حمودة دار البيان العربى بجدة ١٩٨٥م.

٧- أسماء الله الحسنى دراسة فى البنية والدلالة د. أحمد مختار عمر – عـــالم الكتب بالقاهرة ط أولى ١٩٩٧م .

٨- الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر – دار الكتب العلمية – بيروت.

٩- الأطول على التلخيص للعصام المطبعة السلطانية ١٢٨٤هـ .

١٠- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى – دار الكتاب العربى .

١١- إعراب الجمل وأشباه الجمل د. فخر الدين قباوة – دار الآفاق الجديـــدة بيروت ط أربعة ١٩٨٣م .

١٢- إعراب النص دراسة فى إعراب الجمل التى لا محل لها من الإعراب د. حسنى عبد الجليل يوسف دار الآفاق العربية بالقاهرة ١٩٩٧م .

١٣- بدائع الفوائد لابن القيم – مكتبة ابن تيمية بالقاهرة ومكتبة العلم بجدة.

١٤- البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى – دار الفكر ط ثانية ١٩٨٣م .

١٥- بلاغة الدعاء فى الحديث النبوى د. سلامة جمعة داود – رسالة دكتوراه كلية اللغة العربية بالقاهرة ١٩٩٨م .

١٦- البلاغة ذوق ومنهج د. عبد الحميد العبيسى مطبعة حسان ط أولى ١٩٨٤م .

١٧- البلاغة العربية أسسها وفنونها وصور من تطبيقاتها بهيكل جديد من طريف وتليد عبد الحميد حسن حبنكة الميدانى دار القلم بدمشق والدار الشامية – بيروت ط أولى ١٩٨٧م .

١٨- تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدى تحقيق على شيرى – دار الفكر – بيروت ١٩٩٤م .

١٩- التشويق خصائصه ووسائله فى البلاغة العربية السيد محمد موسى – رسالة ماجستير كلية اللغة العربية بالمنصورة ٢٠٠٢م .

٢٠- التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم د عبد العظيم المطعنى مكتبة وهبة ط أولى ١٩٩٩م

٢١- تهذيب الأسماء واللغات للإمام النووى دار الكتب العلمية – بيروت .

٢٢- الجدول إعراب القرآن وصرفه محمود صافى مراجعه لينيه الحمصى دار الرشيد – دمشق – بيروت ط أولى ١٩٨٦ م .

٢٣- الجملة الشرطية الواقعة فى خواتيم الآيات القرآنية ومقامتها البلاغية د . رفعت السودانى التركى بطنطا ط أولى ١٩٩٥ .

٢٤- حاشية على مختصر ابن أبى حمرة الشيخ محمد الشنوانى – عيسى البابى الحلبى وشركاه .

٢٥- حديث " ما " اقسامها وأحكامها د . عبد الرحمن المقدى – النادى الأدبى بالرياض ١٩٨٠م .

٢٦- حقيقة لا إله إلا الله منهج حياة أبو الأعلى الموردى وسيد قطب وصالح بن فوزان – مكتبة السنة بالقاهرة ط أولى ١٩٩٢م .

٢٧- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى تعليق الشيخ محمود شاكر الخانجى ط ثانية ١٩٨٩م .

٢٨- دليل الفالحين بطرق رياض الصالحين لابن علامة الصديقى تعليق محمود حسن ربيع – مصطفى البابى الحلبى وشركاه

٢٩- رسائل الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الخانجى .

٣٠- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى شرح عبد المتعال الصعيدى – مكتبة محمد على صبيح ١٩٦٩ م .

٣١- شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهرى – دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابى الحلبى وشركاه .

٣٢- شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصارى ضبط وتصحيح عبد الرحمن البرقوقى دار الاندلس – بيروت .

٣٣- شروح التلخيص السعد وآخرون دار السرور بيروت صورة .

٣٤- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلوى – دار الكتب العلمية – بيروت .

٣٥- عبقرية محمد العقاد دار النهضة مصر بالقاهرة .

٣٦- عقيدة المؤمن لأبى بكر الجزائرى مكتبة الكليات الأزهرية .

٣٧- علم المعانى د . بسيونى فيود – مؤسسة المختار بالقاهرة ودار الثقافة بالأحساء ط أولى ١٩٩٨ م .

٣٨- علم المعانى ومقتضى الحال د . أسعد أحمد على – دار السؤال جامعة دمشق ١٩٧٨ م .

٣٩- عمدة القارى شرح صحيح البخارى للعينى دار التراث العربى – بيروت .

٤٠- الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى – دار المعرفة بيروت ط ثانية .

٤١- فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر تحقيق طه عبد الرؤوف سعد وآخرون – مكتبة القاهرة ط ١٩٧٨ م .

٤٢- الفتوحات الربانية على الأذكار النووية لابن علان الصديقى دار إحياء التراث العربى بيروت .

٤٣- الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى دار الكتب العلمية – بيروت .

٤٤- فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوى دار إحياء السنة النبوية بالقاهرة .

٤٥- الكافية فى النحو لابن النحوى المالكى شرح رضى الدين محمد بن الحسن الاستراباذى النحوى دار الكتب العلمية – بيروت .

٤٦- الكتاب سيبوية تحقيق عبد السلام هارون – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م .

٤٧- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوة التأويل للزمخشرى دار المعرفة – بيروت .

٤٨- كلمة الإخلاص لابن رجب الحنبلى .

٤٩- لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف بمصر .

٥٠- لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات للفخر الرازى تعليق طه عبد الرؤوف سعد – دار الكتاب العربى بيروت ط ثانية ١٩٩٠ م .

٥١- مدارج السالكين بين منازل " إياك نعبد وإياك نستعين " لابن القيم – دار الحديث بالقاهرة ط أولى ١٩٨٣ م .

٥٢- مستتبعات التراكيب بين البلاغية القديمة والنقد الحديث د . عبد الغنى بركة دار الطباعة المحمدية ط أولى ١٩٨٩ م .

٥٣- معجم الألفاظ القرآن الكريم مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٨٩ م .

٥٤- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقى – دار الحديث بالقاهرة ط أولى ١٩٨٦ م .

٥٥- مغنى اللبيب لابن هشام مع حاشية الدسوقى مطبعة المشهد الحسينى ١٣٨٦ هـ .

٥٦- المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى تحقيق محمد سيد كيلانى دار المعرفة بيروت .

٥٧- من أسرار التركيب البلاغى د . السيد عبد الفتاح حجاب – المكتبة التوفيقية ط أولى ١٩٧٧ م

٥٨- من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم د . محمد الأمين الخضرى مكتبة وهبة ط أولى ١٩٨٩ م .

٥٩- من أسرار حروف العطف فى الذكر الحكيم " الفاء " ما " ثم " د . محمد الأمين الخضرى مكتبة وهبة ط أولى ١٩٩٣ م .

٦٠- من بلاغة النظم العربى د . عبد العزيز عبد المعطى عرفة – عالم الكتب – بيروت ط ثانية ١٩٨٤ م .

٦١- من دقائق البيان النبوى فى صيغة التلبية د . رفعت السودانى – مقال فى مجلة اللغة العربية بإيتاى البارود عدد ١٩ سنة ٢٠٠٣ م .

٦٢- النحو الوافى عباس حسن دار المعارف ط ثامنة .

٦٣- النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى تحقيق د . محمد سالم محيسن مكتبة القاهرة .

٦٤- النعمة اشتقاقها – أنواعها فى السياق القرآنى دراسة بيانية تحليلية د . محب جلال عبد الفراج – مقال فى مجلة أصول الدين والدعوة بالمنصورة عدد ٩ سنة ٢٠٠٣ م .

٦٥- النفس فى القرآن د . أحمد عمر هاشم دار الفيصل ١٩٩٦ م

٦٦- النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير تحقيق طاهر أحمد الزواوى ومحمود محمد الطناحى المكتبة العلمية – بيروت .

٦٧- الواو ومواقفها فى النظم القرآنى د . محمد الأمين الخضرى – رسالة دكتوراه كلية اللغة العربية بالقاهرة ١٩٨٣ .

٦٨- الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز للدامغانى تحقيق محمد حسن أبى العزم الزفيتى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٩٥ م.

الفهـــرس

تم بحمد الله تعالى ؛؛؛

موازين القوى بين المسلمين والروم
فى عهد الخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين الأول
من سنة ١١هـ (٦٣٣م) إلى سنة ٩٨هـ (٧١٧م)

الدكتور / أحمد محمد الدسوقى المنوفى
أستاذ ورئيس قسم التاريخ والحضارة بالكلية



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى آله وصحابته أجمعين .

وبعد

فموضوع هذا البحث : " موازين القوى بين المسلمين والروم فى عهد الخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين الأول من سنة ١١هـ / إلى سنة ٩٨هـ/٧١٧م " . عرض وتحليل ، وعرض هذه الموازين وتحليلها هام لفهم الأحداث التى وقعت فى هذه الفترة ، واستيعابها وتفسيرها تفسيرا صحيحا ، كما أن السمة الواضحة فى هذه الفترة موضوع البحث ، هى تفوق المسلمين فى موازين القوى على الروم ن وذلك على الرغم من عراقة دولة الروم وحداثة الدولة الإسلامية ، ودراسة هذه الفترة لازم لتعليل هذه الظاهرة ، وبيان مظاهرها .

وكان اختيار البحث للعام الحادى عشر للهجرة (٦٣٢ م) بداية للبحث ؛ لأنه العام الذى ابتدأت فيه الخلافة الرشيدة ، وكان اختياره للعام الثامن والتسعين للهجرة (٧١٧ م) نهاية للبحث لأمرين :

١- لأن فيه كانت بداية الحصار الإسلامى لمدينة القسطنطينية عاصمة الروم ، وكان حصار هذه المدينة العريقة والحصينة ، يمثل ذروة ما وصل عليه التفوق الإسلامى والتوسع فى هذه الفترة .

٢- لأن الفشل الذى لحق بالجيوش الإسلامية المحاصرة للمدينة ، وما واكب ذلك من قيام أسرة حاكمة جديدة فى بيزنطة – هى الأسرة الإيسورية على يد ليو الإيسورى – يمثل بداية تغيير موازين القوى لصالح الروم ، وبعبارة

أخرى ، كان حصار المسلمين للقسطنطينية سنة ٩٨هـ / ٧١٧ م ، نقطة فاصلة فى موازين القوى بين المسلمين والروم ، وحدا واضحا بين مرحلتين متميزتين .

وقد قسمت البحث إلى تمهيد وفصلين وخاتمة .

وقد تناول التمهيد الحديث عن موازين القوى ، وبيان موازين القوى بين الفرس الروم ، ثم بين المسلمين والروم ، وتوضيح موازين القوى بين المسلمين والروم فى العهد النبوى .

وكان الفصل الأول عن (موازين القوى بين المسلمين والروم من سنة١١ هـ / ٦٣٢م إلى سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م) وقسم هذه الفترة إلى خمسة أوضاع :

الأول من سنة ١١هـ / ٦٣٢ م إلى ٣٥ هـ / ٦٥٥ م ، والثانى من ٣٥ هـ / ٦٥٥ م إلى ٤١ هـ / ٦٦١ م ، والثالث من ٤١ هـ / ٦٦١ م ، إلى ٦٠ هـ، ٦٨٠ م ،والرابع من ٦٠ هـ / ٦٨٠ م إلى ٧٣ هـ/ ٦٩٣م، والخامس من ٧٣ هـ / ٦٩٣ م إلى ٩٨ هـ / ٧١٧ م .

وشمل كل وضع موقف كل المسلمين والروم فى موازين القوى ، وأسباب ذلك ومظاهره .

وكان الفصل الثانى عن (تحليل بعض أوضاع موازين القوى بين المسلمين والروم من سنة ١١ هـ / ٦٣٢ م إلى سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م) وتحدث عن تأثير الاستقرار الداخلى على موازين القوى ، عند المسلمين والروم ، والانتصارات العسكرية ودورها فى موازين القوى ، وخداع بعض الانتصارات العسكرية ، وعدم تعبيرها بصدق عن موازين القوى بين الجانبين ،

ودلالة محاولات المسلمين فتح القسطنطينية عاصمة الروم ، واختلاف طبيعة الصراع الإسلامى الرومى عن الصراع السابق بين الفرس والروم .

ثم خاتمة البحث متبوعة بخريطتين إحداهما للدولة البيزنطية أو دولة الروم ، والأخرى للدولة الإسلامية ، وأخيرا المصادر والمراجع .

وقد اعتمد البحث على مصادر إسلامية أصلية ، أقرب ما تكون إلى الفترة الزمنية موضوع البحث ، لتوثيق الحوادث والأخبار المتعلقة بالجانب الإسلامى، ومن أهم هذه المصادر تاريخ خليفة بن خياط المتوفى سنة ٢٤٠ هـ / ٩٥١ م ، وتاريخ الرسل والملوك للطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م .

كما اعتمد – كذلك – على مصادر بيزنطية أقرب ما تكون للفترة محل البحث ، عن طريق الكتب التى ترجمت لهذه المصادر ، ومن أهمها كتاب تاريخ الدولة البيزنطية للدكتور جوزيف نسيم يوسف ، وكتاب العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى للدكتور وسام عبد العزيز فرج .

ومن أهم الدروس المستفادة من هذا البحث ، أن الناظر فى أوضاع موازين القوى وحقائقها – فى هذه الفترة – يتأكيد له قيمة اتحاد الأمة الإسلامية واستقرار أحوالها الداخلية ، وأنها قوية وفى الجانب الراجح ما تمسكت بقوله تعالى ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ كما يتضح له خطر التفرق والانقسام والتنازع ، وأن ضعف هذه الأمة وتأخيرها فى موازين القوى ، يأتى من هذه الجهة ، وصدق الله تعالى ، إذ يقول ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ .

أسأل الله – تعالى – أن يكون هذا البحث موفقا نافعا ميمونا ، وأعوذ به – تعالى – من كل زلل وخلل إنه نعم المولى ونعم النصير ، وهو حسبى ونعم الوكيل ، والحمد لله رب العالمين .

التمهيـــد

١- موازين القوى .

٢- موازين القوى بين الفرس والـروم .

٣- موازين القوى بين المسلمين والروم .

٤- موازين القوى بين المسلمين والروم فى العهد النبوى .

التمهيد :

١-موازين القوى :

هى المؤشر الذى يدل على تفوق إحدى القوى الموجودة على الساحة الدولية ، على نظيراتها من القوى الأخرى ، والناظر إلى التاريخ ، يجد أنه من بين هذه القوى ، هناك قوتان تتطلعان إلى عرش القمة ، وتتنافسان فى الوصول إليه ، والانفراد به ن ولوحظ أن إحدى القوتين تنتمى إلى الشرق ، وتنتمى الأخرى إلى الغرب ، وكان ذلك قديما ، ومازال ذلك حتى العصر الحديث . (١)

والصراع بين القوتين العظمتين ، ليس صراعا سياسيا وعسكريا فحسب ، بل إنه فى جانب كبير منه صراع حضارى ، تحاول كل قوة منهما أن تفرض نفسها وحضارتها على الأخرى . وعوامل تفوق إحدى القوتين ، يرتبط بتقدمها عسكريا واقتصاديا واجتماعيا ، على الأخرى ، فإن تساويا ، كان معنى ذلك اعتدال كفتى الميزان فى الصراع بينهما ، ويظل كذلك إلى أن تتغير

---

(١) وكان آخر الأمثلة على ذلك الصراع بين الولايات المتحدة الأمريكية ، وما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى ، الأولى تمثل العالم الرأسمالى الغربى ، والأخرى تمثل العالم الاشتراكى الشرقى ، وقد سقطت الأخيرة ، وتفككت إلى عدة دول ، فى السنوات العشر الأخيرة ، وأصبحت الولايات المتحدة وحدها على القمة ، ولا يعنى ذلك خطأ ما أثبته ولاحظه البحث ، فهذا الوضع لن يستمر طويلا ، ولعله من باب الاستثناءات التى تثبت القاعدة ولا تنفيها ، ويبدو الآن فى الأفق ملامح دول ترشحها قوتها العسكرية أو الاقتصادية أو البشرية ، لاحتلال موقع المنافسة للولايات المتحدة الأمريكية ، كالصين بطاقتها البشرية والعسكرية الهائلة واليابان بتقدمها الاقتصادى المطرد ، لو تهيأ لها التخلص من القيود عليها سياسياً وعسكريا ، والاتحاد الأوربى كقوة كبرى صاعدة فى المجال الاقتصادى والسياسى والعسكرى .

الأحوال فى صالح إحداهما بتغيير الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية .(1)

وعادة أن الطرف الراجح يبادر باتخاذ سياسة الهجوم ، وتوجيه الضربة الأولى ، بينما يلتزم الطرف الآخر بسياسة الدفاع عن نفسه وكيانه بوجه عام (2) .

٢-موازين القوى بين الفرس والروم :

كانت القوتان العظميان - قديما - هما الفرس واليونان ، ثم حلت الإمبراطورية الرومانية محل اليونان بعد ذلك ، وقبيل الإسلام كانت القوتان العظميان ، هما الدولة الفارسية والإمبراطورية البيزنطية أو الرومية التى هى سليلة الإمبراطورية الرومانية ووريثتها (3) ، وكان الصراع على أشده بينهما ،

---

(1) يوسف د . جوزيف نسيم الإسلام والمسيحية ، الطبعة الأولى . دار الفكر الجامعى الإسكندرية ١٩٨٦ م ص ٤٥ ، ٤٦ .

(2) المرجع السابق .

(3) وكانت الإمبراطورية الرومانية الكبرى ، تشمل الشرق والغرب جميعا ، وكانت عاصمتها روما ، وقد قسمت إداريا فى عهد الإمبراطور (ثيودسيوس الكبير) ٣٧٩ - ٣٩٥ م ، وتم هذا التقسيم سنة ٣٩٥ م ، وأصبحت هناك إمبراطورية فى الشرق ، وعاصمتها القسطنطينية وأخرى فى الغرب وعاصمتها روما ، ولم تصمد الإمبراطورية الغربية أمام غارات الجرمان ، الذين تمكنوا من إسقاط عاصمتها روما سنة ٤٧٦ م ، وبقيت الإمبراطورية الشرقية ، والتى أطلق عليها الامبراطورية البيزنطية ، وعرفت فى المصادر العربية باسم دولة الروم ، نسبة إلى سكانها الأول من الرومان ، واعتبرت هذه الإمبراطورية نفسها مسئولة عن إعادة الأقاليم الغربية ،وإعادة الإمبراطورية الرومانية إلى سابق عهدها ، عاشور : د . سعيد أوربا العصور الوسطى . مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٨٥ م ج١ ص ٧٠ ، يوسف. د . جوزيف تاريخ الدولة البيزنطية . دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٨٨ م ص ٥ ، ٦٣ ، ٦٤ .

وازداد ضراوة مع ظهور الدعوة الإسلامية ، وكانت موازين القوى فى صالح الفرس ، وتمكن ملكهم (كسرى الثالث) – الذى شهدت فارس فى عهده نهضة دينية وعسكرية – من التوغل فى الأراضى التابعة لبيزنطة واستولى على بيت المقدس والشام ومصر (1) ، وقد حزن المسلمون – آنئذ – لهزيمة الروم ، باعتبارهم أهل كتاب سماوى مثلهم ، ونزلت آيات مباركة من القرآن الكريم ، تبشر بانتصار الروم على الفرس بعد سنين قليلة معدودة ﴿ الم*غُلِبَتْ الرُّومُ* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ*فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ*بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .(2)

وتحققت هذه البشارة ، وولى هرقل عرش الإمبراطورية ، وتمكن من إصلاح أوضاعها الفاسدة عسكريا وإداريا واقتصاديا وسياسيا ، ثم خاض حروبا طويلة مع الفرس ، اتسمت بالقوة والعنف واستمرت حوالى ست سنوات (من سنة ٦٢٢ م إلى سنة ٦٢٨ م) ونجح فى أن يستعيد منهم بيت المقدس وبلاد الشام ومصر ، وغيرها من الممتلكات البيزنطية ، بل وتتبع الفرس حتى عاصمة ملكهم المدائن وفرض عليهم صلحا مهينا .(3)

وإذا كانت حروب هرقل مع الفرس ، قد توجت بالنصر الباهر ، إلا أنها من ناحية أخرى ، كانت باهظة التكاليف ، وكان لها تأثيرها السيئ على الإمبراطورية من نواح كثيرة ، وبخاصة الناحيتين العسكرية والاقتصادية ،

(1) يوسف : الإسلام والمسيحية ص ٤٧ ، بتلر : د الفريد فتح العرب لمصر ترجمة محمد فريد أبو حديد الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م ج١ من ص ٤٩ – ٦٨.

(2) سورة الروم الآيات الأربع الأولى .

(3) يوسف : د . جوزيف الإسلام والمسيحية ص ٤٧ ، تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، لويس : أرشيبالد القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط . ترجمة أحمد محمد عيسى مكتبة النهضة بدون تاريخ ص ٧٦ ، ٧٧ .

وكانت الإمبراطورية – بعد خروجها منتصرة من هذه الحرب القاسية الطويلة – فى حاجة إلى فترة نقاهة واستجمام وراحة ، تداوى فيها جراحها ، وتستجمع قوتها ، وتصلح أمورها (١) ، ولكنها لم تكد تلتقط أنفاسها من تلك الحروب الطويلة مع الفرس ، حتى كان الصدام بينها وبين الدولة الإسلامية الناشئة ، وكانت غزوة مؤتة سنة ٨هـ / ٦٢٩م ، بداية الصراع بينهما وهى فى العام التالى مباشرة لانتهاء حروبها مع الفرس (٢) .

٣-موازين القوى بين المسلمين والروم :

أدت الحروب الطويلة بين الفرس والروم إلى استنزاف مواردها ، وإضعاف قوتيهما ، ولم تعد الدولة الفارسية – بعد هزائمها الساحقة أمام الروم – فى موقف يسمح لها بأن تكون أحد قطبى الصراع على عرش القمة ، وندا لدولة الروم ، وبعد سنين قليلة قامت الدولة الإسلامية الناشئة فى بداية القرن السابع الميلادى (الأول الهجرى) بالاستيلاء على أراضيها ، وإسقاط عاصمتها المدائن ، وانتهت هذه الدولة نهائيا عقب ذلك . (٣)

وحلت الدولة الإسلامية محل الدولة الفارسية ، كمنافس جديد وخطير على عرش القمة لدولة الروم وبخاصة بعد انتصاراتها الرائعة على الروم ، واستقطاعها من دولتهم أهم أقاليمها فى الشرق : الشام ومصر ثم بلاد المغرب ، وأصبحت الدولتان الإسلامية والرومية ، القوتين العظميين فى المرحلة الجديدة ، واستمر الصراع بينهما من القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) إلى القرن

---

(١) يوسف : د . جوزيف تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٠٩ .

(٢) عاشور : د . سعيد عبد الفتاح ج ١ ص ١١٦ نقلا عن

Cam : Med . Hist . Vol . 2 P 321 .

(٣) ابن الأثير: أبو الحسن على بن أبى الكرم . الكامل فى التاريخ دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ص ٣٥٤ – ٣٥٩ .

التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) وكانت موازين القوى تميل إلى جانب المسلمين تارة ، وإلى جانب الروم تارة أخرى ، وتخلل هذه الفترة معارك ضارية ، تبادلا فيها النصر والهزيمة ، كما تخللها فترات هدوء وسلام ، حتى أنهى العثمانيون هذا الصراع بإسقاط القسطنطينية عاصمة الروم سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م . (١)

٤- موازين القوى بين المسلمين والروم فى العهد النبوى :

(أ) البداية الأولى لموازين القوى بين المسلمين والروم

الحديث عن موازين القوى بين المسلمين والروم فى هذا العهد المبارك ، أمر لابد منه للتمهيد لموضوع موازين القوى فى الفترة التى حددها البحث ، فقد كان فى العهد النبوى ، البداية الأولى لموازين القوى بين المسلمين والروم ، والتى امتدت إلى ما يقرب من تسعة قرون ، وحدد هذه البداية أول لقاء عسكرى مباشر بينهما فى غزوة مؤتة سنة ٨ هـ / ٦٢٩ م.

(ب) تفوق المسلمين فى موازين القوى فى العهد النبوى

على الرغم من أن الدولة الإسلامية – فى العهد النبوى – كانت دولة حديثة التكوين ، إلا أن الاحتكاكات العسكرية ، ومؤشرات موازين القوى ، أظهرت تفوقها على دولة الروم ذات العراقة والعظمة ، وكان وراء ذلك ما ساد الدولة الإسلامية من روح إيمانية عالية ، وحماسة للجهاد ، ولم يكن هذا فحسب ، بل هناك أيضا الاستعداد العسكرى ، والكفاءة العالية فى فنون الحروب المعروفة واستخدام ما هو جديد فى مجال السلاح . (٢)

---

(١) يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢٩١ .

(٢) ابن عبد ربه : أحمد بن محمد ، العقد الفريد . دار الإمام على للطباعة والنشر القاهرة ١٩٩٢ م المجلد الأول عدد (٦) ص ٢١١ ، د. حسن إبراهيم تاريخ الإسلام السياسى، =

هذا فى الوقت الذى خرجت فيه دولة الروم من حروبها الطويلة مع الفرس ، منهكة القوى ، وفى حاجة إلى وقت تسترد فيه عافيتها ، وتعيد تنظيم صفوفها ، وتعوض ما فقدته (١) ، ولكن اصطدامها العسكرى بالمسلمين ، كان أسرع إليها من ذلك ، وكانت غزوة مؤتة فى العام التالى مباشرة لانتهاء حروبها مع الفرس . (٢)

(ج) غزوة مؤتة لا تدل على تفوق الروم .

إن ما حدث فى غزوة مؤتة ، والذى اعتبره كثير من المؤرخين انتصارا للروم على المسلمين الذين انسحبوا من ميدان المعركة ؛ لا يدل على تفوق الروم فى موازين القوى ، للأمور التالية :

أولا : أن بعض المصادر الإسلامية ذهبت إلى أن نتيجة غزوة مؤتة ، إنما كانت انتصار المسلمين وهزيمة الروم . (٣)

ثانيا : أننا إذا اعتبرنا انسحاب المسلمين ، انتصارا للروم ، فلا شك أنه مما يقلل من قيمة هذه الانتصار ، ما أبداه العدد القليل من المسلمين – الذى لم يتجاوز ثلاثة آلاف – من ضروب البسالة والإقدام والصمود، أمام العدد الكبير من الروم ، الذى بلغ مائة ألف غير مائة ألف أخرى من

= مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٩ م ج ١ ص ٤٩٣ ، زيدان : جورجى تاريخ التمدن الإسلامى . دار الهلال القاهرة ١٩٨٦ م ج١ ص ١٩٣.

(١) يوسف : د . جوزيف تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٠٩ .

(٢) عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ١١٦ .

(٣) ابن كثير : عماد أبو الفداء إسماعيل بن عمر ، البداية والنهاية ، الطبعة الأولى دار الفكر العربى ، القاهرة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٣ م ج ٤ من ص ٢٤٧ – ٢٥٢ .

القبائل العربية المناصرة لهم (1)، وانسحابهم بخسائر ضئيلة (2) ، وقد اعتبر المؤرخ المسلم (ابن إسحاق) ذلك فتحا ونصرا (3) ، ثم بعد ذلك إحجام الروم ومن معهم عن ملاحقة المسلمين (4) .

ثالثا : إذا سلمنا – جدلا – بانتصار الروم فى مؤتة ، فإن هذا الانتصار – كذلك – لا يعبر عن تفوقهم فى موازين القوى على المسلمين ؛ للاعتبارات الآتية :

١- أن المسلمين فوجئوا بهذا العدد الكبير من الروم وأنصارهم ، ولم يعدوا لهذا الأمر عدته (5) .

٢- أن المسلمين بعد شهر واحد من مؤتة ، خرجوا للقتال ، وحاربوا الروم وأنصارهم فى ذات السلاسل ، فى جمادى الآخرة سنة ٨ هـ / ٦٢٩ م، وانتصروا عليهم (6) .

وفى العام التالى ، كانت غزوة تبوك سنة ٩هـ / ٦٣٠ م ، وتقاعس الروم عن حربهم (7) . وبعث النبى – ﷺ – بسرية إلى (يبنى وأزدود) من

---

(1) ابن هشام : أبو محمد عبد الملك السيرة تحقيق د محمد السرجانى المكتبة التوفيقية القاهرة بدون تاريخ ج ٣ ، ص ٢٦٠ .

(2) المصدر السابق ص ٢٧٠ ، ص ٢٧١ وقد ذكر أن عدد الشهداء لا يزيد عن اثنى عشر شهيدا .

(3) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٤٧ ، ص ٢٥٠ .

(4) ابن هشام : السيرة ج ٣ ص ٢٧٠ ، ص ٢٧١ .

(5) ابن هشام : السيرة ج ٣ من ص ٦٠ – ص ٦٦ .

(6) المسعودى : أبو الحسن على التنبيه والإشراف دار الهلال بيروت ١٩٨١ م ، ص ٢٤٧، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٧٣ .

(7) ابن هشام : السيرة ج ٤ ص ١١٧ ، ص ١١٨ ، البلاذرى : أبو الحسن أحمد بن يحيى فتوح البلدان دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ص ٧١ .

أرض فلسطين ، سنة ١٠ هـ / ٦٣١ م [١] . وأعد - ﷺ - قبل وفاته سرية بقيادة أسامة بن زيد ؛ للخروج إلى بلاد الشام ، وخرجت هذه السرية فى خلافة أبى بكر الصديق - رضي الله عنه - ، وعادت منتصرة سنة ١١هـ/٦٣٢م [٢] .

هذا وقد كان التفوق الإسلامى فى العهد النبوى ، مقدمة لتصاعد هذا التفوق واستمراره فى عهد الخلفاء الراشدين - أول فترات البحث - حتى كانت الفتنة الكبرى فى عهد الخليفة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - سنة ٣٥هـ/٦٥٥ م .

---

(١) المسعودى : التنبيه والإشراف ص ٢٥٤ .

(٢) الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير تاريخ الرسل والملوك تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الرابعة دار المعارف القاهرة ١٩٧٧ م ج ٣ من ص ٢٢٥ - ص ٢٢٧ .

الفصل الأول

عرض موازين القوى بين المسلمين والروم

من سنة ٨ هـ / إلى سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م

أوضاع موازين القوى بين المسلمين والروم فى هذه الفترة .

الوضع الأول : من سنة ١١ هـ / ٦٢٣ إلى سنة ٣٥ هـ / ٦٥٥ م .

الوضع الثانى: من سنة ٣٥ هـ / ٦٥٥ إلى سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م .

الوضع الثالث : من سنة ٤١ هـ / ٦٦١ إلى سنة ٦٠ هـ / ٦٨٠ م .

الوضع الرابع : من سنة ٦٠ هـ / ٦٨٠ إلى سنة ٧٣ هـ / ٦٩٣ م .

الوضع الخامس : من سنة ٧٣ هـ / ٦٩٣ إلى سنة ٩٨ هـ / ٧١٧م .

الفصل الأول

عرض موازين القوى بين المسلمين والروم

من سنة ١١هـ /٦٣٢م إلى سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م

أوضاع موازين القوى بين المسلمين والروم فى هذه الفترة .

تنقسم موازين القوى بينهما فى هذه الفترة إلى خمسة أوضاع متميزة :

الوضع الأول : من سنة ١١ هـ / ٦٣٢ م إلى سنة ٣٥ هـ / ٦٥٥ م

وشهدت هذه المدة تفوق المسلمين على البيزنطيين فى موازين القوى بينهما وتعتبر هذه المدة امتدادا للعهد النبوى ، الذى شهد تفوقا أيضا .

بالنسبة للجانب الإسلامى

من أسباب التفوق :

كانت الدولة الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين ، دولة شابه فتية تتميز بالروح الإيمانية العالية ، والحماس الدينى ، فقبيل هذه الفترة ، كان الوحى ينزل من السماء على قلب الرسول الكريم – صلوات الله وسلامه عليه – المثل الأعلى والأسوة الحسنة ، وكان صحابة رسول الله ﷺ ، على نهجه واتباع ما جاء به من عند ربه ، وكانوا على درجة عالية من الإيمان ، جعلتهم خير القرون على الإطلاق [1] .

---

[1] يكفى للتدليل على ذلك ما جاء فى كتاب الله الكريم ، من قوله تعالى مخاطبا لهم : (كنتم خير أمة للناس) سورة آل عمران من الآية رقم (١١٠) والحديث الشريف : (خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ...) البخارى : صحيح البخارى كتاب الشعب (٦٣) ج ٥ مجلد (٩) ص ٣ .

وكان الجند الإسلامى على درجة عالية من الكفـاءة العسـكرية ، وقـد ورثوا بعض خصائصها من أيام الجاهلية ،وكذلك من الطبيعة القاسية التى نشئوا فيها ، فكانوا رماة مهرة ، وفرسانا لا يشق لهم غبـار ، وكـان المسـلمون لا يتوانون عن استخدام ما هو جديد فى مجال السلاح ، وفـى مجـال الخطـط العسكرية (١) .

هذا بالإضافة إلى ما تمتع به هؤلاء الجند – وجلهم من صحابة رسـول الله ﷺ من صفات الجندية الناجحة ؛ من الإيمان والحماس القوى ، والرغبة فـى الشهادة فى سبيل الله ، والصبر وتحمل المشاق (٢) .

ومن جهة أخرى ، ساد الأمن والاستقرار الدولة الإسلامية فـى عـهد الخلفاء الراشدين ؛ أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، حتى كانت الفتنة فى أواخر عهد عثمان سنة ٣٥ هـ / ٦٥٥ م ، ولم تكن حركات المرتدين فـى

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد المجلد الأول عدد (٦) ص ٢١١ : د . حسن إبراهيم تـاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٤٩٣ ، زيدان : جورجى تاريخ التمدن الإسـلامى ج ١ ص ١٩٣ .

(٢) وقد اعترف المصنفون من المؤرخين البيزنطيين بهذه الحقائق ، ومن هـؤلاء (جيفونـد) الذى عاش فى القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى) الذى قال : (إن الحماسة التـى بثها رسول الله ﷺ ، ومن بعده الصحابة فى نفوس الجيوش الإسلامية المقاتلة وحثها علـى الجهاد فى سبيل الله ؛ للفوز بفردوس النعيم ، وما جاء فى كتاب الله من أن الإسلام هـو دين العالمين ، وأن رسالته يجب أن تبلغ إلى كافة الناس ... دفع المقـاتل المسـلم إلـى الاستشهاد فى سبيل نشر هذا الدين خارج الجزيرة العربية والدفاع عنه ، ومن هنا – كمـا يرى جيفوند – كان الجندى المسلم أشد حماسا وإيمانا فى خوض غمـار الحـروب مـن الجندى البيزنطى) . يوسف : الإسلام والمسيحية ص ٥٣ نقلا عن :

Ghevond, Histoire des Guerres et des conpuetes des Arabes en Arcmenie . p.2

عهد أبى بكر ﷺ ، سوى سحابة عارضة ، لم تستغرق سوى مدة قصيرة من الزمان ، ثم تمكن أبو بكر من القضاء عليها تماما ([1]) وعادت للدولة الإسلامية بعد ذلك – وحدتها واستقرارها حتى نهاية هذه الفترة .

من مظاهر التفوق :

١- فى بداية خلافة أبى بكر – ﷺ – خرجت حملة أسامة بن زيد ، التى كان الرسول – ﷺ – قد أعدها قبل وفاته لحرب الروم وأعوانه ، وعادت هذه الحملة منتصرة ([2]) .

٢- دخلت الدولة الإسلامية منذ خلافة أبى بكر – ﷺ – فى حروب مع الدولتين الفارسية والرومية ، فى آن واحد فيما عرف باسم الفتوحات الإسلامية ، وانتصرت على الفرس ، كما انتصرت على الروم ، وكان من أكبر معاركها مع الروم ، معركة اليرموك سنة ١٣ هـ/٦٣٤ م ([3]) وتم فتح بلاد الشام ومصر وغزا معاوية بن أبى سفيان – وكان واليا على بعض بلاد الشام – الأراضى الرومية عبر جبال طرطوس سنة ٢٢ هـ / ٦٤٢ م ([4]) ، وغزا عمرو بن العاص بلاد المغرب فى العام نفسه ([5]) .

٣-قامت حملة بحرية إلى الأندلس سنة ٢٧ هـ / ٦٤٧ م ([6]) وقام فى نفس هذا العام ، عبد الله بن سعد بحملته الناجحة على إفريقية ([7])

([1]) الطبرى : ج ٣ من ص ٢٤٩ – ٣٤٢ ، ابن الأثير : ج ٢ من ص ٢٣٢ – ٢٦٠ .

([2]) الطبرى : ج ٣ من ص ٢٢٥ – ٢٢٧ .

([3]) المصدر السابق من ص ٣٩٤ – ٤١٤ ، ابن الأثير : ج ٢ من ص ٢٨١ – ٢٨٤ .

([4]) الطبرى : ج ٤ ص ١٦٠، ابن الأثير : ج ٣ ص ٩ ، ١٩

([5]) البلاذرى : ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ابن الأثير : ج ٣ ص ١٢ ، ١٣ .

([6]) الطبرى ج ٤ ص ٢٥٣ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٢٨ .

([7]) ابن الأثير : ج ٣ ص ٤٥ ، النووى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب نهاية الأرب فى فنون الأدب تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م ج ١٩ص ٤١٤ .

وفى سنة ٢٨ هـ / ٦٤٨ م نجح المسلمون فى فتح جزيرة قبرص (١) .

٤- علا نجم المسلمين فى المجال البحرى ، بعد أن دخلوا هذا المجال فى عهد عثمان بن عفان ﷺ ، وقد بلغت السفن الإسلامية مضيق القسطنطينية سنة ٣٢ هـ / ٦٢٥ (٢) وتمكنوا من الاستيلاء على قبرص مرة أخرى سنة ٣٤ هـ /٦٥٤م (٣) ، وكان خاتمة هذه الفترة الانتصار الحاسم للمسلمين فى موقعة ذات الصوارى سنة ٣٤هـ/٦٥٥ م (٤) .

وبالنسبة للجانب الرومى :

من أسباب الضعف :

١- عانت الدولة البيزنطية – فى بداية هذه الفترة – من النتائج السيئة لحروبها مع الفرس ، وبخاصة من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية (٥) ، وزاد الطين بلة ، المذهب الجديد الذى دعا إليه هرقل ، وهو مذهب (المونوثيليته) (٦) الذى كان له الأثر السيئ على وحدة الإمبراطورية وتماسكها (٧) .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٧ ، ١٥٨ والطبرى : ج ٤ ص ٢٥٨ .

(٢) الطبرى : ج ٤ ص ٣٠٤ ، ابن الأثير : ج ٣ ص ٣٥ .

(٣) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩١ .

(٤) ابن عبد الحكم : عبد الرحمن فتوح مصر والمغرب والأندلس طبعة ليدن ١٩٢٠ م ص ١٩٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ١٧٢ .

(٥) يوسف : د . جوزيف نسيم تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٠٩ .

(٦) يقوم هذا المذهب على عدم الخوض فى طبيعة السيد المسيح ، والقول بأن له إرادة واحدة ومشيئة واحدة . يوسف : د . جوزيف الإسلام والمسيحية ص ٩ ، ص ١ نقلا عن
RUNCIMAN , S , Byzantine Civilisation , London 1948 , p 40 .

(٧) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩٣ .

٢- قاست الإمبراطورية بعد موت هرقل من سوء الأحوال ، نظرا لضعف الأباطرة الذين تولوا بعد هرقل ، وسوء الحاشية ورجال البلاط وكثرة الدسائس والفتن ، وليس أدل على اضطراب الأحوال من أن العرش الإمبراطورى تعاقب عليه ثلاثة أباطرة فى عام واحد ، وهم : (قسطنطين الثالث) و (هرقليوناس) ، و (قنسطانز الثانى) وذلك فى عام ٦٤١ م / ٢١ هـ وهو العام التالى لوفاة هرقل (١) .

٣- هذا بالإضافة إلى ضعفها الاقتصادى ، بسبب حروبها الطويلة مع الفرس ، ثم مع المسلمين ، وضياع أقاليمها الغنية كمصر والشام .

من مظاهر الضعف :

١- فى عهد الإمبراطور(قنسطانز الثانى) ٦٤١ - ٦٦٨ م/٢٠ - ٤٨هـ ، قام أهل صقليه بالثورة على الإمبراطورية - بسبب مذهب هرقل الجديد وتحرك اللومبارد فى إيطاليا بالثورة على الإدارة البيزنطية الضعيفة ، واستولى ملكهم على جنوه ، ومعظم إقليم (ليجوريا) البيزنطى عام ٦٤٢ م / ٢٢ هـ ، كما هاجم دوق (بنفنتم) اللومباردى الممتلكات الإمبراطورية فى جنوب إيطاليا ، وأرسلت بيزنطة حمله بحرية إليه ، وأنزل الأسطول البيزنطى جنوده فى ميناء (مونت جرجانو) سنة ٦٥٠ م / ٣٠ هـ ، ولكن هذه الحملة فشلت فى ردع هذا الدوق ، ومنع اعتداءاته (٢) .

٢- لحقت البحرية البيزنطية بعض الهزائم ن وفشلت فى تحقيق الأهداف المرجوة منها ، كما حدث فى الإسكندرية سنة ٢٥ هـ /٦٤٥ م ، وفى إيطاليا سنة ٣٠هـ / ٦٥٠ م ، وكانت قمة الكوارث هزيمتها أمام المسلمين

---

(١) يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢٩٦ .

(٢) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩٤ .

في معركة ذات الصوارى سنة ٣٤ هـ / ٦٥٥ م (١) ، وبلغ من تأثير هذه الهزيمة أن الروم لم يقدموا على الحروب البحرية مع المسلمين ، قرابة عشر سنين بعد هذه المعركة . (٢)

٣- بجانب ذلك حملات المسلمين المتكررة على حدودهم البرية ، وممتلكاتهم البحرية ، واستيلائهم على بعضها ، وعجزهم أمام هذه الحملات ، كما مر .

الوضع الثانى : من سنة ٣٥هـ / ٦٥٥ م إلى ٤١ هـ / ٦٦١ م (٣) .

وقد تساوى الروم والمسلمون فى موازين القوى العالمية ، وكان هذا التساوى فى الضعف ، وليس فى القوة .

بالنسبة للجانب الإسلامى

من أسباب الضعف :

١ – الفتنة الداخلية فى أواخر عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان – ﷺ – تلك الفتنة التى انتهت بمقتله ، وما أعقب ذلك من معارك داخلية ، كمعركة الجمل سنة ٣٦هـ/٥٦ م ومعركة صفين سنة ٣٧ هـ/٦٥٧م ، ومعارك الخليفة الرابع على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – مع الخوارج (٤) وقد انتهى الأمر بقتله على يد أحدهم سنة ٤٠ هـ / ٦٦١م . (٥)

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ص ١٩٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ١٧٢ .

(٢) لويس : ص ٩٢ .

(٣) فى بداية هذه السنة كان تنازل الحسن ﷺ عن الخلافة لمعاوية ﷺ ، ولكن هذه السنة حفلت بالكثير من ثورات الخوارج على معاوية ، الطبرى : ج ٥ حوادث سنة ٤١ هـ ص ١٦٢ وما بعدها ، ابن الأثير ج ٣ حوادث سنة ٤١هـ ص ٢٠٣ وما بعدها .

(٤) الطبرى : ج ٤ من ص ٤٠٤- ٥٧٦ ، ج ٥ من ص ٥ – ٩٣ ، ابن الأثير : ج ٣ من ص ١٠٥ – ١٣٣ ومن ص ١٤١ – ١٦٣ ومن ص ١٦٩ – ١٧٢ .

(٥) الطبرى : المصدر السابق ج ٥ ص ١٤٣ ، ابن الأثير : ج ٣ ص ١٩٤ .

ومن مظاهر الضعف :

١- توقف الفتوحات الإسلامية فى المشرق والمغرب على السواء .

٢- خلال معركة صفين ، زحف الإمبراطور(قنسطانز الثانى) ، وأتباعه من المردة [١] ، على الأراضى الإسلامية سنة ٣٧ هـ/٦٥٦ - ٦٥٧م، واضطر معاوية إلى عقد الهدنة معهم ، على أن يدفع لهم إتاوة ؛ ليضمن سلامة أراضيه [٢] ، وإذا كانت الأمور قد استقرت لمعاوية ، بمبايعة الحسن له فى أوائل سنة ٤١ هـ ، إلا أن هذا العام شهد الكثير من ثورات الخوارج التى شغل معاوية بإخمادها [٣] ، وشجع ذلك إمبراطور الروم على أن يزحف بجموعه ناحية الشام فى هذه السنة - كما ذكر اليعقوبى - فصالحه معاوية على إتاوة ، وتم هذا الصلح فى أول سنة ٤٢ هـ (٦٦٢ م) [٤] .

---

(١) وتطلق عليهم المصادر الإسلامية (الجراجمه) وهم جماعات من سكان الجبال ، كانوا يقيمون فى لبنان وفى جبل اللكام الذى يشرف على إنطاكية وطرطوس ومنطقة الثغور ، ويدينون بالولاء للبيزنطيين ، وقد جندتهم بيزنطة فى مصالحها : الحموى : ياقوت معجم البلدان دار إحياء التراث العربى بيروت بدون تاريخ ج ٢ ص ٢٢ ، لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩٥ ، فرح : د . وسام العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الإسكندرية ١٩٨١ م ص ٤٣ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٤ .

(٣) الطبرى : ج ٥ ص ١٧٢ وما بعدها ، ابن الأثير ج ٣ ص ٢١٢ وما بعدها .

(٤) اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب التاريخ دار صادر بيروت بدون تاريخ ج ٢ ص ٢١٧ .

وبالنسبة للجانب الرومى :

من أسباب الضعف :

١- استمرار الأحوال السيئة التى كانت عليها الإمبراطورية ، منذ وفاة هرقل ، والتى سبقت الإشارة إليها .

٢- صادف الإمبراطورية – فى هذه الفترة – فتن وقلاقل فى البلقان ، زادت من ضعفها ، فقد أثار السلاف الاضطرابات فى البلقان ، وتقدموا نحو بحر الأرخبيل ، وانتشروا على طول الساحل حتى قرب مدينة سالونيكا ، ثم هاجموا هذه المدينة الهامة ، وقطعوا الاتصال بينها وبين القسطنطينية ، وأرسلت الإمبراطورية حملة بحرية لحصارهم سنة ٦٥٨ م / ٣٨ هـ (١).

ومن مظاهر الضعف :

عدم قيام الإمبراطورية بحملات برية أو بحرية ؛ لاسترداد نفوذها فى المناطق التى فقدتها ، أما الحملة التى ذكرها البلاذرى سنة ٣٧ هـ ، والحملة الأخرى التى ذكرها اليعقوبى سنة ٤١ هـ ، فلا تدلان على قوة عسكرية أو تفوق فى موازين القوى على الجانب الإسلامى ، وسيأتى توضيح ذلك عند تحليل بعض أوضاع موازين القوى بين المسلمين والروم .

الوضع الثالث : من سنة ٤١هـ إلى سنة ٦٠ هـ / ٦٨٠ م .

وشهد تفوق المسلمين على الروم فى موازين القوى بينهما .

---

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩٢ ، ٩٣ .

بالنسبة للجانب الإسلامى

من أسباب التفوق :

أن الدولة الإسلامية استردت عافيتها بعد الفتنة العارضة التى ألمت بها ، واستقرت الأمور لمعاوية سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م وعادت إليها وحدتها وقوتها ، وأمنها الداخلى .

من مظاهر التفوق :

١- استئناف حملات الصوائف والشواتى منذ سنة ٤٢ هـ / ٦٦٢ م (١) ، وكانت تتم كل عام على الحدود البيزنطية ، كما استؤنفت الحملات على بلاد المغرب ، وكانت أسبق من حملاتهم فى المشرق (٢). إذ بدأت سنة ٤٠هـ /٦٦٠ م (٣) .

وتمكن المسلمون من خلال حملات الصوائف ، والشواتى على الحدود الرومية ، من الاستيلاء على بضع الحصون ، والتوغل فى أرض الروم ، وكانت لهم حملتان على القسطنطينية سنة ٤٩ ه / ٦٦٨ م ، وسنة ٥٠ هـ / ٦٦٩ م (٤) .

---

(١) الطبرى : ج ٥ ص ١٧٢ وما بعدها ، ابن الأثير ج ٣ ص ٢١٢ ، وما بعدها .

(٢) والسبب فى ذلك أن مصر – وهى الطريق إلى المغرب – دخلت فى طاعة معاوية ابن أبى سفيان ، بفضل جهود عمرو بن العاص – ﷺ – سنة ٣٨ هـ/ ٦٥٨ م ، واستقرت بها الأمور قبل غيرها من أقطار العالم الإسلامى. أنظر الكندى : أبو عمر محمد بن يوسف ولاة مصر تحقيق د . نصار دار صادر بيروت بدون تاريخ ص ٥٥ ، ٦٦ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الطبرى : ج ٥ ص ٢٣٢ ، العدوى : د . إبراهيم الأمويون والبيزنطيون ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٥٣ م ص ١٥٥ .

٢-بجانب هذه الغزوات كانت غزوات بحرية لجزر الروم فى البحر المتوسط ، فأغاروا على كريت سنة ٥٢ هـ / ٦٧٢ م [١] ، وفتحوا جزيرة رودس سنة ٥٣ هـ / ٦٧٢ م ، واتخذوا منها قاعدة لتهديد البحرية البيزنطية [٢] ، وكانوا قد استولوا من قبل على قبرص ، وأكمل معاوية دائرة الإحاطة بالقسطنطينية بحرا ، بالاستيلاء على جزيرة خيوس اليونانية [٣] ونجح المسلمون فى فتح جزيرة أرواد سنة ٥٤ هـ/ ٦٧٤م [٤] واتحذوا منها قاعدة تساعدهم فى فتح القسطنطينية.

٣-وكان قمة ما وصل إليه نشاط البحرية الإسلامية فى هذه الفترة ، حصار القسطنطينية سنة ٥٤ هـ / ٦٧٤ م ، واشتركت القوات البرية مع القوات البحرية فى هذا الحصار ، الذى استمر حوالى سبعة أعوام [٥] .

٤-فى بلاد المغرب كانت هناك فى هذه الفترة حملات ناجحة على هذه البلاد ، الأولى سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ م بقيادة معاوية بن حديج ، والثانية سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م بقيادة عقبة بن نافع والثالثة سنة ٥٥ هـ/٦٧٥ م

---

[١] لويس : أرشيبالد القوى البحرية والتجارية ص ٩٦ .

[٢] ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٦٦ ، ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة طبع دار الكتب المصرية ١٣٥٢ ه / ١٩٣٢ م ج ١ ص ١٤٤ .

[٣] فرج : العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية ص ٣٦ نقلا عن :

Ostrogorsky, G, History of the Byzantine state, tr. by Hussey (Oxford) 1956 , p .111 .

[٤] الطبرى : ج ٥ ص ٢٩٣ ، ابن الأثير : ج ٣ ص ٢٤٦ .

(٥) الطبرى : ج ٥ ص ٢٣٢ ، ٢٩٣ ، ابن الأثير : ج ٣ ص ٢٢٧ ، ص ٢٤٦ ، شلبى : د . أحمد موسوعة التاريخ الإسلامى ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨ م ج٢ ص ١١٥ .

بقيادة أبى المهاجر دينار ، وتمكن المسلمون من الاستيلاء على إفريقية وتوغلوا فى المغرب الأوسط حتى تلمسان (١) .

٥-فى الشرق كان للمسلمين غزوات فى بلاد السند ٤٣ هـ و٤٤هـ/ ٦٦٣ م ، ٦٦٤م ، كما غزوا جبال الغور وفراوند سنة ٤٧ هـ / ٦٦٧ م (٢).

وبالنسبة للجانب لرومى :

من أسباب الضعف :

١-كانت البحرية البيزنطية ما تزال تعانى من آثار هزيمتها فى معركة ذات الصوارى سنة ٣٤هـ / ٦٥٥ م ، وأحجمت عن مجابهة المسلمين فى المجال البحرى لمدة عشر سنين – كما سبق القول .

٢-كان الخلاف المذهبى من أسباب ضعف البيزنطيين ، فقد أثار الاضطرابات الداخلية ، ودفع إلى الثورة على بيزنطة .

وقد حاول (قنسطانز الثانى) علاج الضعف الذى كانت عليه الإمبراطورية ، وركز اهتمامه على الأملاك البيزنطة فى غرب البحر المتوسط .

وقام بنقل عاصمته إلى سرسوقة بصقلية سنة ٤٢ هـ/٦٦٢ م ، كما نقل جانبا كبيرا من قواته ، وكان من الممكن أن يحرز النجاح التام لولا الخلاف المذهبى ، وعموما فقد نجح فى المحافظة على كثير من الممتلكات البيزنطية

(١) خليفة بن خياط : التاريخ نشر أكرم العمرى بغداد ١٩٨٦ م ج ١ ص ٢١٥ ، المالكى: أبو بكر عبد الله رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان نشر د . حسين مؤنس مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١ م ج ١ ص ٢٠ ، ابن عذارى المراكشى : أبو عبد الله محمد البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب تحقيق كولان وليفى برفنسال دار الثقافة بيروت ١٩٦٧ م ج ١ ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) الطبرى : ج ٥ ص ٢٢٩ ، ابن الأثير ج ٣ ص ٢١٨ ، ٢٢٦ .

فى الغرب ، وإن كان قد فشل فى استرداد جميع الأراضى التى استولى عليها اللومبارد فى إيطاليا ([1]) .

٣- شهدت السنوات الأولى من حكم (قسطنطين الرابع) ٦٨٨ - ٦٨٥ م / ٤٨ - ٦٥هـ ، اضطرابات وفتنا عقب مصرع الإمبراطور السابق (قنسطانز الثانى) فى صقلية ،وانتقال العاصمة إلى القسطنطينية مرة أخرى، وقام أحد القادة العسكريين بالثورة على قسطنطين فى صقلية([2]).

ومن مظاهر الضعف :

الحملات البرية والبحرية الإسلامية على الممتلكات الرومية والتى لم يتمكن إمبراطور الروم فى معظم هذه الفترة (قنسطانز الثانى) من الرد عليها واضطرته شدة هذه الحملات ، إلى الإغارة على دلتا النيل سنة ٥٣ هـ / ٦٧٣ م ([3]) ، حتى ينشغل المسلمون بالدفاع عن مصر ، ولكن ذلك كان حيلة فاشلة ، فقد أغار المسلمون فى العام التالى على عاصمة الدولة الرومية - القسطنطينية - وحاصروها الحصار الذى أشرنا إليه من قبل .

الوضع الرابع : من سنة ٦٠ هـ /٦٨٠ م إلى سنة ٧٣ هـ / ٦٩٣ م .

كانت موازين القوى تميل ناحية الجانب الرومى ، وبالتالى كان الجانب الإسلامى فى موقف الضعف .

([1]) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩٤ .

([2]) عبد الحميد : د . سعد زغلول ، تايخ المغرب العربى منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٧٩ م ج١ ص ١٨٣ ، ١٨٤ نقلا عن :

G . Marcais , Le Berberie et L'orient . p . 31 .

([3]) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩٦ .

بالنسبة للجانب الإسلامى .

من أسباب الضعف :

١- فى بداية هذه الفترة ، كان فشل المسلمين فى فتح القسطنطينية ، وفك الحصار عنها ، وما أصاب السفن الإسلامية من تدمير كبير ، نتيجة استخدام الروم لسلاح جديد ، وهو النار الإغريقية (١) ، والتى احترق بها عدد كبير من السفن ، ثم أصاب السفن الباقية عاصفة قوية ، وهى فى طريق العودة ، ولم يعد منها سوى عدد ضئيل ، وذلك سنة ٦٠ هـ / ٦٧٩م (٢) ، وذلك مما أضعف السلاح البحرى الإسلامى إلى حد بعيد .

---

(١) النار الإغريقية : توصل الروم إلى هذا النوع من النار عن طريق خلط بعض المواد الكيماوية ،ومن صفات هذه النار ، أن الماء لا يطفئها ، بل يزيدها اشتعالا ، وكان هذا السلاح سرا من أسرار الدولة البيزنطينية واقتصر استخدامها على الأسطول الإمبراطورى المرابط ، فى مياه القسطنطينية ، ولا تستخدمه أساطيل الأقاليم إلا فى حالات الضوورة ، ثم تمكن المسلمون من معرفة سر هذه النار ، مع مطالع القرن الخامس أو الرابع الهجريين (الحادى عشر أو العاشر الميلاديين) وتمكنوا من اختراع ما يفوقها أثرا . العدوى : د . إبراهيم الأمويين والبيزنطيين ص ١٦٩ ، ١٧٠، زكى : د . عبد الرحمن الحرب عند العرب . مجموعة كتابك رقم (٨٨) دار المعارف – القاهرة بدون تاريخ ص ٤٠ ، لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) الطبرى ، ج ٥ ، ص ٢٩٣ ، لويس : القوى البحرية ص ٩٦ ، ٩٧ ولا تذكر المصادر الإسلامية شيئا عن إحراق السفن ، ويرجح بعض الباحثين أن السبب القوى لانسحاب الأسطول الإسلامى هو أن هذه الفترة ، شهدت الأيام الأخيرة لمعاوية ، وكان يزيد قائدا لهذه الحملة ، وهو ولى العهد ، فكانت الحكمة تقتضى عودة الأسطول، ويقال إن معاوية عقد صلحا مع الروم مدته أربعون عاما سنة ٦٠ هـ / ٦٨٠ م . شلبى : د . أحمد موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٢ ص ١١٥ ، ١١٧ ، عنان : محمد عبد الله . مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام ، مكتبة الخانجى القاهرة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م . ص ٣٨ .

٢- فى هذه الفترة كانت الأوضاع الداخلية السيئة ، والفتن والاضطرابات فى عهد يزيد ، من ذلك معركة كربلاء ، التى انتهت بمقتل الحسين ﷺ سنة ٦١ هـ ، وموقعه الحرة سنة ٦٣ هـ التى انتهكت فيها حرمة المدينة المنورة ، وقد أثار ذلك مشاعر المسلمين وغضبهم ([1]) . وخروج عبد الله بن الزبير على يزيد بن معاوية ، واستمر على هذا الخروج بعد وفاة يزيد سنة ٦٤ هـ/ ٦٩٢ م وحتى سنة ٧٣هـ /٦٩٢م وكان ابن الزبير قد بويع بالخلافة بعد يزيد ، وانضوى تحت لوائه سائر الأقطار الإسلامية ، ما عدا بعض جهات الشام ، وكانت معركة مرج راهط بين أنصار ابن الزبير وأنصار الأمويين ، وتجلت الروح القبلية فى هذه المعركة التى انتهت بانتصار الفريق الموالى لبنى أمية وذلك سنة ٦٥ هـ . ولم يتمكن الأموين من القضاء على ابن الزبير تماما إلا فى سنة ٧٣ هـ/ ٦٩٢م ([2]) .

وبجانب فتنة عبد الله بن الزبير ، كانت هناك فتن أخرى ، منها خروج عمرو بن سعيد ، على عبد الملك بن مروان سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م وقد تمكن عبد الملك من القضاء عليه ([3]) وقد شغلت تلك الفتن الدولة الإسلامية ؛ وأدت إلى ضعفها أمام الجانب الآخر وهو الجانب الرومى .

من مظاهر الضعف :

١- أن يزيد بن معاوية اضطر إلى طلب الصلح من الروم ، وقبل دفع إتاوة لهم ، وقد رفع الروم من قيمتها رغبة فى إذلاله ، وأجبروه على سحب القوة العسكرية الإسلامية من قبرص ، بعد أن ظلت هناك قرابة ثلاثين

([1]) الطبرى : ج ٥ من ص ٤٠٠ إلى ص ٤٩٦، ابن الأثير : ج ٣ من ص ٢٩٢ إلى ٣١٦.
([2]) الطبرى المصدر السابق ج ٦ من ص ١٨٧ إلى ص ١٩٣ ، ابن الأثير : ج ٤ ص ٢١ .
([3]) الطبرى المصدر السابق من ص ١٤٠ الى ١٤٨ ، ابن الأثير المصدر السابق ج٣ ص ٣٩٧.

عاما ([1]) ، كما ضغطوا عليه لسحب قواته من بعض الجزر ، وكان الضعف الذى لحق بالبحرية الإسلامية بعد انسحابها من حصار القسطنطينية سنة ٦٠هـ / ٦٧٩ م ، يضطره إلى تحقيق هذا الانسحاب حتى ولو لم يكن هناك ضغط أصلا ، كما حدث عندما قام بتصفية القاعدة الإسلامية فى جزيرة رودس ([2]) ، دون أن تذكر المصادر أى ضغط من الروم عليه لسحب قواته من هذه الجزيرة .

هذا وقد استمرت الدولة الإسلامية فى دفع الإتاوة للروم ، حتى عهد عبد الملك بن مروان ، الذى رأى قطع هذه الإتاوة سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م ، فسلط الروم عليه جماعات الجراجمة (المردة) ([3]) فقاموا بمهاجمة الشام فى نفس العام واضطر عبد الملك إلى الصلح ،ودفع الإتاوة مرة أخرى سنة ٧٠هـ / ٦٨٩ ([4]) .

٢- ومما يدل على ضعف الجانب الإسلامى فى هذه الفترة توقف حملات الصوائف والشواتى على بلاد الروم ([5]) .

٣- لم يتمكن المسلمون – خلال هذه المدة – من النهوض ببحريتهم ، بعد الكارثة التى لحقت بها سنة ٦٠هـ/ ٦٧٩ م .

٤- فى بلاد المغرب أصيبت الفتوحات الإسلامية بانتكاستين :

([1]) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩٧ .

([2]) ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص ٦٦، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج١ ص ١٤٤.

([3]) سبق الحديث عن هذه الجماعات ص ٢١ ، ٢٢.

([4]) الطبرى : ج ٦ ص ١٥٠ ، ابن الأثير : ج ٣ ص ٤٠٠ لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩٩ .

([5]) الطبرى : ج ٥ من ص ٤٠٠ إلى ص ٦٢٦ ، ج ٦ من ص ٦ من ص ٥ إلى ١٨٦، ابن الأثير ج ٣ من ص ٢٩٢ إلى ص ٤٠٠ ، ج ٤ من ٢ إلى ص ٢١ .

الأولى : سنة ٦٤ هـ/ ٦٨٣ – ٦٨٤ م، عندما استشهد القائد عقبة بن نافع ، وانسحب المسلمون من إفريقية وتوقفت الفتوحات فى بلاد المغرب إلى سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م [١] .

الثانية : سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م عندما استشهد القائد زهير بن قيس ، وتوقفت الفتوحات كذلك إلى سنة ٧٣ هـ / ٦٩٣ م [٢] .

وكان للروم تأثير غير مباشر على الأولى ، حيث أدى نشاطهم البحرى – فى هذه الفترة – إلى تقوية عزيمة الروم المحليين وحاميتهم فى بلاد المغرب ، وشجعهم على التحالف مع البربر ، وإثارتهم ضد عقبة [٣] . وكان للروم تأثير مباشر على الانتكاسة الثانية ، حيث تصدت قواتهم للقائد زهير والفرقة التى معه ، وقتلتهم جميعا [٤] .

وبالنسبة للجانب الرومى :

من أسباب التفوق :

١- النشاط العسكرى الذى شهدته دولة الروم فى عهد (قسنطنطين الرابع) والفترة الأولى من عهد جستنيان الثانى) [٥] . وقد انتعشت البحرية البيزنطية – بعد الكارثة التى أصابت السفن الإسلامية سنة ٦٠ هـ/٦٧٩م

---

[١] ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ص ١٩٩، ابن الأثير : ج ٣ ص ٣٠٩، ابن عذارى : البيان ج ١ من ص ٢٤ إلى ٣١ .

[٢] ابن عبد الحكم : فتوح ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، الرقيق : أبو إسحاق بن القاسم . تاريخ إفريقية والمغرب تحقيق المنجى الكعبى مطبعة الوسط بتونس ١٩٦٧ م ص ٥٣ ، ابن الأثير : ج ٢ ص ٣١٠ .

[٣] لويس : أرشيبالد القوى البحرية والتجارية ص ٩٧ .

[٤] ابن عبد الحكم : فتوح ص ٢٠٣ ، لويس : المصدر السابق ص ٩٩ .

[٥] تولى الحكم فترتين : الأولى من سنة ٦٨٥ م / ٦٥هـ إلى سنة ٦٩٥ م / ٧٦ هـ ، والثانية من سنة ٧٠٥ م / ٨٦ هـ إلى سنة ٧١١ م / ٩٢ هـ . يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية ص ٣٩٦ .

– واستعادت بيزنطة سيادتها على جزر البحر المتوسط الهامة ، وأصبحت سفنها تروح وتغدو آمنة فوق مياهه [1] .

٢- تحسنت أوضاع الروم الداخلية نسبيا ، وذلك بعد أن تخلى (قسطنطين الرابع) عن المذهب (المونوثيليتى) الذى رفع (هرقل) لواءه من قبل وعاد إلى مذهب أصحاب الطبيعتين ، طبقا لقرار المجمع المسكونى السادس ، الذى دعاه إلى الانعقاد سنة ٦٨٠ م / ٦١ هـ .[2]

ومن مظاهر التفوق :

١- قيام الجانب الإسلامى –فى هذه المدة – بدفع الإتاوة لهم واستجابته لطلب الروم بسحب الحاميات الإسلامية من جزر البحر المتوسط الهامة كقبرص [3] .

٢- عدم احترام البيزنطيين لمعاهداتهم مع الدولة الإسلامية ؛ لإحساسهم بتفوقهم العسكرى سنة ٦٨٩ م / ٦٩ هـ ، بعد فترة قصيرة من إبرامها، والتى كان من نصوصها ، إبقاء ألبانيا وأيبريا محايدتين [4] فقد قامت القوات الرومية بضمهما إلى السيادة الرومية ، ولم يحرك المسلمون ساكنا [5] .

---

[1] لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩٧ .

[2] فرج : د . وسام العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية ص ٣٩ ، ص ٤٠ نقلا عن :

Vsiliov, History of the Byzantine Empire, I,(Madison 1961). p 224, 225 .

[3] لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩٧ .

[4] أيبريا مملكة مسيحية تقع فى منطقة جبل القوقاز ، بين البحرين الأسود وقزوين ، وألبانيا إقليم قريب منها . فرج : د . وسام العلاقات ص ٤٢ نقلا عن :

Foord , Byzintine Empire p . 146 .

[5] المرجع السابق ص ٤٦ نقلا عن :

Bury ,roman Empire , 11, , p . 323

ومما تجدر ملاحظته أن تقدم الروم فى موازين القوى على المسلمين – فى هذه الفترة – كان السبب فى جانب كبير منه – أيضا – يعود إلى الحالة الطارئة التى كانت عليها الدولة الإسلامية ، وما سادها من اضطرابات وفتن داخلية .

كما كان من أهم أسباب ظهور الدولة الإسلامية بمظهر الضعف – فى هذه الفترة – استخدام الروم لجماعات الجراجمة (المردة) أصحاب الموقع المتميز (الاستراتيجى) ضد الدولة الإسلامية ، وكان الخليفة عبد الملك بن مروان على قدر كبير من الحكمة وبعد النظر ، وعندما اشترط على الإمبراطور الرومى (جستنيان الثانى) فى معاهدة سنة ٦٨٩ م / ٦٩ هـ أن يسحب جنود الجراجمة من جبال لبنان للإقامة فى آسيا الصغرى ، وارتكب (جستنيان الثانى) خطأ شنيعا عندما قبل ذلك ، فقد فقدت الإمبراطور وسيلة ضغط هامة على المسلمين (١) .

الوضع الخامس : من سنة ٧٣ هـ م ٦٩٣ م إلى سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م .

كانت موازين القوى تميل ناحية الجانب الإسلامى ، وتبتعد عن الجانب الرومى .

بالنسبة للجانب الإسلامى

من أسباب التفوق :

١– تحسن الأوضاع الداخلية فى الدولة الإسلامية ، بعد القضاء تماما على فتنة ابن الزبير سنة ٧٣ هـ واستعادت الدولة الإسلامية بذلك وحدتها

---

(١) لويس : ارشيبالد القوى البحرية والتجارية ص ٩٩ ، فرج : د . وسام العلاقات ص ٤٤ نقلا عن :

Finlay , History of Greece , 1 , p 387 .

وتماسكها ([1]) ، وأصبحت الدولة الإسلامية فى أوضاع داخلية مستقرة إلى حد كبير ، ولم يكن يكدر من صفو هذه الأوضاع سوى ثورات بعض الخارجين ، ومن أقوى هذه الثورات ثورة عبد الرحمن بن الأشعث فى الشرق من سنة ٨١ هـ / ٧٠٠ م إلى سنة ٨٦ هـ / ٧٠٤ م ([2]) ، وإن كان تأثير هذه الثورات محدودا ولم يغير من وضع موازين القوى بين المسلمين والروم .

٢- اهتمام المسلمين فى هذه الفترة بالقوة البحرية ، بعد الكارثة التى لحقت بها فى سنة ٦٠ هـ / ٦٧٩ م ، واستعادة البحرية الإسلامية نشاطها ، يدل على ذلك ما ذكرته بعض المصادر من مشاركة بعض وحدات البحرية الإسلامية فى فتح قرطاجنة والمعاقل الساحلية فى حملتى حسان بن النعمان الأولى والثانية ([3]) على بلاد المغرب .

٣- ومن مظاهر اهتمام المسلمين بالبحرية- فى هذه الفترة - إنشاء قاعدة تونس البحرية سنة ٨٤ هـ / ٧٠٣ م التى سرعان ما أثبتت فاعليتها وأهميتها ، عندها حمت سفن الأسطول المصرى الإسلامى الذى أغار على صقلية سنة ٨٤ هـ / ٧٠٣ م من عاصفة بحرية ، كادت تقضى عليه ([4]).

([1]) الطبرى : ج ٦ ص ١٨٧ .

([2]) الطبرى : من ص ٣٣٤ إلى ٣٩٣ ، ابن الأثير ج ٤ من ص ٧٧ إلى ٩٥ .

([3]) لويس : ارشيبالد القوى البحرية والتجارية ص ١٠٠ وفرج : د . وسام العلاقات ص ٥٧ نقلا عن :

Foord , Byzintine Empire p . 149 .

([4]) لويس : ارشيبالد القوى البحرية والتجارية ص ١٠٠ .

ومن مظاهر التفوق :

١- إقدام عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى ، بعد أن اطمأن إلى قوة دولته في المجالين العسكرى والسياسى على تحقيق سيادتها الاقتصادية بإصدار عملة إسلامية خاصة بها ، مع علمه بما يسببه ذلك من إثارة الدولة البيزنطية وغضبها (١) .

٢- انتصار المسلمين على الروم فى معركة (اسباستابول) ناحية أرمينية سنة ٦٩٣ م / ٧٣ هـ ، وكان قائد جيش الروم ، الإمبراطور نفسه ، الذى فر بعد الهزيمة ، وسبب هذه المعركة غضب البيزنطيين من إصدار المسلمين عملة جديدة ، وتضمن العملة الجديدة عبارات التوحيد واعتبر البيزنطيين ذلك هجوما على عقيدة التثليث المسيحية ، وأعلن الإمبراطور الحرب على المسلمين (٢) .

٣- أن الدولة الإسلامية كانت تواصل غزواتها فى منطقة الحدود البرية بينها وبين الروم ، وتحرز الانتصارات ، وتفتح الحصون والثغور ، ومن ذلك فتح قاليقلا سنة ٨١ هـ /٧٠٠ م (٣) ، وتمكن القائد المسلم عبد الله بن عبد الملك من فتح المصيصة سنه ٨٤هـ/٧٠٣م ، وأقام بها حامية إسلامية ،

---

(١) المرجع السابق ص ٩٩ ، الطبرى : ج ٦ ص ٢٥٦ ، ابن الأثير : ج ٤ من ص ٣٣ إلى ٧٣ .

(٢) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩٩ ، فرج : د . وسام العلاقات ص ٤٩ نقلا عن:
Finlay , History of Greece , 1 , p 389 .
ولم تذكر المصادر الإسلامية اسم هذه المعركة صراحة ، وذكر الطبرى فى حوادث سنة ٧٣ هـ معركة بين المسلمين والروم ناحية أرمينية ، وكان عدد المسلمين ، أربعة آلاف والروم ستين ألفا ، وانتهت بهزيمة الروم ، وكثر القتل فيهم ، ولعلها نفس المعركة التى وقعت عند اسباستابول .

(٣) الطبرى ج ٦ ص ٣٣١ ، ابن الأثير : ج ٤ ص ٧٥ .

وأسكنها المسلمين ([1]) أما ما ذكرته المصادر من انتصار الروم على المسلمين فى سميساط عام ٨١هـ/٧٠٠م([2])، وفى قاليقلا عامى ٨٤،٨٥ هـ / ٧٠٣ ، ٧٠٤ م([3])، فإن هذه الانتصارات لا تعنى انقلاب موازين القوى لصالح الروم ، فقد كانت لها ملابستها وظروفها الخاصة، وسيأتى توضيح ذلك عند تحليل بعض أوضاع موازين القوى بين المسلمين والروم.

كما تمكن المسلمون من فتح بعض المدن والحصون الأخرى مثل طوانه وقسطنطينية وغزالة والأخرم سنة ٨٨ هـ / ٧٠٧ م ([4]) ، وكان سقوط مدينة طوانه يمثل أهمية كبرى ، حيث إنها مفتاح الطريق الهام بين أعالى الشام والبوسفور ، وأصبح المسلمون يتحكمون فى أهم معاقل إقليم كبادوكيا بآسيا الصغرى ([5]) .

وتوغلت الجيوش الإسلامية فى الأراضى الرومية ، وفتحت هرقلة وقمونية سنة ٨٩ هـ / ٧٠٨ م ، وبلغت الأرزن سنة ٩٠ هـ/٨٠٧ م ([6]) ، وتوالت حملات المسلمين على آسيا الصغرى ، فى السنوات التالية ، وتوغلوا فى هذه المنطقة حتى قاربوا البسفور ([7]) وشجعهم ذلك على التقدم لفتح القسطنطينية عاصمة الدولة الرومية .

([1]) الطبرى ج٦ ص ٣٨٥ ، ابن الأثير ج٤ ص ٩٤ ، ٩٥.

([2]) فرج مرجع تقدم ص ٥٩ نقلا عن :

Finlay , History of Greece , 1,P.393

([3]) البغدادى : أحمد بن عبد الله عيون أخبار الأعيان ج ١ لوحة رقم ٦٩ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٨١ .

([4]) الطبرى : ج ٦ ص ٤٣٤ ، ص ٤٣٦ .

([5]) فرج : د . وسام العلاقات ص ١١٥ .

([6]) الطبرى : ج ٦ ص ٣٣٩ ، ص ٤٤٢ .

([7]) الطبرى ج ٦ من ص ٤٦٨ إلى ٥٢٩ ، ابن الأثير : ج ٤ من ص ١١٩ إلى ١٤٦ .

٤- من مظاهر التفوق الإسلامي في هذه الفترة خضوع أرمينية معظم الأوقات للدولة الإسلامية ، وكان هذا الإقليم مقياسا جيدا لموازين القوى بين المسلمين والروم ، ويقع على الحدود بينهما ، ويتأرجح بين الولاء للمسلمين والولاء للبيزنطيين ، تبعا للقوة التي يلمسها من أحد الطرفين ، وقد ثار الزعيم الأرمني (سيمباد) وأعلن خضوعه للمسلمين (١) ، بعد هزيمة الروم في معركة (اسباستابول) سنة ٧٣ هـ / ٦٩٣ م ، ولكن يبدو أن ذلك لم يستمر طويلا ، فقد غزا محمد بن مروان أرمينية سنة ٨٢ هـ / ٧٠٢ م وأخضعها لحكم المسلمين ، ثم غدر أهلها بهم ، وطلبوا من البيزنطيين أن يبسطوا حمايتهم على الإقليم (٢) ، ولعلهم انخدعوا بهم ، وظنوا أنهم على قدر من القوة فكانوا أضعف مما ظنوا ، ولم يمكنهم بسط هذه الحماية ، وأرسل الخليفة عبد الملك بن مروان حملة إلى أرمينية ، تمكنت من السيطرة عليها سنة ٨٥ هـ/٧٠٤ م (٣).

٥- في المغرب بعد أن نجح الروم في استرداد قرطاجنة سنة ٧٨ هـ / ٦٩٧ م (٤) ، تمكن المسلمون من فتحها ثانية فتحا نهائيا سنة ٧٩ هـ / ٦٩٨ م (٥) ثم تقدم المسلمون حتى فتحوا بلاد المغرب كلها ما عدا مدينة

---

(١) فرج د . وسام العلاقات ص ٥١ نقلا عن :

Finlay , History of Greece , 1 , p . 386 .

(٢) ابن الأثير : ج ٤ ص ٨٤ وانظر فرج : د . وسام العلاقات المرجع السابق .

(٣) ابن الأثير : ج ٤ ص ١٠٢ .

(٤) البكري : أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز ، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب طبعة دي سلان باريس ١٩١١ م ص ٣٧ ، ص ٣٨ ، لويس : القوى البحرية والتجارية ص ١٠٠ .

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب ج ١ ص ٣٥، لويس:القوى البحرية والتجارية ص ١٠٠.

سبتة سنة ٩٠ هـ / ٧٠٨ م (1) ، ثم ما لبثت أن خضعت هى الأخرى للمسلمين وانتقل المسلمون إلى بلاد الأندلس سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م (2) ، وأحرزت الجيوش الإسلامية انتصارات عظيمة فى هذه البلاد ، وتمكنت من فتح جنوبها وشمالها ، حتى تمكنت – فيما بعد – من بسط سلطان المسلمين على شبه جزيرة أيبريا – تقريبا ، وتقدموا إلى الفرنجة (3) .

٦- أما فى بلاد المشرق ، فقد تواصلت الفتوحات – أيضا – وتقدم المسلمون إلى بلاد ما وراء النهر، وتم فتح بخارى سنة ٩٠ هـ، وسمرقند سنة ٩٥ هـ ، وفتحت كاشغر أدنى مدائن الصين سنة ٩٦ هـ(4).

٧- كان من مظاهر التفوق الإسلامى فى موازين القوى ، الحملات البحرية التى قام بها المسلمون على جزر الروم وممتلكاتهم فى البحر المتوسط – وقد سبق القول عن المشاركة التى قام بها الأسطول الإسلامى فى فتح قرطاجنة فى المرتين الأولى والثانية (سنة ٧٥ هـ / ٦٩٥ م ، وسنة ٧٩ هـ / ٦٩٨) (5) – وقد أغار أسطول من مصر على صقلية سنة ٨٥ هـ

---

(1) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ص ٢٠٤ ، ص ٢٠٥ وانظر عبد الحميد : د . سعد زغلول تاريخ المغرب العربى ج ١ ص ٢٤٥ .

(2) الطبرى : ج ٦ ص ٤٦٨ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ من ص ٨ إلى ص ١٣ .

(3) المقرى : أحمد بن محمد نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق محمد محيى الدين ، عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ م ج ١ ص ٢٧٩ ، مؤنس : د . حسين فجر الأندلس ١٩٥٩ م من ص ٢٥٠ إلى ٢٦٠ .

(4) الطبرى ج ٦ من ص ٤٤٢ إلى ٥٠٠ ، ابن الأثير : ج ٤ من ص ١١٣ إلى ١٣٦ .

(5) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٣٥ ، ابن الأثير : ج ٤ من ص ٣٢ ، لويس : القوى البحرية والتجارية ص ١٠٠ .

/ ٧٠٤م (١) . وخرجت حملتان بحريتان من إفريقية لغزو سردانيا في سنة ٨٧ هـ / ٧٠٦ م (٢) ، كما خرجت حملة بحرية في سنة ٨٩ هـ / ٧٠٧ م لغزو جزيرتي ميورقة ومنورقة من جزر البليار من إفريقية ، وقاد موسى بن نصير بنفسه حملة ثالثه هذا العام على جزيرة ميورقة، وترجح بعض المصادر أنه أسر حاكم هذه الجزيرة (٣). ولم يكن النشاط البحري الإسلامي قاصرا على غرب البحر المتوسط ، بل امتد كذلك إلى مشرقة ، وقد أشارت المصادر إلى أسر خالد بن كيسان على يد الروم سنة ٩٠ هـ / ٧٠٨ م ، وكان أميرا للأساطيل الإسلامية ، مما يدل على وجود احتكاكات بحرية في شرق البحر المتوسط ، وقد قام ملك الروم بإهدائه إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك بعد أسره مباشرة (٤) . ، ولعل ذلك – كما رأى أحد المؤرخين – كان وسيلة من الوسائل الودية التي اتبعها الروم ، لوقف تقدم المسلمين في آسيا الصغرى ، وتهديد عاصمتهم القسطنطينية ، بدلا من اتباع القوة وخوض الحروب التي قد لا تكون نتيجتها في صالحهم (٥) .

---

(١) أشار الذهبي إلى حملة المسلمين على هذه الجزيرة وحدد لهذه الحملة سنة ٨٢ هـ ، وأشار ابن قتيبة إلى حملة خرجت سنة (٨٥ هـ / ٧٠٤ م) من إفريقية . الذهبي : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد دول الإسلام الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٤ م ج ١ ص ٥٧ وانظر لويس : القوى ص ١٠١ .

(٢) خليفة بن خياط : التاريخ ج ١ ص ٣٠٣ ، ص ٣٠٤ .

(٣) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج٢ ص ٥٩، لويس : القوى البحرية والتجارية ص١٠١.

(٤) الطبري : ج ٦ ص ٤٤٢ ، ابن الأثير : ج ٤ ص ١١٦ .

(٥) العدوى : د . إبراهيم الأمويون والبيزنطيون ص ١٨٢ .

وأخذ السلاح البحرى الإسلامى ينمو نموا مضطردا ، وزادت قطعة البحرية ، وبلغ عدد سفن الأسطول الذى حاصر القسطنطينية سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م . ألفا وثمانمائة سفينة من الشام ومصر وإفريقية . [1]

بالنسبة للجانب الرومى :

من أسباب التخلف فى موازين القوى

١- الأوضاع الداخلية السيئة ، وبخاصة بعد هزيمتهم فى معركة (إسباستابول) ٦٩٣ م / ٧٣ هـ ، فقد أثرت هذه الهزيمة على معنويات الروم ، وكان الإمبراطور (جستنيان الثانى) أكثر تأثرا بهذه الهزيمة ، وأصيب بحالة نفسية ن جعلته يفضل الانعزال فى العاصمة ، ويشك فيمن حوله حتى أقرب المقربين إليه ، وكان لذلك أثره فى اضطراب الأحوال الداخلية [2] .

٢- عدم استقرار أمور الحكم ، والثورة على الأباطرة وخلعهم ، وما أعقب ذلك من فوضى ، فقد خلع جستنيان الثانى سنة ٦٩٥ م / ٧٦ هـ وتولى (ليونيتيوس) سنة ٦٩٨ م / ٧٩ هـ . وتولى (طيبريوس الثالث) ، وكان منشغلا خلال فترة حكمة بتحركات الإمبراطور المخلوع (جستنيان الثلنى) الذى استعان بملك البلغار لاستعادة عرشه، ونجح فى دخول القسطنطينية ، وتولى عرش آبائه من جديد بعد عشر سنين قضاها فى المنفى وذلك سنة ٧٠٥ م / ٨٦ هـ [3] ، وصرف (جستنيان الثانى) همته إلى الانتقام من خصومة فى موجة حقد صاخبة ألهته عن الالتفات إلى الأخطار الخارجية

---

[1] لويس :ارشيبالد القوى البحرية والتجارية ص ١٠٤ .

[2] فرج : د.وسام العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية ص ٥٢ نقلا عن:
Foord , Byzintine Empire p . 148.

[3] المرجع السابق من ص ٥٤ إلى ٦٤ .

التى كانت محدقة ببلاده ، وبخاصة من جانب المسلمين الذين توغلوا بجيوشهم فى آسيا الاصغرى (1) .

وقصرت فترات حكم الأباطرة بعد خلع جستنيان سنة ٧١١ م / ٩٢ هـ نتيجة تدخل العسكريين فى أمور الحكم ، وثورتهم على الأباطرة وخلعهم ، وبلغ عددهم فى هذه الفترة القصيرة من خلع جستنيان الثانى ، وحتى نهاية الأسرة الهرقيلية ٧١٧ م / ٩٨ هـ ، ثلاثة أباطرة (2) وكان لذلك أثره فى عدم استتباب الأمور ، وتأخر البلاد .

٣- ازدادت الأوضاع العسكرية سوءًا فى الفترة الثانية من حكم (جستنيان الثانى) فقد أبعد القادة العسكريين المشهود لهم بالكفاءة ، ونكل بهم فى موجة الانتقام الصاخبة التى سيطرت عليه ، وحرم بذلك الإمبراطورية من جهودهم (3) وكانت جيوش الإمبراطورية فى حالة تمزق ، وقد فقدت القيادة الرشيدة ، والكفاءة العسكرية واللياقة ، وعانت تلك الجيوش من الانحلال فى النظام العسكرى ، ونقص أعداد القوات العسكرية ، وزجت الفرق العسكرية بنفسها فى مؤامرات لتغيير الأباطرة ، غافلة عن مهمتها الرئيسة فى الحفاظ على البلاد من الأخطار الخارجية ، التى كانت تهددها – بالفعل – فى هذه الفترة (4) .

---

(1) المرجع السابق من ص ٦٤ إلى ٦٥ نقلا عن .
Ostogorsky , Byzantine State , p . 127

(2) يوسف : د . جوزيف تاريخ الدولة البيزنطية ص ١١٦ ، ص ٢٩٦ .

(3) فرج : دوسام العلاقات ص ٦٣ نقلا عن :
Bury . Later Roman Empire , p 361 .

(4) لويس : ارشيبالد القوى البحرية والتجارية ص ٩٩ ، ١٠٠ فرج المرجع السابق ص ٧٣ ، ٧٤ .

٤- من جهة أخرى قلت كفاءة البحرية الرومية – فى هذه الفترة – نتيجة إقدام (جستنيان الثانى) على تصرفات ، أساءت إلى بعض رجال البحر ، مما قلل من حماسهم وولائهم للإمبراطور (١) ، وبعد عهد (جستنيان الثانى) اشتركت فرق الأسطول الرومى فى الأعمال المتعلقة بخلع الأباطرة أو الإبقاء عليهم (٢)

٥- كثرة الأطماع الخارجية والغارات على الإمبراطورية ، وقد استعان جستنيان الثانى بملك البلغار ليساعده على العودة إلى العرش ، فأعانه وتمكن من دخول القسطنطينية ، وتولى عرش آبائه من جديد سنة ٧٠٥ م / ٨٦ هـ ، وفى مقابل ذلك أعاد جستنيان دفع الجزية للبلغار ، ومنح ملكهم لقب قيصر الذى يلى فى المكانة لقب الإمبراطور . (٣)

ولما قتل جستنيان سنة ٧١١ م / ٩٢ هـ ، اجتاح البلغار تراقيا ووصلوا إلى البوسفور ، رافعين شعار الانتقام لمقتل جستنيان ، وفى الوقت الذى كان فيه البلغار يطرقون أبواب القسطنطينية من الشمال ، كان المسلمون يتقدمون فى آسيا الصغرى فى اتجاه العاصمة من الجنوب (٤) .

وأصبح البلقان تحت رحمة غارات البلغار والسلاف ، فى عهد الإمبراطور (ثيودوسيوس) – ٧١٥ م / ٩٦ هـ – ٧١٧ م / ٩٨ هـ – آخر أباطرة أسرة هرقل ، الذى يمثل عهده ذروة الانهيار والتدهور الذى أصاب الإمبراطورية فى الداخل والخارج ، فبالإضافة إلى غارات البلغار والسلاف ،

---

(١) لويس : المرجع السابق .

(٢) فرج : دوسام العلاقات من ص ٦٦ إلى ٧٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٣ ، ٦٤ نقلا عن :
Diehl Marcais Le mond Oriental , p 247 .

(٤) الطبرى : ج ٦ من ص ١٩٣ إلى ٤٣٨ ، فرج المصدر السابق ص ٦٨ ، ٩٦ نقلا عن :
Ostrogrsky , Byzantine state , p . 136 .

كانت الحملات الإسلامية على آسيا الصغرى ، وكانت القسطنطينية وضواحيها ، هى التى لا تزال فى قبضة الإمبراطور ، أما باقى أقاليم الإمبراطورية ، فكانت فى يد قواد لا يدينون له بالولاء (١) . هذا فى الوقت الذى كان فيه خليفة المسلمين يسيطر على رقعة شاسعة من الأندلس غربا إلى بلاد الصين شرقا ، وله فى هذه المنطقة المترامية الأطراف ، الكلمة النافذة والسلطان .

ومن مظاهر تخلف الروم فى موازين القوى :

١- هزيمتهم فى بداية هذه الفترة على يد المسلمين فى معركة اسباستول سنة ٧٣ هـ / ٦٩٣ م ، السالفة الذكر ، وإغارات المسلمين الناجحة على آسيا الصغرى ، واستيلائهم على كثير من المدن والحصون الرومية ، وتقدمهم المستمر فى آسيا الصغرى ، حتى اقتربوا من القسطنطينية العاصمة ، دون رد فعل قوى من جانب الروم (٢)

٢- وفى بلاد المغرب ، سقطت قرطاجنة فى يد المسلمين سنة ٧٥ هـ / ٦٩٥ م ، وكان سقوطها النهائى فى أيديهم سنة ٧٩ هـ / ٦٩٨ م ، ولم يقم الروم بمحاولة لاسترجاع هذه المدينة ، التى كانت قاعدتهم البحرية والعسكرية الأولى فى بلاد المغرب ، والعاصمة التى اختاروها لهذه البلاد ، وضاعت هذه البلاد من أيديهم إلى الأبد (٣) .

---

(١) فرج : المرجع السابق ص ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) الطبرى ج ٦ من ص ١٩٤ إلى ٥٣٠ ، فرج : العلاقات ص ٤٩ ونقلا عن :
Finlay , History of Greece , 1 , p . 389

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٣٥ ، ابن الأثير : ج ٤ ص ٣٢ ، لويس : القوى البحرية والتجارية ص ١٠٠ .

٣- هذا بالإضافة إلى هزائمهم البحرية ، وغزو المسلمين لكثير من جزرهم في البحر المتوسط - كما سبق القول - ولما أراد الإمبراطور (أنا ستسيوس الثانى) - ٧١٣ م / ٩٤ هـ - ٧١٥ م / ٩٦هـ - الحد من نشاط المسلمين البحرى ، رأى القيام بحملة بحرية على قواعد المسلمين ، ولكن سوء أحوال الجيش ، واختلاف مشارب رجاله ، كانت سببا فى فشل هذه الحملة ، وانتهت بتمرد أطاح بالإمبراطور نفسه ، بعد حرب داخلية استمرت ستة أشهر ، بين فرق الجيش المعادية للإمبراطور ، والفرق الأخرى الموالية له (١) .

(١) فرج : العلاقات ص ٧٣ ، ٧٤ نقلا عن :

Bury , Later Roman Empire 11 , p 373 .

الفصل الثانى

تحليل موازين القوى بين المسلمين والروم

من سنة ١١ هـ / ٦٣٢ م إلى سنة ٩٨ هـ/ ٧١٧ م

تقديم

الأمور التى تناولها البحث بالتحليل :

١- استقرار الأمور فى الدولة وأثره على موازين القوى .

٢- أثر الانتصار فى المعارك على موازين القوى .

٣- مدى ارتباط الانتصار العسكرى بالتفوق فى موازين القوى .

٤- حرص المسلمين على فتح القسطنطينية .

٥- مقارنة بين صراع المسلمين والروم ، وصراع الفرس والروم.

الفصل الثانى

تحليل موازين القوى بين المسلمين والروم

من سنة ١١ هـ / ٦٣٢ م إلى سنة ٩٨ هـ/ ٧١٧ م

تقديم :

بعد عرض موازين القوى بين المسلمين والروم فى هذه الفترة ، وأسباب ميلها إلى أحد الجانبين ، وابتعادها عن الجانب الآخر ، ومظاهر تفوق أحد الجانبين فى موازين القوى ، وعلامات ضعف الجانب الآخر ، سوف يختار البحث بعض الأمور الهامة المتعلقة بهذه الموازين ليحللها ، ويلقى عليها الأضواء الكاشفة ؛ لتزداد صورتها وضوحا ، وتتجاب عن بعضها سحابات اللبس والغموض ، وقد يصل البحث من ورائها – بعد ذلك – إلى ما يمكن أن يعد من قبيل النظريات التاريخية .

الأمور التى تناولها البحث بالتحليل :

١- استقرار الأمور فى الدولة وأثره على موازين القوى :

(أ) عند المسلمين :

كان الأمن والاستقرار الداخلى ، الذى تحقق بالإسلام وشريعته والحكومة المركزية المسيطرة فى مقدمة أسباب تفوق المسلمين فى موازين القوى على الروم ، ووضح ذلك فى الوضع الأول من هذه الفترة من سنة ١١ هـ / ٦٣٢ ، إلى سنة ٣٥ هـ/ ٦٥٥ م والوضع الثالث من سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م إلى سنة ٦٠ هـ / ٦٨٠ م والوضع الخامس من سنة ٧٣ هـ إلى سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م .

وكان اختلال الأمن . واضطراب أمور الدولة ، والذى تمثل فى الفتن الداخلية وكثرة الخارجين على الدولة ، ونشوب المعارك بين فئات المسلمين وانشغال الدولة بالقضاء على الخارجين عليها ، كان من أهم أسباب تأخر المسلمين فى موازين القوى .

وقد وضح ذلك فى الوضع الثانى من هذه الفترة من سنة ٣٥ هـ / ٦٥٥ إلى سنة٤١ هـ / ٦٦١ م فقد شهدت هذه السنوات – كما تقدم فى البحث – ذروة الفتنة الكبرى ؛ بمقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ سنة ٣٥ هـ (١) . ثم كانت مبايعة على بن أبى طالب بالخلافة ، ورفض معاوية بن أبى سفيان والى الشام مبايعته ، ومطالبته بالثأر من قتلة عثمان ، وخروج بعض الصحابة عليه ، مطالبين – كذلك – بالثأر من قتله عثمان ، وما نجم عن ذلك من معارك داخلية ، فكانت معركة الجمل سنة ٣٦ هـ/ ٦٥٦ (٢) ، بين أتباع على وهؤلاء الصحابة المطالبين بالثأر من قتلة عثمان ، وكانت معركة صفين بين أتباع على ومعاوية سنة ٣٧ هـ/ ٦٥٧م(٣) ولم تؤد هذه المعركة إلى نتيجة حاسمة ، وإن كانت قد رفعت من شأن معاوية ، ثم كانت مجابهة الإمام على للخوارج فى معركة النهروان سنة ٣٧ هـ / ٦٥٧ م (٤) ، وظلت الفتنة والانقسام فى الدولة الإسلامية ، حتى مقتل الإمام على بيد أحد الخوارج سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م (٥) ، وتنازل الحسن بن على – ﷺ – عن الخلافة

---

(١) الطبرى : ج ٤ من ص ٣٦٥ – ٣٦٩ ، ابن الأثير من ص ٨٤ – ٩٠ .

(٢) الطبرى : ج ٤ من ص ٤٤٤– ٥٣٩ ، ابن الأثير ج٣ من ص ١٠٥ – ١٣٠ .

(٣) الطبرى : ج ٥ من ص ٥ – ٦٣ ، ابن الأثير ج ٣ من ص ١٥٠ – ١٦٣ .

(٤) الطبرى : ج ٥ من ص ٧٢ – ٩٣ ، ابن الأثير ج ٣ من ص ١٦٩ – ١٧٢ .

(٥) الطبرى : ج ٥ من ص ٥ – ٦٣ ، ابن الأثير ج ٣ من ص ١٩٤ .

لمعاوية ﷺ فى بداية سنة ٤١ هـ / ٦٦١ (١) ، وشغل معاوية بقية هذه السنة بثورات الخوارج الكثيرة عليه . (٢)

كما وضح أثر الأمن واضطراب الأمور فى الدولة ، فى الوضع الرابع من هذه الفترة من سنة ٦٠ هـ / ٦٨٠ إلى سنة ٧٣ هـ / ٦٩٣ م ، حيث كانت هناك فى هذه الفترة فتن لا تقل شدة وعنفا عن الفتن فى الوضع الثانى – كما سبق – وكانت بدايتها والشرارة الأولى فيها ، توليه يزيد بن معاوية الخلافة سنة ٦٠ هـ واعتراض البعض على هذه التولية ، وتصاعد الكراهية لحكمه وأخذت الفتن والمصائب المترتبة على ذلك تترى ، فكان مقتل الحسين بن على ﷺ فى كربلاء سنة ٦١ ه وموقعة الحرة التى انتهكت فيها حرمة المدينة المنورة سنة ٦٣ هـ (٣) وخروج عبد الله بن الزبير على يزيد ، وحصار الأمويين له بمكة سنة ٦٤ هـ ، وموت يزيد فى نفس هذا العام والبيعة لابنه معاوية ، والبيعة كذلك لعبد الله بن الزبير (٤) ، وبهذا انقسمت الدولة الإسلامية إلى قسمين ، ونشبت الحروب بين الموالين لعبد الله بن الزبير والموالين لبنى أمية ، وكان للعصبية القبلية دور بارز فى تلك الحروب ، وكانت معركة مرج راهط سنة ٦٤ هـ (٥) معركة فاصلة رجحت فيها كفة الأمويين ، ولكنها لم تكن تعنى النهاية لابن الزبير ، فقد كان أمامهم شوط كبير للقضاء على نفوذه فى مصر والعراق والحجاز ، وخاض الأمويون من أجل

---

(١) الطبرى : ج ٥ من ص ١٤٣ – ١٥٢ ، ابن الأثير ج٣ من ص ٢٠٣ .

(٢) الطبرى : ج ٥ من ص ٧٢ – ٩٣ ، ابن الأثير من ج ٣ من ص ٢٠٥ – ٢٠٩ .

(٣) الطبرى : ج ٥ من ص ٣٣٨ – ٤٩٥ ، ابن الأثير ج ٣ من ص ٢٦٣ – ٣١٠ .

(٤) الطبرى : ج ٥ من ص ٤٩٨ – ٥٠٣ ، ابن الأثير ج ٣ من ص ٣١٦ – ٣١٩ .

(٥) الطبرى : ج ٥ من ص ٥٣٥ ، ابن الأثير ج ٣ من ص ٣٢٨ .

ذلك المعارك الكثيرة ، حتى تحقق لهم ذلك وقتل عبد الله بن الزبير فـــى مكـــة سنة ٧٣هـــ ([1]) .

ويلاحظ أن الفتن الداخلية فى الدولة الإسلامية فى الوضعين الســـابقين ، تركزت حول منصب الخلافة ، ومن له الحق فى تولى هذا المنصب ، وطمـــع البعض فى الوصول إليه .

(ب) كان اضطراب الأمن ، وعدم الاستقرار الداخلى ، من أهم أسباب تخلف الروم فى موازين القوى بينها وبين المسلمين فى معظم سنى هذه الفـــترة ولم يكن النزاع حول منصب الإمبراطور — الذى يعادل منصب الخليفـــة فى الدولة الإسلامية — هو أساس الفتن الداخلية لدى الروم فحسب ، بـــل أضيف إلى ذلك الخلاف المذهبى ، الذى وسع هرقل من رقعته ، برفعـــه لواء المذهب الجديد (المونوثيليته) .([2]) هذا إلى جـــانب ســـوء الإدارة والضعف الاقتصادى الذى أصاب الدولة البيزنطية من جـــراء حروبـــها الطويلة مع الفرس ثم مع المسلمين ، وضياع بعض أقاليمها الغنية كمصر والشام ، ولازم الضعف الاقتصادى وسوء الإدارة دولة الروم طول هـــذه الفترة من عهد هرقل إلى قيام الدولة الإيسورية ٩٨ هـــ — ٧١٧ م ([3]) . ففى الوضع الأول والثانى والثالث من هذه الفترة من ســـنة ١١ هـــــ / ٦٣٢ م إلى سنة ٦٠ هـــ / ٦٨٠ م وضحت سوء الأحوال الاقتصاديـــــة

([1]) الطبرى : ج ٥ من ص ١٨٧ ، ابن الأثير ج ٣ من ص ٢١ .

([2]) سبق الحديث عنها ص ١٩حاشية (٢) .

([3]) يوسف : د . جوزيف تاريخ الدولة البيزنطية ص ١١٤ ، فشر : هـــ . أ . ل تاريخ أوربا العصور الوسطى ترجمة : د .محمد مصطفى زيـــادة ود . الســـيد البـــاز العرينـــى دار المعارف القاهرة ١٩٧٦ م ص ٦٧ .

فى عهد هرقل بعد حروبة مع الفرس ، وبدأت المتاعب الداخلية بدعوتــه إلى مذهب (المونوثيليته) .

وبعد موت هرقل ، كان سوء الحاشية ورجال البلاط وكــثرة الدســائس والفتن سببا فى سرعة تغيير الأباطرة ، وقد تعاقب فى الســـنة التاليــة لوفــاة هرقل ، ثلاثة أباطرة فى عام واحد (١) ، كما سبق القول .

وظهرت نتائج مذهب هرقل الجديد ، السيئة علـــى الوضــع الداخلــى للإمبراطورية ، فى عهد الإمبراطور (قنسطانز الثانى) ، فقام أهــل صقليــة بالثورة على الإدارة البيزنطية ، كما قام اللومبارد فى إيطاليا بالثورة - أيضا- على الإدارة البيزنطية الضعيفة - كما سبق - واستولى ملكهم علــى جنــوه ، ومعظم إقليم (ليجوريا) البيزنطى عام ٦٤٢ م / ٢٢ هـ ، كما هـــاجم دوق (بنفنتم) اللومباردى ، الممتلكات اللإمبراطرية فى جنوب إيطاليا (٢) .

وكان الخلاف المذهبى سببا فى عدم تحقيق (قنسطانز الثانى) النجـــاح التام ، فى محاولاته علاج الأحوال السيئة التى كانت عليها الإمبراطورية مـــن الناحية العسكرية وغيرها من النواحى ، ونقل من أجل ذلـــك عاصمتـــه إلـــى سرقوسه ، كما نقل جانبا من قواته إليها ، وعمــل علـــى اســترداد ممتلكــات الإمبراطورية فى إيطاليا وغيرها وكما تقدم .

وفى الوضع الخامس من هذه الفترة ، من سنة ٧٣ هـ / ٦٩٣ م إلـــى سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م ، كانت الاضطرابـــات واختــلال الأمـــن ، وانعــدام الاستقرار ، سببا فى ضعف الروم فى موازين القوى أمام المسلمين ، وترجـــع

---

(١) بتلر : د . الفريد فتح العرب لمصر ج ٢ ص ٢٩٢ ، يوسف : د٠جوزيف تاريخ الدولـــة البيزنطة ص ٢٩٦.

(٢) لويس : القرى البحرية والتجارية ص ٩٤ .

هذه الأحوال إلى حد كبير – هذه المرة – إلى تطلع العسكريين إلى الحكم والنفوذ ، وتدخلهم فى تعيين الأباطرة وعزلهم ، وعدم استقرار أمور الدولة ؛ نظرا لقصر مدة حكم هؤلاء الأباطرة ، فقد ثار (ليونيتوس) ضد الإمبراطور (جستنيان الثانى) وتمكن من خلعه ، وتولى العرش مكانه سنة ٦٩٥ م / ٧٦ هـ ، وبعد حوالى ثلاث سنوات ، ثار ضد (ليونيتوس) القائد البحرى (أبسيمار) ، ونجح فى إقصائه عن العرش ، وتولى مكانة باسم الإمبراطور (طبريوس الثالث) سنة ٦٩٨ م / ٧٦ هـ ، وبعد حوالى سبع سنوات ، نجح (جستنيان الثانى) فى استرداد العرش من جديد ، والقضاء على (طبريوس الثالث) سنة ٧٠٥ م / ٨٦ هـ – وقد مر ذلك فى البحث – واستمر فى الحكم ست سنوات ، حتى تمكن القائد البحرى (بـاردانس) من إقصائه ، وتولى العرش مكانه باسم الإمبراطور (فيليبكوس) سنة ٧١١م / ٩٢ هـ ، وتتابع الأباطرة – سريعا – بعد خلع (جستنيان الثانى) فى المرة الثانية ، حتى نهاية أسرة هرقل سنة ٧١٧ م / ٩٨ هـ ، وبلغ عدهم فى هذه المدة القصيرة ، ثلاثة أباطرة ([1]) .

وكان استقرار الأحوال الداخلية نسبيا ، وعودة الأمن ، وقلة الثورات الداخلية ، سببا من أهم أسباب تفوق الروم فى موازين القوى .

وقد كان ذلك فى الوضع الرابع من هذه الفترة من سنة ٦٠ هـ / ٦٨٠م إلى سنة ٧٣ هـ / ٦٩٣ م ، حيث قلت الاضطرابات والفتن إلى حد كبير فى دولة الروم ، وكان وراء هذا التحسن ، انتهاء الخلاف المذهبى ، وذلك عندما تخلى الإمبراطور (قسطنطين الرابع) عن المذهب (المونوثيليتى) ، وعاد إلى

([1]) فرج : دوسام . العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية ص ٥٣ ، ٧٥ ، يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢٩٦ .

مذهب أصحاب الطبيعيتين ، طبقا لقرار المجمع المسكونى السادس – كما تقدم – الذى دعاه إلى الانعقاد سنة ٦٨٠م/ ٦١ هـ (١) .

وتشير الأمور السابقة ، إلى أهمية الأحوال الداخلية ، وأنها فى مقدمة الأسباب التى تؤثر على وضع أحد الجانبين فى موازين القوى ، فإن ساءت هذه الأحوال عند أحد الجانبين – الإسلامى أو الرومى – تأخر فى موازين القوى ، وإن تحسنت هذه الأحوال عند أحدهما ، كانت كفيلة برفع شأنه فى موازين القوى ، هذا بالإضافة إلى أسباب أخرى معاونة .

٢- أثر الانتصار فى المعارك على موازين القوى :

(أ) عند المسلمين :

كان انتصار المسلمين على الروم فى المعارك التى قامت بينهم ، ونجاحهم فى عملياتهم العسكرية ضدهم سببا هاما من أسباب تفوقهم من موازين القوى – وفى نفس الوقت – دليلا على هذا التفوق ، كما كانت هزيمة الروم أمامهم ، سببا من أسباب تخلفهم فى موازين القوى ، ودليلا – كذلك – على هذا التخلف .

ففى الوضع الأول من هذه الفترة من سنة ١١ هـ / ٦٣٢ م إلى سنة ٣٥ هـ / ٦٥٥ م ، كانت الفتوحات الإسلامية فى بلاد الشام التى كانت تابعة للروم – كما تقدم – وأحرز المسلمون الانتصارات تلو الانتصارات فى معاركهم ضد الروم ، ومن أهم تلك المعارك معركة اليرموك سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ م (٢) ، وتم فتح بلاد الشام ، وغزا معاوية بن أبى سفيان الأراضى

---

(١) فرج : المرجع السابق ص ٣٩ ، ص ٤٠ نقلا عن :
Vasilier , Historyof the Byzantine Empire , 1 p . 224 , 225 .
(٢) الطبرى : ج ٣ ص ٣٩٤ وما بعدها ، ابن الأثير ج ٢ ص ٢٨١ وما بعدها .

الرومية نفسها عبر جبال طوروس سنة ٢٢ هـ / ٦٤٢ م ([1]) ، كما تم فتح بلاد مصر وبرقة وطرابلس التى كانت تابعة للروم .

وفى المجال البحرى الذى دخله المسلمون منذ عهد عثمان بن عفان ﷺ ، أحرز المسلمون انتصارات بحرية وبلغوا بسفنهم مضيق القسطنطينية سنة ٣٢ هـ/٦٥٢ م ([2]) وتمكنوا من الاستيلاء على قبرص سنة ٣٤هـ/٦٥٤م ([3]) وأحرزوا انتصاراً حاسما على الروم فى موقعة ذات الصوارى سنة ٣٤هـ/٦٥٥م ([4]) ، وقد حرمت هذه الهزيمة الروم من التفوق فى موازين القوى فى الوضع الثانى (من سنة ٣٥هـ/٦٥٥م إلى سنه ٤١هـ/٦٦١م) وكانت ظروف الدولة الإسلامية السيئة ترشحهم لذلك .

الوضع الثالث من هذه الفترة من سنة ٤١هـ/٦٦١ إلى سنة ٦٠هـ/٦٨٠م كانت حملات الصوائف والشواتى البرية على الحدود الرومية منذ سنة ٤٢هـ/٦٦٢([5]) كما سبق فى البحث وتمكن المسلمون من الاستيلاء على بعض الحصون الرومية ، وكانت لهم حملتان على القسطنطينية سنه ٤٩هـ/٦٦٨م وسنة ٥٠هـ/٦٦٩م ([6]) ، بجانب غزوات بحرية أخرى لجزر الروم فى البحر المتوسط فأغاروا على كريت سنه ٥٢هـ/٦٧٢م ([7]) كما

([1]) الطبرى : ج ٤ ص ١٦٠، ابن الأثير ج ٣ ص ٩ ، ص ١٩ .

([2]) الطبرى : ج ٤ ص ٣٠٤، ابن الأثير ج ٣ ص ٣٥ .

([3]) لويس : إرشيبالد القوى البحرية والتجارية ص ٩١.

([4]) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ص ١٩٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ١٧٢.

([5])الطبرى : ج٥ ص ١٧٢ وما بعدها ، ابن الاثير ج٣ص ٢١ وما بعدها.

([6]) الطبرى : ج٥ص٢٣٢ ، العدوى : د. ابراهيم الأمويون والبيزنطيون ص ١٥٥.

([7]) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩٦.

سبق القول – وفتحوا جزيرة رودس سنه ٥٣هـ /٦٧٢م ([1]) واتخذوا منها قاعدة لتهديد البحرية البيزنطية ، وأكمل معاوية دائرة الإحاطة بالقسطنطينية بحرا بالاستيلاء على جزيرة خيوس اليونانية([2])، ونجح المسلمون في فتح جزيرة أرواد سنه ٥٤هـ/٦٧٤م ([3]) واتخذوا منها قاعدة تساعدهم في فتح القسطنطينية . وكان قمة ما وصل إليه النشاط البحرى الإسلامى فى هذه الفترة ، حصار القسطنطينية سنه ٥٤هـ/٦٧٤م ، واشتركت القوات البرية مع القوات البحرية فى هذا الحصار الذى استمر سبعة أعوام ([4]) كما تقدم – هذا إلى جانب حملاتهم الناجحة فى بلاد المغرب فى هذه الفترة ، حملة معاوية بن حديج سنه ٤٥هـ/٦٦٥م . وحملة عقبه بن نافع الأولى سنه ٥٠هـ/٦٧٠م ، وحملة أبى المهاجر دينار سنه ٥٥هـ/٦٧٥م ، وتمكن المسلمون من الاستيلاء على إفريقية ، وتوغلوا فى المغرب الأوسط حتى تلمسان ([5]) كما سبق فى البحث .

وفى الوضع الخامس من هذه الفترة من سنة ٧٣هـ /٦٩٣م إلى سنه ٩٨هـ/٧١٧م ، كان انتصار المسلمين على الروم فى معركة (اسباستابول) ناحية أرمينية سنه ٦٩٣/٧٣هـ ([6])، ومواصلة غزواتهم الناجحة فى منطقة

([1]) ابن كثير : البداية والنهاية ج٦ ص ٦٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم ج١ ص١٤٤.

([2]) فرج : د٠ وسام العلاقات مرجع سبق ص ٣٦ نقلا عن :
Ostrogorsky , History of the Byzantine state , tr . by Hussey , p.111

([3]) الطبرى : ج٥ص٢٩٣ ، ابن الاثير ج٣ ص ٢٤٦.

([4]) الطبرى ج٥ ص ٢٣٢ ، ص ٢٩٣ ابن الاثير : ج٣ ص ٢٢٧ ، شلبى د٠ أحمد موسوعة التاريخ الإسلامى ج٢ ص ١١٥.

([5]) خليفة بن خياط ج١ ص ٢١٥ ، المالكى : رياض النفوس : ج١ ص٢٠ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ص٢٨ ، ص ٢٩ .

([6]) الطبرى : ج٦ ص ١٩٤ ، لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩٩.

الحدود البرية بينها وبين الروم – كما تقدم – وتــم لــهم فتــح قــاليقلا ســنة ٨١هـ/٧٠٠م ، والمصيصة سنه ٨٤هـ/٧٠٣م ، وفتح طوانــه وقســطنطينية وغزالة والأخرم سنه ٨٨هـ /٧٠٧م ، وهرقله وقمونية سنه ٨٩هـ/٧٠٨هـ ، وبلغوا الأرزن سنه ٩٠هـ/ ٨٠٧م ، وتوالت حملاتهم على آسيا الصغرى حتى بلغوا البوسفور ، وشجعهم ذلك على حصار القسطنطينية سنه ٩٨هـ/٧١٧م (١)، وفى بلاد المغرب تمكنوا من فتح قرطاجنة فتحا نهائيا عام ٧٩هـ (٢) .

وبجانب الحملات البرية ، كانت هناك حملات بحرية إسلامية ناجحــة ، فاغار أسطول على صقلية سنة ٨٥ هـ / ٧٠٤ م وكـــان مــن مصــر (٣) ، وخرجت حملتان من إفريقية لغزو سردانيا فى سنة ٨٧ هـ / ٧٠٦ م وخرجت ثلاث حملات من إفريقية لغزو بعض جزر البليار سنة ٨٩ هـ / ٧٠٧ م (٤) ، كما كان هناك كذلك نشاط بحرى فى شرق البحر المتوسط ، ونمــا الأســطول الإسلامى نموا مضطردا ، وبلغ عدد سفن الأسطول الإسلامى الــذى حــاصر القسطنطينية سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م ألفا وثمانمائة سفينة(٥) – كما تقدم .

(ب) عند الروم :

كان انتصار الروم على المسلمين كذلك سببا من أســباب تفوقــهم فــى موازين القوى ، ودليلا على هذا التفوق ، وفى نفس الوقت سببا مــن أســباب

---

(١) الطبرى :ج١ من ص ٤٣١الى ص ٥٢٩، ابن الأثير ج٣ من ص ٧٥ الى ص ١٤٦.

(٢) ابن عذارى : البيان ج١ ص ٣٥ ، ابن الأثــير ج٤ ص ٣٢ ، لويــس : مرجــع سـبق ص ١٠٠.

(٣) لويس المرجع السابق ص ١٠١ .

(٤) خليفة بن خياط ص ٣٠٣ ، ص ٣٠٤ ، ابن قتيبة الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٥٩ ، لويس المرجع السابق .

(٥) لويس المرجع السابق ص ١٠٤ .

تخلف المسلمين فى موازين القوى ودليلا على هذا التخلف ، ولم يحدث ذلك إلا مرة واحدة خلال هذه الفترة .

ففى الوضع الرابع من هذه الفترة من سنة ٦٠ هـ / ٦٨٠ م إلى سنة ٧٣ هـ / ٦٩٣ م ، وفى بداية هذه المدة كان فشل المسلمين فى حصار القسطنطينية سنة ٦٠ هـ / ٦٧٩ م (١) وانتصار الروم الذين استخدموا سلاحا جديدا هو النار الإغريقية ، الذى دمر عددا كبيرا من السفن الإسلامية ، وتوقف حملات الصوائف والشواتى التى كان يقوم بها المسلمون على الحدود الرومية – كما تقدم – وانسحبوا من إفريقية بعد مقتل القائد عقبة بن نافع على يد البربر الذين تذكر المصادر تحالفهم مع الروم ، وذلك سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ – ٦٨٤ م . (٢)

ونجحت قوات الروم فى التصدى للفاتح الإسلامى فى بلاد المغرب زهير ابن قيس ، وتمكنت من قتله والقضاء على الفرقة التى كانت معه سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م ، وتوقفت الفتوحات فى بلاد المغرب حتى سنة ٧٣ هـ / ٦٩٣م (٣)

٣- مدى ارتباط الانتصار العسكرى بالتفوق فى موازين القوى :

بالنظر والتحليل تبين أن انتصار أحد طرفى الصراع على الأخر فى معركة حربية ، لا يعنى – دائما وأبدا – التفوق عليه فى موازين القوى ، كما لا يعنى ذلك تحرش أحد الجانبين بالآخر عسكريا واستفزازه ، ولابد من النظر إلى ملابسات هذا النصر أو التحرش أو الاستفزاز ، ومكنه وزمانه ،

---

(١) الطبرى : ج ٥ ص ٢٩٣ ، لويس المرجع السابق ص ٩٦ ، ص ٩٧ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ص ١٩٩ ، ابن الأثير : ج ٣ ص ٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ من ص ٢٤ – ص ٣١ .

(٣) ابن عبد الحكم المرجع السابق ص ٢٠٢ ، ص ٢٠٣ ، الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ص ٥٣ ، ابن الأثير ج ٣ ص ٣١٠ .

والنظر – كذلك – إلى وضع الدولة المنتصرة أو المتحرشة والمستفزة ، من النواحى المختلفة الداخلية والعسكرية والاقتصادية وغير ذلك ، وهل ما أحرزته من نصر ، أوقامت به من تحرش واستفزاز ، يتفق مع هذه الأوضاع .

وفى الفترة التى يتناولها الحث ، حدثت انتصارات حققها الروم على المسلمين ، أو ما بدا للبعض أنه انتصارات ، ولم تكن تلك الانتصارات دليلا على تفوق الروم فى موازين القوى – أو سبيلا إلى تفوقهم – كما لا تدل على ضعف المسلمين وأسوق على ذلك ثلاثة أمثلة :

المثال الأول

عندما زحف الإمبراطور (قنسطانز الثانى) واتباعه من الجراجمة على الأراضى الإسلامية سنة ٣٧ هـ / ٦٥٦ – ٦٥٧م ، واضطر معاوية على أن يعقد الهدنة معهم ، ويدفع لهم إتاوة – كما ذكر البلاذرى (١) .

ثم قام بالزحف – مرة أخرى – بمجموعه ناحية الشام سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م – كما ذكر اليعقوبى – فصالحه معاوية على دفع إتاوة ، وتم هذا الصلح فى أول سنة ٤٢ هـ / ٦٦٢ م (٢) .

فهذان الموقفان لا يدان على تفوق الروم على المسلمين فى موازين القوى للأمور التالية :

بالنسبة للروم :

١- استمرار الأحوال السيئة التى كانت عليها الإمبراطورية منذ وفاة (هرقل) ولم يطرأ عليها تغيير كبير (٣) .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٤ .

(٢) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ١١٧ .

(٣) وقد كنت السنوات من موت هرقل إلى نهاية حكم أسرته من أحلك الفترات فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية ص ١١٥ وعاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ١٠٢ .

٢- اعتمدت الإمبراطورية على جماعات الجراجمة (المردة) وهى جماعات لها ظروفها وحياتها الخاصة ، وإن كانت تدين بالولاء للروم (١) .

٣-أن الغرض من الحملتين – كما يبدو – كان مجرد الابتزاز واستغلال الظروف الداخلية السيئة التى كانت لدى الطرف الإسلامى ، وانشغال المسلمين بالحروب فيما بينهم ، ولو تيقن (قنسطانز الثانى) بحرب حقيقية مع المسلمين ، لما أقدم – فى نظر البحث – على القيام بحملتيه هاتين .

٤- أن آثار هزيمة الروم البحرية فى ذات الصوارى سنة ٣٤ هـ/٦٥٥م ، كانت ما تزال باقية ، وقد ذكر أحد المؤخرين – تعليقا على هذه المعركة – أن الروم لم يجرءوا أن يدخلوا فى حرب بحرية مع المسلمين – بعد هذه المعركة – لمدة عشر سنين (٢) .

وبالنسبة للمسلمين :

كان المسلمون فى وضع أفضل كثيرا من الروم ، لولا الفتن الداخلية التى شغلتهم عن الأخطار الخارجية ،وقد استمرت – كما سبق القول – من سنة ٣٥ هـ / ٦٥٥ إلى٤١ هـ / ٦٦١ م ، حيث استتبت الأمور لمعاوية فى بدايتها ، بعد تنازل الحسن – ﷺ – له عن الخلافة ، ولكن هذا العام شهد الكثير من ثورات الخوارج التى اشتغل معاوية بإخمادها (٣) . ومن هنا كان الحكم على المدة من سنة ٣٥ ه / ٦٥٥ م إلى سنة ٤١ ه / ٦٦١ م ، بأنها مدة تساوى فيها الجانبان الإسلامى والرومى فى موازين القوى ، واتصفا معا بالضعف .

---

(١) سبق الحديث عن هذه الجماعات .

(٢) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩٢ .

(٣) الطبرى : ج ٥ من ص ١٦٢ – ١٦٦ ، ابن الأثير : ج ٣ من ص ٢٠٣ – ٢٠٧ .

المثال الثانى :

نجاح الروم فى استرداد قرطاجنة من أيدى المسلمين سنة ٧٨ هـ / ٦٩٧ م ، وكانت هذه المدينة البحرية هى العاصمة الرومية لبلاد المغرب ، وقد أرسل إليها الإمبراطور (ليونيتيوس) حمله بحرية بقيادة البطريق (يوحنا) بطريق صقلية ، تمكنت من الاستيلاء عليها (١) .

ولم يكن هذا النجاح دليل تفوق على المسلمين فى موازين القوى للأمور التالية :

بالنسبة للروم :

١- كانت الإمبراطورية الرومية تعانى من الضعف – فى هذه الفترة – فى نواح كثيرة باعتراف جمهرة من المؤرخين ، ولم يكن النشاط العسكرى الذى أبداه (ليونيتيوس) سوى مظهر خادع لاخفاء هذه الحقيقة . (٢)

٢- أن استيلاء الروم على مدينة قرطاجنة ، لم يستمر أكثر من عام – تقريبا – ثم استردها المسلمون سنة ٨٩ هـ / ٦٩٨ م ، على يد حسان بن النعمان (٣) .

بالنسبة للمسلمين :

١- لم يكن فى قرطاجنة غير حامية صغيرة من الجند الإسلامى ، عندما هاجمها الروم ، وكانت القوة الرئيسه للجيش الإسلامى فى المغرب ،

---

(١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٣٧ ، ٣٨ ، لويس : القوى البحرية. التجارية ص ١٠٠ .

(٢) يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢١٥ ، ٢١٦ ، عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٣) ابن عذارى ك البيان ج ١ ص ٣٥ ، ابن الأثير : ج ٤ ص ٣٢ ، لويس : القوى البحرية والتجارية ص ١٠٠ .

بعيدة عن إفريقيـــة ، بعـد انتصـار الـبربر بزعامـة الكاهنـة علـى المسلمين ([1]) .

٢- أن الدولة الإسلامية بعد إبعادها المؤقت عن إفريقية وفتوحات المغـرب ، على يد البربر ، عولت على مجابهة الدولة الرومية فى منطقـة الحـدود البرية بينهما ، وأحرز المسلمون انتصارات عظيمـة ، وعـبروا جبـال طوروس متوغلين فى آسيا الصغرى ([2]) كما تقدم .

المثال الثالث :

ما ذكرته المصادر من انتصار الروم على المسلمين فى سميساط سـنة ٨١ هـ / ٧٠٠ م ([3]). وفى قاليقلا سنتى ٨٤ ، ٨٥ هـ / ٧٠٣ ، ٧٠٤ م ([4]).

فهذه الانتصارات لا تعد – أيضا _ برهانا على تفـوق الـروم علـى المسلمين فى موازين القوى ، والأدلة على ذلك ما يلى :

بالنسبة للروم :

كانت الإمبراطورية البيزنطية – كما ذكرت المصادر – فـى أوضـاع متردية وسيئة ، وكان النشاط العسكرى الذى أبداه الإمـبراطور (طـبريوس الثالث) الذى تمت الانتصارات السابقة فى عهده ، مظهرا يخفى بـه حقيقـة الوضع فى الإمبراطورية ، وأراد الإمبراطور – كذلك – أن يدارى على حقيقة

([1]) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ص ٢٠٠ ، عبـد الحميـد : د . سـعد زغلول تاريخ المغرب العربى ج ١ ص ٢٧٧ نقلا عن :
Ch . D iel et G.Marcais le mond oriental .. Paris , 1944 , P 207 .

([2]) الطبرى : ج ٦ من ٢٠٢ – ٣٢٤ ، ابن الأثير : ج ٤ من ص ٣٣ – ٧٣ .

([3]) فرج : مرجع تقدم ص ٥٩ نقلا عن :
Finlay , Histiry of Greece , 1 , p 393 .

([4]) البغدادى : أخبار الأعيان ج ١ لوحة رقم ١٩ مخطوط تقدم .

وضعه كإمبراطور غير شرعى ، فى الوقت الذى نهض فيه الإمبراطور الشرعى المخلوع (جستنيان الثانى) بالعمل على العودة إلى العرش مرة أخرى (1) .

بالنسبة للمسلمين :

١- شهد العام الأول الذى انتصر فيه الروم فى سميساط – ٨١ هـ/٧٠٠م ، كارثة عمت بلاد الشام ، تمثل فى الطاعون الذى راح ضحيته الكثيرون (2) .

٢- تزامنت انتصارات الروم السابق ذكرها ، مع فتنة عبد الرحمن بن الأشعث فى الشرق ، والتى استمرت من سنة ٨١ هـ / ٧٠٠ م إلى سنة ٨٥ هـ / ٧٠٤ م وشغل بها المسلمون (3) .

٣- أن القوة العسكرية الإسلامية – على الرغم من ذلك – كانت فى وضع جيد ، وتمكنت –فى نفس العام الذى شهد انتصار الروم فى سميساط وانتشار الطاعون فى الشام (٨١ هـ / ٧٠٠ م) – من فتح قاليقلا (4) ، كما نجحت فى فتح المصيصة فى عام ٨٥ هـ / ٧٠٤ م – وهو العام الذى انتهت فيه فتنة ابن الأشعث ، وأحرز الروم انتصارا فى قاليقلا – وكان القائد الذى فتح المصيصة هو عبد الله بن عبد الملك ، الذى أقام بالمصيصة حامية إسلامية وأسكنها المسلمين (5) كما تقدم .

---

(1) فرج : مرجع تقدم ص ٦٢ نقلا عن :
Ostrogorsky , Byzantine state , 125 .

(2) الذهبى : شمس الدين محمد بن أحمد . تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام القاهرة ١٣٦٨ هـ ج ٣ص ١٢١ .

(3) الطبرى ك ج ٦ من ص ٣٣٤ – ٣٩٣ ، ابن الأثير ج ٤ من ص ٧٧ – ٩٥ .

(4) الطبرى : ج ٦ ص ٣٣١ ، ابن الأثير ج ٤ ص ٧٥ .

(5) الطبرى : ج ٦ ص ٣٨٥ ، ابن الأثير ج ٤ ص ٩٤ ، ٩٥ .

وبذلك كانت موازين القوى فى المدة من سنة ٧٣ هـ / ٦٩٣ م إلى سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م ، فى صالح الجانب الإسلامى ، ولم تكن انتصارات الروم فى منطقة الحدود من سنة ٨١ هـ / ٧٠٠ م إلى سنة ٨٥ هـ/٧٠٤م سوى سحابة عارضة ، لا تأثير لها على موازين القوى .

٤-حرص المسلمين على فتح القسطنطينية .

إن فتح القسطنطينية عاصمة الروم ، كان هدفا عزيزا ، حاول المسلمون تحقيقية ، باعتباره هدفا يؤدى إلى إسقاط دولة الروم ، وحفزهم على ذلك ، ما رأوه من تهاوى دولة الفرس بعد أن أسقطوا عاصمتها المدائن كما شجعتهم انتصاراتهم الساحقة على الروم ، واستيلائهم على أملاكها فى الشام ومصر ، وتفوقهم فى معارك الحدود بينهما فى آسيا الصغرى ، ثم دخلوهم المجال البحرى ونجاحهم فيه .

وقد سيطرت فكرة فتح هذه المدينة على عقول قادة المسلمين ، فى هذه الفترة منذ وقت مبكر ، وعبر عنها الخليفة الثالث عثمان بن عفان - ﷺ - فقد ذكر ابن الأثير : (أنه لما افتتحت إفريقية أمر عثمان ، عبد الله بن نافع بن الحصين وعبد الله بن نافع بن عبد القيس ، أن يسيرا إلى الأندلس ... وكتب عثمان إلى من انتدب معها ، أما بعد فإن القسطنطينية إنما تفتح من قبل الأندلس ، وإنكما إن افتتحتموها ، كنتم شركاء من يفتتحها فى الأجر والسلام) وكانت هذه الحملة سنة ٢٧ هـ / ٦٤٧ م (١) .

وقد تعرضت القسطنطينية - خلال فترة البحث - لحملتين كبيرتين لفتحها ، الأولى سنة ٥٤ هـ / ٦٧٤ م ، وقد حاصرها المسلمون حوالى

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٤٧ .

سبعة أعوام (1) ، وسبقت هذه الحملة الكبيرة ، حملتان ؛ حملة فى سنة ٤٩هـ / ٦٦٨ م ، والأخرى سنة ٥٠ هـ / ٦٦٩ م (2) ، ولعلهما كانتا بمثابة الإعداد والتمهيد لهذه الحملة الكبيرة .

أما الحملة الثانية الكبرى ، فقد كانت فى سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م (3) ، وإذا كانت الحملتان قد باءتا بالفشل ، فقد كان مجرد اعتناق المسلمين لفكرة فتح القسطنطينية ، ومحاولة تنفيذها ، دليلا قويا على ثقة المسلمين بأنفسهم وقوتهم ، واعتقادهم بضعف دولة الروم ، واستهانتهم بها ، كما يؤكد لدى الباحثين ، تفوق المسلمين فى موازين القوى فى معظم فترات البحث .

٥- مقارنة بين صراع المسلمين والروم وصراع الفرس والروم .

إن طبيعة الصراع بين المسلمين والروم – فى هذه الفترة – يختلف عن طبيعة الصراع السابق بين الفرس والروم ، وهذا يشير إلى أن كل صراع من الصراعات – عبر التاريخ – له طبيعته الخاصة .

فقد هدف المسلمون فى صراعهم مع الروم إلى القضاء نهائيا على دولتهم ، وكان الاستيلاء على عاصمتهم – فى نظر المسلمين – هو الطريق لتحقيق ذلك ، ومن ثم كانت محاولاتهم السابق الحديث عنها (4) .

---

(1) الطبرى : ج ٥ ص ٢٣٢ ، ٢٩٣ ، ابن الأثير ج ٣ ص ٢٢٧ ، ٢٤٦ ، شلبى : د . أحمد موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٢ ص ١١٥ .

(2) الطبرى : ج ٥ ص ٢٣٢ ، العدوى : د . إبراهيم الأمويون والبيزنطيون ص ١٥٥ .

(3) الطبرى : ج ٦ ص ٥٣٠ ، ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٦ .

(4) وقد تحقق لهم ذلك بعد بضعة قرون – كما سبق – ففى القرن التاسع الهجرى – (الخامس عشر ميلادى) تمكن العثمانيون من فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م ، وأنهوا بفتحها تاريخ الدولة البيزنطية . يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢٩١ .

أما الروم فلا تتوافر الأدلة الكافية على أنه كان لهم نفس الهدف – في هذه الفترة – أو أنه كانت لديهم نية الاستيلاء على المدينة أو الكوفة أو دمشق ، أو حتى مجرد التفكير في ذلك ، بعد أن تجرعوا كئوس الهزيمة المرة على أيدى المسلمين فى الشام ، وطردوا من هذه البلاد ومن مصر والمغرب ، وأنى لهم ذلك ! وقد صاروا على حالة من الضعف فى نواح كثيرة بعد موت هرقل ، وكانت هذه الحالة هى الغالبة عليهم حتى سقوط أسرة هرقل – في ختام فترة هذا البحث – بل إن بعض الباحثين يجعل السنوات التى أعقبت موت هرقل إلى انتهاء حكم أسرته من أحلك الفترات فى تاريخ بيزنطة (1) .

أما الصراع بين الفرس والروم ، فقد استمر ردحا طويلا من الزمان ، تبادلا فيه الهزيمة والنصر ، وبلغت المعارك الغاية فى الضرواة والقسوة ، بل حاولت كل دولة منهما اقتحام عاصمة الأخرى ، قبيل اصطدامها بالدولة الإسلامية ، فقام كسرى ملك الفرس ، بعد استيلائه على الشام ومصر ، بالتحرك نحو آسيا الصغرى إلى خلقدونية تجاه القرن الذهبى ، الذى تطل عليه القطنطينية سنة ٦٢٦ م ، وتحالف كسرى مع قوات من الآفار فتقدموا نحو الشاطئ الأوربى المقابل ، وعزلت القسطنطينية برا ، وأصبحت العاصمة الرومية مهددة تهديدا خطيرا بالسقوط فى يد الفرس ، ولولا عبقرية (هرقل) إمبراطور الروم ، وحسن تصرفه ، فقد أمكنه أن يحمى العاصمة من خطر السقوط وأن يحمل الفرس والآفار على الانسحاب (2) .

ودارت الدائرة على الفرس – بعد ذلك – وتمكن (هرقل) من هزيمتهم فى عدة معارك ، وتتبعهم إلى بلادهم ، ووصل إلى عاصمتهم المدائن،

---

(1) يوسف : المرجع السابق ص ١١٥ وانظر عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ١٠٢ .

(2) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٧٧ ، يوسف : المرجع السابق ص ١٠٦ .

وتمكن من السيطرة عليها ، ولم يكن هدف هرقل من ذلك القضاء على الدولة الفارسية ، كما لم تكن نية كسرى – من قبل – القضاء على الإمبراطورية البيزنطية ، وإنما كان الغرض إظهار التفوق والعظمة ، وإذلال الخصم ، وهو ما فعله هرقل – تماما – بعد استيلائه على المدائن سنة ٦٢٨ م ، فقد فرض على الفرس جزية كبيرة ، وألزمهم بإطلاق سراح الأسرى الروم ، والانسحاب من كل الأراضى الرومية ،ورد جميع الأسلاب التى استولوا عليها من بيت المقدس ، وبخاصة صليب الصلبوت ، وقبل (شيرويه) ملك الفرس الجديد ، هذه الشروط صاغرا (١) .

وهكذا لم يكن من أهداف إحدى الدولتين الفارسية أو الرومية ، الإجهاز على الأخرى " فقد كان كل فريق منهما يرى للآخر ضرورة وجوده – كما ذكر الدكتور محمد شفيق غربال فى معرض تعليقه على الحروب بين الفرس والروم – وترتب على ذلك قدر من العمل المشترك – إن صح هذا التعبير – تقتضيه المصلحة المشتركة ، ولابد للقارئ – كما رأى الدكتور غربال – من أن يتبين هذه الفكرة تبينا تاما ؛ لأنه إذا لم يعقلها ، فإنه لا يستطيع فهم العلاقات بين مختلف الدول والطوائف فى العصور الوسطى : الأصل الحرب الدائمة ، ولكنها حرب محدودة تبقى وتذر ، ويصاحب الحرب الدائمة علاقات سلمية دائمة فى أعمال مشتركة " .

وأضاف الدكتور غربال ما يؤكد ذلك ، من قول نسب لأحد الأكاسرة ، وهو : " إن هناك عينين اثنتين ، وكلت إليهما القدرة الإلهية أن تبصرا العالم ،

---

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٧٧ ، يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٠٧ أما كسرى فقد قامت ثورة أطاحت به وتوفى بعد قليل ، المرجع السابق ، وانظر عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ١٠٠ نقلا عن :

Ostrogorsky , History of the Byzantine state (Oxford 1956) p . 92 93.

هما : قيصر الروم ، وإمبراطور الفرس ، فعلى يـد هـاتين الإمـبراطوريتين العظيمتين ، يكبح جماح الشعوب المتبربرة ، ويتسنى للبشرية حكـم أفضـل ، وأشد أمنا فى كل مكان " [1] .

وما ذكره الدكتور غربال ، من وجود علاقات سلمية بين طرفى الصراع فى العصور الوسطى ، ينطبق على الصراع الفارسى الرومى وكذلـك علـى الصراع الإسلامى الرومى ، فقد ذكرت المصادر مثل هذه العلاقـات السـلمية بين المسلمين والروم على الرغم من المعارك بينهما [2] .

أما ما ذكره من أن الطرفين المتصارعين – دولا أو طوائـف – فـى العصور الوسطى " كان يرى كل منهما للآخر ضرورة وجـوده " [3] . فإنـه ينطبق على الصراع الفارسى الرومى ، ولا ينطبق – بحال مـن الأحـوال – على الصراع الإسلامى الرومى فى هذه الفترة ، فقد وضح لنـا أن المسـلمين كانوا يتوقون إلى إسقاط عاصمة الروم والقضاء النهائى على دولتهم ، وذلـك يؤكد ما ذهب إليه البحث من أن لكل صراع من الصراعات – عبر التـاريخ – طبيعته الخاصة .

---

[1] غربال : د . محمد شفيق من تقديم لترجمة كتاب (القوى البحرية والتجارية فى حـوض البحر المتوسط) لأرشيبالد لويس مرجع سبق ص ١٥ ، ١٦ .

[2] أبرز ما تمثلت فيه العلاقات السليمة ، الناحيتان الثقافية والتجارية ، وقد أشارت إلى ذلـك المراجع التى تناولت العلاقات الإسلامية والبيزنطية ، ومنها كتـاب الحـدود الإسـلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى للدكتور فتحى عثمان (الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧ م) وكتاب العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولـة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى للدكتور وسام فرج وهو مرجـع تقـدم فـى البحث .

[3] لويس : القوى البحرية والتجارية مقدمة الترجمة للدكتور غربال ، ص ١٥.

الخاتمة

وضح من عرض موازين القوى بين المسلمين والروم ، فى الفترة من سنة ١١ هـ / ٦٣٢ م إلى سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م ، أن موازين القوى فى هذه الفترة التى بلغت سبعة وثمانين عاما ، كانت فى معظمها فى صالح الدولة الإسلامية . ففى الوضع الأول من سنة ١١ هـ / ٦٣٢ م ، إلى سنة ٣٥ هـ / ٦٥٥ م ، وفى الوضع الثالث من سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م ، إلى سنة ٦٠ هـ / ٦٨٠ م ، وفى الوضع الخامس من سنة ٧٣ هـ / ٦٩٣م ، إلى سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م ، كانت موازين القوى فى صالح الدولة الإسلامية ، ومدة هذه الأوضاع ثمان وستون سنة ، وكانت موازين القوى فى صالح الروم فى الوضع الرابع – وحده – من هذه الأوضاع ، من سنة ٦٠ هـ / ٦٨٠ م ، إلى سنة ٧٣ هـ / ٦٩٣ م ، ومدة هذا الوضع ثلاث عشرة سنة .

وتساوى المسلمون والروم فى الوضع الثانى من هذه الأوضاع ٣٥ هـ / ٦٥٥ م ، إلى سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م ، ومدته ست سنوات ، وكان لتفوق أحد الجانبين أو ضعفه أسباب ، وله مظاهر .

وقد ظهر من تحليل أوضاع موازين القوى بين المسلمين والروم ، وإلقاء الأضواء عليها ما يلى :

١- أهمية استقرار الأحوال الداخلية فى الدولة ، واستتباب الأمن ، وقلة الفتن والقلاقل ، فى تحديد مركزها من موازين القوى .

٢- أن الانتصار العسكرى فى ميادين القتال ، غالبا ما يكون سببا من أسباب التفوق فى موازين القوى ، وهو فى نفس الوقت دليل على هذا التفوق .

٣- أن الانتصار العسكرى – فى بعض الأحوال – أو تحرش أحد الجانبين والآخر ، لا يكون سببا من أسباب التفوق أو دليلا عليه ، ومن الأمثلة على ذلك :

تحرش الإمبراطور (قنسطانز الثانى) بالدولة الإسلامية سنتى ٣٧ هـ /٦٥٦م – ٦٥٧ م ، ٤١ هـ / ٦٦١ م .

نجاح الإمبراطورية البيزنطية فى العودة إلى قرطاجنة فى بلاد المغرب وأخذها من المسلمين سنة ٧٨ هـ / ٦٩٧ م .

انتصار الروم على المسلمين فى سميساط سنة ٨١ هـ / ٧٠٠ م ، وفى قاليقلا سنتى ٨٤ هـ ٨٥ / ٧٠٣ ، ٧٠٤ م .

٤- وضح من تحليل موازين القوى ، أن فتح القسطنطينية كان هدفا تطلعت إليه أفئدة المسلمين فى وقت مبكر من هذه الفترة ، وظل ذلك حلما يداعب خيالهم ، باعتباره السبيل إلى القضاء على دولة الروم ، وكان أهم الحملات على هذه المدينة العنيدة حملة سنة ٥٤ هـ / ٦٧٤ م ، وحملة سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م ، وهذا يؤكد ثقة المسلمين بأنفسهم ، وتفوقهم فى موازين القوى .

٥- تبين من تحليل الأوضاع – أيضا – أن طبيعة الصراع بين المسلمين والروم ، يختلف عن طبيعة الصراع السابق بين الفرس والروم ، فقد كان من أهداف المسلمين ، فتح القسطنطينية ، والقضاء ، نهائيا على دولة الروم ، بينما لم تكن لدى دولتى الفرس والروم ، الرغبة فى قضاء كل منهما على الأخرى ، وهذا يؤكد القول بأن كل صراع من الصراعات – عبر التاريخ – له طبيعته الخاصة .

هذا وبالله التوفيق ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

خريطتان

الخريطة الأولى : للدولة البيزنطية (دولة الروم) .

الخريطة الثانية : للدولة الإسلامية .

الامبراطورية البيزنطية (دولة الروم) فى السنوات الأولى من فترة البحث من كتاب القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط لأرشيبالد لويس ص٢٩ بتصرف.

الدولة الإسلامية فى نهاية فترة البحث نقلا عن كتاب تاريخ العالم الإسلامى للدكتور إبراهيم العدوى ص١٨٥ مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى سنة ١٩٨٣م.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

ابن الأثير أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد (ت ٦٣٠ هـ)

١- الكامل فى التاريخ . دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

البغدادى : أحمد بن عبد الله (ت ١١٠٢ هـ / ١٦٩٠ م) .

٢- عيون أخبار الأعيان ممن مضى من سالف العصر والأزمان.

مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٨١ تاريخ .

البكرى : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز . (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٧ م) .

٣- كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب .

طبع دى سلان الطبعة الثانية باريس ١٩١١ م .

البلاذرى : أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) .

٤- فتوح البلدان . دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م) .

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٩م)

٥- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة : طبع دار الكتب لمصرية القاهرة ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٢ م .

الحموى : الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله . (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨ م) .

٦- معجم البلدان . دار إحياء التراث العربى . بيروت بدون تاريخ.

خليفة بن خياط . (ت ٢٤٠ هـ / ١٩٥٧ م) .

٧- تاريخ خليفة بن خياط . نشر أكرم العمرى . بغداد ١٩٦٨م.

الذهبى : شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) .

٨- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام . القاهرة ١٣٦٨ م .

٩- دول الإسلام . الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٤٧ م .

الرقيق أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم (توفى بعد سنة ٤١٧ هـ/ ١٠٢٦ م)

١٠- تاريخ إفريقية والمغرب . تحقيق المنجى الكعبى . مطبعة الوسط بتونس ١٩٦٧ م .

الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير . (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م)

١١- تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . الطبعة الثانية . دار المعارف – القاهرة ١٩٧٠ م .

ابن الحكم : عبد الرحمن (ت . ٢٥٧ هـ) .

١٢- فتوح مصر والمغرب والأندلس . طبعة ليدن ١٩٢٠ م .

ابن عبد ربه الأندلسى . أحمد بن محمد (ت ٣٢٨ هـ) .

١٣- العقد الفريد دار الإمام على للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٩٢ م .

ابن عذارى المراكشى : أبو عبد الله محمد (توفى أواخر القرن السابع الهجرى)

١٤- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب . تحقيق كولان وليفى بروفنسال – دار الثقافة بيروت ١٩٦٧ م .

ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى (ت ٢٧٦ هـ).

١٥- الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء . تحقيق د . طه الزينى نشر مؤسسة الحلبى . القاهرة ١٣٧٨ هـ / ١٩٦٧ م .

ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى الدمشقى . (ت ٧٧٤ هـ) .

١٦- البداية والنهاية . الطبعة الأولى . دار الفكر العربى القاهرة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٣ م .

الكندى : أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) .

١٧- ولاة مصر . تحقيق د . حسين نصار . دار صادر . بيروت ، بدون تاريخ .

المالكى : أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله . (ت حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى)

١٨- رياض نفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم . نشر د . حسين مؤنس . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٥١ م .

المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين . (ت ٣٤٦ هـ) .

١٩- التنبيه والإشراف . دار التراث بيروت ١٩٦٨ م ونسخه أخرى مكتبة الهلال بيروت ١٩٨١ م .

المقرى : أحمد بن محمد . (ت ١٠٤١ هـ) .

٢٠- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . الطبعة الأولى . القاهرة ١٩٤٩ م .

النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب . (ت ٧٣٣ هـ) .

٢١- نهاية الأرب فى فنون الأدب . الجزء التاسع عشر . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .

ابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن هشام . (ت ٢١٣ هـ) .

٢٢- السيرة تحقيق د . محمد فهمى السرجانى . المكتبة التوفيقية . القاهرة . بدون تاريخ .

اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب . (ت ٢٨٤ هـ)

٢٣- تاريخ اليعقوبى . دار صادر . بيروت بدون تاريخ .

ثانياً : المراجع :

بتلر : د . الفريد . ج .

٢٤- فتح العرب لمصر . ترجمة محمد فريد أبو حديد سلسلة (تاريخ المصريين) رقم (٢٧) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٩ م .

حسن : د . حسن إبراهيم .

٢٥- تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى . الطبعة التاسعة ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة : ١٩٧٩ م .

زكى : د . عبد الرحمن .

٢٦- الحرب عند العرب . مجموعة كتابك رقم (٨٨) دار المعارف . القاهرة بدون تاريخ .

زيدان : جورجى .

٢٧- تاريخ التمدن الإسلامى . دار الهلال ١٩٦٨ م .

شلبى : د . أحمد

٢٨- موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية . الطبعة الخامسة مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨ م .

عاشور : د . سعيد عبد الفتاح .

٢٩- أوربا العصور الوسطى . الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٥٨م.

عبد الحميد : د. سعد زغلول .

٣٠- تاريخ المغرب العربى . منشأة المعارف . الإسكندرية ١٩٧٩ م .

العدوى : د . إبراهيم أحمد .

٣١- الأمويون والبيزنطيون . مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة ١٩٥٣ م.

عنان : محمد عبد الله .

٣٢- مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام . مكتبة الخانجى . القاهرة ١٣٨٢هـ /١٩٦٢ م .

فرج : د . وسام عبد العزيز .

٣٣- العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية . والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى . الهيئة المصرية العامة الكتاب . فرع الإسكندرية ١٩٨١ م .

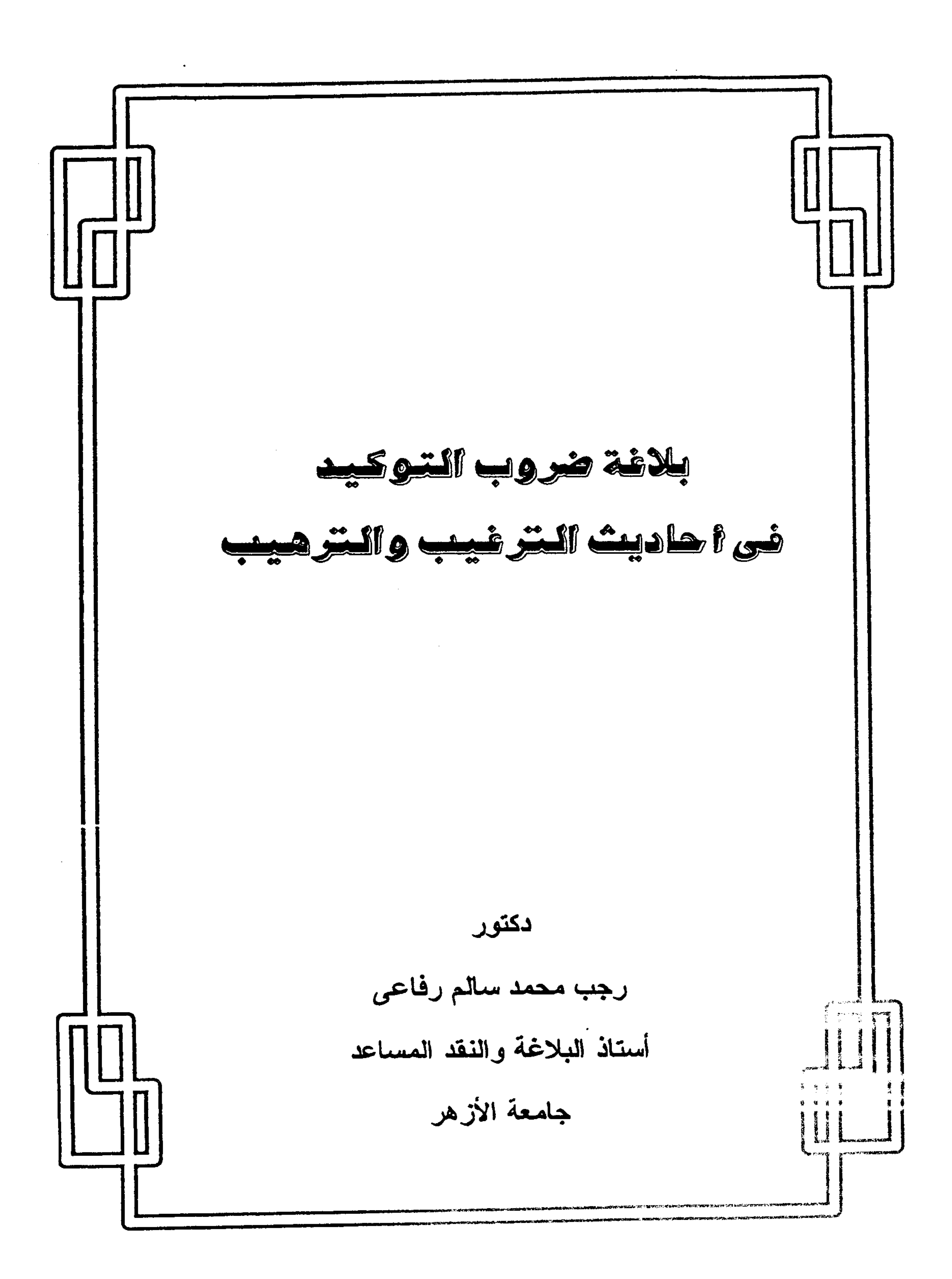
فشر : هـ . أ . ل .

٣٤- تاريخ أوربا العصور الوسطى . ترجمة د . محمد مصطفى زيادة ود . السيد الباز العرينى . دار المعارف القاهرة ١٩٧٦ م .

لويس : أرشيبالد

٣٥- القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط . ترجمة أحمد محمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٥٦ م .

الفهـــــــــرس



بلاغة ضروب التوكيد
فى أحاديث الترغيب والترهيب

دكتور

رجب محمد سالم رفاعى

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

جامعة الأزهر

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين . علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان . أحمده سبحانه وتعالى حمدا طيبا مباركا كما يليق بجوده وكرمه واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أمرنا أن ندعوه بقوله ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ واشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء وهو القائل محدثا عن نفسه " أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش " اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأحبابه أجمعين .

أما بعد : فإن السنة بيان للقرآن ، أو زيادة على ذلك .([1]) يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ . ([2]) ثم إن الاستقراء يدل على ذلك حيث إن فى السنة أشياء كثيرة لم ينص عليها القرآن كعدد ركعات أوقات الصلاة ، ونصاب الزكاة ، وتحريم الحمر الأهلية ، وكل ذى ناب من السباع ... إلخ .

ولهذا كانت أحاديث رسول الله ﷺ فى قمة البلاغة ، ولا غرو فى هذا فقد تربى ﷺ فى قرش ونشأ فى بنى سعد . أضف إلى ذلك عناية الله له وتوفيقه ، فقد ابتعته للعرب وهم قوم يقادون من ألسنتهم ، ولهم المقامات المشهورة فى البيان والفصاحة . يدل على ذلك قوله ﷺ " أنا افصح العرب ، بيد أنى من قريش ، ونشأت فى بنى سعد بن بكر " ([3]) وتعليله ﷺ بأسباب تقويم اللسان إلى أعلى درجة عرفها العرب ، يدل على أن لفظ الحديث من عنده ، وأما قوله ﷺ " أوتيت جوامع الكلم " ([4]) فيحمل على ما آتاه الله من حسان المعانى وكبارها ، تجتمع له تحت لفظة موجزة .

([1]) الموافقات : ج ٣ ص ٤ .

([2]) سورة النحل . الآية (٤٤) .

([3]) مقدمة الفائق فى غريب الحديث .

([4]) تيسير الوصول إلى جامع الأصول ١٣٢/ ٤ .

وقد عنى العلماء منذ القدم ببلاغة الحديث ، بل راع الصحابة رضى الله عنهم منه بيانه حتى كانوا يتناشدونه بينهم ، ولهذا وجد الباحثون أفكارهم مسوقه للكلام عن أسرار البيان فى مجالهم ومؤلفاتهم .

يقول : مصطفى صادق الرافعى فى كتابه : " إعجاز البلاغة النبوية " نقلا عن وصف الجاحظ لكلامه ﷺ : " هو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانية ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، استعمل المبسوط فى مواضع البسط ، والمقصور فى مواضع القصر وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا ميراث حكمه ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ويسر بالتوفيق ، وهذا الكلام الذى ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول ، وجمع له المهابة والحلاوة وحسن الإفهام ، وقلة عدد الكلام ، وهو مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، ولم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبز الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج [1] إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلافة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، [2] ولا يبطئ ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر ، ثم لم بسمع الناس بكلام قط ، أعم نفعا ولا اصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه — من كلامه ﷺ . [3]

---

[1] الفلج : الفوز والظفر .

[2] لا يهمز ولا يلمز : لا يغتاب ولا يعيب .

[3] ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٣١ للرافعى طبعة دار المنار .

لذا فإن بلاغة الرسول ﷺ بحر خضم متلاطم الأمواج . متعدد المنابع ينهل منه العلماء والباحثون والدارسون .

وقد أردت أن أنهل من مورده العذب وأكشف عن قطرة من بحر بلاغته وعذوبة منطقه فى هذا البحث المتواضع ، وآثرته بالحديث عن بلاغة ضروب التوكيد فى أحاديث الترغيب والترهيب . لما لهذه الأحاديث من أهمية فى نطاق الدعوة إلى الله . فالرسول ﷺ أرسل للناس كافة بشيراً ونذيراً ، مبشراً من أطاعه بالجنة وهذا يحتاج إلى الترغيب فى كل قول وعمل يوصل إليها ، ونذيراً لمن عصاه بالنار وهذا يحتاج إلى الترهيب والتخويف من كل قول وعمل يوقع فيها .

وقد آثرت أيضا ضروب التوكيد فى هذه الأحاديث لظهورها وعمومها فيها ، ولما للتوكيد من وقع فى القلوب وتأثير على النفوس .

وقد اشتمل البحث على مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة فصول ، وخاتمة المقدمة وتتضمن أهم أسباب ودوافع اختيار هذا البحث ، والمنهج الذى سرت عليه .

التمهيد :

ويتضمن الإشارة إلى أهم ضروب التوكيد ودوافعه .

الفصل الأول : ضروب التوكيد الفعلية فى أحاديث الترغيب والترهيب ، ويشتمل على مبحثين .

المبحث الأول : ضروب التوكيد الفعلية وأسرارها البلاغية فى أحاديث الترغيب .

المبحث الثانى : ضروب التوكيد الفعلية وأسرارها البلاغية فى أحاديث الترهيب .

الفصل الثانى : ضروب التوكيد اللفظية فى أحـــاديث الـــترغيب والـــترهيب .
ويشتمل على مبحثين .

المبحث الأول : ضروب **التوكيد** اللفظية وأسرارها البلاغية فى أحـــاديث الترغيب .

المبحث الثانى : ضروب التوكيد اللفظية وأسرارها البلاغية فى أحـــاديث الترهيب .

الفصل الثالث : ضروب التوكيد المعنوية فى أحاديث الـــترغيب والـــترهيب .
ويشتمل على مبحثين .

المبحث الأول : ضروب التوكيد المعنوية وأسرارها البلاغية فى أحاديث الترغيب .

المبحث الثانى : ضروب التوكيد المعنوية وأسرارها البلاغية فى أحاديث الترهيب .

الخاتمة : وتتضمن أهم نتائج البحث التى توصلت إليها.

وقد أوردت فى كل مبحث مجموعة من الأحاديث التى اشـــتملت علـــى ضرب من ضروب التوكيد المشار إليها مبينا نوعه ، ومحاولا كشف اللثام عـن الدعى له وما أفاد من أسرار ولطائف شافعا ذلك ببيان ما فى الحديث من نكات بلاغية أخرى ، وفقا لاحتياجات ومقتضيات البحث متبعا فـــى ذلــك المنــهج التحليلى .

هذا وبالله التوفيق

دكتور

رجب محمد سالم الرفاعى

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

جامعة الأزهر

تمهيد :

ضروب التوكيد وأهم دوافعه

يعد التوكيد طريق هام من طرق التعبير كثيرا ما يسلكه المتكلم لدوافع وأغراض كثيرة يقتضيها المقام . فما من أديب إلا ويستخدمه فى كلامه ، وقد جاءت صور كثيرة منه فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

ذلك أن رسول الله ﷺ معلم البشرية من عند ربه ، والمعلم مقرر : يتخذ وسيلة وأخرى كى يصل إلى قلوب المتعلمين منه فى رفق ورحمة ، وحرص هادف لأنه من أنفسهم ،ويعرف ما يتناسب معهم من أساليب القول عند دعوته لهم ، لهذا اتخذ عليه الصلاة والسلام فى دعوته طريقة تقريرية استخدم فيها ضروبا من التوكيد لتوضيح المعالم ، وتمكين الرسالة ، وليس أدل على هذا المنهج الذى عم أدق الأمور وأخفاها من حديث سلمان رضى الله عنه وقد قال له المشركون ساخرين : إنا نرى صاحبكم يعلمكم حتى الخراءة ، فأجاب فخورا عالما : أجل لقد نهانا أن يستنجى أحدنا بيمينه ، أو يستقبل القبلة بغائط أو بول ، ونهى عن الروثة والعظام ، وقال : " لا يستنجى أحدكم بدون ثلاثة أحجار " . (1)

ومن المعروف أن الأساليب العربية تتكئ على ركائز من أدوات ظاهرة ، أو أدوات مقدرة ، أو أنواع من التأليف تحسب كلها وسائل هامة تفيدنا اهتمام المتكلم بالخبر الملقى ، أو الطلب المرغوب وتزيل من حوله الأسباب الظاهرة أو المحتملة من الشك والجحد ، تثبيتا له فى عقول المخاطبين ، هذه الوسائل كلها تدخل فى إطار ضروب التوكيد .

وفى هذا التمهيد سأتناول بشيء من الإيجاز كشف اللثام عن مفهوم التوكيد ، ودعاويه ، وأغراضه ، وأهم ضروبه .

---

(1) ينظر تيسير الوصول إلى جامع الأصول ص ٥٩ ج ٣ .

أولا : مفهوم التوكيد :

يقول ابن يعيش : (1) التأكيد لغة فى التوكيد ، يقال : تأكيد وتوكيد بالهمزة والواو الخالصة وهما لغتان ، وليس أحد الحرفين بدلا من الآخر لأنهما يتصرفان تصرفا واحداً ، ألا تراك تقول : أكد يؤكد تأكيدا ، ووكّد يوكد توكيداً ، ولم يكن أحد الاستعمالين أغلب فيجعل أصلا فلذلك قلنا : إنهما لغتان . (2)

ويقال أكد الشيء ووكده ، والواو أفصح ، ويقال : وكد العقد والعهد أوثقه ، والهمزة فيه لغة ، ويقال : : أوكدته وأكدته ، وآكدته إيكاداً أى شددته ، وتوكد الأمر وتأكد ، ويقال : وكدت اليمين ،والهمز فى العقد أجود ، تقول : إذا عقدت فأكد ، وإذا حلفت فوكدّ . (3) قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ . (4)

ووكد كلمة تدل على شدة وإحكام ، وأوكد عقدك أى : شدَّه ، والوكاد : حبل تشد به البقرة عند الحلب ، ويقولون : وكَد وكْدَه إذا أمّه وعنى به . (5)

---

(1) ابن يعيش : هو يعيش بن على أبى السرايا محمد بن على ابو البقاء موفق الدين الأسدى اشتهر بابن يعيش وبابن الصانع من كبار العلماء بالعربية موصلى الأصل . مولده ووفاته فى حلب من أهم مؤلفاته شرح المفصل للزمخشرى والتصريف الملوكى لابن جنى . الأعلام للزركلى ج ٨ ص ٢٠٦ .

(2) ينظر شرح المفصل لابن يعيش ج ٣ ص ٣٩ نشر مكتبة المتنبى .

(3) ينظر : لسان العرب لابن منظور ج ٦ مادة (وكد) نشر المعارف .

(4) سورة النحل : الآية (٩١) .

(5) ينظر : معجم مقاييس اللغة ١٣٨/٦ لأبى الحسن أحمد بن فارس بن زكريا . ت/ د عبد السلام هارون دار الفكر للطباعة والنشر .

ثانيا : دواعى التوكيد وأغراضه :

من الملاحظ أن التأكيد لا يؤتى فى الكلام إلا لحاجة ، ومن هنا كان للتوكيد دواعيه وأسبابه ومراتبه التى قال بعضهم فيها : إنما يؤتى به لحاجة كالتحرز عن ذكر ما لا فائدة له ، فإن كان المخاطب خالى الذهن ألقى إليه الكلام بدون تأكيد ، وإن كان مترددا فيه حسن تقويته بمؤكد وإن كان منكراً وجب تأكيده بأكثر من مؤكد ، ويراعى فى ذلك القوة والضعف بحسب حال المنكر .

انظر كيف تدرجت الآية الكريمة فى التأكيد وفق إنكار المنكرين فى قول الله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ *إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ . [1]

فالآية الكريمة تصور حواراً جرى بين الرسل وأصحاب القرية التى أرسلوا إليها ، وقد جاء خطاب الرسل لأصحاب القرية فى المرة الأولى مؤكداً بإنّ ، واسمية الجملة ، لأنهم كذبوا بدليل قوله تعالى ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ فلما رد عليهم أصحاب القرية بقولهم ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ مؤكدين ردهم بالنفى والاستثناء ، أى لستم رسلا ، لاعتقادهم أن الرسول لا يكون بشرا ، مردفين ذلك بقولهم ﴿ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وهو تأكيد ثان لنفى الرسالة عنهم بصورة أبلغ ، وقالوا : ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ولم يقولوا : " شيئا " وإنما عمموا " بالنفى ومن " وكأنهم لا ينكرون رسالة هؤلاء الرسل فقط ، بل كل ما يندرج تحت معنى " شىء " النكرة العامة من الرسالات السماوية ، وزادوا ذلك بتكذيب الرسل بطريق القصر والاستثناء ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ ،

---

[1] سورة : يس الآيات من ١٣-١٦ .

ولم يكن الرسل مغالين ، إذا أكد لهم رسالتهم بتأكيدات أشد تتناسب مع تـأكيدات الإنكار السابقة .

وقد قابل الرسل هذا الإنكار الشديد بتأكيد مضاعف ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ فكرروا عرض قضيتهم ، وفى التكـــرار تـأكيد وتقويـة ، وأكدوها بإن واللام واسمية الجملة . وصدروها بشهادة من الله علـى صدقـها ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ ﴾ . وهى فى معنى القسم ، ومن هنا نرى أن عناصر التوكيد قـد زادت بزيادة إنكار المخاطبين ، وجاء التعبير القرآنى ، مطابقا لمقتضى حالـهم فى كل مرة (1) وانظر قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَـى * وَأَنَّ عَلَيْـهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى * وَأَنَّـهُ أَهْلَـكَ عَادًا الْأُولَى ﴾.(2)

تجد التوكيد بضمير الفصل فى قوله ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَـكَ وَأَبْكَـى ﴾ ، لأنه يظنُ أن الناس يُضحكون ويبكون ، أى : يسرون غـيرهم ويحزنونـهم ، فأكد اختصاصه – سبحانه – بذلك ليبطل أن يكون لغيره سبحانه فاعليـة فـى شئون عباده حتى الإضحاك والإبكاء ، وهى أقرب الأفعال إلى أن تكون مظنـة للشركة ، وجاء بالضمير أيضا فى قوله ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ ، لأنه قـد يظن أن الإنسان يميت بالقتل أو يحيى بالقوت ، هذا ما يفهم من كلام العلـوى ، ولا يبعد عندى أن يكون للرد على من ينكرون الحياء بعد الإماتة . ثم لم يـأت بالضمير فى الآية التى بعدها ؛ لأن خلق الإنسان مما لا تظن الشركة مـع الله فى فعله ، ثم إن المعاندين أنفسهم لم يتشددوا فى إنكار مخلوقيتـهم لله ؛ لأنـهم

---

(1) ينظر : دراسات تحليلية للفصاحـة والبلاغـة والإسـناد . د / الشـحات أبـو سـتيت ص (٩٤ ، ٩٥) . بتصرف .

(2) سورة النجم الآيات من ٤– ٥٠ .

يقولون فى السموات والأرض ﴿ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ وأكد فى قوله ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ لأنه مما يظن فيه الشركة ، وذلك واضح فقد يعتقد الإنسان أنه يقنى غيره ، أو أنه يقنى نفسه ، فاستأصل ذلك ليقرر فى الضمير أن العطاء والمنع معنى لو تأملت آثاره فى تكوين الذات لوجدته كبيراً جداً ، ومعنى أقنى أعطى القنية وهى – كما يقول الزمخشرى – المال الذى تأثلته وعزمت الا تخرجه من يدك ، ثم أكد ﴿ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ لأن خزاعة كانت تعبدها فأكد بربوبيتها له سبحانه وقال : رب الشعرى ولم يقل إله الشعرى لأن الربوبية فيها إشارة إلى أنها مخلوقة له سبحانه فكيف تعبد من دونه ؟ ثم قال ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا ﴾ من غير تقرير لأن استئصال قوم مما لا تظن فيه الشركة ، وهكذا نجد نبرة التوكيد تعلو وتهبط فى مراقبة دقيقة وبالغة لمواقع المعانى فى النفوس ، وما تنطوى عليه دواخلها . وسبحان المحيط بالأسرار . (1)

ويقول صاحب كتاب البرهان فى علوم القرآن : " وللتوكيد أغراضه ، فالكلام إذا تأكد تقرر ، وصار حقيقة لا مراء فيها ، وبات لا شك ولا نزاع يدور حوله ، والقصد من التأكيد الحمل على ما لم يثبت فى ذهن المخاطب ليصير ثابتا . (2)

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ . (3)

وقوله أيضا ﴿ حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ (4) ثم إن دواعى التوكيد وأغراضه لا تدور حول مواجهة تردد

---

(1) خصائص التراكيب للدكتور أبو موسى ص ٥٠ الطبعة الأولى ط وهبة .

(2) ينظر البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركش ج ٢ ص ٣٨٤ . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . ط الثانية . نشر دار المعرفة .

(3) سورة القدر . الآيات من ١-٣ .

(4) سورة الدخان . الآيات من ١-٣ .

المخاطب فى قبول الخبر أو إنكاره له ، بل له دواعى وأغراض كثيرة تفهم من فحوى الأسلوب وسياق الكلام . وقد جاء فى القرآن الكريم ، وفى السنة النبوية ، وغيرها من مأثور القول لأغراض كثيرة وأسباب متعددة تفوق الحصر.

وقد ذكر الزمخشرى (١) فى تفسيره دواعى للتوكيد منها :

١- أن التوكيد قد يكون لتقرير المعنى فى نفس المخاطب وتثبيته ، وإن كانت خالية من كل أثر للإنكار أو الشك كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ (٢) يقول الزمخشرى تكرير الضمير بعد إيقاعه اسما لـ (إنَّ) تأكيد على تأكيد لمعنى اختصاص الله تعالى بالتنزيل ليقرر فى نفس رسول الله ﷺ أنه إذا كان هو المنزل لم يكن تنزيله على أى وجه نزل إلا لحكمة وصوابا ، ولقد دعتنى حكمة بالغة إلى أن أنزل عليك الأمر بالقتال والانتقام بعد حين " . (٣)

٢- ومنها أن التأكيد قد يكون لتحقيق المعنى عند المتكلم ، وهو يريد أن يوطن نفس المخاطب لتلقيه وقبوله كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ (٤) . قال الزمخشرى : لما وجد منه الايناس فكان مقطوعا متيقنا حققه لهم بكلمة " إنَّ " ليوطن أنفسهم ، ولما

---

(١) الزمخشرى هو محمود بن عمر محمد بن أحمد الخوارزمى ، الزمخشرى جار الله أبو القاسم من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب ، كان معتزلى المذهب ، توفى سنة ٥٣٨ . انظر ترجمته فى الأنساب للسمعانى الورقة (٢٧٧) ومعجم البلدان فى مادة : زمخشر ، ومعجم الأدباء ص ١٩ ص ١٢٦ .

(٢) سورة الإنسان . الآية (٢٣) .

(٣) ينظر الكشاف ج ٤ ص ٥٣٩ ، البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ص ٤١٤ .

(٤) سورة طه : لآية (١٠) .

كان الإتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بنى الأمر فيهما على الرجاء والطمع " . (1)

٣- ومن دواعى التوكيد إماطة الشبهة لغرابة الخبر وحاجته إلى التقرير والتحقيق يقول فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ۞ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ . (2) تكرير الضمير فى ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة " . (3)

٤- وقد يكون التوكيد مظهرا لتعلق النفس بالخبر واهتمامها به ، وأنه جدير عندها بالتقوية والتقرير ، وأن المخاطب متقبل له ، غير منكر ، ولا مدافع ، كما أن إرسال الكلام غفلا من التأكيد لأن النفس غير متعلقة به ، ولا صادقة الرغبة فيه ، وأن المخاطب ينكره إنكارا لا ينفع معه أبلغ صور التوكيد ، يقول فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ . (4) " فإن قلت : لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية ، وشياطينهم بالاسمية محققة بـ (إنّ) ؟ قلت : ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديرا بأقوى الكلامين ، وأوكدهما ، لأنهم فى ادعاء حدوث الإيمان منهم ونشئه من قبلهم ، لا فى ادعاء أنهم أوحديون فى الإيمان غير مشكوك فيه غيارهم ، وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه ، إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرك ، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد ، وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة ، وكيف

---

(1) ينظر الكشاف ج ٣ ص ٤١ ، البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ص ٤١٤ .

(2) سورة طه : الآيتان (١١ ، ١٢) .

(3) ينظر الكشاف ج ٣ ص ٤٢ ، البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ص ٤١٥ .

(4) سورة البقرة : الآية (١٤) .

يقولون ويطمعون فى رواجه وهم بين ظهرانى المـــهاجرين والأنصـــار الذين مثلهم فى التوراة والإنجيل ، ألا ترى حكاية الله قـــول المؤمنيـــن : ﴿ ربَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا ﴾ (1) وأما مخاطبة إخوانهم فهم فيما أخبروا بـــه عـن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر والبعـــد مـن أن يزالوا عنه عن صدق ورغبة ، ووفور نشاط وارتيـــاح للتكلـــم بـــه ، وما قالوه من ذلك فهو رائج متقبل منهم ، فكان مظنـــة للتحقيـــق ومتنـــة للتوكيد " . (2)

5- وقد يكون التوكيد لمواجهة تطلعات النفس وحسم آمالها ، وأطماعها كمـا فى قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِـــدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ . (3) ، وارد على طريـــق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه ؟ قلت : الأمر كذلـــك لأن الجملة الاسمية آكد من الفعلية ، وقد انضم إلى ذلك قوله ﴿هُوَ ﴾ وقولـه ﴿ مَوْلُودٌ ﴾ والسبب فى مجيئة على هذا السنن أن الخطـــاب للمؤمنيـــن وعليتهم قبض آبائهم على الكفر ،وعلى الدين الجـــاهلى ، فـــأراد حســـم أطماعهم ، وأطماع الناس فيهم أن ينفعوا آباءهم فى الآخرة ، وأن يغنـــوا عنهم من الله شيئا ، فلذلك جيء به على الطريق الآكد .(4)

6- وقد يكون التوكيد لتقرير وعد الله وتثبيته حتى تزداد النفـــوس اطمئنانـــاً إليه ووثوقا فيه ، فلا تلتفت إلى أمانى الشيطان ووعده لأوليائـــه ، يقـــول الزمخشرى فى قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَـــنُدْخِلُهُمْ

---

(1) سورة آل عمران : الآية (16) .

(2) ينظر : الكشاف ج 1 ص 50 . والبلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ص 416 .

(3) سورة لقمان : الآية (33) .

(4) ينظر : الكشاف ج 3 ص 398 . والبلاغة فى تفسير الزمخشرى 416 .

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ (1) ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ مصدران ، الأول مؤكد لنفسه ، والثانى مؤكد لغيره ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ توكيد ثالث بليغ . فإن قلت : ما فائدة هذه التوكيدات ؟ قلت : معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة ، وأمانية الباطلة لقرنائه ، بوعد الله الصادق لأوليائه ، ترغيبا للعباد فى إيتاء ما يستحقونه به تنجيز وعد الله على ما يتجرعون عاقبته غصص إخلاف مواعيد الشيطان . (2)

٧- وقد يتجه المتكلم إلى تصوير ما فى نفوس الآخرين من خواطر وأفكار فيأتى تصويره فى عبارات مؤكدة ليشير بهذا إلى أن هذه الخواطر والأفكار متقرره فى هذه النفوس ومتمكنة منها كما فى قوله تعالى : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ ﴾ (3) . يقول الزمخشرى : " فإن قلت : أى فرق بين قولك : وظنوا أنهم تمنعهم أو مانعتهم ، وبين النظم الذى جاء عليه ؟ . قلت فى تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ، ومنعها إياهم ، وفى تصيير ضميرهم لـ (إن) واسناد الجملة إليه ، دليل على اعتقادهم فى أنفسهم ، أنهم فى عزة ومنعة ، لا يبالى معهم بأحد يتعرض لهم أو يطمع فى معازتهم ، وليس ذلك فى قولك : وظنوا أن حصونهم تمنعهم .(4)

وجاء فى البرهان : أن جمهور الأمة أجمعوا على وقوعه فى القرآن والسنة ، واعترض الملحدون على القرآن والسنة بما فيها من التأكيدات ، وأنه

---

(1) سورة النساء . الآية (١٢٢) .

(2) ينظر : الكشاف ج ١ ص ٤٤٠ . والبلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ص ٤١٦.

(3) سورة الحشر : الآية (٢) .

(4) ينظر : الكشاف ج ٤ ص ٣٩٨ . والبلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ص ٤١٧.

لا فائدة فى ذكرها ، وأن من حق البلاغة فى النظم إيجاز اللفظ ، واستيفاء المعنى ، وخير الكلام ما قل ودل ولا يمل ، والإفادة خير من الإعادة ، وظنوا أنه إنما يجئ لقصور النفس عن تأدية المراد بغير تأكيد ، ولهذا أنكروا وقوعه فى القرآن .

ورد على الملحدين بأن القرآن نزل بلسان القوم وفى لسانهم التأكيد والتكرار ، بل هو عندهم معدود فى الفصاحة والبراعة ، ومن أنكر وجوده فى اللغة فهو مكابر ، إذ لولا وجوده لم تكن لتسميته تأكيداً فائدة ، فإن الاسم لا يوضع لمسمى معلوم لفائدة فيه ، بل فوائد كثيرة .[1]

وبعد : فإن لطرق التوكيد وضروبه دورها فى تمكين المعنى فى النفس وتقويته لإزالة ما يحيط من شك ، ثم إن المراد بالتأكيد : تأكيد الحكم الذى تضمنته الجملة ، وليس المراد تأكيد المسند إليه وحده ، ولا تأكيد المسند إليه وحده ، ومقامات التأكيد متعددة ومتنوعة وبخاصة فى القرآن الكريم والسنة النبوية والمأثور من كلام العرب ، والمتأمل فيها يخرج بكثير من اللطائف والأسرار .

ثالثا : أهم ضروب التوكيد والتقرير :

ضروب التوكيد والتقرير فى اللغة كثيرة ، لا يمكن حصرها واستقصاؤها منها ما هو فعلى ، يتمثل فى الإشارات والحركات والأفعال التى تصدر من المتكلم أثناء كلامه يفهم منها ما يعنيه من توكيد وتقرير لما يتضمنه كلامه من معانى ودلالات وهذا كثير فى أحاديث رسول الله ﷺ ، وسنكشف اللثام عنه فى حينه إن شاء الله .

---

(1) ينظر : البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى ج ٢ ص ٣٨٤ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ط الثانية نشر دار المعرفة .

ومنها ما هو لفظى وهو أظهر أنواع التوكيد وله طريقان :

أحدهما : أن يكون بأداة وضعتها اللغة أو العرف البلاغى لإفادته ؛ منها : (إنّ وأنّ) المشددتين ، ونون التوكيد الثقيلة والخفيفة ، والسين وسوف ولام الابتداء التى تفيد التوكيد وإزالة الشك ، والقسم ، ولام القسم وهى الواقعة فى جواب القسم ، وتفيد تأكيد المقسم به وتحقيق مضمونه ، وقد وحروف التنبيه وهى : ها ، وألا وأما ، وهى تؤكد المعنى وتحققه فى ذهن المخاطب عن طريق التنبيه إليه . (1) إلى غير ذلك مما يفيد التوكيد .

الثانى : مما هو لفظى أن يكون بإعادة الجملة ، أو شىء منها على الوجه الذى يلمس المتكلم حاجة المعنى إلى إعادته . والإعادة والتكرار سنة بيانية من سنن العرب ، جاء عليها القرآن الكريم والحديث الشريف ، قال الإمام السيوطى فى مزهره " من سنن العرب التكرير والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر " .(2)

ومنها ما هو معنوى يفهم من سياق الكلام ؛ فقد تفيد بعض الأساليب التوكيد والتقرير دون الاستعانة بأى من ألفاظ التوكيد المعروفة لدى اللغويين ، يقول الدكتور محمد أبو موسى : " المؤكدات لا يمكن الإحاطة بها ، فإن كثيراً من طرق بناء الكلام تعطيه تقوية ووكادة ، فالذكر قد يفيد توكيدا ، والحذف قد يفيد توكيدا ، والوصل والفصل ، والتكرار والاعتراض ، والالتفات ، وصور التشبيه ، والاستعارة ، وأنواع المجاز ، والكناية ، وكل هذا وغيرها تفيد أنواعا من التوكيد والمبالغة فى تثبيت المعنى أو نفيه ، سواء أكان هذا

---

(1) ينظر شرح المفصل لابن يعيش ج ٨ ص ١١٤ ، ١١٥ .

(2) ينظر : المزهر للسيوطى . ج ١ ص ٣٣٢ .

التوكيد بأداة من أدوات التوكيد ، أو كان بصورة من صور البنـــاء ، أو كـــان بحال من أحوال اللفظ " .(1)

هذه أهم ضروب التوكيد . وسنكشف عن الكثير منها وعما أفادتـــه مـــن أغراض وإيحاءات عند دراسة أحاديث رســـول الله ﷺ المتعلقـــة بـــالترغيب والترهيب فى الفصول الآتية إن شاء الله .

---

(1) ينظر : البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى وأثرها فى الدراسات البلاغيـــة ص ٤١٧ نشر مكتبة وهبة.

الفصل الأول

ضروب التوكيد الفعلية فى أحاديث الترغيب والترهيب

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : ضروب التوكيد الفعلية وأسرارها البلاغية فى أحاديث الترغيب .

المبحث الثانى : ضروب التوكيد الفعلية وأسـرارها البلاغيـة فـى أحاديث الترهيب .

المبحث الأول

ضروب التوكيد الفعلية وأسرارها البلاغية

فى أحاديث الترغيب :

الرسول ﷺ بعث هاديا ومعلما للبشرية ، والمعلم يستخدم فى سبيل توصيل ما يريد تعليمه لتلاميذه كل وسيلة من شأنها تعينه على توصيل معلوماته ومعارفه إليهم بحيث تتقرر وتثبت فى أذهانهم بيسر وسهولة .

ولا شك أن للإشارات والحركات والأفعال دلالة عميقة فى إيضاح المعانى وترسيخها فى النفس ، لأن النفس تأنس بالأشياء المحسوسة ، وبها تتعلق وتصدق أكثر مما هو معقول . ودارس الحديث النبوى الشريف يرى من ذلك الشيء الكثير الذى يدل على اهتمامه ﷺ البالغ بوسائل الإيضاح فى تعليم أمته . حيث إن شغل الحاسة مع العقل تحول التلميذ بكل ما فيه إلى المعلم الحريص على سيطرته فى درسه ، ثم إن الفعل قد يكون قبل العبارة لافتا ومشوقا ، فإذا تبعه البيان ازداد الغرض تأكيداً وتقرراً لدى المتلقى لا يسهل فى العادة نسيانه ، فإذا ظن به النسيان كذبت الظن المناسبة الخفيفة من فعل أو إشارة أو حركة التى سرعان ما تبرزه جليا كيوم تلقيه .

وهذه نماذج من تلك الوسائل التى رافقت حديثه الكريم ﷺ فى مقام الترغيب .

الحديث الأول :

عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ إن أحداً جبل يحبنا ونحبه " فى رواية للشيخين أنه ﷺ أقبل حتى بدا له أحد ، فقال " هذا جبل يحبنا ونحبه " فلما أشرف على المدينة قال : اللهم إنى أحرّم ما بين جبليها مثل ما حرّم إبراهيم مكة . اللهم بارك لهم فى مدهم وصاعهم " .[1]

---

[1] ينظر تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ٣ص ٢٨٤ لابن الديبع الشيبانى مطبعة الحلبى .

فى هذا الحديث الشريف سلك رسول الله ﷺ فى حب هذا المكان والترغيب فى زيارته والاستئناس بالنظر إليه ، والقرب منه والتردد إليه . طريقة التقرير والتأكيد الفعلية ، فلم يقل : أحد جبل يحبنا ونحبه إلا عندما ظهر له الجبل ، واقترب منه ﷺ عند عودته إلى المدينة ، واستخدم اسم الإشارة (هذا) الدال على قرب المشار إليه – كما جاء فى رواية الشيخين ليلفت أصحابه للنظر إليه كى ترتبط بأفكارهم هذه الصورة ، وهذا الموقف ليزداد تعلقهم به كلما مروا به أو ذكروا قوله ﷺ ، فإن الفعل قبل العبارة قد يكون لافتا . ومشوقا .

وجبل أحد من الأشياء الجامدة ، والأشياء الجامدة والأمكنة والأزمنة وغيرها من الموجودات قد ترتبط بنا ارتباط الحب والصداقة كما لو كانت أناساً عاقلين ، أو ارتباط البغض والعداوة كما لو كانت غرماء ظالمين ، بيننا وبينها كثير من الصلات ، فربما أدركتنا عندها السعادة بالأمل الباسم والرجاء الحبيب ، التقينا معها بالأحباء فى ساعة صفو هانئة استرحنا فيها من عبث الحياة بقلوبنا ، بادتنا فى أفيائها العبرة فاتصلنا بعد غربة الروح ، وحيرة النفس بهادى الطريق ، وباب المتاب ، أودعنا ترابها الأحباء وغيبنا الأصفياء ، وقفنا فيها مواقف الوداع وسفحنا عبرات الحنين ، أو دهمتنا عندها الكوارث ، وفاتتنا السعادة ، غربت عنا شمس الآمال ، فعشنا نتخبط بينها فى الظلام . ذكريات وذكريات تصلنا بالأشياء ، فإذا بنا نحدثها ، ونزيد فنصغى إليها كأنما تحدثنا ، ثم ننتقل عنها فنحكى حوارها معنا .

إنه فيض إحساسنا بها انتقل إليها منا ، آية الزيادة فى الحب ، فتشخصها نابضة بالحياة ، جياشا بمثل ما نجد قبلها من عاطفة ووجدان . والمدينة أهلها ورباعها ودروبها ، وشعابها وجبالها ورباها ، آورت الرسول ﷺ ونصرته ، وأعز الله بها الدين ، وحمى الرسالة ، وحصن الدعوة ، فكل ذلك منها حبيب

إليه علية الصلاة والسلام ، وأحد جبل ، والجبال أول ما يطالع القادم ، وهـى البواكير لرؤية عين القاصد ، ويتنزل عندها الشوق ، ويستهدف وجهها الحنين ، فإذا أحب الـرسول ﷺ أحداً لهذه المعانى الإنسانية ، أولا لأسرار سواها غيبيـة فلا عجب لهذا الحب ، وإذا أضفى على جبل أحد ما زاد من حبه له الرؤيـة ، ولا كذب فى هذه العبارة ، لأنها لغة الحب ، وبيان العاطفة التى لا يغنى غنـاءه تعبير الواضع للفظ لنقصه فى الدلالة .

وقد أفاد تعبير رسول الله ﷺ - هذا جبل يحبنا ونحبـه ... إلـى آخـر الحديث . قمة التذوق ، وسلامة الوجدان وصحة العاطفة فيما يعود بالخير على الدين ويزيد حبا للمدينة وينزع من قلوبهم ذكرى الهزيمة ، ووفاء للأنصـار ، لأن حب الدار من حب الجار ذلك الذى فاض منه الحب لرسول الله ﷺ علـى الجماد فأحبه .

وإذا كان الرسول ﷺ سلك فى إفادة تأكيد المعنى وتقريره أحـد وسـائل الإيضاح وهى كما ذكرنا -- لفت نظر أصحابه عند رؤيته جبل أحد إلى التوجـه بالنظر إليه عن طريق إشارته إليه ﷺ ، فإنه أيضا زاد من تأكيد المعنى وتقريره صورة المجاز بالاستعارة التى شبه فيها الجبل بالمحب بدلالة إثبات الفعل لـه وإسناده إليه ، وهذا الإسناد هو الذى يسبح بالخيال ، ويذهب به يسـتبطن مـا وراء العبارة لأنه بلفظ موحٍ بعيد الغور ، ومثل هذا الصنيع عند البيانيين ينحـل إلى استعارتين : يسمون أولهما المكنية (1) ، لأنها دلالة فعل الحب المسند إلـى الجبل فى العبارة على الإنسان المحب دلالة التلازم على الملـزوم ، ومسـوغ هذا الإسناد مشابهة الجبل للمحب المحذوف مبالغة فى اتصافه بصفته حتى لـم يفترق عنه ، ويسمون ثانيتهما التخييلية (2) ، وهى إثبات فعل المحب المشبه بـه

---

(1) ينظر شروح التلخيص جـ : ص ١٥٠ .

(2) ينظر : المرجع السابق جـ : ص ١٥٢ .

للجبل المشبه ، لأنها تخيل للسامع إنسانية الجبل وحبه ، وتكسبه ما لا يمكن أن يكون له على سبيل الحقيقة .

هذه الزخيرة من المدلول النفسى أفادتها هذه الاستعارة . إلا أن الشريف الرضى قد أقر المجاز فى الحديث ، ولكنه جعله مجازا مرسلا ولاحظ فيه علاقة المجاورة أو المحلية .

انظر إليه يقول : " هذا القول محمول على المجاز ، لأن الجبل على الحقيقة لا يصح أن يَحبَّ ولا يُحبَّ إذ محبة الإنسان لغيره إنما هى كناية عن إرادة النفع له أو التعظيم المختص به على ما بيناه ... وكلا الأمرين لا يصح على الجماد لا لتعظيم المختص ، ولا النفع العائد عليه ، فمستحيل أن يعظم أو يُعظم ، أو ينفع أو ينتفع به ، فالمراد إذا أن " أحداً " جبل يحبنا أهله ، ونحن نحب أهله ، وأهله هم أهل المدينة من الأنصار أوسهم وخزرجهم وغير خاف حبهم النبى عليه الصلاة والسلام ، وحبه لهم ، وتعظيمهم له ، وإعظامه لقدرهم .[1]

ولم يرتضى عز الدين كمال ما ذهب إليه الشريف الرضى من حمل الحديث على المجاز المرسل وما علل به ، ورجح حمل ما فى الحديث على الاستعارة إذ يقول : " لا يصح أن يُحَبَّ ولا يَحبُ مبنى على تفسيره الحب بالكناية المذكورة ، وهذا أمر لا يلزم ، فالحب ميل القلب إلى المحبوب من إنسان وغيره ، وإذا لم يصح من الجبل فلا تتصور عدم صحته من الإنسان للجبل لمزايا تُميل إليه القلب ، وفى الحديث : "حبك الشيء يعمى ويصم" دلالة على تعميمه، والله يقول: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [2] والإيمان ليس الإنسان ... ويقول : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ [3]

---

(1) المجازات النبوية للشريف الرضى ص ٢٣ .

(2) سورة الحجرات : الآية (٧) .

(3) سورة الإنسان : الآية (٢٧) .

﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (1) فهل كل هذا حب مجازى لأنها أشياء لا تصح أن تحب لنفع أو تعظيم، ثم قوله بعدم صحة التعظيم والانتفاع محجوج بما كفلنا من تعظيم الأماكن والأوقات والحرمات ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ (2) ﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (3) وقد عظم الله أموراً كثيرة ، فكيف لا يصح تعظيم ما عظم الله ؟ لقد أكثر من تعظيم الأجر والفوز والفضل والقرآن ، ووصف به الطود والكرب والنبأ والقول والبهتان . بل زاد فذكر بصيغة التفضيل بعض الدرجات والأجور فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (4) . ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴾ (5) وقد خطب النبى ﷺ أصحابه فقال : " ألا أى شهر تعلمونه أعظم حرمة ؟ .. ألا أى بلد تعلمونه أعظم حرمة .. ؟ ألا أى يوم تعلمونه أعظم حرمة " . (6)

ثم نراه يقول : " إن تخريج العبارة على الاستعارة أوقع ، والتصوير بما لهذه العاطفة أروع . (7)

وإنى أرجح ما ذهب إليه الدكتور عز الدين كمال لما أبداه من فوائد وأسرار لحمل العبارة فى الحديث الشريف على الاستعارة دون المجاز المرسل . أضف إلى ذلك أن الرسول ﷺ أراد أن يحبب أصحابه فى هذا

---

(1) سورة الفجر: الآية (٢٠) .

(2) سورة الحج : الآية (٣٠) .

(3) سورة الحج : الآية (٣٢) .

(4) سورة التوبة : الآية (٢٠) .

(5) سورة الحديد : الآية (١٠) .

(6) ينظر تيسير الوصول ج ١ص ٢١ .

(7) ينظر : الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ص ١٧٤-١٧٥ .

المكان بعد ما حدث لهم فى غزوة أحد لأن ما حدث كان فى الحقيقة نصر لا هزيمة .

الحديث الثانى :

عن سهل بن سعد ﷺ قال : قال ﷺ : " أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما " . (¹)

اليتيم : هو الصغير الذى مات أبوه ، واليتيم فى الناس من قبل الأب ، وفى البهائم من جهة الأم ، وكافل اليتيم : القائم بأموره ، والراعى لشئونه . والسبابة : الإصبع التى تلى الإبهام ، وسميت بذلك لأنه يسب بها الشيطان ، ويقال له السباحة .

فرج بينهما : فرق بينهما : إشارة إلى أن بين درجة النبى ﷺ فى الجنة وكافل اليتيم قدر تفاوت ما بين السبابة والوسطى ، وفى رواية : كهاتين إذا اتقى : أى أتقى الله فيما يتعلق بحق اليتيم .

وبالنظر فى هذا الحديث الشريف نجد أن الرسول ﷺ قد حث على كفالة اليتيم ورعايته ، ومراعاة شئون حياته ، لأنه فى حاجة ماسة لمن يحن إليه ويعطف عليه ، ويرحم حاله ؛ وذلك لضعفه ، وقلة خبرته بأمور الحياة وفقد العائل له ولكى يشعر باهتمام المجتمع له فيشب وقد تأصل فى قلبه الحب لإخوانه ومجتمعه فيصبح عضوا صالحا فى وطنه .

وقد أكد رسول الله ﷺ الدعوة إلى كفالة اليتيم ، والترغيب فيها بما بشر به كافل اليتيم من دخوله الجنة ، وقرب منزلته فيها من منزلته ﷺ . وزاد فى الترغيب فعله ﷺ حيث أشار بالسبابة والوسطى مبينا وموضحا درجة كافل اليتيم فى الجنة بما يؤكد ويقرر قربها من درجة الرسول ، قال ابن بطال :

(¹) الحديث رواه البخارى فى الطلاق (باب اللعان) وفى الأدب ج ١٠ ص ٣٦٥ .

حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به فيكون رفيق النبى ﷺ فى الجنة ، ولا منزلة فى الآخرة افضل من ذلك . (1)

فهذه الإشارة من رسول الله ﷺ – كما ذكرت – لون من ألوان التأكيد والتقرير الفعلى الذى استخدمه الرسول ﷺ فى الترغيب فيما يدعو إليه .

وحول معنى الحديث يقول الدكتور كمال عز الدين : جعل الرسول الكريم حاله مع كافل اليتيم مشبها ، وجعل حال السبابة والوسطى مشبها به ليدل بالمقرر المحض ، والمؤكد المشاهد ، على تأكيد اجر الكافل وتقرره .

واللطائف التى فرقت على الطرفين جديرة بالإعجاب ، وحقيقة بالنظر، فالمعية أو المصاحبة فى جانب المشبه إرصاد إلى جنس الجزاء الذى يدل عليه كمال العبارة ، وجذب لانتباه المخاطب إلى أن يسعد بهذه النعمة المثلى ، ثم التعجيل بأصل المجازاة – وهو الوجود فى الجنة – توثيق لمفهوم هذه المعية المستفادة من الواو أو المصاحبة ،وليست هى الغاية أو الممثل به أو المسند فى العبارة ، بل هى تابعة المقدم عليه لتعجيل المسرة ، أما الجانب المحمول والممثل به فقد صور صورتين :

إحداهما لفظية ، والأخرى فعلية ، وكانت اللفظية اسم الإشارة (هكذا) المفتتح بحرف التنبيه ، والذى توسطه أداة التشبيه ، ووقع هو بعد ذلك بالموضوع للقرب ، ليلفت الأذهان بشدة إلى الصورة الشاخصة القريبة من العين ، المرافقة للنطق ؛ وهى السبابة والوسطى ، الممتدتان مع قبض غيرهما لتمام التمييز ، والمفترق ما بينهما لكمال تمكن النظر ،ولتأكيد رؤية الجوار بلا فارق محس ، وتقرر مشاهدة الأصل الذى بسقتا منه ، رمزا إلى القرب الروحى الذى يجمع بين الرسول وبين هذا الإنسان الرحيم ، وإلى

---

(1) ينظر : نزهة المتقين شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ج ١ ص ٢٢٦.

القرب الروحى الذى يجمع بين الرسول وبين هذا الإنسان الرحيم ، وإلى طفولة النبى وحبه المكافئ للكافلين ؛ وفاء لمن شاركوهم فى البذل ورأفة بمن شاركوه فى الفقد ، هل يحمل اليتيم إلى قلبك صورة إصبعيه الشريفتين تقترنان باسم الإشارة فتكره هواك ، وتؤثر جوار الحبيب فى الجنة بإكرام اليتيم ... ؟ (١)

الحديث الثالث :

من حديث لأبى ذر ﷺ إن خليلى أبا القاسم ﷺ دعانى فأجبته فقال : " أترى أحداً ؛ فقلت أراه : ما يسرنى أن لى مثله ذهبا أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير ".

وفى رواية : " كنت أمشى مع رسول الله ﷺ وهو ينظر إلى أحد فقال : ما أحب أن يكون لى ذهبا تُمسْ على ثالثة ، وعِنْدى منه دينار إلا ديناراً أرصده لِدَيْنٍ إلا أن أقول به فى عباد الله هكذا حثا بين يديه ، وهكذا عن يمينه ، وهكذا عن شماله (٢) أخرجه الشيخان .

هذا الحديث الشريف يفسره قوله ﷺ : " يقول ابن آدم : مالى مالى وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست . فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ " (٣)

وقد سلك الرسول ﷺ فى تثبيت المعنى وتقريره فى نفس المخاطب هذا السؤال عن رؤية جبل أحد الذى وجهه لأبى ذر ﷺ وهو يرافقه وفى السؤال تنبيه واستحضار للفكر ، وفى مفاجأة المسؤول بالسؤال تنشيط للذهن ، وهو

---

(١) ينظر : الحديث النبوى الشريف من الوجه البلاغية ص ١٥٩ .

(٢) الحديث رواه البخارى فى الرقاق (باب المكثرون هم المقلون) وباب ما أحب أن لى مثل أحد ذهبا والاستقراض والاستئذان ج ١١ ص ٢٢٤ ، ٢٢٧ .

(٣) ينظر : تيسير الوصول : ج ١ ص ٨١ .

سؤال عن معلوم للمتكلم والمخاطب يستدعى أن يكون وراءه سر لازم على التقرير بالجواب ؛ والسر هو أن يتقرر أمر المرئى ضخامة واتساعا فى نفس أبى ذر ؛ ليقاس عليه قدره من الذهب الذى لو فرض أن يملكه الرسول ﷺ ما سره أن يملكه فينفقه فى متع الحياة وملزاتها من مأكل ومشرب وملبس وخلافة مما تستهواه النفس وترغبه ، ولكن يحب الرسول ﷺ لو فرض أن يملكه أن ينفقه فى وجه مدخر عند الله . درهم يسد به الرمق مما يقتات به ودرهم يستر به العورة ، ودرهم يبذله فى سبيل الله ، إذ ليس ككنزه ، وعليه عذابه إن لم يؤد حقه وهو ذريعة الشيطان إن أنفقه فيما لا يرضى الله ،وعليه عقاب إنفاقه .

وفى الحديث دعوة مؤكدة إلى الزهد والإقلال من اكتناز المال ، وحرص الإسلام على تصحيح المفاهيم والمبادئ السائدة ، كما أفاد الحديث أن الذى يتركه الإنسان من مال وإن كان فى الوقت الحاضر منسوبا إليه فإنه باعتبار انتقاله إلى وارثه يكون منسوبا له ، فنسبته للمالك فى حياته حقيقة وللوارث مجازية ، وبعد الموت تصير للوارث حقيقة ، كما أفاد أيضا الحث على ما يمكن تقديمه من المال فى وجوه الخير ليجد ثواب ذلك فى الآخرة .

الحديث الرابع :

عن أبى هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . ثم شبك بين أصابعه " (1) . رواه البخارى ومسلم .

هذا الحديث دعوة للمؤمنين أن يتعاونوا على البر والتقوى ، ولا يتعاونوا على الأثم والعدوان ، فإذا ما ساد بينهم هذا السلوك صاروا قوة عظيمة ، لا يقدر على هزيمتها أعداؤها ، شأنهم فى ذلك شأن البنيان المتين الذى يقوى

---

(1) ينظر : المجموعة النجدية : ص ٣١٠ من كتاب الكبائر ، وكنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق للإمام عبد الرؤف المناوى بهامش الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ١٢٤.

بعضه بعضا . وقد قوى هذا المعنى وقرره هذا التشبيه الجميل الذى عبر به رسول الله ﷺ حيث شبه حال المؤمنين عندما يسود بينهم الحب والتعاون والتآلف والترابط والتراحم ، كُلٌّ منهم يحث بما يحث به الآخر فيفرح لفرحه ويجزن لحزنه ، ويتألم لألمه بحال البنيان المتين المتماسك الذى لا تزعزعه عوامل الطبيعة بل يظل شامخا لا يتأثر بأى شيء منها ، فالأسلوب فيه التشبيه بالمحسوس ، ومن المعروف أن إخراج المعانى العقلية فى صورة الحس أشد تمكينا لها فى النفس وتقريراً فى البيان ، لأنها بذلك الوجه تتشخص وتتجسم ، فتأنس بها النفس وتسكن .

وقد زاد تقرير هذه المعانى وتأكيدها فى النفس فِعْلُ رسول الله ﷺ حين شبك بين أصابعه . هذه الصورة الفعلية تعد دليلا وبرهانا لما دعى إليه الرسول ﷺ المؤمن فى صدر حديثه ، فإن فى ضم اليد إلى اليد الأخرى وتشابك الأصابع بعضها ببعض دعوة فعلية وتوجيه عملى لما ينبغى أن يكون عليه المؤمنون فى حياتهم وعلاقاتهم فيما بينهم فيصبحون قوة تهابها أعداؤهم .

وهناك فى الحديث ملحظ وهو أن الرسول ﷺ عبر باللام دون مع فى قوله ﷺ " المؤمن للمؤمن " ولم يقل المؤمن مع المؤمن ، إشارة إلى أن المؤمنين كلما زاد عددهم وضم أحدهم للآخر وترابطوا فيما بينهم قويت شوكتهم وعظمت قوتهم كالبنيان كلما زادت فيه لبنة زادت صلابته وقوته . ففى الحديث دعوة إلى تماسك جميع المؤمنين فى مشارق الأرض ومغاربها تحت راية واحدة .

المبحث الثانى

ضروب التوكيد الفعلية وأسرارها البلاغية

فى أحاديث الترهيب

الحديث الأول :

عن بريدة ﷺ : قال قال رسول الله : ﷺ " هل تدرون ما مثل هذه وهذه ؟ ورمى بحاصتين - قالوا الله ورسوله أعلم : قال : هذاك الأمل وهذا الأجل . " (١)

هذا الحديث تكلم فيه رسول الله ﷺ عن أمل الإنسان وأجله بأسلوب فى قمة البلاغة حيث أستهله بجملة استفهام نيطت بعمل حسى مشاهد ،والسؤال بها عن مجهول مقيس على هذا المتميز المعلوم : حصاتين رمى بإحداهما قريبا وبالأخرى بعيداً .

وسيلة إيضاح حسية جذبت النظر إلى فعله عليه السلام ، تلاها السؤال عن الممثل له المجهول زيادة فى التشويق إلى طلبه ومعرفته .

فهل ينسى الصحابى الشاهد مكان الحصاتين قربا وبعداً ، والسامع سؤال النبى ﷺ فى حرص ؟ هلى ينسى أن المشبه بالحصاة القريبة الأجل فى قربه ،وبالحصاة البعيدة الأمل فى بعده ؟

إن سؤل رسول الله ﷺ الذى استهل به كلامه فى حالة رميه بالحصاتين كان له عظيم الأثر فى تثبيت المعنى وتقريره ، فإن النفس بالمشاهد أكثر إطمئنانا وأنساً .

---

(١) ينظر : تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ٤ ص ٩٩ .

إنه ﷺ يصور لنا سعة خيال الإنسان حتى تضل الحقيقةُ في متاهته ، وهيامه بالآمال الشاردة ، والموت أدنى من شراك نعليه ، وما أدق البيان الكريم في اختيار لفظى الإشارتين مطابقتين للبعد المسافى (هذاك) للأمل و(هذا) للأجل ! وأشد من ذلك دقة إلحاق إشارة الأمل بكاف الخطاب لشدة وعى المخاطب له ، وتمثله حاضراً ، وترك ذلك مع الأجل مطابقة لعدم التنبُه إليه ، لغياب صورته فى زحمة الآمال .

وقد حمل معنى هذا الحديث حديث آخر استخدم فيه رسول الله ﷺ وسيلة التأكيد والتقرير الفعلية للترهيب من طول الأمل والحرص على التعليق بالدنيا ، والسكون إليه ، وعدم التفكر فى الموت وقرب الأجل روى عن أنس رضي الله عنه قال : خط رسول الله ﷺ خطا وقال : هذا الإنسان ، وخط جانبه خطا وقال : هذا أجله ، وخط آخر بعيداً عنه وقال : هذا الأمل فبينما هو كذلك إذا جاءه الأقرب . (1)

الحديث الثانى :

عن أبى بكر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثا . قلنا : بلى . قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين ، وقتل النفس . وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا سكت ".(2)

استهل رسول الله ﷺ حديثه بأداة الاستفهام " الهمزة " الداخلة على " لا " ليثير بسؤاله انتباه المخاطبين ، وتشويقهم إلى معرفة المسؤول عنه " ألا أنبئكم "

---

(1) ينظر تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ١ ص ٤٣ .

(2) ينظر : صحيح البخارى فى كتاب الشهادات " باب ما قيل فى شهادة الزور ، وغيره ج ١٠ص ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ومسلم فى الإيمان (باب بيان الكبائر وأكبرها) (٨٧).

ليتمكن ويستقر فى نفوسهم . ثم إن فى تكريره ﷺ السؤال ثلاث مـــرات – ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ زيادة تشويق لمعرفة نوع الخبر وتأكيد له فى النفوس عند سماعه ، فهو بهذه الصورة تأكيد على تأكيد وتقرير على تقرير ، وكيف لا وهو أمر جد خطير ؛ إنه يتعلق ببيان أكبر الذنوب وأعظمها عقابا عند الله .

فأكبر الكبائر : الذنوب الكبيرة التى ورد فيها وعيد شديد فـــى القــرآن الكريم أو السنة ، وليس هناك ذنب أعظـــم مـــن الإشــراك بـــالله . وعقــوق الوالدين ؛ بأن يفعل مع أحد والديه ما يتأذى به من فعل أو قول . وقول الــزور وهو الكذب على غيره متعمد وكذا شهادة الزور .

ونظرا لخطورة هذا الأمر فقد اشتمل قول رســـول الله ﷺ علـــى عــدة مؤكدات خلاف ما ذكرنا منها : فعله ﷺ فقد كان عليه الصلاة والسلام متكئـــا فجلس عند الأمر الثالث وهو قول الزور ، وكان لفعله هذا دلالة عميقـــة فـــى ترسيخه فى نفوس السامعين وتقريره .

ومنها : استهلال هذا الأمر بأداة الاســـتفتاح التـــى زادت مـــن انتبـــاه المخاطب ولفت نظره ومنها أيضا : تكرير هذا الأمر لدرجة أن أشفق الصحابة على رسول الله ﷺ وتمنوا سكوته بقولهم " حتى قلنا : ليته سكت . "

حقا إنه معلم البشرية ، وهادى الإنسانية . مـــا دعاهـــا إلا بمـــا فيـــه سعادتها ، وما نهاها إلا عن كل ما فى شقاوتها .

لقد أفاد هذا الحديث أن الذنوب تتفاوت بحسب مفاســـدها . كمـــا أفـــاد الترهيب من عقوق الوالدين وشهادة الزور ، وأعظمها ذنبا الإشراك بالله ، ثـــم قول الزور ، كما أفاد أيضا مدى محبة الصحابة للنبى ﷺ وشفقتهم عليه .

إن هذه الأمور من أكبر الكبائر لما يترتب عليها من مفاســـد جســـيمه ، فالإشراك بالله بهتان وافتراء على الله ، وذلـــة وخضـــوع لغـــير الله وطغيـــان

وطواغيت ستتحكم بالناس كما تشاء ولا يغفر الله لصاحبه . قال تعـــالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ .(١)

وعقوق الوالدين نكران للجميل ونسيان لحق الوالدين ، واحتقار ، لأصالة الإنسان .

وأما شهادة الزور فهى مصدر بلاء وانحراف وجور وشر كبير ، وكمـا قيل : فإنها تدع الديار خاوية على عروشها . لذا كررهـــا رســـول الله ﷺ ، وكان متكئا فاعتدل عند التحذير منها .

الحديث الثالث :

عن ابن عمر ﷺ قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال : " كـــن فـــى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل " . وكان ابن عمر رضـــى ﷺ يقـــول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتـك لمرضك ، ومن حياتك لموتك . (٢)

إن العاقل هو من أتخذ الدنيا مزرعة للآخرة ، ومعبرا إليـــها ، وجعـل الآخرة مبلغ همه ، ومنتهى أمله وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، وعاش فى الدنيا عيشة من ليس له فيها رغبة ، وجعلها بلغة تقربه من الجنة وتبعده عن النـــار ، وكـــان المال وكل شيء من زخارف الدنيا وزينتها فى نظـــره ظـــلا زائـــلا ، وعارية مستردة ، واعتبر نفسه فى سفر دائم ، وارتحال لا ينقطع فـــهو إلـــى الموت سائر إن اليوم وإن غداً – وإنّ غداً لناظره قريب . الموت أقرب إليه من شراك فعليه .

---

(١) ينظر : نزهة المتيقن شرح رياض الصالحين ج ١ ص ٢٦٨ .

(٢) ينظر : صحيح البخارى فى الرقاق (باب قول النبى ﷺ كن فى الدنيـــا ..إلـــخ ١٩٩/١١ ومعنى : أخذ : أمسك ، بمنكبّى : بتشديد الياء : إحدى الياءين ياء التثنية ، يروى بتخفيـف الياء على الإفراد ،والمنكب بوزن مسجد : مجتمع رأس العضد والكتف لأنه يعتمد عليـه ، وإذا أمسيت . أى : دخلت فى المساء ، وهو لغة : من الزوال إلى نصـــف الليـــل ، وإذا أصبحت : دخلت فى الصباح ، وهو من نصف الليل إلى الزوال .

وهذا الحديث يحمل وصية غالية من رسول الله ﷺ إلى سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما خاصة وإلى أمته ﷺ عامة . هذه الوصية هى التحذيـــر مــن الدنيـــا وعدم التعلق بها . إلا كتعلق الغريب المسافر بغير وطنه ؛ فإن الغريب وعـــابر السبيل لا يتعلقان فى دار الغربة بما يثقلهما عـــن الســـفر ، أو يعوقـــهما عـــن المضى ، من المآرب الحسية أو المعنوية ، زاهدان فى أكثر مما يبلغهما المحل من زاد وثوب ومركب ، لأن فى الزيادة مغرما يشق عليهما ، وإنما يحـــرص على مثل ذلك المقيم .

هذه حال يعرفها ابن عمر ، ويعرفها كل الناس ، لأنها مـــن المقـــرر المحس ، المكرر المعلوم ، والرسول ﷺ يطلب من عبد الله بن عمر أن يكـــون حاله فى الدنيا شبيها بحال الغريب أو عابر السبيل فى عدم التعلق بما يثقله مـــن متاعها الخادع الذى يعوق همته ، ويشغل قلبه عما هو أحق ، إذ الدنيا طريـــق غربة يفضى بكل نفس إلى دار إقامة وقرار .

ولما كان فى الدنيا وجدنا ، وعلى آثار آبائنا درجنا ، وجعل الله لنا فيـــها تملكا يباح ، وأوطناً تصان ، وعنها يدافع ، لم يظهر معنى الغربة للإنسان فـــى داره ، ولذا كانت البلاغة النبوية تقتضى فى التشبيه وضع الأداة (كأن) لحمل حال بحاجة إلى أن تتقرر على أخرى مقررة معلومة ، وهذه العبارة اقرب إلـــى طبيعة الناس والحياة مما لو كانت العبارة : " إنك فى الدنيا غريـــب أو عـــابر سبيل " . لأن العبارة الأولى ،والثانية تنزع هذا الحـــق فتصرفـــه صرفـــا ، وتجعله سفيها فى تشبثه به ، مهما كانت العلاقة بينه وبينه . ([1])

وهذه الصورة التشبيهية تترك خيال ابن عمر وخيالنا يصور لنا أوصاف الغريب وعابر السبيل عند وقوفنا من الدنيا على نوافذ الأمال وأبواب المطامع ،

([1]) ينظر : الحديث النبوى الشريف من الوجه البلاغية ص ١٤٤ بتصرف .

فتحد من جموحنا الشارد ، أو تورطنا المهلك ، وعند نظرنا إلى مـــا تعــودت الأقدار أن تسلبه منا ، فلا تحزن لفقده حزن الهالكين.

وقد أكد هذا المعنى وزاد من حرصنا على هذه الوصية فعل الرسول ﷺ بسيدنا عبد الله بن عمر حين أمسك بمنكبيه عند وصيته له ، فــإن الصحــابى الجليل لا ينسى هذا الموقف ، وكذا سامع الحديث . فالمرء لا يمسك إلا بمــن يحبه ويحرص على الخير عند توجيهه وإرشاده .

ويستفاد من الحديث حب الرسول ﷺ لعبد الله بن عمر وتنبيهه إلى مـــا يقولـــه له والمبادرة إلى عمل كل شىء فى وقته ، والحـــض علـــى تقصـــير الأمل ، والترهيب من طول الأمل والركون إلى دار الدنيا ، فشأن عابر الســبيل أن يكون راضياً بكل ما يجده من عناء وتعب وجوع ونصب ، وهو يمنى نفسه بقرب العودة إلى من يجد عندهم الراحة والنعيم . كما يستفاد من الحديث أنـــه على الإنسان أن يغتنم فرصة حياته وصحته للمزيد من الطاعة ، وعدم التبــاطؤ فيها ، فإن الصحة والحياة غنيمتان للمؤمن يجب أن يستفيد منهما بأعمال الخــير فلا ينبغى أن يفرط فيما لا ينبغى فى أخرته .

الحديث الرابع :

عن أنس بن مالك ﷺ قال : " ضحك رسول الله ﷺ فقال : هل تـــدرون مما أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال من مخاطبة العبد ربه فيقول يـــا رب ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول بلى . فيقول : إنى أجير اليوم على نفســـى شاهداً إلا منى . فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، والكــرام الكــاتبين عليك شهودا . قال : فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقى ، فتنطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بُعْدًا لَكُنَّ وسحقا فعنكن كنت أناضل .[1]

---

[1] ينظر : تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ٤ ص ٩٩ .

يصور هذا الحديث الشريف موقفا من مواقف يوم القيامة عندما يقوم الناس لرب العالمين للعرض والحساب . موقفا يظهر فيه طبيعة الإنسان التى جبل عليها وهى كثرة مجادلته حتى مع ربه قال تعالى . ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ .(1)

وقد استهل رسول ﷺ هذا الحديث بوسيلة حسية تسترعى الانتباه وتلفت الأنظار وهى الضحك المفاجئ ، دون أن يعلم أصحابه سببه ، والمعروف أن ضحكه عليه السلام كان تبسما . وقد أفاد فعله هذا إيقاظهم ولفت أنظارهم إليه لمعرفة سبب ضحكة المفاجئ عليه الصلاة والسلام ، وبعد يقظتهم ولفت أنظارهم إليه سألهم عن أمر يجهلونه : هل تدرون مم أضحك ؟ ، زيادة فى التشويق ، واستحضاراً للقلوب ، وهم أعقل من أن يجيبوا بما لم يعلموا ، إذ هو أمرُ مرجعه إليه .

وقد أفاد كل هذا تقرير الخبر وتوكيده فى نفوس سامعيه ، فالقصة هى قصتهم ، وهى أيضا : قصة كل البشر ، وهى مهمة للغاية ، لأنها مصير محتوم لكل حى ، ينبغى الأعداد له قبل المباغتة ، فإيقاظ المخاطب بتلك الطريق لها دقة تبلغ المعجزة فى طرق التعليم ، وهى فضلا عن ذلك قصة الغيب المرتقب ، فهى أولى بأن يمهد لها هذا التمهيد المؤنس للنفس ، لتنزل منزلة العظة والأناة .

وقد أفاد هذا الحديث : الترهيب من يوم الحساب ، والإعداد له ، فإن الله لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء . وأن الإنسان سيحاسبه على كل ما قدمته يداه ، يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر .

---

(1) سورة الكهف : الآية (٥٤) .

الفصل الثانى

ضروب التوكيد اللفظية فى أحاديث الترغيب والترهيب

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : ضروب التوكيد اللفظية وأسرارها البلاغية فى أحاديث الترغيب .

المبحث الثانى : ضروب التوكيد اللفظية وأسرارها البلاغية فى أحاديث الترهيب .

المبحث الأول

ضروب التوكيد اللفظية وأسرارها البلاغية

فى أحاديث الترغيب

أشرت فى التمهيد عند الحديث عن أهم ضروب التوكيد إلى أن التأكيد اللفظى هو أظهر أنواع التوكيد وله طريقان .

الأول : أن يكون بإعادة الجملة أو شيء منها على الوجه الذى يلمس المتكلم حاجة المعنى إلى إعادته .

الثانى : أن يكون بأداة وضعتها اللغة أو العرف البلاغى لإفادته .وفى هذا المبحث سأقوم بعرض أمثلة من البيان النبوى تمثل كلا الطريقين

الطريق الأول

إعادة الجملة الأولى أو شيء منها

تعد الإعادة والتكرار – كما أشرت – سنة بيانية من سنن العرب ، جاء عليها القرآن الكريم والحديث الشريف بقصد العناية والاهتمام بالأمر المراد إبلاغه .

وقد صرح بهذه الغاية التى يقصد إليها معلم البشرية ﷺ أنس بن مالك رضى الله عنه إذ يقول : كان رسول الله ﷺ يعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه . ([1])

ويضع صحيح البخارى باب إعادة الحديث بهذا العنوان " باب من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه " فيذكر الخصيصية والعلة ، ويزيد الخطابى فيقول : إعادة الكلام ثلاثا إما لأن من الحاضرين من يقصر فهمه عن وعيه فيكرره

([1]) ينظر : تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ١ ص ١٩٨ .

ليفهم ، وإما أن يكون القول فيه بعض الأشكال فتتظاهر بالبيان ، وقال أبو الزناد : أو أراد الإبلاغ فى التعليم والأجر فى الموعظة . (١)

وهذه مجموعة من أحاديث رسول الله ﷺ تمثل هذه الظاهرة فى مقام الترغيب .

الحديث الأول :

عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ " ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ،وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط " .(٢)

يعرض الرسول ﷺ على أمته ممثلة فى أصحابه ، معرفة أمور بسببها يمحو الله الخطايا ويرفع الدرجات ، ليستثير كوامن شوقهم ،وليبعث عظيم انتباههم ، وهم أشد الناس خوفا من صغير الذنب فضلا عن كبيره ، وأعظمهم حرصا على الصعود فى معارج الجنات .

والرسول ﷺ بفطنته يستطلع هذا الانتباه فى التفاتهم وجوابهم ، فيبين لهم أن هناك أمور ثلاثة يعتقد أنها يسيرة تكفل تلك الغاية العليا التى يتطلع إليها كل مؤمن حريص على الفوز برضى الله .

وقد يكون أمر الصحابة أنهم لم يجدوا فيما نبههم إليه جديدا ، ولم يذهب بهم عنه بعيدا فيفتر الأثر فى نفوسهم ، ولكن النبى ﷺ يرشدهم بما لا غاية فوقه من التقرير والتأكيد إلى فعل هذه الأعمال مع يسرها ، ليرسخ فى العقيدة ، ويظل حاضراً فى القلب ، وكأنه يقول ﷺ : إذا عرفتم ذلك فذلكم هو الرباط .

ورباط الخيل كناية عن عسكرة الجيش استعداداً للمفاجأة بالغزو أو الدفاع عن النفس والدين والوطن .

---

(١) ينظر : عمدة القارئ ج ٢ ص ١١٥ طبعة منير الدمشقى .

(٢) الحديث رواه مسلم فى كتاب الطهارة (باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره) ٢٥١ .

ما أدق التمثيل فى الحديث الشريف ، وما أدق تعبيره ، إن اسم الإشـــارة – فذلكم – يدل على التفخيم ،وزيادة فى تنبيه المخاطبين لإفادتها اختصـــاص الإشارة به إليهم ، ثم وقوعه مسند إليه ، والمسند معرف باللام (الرباط) يفيـــد قصره عليه ، وكأنه ﷺ : لا رباط إلا ذلكم المشار إليه لكمال المعنى فيه ولئـــلا تتوهم المجازفة فى الأخبار عنه بهذا الخبر مع الجهاد المسلح من فضل ظاهر ، قطع تكرار العبارة كل وَهْم ، وأكد ذلك المعنى تأكيداً لا مساغ للشك بعده . (1)

وبالنظر فيما دل عليه الرسول ﷺ وحث عليه من إحســـان الوضـــوء ، وكثرة الذهاب إلى المساجد وانتظار الصلاة فيها ، ورباط الجند للجهاد فى سبيل الله تتجلى أمامنا فصاحة رسول الله ﷺ وبلاغته ، وحسن ربطه بين المعانـــى ، حيث إن رباط الجيش فرض كفاية ، والصلاة بأوقاتها فرض عين ، وإن ربـــاط الجيش فترة لها غاية ، ورباط المؤمن للصلاة مد الأجل .

إن رباط الجيش لحرب عدو وهو الإنسان أخو المحارب فـــى الجنـــس وعساه أن يسلم أو يستكين ، ورباط المؤمن للصلاة لحرب عدو غـــير ظـــاهر يرانا ولا نراه : هو الشيطان الذى اخرج الإنسان من الجنة فدلاهمـــا بغـــرور وأقسم : لأضلنهم أجمعين ، وجاهر الله متوعداً : " ولا تجد أكثرهم شـــاكرين " ثم إن رباط الجيش عبادة فعليه ، ورباط المؤمن للصلاة عبادة فعليـــه أيضـــا ، وصله قلبيه ، وذكر وقرآن ، وتنفرد ولا ينفرد عنها رباط الجيش ، فهى أكـــد فى مفهوم العبادة .(2)

والحماس للغزو طبيعة فى النفس لغير دين ، ولأتفه سبب ، ويشارك فيه الحيوان الإنسان ، ولذا فهو من هوى النفس وإن لم يكن دِينا ، وعـــادة النفـــس الكسل عن الطاعة والفتور عن الصلاة والتسويف فى الأداء ، لإلقاء الشـــيطان

---

(1) ينظر : الحديث النبوى الشريف من الوجه البلاغية ص ٩٣ بتصريف يسير فى العبارة .

(2) ينظر : نزهة المتقين شرح رياض الصالحين ج ٢ ص ٣٧ .

فى أمنية الإنسان عفو الله وصفح الله ، فإسباغ الوضوء على المكاره قمع له يحتاج إلى العزيمة والحزم ، لما فى لفظ الإسباغ من دلالة على الاستيعاب ، ولما فى الوضوء من تكرار بتكرار الصلوات ، ولما فى الجار والمجرور (على المكاره) من انتصار للنفس على انتحال الأسباب الداعية إلى التقصير ، وكثرة الخطأ إلى المساجد دحر لوسوسة أن يخاف المؤمن الحر والبرد ويتعلل بالضيف أو الضعف فيفوته إما أداء الصلاة ، وإما فضل الجماعة وأجر الخطأ إلى المسجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة قهر للمعصية ، ونهى عن الفحشاء والمنكر اللذين هما حظ الشيطان ، وكلمة " انتظار " فى الحديث تدل على يقظة المؤمن وترقبه ما ينتظر ، ولا يترقب وينتظر إلا المهم العظيم ، ألا يكون ذلكم هو الرباط ؟ ألا يفسر هذا قوله عليه الصلاة والسلام وهو فى طريقه راجعا من إحدى الغزوات وقد ابلى المؤمنون فيها بلاء حسنا : " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ؟ " . (١)

إن الذى يقدر على الرباط المسلح هو الذى يعد نفسه له بمثل هذه الأمور ، وعليه فليتعلم المرابطون هذا النوع العظيم من الجهاد ليحرزوا النصر ويفوزوا بالنجاح والفلاح .

الحديث الثانى :

عن أبى هريرة ﷺ قال : جاء رجل فقال : رسول الله ﷺ من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك ؟ قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك ".(٢)

---

(١) ينظر : كشف الخفاء ومزيل الإلباس ج ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ .

(٢) الحديث رواه البخارى فى الأدب " باب من أحق الناس بحسن الصحبة ٣٣٦/١٠ - ومسلم فى أول البر والصلة (باب بر الوالدين وأنهما أحق به) (٢٥٤٨) .

هذا الحديث الشريف يبين فضل الآباء وحقهم على أبنائهم . فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وهو الصحابى الجليل معاوية بن حيدة يسأله عن أحق الناس بحسن الصحبة والود والرحمة والعطف فأجابه الرسول ﷺ بقوله أمك وبعد الإجابة الأولى أراد السائل أن يعرف من يلى الأم فى زيادة الحرمة وأحقية حسن الصحبة ، فأراد ﷺ أن يقرر فى نفسه واجب حسن الصحبة للأم ، فأعاد الجواب السابق ، ولم يتوقع أنه إذا سأله للمرة الثالثة عن التالى للأم فى ذلك أن يجيبه بنفس الجواب ،ولكن هذا الذى قد كان .

ويعنى ذلك منه ﷺ وتأكيدًا لا يأتى معه غبن ، وإذا كان الله سبحانه قد سوى بين الوالدين فى خفض جناح الذل من الرحمة ، وفى الإحسان العام إليهما ، وعدم الخروج عليهما بالتأفف من حال يضيف بها الابن منهما فى قوله تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ .(1) .

فقد خص الأم بالحمل كرها والوضع كرها ، وبالحمل وهنا على وهن ، ذكر الزمن الذى هو أشد عليها من عمر ولدها أجمعه ، فقال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾.(2) وقوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ .(3) ليبين كم فى هذه الثلاثين للأم من سهر وضنى يكفل لها — لو انفرد — أن

---

(1) سورة الإسراء : الآيتان (٢٣ ، ٢٤) .

(2) سورة لقمان : الآية (١٤) .

(3) سورة الأحقاف : (١٥) .

تستحق المكافأة بأعظم البر والحنان . ولذلك نرى أن تكرار اللفظ النبوى فى الجواب حتى ذكر ثلاث مرات كالتنبيه لهذه الثلاث : الحمل كرها ، والوضع كرها ، والفصال وما فيه من المشاق ، فإذا لوحظ أن السائل كان يعطف جملة السؤال بـ (ثم) تشعر من صنيعه أنه كان يريد النقلة بعيدا عن الأبوين ، ظنا منه أن عرفان حقهما أمر مفروغ منه ، فكان تصدير الجواب بنفس الأداة انتقالا بالسائل إلى مرحلة أبعد مما يعرف من حق الأم ، لأنه أعلى وأكد من صورة عامة تدور فى خلده ، فالجنة تحت أقدام الأمهات ، كما أخبر المعصوم فى حديث آخر ، ليجعل أنظار قلوبنا تحت أقدامهن هضماً للنفس وخفضا للجناح مهما كان حظهن من نقص الثقافة ، وحظنا من علوها ، وحتى لا نؤثر عليهن عزيزا من مال أو زوج أو ولد .

فالإجابة الأولى هى حق السائل المتعلم ، والثانية هى حق السائل المستشرف جديدا والمشعر للمسؤول بهذا المراد ، إذا لو لم يكن كذلك لأتى برباط غير (ثم) كالواو أو الفاء ، والإجابة الثالثة هى حق السائل الذى بلغ الغاية من الانتظار وإيراد الرسول ﷺ كل ذلك بالجملة المقدر صدرها إيجازا أولا ، والخالية ثانيا وثالثا من خصيصة التأكيد بالأداة إشارة لطيفة إلى أن هذا — وإن دق — أمر مما يجب أن يعلم ، وقد أكتفى بتصعيد واجب الأم وحقها إلى هذا الحد بالتكرار المقرر والمؤكد لهذا المراد .

وإذا كان الأب وهو من هو فى حياة الولد وأمه وقع فى رابع المنازل وآخرها ، فوقعه كذلك يطبع واجب الأم السابق بطابع الجزم ، فليس فيه جموح بالخيال ولا غلو ، فالبنت الفطيم تتخذ من الدمى أولادا ، ثم يعيش هذا فى خيالها أملا عزيزا ، فإذا تأخر بعد الزواج حَمْلُها شقيت بأملها إلى أن يهبها الله إياه ، فإذا وَهبَته كان مسكنه أحشاؤها تنال فيه من الجهد ما تنال ، فإذا طالعها بعد الجهد والضنى تفجر له ثديها بالغذاء حنانا وعطفا ، وارتبط حسها بحسه :

ببغامه ، وإشارته ، ونظرته فى الغضب والرضا . لذا كرر الرسول ﷺ حق الأم فى حسن الصحبة ليؤكده ويقرره فى نفس السائل ، ولم يكن رسول الله ﷺ مع هذا مغاليا فيما أوجب من جعل حقها أعلى وأكد مما سواه من الحقوق .

ويستفاد من تكرير الرسول ﷺ لفظ الأم زيادة الوصية بها لضعفها وحاجتها ، وأن إكرام القرابة ليس على درجة واحدة ، كما استدل الفقهاء بهذا الحديث على أن الرجل إذا وجب عليه نفقة أبيه وأمه ، ولا يملك إلا نفقة أحدهما قدمت الأم .[1]

الحديث الثالث :

عن جابر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ " غفر الله لرجل كان قبلكم : سهلا إذا باع ، سهلا إذا اشترى ، سهلا إذا اقتضى " . [2]

الحديث الشريف فيه إخبار بالغفران المجزم به لمن توافرت فيه هذه الصفات ، حيث إنه جاء بصيغة الماضى المسند إلى الله عز وجل ، والمختص بمبهم نكرة ، مهد بتنكيرها للوصف بالجملة ، وذلك على سنة البيان الكريم من بعث همة السامع وتشويقه للخبر بمثل هذه المقدمات ، وقد جاء المهم المراد بيانه بعد أن اشرأبت له الأعناق وصفا يكشف سبب الغفران للرجل المكرم به ، وهو سهولة معاملاته ولين جانبه مع البائع والمشترى والمدين ، ويدل هذا بالأولى والأبلغ على بقية أنواع التعامل ، إذ أن ما ذكر فى الحديث هو المظهر الأقرب لانطباع النفس بهذا الخلق الكريم ، وقد تكرر الوصف بالسهولة فى الأمور التى تقع فيها المشاحة غالبا ، ليقرر بالتكرار أن السهولة كانت جبلة وطبعا ، فلم تكن فى البيع رغبة التخليص من سلعة كاسدة ، ولا فى الشراء

---

[1] ينظر : نزهة المتقين شرح رياض الصالحين ج ١ ص ٢٥٧ .

[2] ينظر تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ١ ص ٥٣ .

لانفراد السلعة وإلجاء الحاجة ، ولا فى الاقتضاء خوف الإهانة من مدين شرير .

تؤكد هذا تلك المطابقة التى لم يقصد بها التحسين لعبا بالألفاظ ، إذ جاءت يقتضيها المقام ، وتقديم الوصف الواقع سببا وهو كلمة " سهلا " على ظرفه الشرطى " إذا " فى كل مرة تأكيدا آخر ، لأنه يدل على الاهتمام به ، وإذ هو مناط المغفرة ، فقد كان صحيحا لو قيل : إذا باع سهلا ، وإذا اشترى كان سهلا ، وإذا اقتضى كان سهلا . وبالمقارنة بين التعبيرين تظهر بلاغة العبارة النبوية فى التقديم ، والإيجاز ، والحذف . (1)

ينضم إلى هذا أن الفصل بين المكرر إيذان بأن ذكره إنما هو على سبيل المثال ، بحيث يكون ما ذكر نموذجا لما لم يذكر ، كما أن وقوع " إذا " مكان أداة شرط أخرى ، يفيد التقرير بصفة أوسع لطابع السهولة فى أخلاق الرجل فهى للظرفية ، وطردها مع هذه المعاملات الممثل بها لما سواها يساوى ما لو قيل : سهلا فى عموم أوقات المعاملة ، ومن جانب آخر هى أداة الوقوع والحصول ، فهذه الأمثلة المعبر عنها بالماضى كلما وقع منها شيء اقترن به طبع الرجل من السماحة ولين الجانب . لذا استحق هذه البشارة العظيمة من رسول الله ﷺ

الحديث الرابع :

عن عبد الله بن مغفل من صحيح الترمزى قوله ﷺ : " الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضا بعدى فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم ، فببغضى أبغضهم ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ومن آذى الله يوشك أن يأخذه " .(2)

---

(1) ينظر الحديث النبوى الشريف من الوجة البلاغية ص ٩٥ بتعرف .

(2) ينظر الجامع الصغير ج ١ ص ٤٦ .

بالنظر فى هذا الحديث الشريف نلحظ أن صدره تكرر فيه لفظ الجلالة لتأكيد التحذير . أو لتأكيد الإغراء ، يساعد المعنى على تقدير أحدهما ، فيكون على معنى : احذروا غضب الله بسبب النيل منهم باتخاذهم غرضاً ، أو يكون على معنى : إلزموا تقوى الله بسبب إكرامهم ، وعلى كلا الوجهين فالتحذير المكرر أو الإغراء المكرر يدل على إعظام السبب وإكباره ، ويستلزم إكبار الصحابة وإكرامهم على وجه التأكيد .

ثم نجد فى باقى الحديث ألفاظاً أعيدت . وهى وإن كان تكرارها يستلزمه بناء المعنى على المكرر – تُقَرِرَ تكريم الصحابة ، وتزيد من إكبارهم : " من أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم " والمقابلة بين الجملتين تحمل معنى التأكيد فى تصوير اتحاد شأنهم بشأنه حباً وبغضاً ، وهذا الاتحاد ارتفاع إلى درجة أعلى فى تقرير السبب الذى من أجله حذر أو أغرى ، وارتفاع بالتشنيع والتفظيع لاتخاذ الصحابة غرضاً يرمى ، وليس هذا آخر تأكيد ، بل يصعد الرسول ﷺ المعنى فينقل ذلك الاتحاد بين حبه وحب صحابته إلى درجة أشد مهابة وجلالاً ، لا يعبر عنها بصريح لفظ المحبة ، يفهم ذلك :

أولاً : من نزاهة أسلوبه من كثرة الترديد اللفظى على وتيرة واحدة .

وثانياً : أن ذكر اللازم الدال على هذا التصعيد يؤكد الربط بالمحذر منه أو المغرى بتفاديه فى الكلام السابق ، حتى تظل أواصر النسق متلاحمة . ذلك السابق هو : لا تتخذوهم غرضاً بعدى " إنه يساوى : لا تؤذوهم فى الدلالة العامة ويزد معنى القصد ؛ لأن اتخاذ الشئ غرضاً يدل على العمد ، ويترتب عليه جملة " من أبغضهم " كالتعليل له ، تأكيداً لهذا القصد ، وهنا نجد النسق قد حصل على الموازنة المعنوية فى جانب البغض وجانب الحب ، فقلبٌ واحد لا يحمل حب الرسول ﷺ وبغض أصحابه ، وذلك لاتحاد البغض للصحابة بالبغض للرسول ﷺ.

والدرجة التى هى أشد مهابة وجلالاً فى تصعيد المعنى حتى يكون عند قمتها صدور الحكم بالجزاء ، هى إيصال الأذى إلى الله ؛ لأن الله ورسوله وأصحاب رسوله فى جهة واحدة ، من قَصَدَ إلى واحد منهم بحب قصدهم جميعاً فكان معهم ، فالله يقول : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . (١)

وخاصة المؤمنين صحابته رضوان الله تعالى عليهم . ولأن فى الجهة الأخرى المبغضين والمؤذين الذين حقت عليهم كلمة العذاب بذلك السبب من بغضهم .

فالملاحظ أن البيان الكريم يحدونا على درج مريح إلى قمة الحكم نشرف منها على الغرض منه ، وكم حمل من آيات التأكيد والتقرير ، إعلاء لشأن أصحابه ، واحترام حقوقهم من الإمامة والسبق ، وعرفاناً لحرمة التفافهم حوله عليه الصلاة والسلام ، تنعكس على قلوبهم انطباعاته قولاً وفعلاً وتأثيراً ، ثم تفيض علينا ديناً وجهاداً وبذلاً .

الحديث الخامس :

عن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : " عليكم بالصِّدْق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً " . (٢)

---

(١) سورة الأنفال : الآية (٦٤) .

(٢) رواه مسلم جـ٤ كتاب البر والصلة والآداب ، باب قبح الكذب ، وحسن الصدق ، وفضله ، حديث رقم : ٢٦٠٧ .

هذا الحديث الشريف يرغب فى الصدق ويحذر من الكذب وقد بدأ بأسلوب إغراء " عليكم " لأن السامع إذا طرقت سمعه هذه الكلمة وهى بمعنى : إلزموا الصدق ، انتفض من شواغله ، وألقى انتباهه ، وبخاصة إذا عرف فى مُغريه حرص الناصح الأمين . كما بدأ المحذر منه وهو الكذب بأسلوب التحذير " إياكم " ليجتنبه المخاطب ويبتعد عنه .

إنها وصية جامعة لخصال الخير كلها ، يتلقاها المؤمن بقلبه ، فيستوعبها عقله وفكره ، فلا يجد وصية مثلها ، يستريح لها ضميره ، إلا إذا كانت فى حَيِّزها وتحت سلطانها ؛ إذ ليس وراء الصدق من مطلب ، فهو الإيمان فى أسمى صوره ، وأرقى معانيه ، وقد سمى الله الإيمان صدقاً فى كثير من الآيات ، فقال جل شأنه : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ . [1] أى : ينفع المؤمنين إيمانهم .

والصدق فى اللغة : القوة المادية والمعنوية ، يقال : سيف صدق ، أى قوى صلب . ويقال : رجل صدق ، أى : شجاع مقدام ، يقول الحق ، ولا يخشى فى الله لومة لائم . وهو يعنى الثبات فى مواطن الجهاد والعزّ والشرف .

ومن معانى الصدق أيضاً : الصلاح ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [2] . أى عملاً صالحاً ، قدموه لأنفسهم .

ولو تتبعنا لغة القرآن لوجدنا له من المعانى أكثر من هذا ، وكلها تنبع من الإيمان وفيه تُصَبُّ ، فما من صفة محمودة إلا وهى شعبة منه .

وإذا كان الصدق هو الإيمان ، والإيمان هو الصدق ، فإن كل شعبة إيمانية يكون موردها ومردها منه وإليه .

---

[1] سورة المائدة : الآية (١١٩) .

[2] سورة يونس : الآية (٢) .

فالأمانة صدق ، والوفاء صدق ، والصبر صدق ، والشكر صدق ، كل ذلك وما إلى ذلك من سائر الشعب والخصال الإيمانية مبناها عليه ومنتهاها إليه .

ومن هنا نعلم مقدار هذه الوصية ومكانتها فى نفوس المؤمنين . وهذه الوصية تتضمن من الوسائل التربوية ما يغرس فى النفوس الأَبِيَّة جميع الفضائل الإنسانية والمكارم الخلقية بلا استثناء .

فقوله عليه الصلاة والسلام " عليكم بالصدق " — كما أشرت — أسلوب حكيم يُسميه علماء اللغة : أسلوب إغراء ([1]) ، أفاد تزيين وتشويق ، وتهييج للعواطف وشحذ للعزائم ، واستنهاض للهمم ، وإلزام بالشئ المغرى به على وجه السرعة ، واغتنام ما فيه من خير وإصلاح ، وهو أقوى من أسلوب الأمر بصيغة (افعل) ، لما فيه من المعانى التى ذكرناها ، إذ الأمر بهذه الصيغة يبرهن على أنه رحيم بالمأمور ، حريص عليه ، راغب فى تحصيله لخير ما أمره به على أتم وجه وأحسنه .

كما أن فى هذا الأسلوب دعوة إلى التدبر فيما أمره بفعله ، وكأنه يحمل إليه سلفاً عاجل البشرى بما يترتب على امتثاله كما ينبغى أن يكون الامتثال .

والمعنى : تعرَّفوا على الصدق فى مواطنه ، واستشربوا حبه فى قلوبكم ، وألزموه فى جميع أقوالكم وأفعالكم وأحوالكم ، مع ربكم . عز وجل . ومع أنفسكم ومع الناس أجمعين ، ولا تفرطوا فى تحرِّيه أبداً ولو كانت السيوف على رؤوسكم ؛ فإن فى الصدق نجاتكم ، ولاتلجأوا إلى التعريض والتورية إلا عند الضرورة القصوى ، واتخذوه دينكم ، لأن

([1]) ينظر : شرح ابن عقيل : جـ٣ ص (٣٠١) .

فيه عصمة أمركم وصلاح دينكم ودنياكم ، وهو برهان صحة إيمـــانكم وسلامة قلوبكم ، وحسن توكلكم على ربكم .(1)

وقد أكد النبى ﷺ هذا الأسلوب الحكيم بأكثر من مؤكد .

أولا : أسلوب الإغراء : عليكم بالصدق لما فيه من التشـــويق والحـــس علـــى التمسك به والترغيب فى جعله سلوكا طابعا للمرء .

ثانيا : استخدامه " إنَّ " الدالة على التوكيد فى قوله ﷺ " فإن الصدق يهدى إلى البر وإنَّ البر يهدى إلى الجنة " .

ثالثا : جعله ﷺ الصدق طريقا موصلا إلى البر الذى هو جمـــاع كـــل خـــير والموصل بدوره إلى الجنة التى هى أمل كل مؤمن . فهى جملة تقليديـــة لأمره ﷺ بالصدق ، وبيان لعاقبته .

رابعا : التكرار اللفظى لكلمة الصدق حيث ذكرت أكثر من مرة فـــى أســـلوب ترقىّ يسمو بأصحابه إلى أرقى الجزاء وأسمـــاه فقال : عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر " وكان من الممكن قوله : فإنه يـــهدى إلـــى البر ، ثم قوله : " وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتـــب عند الله صديقا " وكان من الممكن أن يقول : وما يزال الرجل يصـــدق ويتحراه ... إلخ دون تكرار لكلمة الصدق إلا أن فـــى التكريـــر لـــهذه الكلمة من التقرير والتأكيد ما فيه ، أضف إلى ذلك ما يوحى به ســـماع هذه الكلمة من معانى ، وكأن الرسول ﷺ يرغب فـــى كـــثرة ذكرهـــا وترددها على الألسنة والإنصات عند سماعها .

وإذا كان تحرى الصدق يسمو بالمرء إلى مراتب الصديقين فإنها منزلـــة المقربين بعد النبيين وهم جميعا فى الجنة رفقاء قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِعْ اللَّـــهَ

---

(1) ينظر وصايا الرسول وأثرها فى تقويم الفرد وإصلاح المجتمـــع للدكتـــور محمـــد بكـــر إسماعيل ج ٢ ص ٢٦٣ .

وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ .(1)

وكما رغب رسول الله ﷺ فى الصدق وشوق إليه حذر من الكذب ونفر منه فقال :

" وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار " .

وهذا التحذير بعد توكيد وتقرير للأمر بالصدق ؛ لأن الأمر بالشيء يستلزم النهى عن ضده – كما يقول أكثر علماء الأصول – لكنه لما كان الإيصاء بالصدق أمراً فى غاية الأهمية أتبعه بهذا التحذير ؛ مبالغة فى تحرى الصدق فقال : " وإياكم والكذب " أى : لا تقربوه ، ولا تحوموا حوله ،ولا تسلكوا من المسالك ما يحملكم على ارتكابه .

وهذا الأسلوب يُسمَّى عند أهل اللغة : أسلوب تحذير (2) . وهو ضد الإغراء .

وذلك لأن الكذب من أبغض الخصال إلى الله تبارك وتعالى ، فهو أم الكبائر ، وينبوع الرذائل ، وأساس الشر كله . وهو أفك يأفك صاحبه ، إذ أنه يصرفه عن البر ويبعده عن مواطنة ، حتى يكتب مع الفجار ، فيكون مصيره النار وبئس القرار. حببنا الله فى الصدق والصادقين ، وجنبنا الكذب والكاذبين .

---

(1) سورة النساء : الآية (٦٩) .

(2) ينظر : شرح ابن عقيل ج ٤ ص ٣٠٠ .

الطريق الثانى

التوكيد بأداة وضعتها اللغة أو العرف البلاغى

هناك أدوات فى اللغة العربية وضعت لإفادة معنى التأكيد لمضمون ما تدخل عليه من الجمل ، يختلف التعبير بوضعها وجودا وعدما ، وبمضاعفتها عند الوجود باختلاف المقام ، خفى سرها على بعض السابقين غير المشتغلين باللغة فاعترضوا على تلون الأساليب من جهتها ظنا غافلا أنها سواء فى الغاية .

يروى الأمام عبد القاهر (1) عن ابن الأمبارى أنه قال : ركب الكندى المقفلسف إلى أبى العباس وقال له : إنى لأجد فى كلام العرب حشوا : فقال أبو العباس : فى أى موضع وجدت ذلك ؟ فقال أجد يقولون : عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله لقائم ، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد .

ثم يروى إجابة أبى العباس على الوجه الذى ورد فى أضرب الخبر من أن الجملة الأولى خبر لخالى الذهن ، والثانية للمستشرف الطالب والثالثة للمنكر . والكلام قد يؤكد جوابا ولكنه أيضا قد يؤكد ابتداء لأنه مما يهتم به ، أو من شأنه أن يشك فيه ، أو ينكر لغرابته أو مفاجأته أو غيرها ، يقول عبد القاهر الجرجانى : ينبغى أن يعلم كما يكون " التأكيد " للإنكار قد كان من السامع ، فإنه يكون للإنكار يعلم أو يرى أنه يكون من السامعين ، وجملة الأمر أنك لا تقول : إنه لكذلك حتى تريد أن تضع كلامك وضع من يزع فيه عن الإنكار.(2)

---

(1) هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى الإمام النحو المتكلم على مذهب الأشعرى الفقية الشافعى واضع أسس البلاغية والمشيد لأركانها ، وفاتح مغلق أبوابها ، من أهم مؤلفاته : دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغية توفى سنة (٤٧١) هـ .

(2) ينظر : دلائل الإعجاز ص ٢٥٢ .

وبعد فهذه نماذج من أحاديث رسول الله فى مقام الترغيب اشتملت على أداة أو أكثر من الأدوات الموضوعة لإفادة التوكيد .

الحديث الأول :

عن ابن دينار عن ابن عمر ﷺ أنه كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يتروح عليه إذا ملَّ ركوب الراحلة ، وعمامة يشد بها رأسه ، فبينا هو يوماً على ذلك الحمار ، إذا مَرَّ به أعرابى فقال : ألست فلان بن فلان ؟ قال: بلى . فأعطاه الحمار ، فقال : اركب هذا ، وأعطاه العمامة ، وقال : اشدد بها رأسك . فقال له بعض أصحابه : غفر الله لك . أعطيت هذا الإعرابى حماراً كنت تروح عليه ، وعمامةً كنت تشد بها رأسك : فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إن من أبرِّ البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى " . وإن أباه كان صديقا لعمر ﷺ . (1)

إن من بر الرجل بوالده أن يحب أصحابه بعد موته ، وأن يصلهم ، ويعطف عليهم ، وأن يمد لهم يد العون إن احتاجوا ، ، وأن يحيى ما كان أبوه يفعله معهم فى حياته . عرفانا بفضل والده عليه ، وصلة بعد موته ، وهذا ما فعله عبد الله بن عمر مع هذا الأعرابى إقتداء بحديث رسول ﷺ الذى سمعه منه ، وهكذا ضرب الداعية أروع الأمثال فى تطبيق ما يدعو إليه ، كى تؤثر دعوته ، وتجد أذنا صاغية . وما أحوجنا فى هذه الأيام لمثل ابن عمر ﷺ .

ولا يخفى أن بقاء صلة الابن بمن كان يودهم أبوه امتداد لتلك الصلة ، إذ الابن امتداد للأب ، وفى ذلك توثيق للصلات والترابط بين الناس ، وتماسك الوشائج فى المجتمع ، وترك هذه المكرمة نوع من الجحد والغدر بحقوق الأبوة ، والتزام الوفاء أمر واجب ينبغى أن يتأكد فى نفوس المؤمنين نحو

---

(1) الحديث رواه مسلم فى البر والصلة (باب صلة أصدقاء الأب والأم ونحوها (٢٥٥)

الأباء أحياء لأنفسهم ، وأمواتا لمن كانوا أصفياء لهم وأخـــلاء ، ولذلـــك جـــاء الحديث على ضرب من التأكيد بالأداة (إنَّ) .[1]

داخلة على المسند المقدم الذى يحمل معنى الاهتمام للتشويق بتقديمه أولا وبصيغة التفضيل للمسند إليه المؤخر ثانيا ، إذ ليس من مطلق البر هذه الصلة ، وإنما هى فى أعلى أدراجه - أبر شرفا ، وإضافة (الـــبر) إلـــى (الـــبر) دون الأعمال زيادة أخرى فى هذا الشرف لأنه إضافة إلى الأخص ، فكأنه يقـــول : إنه أفضل الأفضل من الأعمال . وبذلك زاد التأكيد تأكيدا والتقرير تقريرا .

الحديث الثانى :

عن أبى موسى الأشعرى ﷺ قال : قال رســـول الله ﷺ : " إنَّ مثلـــى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال : إنى رأيت الجيـــش بعينـــى وإنى أنا النذير العريان فالنجاء النجاة ، فأطاعه طائفة من قومـــه فـــأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحـــهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت بـــه مـــن الحق " .[2]

---

[1] " إنَّ ، وأنَّ " تجيئان فى الكلام لمعانى كثيرة ، وفى مواقع عدة ، وهما من الحروف التـــى تدخل على المبتدأ أو الخبر ، فتنصب المبتدأ وترفع الخبر ومعناها التحقيق وتوكيد الخـــبر المفهوم من اسمهما . وفائدتهما : التأكيد لمضمون الجملة .. ومجىء كل منهما فى الكـــلام يضفى عليه لونا من اللطف والدقة ومن ثم فلا ريب أن " إنَّ ، وأنَّ " يتضح ورودهما فـــى الكلام لمعانى كثيرة ، وفى مواقع عدة ، وأن لكل معنى من المعانى غرضا بلاغيا ولكـــل موقع سر بيانى تشير إليه ولقد تحدث الإمام عبد القاهر عن "إن " ومواقعها ولطفها فـــى الكلام . ينظر : دلائل الإعجاز ٢٤٢ وشـــرح المفصـــل لابـــن يعيـــش ج ٨ ص ٦٣ - والأقصى القريب فى علم البيان للقاضى التنوخى ص ٧.

[2] ينظر : تيسير الوصول ج ١ ص ٢٥ .

فى هذا الحديث الشريف يشبه الرسول علية الصلاة والسلام حالـــه مـــع البشرية فى البلاغ لدعوة الحق الذى جاء به ، فيظهرهما فى صــــورة رائعــة عرفها العرب واهتموا بها اهتمامهم بالنفس الغالية وبنبض الحياة ، صورة العين الحريص على القوم يرى أعداءهم قد جمعـــوا لـــهم ، وأعـــدوا لاجتياحـــهم ، وزحفوا إلى ديارهم ، فيسرع يلهث من الجهد عرياناً منذراً بـــالويل ، ليســـهل على الرائى أن يعرف الشرًفى عريه ، كما يعرف الشرفى فى إنذاره الذى أكـده تأكيداً لا يدع عذرا لأبله أحمق ، فإنهم يدركون بالفطرة ما تدركه بالدراسة مـن أن هذا التركيب : " إنى رأيت الجيش بعينى " يحمل من التقرير لفظا ينطق بـــه هو (إنً) وهيئة تقصد من أجله هى تكرر الإسناد ، فالرؤيـــة حاصلـــة مـــن النذير ومخبر بها عنه ، ثم زيادة لا تلزم لغير هذا القصد ، هى تعلق الرؤيـــة بأداتها (العين) مضافة إلى ضمير الرائى المتكلـــم ولتقطـــع كـــل تجـــوز أو احتمال . فإذا انتقلنا إلى الجملة الثانية : " وإنى أنا النذير العريـــان " رأينـــا عجبا من حرصه ، فالعبارة القولية مصاحبة للصور المرئية ، ولكنه يريد لـــه الحب والرحمة أن يبلغ قوله أبعد ما يبلغ من قلوب السامعين .

إن التركيب المبـــدوء بحرف التأكيد (إنً) قد تكرر أيضا فيـــه إســـناد النذير ، فأسند مرتين : إحداهما إلى ضمير الفصل إخبـــارا بالجملـــة الأســـمية الدالة على الثبوت ،والثانية إلى اسم (إن) المسند إليه الأصل فـــى جملتـــه ، وهذا الصنع من وجود ضمير الفصل بين الطرفين طريق للقصر ، أفاد تـــأكيد المعانى ودفع الشك ، فإذا أتبعنا النظر فى العبارة نجد أربعة أســـماء تكونـــت العبارة منها بعد الحرف (إنً) وهى : ياء المتكلم ، وضمير الفصل والنذيـــر والعريان وكلها معارف تشير إلى رؤية المخاطب للمتكلم رؤية العين ، وإلـــى سبق المعرفة له سبق المعهود .

فإذا تأملنا قليلا رأينا صيغة المبالغة (النذير) تنادى بنفسها على الجهد المبذول والنعمة المهداة ، ولقينا الوصف المعقب بما فى الجملة السابقة قوله (بعينى) .

ترى هل هذه الصورة العجيبة الدقيقة المتراكبة فى الممثل به تنطبق على صورة الممثل له ... ؟

إن النصوص القرآنية كقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ . [1]

وقوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ . [2]

هذه الآيات وغيرها ، وكذا تاريخ الدعوة يبين أن هذه الصورة المجملة للنذير العريان والصورة المجملة لإنذاره هى بعض ما يتصف به النبى عليه الصلاة والسلام ، وتتصف به دعوته من الصدق و الإخلاص والحرص والتأكيد وقيام الحجة .

أما الفريق المقابل للداعى فقد مثل له النبى عليه السلام بمثلين :

الأول : من هزهم النذير برؤيته منكشفا غير ملتبس مؤكدا غير مشكوك ، فأطاعه مدلجا ، يستره الليل بظلامه ، ويعينه على السرى برفق جوه ، وعلى النجاة بندرة الرائين فيه ، وأولئك هم الناجون من عدوهم . ذلك مثل المصدقين رسول الله ﷺ ظاهراً فيهم بالحق غير ملتبس بالكاذبين معهود لهم بالصدق ، متكلما ومنذرا بآكد ما ينذر بالخطر ويهدد بالنار (فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به) .

---

[1] سورة التوبة : الآية (١٢٨) .

[2] سورة هود : الآية (١٢) .

الثانى : من نظروا إلى النذير النظر ، واستهانوا بصورته ، ولَهُوا عن دعوته ، واستخفوا بما أنذر به ، وخيِّل لهم الهلاك بُعْد عدوهم وصور لهم الردى قوة بأسهم ، فأصبحوا مكان ما أنذروا لم يتحركوا لنجاة ، ولم يعبأوا بفوز ؛ فداهمهم العدو وفتك بهم الحمق ، وأبادهم الغرور .
(فذلك مثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق) .

إنها بحق البلاغة النبوية ، وإنه ما زال الرسول عليه الصلاة والسلام فينا نذيراً ، عريانا ، وما زال القرآن والسنة بيننا ينطلقان بكل تأكيد قوله ﷺ : " إنى رأيت بعينى " .

الحديث الثالث :

عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " فوالذى نفسى بيده [1] لا يؤمن أحدكم حتى أكُون أحبَّ إليه من وَالِدِه وولدِه " . [2]

---

[1] القسم من المؤكدات اللفظية القوية ، كان عليه الصلاة والسلام يؤكد به ما يستحق المقام تأكيده من المعانى ، وكانت ألفاظه فى البيان الكريم متفاوته القوة مع تفاوت المثيرات والدوافع ، فيقول عليه السلام مرة : والله " وثانية : " وأيم الله " . وأخرى : " لا والذى نفسى بيده " وتارة : " ومقلب القلوب " ومرة : " والذى نفس محمد بيده " أو " والذى نفس أبى القاسم بيده " وقد لا يذكر المقسم به ، مكتفيا بالإخبار عن القسم فيقول : " أقسم " ثم يذكر ما يريد القسم عليه وكان الصحابة يدركون الفرق بين هذه الصيغ فى درجة القوة حتى يقول أبو سعيدﷺ : كان رسول ﷺ إذا اجتهد فى اليمين قال : لا والذى نفس أبى القاسم بيده ، كما يدركون أكثر صيغة تكراراً منه عليه السلام فيقول ابن عمر ﷺ : أكثر ما كان يحلف رسول الله ﷺ : " لا ومقلب القلوب " " تيسير الوصول ٤ / ٥٠ ، ٣ /١١ ، ٤ / ٢٦٠ " . وقال الحافظ بن حجر عند الحديث عن قوله عليه الصلاة والسلام : " فوالله لا يمل الله حتى تملوا " فيه جواز الحلف من غير استحلاف وقد يستحب إذا كان فى تفخيم أمر من أمور الدين، أو حث عليه، أو تنفير من محذور . (فتح البارى ج١ ص ١٠٩).

[2] فتح البارى شرح صحيح البخارى باب حب الرسول ﷺ من الإيمان ج ١ ص ١٣١ .

في هذا الحديث يرغب رسول الله ﷺ في حبه ويؤكده حيث استهل حديثه بالقسم " فوالذى نفسى بيده " وهو مما يفيد التوكيد .

والمقصود " لا يؤمن أحدكم " أى : لا يؤمن إيمانا كاملا . وقدم الوالد للأكثرية لأن كل أحد له والد من غير عكس ، وفى رواية النسائى فى حديث أنس تقديم الولد على الوالد وذلك لمزيد الشفقة . وذكر رسول الله ﷺ الولد والوالد لأنهما أعز على العاقل من الأهل والمال ، بل يكونان أعز من نفسه .

قال ابن حجر نقلا عن الإمام القرطبى : كل من آمن بالنبى ﷺ إيمانا صحيحا لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة غير أنهم متفاوتون ، فمنهم من أخذ مستغرقا فى الشهوات محجوبا فى الغفلات فى أكثر الأوقات ، لكن الكثير منهم إذا ذكر النبى ﷺ اشتاق إلى رؤيته بحيث يؤثرها على أهله وولده ووالده .. وقد شوهد من هذا الجنس من يؤثر زيارة قبره ورؤية مواضع آثاره على جميع ما ذكر لما وقع فى قلوبهم من محبته . ([1])

ومن علامة الحب المذكور أن يعرض على المرء أن لو خُيِّر بين فقد غَرَض من أغراضه ، أو فقد رؤية النبى ﷺ ، أن لو كانت ممكنة ، فإن كان فقدها أن لو كانت ممكنة أشد عليه من فقد شيء من أغراضه فقد أتصف بالأحَبية المذكور ومن لا فلا ، وليس ذلك محصوراً فى الوجود والفقد ، بل يأتى مثله فى نصرة سنته والذب عن شريعته وقمع مخالفيها ، ويدخل فيه باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

الحديث الرابع :

عن عبد الله بن مسعود ﷺ : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل فى أرضى دويه مهلكة معه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ،

([1]) ينظر : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ١ ص ١٣٣ .

فطلبها حتى إذا اشتد عليه الجوع والعطش قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه . فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده " . (1)

هذا الحديث الشريف يقرر أمر التوبة عند الله ، والدرجة التى لا يتصورها العبد المذنب ، والتى لو عرف قدرها لأمتلأ قلبه بالفرح ، واشتد أنسه بالله وإقباله عليه ، ورجاؤه فيه ، تيئيسا للشيطان ، وقهراً لوسوسته واستدراجه المؤمن بالذنب تلو الآخر حتى لا يجد لنفسه فرجة أمل فى القبول عند ربه ، إذ يملأ قلبه بالقنوط من رحمة الله .

ولا خَفِيُ - أيضا - ما فى الحديث من طرد لشبح اليأس عن التائبين ، فإن الشيطان يقول لمن تكرر منه الوقوع فى المعصية : لا توبة لك ، وقد عَصيت الله أكثر من مرة ، فمتع نفسك بهذه الشهوات المتاحة مادام باب التوبة قد أغلق دونك ، ونحو ذلك من المثبِّطات والمغريات .

والمؤمن لا يعرف الطريق إلى اليأس ، ولا يعرف اليأس الطريق إليه : ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ . (2)

والبيان النبوى لا يصور فرحة التائب المقبول بالنجاة التى يحق لها أن تطول فرحته وتعمق ، وإنما يصور فرحة الله الذى لا تضره المعصية من العبد ولا تنفعه الطاعة ، فى تلك الصورة التمثيلية الرائعة والعجيبة ، ولهذه الغرابة كان الخبر محتاجا إلى تأكيده فكان منه أن يسبق بلام الابتداء تعجيلا لالتفات السامع ، وإسراعا باهتمامه .

---

(1) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه رقم (٢٧٤٧) .
(2) سورة يوسف : الآية (٨٧) .

وتأكيدا للترغيب فى التوبة إلى الله . كما استخدم (أفعـــل) التفضيـل مسنداً فى الجملة الابتدائية تصعيداً للمعنى ، وزيادة فى قســـر الســـامع علـــى الانتباه ، وفى ذكر المفضل عليه مع كل منها – وهو أمر يبلغ الغاية فى جنســه – إعلاء لشأن المفضل السابق وهو المسند إليه المرتكز على اللام ، فالخبر كله طرداً وعكسا فى جهة التقرير والتأكيد ، وهذا بعض سر البيان الكريم ، يـــرى أضعافه من يطيل الوقوف على دقائقه ، ويرهف الحس مع لطائفه .

الحديث الخامس :

عن فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله ﷺ : " لله أشـــد أذنـــا إلـــى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب القينة إلى قينته " . (١)

استهل رسول الله ﷺ هذا الحديث بأداة من أدوات التقرير والتأكيد التـــى يسرع بها المتكلم لتأكيد كلامه وهى اللام المفتوحة الداخلة على المبتـــدأ ، (لله) والمسماة لام الابتداء . (٢)

والحديث الشريف يقرر على سبيل التمثيل شدة إقبال الله سبحانه علـــى قارئ القرآن بالصوت الحسن يجهر به ، لا إعجابا بصوته ، ولا تلاعبا بـــه ،

---

(١) ينظر الجامع : الصغير ج ١ ص ١٠١ .

(٢) هـــذه اللام لشدة توكيدها وتحقيق ما تدخل عليه يقدر بعض الناس قبلها قسما فيقول هـى : لام القسم ، كأن تقدير قوله : لزيد قائم ، والله لزيد قائم ، فأضمر القسم ودلت عليه الـــلام وغير منكر أن يكون مثل هذا قسما ، لأن هذه اللام مفتوحة كما أن لام القسم مفتوحـــة ، ولأنها تدخل على الجمل كما تدخل لام القسم ، ولأنها مؤكدة محققة كتحقيق لام القســـم ، ولكنها ربما كانت لام قسم وربما كانت لام ابتداء واللفظ بهما ســـواء ، ولكـــن بـــالمعنى يستدل على القصد ، ألا ترى أن من قال : لزيد قائم ، محققا لخبره لم يقل له : حنثـت إن كان زيد غير قائم ولكن إذا وقع بعدها المستقبل ومعه النون الثقيلة أو الخفيفـــة فـــهى لام القسم ذكر القسم قبلها أو لم يذكر كقولك . لأخرجنّ ولتنطلقن يا زيـــد . (ينظـــر كتـــاب اللامات للزجاجى (ص . ٧) . ومعنى اللبيب ص ٣٠٢ .

ولكن تذكيراً وتعبدا ، فهذا المعنى لازم الجملة الابتدائية المؤكدة : إذ لا يكون هذا الأثر البالغ المحمود إلا لمن خلصت نيته ، فقرأ معتبراً ، وتعدت بركته إلى سواه بالجهر الهادف إلى الخير .

ولا شك أن تأكيد هذا الخبر باللام السابقة يحمل المؤمنين على تحسين أصواتهم بالقرآن ، ويرغبهم فى إدامة تلاوتهم له ، ليكونوا فى خطوة ما بعدها حظوة من شدة إقبال ربهم بالرضا والثواب .

الحديث السادس :

عن زيد بن خالد ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " ألا أخبركم بخير الشهداء ؟ الذى يأتى بشهادة قبل أن يسألها " . [1]

ألا فى هذا الحديث للعرض [2] ، وهو استحضار نفس المخاطب وعقله بهذه الجملة التى تحمل سؤالا مشوقا إلى ما يكون من جواب ، فالشاهد الذى لا يقيم الشهادة حتى يسأل قد يغمط الحق وهو لا يأبه خوفا على نفسه ، فينقلب آثما قلبه ، فليس خير الشهداء .

وأما الذى يتطوع فيقيم الشهادة لله - متى عرف أن العدل فى إقامتها - لا ينتظر أن يطلب لأدائها فذلك خير الشهداء ، لأنه آثر رضا الله وإن سخط الناس .

ولا شك أن السياق على هذا الترتيب : من عرض السؤال مفتتحا بأداة العرض ، ثم تعقيبه الجواب يقرر مضمون الجواب ،ويسوقه إلى أعماق النفس ،

---

(1) ينظر : تيسير الوصول إلى أحاديث الرسول ج ٤ ص ٥١ .

(2) (ألا) تأتى للعرض والتحضيض ، ومعناها : طلب الشيء والتحضيض طلب بحث والعرض طلب بلين ، وتختص بالجملة الفعلية لا غير ... فهى لتوكيد مضمون الجملة (مغنى اللبيب ٩٧ و الإتقان ١/١٩٨) ، ورصف المبانى ٧٩ .

لوقوعه موقع المنتظر المطموح إلى علمه ، فإذا انضم إلى ذلك أن المخبر به المعروض قد وقع اسم تفضيل مضافا إلى جنسه ازداد الشوق إليه ، والرغبة فيه ، وعبارة الجواب التى باغتت السامعين عجلت بالإيجاز الذى يؤثره البيان النبوى دائما ، فحذف صدرها المسند إليه والمحكوم عليه بما سبق إسراعا بتقريره بالموصل الدال بصلته على سبب التفضيل على الجنس ، ولا يخفى ما فى إضافة الشهادة إلى الضمير من الدلالة على اختصاصها به على وجه معين ، قد يوافق أو يخالف شهادة غيره ، فتكون متعينة لإقامة العدل ، وأنها ملكه هو ، ليس لسلطان أن يحولها عن وجهها متجانفا لإثم ، وبناء فعل السؤال لمجهول مع إيجازه فيه التعميم المناسب للتفضيل ، سواء كان السائل الحاكم ، أو السائل المجنى عليه ، أو هو المتهم . (١)

الحديث السابع :

عن أبى هريرة ﷺ قال :قال رسول الله ﷺ : " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا والمسجد الأقصى " .(٢)

يؤكد الرسول ﷺ حرمة المساجد وتعظيم شأنها ، حتى تظل على المؤمنين عزيزة مرموقة ، تهفو إليها القلوب ، وترغب فى الرحلة إليها ، تجديدا للمعانى التى صحبتها . إنها الأعلام التى أنبجست منها الأنوار تكشف الظلمات ، وما تزال تؤدى ما لايؤدى العلماء من جذب القلوب إلى الله .

فقصر الواجب من شدة الرحال اهتماما على هذه المساجد دون غيرها من المزارات ودور العبادة ، إيحاء بما لها من فضل يتأكد على المؤمنين أن يعرفوه ، لما شرفها الله به من إمامة الأنبياء ونشر دعوتهم .

---

(١) ينظر : الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ص ١٢٢ .

(٢) الحديث رواه مسلم فى كتاب الذكر (باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر) (٢٦٩٩) .

وقد استعمل الرسول ﷺ من طرق القصر [1] طريق النفـى والاسـتثناء الذى يعد من أقوى الطرق تأكيدا فى الترغيب للسفر إليها .

الحديث الثامن :

عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال : " ما اجتمع قوم فى بيـت مـن بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده " .

هذا الحديث الشريف يؤكد فيه رسول الله على عمارة المساجد، ويرغـب فيها بالذكر الحكيم ، ومدارسه أحكامه قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ ، [2] والذين يتلون آيات الله يرجون تجارة لن تبور .

فالحريص على أمته والرؤف الرحيم بها . عليه الصلاة والسلام يبين لها هذه المفازة لتنجو وتسعد بياناً مؤكدا بحصر جلوس القـوم هكـذا فـى تلكم الأضرب من الجزاء الكريم والتجلى الإلهى ، حتى يروا ما يبذلونه من السـبب هيناً يملكونه ، وما يوهب من الثواب عظيما يرجونه ، فتهش قلوبهم للمسـاجد يتنافسون فيها ، وتستيقظ قلوبهم فترى – وهى تتلو كتاب الله وتدرسـه – مـا أخبر به الصادق المصدوق رأى عينها ، والحديث يشير بلفظ القوم إلى فضـل

---

[1] تعد طرق القصر ضروبا من التأكيد للمعانى على وجه أخص ، سواء كان النفى لما عـدا المقصور عليه عاما أو خاصا ، لأن القصر معناه تخصيص أحد الطرفين بالأخر ، وكون أحدهما مختصا بصاحبة يجعله ألزم وألصق من كونه متصفا بملابسته اتصافـا مطلقـا ، ولذلك يجىء القصر على منكر الحكم باعتقاد عكسه ، وعلى معتقد الشركة اعتقادا غـير صحيح ، بإفراد مستحق الحكم عند المتكلم ، وعلى المضطرب المتشكك فى مستحق الحكم بتعيينه له ، كما جاء للمبالغة فى الخاص يجعله كل جنسه لكماله فى الحكم ، فينزل غـيره بالنسبة إلى وجوده منزلة العدم . وينظر شروح التلخيص ج ٢ ص (١٦٦) وما بعدها

[2] سورة التوبة . (١٨) .

الجماعة ، يذكر بعضهم بعضا ما نسى ،ويكشف ما خفى ، كما يفيد اســتحباب الاجتماع فى بيوت الله وتلاوة القرآن ومدارسته ، لأن ذلك سبب فــى نــزول الطمأنينة وهبوط الرحمة ، وحضور الملائكة . ورضا الله عــن المجتمعيــن ، وذكرهم فى السماء بعملهم المبارك . (1)

(1) ينظر : نزهة المتقين ج ٢ ص ٢٠ .

المبحث الثانى

ضروب التوكيد اللفظية وأسرارها البلاغية فى أحاديث الترهيب

عرفنا فى المبحث الأول من هذا الفصل أظهر أنواع التوكيد ، وهو إما أن يكون بتكرير الجملة الأولى أو شىء منها ، وإما أن يكون بأداة وضعتها اللغة أو العرف البلاغى لإفادته . وقد سقت مجموعة من أحاديث الترغيب التى اشتملت على هذا اللون من التوكيد .

وفى هذا المبحث سأقوم بعرض مجموعة من أحاديث الترهيب التى اشتملت على هذا اللون من التوكيد . كاشفا اللثام عن الأثر البلاغى ،والقيمة الفنية المستفادة من هذا التوكيد .

الطريق الأول

إعادة الجملة الأولى أو شىء منها (١)

الحديث الأول :

عن أبى بكر ﷺ قال : " **أثنى رجل على رجل عند النبى ﷺ فقال : ويحك قطعت عنق صاحبك قال له ثلاثا ثم قال من كان مادحا أخاه لا محالة فليقل : أحسب فلانا والله حسيبه ولا يزكى على الله أحدا ، أحسب فلانا كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه** " . (٢)

المتأمل فى هذا الحديث يجد أنه صدّر بجملتين متتابعتين تكررتا ثلاثا ، لأنه معلول وعلته (ويحك قطعت عنق صاحبك) أما ويحك " ففى حكم الجملة لأنه هنا مصدر منصوب على المفعول المطلق بفعل محذوف يقدر من مادة أخرى وإضافته إلى الكاف لتعيين المخاطب ، والمقصود به الدعاء ، وهذا رأى

---

(١) سبق الحديث عن هذا الطريق ص ٤١ من البحث .

(٢) الحديث ورد فى كتاب تيسير الوصول ج ٤ ص ١٦٧ .

(سيبوية) ويرى (الفراء) أنها كناية عن (ويلك) وهى كلمة تقال ضد الشتم والتوبيخ معروفة وكثرت حتى صارت للتعجب يقولها أحدهم لمن يحب ، ولمن يبغض . (1)

وقد يقال : إنها للترحم كما فى القاموس المحيط : " ويح لزيد وويحاً له كلمة رحمة " . (2)

ونخلص من هذا إلى أنها إما دعائية على المخاطب ، وإما تعجبيه من صنع هذا الرجل وإما للإشفاق عليه ،وهذه الأمور يستلزمها ما ارتكبه من أمر خطير يسمعها فى مستهل رد النبى ﷺ فيستشرف مبهوتا لأمر لم يحتسبه ، ويبين ﷺ علة الدعاء أو الإشفاق أو التعجب الذى تحتمله كلمة (ويحك) مصورا ثناء مخاطبة ومدحه صاحبه بصورة الجريمة الكبرى : قطع عنق الممدوح ، وحسبك أن يكون قطع العنق من صاحب لصاحبه ، إنه غاية فى الشناعة والترهيب من هذا العمل .

هل ثناء الإنسان على الآخر يشبه قطعه عنقه ؟ . هل هو أمر خطير يستحق الدعاء ، أو الإشفاق ، المكرر ثلاث مرات ؟. إن الرسول ﷺ المعلم المثالى يربى المؤمنين على الحيطة والحذر والأناة وضبط اللسان ، صونا للعقيدة وبراءة من الكذب فى صورة ما ، ومن الناس منافقون تسكن الذئاب الخاتلة لين أبشارهم ، وخافض أطرافهم ، والثناء يعد شهادة ، فإذا كانت لأحدهم ربما غرت طائفة من الخلق تضيع فى مخالبهم هذه الشهادة إذا حَلَوْا بهم ، أما تكون هذه الشهادة مضلة ؟ . أما توقع صاحبها من بعد فى الأسف والاعتذار الشديد ؟ .

والمؤمن كيس فطن حذر ، أما كان يحسن أن يتحول عن صيغة الثناء بالجزم إلى لفظ يبرئه من الظنى ، ويجافيه عن التهمة ، ويبعده عن الأسف

---

(1) ينظر : شرح المفصل لابن يعيش ج ١ ص ١٢١ .

(2) ينظر : القاموس المحيط ج١ ص ٢٥٦ .

والاعتذار ؟ هنا يجيء البيان الكريم كالقانون الناشئ من واقع الحادث ليعصم من جديد يحدث ويبين كيف يثنى الإنسان على صاحبه بما لا يجعله مظنة للكذب أو الخداع ، فيأمرهم بالاحتراس حتى -لا يزكوا أحدا على الله ، يعلم الله سره ونجواه – إلا أن يقولوا نحسب فلانا صالحا إذا ثبت فى علمهم صلاحه ،وهذا من الرسول ﷺ إشارة واضحة إلى أن علمنا بواطن الناس مهما صاحبناهم لا يزيد عن الظن فى إثبات الصفات أو نفيها ، لأنه علم من الظاهر الذى تمكن المصانعة فيه والصبر على التظاهر به .

ولمحة لطيفة أخرى فى الحديث الشريف ، هى من جنب التأكيد لترك الثناء الآنف الذكر يفيدها قوله الكريم : " من كان مادحا أخاه لا محالة " أليست تساوى : من ألجأته الضرورة إلى مدح أخيه ؟ . (1)

إنه ﷺ يؤكد ويقرر طلب نزاهة المؤمن عن التورط فى الشهادة إلا بحقها ، وعند الحاجة إليها ، إذ أن فريقا آخر من الناس لا يجرهم المدح إلى الغرور فيقتلون ، أو يخدع بهم جماعة من الناس فيبقون ، إنهم فريق مؤمن يخجل من الثناء عليه فيربو به نور الإيمان فى وجوههم من أثر الحياء فى قلوبهم ، أولئك لا مفر من مدحهم ، ليزيدوا من نشاطهم فى الطاعة والتحصيل فينتفع الدين والوطن بمثلهم ، ولكن على هذا النمط الذى رسمه رسول الله ﷺ أحسب فلانا ، والله حسيبه .

الحديث الثانى :

عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " رغم أنفه ، رغم أنفه ، رغم أنفه . قيل من يا رسول الله ؟ قال : من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة " . (2)

---

(1) ينظر : الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ص ٨٤ بتصرف فى العبارة .

(2) الحديث وارد فى كتاب تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ١ ص ٤٥ .

استهل رسول الله ﷺ هذا الحديث بجملة دعائية عبر عنها بالفعل الماضى " رغم أنفه " تأكيدا لتحقيق الوقوع ، لو لم يكررها الرسول لكفى بصاحبها خيبة وخسراناً ، إلا أن الرسول ﷺ كررها ثلاث مرات إمعانا فى الترهيب حتى خفق قلب السامع ، واستولى عليه الرعب والفزع إشفاقا على نفسه ، أن يكون ذلـــك الراغم الأنف .

وقد أُبهم الحديث بيانه فأضمره غائبا قبل الذكر حتـــى يســـتثير النفــس بالانتباه ، والنفس طلعه بطبعها إلى من يصدر عليه الحكم ، وقد فزع الصحابى لأنه لا يطيق الانتظار ، فبادر بالسؤال " مَنْ يا رسول الله ؟ " . فأجابـــه عليـــه السلام : إن هذا الشقى المحروم هو عاق الوالدين أو أحدهما عند الكبر ، وهـــو يزيد ذلك توكيدا من قبل اللزوم ، فينسب إدخاله الجنة أو عـــدم إدخالـــه إلـــى الوالدين كأنهما يملكانه تماما .

وفـــى هذا الحديث من النصح والحض علـــى بـــر الوالديـــن ، وبيـــان حقهما ، والترهيب من سوء عاقبة عقوقهما .

الحديث الثالث :

عن أبى هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : " ثلاثة لا يكلمـــهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ،ولهم عذاب أليم قالها ثلاثـــا ، قلـــت : خابوا وخسروا يا رسول الله من هم ؟ قال : المسبل ، والمنـــان ، والمنفـــق سلعته بالحلف الكاذب " .[1]

بُدِئ الحديث بكلمة " ثلاثةٌ " وهى نكرة ،ولا يعلم معنى تنكيرها لما هـــى عليه من إبهام . ثم كشف ﷺ عن معنى التنكير والغرض منه بهذا الوصف " لا يكلمهم الله " ، وهو التحقير إلى درجة الحرمان من أسمى الخير .

([1]) الحديث رواه مسلم فى كتاب الإيمان (باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطيـــة وتنفيق السلعة بالحلف) (١٠٦) .

والناظر فى الحديث يرى أربع جمل موصولة تتصف بمجموعها النكرة ، ثلاثٌ منها سلبٌ تجرد النكرة من أجر الثواب وصالح العمـــل ، وأوفــى فــى الثواب (كلام الله – نظره سبحانه يوم القيامة – تزكية الله) وهى جمل فعليــه مضارعية تدل على أمرين :

أولا : على التجدد أى الحصول بعد العدم ، وقد انتفى عنهم أزلا فانتفى أبــداً لا لذواتهم ولكن لصفاتهم الموجة للحرمان .

ثانيا : تدل على مثوبة المؤمن وكرامته التى تتجدد له هذه الجزاءات ثبوتـــا ، لأنه برئ من تلك الصفات .

ثم تقرر الجملة الاسمية الأخيرة ، وهى للدوام والثبوت فــى ذاتــها – بتقدم المسند وهو الجار والمجرور " ولهم " على المسند إليــه "عــذاب " ، ثـم بوصف المسند إليه وصفا على المبالغة " أليم " وذلك فى قوله ﷺ " ولهم عـذاب أليم " فتقطع كل وهم يستبقى لهم شيئا من الأمل . أيكون من سلب تلك المكارم جديراً بغير ذلك العذاب ؟

الجمل الموصلة الثلاث يلزم بعضها بعضا من جهة المعنى ، فكل مفهوم يؤكد ما سبقه ، فالمحروم من رحمة كلام الله ومتعة إقباله عليه محـــروم – لا شك – من نظره إليه ، ومن لا يكلمه الله ، ولا ينظر إليه لا يكون محل تزكيـة ثم من كان كذلك كله ليس له إلا العذاب الأليم .

لكن هذه الجمل وصلت بالواو ، أما أولا : فللتناسب وعدم المانع ، وأمـا ثانيا : فلأن العطف كما يقولون يقتضى المغايرة والمغايرة حاصلة بالتنويع لأنها ألــوان من العذاب بعضها فى بعض ، وكونها كذلك أشد غير بعض الإيجــاع وأدل على الجريمة ، فالكلام غير النظر ، والتزكية أعم من أن تكون كلامـــا : هذا كله كرره البيان النبوى ثلاث مرات تكريراً لفظياً يوجبــه التقرير ، للإنذار

فى مقام الترهيب ليقتلع جذور الشر الموجبةَ للحرمان ، وليقــى الأصحــاء أن يختلس الشيطان قلوبهم فيمرضوا فيموتوا .

إن الثلاثة ما يزال أمرهم مبهما ، وإن الوعيد والسخط ليعظم .. لذا لــم يصبر أبو ذر ﷺ تقاة من شرهم واطمئناناً على سلامته ، ولذا بادر فأخبر عنهم الخيبة والخسران تصديقا للصادق المصدوق ثم سأل : من هم ؟ فــأتى البيــان بالصفات المهلكة .

الصفة الأولى : المسبل : وصف يكنى عن المتكبر المتعالي الــذى ينــازع الله رداء عظمته ، وينسى أنه إن يسلبه الذباب شيئاً لا يســتنفذه ، وأنه يخلو كل يوم مرات لينجو من شر ما فيه .

الصفة الثانية : المنان : الذى يعطى ما استخلفه الله فيه من الرزق فينسى أنــه وماله ملك الله ، فيفسد ما أعطى ، ويبطله بالمن والأذى كفــرا بأنعم الله ، وإذلالا للكرماء من خلقه ، أو يقدم – بمعونــة الله طاعة له – خدمة لخلقة ، فيمحقها فيبدلها بالحديث عنها تيــهاً وإعجابا . ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُــوا صَدَقَــاتِكُمْ بِــالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ .[1]

الصفة الثالثة : المروج سلعته بيمين فاجر كذوب ، يقتطع بها عرضــاً فانيــا ويخسر دينه ، لأنه غاش أولا ويروجها باسم الله ثانيا .

وهذه الصفات الثلاثة يسيرة فى الظاهر عند كثير من الناس لا يظنــون بها ذلك الخطر الخطير ، وإن جانبا كبيراً من هذه الخطورة قد ســاعد علــى تصويره التقرير والتأكيد المستفاد من التكرير .

---

(1) سورة البقرة . الآية (٢٦٤) .

الطريق الثانى

التوكيد بأداة وضعتها اللغة أو العرف البلاغى ([1])

الحديث الأول

عن عائشة رضى الله عنها قالت : " استأذن رجل على رسـول الله ﷺ فقال : بئس أخو العشيرة ، فلما دخل انبسط إليه وألان له القول ، فلما خـرج قلت : يا رسول الله حين سمعت الرجل قلت كذا وكذا ، ثم تطلقت فى وجهـه وانبسطت إليه ؟ يا عائشة متى عاهدتنى فاحشا : إن من شر الناس عنـد الله تعالى منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه " . ([2])

يحتوى هذا الحديث على حوار دار بين رسول الله ﷺ والسيدة عائشـة رضي الله عنها حول موقف رسول الله ﷺ من رجل استأذن فى الدخول على رسـول الله فقال ﷺ مخبرا بما هو عليه الرجل من سوء الخلق " بئس أخو العشـيرة " وهو أسلوب يفيد الذم . فلما دخل الرجل أنبسط إليه الرسول ﷺ ورحـب بـه وألان له الكلام .

هذا الموقف جعل السيدة عائشة تتساءل متعجبة من موقف رسول الله ﷺ تجاه هذا الرجل ، كيف يقول فيه كذا وكذا ثم ينبسط له ويستقبله ، ولـم يـرده ويظهر بغضه له وعدم رضاه عنه ، وكأنها رضى الله عنها استبعدت أن يحدث هذا الموقف من رسول الله ﷺ ، فبادرها بهذا السؤال : يا عائشة متى عـاهدتنى فاحشا ؟ وهو استحالة أن يكون منه ذلك ﷺ ، ثم أخبرها عن سبب موقفه هـذا من ذاك الرجل مستهلا قوله بأداة التوكيد " إنَّ " ، وتقديم الحكم – إن من شـر الناس عند الله تعالى منزلة يوم القيام – للاهتمام البالغ بالتحذير والترهيب منه .

([1]) سبق الحديث عن هذا الطريق ص (٥٦) من البحث .

([2]) ينظر : تيسير الوصول ج ٤ ص ٢٧٩ .

وقد صحب ذلك أنواع من التخصيص تصعد الشعور بشديد العقاب تأكيدا لشناعة الإثم ، فالتقييد بالظرف المكانى " عند الله " الذى يملك المجازاة ، وجملة التنزيه والإجلال (تعالى) وتوسطها بين صيغة التفضيل وتمييزها تبكيرٌ بتربية المهابة ، ثم التقييد بالظرف الزمانى (يوم القيامة) الذى لا يقدر من يدعى ملكا فى الدنيا أن يدعى فيه شيئاً ، وقد أختص بقوله تعالى : ﴿ لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ (1) . ليقطع أوهام الواهمين ويسقط طمع المتجبرين .

كل هذه الخصائص حاطت الحكم فى المكان والزمان جوانبٌ من التأكيد فضلا عن الأداة المنذرة به ، تضع من يتركه الناس خائفين لسانه فى أشنع موقف من الرذيلة ، إذ ينتظر أفظع منزلة من العقاب يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله .

الحديث الثانى :

عن عائشة رضى الله عنها (أن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التى سرقت ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد رضى الله عنهما : حِبُّ رسول الله ﷺ فكلمه أسامة ﷺ فقال : أتشفع فى حد من حدود الله تعالى ؟ ثم قام فاختطب ، ثم قال : إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها " .(2)

يؤكد الرسول ﷺ فى هذا الحديث نزاهة الإسلام وعدالة نبيه التى لا يستقيم أمر المجتمع إلا بها ، فلا شفاعة فى حدود الله لجاه أو مال أو شرف

---

(1) سورة غافر الآية (١٦) .

(2) ينظر : تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ٢ ص ١٣ .

كذلك ، فالشرف للسير على الجادة ، ولا شرف ولا كرامة للمنحـــرف الضـــار دينه ، والمعتدى على الناس ، ولا نظر إلى صلة دنيويـــــة – مـــهما تـــأصلت وعمقت – يطغى على إقامة ما أوجب الله أن يقـــام لســـلامة دينـــه ولكرامـــة المؤمنين وصيانة حقهم ، فصلة النبوة بين سيدنا محمد ﷺ وبين فاطمة ابنتـــه لا تحرك رأفة النبى فيرحمها من قطع اليد حين يوجب الإسلام قطعها ، ولا أكـــوم من سيدنا محمد ﷺ حاكماً ، ولا من فاطمة بنت محمد محكوما عليه ، فســواهما أولى بالحذر من المخالفة .

ومن المعلوم فى الحديث بناء الأمر علـــــى أداة الشـــرط الدالـــة علـــى الافتراض ، وقد يلمس قارئ الحديث أن إنفعال الرسول ﷺ قد بلغ ذروته حين نطقه الكريم بهذه العبارة ، وخاصة أنه استهلها بالقسم " وأيم الله " وهو الصادق الأمين ،وذلك لأن المحلوف عليه من الأمور المهمة ذات البال التى ينبغـــى أن يستشرف لها السامع ، ويتلقاها تلقى الاهتمام لما تعيه من مدلول دينى خطير فى حياة الفرد والمجتمع .

وهذه العبارة " وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " قد بلغت حدا جازما فاصلا يخرس كل شفيع أحمق إلى يـــــوم القيامـــة ، وإتبـــاع الاسم العلم " فاطمة " ، بالبيان وهو قوله : " بنت محمد " – له قيمة فى تقريـــر مضمون الكلام ، فهو لا يدع للشك مجالا فى تحديد أعلى صلة بيـــن الحـــاكم والمحكوم عليه ، ففيه لفظ النبوة ثم هى مضافة على الالتفات إلى الاسم الظاهر (محمد) دون ضمير المتكلم لأنه أشد تحديداً لمدلولـــه فـــى مقـــام الـــترهيب والمهابة ، على العكس من نسبة فعل القطع إلى الضمير ، لأن ذلك أبلـــغ فـــى الدلالة على مباشرة الفعل ، وأسرع فى حسم الموقف .

حديث الثالث

عن المستورد بن شداد ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ " والله ما الدنيا فى الآخـــرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه فى اليم فلينظر بم يرجع " . (١)

فى هذا الحديث يكشف رسول الله عن منزلة الدنيا من الآخرة ، والنـــاس ما رأوا غير دنياهم ، وهم يرونها واسعة واسعة ، مضت فيها القرون دراكـــا ، وتتابعت الأمم لحافا ، ولم يروا الآخرة لأنها غيب غائب ، فيقســـم ﷺ مؤكـــدا خبره ليلفتهم إليه ، حتى لا تفتنهم سعة حاضرهم ، وزخرفة ما حصلـــوا منـــها غرورا ، وما فاتهم منها ندما ، إذ أن ما يملك منها الناس جميعا من البدء إلـــى النهاية يعادل لتفاهته وقلته ما يصيب من البلل إصبعا غمست فى اليم ، بينما اليَمُّ كله تشبهه الآخرة لبقائها واتساع أرجائها وعمق طبقاتها ، فى جانبيها من ثواب الأبرار ، وعقاب الفجار .

فمن يقرأ هذا الحديث ، أو يسمعه يزهد فى الدنيا ويقل تعلقه بها مـــهما أوتى منها ويرغب فى الآخرة ويقبل عليها ، ويحرص على الفوز بنعيمها .

الحديث الرابع :

عن أبى هريرة ﷺ قال : قال " رسول الله ﷺ : " ليأتين علـــى النـــاس زمان لا يدرى القاتل فى أى شىء قَتَل ، والمقتول فى أى شىء قُتِل . قيـــل : وكيف ذلك ؟ قال : الهرج ، القاتل والمقتول فى النار " . (٢)

يخبر الرسول ﷺ فى هذا الحديث عن أمور مستقبلة يراها النبـــى ﷺ ، ولا يراها قومه . محذرا منها كل من يدركها ، ومن شأن مثل هذه الأخبـــار أن

---

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (باب فناء الدنيا وبيـــان الحشـــر يوم القيامة) (٢٨٥٨) .

(٢) ينظر : تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ٤ ص ١٩ .

يعززها المخبر بما يشاء من المؤكدات ، ليدفع الشك عن نفس يسهل عليها أن تشك لضعفها ، وليكون ذلك الخبر المؤكد دليل ثقة المتكلم بما يخبره به ، ودليل صدق رسالته عليه السلام حين يقع فى الأزمان المقبلة وفق ما أخبر ، فيصير إذ ذاك امتداداً للمعجزة ، فضلا على ما يلزم الخبر من حذر المؤمن مما ينذر الرسول به أو يحذر منه . تلك الأمور هى انتشار الفتن بين الناس حتى يشهر بعضهم السلاح على بعض فيقتل أحدهم دون ذنب يعلمه ، وإذا سُئِل القاتل لم قتل ؟ لا يعلم سببا لما فعل وذلك من شدة الاضطراب ، وفساد الأمر ، وتفشى الفوضى وسقوط الحكم .

والرسول ﷺ إذ يخبر صحبه بهذا – وهو نورهم وسراجهم – يُحَمِّلُ هذا الخبر قافلة الزمن ، ترحل به عبر العصور ، ليتخذ كل عصر به جُنَّته وحذره فلا يحيف ولا ينزلف إلى النهاية البائرة ،وما أقرب حالنا من هذه البوادر التى طلّتْ برأسها . نسأل الله السلامة منها والعصمة من شرها ومخاطرها . (1)

الحديث الخامس :

عن الزبير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " دب إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء ، وهى الحالقة : أما إنى لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين " . (2)

هذا الحديث الشريف يتحدث عن أمرين خطيرين طالما أهلكا أمما قبلنا ، ولتأكد الضرر البالغ منهما إلى صميم الحياة الاجتماعية والروحية فى عمق العقيدة – نبه عليه الصلاة والسلام إلى شرهما فأعطاهما ما لموس الحلاق من حدة ومضاء على وجه التشبيه المؤكد المجمل المبنى على دعوى الاتحاد ، ثم

---

(1) ينظر : الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ص ١١٦ بتصرف .

(2) ينظر تيسير الوصول ج ٤ ص ٢١ .

أراد أن يؤكد المعنى فضل تأكيد ، وينبه إلى الخطر زيادة تنبيه ، ويحقق المراد بما تحلقه هذه الرذيلة المنكرة وهو أغلى شئ يملكه المرء ، ألا وهو الدين ، فأتى بالأداة (أما) وعقبها بحرف التوكيد جذبا للانتباه ومضاعفة لليقظة .

ثم يبين بالفعل الواقع منها على المفعول أن محلوقها هو الدين ، وأى شيء بعد الدين يحرص عليه المؤمن ؟ ولا يخفى ما للمضارع من إفادة التجدد فكل ما ينبت فى القلب من معانى الدين يمر عليه حدها ما دامت باقية معه ، وذلك كناية عن أن هذه الخصلة لا تجتمع مع الدين فى قلب ، فمن أوتيها حرم الدين ، ومن أولىَ الدين عصمه الله منها ، ومراده عليه السلام أن تجاهد الأمة أنفسها ، فلا تلين لحرب الشيطان الذى يوغر الصدور ، وينزع بين الناس فيحبط أعمالهم . وفى ذلك من التحذير والترهيب من هاتين الخصلتين ما فيه أعازنا الله منها وكفانا شرهما .

الحديث السادس :

عن ابن عمر ﷺ عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إنما يلبس الحرير فى الدنيا من لا خلاق لهم فى الآخرة " . (1)

الحرير لباس المترفين ، رقيق ناعم يوائم البشرات الناعمة الرقيقة ، والدين يريد الرجال للجهاد والعمل خشنا صلبا ، فلابس الحرير من الرجال هارب من رسالته ، متشبه بالغانيات ، والرسالتان مختلفتان : وعليه فالمتشبه بهن لا خلق له فى الدنيا فضلا عن الآخرة ، ومن نصائح الرسول ﷺ لأمته : " اخشو شنوا وتمعددوا فإن النعمة لا تدوم " .

---

(1) الحديث رواه البخارى فى اللباس (باب لبس الحرير للرجال وقدر ما يجوز منه) ج ١٠ ص ٢٤٤ ، ومسلم فى اللباس (باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء ... الخ (٢٠٦٨) .

لأن هناك ضررا بالغاً سيقع على المسلمين حين ينسلخ الرجال عن صفاتهم التى جلبوا عليها ، وتتحل أخلاقهم ، و الأكسية كما هى لباس الأجسام لباس الأنفس ، وهل تحس الأجسام خشونة الثوب أو نعومته إلا بحس أنفسها ؟

إنه معنى يستحق أن يؤكد بالقصر فيخصص فيه لبس الحرير بمن لا نصيب له من خير الآخرة ، حتى ينظر من له طمع فيه مصيره ، فينأى بجانبه ، وقد جعل الظرف الفانى مقابلا للخالد ، وحرير فى الفانى يحرم صاحبه سندساً واستبرقا دائمين ، وإطلاق خلاق الآخرة يتجاوز الحرير فيعم النعم كلها .

ترى كم تكون الخسارة فى لبس ثوب من حرير لغير عذر طبى ؟ .

إنه أمر " إن لم يكن معلوما فهو مما ينبغى أن يعلم ، ولذلك استعمل معه (إنما) ولم يتجه الكلام إلى لابس معين ، تعريضا بكل لابس حرير ، وتحذيراً لكل عازم على لبسه وترهيبا له .

ويستفاد من الحديث أن من خالف التحرير ، ولبس الحرير فى الدنيا فإنه يعاقب بدخول النار ، إن لم يتب ويستغفر الله منه .

الفصل الثالث

ضروب التوكيد المعنوية فى أحاديث الترغيب والترهيب

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : ضروب التوكيد المعنوية وأسرارها البلاغيـــة فـــى أحاديث الترغيب .

المبحث الثانى : ضروب التوكيد المعنوية وأسرارها البلاغيـــة فـــى أحاديث الترهيب .

المبحث الأول

ضروب التوكيد المعنوية وأسرارها البلاغية

فى أحاديث الترغيب

قد تفيد بعض التراكيب توكيد وتقرير ما تؤديه من معانى دون استخدام شئ من ضروب التوكيد السابقة ، وهذا ما نعنيه فى هذا الفصل .

والمتذوق للأساليب العربية ، والواقف على مكنون أسرارها يجد هذا اللون من التوكيد كثيرا ، وخاصة فى كثير من ألوان التشبيهات والمجازات والكنايات .

والمتأمل فى البيان النبوى يجد أنه يضرب بسهم وافر فى هذا الميدان ، ويتخذ من التعبير بهذه الألوان أداة ناجحة فعالة للوصول إلى هدفه من شغل الحس الظاهر والباطن ، وامتلاك النفس بكل ما فيها ، لأن هذه الألوان أقرب إلى النفس ، وهى بها آنس ، ولا سيما أن الرسالة التى جاء بها البيان النبوى تجديد للقيم ، وتعديل للمفاهيم ، وتعريف بأنماط من المعانى ، لا يسيغها العقل الدارج على ضدها ، إلا مأخوذا بقهر العاطفة وتأثر الوجدان ، يثنيانه ليعيد النظر ويختبر الدليل ، وإنما يهزهما فيهز العقل ليخلى مكانه إلى مكان جديد — ذلك التصوير المقنع ، الذى ينتجه المتكلم بكل قوى نفسه ، ليسكن أغوار نفس صاحبه .

وفى هذا المبحث سأعرض لمجموعة من أحاديث الترغيب اشتملت على ضروب من هذا التوكيد المستفاد من التشبيهات والمجازات والكنايات الواردة فيها .

الحديث الأول :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخلت علىَ امرأة ومعها ابنتان لـــها تسأل ، فلم تجد عندى شيئا غير تمرة ، فأعطيتها إياها ، فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها ، ثم خرجت ، فدخل علىً رسول الله ﷺ فأخبرتـــــه ، فقـــال : " من ابتلى من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار " .[1]

عرفت جاهلية العرب بوأد البنات خشية عار أو إملاق ، وجاء الإســـلام يرفع شأن الحياة ، ويصعد معانى الخير ، ويعطى القيم مكانها لينتظم الوجود .

وهذه قصة صغيرة لكنها عجيبة من جانبين :

أولا : أنها تبين بالتطبيق العملى ما كان بيت النبى عليه الصلاة والسلام يحققــه من القدوة للمؤمنين ، فيتخفف من زاد الدنيا حتى لا يوجد فيـــه لأهلــه وللسائل غير تمرة .

ثانيا : أنها تقرر بقوله ﷺ :" كنَّ له سترا من النار " ما تقرر من عظيم المعنى.

ابتلاء من الله أن يولد لإنسان بنت فى ذلك الوقت السابق على الإســـلام وابتلاء أيضا أن يولد لإنسان بنت فى هذا الوقت الذى نعيش فيه .

أمَّا أولا : فيكفى أن يصور ذلك القرآن الكريم بقولـــه : ﴿ وَإِذَا بُشِّـــرَ أَحَدُهُـمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُـــوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِـــي الـــتُّرَابِ أَلاَ سَـــاءَ مَـــا يَحْكُمُونَ ﴾.[2]

---

[1] الحديث رواه البخارى فى الزكاة (باب اتقوا النار ولو بشق تمـــرة) ج ٣ ص ٢٢٥ والأدب .

[2] سورة النحل . آيتان (٥٨ ، ٥٩) .

وأمّا ثانيا : فلاتصال هذا الزمن بما قبله ، ولتأصل تلك العادات وصعوبة التحول تحسبا ومعنى دفعة واحدة .

وأمّا ثالثا : فيما يحس به كل والد ووالدة من أن البنت أشد حاجة للرعاية وأعظم كلفة فى اليقظة ، لما يناط بها من الشرف ، ويتمثل فيها من الكرامة .

لهذه المعانى جاء تعبير رسول الله صلى الله علية وسلم مصوراً كل التصوير بقولة : من ابتلى أما كلمة "شىء" ، فلعموم العدد ابتداء من أقله وهو الواحدة .

من كان حظه هكذا فأحسن الى ما رزقه الله من هذا الجنس الجدير بالإحسان جاعلا الحب مكان البغض ، والاستبشار مكان الإنكار ، وحسن الصحبة محل سوء العشرة والتأديب بأدب الإسلام ، والتربية بخلق القرآن دون ما سواهما من كان لهن كذلك فى الدنيا " كن له ستراً من النار " فى الآخرة .

والستر هو الحائل ما وراءه ، والفاصل بين ما هنا وما هناك ، وما هنا هو الذى أحسن الى ما رزقه من البنات ، وما هناك هو نار جهنم بحرها وشرها ، وإنسان ضعيف كل الضعف ، واجف القلب ، مرتعد الفريصه ، فى موقف هو له خطير ، وشرره يطير .

لم تعلق النفس بالساتر الواقى ، وكم تتأكد الرغبة فى الحامى الشفيع ، وكم يكون ذلك الساتر الحامى حبيبا عظيما كريم الصنيع ؟

إنه هذه البنت التى أحسن أبواها إليها بما سلف ، فأحسن الله إليهما بها حجاباً بينهما وبين النار .

إنه ترغيب عظيم فى الرضا بالبنات ، والإحسان إليهنّ ، نقل الإحساس بهن لحماً ودما إنسانيا وصوره جملية من البشرية الى الإحساس بهن سترا حصينا حامياً ، يقف بين النار وهوْ لها ، والأجسام الضعيفة وخوفها .(1)

ثم إن سقوط حرف التشبيه لا يجعل البنات شيئا والستر شيئا آخر ، فيهز الثقة ، ويضعف الأمل ، بل يجعلها شيئا واحداً كما هو الأصل فى المسند إليه ومسنده فى الجملة الاسمية الأمر الذى يؤدى الى توكيد الترغيب فى الإحسان الى البنات والرغبة فيهن .

الحديث الثانى :

عن أبى هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " أرايتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ما تقولون ؟ أيبقى ذلك من درنه شيئاً ؟ قالوا : لا يبقى ذلك من درنة شيئاً قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا " . (2)

يقرر الرسول ﷺ فى هذا الحديث لأمة فضيلة الصلاة ، ويؤكد أجرها ويرغب فى المحافظة عليها ، لصبروا عليها ، فشبه المؤمن الذى يعد نفسه للصلاة فيصليها . ثم يعد نفسه للصلاة فيصليها حتى يتم فرض اليوم بحال المؤمن الذى يمر ببابه نهر فهو يغتسل فيه خمس مرات كل يوم ، والمماثلة بين الحالين مقصود منها إثبات الغاية التى هى جهتها ، وقد جاءت للتقرير مصرِّحا بها على وجه التقابل .

فتكرار الصلوات يمحو الخطايا ، كما أن تكرار الاغتسال لا يبقى من الدرن شيئاً ، وهنا ينتقل المؤمن كلما توضأ ليصلى أو كلما سمع النداء الى

---

(1) ينظر : الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ١٤٦ بشىء من التصرف .

(2) ينظر : تيسير الوصول جـ٢ ، ص ١٧٤.

تصور نهر لا يجهده بُعْده ، إذ هو قريب ببابه ، وتصور درن يؤذيه بقلؤه ، إذ هو شيء مشين فوق جسمه ، وتصور اغتسال يورث النشاط ويزيل الدرن ، فيرى نفسه مندفعاً الى الصلاة سعيداً بها لينقى مما يشينه ، ويبرأ مما يثقله .

وقد جاءت صورة المشبه به سابقة فى التعبير " أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم .. " لتوقظ انتباه السامعين ، وتحرك شوقهم لاسيما وقد اقترنت بذلك الاستفهام التقريرى الذى يطلب منهم جوابه ليطيل الشوق ويزيد الانتباه ، مع أن الصورة الممثل بها فرضية محبوبة يتشهاها كل فرد يشعر بالحياة ، ويحس بالجمال : نهر ببابه يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، وحسبنا ما توصى به كلمة نهر النكرة من رقة ، وصفاء وعذوبة ، وعظمة ، وما توحى به " البـاء " بين النهر والباب ، من الالتصاق حتى كأن الدار تجرى من تحتها الأنهار ، وما يخيل لنا الفعل المضارع (يغتسل) من استحضار الصورة مع التجدد والحدوث طرفى النهار وزلفا من الليل ، يدل عليهما العدد المحصور فى اليوم ، ثم يطرد هذا مع العمر صعوداً بإضافة لفظ العموم إليه (كل يوم) دلالة على اتصال النعيم ودوامة .

وتأمل قوله ﷺ " يبقى ذلك من درنه شيئاً " وسر الإشارة بهذا اللفظ الدال على التعظيم لما فيه من لام البعد وكاف الخطاب ، وداعى تقديم البيان وهو الجار والمجرور على المبين تعجيلاً بالمهم ، ثم تنكير المبين وهو (شيئا) لإفادة التعليل فمعناه : شيئا أى شيء مهما كان قليلاً .

أما فى جانب المشبه به المتأخر الذى أغنت فيه (الفاء الفصيحة) عن الإطناب بذكر الشرط ، فقد أعيدت عليه الإشارة بالتعظيم إجمالاً لتأكيد الربط وشدة الإيصال بين الهيئتين .

وهنا نرى تعريفا لا تنكيرا فى جميع الأسماء ، يرشد المؤمن إلى أن الصلوات المعهودة له والمفروضة عليه هى بنفسها التى مثل لها هذا التمثيل

الهادف بدليل إتباعها بهذا العدد ، ثم نرى جانبا لم يظهر هناك ، وهــو إســناد فعل المحو الى لفظ الجلالة ، وجعل الصلوات آلـــة المحــو وســببه ، لــيزيد التفات الذهن إلى أن الممثل له هو الجانب الأشرف ، والعمل الأســـمى الــذى ينيل العبد رعاية الله ، فإذا روعى مع هذا أن لفظ المفعول الممحُو وهو الخطايا جمع لا مفرد وبصيغة منتهى الجموع ، علم مقدار ما تفعل هذه الصلوات التــى لم تنل منا ما هى أجدر به من إيثار ، ومقدار غفلتنا عن نهر من النور لا يزيل درنا شاخصاً فحسب عن البدن ، وإنما يمحو آثاماً وخطايا تغمر العبد التـــارك فتقذف به فى النار .

وفى هذا زيادة ترغيب وتقرير فى المحافظة على الصلوات الخمـــس ، والتأكيد على أدائها فى أوقاتها حتى لا تفوت على المسلم هذه الفضـــائل التــى تعطى لمن يحافظ على هذه الفريضة .

الحديث الثالث :

عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال " قال رسول الله ﷺ : " مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منـــه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " . (1)

الإيمان قوة واحدة تنتظم قلوب المؤمنين ، وتنبت فيها النبـــات الحســن المتماثل من التواد والتراحم والتعاطف ، فترى عند تجاوزهـــا رقعـــة واحــدة لتعانقها وتجانس نتاجها ، والإيمان فى قلوب المؤمنين كالدم المتدفق فى الجســم به حياتها وتماسكها ، كما بالدم الأعضاء وترابطها ، ومعه وجود حياة الـــروح وفعلها ، وأظهر المظاهر المرشدة الى الإيمان بـــذل المؤمـــن وده ورحمتـــه وعطفه للمؤمنين فرحا لفرحهم ، وتألما لألمهم ، وتداعيا لما يصيبهم ، فمن فقد

---

(1) ينظر : تيسير الوصول جـ٣ ص ٢١ .

هذا التداعى فلم تعطفه العواطف ، ولم تبكه البواكى ، فليتحسس قلبة وليسأل نفسه : أين أنا من دلائل هذا الإيمان .

فى هذا الحديث أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقرر حقيقة الإيمان فى قلوب المؤمنين ببيان اللوازم المبينة لوجوده ، فضرب لهم فيها مثلا يصورهم متى كانوا عليها صورة أعضاء الجسد فى الجسد ، إذا تألم أحدها لم ينفرد بالألم دون سائرها ، فيسهر الجميع لسهره ، ويحم الجميع لحمَّاه.

هذه الحال الجسمية والوجدانية من الأمور المجربة المألوفة مَرَّت بكل إنسان ، وستمر بكل إنسان ما كانت الإنسانية قائمة ، وهى مقياس دقيق يقيس به النبى ﷺ وسلم حال المؤمنين إذا تم إيمانهم ، ليحملهم على تزكية الأنفس وإرهاف الحسى ويقظة الروح ، لكل من يجمع الإيمان بينه وبينهم ، وليرشدهم الى أن مجتمعهم بخير ، وأمتهم بانتصار دائم ما كانوا هكذا : لا يتصورون أنفسهم أفراداً فى انفصال شأن ، واستقلال حياة ، وإنما يرونها أعضاء جسم ، يصح بصحة الجميع ، ويقوى بقوته ، ويمرض بمرض الواحد ، ويضعف بضعفه .

أليس تأخر المسلمين وانحدار نجمهم آية صدق هذا الحديث ؟

أليس أيضا علاج قلوبهم وأداة انتصارهم وسبب عزتهم أن يعودوا فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم جسداً واحداً يسهر بسهر الجزء منه ويحم لحماه؟

هذه الظواهر والآثار لحقيقة الإيمان جاءت بصيغة التفاعل التى تدل على المشاركة فى إيجاد الفعل ، فالمضاف إليه وهو ضمير الجمع أفراده متماثلون فى بذل الود والرحمة والعطف وإتباع (الجسد) بصفة الواحد) تأكيداً للوحدة الحاصلة من تماسك الأعضاء والتى هى سهر السهر والحمى للذين يصيبان الجميع بإصابة العضو منه ، ولاشك أن الممثل به كلما زاد تقراراً وتأكداً زاد

الممثل له مثله ، لأنه موضوع له ، ومقيس به للاعتبار والموعظة ، ثم مجانسة جواب الشرط لفعله فى المضى مع إمكان أن يكون مضارعاً أدل علـــى هــذه الصفات لما فيه من إشعار بالمبادرة وإسراع بالنجدة ، للاقتران الزمنى بيــن الشكوى والتداعى .

والطف اللطف فى التعبير ما يحمله لفــظ (تداعى) من عجب المعنى ، فهو يخيل إليك أن أعضاء الجسد قد هبت للنجدة ، يدعو بعضها بعضا وينادیــه لإسعاف صاحبها أو مواساته ، ثم يجعل تناديه ليس الصراخ بلا مغيث ، وإنمــا هو الجواب العلمى المسعف والمساعد له : السهر والحمى .

الحديث الرابع :

عن أبى مسعود الخدرى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له . ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له " .[1]

يشير الرسول ﷺ إلى ما ينبغى أن يكون عليه المسلم بالنسبة إلى أخيـــه المسلم من الحب والإيثار والتعاون ، لما لذلك من أثر عظيم فى تقوية الروابــط والعلاقات ومن المعلوم أن الدواب من الأشياء التى يمتلكها الإنسان ، وأن لكــل نوع منها نفعامعينا ، فدابة الركوب والحمل يقصد منها ما أضيفت إليه . قـــال تعالى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [2] ولما كان أحدهما مكانه الظهر فقد عبر به فى الحديث مجازا عن الكل ، تعيينــا لنوع الفائدة المرادة، من الجنس –وهذا يسمى عند البلاغيين بالمجاز المرسل[3]

---

[1] تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ١ ص ١٥٠ .

[2] سورة النحل : الآية (٨) .

[3] ينظر : الإيضاح ضمن شروح التلخيص ج ٤ ص ٣٤ وما بعدها .

علاقته الجزئية — ليوازى ما عطف على هذه الجملة من فضل الزاد وغـيره ، لأن الزاد متعين للأكل ، والدابة ليست متعينه للركوب أو الحمل ، فتصويرها ظهراً أدل على شدة الحاجة إليه فى السفر ، وأشد تناسبا لما بعده فى النسق من جهة ما سبق ، ومن مماثلته للزاد فى قرب اتساع مدلوله اتساع الأجناس .

ولفظ المعية أعم من حرف الملكية والاختصاص ، وأصدق وأولى فى التآزر منه ، وأشمل فى بذل المنفعة ، وأنفى للاستئثار والشعور بالتملك فى مواطن الإيثار قد يدل تنكير المضاف إليه (ظهر ، زاد) على التقليل حتى لا يحقر إنسان فضل ما عنده ، فيكون تنكيره أعود بالنفع على المؤمنين ، أما الأمور بالعودة به على المحتاج إليه فإنه يشعر بانصراف الطبع عما ينبغى ، بوجوب النظر إلى ما يليق بالرجوع إلى ما هو الأفضل فى تماسك الفرد بالجماعة ، وفى ذلك تأكيد للترغيب فى ما يقوى علاقة الفرد بالمجتمع حتى يشعر كل فرد بعدالة الإسلام ورحمة المجتمع ، فيرتفع عن الحقد ، ويسمو عن الحسد ولا يعرف الشماته . التى هى أمراض خطيرة على الأفراد والجماعات .

الحديث الخامس :

عن معاوية ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة " . (¹)

أراد الرسول ﷺ فى هذا الحديث الموجز أن يثبت شرف المؤذن وكرامته وعظيم أجره عند الله يوم القيامة ، غير أنه ﷺ لم يعبر باللفظ الدال بالوضع على الشرف والكرامة وعظم الأجر ، وعبر عن مراده بطول أعناق المؤذنين .

(¹) ينظر : الحديث فى تيسيرا لوصول ج ١ص ١٩٦ .

وطول العنق يظهر فى رفع الرأس إلى أعلى ، شعورا بكرامة المنزل وفرحا بحسن الثواب وقد شاع هذا التعبير فى الدلالة على الشرف والكرامة فيقال لمن أنال أهله شرفا : أطلت أعناقنا ورفعت رؤوسنا ، ويقال فى العكس للمسيء : قصرت رقابنا .

وفضل هذا التعبير أنه أوجز مما يفسر به لو قيل : المؤذنون أكرم الناس وأشرفهم ، بدليل طول أعناقهم لرفعة رؤوسهم يوم القيامة ، كما أنه ذكر للدليل على صحة الحكم المفهوم من وراء العبارة ، فيشبه الجمع بين المعنى ودليل صحته .

وفهم المدلول الكنائى .(1) إنما يأتى بحركة تخيليه تكسب العبارة قيمة فنية رائعة لأن الكلام فى مقام المدح بحسن المجازاة ، وطول العنق فى ذاته — وبخاصة على سبيل المبالغة بصيغة التفضيل — قد لا يكون جميلا ، وإذ يقترن المقام باللفظ المظل يحرك الذهن إلى ما هو الأنسب من المعانى الملزومة ، فتساعده الصورة التى يستحضرها الخيال من تجارب الحياة المماثلة ، فيصل إلى المراد بعد هذه الحركة النفسية ، فيكون ذلك سرًّا من أسرار التقرير والتوكيد . وأدعى إلى الترغيب فى المحافظة على هذه الشعيرة .

---

(1) الكناية من أروع المسالك البيانية ، والطرق الأسلوبية التى يعبر بها المنشئ عن المعنى ، تعبيراً مُظِلّا هادفا موجزاً ، يخفى تحت ظلاله لطائف مراده ، وقد عرَّفوها بقولهم : لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه . وقال الإمام عبد القاهر: أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجئ إلى المعنى هو تاليه وردفه فى الوجود ، فيومئ به إليه ، يجعله دليلا عليه . وقال الخطيب فى بيان سر أبلغيتها : أطبق البلغاء على أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح ، لأن الانتقال فيهما من الملزوم إلى اللازم ، فهو كدعوى الشيء ببينه . " ينظر متن التلخيص بشرح مقدمة البرقوقى ص ٣٣٣، ٣٤٢.

وإنما خص هذا بيوم القيامة لأنه يوم الحق الذى لايلتبس فيه الحكم بالعمى والجهالة ، وتعظيمه فى هذا اليوم الشديد إنما يترتب على عظمته يوم تعظيمه الربَّ الجليل بقوله : " الله أكبر الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله " لأنه يوم الجزاء على ما سبق من عمل ، وهذا من أحسن التعريض بمن لا يعنيهم أمر الأذان ، ولا يسارعون إلى ترديده وإجابة داعيه . وأنهم من الجهل بمكان ألا يعرفوا ما يجب أن يعرف من حق الصلاة ذاتها ، إذا كان هذا كله حق المؤذن بها . (1)

ويستفاد من الحديث : بيان شرف المؤذنين وعلو منزلتهم يوم القيامة ، لأن المؤذن يدعو إلى الصلاة التى هى من أفضل الأعمال ، ويدل على الخير ، ومن دل على الخير فله مثل أجر فاعله .(2)

---

(1) ينظر : صحيح مسلم فى كتاب الصلاة باب فضل الأذان (٣٨٧) .

(2) ينظر : نزهة المتقين شرح رياض الصالحين ج ٢ ص ٢٤ .

المبحث الثانى

ضروب التوكيد المعنوية وأسرارها البلاغية

فى أحاديث الترهيب

الحديث الأول :

عن كعب بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله : " ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه " .[1]

حب المال رأس كل خطيئة يزينه الشيطان للناس ليفتنهم فيه ، قال تعالى :﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ . [2] ويقول تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ . [3]

وحب الظهور والرياسة ، وأن يشار إليه بالبنان ، وينهض إذا أقبل للقائه ، إنها نفحة ينفحها الشيطان فى قلبه ، وعقدة يعقدها فى نفسه ، وينفث فيها نفثة الغرور والكبرياء والإعجاب بالنفس واحتقار ما سواها ، ومن يموت على هذا من الكبر والفخر يكون أهون على الله من الجعلان الذى يدهده الخراء بأنفه ، فالناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب .

صاحب إحدى البلوبين أوكليهما . الحرص على المال أو المنصب — مفسد لدينه ؛ لأنه لا يهدأ له بال ، ولا تستقر له نفس مادام هذا الحب يشغله

---

(1) ينظر الحديث فى تيسير الوصول إلى جامع الأصول : ج ٢ ص ٢٢ .

(2) سورة آل عمران : الآية (١٤) .

(3) سورة الأنفال : الآية (٢٨) .

ويوجه قواه المدركة ، لأن حب الشيء يعمي ويصم ، فكيف يبصر في الدين فضيلة ، والدين يأمره وينهاه ليعيش عفا قنوعا ، وكاسباً مقتصدا ، يجتنب الشبهة وإن أربحت كثيراً ،وينفق ما جعله من ماله حقاً عليه ، وكيف يأنس للدين والدين يأمره وينهاه ليخفض جناحه ، ويلين عريكته ، ويذل المؤمنين ويجعل العزة على الكافرين قال تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .[1]

ألم يناد الدين أعلى جبهة في البشرية : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . ألم يعاتب أعظم البشرية لأنه : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى[1] أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى[2] ﴾ .

إذن فالدين حرب على هذين الأمرين ،وفساد الدين عندهما أيسر من فساد نزعتهما إنهما من عمل الشيطان . إنه عدو مضل مبين .

يريد الرسول عليه السلام النهي عن هذين والتحذير من شرهما ، ولا شر أعظم ولا ضرر أنكى مما يصيب الدين ويفسده ، فيضرب المثل لحال الأمرين مع دين المرء ، بحال ذئبين خطيرين جائعين أرسلا في غنم .

ماذا يفعل ذئبان جائعان أطلقا في غنم ، أليس الفتك في شَرَهِ ، والسفك في سفه ؟ إنه يقر البطون ، وشق القلوب ، وإشباع النهم . صورها الرسول هكذا ليشغل فكر السامع في مدى الخطر ،وليستحضر هذه الصورة كلما غره الهوى فأوقع في نفسه خاطر المال أو الشرف ليخاف حب المال أو حب الشرف أن يفسد دينه ، كما يخاف ذئبا جائعا أرسل في غنمه .

وفوق ذلك الإيضاح العام نرى في البيان النبوي أموراً أدق تقريرا ، وأوغل في تأكيد هذا الخطر والترهيب منه .

---

(1) سورة المائدة : الآية (٥٤) .

منها : ذكر الحرص دون الحب ، لأن فيه إشـــارة إلـــى عمـــل النفـــس الإرادى ، ثم بناء الجملة على نفس التفضيل مثبت للمساواة إن لم يثبت العكس ، إذ أن العكس محتمل فيكون التمثيل حملا على الأقل ، وهو يقتضـــى المبالغـــة فى إثبات الإفساد ، وقد هيأ هذا النفى لتأكيد آخر حاصل بزيادة حـــرف الجـــر الداخل على الخير (بأفسد) ثم أتباع النكرة بالوصفين عَمَـــلٌ لـــه مدلولـــه ، فالذئب طبعه الفتك والإفساد جائعا وشبعان ومرسلا ومقيدا ، فهو مخوف علـــى كل حال ،فإذا أنضم إلى طبعه الجوع ضاعف الخطر وأنذر بالفاجعة ، فوجبـت مضاعفة الخوف وتزايد الحذر ، فإذا انخرق السياج وسقطت الحماية ، فأرسل فى الغنم ، فلبيك على ما أولم به للذئب صاحبها كل هذه ألفـــاظ مـــن الحديـــث القصير ، الذى أوجز بهذا القصر ، وبحذف ما يسهل تقديره ، فإن إفساد الذئبين للغنم يقابله إفساد حرص المرء على المال والشرف لدينه .

هل يرى المرء حرصه على المال إلا ذئبا جائعا مرسلا ؟ - وحرصـــه على الشرف مثله ، وهل يرى دينه إلا الفريسة المنبوذة لعدو الذئـــاب ؟ وهـــل يرى خوفه على دينه أجدر بحرصه من خوفه على ماله . (١)

الحديث الثانى :

روى عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : " تقيئ الأرض أفـــلاذ كبادها مثل الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجىء القاتل فيقـــول فـــى مثـــل هذا قتلتُ ويجىء القاطع الرحم فيقول فى مثل هذا قطعت رحمـــى .. ويجـــىء السارق فيقول فى مثل هذا قطعت يـــدى . ثـــم يتركونـــه ولا يـــأخذون منـــه شيئا " . (٢)

---

(١) ينظر : الحديث النبوى الشريف من الوجه البلاغية ص ١٦٨ بتصرف .

(٢) ينظر : آمالى المرتضى : ج ١ ص ٩٥ .

فى هذا الحديث يصور لنا رسول الله ما يتكالب عليه الناس من متـــاع ، وما يجرم به بعضهم علـــى بعض هذه الصورة الذميمة ، التـــى تغثـــى لـــها النفس ، ويشمئز منها الطبع ، فيجمع دونها الثياب ، وينأى بالجانب : صـــورة القىء ... والقىء لأفلاذ الكبد .

إننا الآن فى هذه الحياة عمى ، عمى عن هذه الرؤية ، إنـــها ستنكشـــف تماما فى الغد ، حين يذوب الرواء الكاذب والبريق الخادع ، الذى يلقيه الشيطان ليغشى أبصارنا فتغشى عن الحقيقة ، ليقتل القاتل طمعا فى غير محيى ،ويقطـــع القاطع رحما فى غير واصل ، ويسرق السارق خلسة ما يبيد ،وهنـــاك عندمـــا يبطل السحر والساحر ، فتنحبس نفثات الشـــيطان ســـتخرج الأرض أثقالـــها ، ويظهر منبوذا وميتذلا ما كانوا به يجرون ، فلا يرون سوى الذنب قد فعلـــوه ، والإثم قد اقترفوه ، فى هذا الحطام الذى يغادرونه ولا يمسونه ، لأنهم به مـــن الشيطان قد ظلموا ، وفيه للناس قد ظلموا .

هذا المشهد الغيبى قطعة رائعة من ختام الحياة ، يصور فيه الرسول ﷺ الأرض صورة شخص غثيان ، يطرح من فمه ما يؤذيه حتى يقىء من كبـــده ... هذه الأفلاذ من الكبد مثل الأسطوان من الذهب والفضـــة ، والســـر فـــى ذلك أن يرى الطامع ويقر ما أُخبِر به من الدين صدقا ، وما كَذَّبَ به من الحـــق حقا .

إن تشبيه الأرض بإنسان يقىء تشخيص للأرض فى صورة كريهـــة ، وقيؤها أفلاذ كبدها يقوى هذه الصورة فالقىء وأفلاذ الكبد لـــوازم الحيـــوان ، وإنما جعل المشبه به المحذوف هو الإنسان وإن وقع اللازمان من غيره _ لمـــا أسند الله إلى الأرض فى الآيات المشبهات للحديث من لوازم الإنســـان : فـــى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَـــى

لَهَا ﴾ . ([1]) فهى استعارة بالكناية ، ونسبة القىء وأفلاذ الكبد للمشبه وهو الأرض تخييل يذهب فيه الذهن ما يذهب . يقرر المعنى ويؤكد الغاية وهى الترهيب والتنفير مما يكون سببا فى ارتكاب الجرائم والآثام . ألا وهو الطمع وحب المال والتكالب عليه .

الحديث الثالث :

عن أنس ﷺ " قال : قال رسول الله ﷺ " **من كانت الآخرة همَّه جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا هَمَّهُ جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له ، فلا يمس إلا فقيراً ، وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالود والرحمة ، وكان الله بكل خير إليه أسرع** . "([2])

اشتمل الحديث على عدة كنايات بعضها يفيد الترغيب وبعضها يفيد الإلزام والترهيب . فقوله : " من كانت الآخرة همه " كناية عن التمسك بالدين ، واجتناب ما حرمه الله . والتزام ما أمر به .

وقوله : " جعل الله غناه فى قلبه " كناية عن القناعة بالمقسوم من الرزق وقوله : " جمع عليه شمله " كناية عن قرار النفس وعدم تفرقها شعاعاً على أسنة المطامع .

وقوله : " وأتته الدنيا وهى راغمة " إيماء من التقدير قبل الخلق ، وجفاف القلم بما هو كائن .

([1]) سورة الزلزلة : الآية (٣ ، ٤ ، ٥) .

([2]) ينظر : الحديث فى تيسير الوصول ج ٤ ص ١٦٢ .

وقوله : " من كانت الدنيا همه " كناية عن شدة الحرص على الفانى ، ولا تجتمع مع الحرص على الباقى الخالد ، ففيه الاستهانة بالدين ، وترك سبيل المؤمنين . وقوله (جعل الله فقره بين عينيه) كناية عن تصوره الشديد له ليظل فزعا منه معاقباً بتصوره له ، جاهدا فى دفعه عنه . وقوله : " فرق عليه شمله " كناية عن تشعب قلبه بالمطامع ، وإبعاد مشتقة بطرح الأمانى وقوله : " ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له " تصريح بما سبق إليه التلميح مؤكد له . وإقبال العبد على الله بالقلب كناية عن إخلاص العبادة ، والتخلص من العوائق بتمام الانقياد للأمر والنهى ، فالذى يتم بسببه الجزاء المماثل من تطويع القلوب المؤمنة ، وانقيادها لصاحبه بكل وُدٍّ ورحمة ، ومن نجدة الله العاجلة فى كل أمر بكل خير . جعلنا الله ممن يؤثرون الآخرة على الدنيا ، والباقية على الفانية .

الخاتمة :

بعد هذه الإطالة السريعة فى هذا البحث المتواضع حول ضروب التوكيد فى أحاديث الترغيب والترهيب نستطيع أن نقف على عدة حقائق من أهمها ما يلى :

١- أن كلام رسول الله ﷺ فى قمة الفصاحة والبلاغة بعد كلام الله تعالى ، فكلامه دائما يأتى مطابقا لمقتضى الحال .

٢- أن الأحاديث المتعلقة بالترغيب أو الترهيب تعد – فيما أرى – من أكثر الأحاديث التى تشتمل على لون من ألوان التوكيد ، حيث إنها تمس غالبا الأخلاق ، وبيان جزاء المطيع وعقاب العاصى عند الله تعالى فيكون ذلك دافعا لما تدعو إليه .

٣- أن ضروب التوكيد الواردة فى أحاديثه الشريفة لم يأت بها رسول الله ﷺ لشك المخاطب فى خبره – فهم يعلمون صدقه وأمانته – وإنما لزيادة الترغيب فيما يدعوهم إليه ، والترهيب مما ينهاهم عنه ، فتقوى هممهم .

٤- تعددت وتنوعت ضروب التوكيد فى أحاديثه ﷺ وفقا لما يقتضيه المقام ، وقرائن الحال بين ضروب توكيد فعلية استخدم فيها رسول الله ﷺ الحاسة كتغيير هيئته ، أو نبرات صوته ، أو الفصل بين فقرات كلامه ، واستخدام وسيلة إيضاح كخطه ﷺ على الأرض بعد فراغه من دفن الميت ، وتشبيك أصابعه ... إلى غير ذلك من وسائل الإيضاح التى تقرر المعنى وتؤكده كما مر فى الأحاديث الواردة فى البحث . كما استخدم ضروب التوكيد اللفظية التى وضعتها اللغة كإنَّ ، وأنَّ ، والقسم والنون ... وغيره إلى

جانب ما تفيده الأساليب الأخرى من تقرير وتأكيد كالتشبيهات والمجـلزات والكنايات ... وغير ذلك مما كشفَ النقاب عنه فى البحث .

هذا وبالله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

دكتور

رجب محمد سالم رفاعى

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

جامعة الأزهر

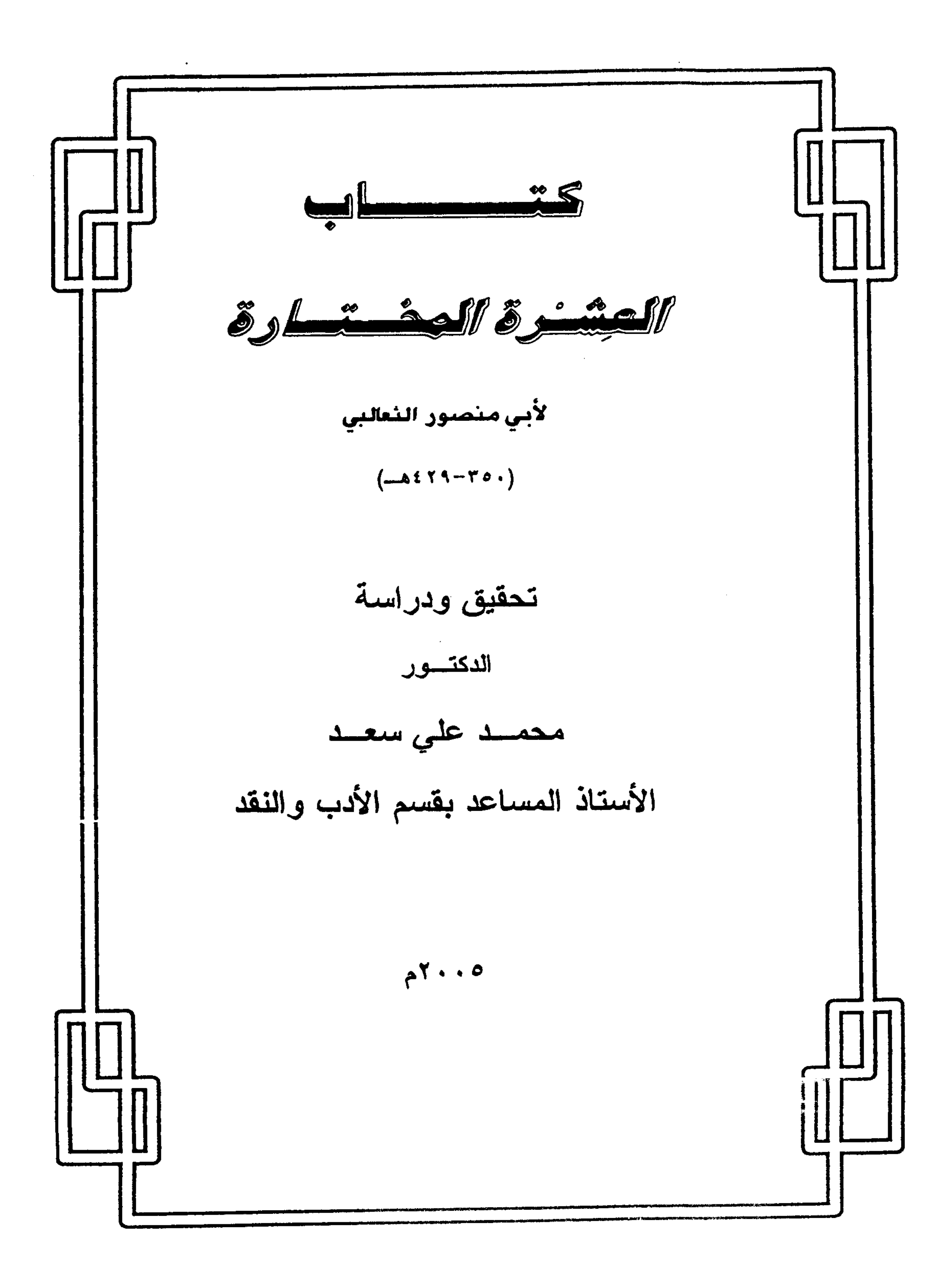
أولا فهرس المراجع

القرآن الكريم

- الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى .
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى طبعة المنار .
- الأقصى القريب فى علم البيان للقاضى التنويض .
- آمالى المرتضى .
- الإنساب للسمعانى .
- الإيضاح لتلخيص المفتاح .
- البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركش .
- البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى للدكتور محمد أبو موسى .
- تيسير الوصول إلى جامع الأصول للشيبانى مطبعة الحلبى .
- الجامع الصغير للإمام السيوطى .
- الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية .
- خصائص التراكيب للدكتور محمد أبو موسى .
- دراسة تحليلية للفصاحة والبلاغة والإسناد دكتور الشحات أبو ستيت دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر .
- رصف المبانى .
- شرح المفصل لابن يعيش . نشر مكتبة المتنبى.
- شروح التلخيص .

- صحيح مسلم .
- عمدة القارئ لبدر الدين العينى طبعة منير الدمشقى .
- فتح البارى شرح صحيح البخارى .
- كتاب اللامات للزجاجى .
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلونى .
- الكشاف للزمخشرى .
- الخلائق للإمام عبد الرؤوف المناوى .
- لسان العرب لابن منظور . دار المعارف .
- المجازات النبوية للشريف الرضى .
- المجموعة النحوية .
- المزهر للسيوطى .
- معجم البلدان .
- معجم الأدباء .
- معجم مقاييس اللغة لأبى الحسن أحمد بن فارس بن زكريا .
- مغنى اللبيب لابن هشام الأنصارى .
- مقدمة الفائق فى غريب الحديث .
- الموافقات .
- نزهة المتقين شرح رياض الصالحين .
- وصايا الرسول ﷺ وأثرها فى تقويم الفرد وإصلاح المجتمع للدكتور محمد بكر إسماعيل .

ثانيا : فهرس الموضوعات



كتاب

العشرة المختارة

لأبي منصور الثعالبي

(٣٥٠-٤٢٩هـ)

تحقيق ودراسة

الدكتور

محمد علي سعد

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد

٢٠٠٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ، اللهم صلِ عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .... وبعد .

فقد قيض الله ﷻ لهذه الأمة رجالاً يدافعون عنها في كل العصور ، ويحفظون لها تراثها ومجدها ووسائل حضارتها ، لتكون بحق خير أمة أخرجت للناس .

وهذا واحد من أولئك الذين وهبوا أنفسهم لخدمة هذه الأمة وأفنوا حياتهم في حفظ لغتها وآدابها وعلومها ، ألا وهو " أبو منصور الثعالبي " الذي ذاع صيته وطارت شهرته بما قدمه لهذه الأمة من مؤلفات وتصانيف في شتى علوم اللغة وآدابها ، ستظل - على مر العصور - معيناً لا ينضب وزاداً نفيساً لكل راغبي العلم والمعرفة .

وهذا كتاب من كتب هذا الرجل الكثيرة والمتنوعة ، لا يقل شأنا وفائدة عن كتبه الكبيرة والشهيرة ، فقد لفت نظري عنوانه " العِشْرةُ المختارة " وكأن " الثعالبي " يريد أن يقول من خلاله : من أراد أن يعيش عيشة راضية سعيداً مسروراً يحظى بحب الله والناس فإن في هذا الكتاب كل ما يريده الإنسان من سعادتي الدنيا والآخرة .

ولما طلبت معرفة ما في الكتاب تفضل أخي وزميلي الدكتور " يوسف عبدالوهاب " - وهو ممن لهم باع طويل في مجال التحقيق - فيسّر لي الحصول على نسخة مصورة من هذه المخطوطة من معهد إحياء المخطوطات العربية ، وحثني على خوض هذا المجال ، فله مني كل الشكر والتقدير كما

أتوجه بالشكر والتقدير إلى زميلي الدكتور " عبدالرازق حويزى" لما قدمه لـــي من العون والمساعدة بتوفير بعض المصادر المهمة التي أسهمت بـــدور كبـــير في تحقيق هذا الكتاب فله منى كل الشكر والتقدير .

فلما اطلعت على المخطوطة أخذت بلــى موضوعاتــها واختيارتــها ، وازددت يقيناً أن " الثعالبي " لم يكن يعرف التخصص في مجال واحد ، بل كان موسوعة شاملة ، في كل العلوم والمعارف ، وقد ظهر ذلك جلياً فيما أورده من استشهادات ، من القرآن الكريم والحديث النبوى ، والأشعار وأقوال الصالحين ، والقصص والحكايات ، مما يدل على اتساع ثقافته وعمق تفكيره .

وقد كان عملي في هذا الكتاب مضنيا ، وذلك لأننــــى قمــت بقـــراءة المخطوطة عدة مرات حتى أتبين مواطن الغموض في الكتابة ، حيث كان فيــها بعض الطلاسم التي تحتاج إلى وقت كبير لفكها وبيانها ، فكان بعد ذلك أن وفق الله وأعان حتى خرج الكتاب بهذه الصورة ،

وإني لأرجو من الله أن ينفع به وتعم به الفائدة ، وأن يكون ما بذل فيــه من جهد خالصاً لوجه الله تعالى ، وهو حسبى ونعم الوكيل وآخـــر دعوانـــا أن الحمد لله رب العالمين .

المحقق دكتور

محمد على سعد

القســم الأول

مقدمة التحقيق

١- التعريف بأبى منصور الثعالبي (٣٥٠- ٤٢٩هـ) :

لما كانت سيرة " الثعالبي " وحياته مسطورة في كتب كثيرة ، سواء في كتب السابقين من القدماء أو في كتبه المحققة حديثاً ، لماكان الأمر كذلك فـــإن الحديث عنه يعد ضرباًمن التكرار لا فائدة من ورائه ، ولكن لما كان الكتـــاب الذي بين أيدينا (العشرة المختارة) كتابا جديداً اسيضاف إلى قائمة المصنفــات المطبوعة للثعالبي ، فقد لزم الأمر اشتمال الكتاب علـــى تعريــف بصاحبـــه ، استكمالاً وإتماماً للفائدة لدى القارئ ، حتى يكون على دراية تامة ومعرفة كاملة بالكتاب وصاحبه ، ومن ثَم يكون التكرار في مثل هذا الموضع مفيداً ونافعـــا ، وبخاصة إذا كان الأمر يتعلق بكتاب سيحقق ، فلا أقل من إلقاء الضوء علــــى صاحبه لتتم الفائدة ويتأكد النفع إن شاء الله .

أ- أصله ونسبه :

هو أبو منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيســـابورى نسبة إلى مدينة نيسابور التى كانت يومئذ مدينة عظيمة ذات فضائل جســـيمة ، معدن الفضلاء ، ومنبع العلماء .

وقد اختلف المؤرخون فى أصله ، فذهب بعضـــــهم إلـــى أنــــه غـــير عربى[1] بينما رجح الدكتور " محمود الجـــادر " أن أصلــــه عربـــى قـــائلاً : " ويرجح الظن أنه من أصل عربى[2] " لكنه لم يذكر سبب هذا الترجيح ، ولعله

---

(١) راجع مقدمة يتيمة الدهر (طبعة محمد إسماعيل الصاوى) - القاهرة ، ط١ سنة ١٩٣٤.

(٢) مقدمة " اللطف واللطائف " للثعالبي . تحقيق محمود الجادر ، الكويت دار العروبـة ، ط١ سنة ١٩٨٤ ص٥ .

استنتج ذلك من كلام الثعالبي في مقدمة كتابة " فقه اللغة وسر العربيـــة " عـــن اللغة العربية ومكانتها ومنزلتها وفضلها على سائر اللغات الأخرى[1] .

لكن ذلك لا ينهض دليلا راحجا على عروبته ، لأن كثيراً من العلمـــاء دافعوا عن العرب ، وأشادوا بفضلهم وفضل اللغة العربية ، ولم يكـــن أصلـــهم عربياً كأبى محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى [2] .

وأيما كان نسبه (عربى أو غير عربى) فإن ذلك لا يقدح في مكانتـــه ومنزلته العلمية والأدبية والفكرية ، وحسبه مؤلفاته التى جاوزت المائـــة فـــي مختلف العلوم والمعارف ، كلها تفصح عن مدى حبـــه الجم للّغـــة العربيـــة والعروبة والإسلام مما جعلها تشغل حيزاً كبيراً فـــي المكتبـــة العربيـــة فـــي القَرنين الرابع والخامس الهجريين كمـــا شـــغلت - كذلـــك- أذهـــان النـــاس جميعاً.

ب- ملامح من حياته :

في جو مشحون بالمتناقضات والاضطراب وعدم الاستقرار ولـــد أبـــو منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل عام ٣٥٠ هـــ فـــي مدينـــة نيســـابور الخراسانية وكان الحال يومئذ على أشده من المـــد والجـــزر بيـــن الولايـــات الإسلامية ومقر الخلافة العباسية ، بالإضافه إلى أن كل شئ في ذلك العصـــر قد بلغ أقصاه وأثمر كل عمل فيه نتاجه المحتوم . فبدأ التمام وبدأ النقص فـــي حين واحد ، واجتمع الخليط من حضارات العرب والفرس والروم إلى الخليـــط

---

(١) انظر فقه اللغة وسر العربية ، تحقيق خـــالد فـــهمى - القـــاهرة - مكتبـــة الخـــانجى - سنة ١٩٩٨ ص٣.

(٢) انظر " برد الأكباد في الأعداد " للثعالبي تحقيق د. أسامة البحيرى - البربرى للطباعـــة - سنة ١٩٩٩ ص٨ .

من عوامل القوة والضعف والنشازة والإنذار فكان نسيجاً من ألوان الزمان لا تشبع منه عين الفنان ولا روية الحكيم(١) .

ووسط هذا الجو دفعت به أسرته إلى كتاتيب نيسابور ليتأدب فيه ، ويتلقى مبادئ العلوم العربية ، والمعارف العامة ، ولما أنهى دراسته ، فارق مهنة أسرته (خياطة جلود الثعالب) واشتغل بالتأديب وتعليم الصبيان(٢) .

ومن الملامح الحياتية لهذا الأديب أنه لازم عدداً كبيراً من العلماء والأدباء والكتاب ، وصحبهم فترات طويلة ، مما كان سبباً في توسيع مداركه، وتزويده بمرويات كثيرة ، وتنمية محفوظه الأدبي واللغوى ، لذا نجد إطراء الثعالبي لهم إطراء ينسجم مع ما نهل في مجالسهم من زاد المسامرات ، وحصيلة المجالس الأدبية الشيقة التى جمعت أدباء العصر "كأبى الفتح البستى" ، " وأبى بكر الخوارزمي "، " وبديع الزمان الهذانى " ، " وأبى النصر محمد ابن عبد الجبار العتبى " ، وغيرهم(٣) ممن نقل عنهم كثيراً من الأخبار والأشعار ، ونهل من معارفهم وأدبهم .

وهناك ملمح آخر في حياة هذا العالم الكبير أنه عمل على تعميق صلته ببعض الشخصيات السياسية والثقافية التى اتصل بها ، وكان لها أثرها في حياته وأدبه وثقافته ؛ حيث قامت هذه الصلة وتلك العلاقة على تبادل الحب

---

(١) انظر ، ابن الرومى حياته من شعره ، عباس محمود العقاد ، المجموعة الكاملة مجلد ١٥ ، ط١ دار الكتاب اللبنانى ١٩٨٠ ، ص١٨ .

(٢) انظر عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ، مخطوط بدار الكتب المصرية (١٤٩٧ تاريخ) الورقة ٤٥٧ ، وطبقات النحويين واللغويين لابن قاضى شهبة ، نقلا عن مقدمة ديوان الثعالبي - تحقيق د: محمود الجادر ص٥ .

(٣) انظر مقدمة الاقتباس من القرآن الكريم - تحقيق د: ابتسام مرهون الصفار - سلسة الذخائر - ٢٠٠٣ - ج١ ط ٤ .

والإعجاب لا طلبا للعطاء والهبات، كما أن معظمهم كان من المولعين بالأدب ؛ لذا كان إطراء " الثعالبي " لهم إطراء ينسجم مع ما نهل من مجالسهم من زاد وعلم ، وكان من هذه الشخصيات الأمير أبو نصر أحمد بن على الميكالى أمير نيسابور ، حيث فتحت هذه الصلة أبواب المجد للثعالبي ، فنال دعما ماليا وعلميا كبيراً ؛ حيث وثّق علاقته بابن هذا الأمير أبى الفضل عبدالله بن أحمد الميكالى الذي كان أديباً ومؤلِفا جيداً ، وكان يمتلك خزانة عامرة ، أشاد بها الثعالبي كثيراً ، وأفاد منها طوال حياته[1] بالإضافة إلى مدارسته العلماء والأدباء الذين كانوا يترددون على قصر هذه الأسرة العريقة وروايته عنهم كثيراً من الآراء والأخبار .

ومن الشخصيات التى اتصل بها الثعالبي ، وكان لها الأثر الكبير في حياته الأمير خوارزم شاه أبو العباس مأمون بن مأمون الذي اتصل به الثعالبي وتوطدت صلته به وذكره في أكثر من كتاب ، فقال عنه في مقدمة كتابه الكناية والتعريض ذاكراً اسمه بالكامل : " عونك اللهم على شكر نعمتك في مَلِكٍ كملك ، وبحر في قصر ، وبَدْر في دست[2] وغيث يصدر عن ليث ، وعالَم في ثوب عالِم ، وسلطان بين حسن وإحسان .

لولا عجائب صُنْع الله ما نَبَتَتْ   تلك الفَضَائلُ في لَحمٍ ولا عَصَبِ

هذه صفة تُغنى عن التسمية ، ولا تحوج إلى التكنية ؛ إذ هى مختصة بمولانا الأمير ، " السيد الملك المؤيّد ، ولى النعم أبي العباس مأمون بن مأمون خوارزم شاه مولى أمير المؤمنين - أدام الله سلطانه ، وحرس عزه ومكانه (٣) " وقد نقل البيهقى في تاريخه أن هذا الأمير كان رجلا فاضلا شهما نشيطاً أديباً

---

(١) مقدمة كتاب برد الأكباد فى الأعداد- تحقيق د. أسامة البحيرى- البربرى للطباعة ص١٠.

(٢) الدَّست : صدر المجلس . وهو أيضا : اللباس .

(٣) الكناية والتعريض، للثعالبي. تحقيق محمد إبراهيم سليم- مكتبة ابن سينا للتوزيع ص١٢.

يرعى الأدباء والعلماء ، مما شجع الثعالبي على تأليف كتب كثيرة باسم هذا الأمير ، فضلا على أنه هيأ له فرصة التعريف إلى الوزير أبى عبدالله الحمدونى وزير خوارزم شاه وأهدى إليه كتاب تحفة الوزراء حين قال[1] :

" وبعد فإنى حين خدمت مولانا ملك الزمان وفريد العصر والأوان خوارزم شاه ثبّت الله ملكه ، وجعل الدنيا كلها ملكه بالكتاب المسمى بالملوكى خطر لى أن أخدم وزيره الأعظم ومشيره الأفخم أبا عبد الله الحمدونى بهذا الكتاب في سياسة الوزراء ، وإن كان مقامه الشريف مستغنياً عن ذلك لسلوكة تلك المسالك وإنما قصدت به استجداء مواهبه الحسام ، ومكارمه العظام ووسمته بتحفة الوزراء " .

وفي سنة ٤٠٧هـ قتل الأمير خوارزم شاه ، فرحل " الثعالبي " إلى مدينة غزنة عاصمة الدولة الغزنوية ، والتقى بكبرائها وأدبائها كالعميد أبى منصور بن مشكان والشيخ أبى الحسن محمد بن عيسى الكرجى الذي أهداه كتابه " تحسين القبيح وتقبيح الحسن " وأقام الثعالبي في " غزنة " حوالى خمس سنوات ، ثم رحل إلى مدينة " هراة " ونزل ضيفاً على القاضى أبى أحمد منصور بن محمد الهروى الأزدى ، ونعم بجلائل مننه ودقائق كرمه ، وأهدى إليه كتابيه " اللطيف في الطيب " و" الإعجاز والإيجاز[2] " .

ثم عاد بعد ذلك إلى نيسابور - حيث مسقط رأسه - واستقر بها بعد أسفاره الكثيرة وترحاله الطويل ، وصنف لصديقة القديم الأمير أبى الفضل الميكالى كتابيه " ثمار القلوب[3] " و" فقه اللغة وسر العربية [4]" وأهداهما إليه.

---

(١) نقلا عن كتاب الاقتباس من القرآن الكريم . المقدمة ص٨ .

(٢) مقدمة برد الأكباد في الأعداد تحقيق د: أسامه البحيرى ١٤ .

(٣) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ١٩٨٥ ، القاهرة ص٥.

(٤) فقة اللغة وسر العربية ، تحقيق خالد فهمى ص٤ .

هذا وقد مكث " الثعالبي " في نيسابور ، وعكف على تنقيح كتابه " تتمه اليتميه " واستغرق هذا العمل السنوات الباقية من عمره حتي وافته المنية فى سنة ٤٢٩هـ بعد حياة حافلة بالأسفار والرحلات والمؤلفات المتنوعة التى زادت على المائة كتاب في شتى أنواع العلوم والمعارف اللغوية والأدبية والتاريخية التى أهلته ليكون علماً من أعلام التراث العربى والإسلامى .

والجدير بالذكر أن " الثعالبي " لم يكن يقصد من وراء رحلاته وأسفاره وصداقته لبعض الشخصيات السياسية إلا نشر الأدب العربى وترويج مذهبة أو رؤيته الأدبية .

ج - ثقافته وأدبه :

ولد الثعالبي في عصر يموج بألوان الثقافات والمعارف ، وكان طبعياً أن ينهل من تلك المناهل الثقافية ، وأن يغوص في أعماقها ليجعل لنفسه مكانة في هذا العصر الذي تسابق فيه الناس بكل طوائفهم إلى مجالس العلم والأدب .

وقد كانت حياة " الثعالبي " حياة تحصيل ودرس وتأليف وارتحال من مكان إلى آخر وراء خبر أو شعر شاعر أو قول ناثرٍ ولم يبخل بجهد في سبيل غرضه الذي طمحت إليه نفسه ، ولذلك أصبح فيما بعد مثالا يحتذى من أدباء عصره ، ولم يقتصر تأثيره على أهل المشرق وحدهم ، بل إن أهل المغرب العربى كانوا أكثر احتفاءً به من أكثر الناس قربا إليه(١) .

وقد عبّر ابن بسام - صاحب كتاب " الذخيرة " - عن أدب وثقافة الثعالبي بقوله(٢) : " كان أبو منصور - وقته - راعى تلعات العلم ، وجامع

---

(١) انظر مقدمة : من غاب عنه المطرب - للثعالبي- تحقيق د: النبوي عبدالواحد شعلان ، القاهرة - مكتبة الخانجى - طبعة ١ - ١٩٨٤ - ص٤٠ .

(٢) الذخيرة ٥٦٠/٢/٤ تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت .

أشتات النثر ، أسوة المؤلفيين في زمانه ، وإمام المصنفين بحكم قرانه ، سار ذكره سير المثل ، وضربت إليه آباط الأبل ، وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب طلوع النجم في الغياهب ، وتواليفه أشهر مواضع ، وأبهر مطالع، وأكثر راوٍ لها وجامع ، من أن يستوفيها عدُ أو وصف ، أو يوفيها حقوقها نظم أو رصف " .

وفي هذا دلالة على اتساع ثقافته ، وكثرة معارفه ، وعلو ذوقه ، ورفعة أدبه وعشقه للغة العربية بعلومها وآدابها ، ولا أدل على ذلك من قوله (١) : " من شرح الله صدره للإيمان اعتقد أن محمداً عليه السلام خير الرسل ، والإسلام خير الملل ، والعرب خير الأمم ، والعربية خير اللغات ، والإقبال على تفهمها من الديانة ، إذ هى أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين ، ثم هي لإحراز الفضائل ، والاحتواء على المروءة وسائر المذاهب كالينبوع للماء ، والزبد للنار ، ولو لم يكن في الإحاطة بخصائصها والوقوف على تصاريفها إلا قوة البيان في معرفة إعجاز القرآن ، وزيادة البصر في إثبات النبوة اللذين هما عمدة الدين ، لكفى بهما فضلا يحسن أثرة ، ويطيب في الدارين ثمره ... " .

ولا غرابة في ذلك ، فقد كان " الثعالبي " عاشقا ومحباً لها ، كدّ طبعه وسهر ليله لأجلها ، بل وأفنى حياته في علومها ومعارفها ، وهو يسجل ذلك عن نفسه وعن كل نهج نهجه في حب اللغة والتثقف بآدابها وعلومها فيقول (٢) : " قيض الله لها خزنة وحفظة من خواص الناس ، وأعيان الفضل ، وأنجم الأرض ، فنسوا في خدمتها الشهوات ، وجابوا الفلوات ، ونادموا لاقتنائها

(١) الذخيرة ٤/٢/٥٦١ .

(٢) السابق ٤ / ٢ / ٥٦١ .

الدفاتر ، وسامروا القماطر ، وكدّوا في حصر لغاتها طباعهم ، وأسهروا في تقييد شواردها أجفانهم ، فعظمت الفائدة ، وعمّت الكرَّة " .

وفي ذلك إشارة إلى حبه للغة العربية ، ومدى تعمقه في آدابها وعلومها ومعارفها ، ومن ثمّ كثرت مؤلفاته ومصنفاته في شتى المعارف والعلوم العربية ، مما يدل على ثقافته وفيض علمه وسعة أدبه .

هذا بالإضافة إلى أنه لم يكن مؤلِّفاً فقط ، بل كان إلى جانب ذلك ذا موهبة وقريحة في قرض الشعر ، وقد أعجب بشعره عدد من المؤرخين وكتاب التراجم من القدماء والمحدثين فوصفه " ابن بسام الشنتريني " بالرقة والعذوبة والتدفق قائلا [١] : " وقد أخرج من نثره فصولا أدرجها في أثناء كتبه ، ومن نظمه جملا وتفاصيل أعرب بها عن ترقرق طبعه وتدفق أدبه ، تشارك الأرواح في الأجسام ، وتقصد للاقتراح بالمرصاد " .

وقد أثنى عليه "جرجي زيدان" بقوله: " وهو مع ذلك شاعر مطبوع " ، وأورد له أنموذجاً شعرياً في وصف الفرس للدلالة على رقة طبعه في قرض الشعر ، يقول فيه : [٢]

يا واهب الطرف الجواد كأنما	قد أفعلوهُ بالرياح الأربعِ
لا شيء أسرع منه إلا خاطري	في وصف نائلك اللطيف الموقعِ
ولو أنني أنصفت في إكرامه	لجلال مهديه الكريم الألمعي
أقضمته حَبّ الفؤاد لحبّه	وجعلت مربطه سواد المدمعِ
وخلعت ثم قطعت غير مضيع	بُردَ الشباب لجُلّه والبرْقعِ

---

(١) السابق ٤ / ٢ / ٥٦١ .

(٢) تاريخ آداب اللغة ، مراجعة د. شوقي ضيف ، دار الهلال ، ٢ / ٢٧٨ .

والجدير بالذكر في هذا السياق أن شعر " الثعالبي "كان صورة صادقة لعصره لكن جُلّ هذا الشعر قد فُقد كما فقد غيره من تراثنا العربي ، وقد استطاع " عبدالفتاح الحلو " أن يجمع الكثير من شعر " الثعالبي " من بطون أمهات الكتب ، وتم نشره في مجلة " المورد " التي تصدر في العراق ٦ / ١ : ١٤٣ : ١٩٢ واستدرك عليه الدكتور " محمود الجادر " بعض الأشعار التي تم نشرها في المورد أيضاً في ٣/٨ : ٤٣٩ - ٤٤٢[١] .

ويضاف إلى جانب شاعريته وموهبته في التصنيف والتأليف ، أنه كان ذا حسن نقدي ، وذوق راقٍ في فهم الشعر وتذوقه ، وكتبه وإن كانت من نوع الاختيارات الذي كان شائعاً في عصره إلا أنها اشتملت على كثير من الملامح النقدية التي تدل على ثقافته وموضوعيته ، ومن ذلك ما ورد في اليتيمة حين تحدث عن " المتنبي " فنراه يسجل بحسه النقدي محاسنه ومساوئه ، وسرقاته من غيره وسرقات غيره منه وما تميز به على أقرانه من الشعراء ، ونرى مثل هذه اللمحات النقدية في مثل قوله [٢] : وأنا مورد في هذا الباب ذكر محاسنه ومقابحه ، وما يرتضي وما يستهجن من مذاهبه في الشعر وطرائفه ، وتفصيل الكلام في نقد شعره ، والتنبيه على عيونه وعيوبه ، والإشارة إلى إلى غرره وعرره ، وترتيب المختار من قلائده وبدائعه ، بعد الأخذ بطرف من طرق أخباره ومتصرفات أحواله ، وما تكثر فوائده ، وتحلو ثمرته " .

وفيما سبق دليل على أن الرجل كان يمتلك حاسة ذوقية ساعدته على التعرف إلى مواطن الجودة ومواطن الرداءة في الشعر والتعليل لكل لون .

---

(١) من غاب عنه المطرب ، لأبي منصور الثعالبي ، تحقيق د: النبوي عبدالواحد شعلان ، ص ٤٨ .

(٢) يتيمة الدهر - الثعالبي - تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد - المكتبة التجارية - ط٢ ، ١٢٧/١ .

ومن ملامح ثقافته - كذلك - أنه كان ملماً باللغة الفارسية ، وهناك إشارات عديدة في كتبه تدل على ذلك ، منها قوله [١] : وسمعت بعض العامة يقول بالفارسية " . وقوله [٢] : " وكثيراً ما تجري هذه الكناية في الفارسية ".

وهكذا لم يكن غريباً أن يكون " الثعالبي " على هذا النحو من الثقافة الواسعة والعلم الوفير والأدب الراقي ، في عصر يعد من أرقى العصور الإسلامية من الناحية العلمية والأدبية ، ففيه تأصلت المعارف المتنوعة ، وتمكنت أركانها ، وضربت جذورها في الأرض ، فآتت ثمارها اليانعة ، المتعددة الألوان والأذواق . ومن ثمّ كان " الثعالبي " ثمرة طيبة لهذا العصر الذي تشعبت فيه العلوم والمعارف العربية ، كما نقلت إليه ذخائر الأمم المختلفة ، وبخاصة الأمة اليونانية عن طريق الترجمة إلى اللسان العربي[٣] ، فلا عجب أن يكون " الثعالبي " صورة لهذا العصر من الناحية الثقافية ،وتعد كتبه وتنوعها أكبر دليل على ثقافته ومكانته وأدبه .

د - مؤلفاته :

عاش " الثعالبي " حياة حافلة ، قضى معظمها في الدرس والتحصيل والتأليف ، والارتحال من مكان إلى آخر بحثا عن خبر أو جمعا لموضوع ، وقد رزق بسطة في تصنيف الكتب في العلوم اللغوية والأدبية والتاريخية والمعارف العامة . وعنوانات كتبه خير دليل على ذلك ، وقد خلف " الثعالبي " تراثاً يدل على مقدرته الأدبية واللغوية والعلمية ، كما ستطاع من خلالها - علىالرغم من فَقْد الكثير منها - أن يضع أمامنا صورة صادقة لكل

---

(١) ، (٢) الكناية والتعريض - الثعالبي - تحقيق محمد إبراهيم سليم ،مكتبة ابن سينا ، ١٩٩٢ ، ص ٤٦ ، ٦٣ .

(٣) انظر : ظهر الإسلام - أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية ، ٩٤/١ .

أحداث عصره السياسية والاجتماعية والأدبية والفكرية ، على الرغم من مجيء بعض هذه المؤلفات في صورة رسائل صغيرة الحجم ، وهذا لا يقلل من شأنها ولا ينقص من قدرها ، وذلك لتنوع موضوعاتها واختلاف مراميها وأهدافها . بالإضافة إلى وضوح أسلوبها وسهولة تراكيبها وبعدها عن الغموض والإبهام ، مما كان سببا في ذيوعها وانتشارها في جميع الأقطار ، ولعل ذيوع صيت " الثعالبي " واتساع شهرته أثر في مؤرخي عصره الذين ترجموا له ، أمثال : تلميذه " الباخرزي " صاحب كتاب دمية القصر ، (ت٤٦٧هـ) ، والحصري القيرواني (ت٤٥٣هـ) صاحب كتاب زهر الآداب ؛ حيث لم يهتموا بذكر قوائم بمؤلفاته كلها ، وسار المؤرخون من بعدهم على الطريقة نفسها مما كان سبباً في ضياع وفَقْد الكثير من تراث هذا الرجل ، وظهور الاختلاف حول بعض مؤلفاته ومدى صحة نسبتها له حتى اليوم .

وقد قدم " الكلاعي " وهو من أعلام القرن السادس الهجري قائمة مصنفات " الثعالبي " ضمت أربعة وعشرين كتابا [١] .

وفي القرن الثامن الهجري ، أثبت الصفدي (ت٧٦٤هـ) وابن شاكر الكتبي (ت٧٦٤هـ) في كتابه : " عيون التواريخ " ثبتاً مطولاً بمصنفاته ضم سبعين كتابا . ثم أعادها " ابن قاضي شهبة " (ت٨٥١هـ) في كتابه : " طبقات النحاة واللغويين " [٢] .

ومن الجدير بالذكر هنا أن قوائم كتب " الثعالبي " كثرت في العصر الحديث ، وذلك لكثرة ما حقق من كتبه ، وماكتب عنه ، فقد ذكر " كارل

---

(١) انظر هذه القائمة في الأنيس في غرر التجنيس ، للثعالبي ، تقديم وتحقيق : هلال نـاجي ، ط١ ، ١٩٩٦ / عالم الكتب ، ص ١٠ ، ١١ .

(٢) السابق ص ١١ .

بروكلمان " أربعة وخمسين كتابا ، شرح مناهجها بإيجاز ،وأشار إلى مخطوطاتها في أنحاء العالم [1].

وأورد " جرجي زيدان " قائمة شملت ستة وثلاثين كتابا [2] .

كما توسع محققو كتب " الثعالبي " في العصر الحديث في استقصاء أسماء كتبه ومصنفاته ومحاولة جمع الكثير منها من كتب التراجم وفهارس المخطوطات في المكتبات العامة والخاصة ، ومن ذلك ما قام به محققا كتاب " لطائف المعارف " من إيراد أسماء ثلاثة وتسعين كتاباً [3] . كما أورد محقق كتاب " التمثيل والمحاضرة " قائمة تضم مائة وستة كتب [4] .

وقدم " هلال ناجي "في مقدمة تحقيقه لكتاب " الأنيس في غرر التجنيس " قائمة ضمت مائة وسبعة كتب , أشار فيها إلي المخطوط منها والمطبوع وأماكن وجودها في كتب التراجم , وفي أنحاء العالم [5] , وفي دراسة توثيقية في مؤلفات الثعالبي قدم الدكتور "محمود الجارد " قائمة وافية بمؤلفات " الثعالبي " بلغت مائة وثمانية كتب صحيحة النسبة إليه وذكر أماكن وجودها ، وأرقام مخطوطاتها ، وطبيعة موضوعاتها ومناهجها ، وهي تنقسم إلي سبعة وعشرين كتابا مطبوعا , وثلاثة وثلاثين كتابا مخطوطا , وثمانية وأربعين كتابا مفقودا , وذلك في وقت طبع الرسالة سنة ١٩٨٣م [6] .

---

(١) تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان - ترجمة د: رمضان عبدالتواب ، ط٣ ، ١٩٨٣، دار المعارف ص ١٨٥ / ١٩٨ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية - مراجعة د: شوقي ضيف ٢٨٧ / ٢٩٠ .

(٣) لطائف المعارف - الثعالبي - تحقيق : إبراهيم الإبياري ، حسن كامل الصيرفي - مطبعة الحلبي ، سنة ١٩٦٠م ، ص ١٤ ، ٢٠ .

(٤) التمثيل والمحاضرة - الثعالبي - تحقيق : عبدالفتاح الحلو ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٨٣م ، ص ١٤ ، ٢٤ .

(٥) الأنيس في غرر التجنيس - عالم الكتب - ط ١ - ١٩٩٦م ، ص ٢١ : ٣١ .

(٦) دراسة توثيقية في مؤلفات " الثعالبي " مجلة معهد البحوث والدراسات العربية - بغداد - عدد٢ - سنة ١٩٨٣م- ص٢٤٨-٣٠٨، نقلا عن كتاب برد الأكباد في الأعداد ص١٩.

وهناك الكثير من القوائم التي ذكرت مؤلفات هذا الرجل المخطوط منها والمطبوع والمفقود علي نحو ما ذكرنا , لذا لا أجد ضرورة لإعادة ما ورد في تلك القوائم , ولكن إتماما للفائدة ونفعا للقارئ نذكر هنا أسماء مؤلفات الثعالبي اعتمادا علي أحدث القوائم وأوفاها , حتي يتسني لمن يريد التعرف إلي هذا العالم الاطلاع علي ما تركه من رصيد ضخم وقيم في علوم اللغة العربية وآدابها .

المؤلفات المطبوعة :

١ آداب الملوك .

٢ أجناس التجنيس = المتشابه .

٣ أحسن ماسمعت .

٤ الإعجاز والإيجاز .

٥ الاقتباس من القرآن الكريم.

٦ الأنيس في غرر التجنيس .

٧ برد الأكباد في الأعداد .

٨ تتمة اليتيمة .

٩ تحسين القبيح وتقبيح الحسن .

١٠ التمثيل والمحاضرة .

١١ التوفيق للتلفيق .

١٢ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب .

١٣ خاص الخاص .

١٤ سجع المنثور .

١٥ سحر البلاغة .

١٦ الشكوي والعتاب وما وقع بالخلان والأصحاب.

١٧ الظرائف واللطائف .

١٨ غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم .

١٩ فقه اللغة وسر العربية .

٢٠ الكناية والتعريض كتاب = النهاية في الكتابة

٢١ لباب الآداب .

٢٢ لطائف المعارف .

٢٣ المبهج .

٢٤ ماجري بين المتنبي وسيف الدولة .

٢٥ المنتحل = كنز الكُتاب .

٢٦ مرآة المروءات وأعمال الحسنات .

٢٧ من غاب عنه المطرب .

٢٨ نثر النظم وحل العقد .

٢٩ نسيم السحر [١] .   ٣٠ النهية في الطرد والغنية .

٣١ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر .

٣٢ اليواقيت في بعض المواقيت : أدمجه أبو النصر المقدسي مع كتاب "الظرائف واللطائف " مبقياً على مقدمتيهما وسمى المجموع " اللطائف والظرائف " [٢] .

المؤلفات المخطوطة [٣] :

٣٣ الآداب .   ٣٤ أحاسن المحاسن .

٣٥ الأشباه والنظائر ، وهو في الكلمات المتشابهة لفظاً المختلفة معنى في القرآن الكريم ، وهو غير كتاب الأشباه والنظائر ، للخالديين .

٣٦ الأمثال والتشبيهات .   ٣٧ أنس الوحيد .

٣٨ الأنوار في آيات النبي ﷺ .   ٣٩ تحفة الظرفاء وفاكهة اللطفاء .

٤٠ التدلي في التسلي .   ٤١ ترجمة الكاتب في آداب الصاحب

٤٢ تفضيل الشعر .   ٤٣ حلية المحاضرات وعنوان المذاكرة وميدان المسامرة.

٤٤ زاد سفر الملوك .   ٤٥ سر الحقيقة .

٤٦ سر البلاغة وملح البراعة   ٤٧ طبقات الملوك .

٤٨ العشرة المختارة : وهو كتابنا هذا الذي ننشره اليوم أول مرة ، وهو موجود بالهند ضمن مجموعة رضا رامبور (رامبور) ٣٧٥/١ رقم ٣ .

---

(١) أثبت محمود الجادر ، أن جميع ما ورد فيه موجود في فقه اللغة بلا استثناء ، وأن ما أشار إليه محققا الكتاب – (محمد حسن آل ياسين ، ابتسام الصفار) – لا يدل على صبرهما على المقارنة بما يكفي للفوز بالحقيقة ، انظر الثعالبي ناقداً وأديباً نقلاً عن: الأنيس في غرر التجنيس : هلال ناجي ص ٢٥ .

(٢) الأنيس في غرر التجنيس : ص ٢٦ .

(٣) اعتمدت في هذه القائمة على قوائم بروكلمان ، هلال ناجي : ص ٢٦ .

٤٩ غرر البلاغة ودرر الفصاحة ٥٠ الغلمان .

٥١ الفوائد والأمثال . ٥٢ قراضة الذهب ومعدن الأدب

٥٣ لطائف الصحابة والتابعين . ٥٤ اللطف واللطائف .

٥٥ مكارم الأخلاق ومحاسن الأدب وبديع الأوصاف وغرائب التشبيهات .

٥٦ المهذب من اختيار ديوان أبي الطيب المتنبي وأحواله وسيرته .

٥٧ مواسم العمر . ٥٨ نتائج المذاكرة .

٥٩ نزهة الألباب وعمدة الكتاب.

هذا و " للثعالبي " كتب كثيرة مفقودة بيد أنه لا أرى ضـــرورة لذكرهـا هنا ، ومن أراد الاطلاع عليها فليرجع إلى قائمتها في مظانها (١) .

٢- التعريف بالكتاب ودراســة مــادتــه

أ - توصيف الكتاب وتوثيق نسبته إلى الثعالبي :

كتاب " العشرة المختارة " أحد كتب الثعالبي النادرة ، حيث لا يوجد له إلا نسخة واحدة مخطوطة في مكتبة رضا برامبور بالهند تحت رقـم : ٣٣٦٥ (١) ورقم الفيلم ٣٠٤٨ ، ومن هذه المخطوطة صورة مودعة فـــي معــهد إحيـاء المخطوطات العربية في القاهرة ، وهي التي اعتمدت عليها في إخـــراج هــذا الكتاب ، حيث لم يتيسر لي سبل الإتيان بالنسخة الموجودة في الهند .

والكتاب يقع في ثلاثين صفحة ، من صفحة (١) إلى صفحة (٣٠) وفـــي كل صفحة ثلاثة وعشرون سطراً مقاس ١٧سم × ٢١سم ، وهو مكتوب بخــط النسخ ، وانتهى ناسخه منه عام (٨٢٣هـــ) .

---

(١) راجع هذه القائمة في : الكلاشي ، والصفدي ، وابن شاكر الكتبي ، وابن قاضي شـهبة ، د: محمود الجادر هلال ناجي .

أما نسبة الكتاب إلى الثعالبي فقد نسبه " بروكلمان " للثعالبي بهذا العنوان " العشرة المختارة " وذكر أن منه نسخة في رامبور في الهند ١٠/٣٧٥ رقم ٣ (١) كما ذكره جميع محققي كتب " الثعالبي " في مقدمات التحقيق بهذا الاسم " العشرة المختارة " (٢) لكن " الثعالبي " ذكر في مقدمة هذاالكتاب أنه سماه : " كتاب العشرة " دون ذكر كلمة (المختارة) ، ولعل هذا علىسبيل الاختصار ، كما فعل ذلك في كتابه الاقتباس من القرآن الكريم ، فقد ذكره في أكثر من موضع باسم الاقتباس (٣) ، لكن الشيء الذي يؤكد على صحة نسبة هذا الكتاب إلى " الثعالبي " أنه كان دائماً يذكر منهجه في المقدمة مع ذكر الأبواب والفصول ، وبالتحقيق تبين أن ما ورد في الكتاب هو بعينه ما أثبته المؤلف في المقدمة ، مما يقطع بصحة نسبة الكتاب إلى " الثعالبي ".

ب – مادة الكتاب :

يضم الكتاب آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية ، ومواعظ وحكماً ، وأقوالاً مأثورة ، ونصائح طيبة للخلفاء والصالحين وأشعاراً ومأثورات أدبية ، وكل ذلك يدور حول " العشرة المختارة " بين كل أفراد المجتمع ، وقد نصّ " الثعالبي " على ذلك بقوله : " فإني استخرت الله – ﷻ – في جمع هذا الكتاب فجعلته اثني عشر باباً ، في أول كل باب آية من كتاب الله أو أكثر ، ثم الأخبار المروية الصحيحة عن رسول الله – ﷺ – ثم كلام الصالحين من أمته –

---

(١) تاريخ الأدب العربي – ترجمة د: رمضان عبدالتواب – ط٣ ، دار المعارف ، ١٩٨٣م ، ٥/ ١٩٩٧ .

(٢) انظر الأنيس في غرر التجنيس ت : هلال ناجي ، والاقتباس من القرآن الكريم ت: ابتسام الصفار ، والتمثيل والمحاضرة ت : محمد الحلو ، وبرد الأكباد ، في الأعداد ت : أسامة البحيري ، إلى غير ذلك من كتب الثعالبي المحققة .

(٣) انظر يتيمة الدهر ٢/٢٤٣ .

رحمهم الله – ما يوافق الباب وسميته كتاب العِشْرَة ، وحذفت الأسانيد اقتصاراً على ذكر متونها من أخبار النبي – ﷺ – المشهورة المأثورة في حسن العشرة مع الآباء والأمهات والأزواج والزوجات والبنين والبنات والعشائر والقرابات وحسن الجوار وحسن الملكة وقري الضيف والعشرة مع الرفقاء في السفر ومع الصغير والكبير من المسلمين أجمعين».

كما ينبغي أن نشير إلي أن الأقوال والأشعار التي أتي بها (الثعالبي) في كتابه هذا هي لكُتاب وشعراء سابقين عصره , وأحيانا يورد بعض الأقوال والأشعار التي سمعها من أفواه أصحابها , فيقول – مثلا – " وأنشدنا عمر بن الأنباري "[1] ولا يخفي دور " الثعالبي" في التنسيق وترتيب مادة الكتاب , بصورة تدل علي اتساع ثقافته وقدرته العلمية في توجيه النصوص المختلفة بما يتناسب وطبيعة ما يتحدث عنه .

ونلحظ كذلك النزعة الدينية عند " الثعالبي" من خلال مادة الكتاب وترتيبها.

ج- منهج الكتاب :

قسم " الثعالبي " الكتاب الي اثني عشر بابا , كل باب يضم النصوص المتعلقة بموضوعة ,يصدرها بالآيات القرآنية , ثم بالأحاديث النبوية ثم بالأقوال المأثورة عن الصحابة والأمة والصالحين , ثم أقوال الحكماء والأدباء والشعراء حسبما يقتضيه المقام ويتطلبه السياق , لكن الشئ الثابت في هذه الأبواب الآيات القرآنية و الآحاديث النبوية , أما الأدلة الأخري فتأتي حسب احتياج الموضوع إليها وتعلقه بها , فمثلا بعض الأبواب خالية من الأشعار , إذ يري المؤلف عدم حاجة الموضوع إلي الشعر , وفي هذا دلالة علي منهجيته ودقته . فليس الأمر

---

(١) العشرة المختارة ص ١٤ .

جمع مادة علمية ووضعها في غير مواضعها من غير حاجة إليها ..ومن ثم نري دقة " الثعالبي" ومنهجيته في تجميع مادته العلمية وتأليفها ووضعها في كتب على أساس صحيح ومنهج دقيق . وهاك هي الأبواب التي بنى عليها " الثعالبي" كتابه" العشرة المختارة " .

الباب الأول : ذكر بر الوالدين .

الباب الثاني : حق الولد .

الباب الثالث : حق الزوج .

الباب الرابع : حق الزوجة .

الباب الخامس : حسن الجوار .

الباب السادس : صلة الرحم .

الباب السابع : حسن الملكة .

الباب الثامن : حق المسلم على المسلم .

الباب التاسع : الجليس الصالح .

الباب العاشر : حسن الخلق .

الباب الحادي عشر : قرى الضيف .

الباب الثاني عشر : حق الرفقاء في السفر .

د – أهمية الكتاب :

تكمن أهمية هذا الكتاب فيما أورده " الثعالبي" من نصوص وأخبار وآثار أدبية ليعالج بها موضوعات متنوعة ومتعددة , يهدف من ورائها جميعا إيجاد أُسر إسلامية متماسكة مترابطة قائمة على أساس من العلاقات الصحيحة بين أفرادها , ومن تلك الأسر ينشأ مجتمع قوي راق قائم علي أداء الحقوق المتبادلة بين أفراده وفئاته .

كما ترجع أهمية الكتاب بكل ما فيه من أبواب في موضوعات متنوعة إلي أنه يعد أنموذجاً كاملاً لمن أراد التعرف إلي ماله وما عليه من حقوق في

آن واحد , ولعل من أهمية هذا الكتاب اشتماله علي علمي الدنيا والآخــرة , أى ما يخص المسلم في الدنيا ويجعله سعيدا مسرورا , وما تطمئن به نفسه وقلبــه عن اليوم الآخر , لذا فإن " الثعالبي" لم يهد هذا الكتاب إلي أحد من المقربيــن إليه كما فعل في كثيرمن كتبه , وإنما آراد من خلاله تصوير النموذج الإنسـاني الفريد للمسلم الذي ينشد خيري الدنيا والأخرة , وقد استعان فـــي ســبيل ذلــك ببعض الأمور التي تخدم هذا الموضوع , وتبرز هدفــه وقصــده , ويمكــن إجمالها فيما يأتي :

أولاً : الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف :

فقد جاء " الثعالبي" في أول كل باب من أبواب الكتاب بآية أو آيتيــن , للتدليل علي أهمية الموضوع وآصالته , ففي باب حق الولد علي الوالدين مثلاً: يأتي بقول الله عز وجل " يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ". وهكــذا يسير في بقية الأبواب علي هذا المنهج , هذا بالإضافة إلي إيراده مجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة , التي تدعم موضوع الباب وتدور في إطاره . ومــن ثم تبرز ثقافته الإسلامية , وعاطفته الصادقه في معالجــة مــا يتناولــه مــن موضوعات .

ثانياً : تضمين بعض الأبواب أبياتا من الشعر :

فكان " الثعالبي" يأتي بالأبيات الشعرية الدالة علي مــراده , والمؤكــده للفكرة التى يسوقها , حتي إنه ليأتي هذا الشعر متمماً للمعني العام وموضحاً له , ومجسداً للفكرة العامة , لذا جاءت الأشعار في ثمانية أبواب من مجموع أبــواب الكتاب البالغ عددها إثنا عشر بابا [١] مما يدل علي حاسة الكاتب الأدبية , وذوقه الرفيع وثقافته الواسعة , وهذا واضح من خلال النصوص الشعرية التي أوردها

---

(١) انظر الأبواب رقم ١ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

وأدت دورا في توضيح المعني و إبراز الفكرة ولعل هذا هو الذى جعل الكتاب يوضع ضمن المصنفات الأدبية " للثعالبي" .

ثالثاً : تضمين الكتاب كثيراً من الحكم والأقوال المأثورة عن السابقين وقصصهم :

فقد حرص الكاتب علي الإتيان ببعض أقوال السابقين من الصحابة وغيرهم من الصالحين والخلفاء والأمراء تعضيداً لفكرته واستكشافاً لما خفي من المعاني .. وبهذا يظهر جلياً مدي إلمام " الثعالبي" بمادة كتابه , وتسخيره كل طاقاته من أجل الوصول إلي مراده وغايته .

وإذا أضفنا إلي ما سبق الأسلوب البياني المشرق , والدقة البالغة في التنسيق الجيد والمحكم لهذه المواد المختلفة في مصادرها ومواردها نلحظ براعة المؤلف في التأليف والنظم , والدقة في سوق الأدلة والبراهين التي تكفل قبول موضوعه وتأثيره في الأخرين , وهذه الدقة في اختيار النصوص وتنسيقها أمر شاق يحتاج إلي عقل لبيب , وقد قال " ابن رشيق" وإختيار الكلام أصعب من تأليفه . وقد قالوا اختيار الرجل وافد عقله .وقال الشاعر :

قد عَرَفْناك بإختيارِك إذْ كا ... ن دليلاً علي اللَّبيب إختيارُه

وقال أفلاطون : " عقول الناس مدونة في أطراف أقلامهم , وظاهرة في حسن إختيارهم "(١) .

وهكذا تبدو أهمية هذا الكتاب , من خلال ما بذله صاحبه فيه من جهد وما أودعه فيه من علم يعد سبيلاً لطالبي العلم وراغبي المعرفة في كل وقت وآن .

٤- منهج التحقيق :

أما فيما يتعلق بعملنا في التحقيق , فقد حرصنا علي عدة أمور :

---

(١) العقد الفريد ٣/١ .

١- لما لم يوجد من الكتاب إلا نسخة واحدة , فقد كان ضرورياً أن أعراضها علي الميكروفيلم الخاص به , حيث كان يوجد فيه بعض كلمات مكتوبة بمداد أحمر غير واضحة فقمت بإظهارها وضبطها كما هي موجودة علي الميكروفيلم .

٢- ضبط الآيات القرآنية بالشكل وتخريجها حيث كان المصنف يأتي في أول كل باب بآية أو بآيتين .

٣- أورد المصنف حشداً كبيراً من الأحاديث النبوية الشريفة , فكان لزاماً أن نقوم بتصحيح نصها وضبطها وتخريجها من كتب الأحاديث الصحيحة , وبيان وشرح ما يحتاج إلي ذلك , وإتمام الناقص منها , وإثبات بعض الروايات الأخرى إن وجدت . وهذا الأمر كان في غاية الأهمية , حيث الكم الكبير من الأحاديث في الكتاب , فكان ضرورياً أن نقف علي حقيقتها ومدي صحتها .

٤- ضبط الأبيات الشعرية بالشكل التام , مع بذل غاية الجهد في تخريجها من شتي كتب الأدب ودواوين الشعر , وذكر بحورها , وإثبات الروايات المختلفة إن وجدت .

٥- ضبط الأعلام الواردة في النص والتعريف بها , وبخاصة الأعلام غير المشهورة أو الواردة بكنيتها أو شهرتها فحسب .

٦- أما من ناحية الأخبار والآثار فلم نألُ جهداً في تخريجها , ومقابلتها علي مثيلاتها في الكتب الأدبية والتاريخية وإثبات الروايات المختلفة إن وجدت .

٧- إتماماً للعمل قمنا بعمل عدة فهارس للآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار والمصادر والمراجع ، وفهرس للموضوعات كي يسهل علي القارئ الرجوع إلي ما يريد من الكتاب .

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير . أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق [illegible] صلى الله عليه وسلم أما بعد فإني استخرت الله عز وجل في جمع هذا الكتاب وجعلته اثني عشر بابا بدأت في أول كل باب بآية من كتاب الله أو أكثر ثم بالأخبار المروية الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بكلام الصالحين من أمته رحمهم الله بما يوافق الباب وسميته كتاب العشرة وحذفت الأسانيد اختصارا على ذكر متونها دون سندها [illegible] النبي صلى الله عليه وسلم المشهورة المأثورة في حسن العشرة مع الآباء والأمهات والأزواج والزوجات والبنين والبنات والعشائر والقرابات وحسن الجوار وحسن الملكة وذي الضيف والعشرة مع الرفقاء في السفر ومع الصغير والكبير من المسلمين أجمعين [illegible] الإله العلي العظيم فأول ما ذكرت باب بر الوالدين والثاني باب صلة الرحم [illegible] حق الزوجة والخامس باب حسن الجوار [illegible] والسابع باب حسن الملكة والثامن باب حق المسلم على المسلم والتاسع باب [illegible] الجليس الصالح [illegible] باب حسن الخلق [illegible] باب [illegible] الضيف والثاني عشر باب حق الرفقاء في السفر

بسم الله الرحمن الرحيم
باب بر الوالدين قال الله عز وجل ووصينا الإنسان بوالديه حسنا الآية وعن عبد الله بن مسعود قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى قال الصلاة [illegible] بر الوالدين [illegible] الجهاد في سبيل الله ولو استزدته لزادني وعن أنس بن مالك

[الصفحة الأولى من الكتاب ، وهى تقع فى الورقة الأولى منه]

و ... ربا ... من كان

صلى الله عليه وسلم من احب ان يمد له في العمر ويزاد له في الرزق فليبر
والديه وليصل رحمه، وعن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم رغم انف امرئ ذكرت عنده ولم يصل علي ورغم انف
امرئ اتى عليه رمضان ثم انسلخ قبل ان يغفر له ورغم انف امرئ ادرك ابويه
او احدهما فلم يدخلاه الجنة. وعن انس بن مالك قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم من ادرك والديه او احدهما فدخل النار فابعده
الله واسحقه، وعن عمرو بن العاص انه قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة عاق والديه ولا عشار ولا مدمن
خمر. فقال له رجل وما مدمن خمر قال ثلاث سنين. وقال المدمن
خمر من اذا اصبح كان من نيته ان يشرب اذا امسى واذا امسى
كان من نيته ان يشرب اذا اصبح. وعن جابر بن عبد الله قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه اسكنه الله
جنته. رفقا بالضعيف واحسانا الى المملوك وشفقة على الوالدين
وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم يستاذنه في الجهاد فقال احي والداك قال نعم قال ففيهما فجاهد
وعن عبد الله بن عمر ان رجلا قال يا رسول الله اني جئتك ابايعك على الهجرة
ولقد تركت ابوي يبكيان. فقال ارجع اليهما فاضحكهما كما ابكيتهما.
وعن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اكبر
الكبائر ان يلعن الرجل والديه قيل وكيف يلعن والديه قال يسب الرجل
اباه ويسب امه فيسب امه. وعن انس بن مالك عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم انه قال اربع من الكبائر الاشراك بالله وقتل
النفس وعقوق الوالدين وشهادة الزور. وعن عروة بن الزبير
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بر والديه من شد الطرف اليهما

[الصفحة الثانية من الكتاب وتقع فى الورقة الأولى منه]

يوماً فتى فقال له إن استطعت أن تغير خلقك بأحسن منه فافعل
وإلا فليسعك من أخلاقنا ما ضاق عنا من خلقك. وقال إبراهيم بن [illegible]
انظر رفيقك في السفر وخليطك في الحضر وشريكك في العمل واحفظ لهم
أبياتاً قلتها: وهي

وكنت إذا صحبت رجال قوم صحبتهم وشيمتي الوفاء
فأحسن حين يحسن محسنوهم وأجتنب الإساءة إن أساؤوا
أشاء سوى مشيئتهم فآتي مشيئتهم وأترك ما أشاء
وأبصر ما يعيبهم بعين عليها من عيوبهم الغطاء

وأنشد المسيب

وإن رافقت في الأسفار قوماً فكن لهم كذي الرحم الشفيق
بعيب النفس ذا بصر وعلم عمي العين عن عيب الرفيق
عليك بمعالي الأخلاق فيهم ولا تسبق إلى الخلق [illegible]
ولا تأخذ بعثرة كل خاط ولكن قل هلم إلى الطريق
متى تأخذ بعثرتهم يقلوا وتبقى في الزمان بلا صديق

وقال غيره

ألم ترني [illegible] السفر إن [illegible]
ولا تنكر [illegible] الأيام إذا ما [illegible]

وقال آخر

إذا أنت رافقت الرجال فكن فتى كأنك مملوك لكل رفيق
وكن مثل طعم الماء عذباً وبارداً على الكبد الحرّى لكل صديق

تم كتاب العشرة يوم الأربعاء الثالث عشر من شهر [illegible]
[illegible] من هجرة النبي [illegible] على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

[الصفحة الأخيرة من المخطوط]

كتـــــاب

العشرة المختـــارة

لأبي منصور الثعالبي

(٣٥٠-٤٢٩هـ)

تحقيق ودراسة

الدكتـــور

محمـــد علي سعـــد

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد

القسم الثانى : تحقيق الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير ، أحمده وأستعينه ، وأؤمن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله فأدى وأيده فكفى - ﷺ - .

أما بعد

فإني استخرت الله ﷻ في جمع هذا الكتاب فجعلته (اثني)[1] عشر باباً في أول كل باب آية من كتاب الله أو أكثر ، ثم بالأخبار المروية الصحيحة عن رسول الله ﷺ ثم كلام الصالحين من أمته - رحمهم الله - ما يوافق الباب وسميته كتاب العِشْرَة وحذفت الأسانيد اقتصاراً على ذكر متونها دون سندها من أخبار النبي ﷺ المشهورة المأثورة في حسن العشرة مع الآباء والأمهات والأزواج والزوجات والبنين والبنات والعشائر والقرابات وحسن الجوار وحسن الملكة وقرى الضيف والعشرة مع الرفقاء في السفر ومع الصغير والكبير من المسلمين أجمعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فأول ما ذكرت باب بر الوالدين ، والثاني باب حق الولد ، والثالث باب حق الزوج ، والرابع حق الزوجة، والخامس باب حسن الجوار ، والسادس باب صلة الرحم ، والسابع باب حسن المَلَكة ، والثامن باب حق المسلم على المسلم ، والتاسع باب الجليس الصالح ، والعاشر باب حسن الخُلق ، والحادى عشر باب قرى الضيف والثاني عشر باب حق الرفقاء في السفر .

---

(١) في الأصل : " اثنا " .

[الباب الأول]

باب بر الوالدين

قال ﷻ : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [1] . الآية .

وعن عبدالله بن مسعود قال سألْنا ﴿ رسول الله - ﷺ - ﴾ أي الأعمال أحب إلى الله تعالى قال : " الصلاة لوقتها وبر الوالدين وجهاد في سبيل الله ، ولو استزدته لزادني "[2] .

وعن أنس بن مالك قال [﴿ قال رسول الله - ﷺ - ﴾][3]: " من أحب أن يمد له في العمر ويزاد له في الرزق فليبرْ والديه وليصلْ رحمه "[4] .

وعن أبي هريرة قال ﴿ قال رسول الله - ﷺ - ﴾ : " رغم أنف امرئ ذُكِرتُ عنده ولم يُصلِ عليَّ ، ورغم أنف امرئ أتى عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يُغفرَ له ورغم أنف امرئ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة "[5] .

وعن أنس بن مالك قال ﴿ قال رسول الله - ﷺ - ﴾ : " من أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار فأبعده الله وأسحقه "[6] .

---

(١) سورة العنكبوت آية (٨) .

(٢) (صحيح) : صحيح مسلم [١/٩٠] ، صحيح البخاري [٣/١٠٢٥] .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

(٤) (صحيح) : صحيح البخاري [٢/٧٢٨] مع اختلاف الرواية ﴿ باب من أحب البسط في الرزق "١٩٦١" عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في رجاء فليصل رحمه﴾ .

(٥) (حسن) : سنن الترمذي [٥/٥٥٠] .

(٦) (صحيح) : صحيح مسلم [٤/١٩٧٨] ، مع اختلاف الرواية ﴿ باب رغم أنف من أدرك أبويه "٢٥٥١ "عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال ثم رغم أنف ثم رغم أنف ثم =

وعن عثمان بن أبي العاص[1] أنه قال ﴿ قال رسول الله - ﷺ - ﴾ : " لا يدخل الجنة عاق والديه ولا عشاز ولا مدمن خمر ، فقال له رجل وما مدمن خمر قال ثلاث سنين.[2] وقالوا مدمن خمرٍ من إذا أصبح كان من نيته أن يشرب إذا أمسى ، وإذا أمسى كان من نيته أن يشرب إذا أصبح " .

وعن جابر بن عبدالله قال ﴿ قال رسول الله - ﷺ - ﴾ : " ثلاث من كُن فيه أسبل الله عليه كنفه ، رفقاً بالضيف وإحساناً إلى المملوك وشفقة على الوالدين "[3] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال جاء رجل إلى ﴿ رسول الله - ﷺ - ﴾ يستأذنه في الجهاد فقال : " أحي والداك قال نعم ، قال : ففيهما فجاهد "[4] .

= رغم أنف قيل من يا رسول الله قال من أدرك أبويه ثم الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة﴾ .

(١) عثمان بن أبي العاص الثقفي : من عباد الصحابة ومتقشفيهم ، سكن البصرة غازياً وكان مجانباً للفتن – مشاهير علماء الأمصار ص٦٧ وانظر ترجمته في : طبقات ابن سعد ٥٠٨/٥ ، السير ٣٧٤/٢، أسد الغابة ٥٧٩/٣ ، تاريخ الإسلام ٣٠٥/٢ ، الإصابة ٤٦٠/٢ .

(٢) (صحيح) : " رواه النسائي " عن ابن عمرو : انظر حديث رقم: ٧٦٧٦ في صحيح الجامع – محمد ناصر الدين الألباني – المكتب الإسلامي – الطبعة المجددة والمزيدة والمنقحة – ١٤٠٨هـ – مع اختلاف الرواية " لا يدخل الجنة منان و لا عاق و لا مدمن خمر "

وعشاز : عَشزَ الرجل يَعْشِزُ عَشْزانا : مشى مشية المقطوع الرجل وهو العشزان . والعَشوْز : الشديد الخلق الغليظ : لسان العرب مادة عشز .

(٣) (موضوع) : "رواه الترمذي " عن جابر. انظر حديث رقم: ٢٥٥٦ في ضعيف الجامع- محمد ناصر الدين الألباني – المكتب الإسلامي – الطبعة المجددة والمزيدة والمنقحة – ١٤٠٨هـ.

(٤) (صحيح) : صحيح مسلم [١٩٧٥/٤] ، صحيح البخاري [١٠٩٤/٣] .

وعن عبد الله بن عمر أن رجلاً قال : " ﴿ يا رسول الله ﴾ إنـــي جئتــك أبايعك على الهجرة ولقد تركت أبوي يبكيان ، قال فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما "[1] .

وعن عبد الله بن عمر قال ﴿ قـــال رســـول الله – ﷺ – ﴾ : " إن أكـــبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه قيل : كيف يلعن والديه ؟ قال : يســـب الرجـــل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه "[2] .

وعن أنس بن مالك عن ﴿ رسول الله – ﷺ – ﴾ أنه قال : " أربـــع مـــن الكبائر الإشراك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور "[3] .

وعن عروة بن الزبير عن ﴿ رسول الله – ﷺ – ﴾ : " ما برّ والديه مـــن شدّ النظر إليهما "[4] .

وعن مجاهد[5] عن كعب قال والـــذي فلـــق البحر لبني إســـرائيل إن في

---

(١) (صحيح) : عن عبدالله بن عمرو : سنن أبي داود – كتاب الجهاد : انظر الحديـــث رقـــم ٢٥٢٨ ، سنن النسائي – كتاب البيعة – باب البيعة على الـــهجرة : ٤١٦٣ ، صحيـــح الترغيب والترهيب – المجلد الثاني – كتاب البر والصلة وغيرهما :٢٤٨١.

(٢) (صحيح) : رواه أبوداود عن عبدالله بن عمرو : صحيح الجامع الصغير المجلـد الأول : ٢٢١٤ ، سنن أبي داود – كتاب الأدب :٥١٤١ ، صحيح الترغيب والترهيب – المجلـد الثاني – كتاب البر والصلة وغيرهما :٢٥١٤.

(٣) (صحيح) : رواه البخاري عن أنس : صحيح الجامع الصغير – المجلد الأول : ١١٩٥ ، سنن النسائي – كتاب عشرة النساء – باب ذكر الكبائر : ٤٠١٠ ، ســـنن الـــترمذي – كتاب البيوع – باب ما جاء في التغليظ في الكذب والزور ونحوه : ١٢٠٧ .

(٤) (ضعيف) : رواه الطبراني في الأوسط عن عائشة : ضعيف الجامع الصغـير :٥٠٣٦ – مع اختلاف الرواية ﴿ ما بر أباه من شد إليه الطرف بالغضب ﴾ ، سلســـلة الأحـــاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد التاسع : ٤٤٣٢ .

(٥) مجاهد بن جبر ، وقيل ابن جبير ، مولى عبدالله بن السائب القارئ ، كنيته أبو الحجـــاج وقيل أبو محمد، كان مولده سنة إحدى وعشرين ، وكان من العباد والمتجردين فـــي =

التوراة لمكتوب يا بن آدم اتق ربك وبر والديك وصل رحمك يمد لك في عمرك ، وييسرُ لك يسرك ويصرف عنك عسرك .

وعن أنس بن مالك عن ﴿ رسول الله - ﷺ - ﴾ أنه قال : " مَنْ أرضى والديه فقد أرضى الله ، ومن أسخطهما فقد أسخط الله ﷻ "(١) .

وروي أن شاباً قَدَمَ على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ومعه شيخ يقوده فلما أحضره بين يديه أنشأ يقول هذه الأبيات :

[من مجزوء الوافر]

أيـــــهُا القَــــاضِي هَـــذا وَالـــدِي حَقَـــا
أتاني وهـــو مُحتَـــاجُ ومـــا كُنْـــتُ بـــهِ عُقَـــا
بَذلتُ المالَ في رِفْقٍ ومَـــا كُنــتُ بـــهِ نَزِقــا(٢)
فَلَما خَفَّ مِــنْ مَــالي وقــد أعطَيتُـــه رِفْقَـــا(٣)
تولَّى مُعْرِضَــــاً عنّـــي ولَـــمْ يُعْطِنِـــي حَقــاً(٤)

= الزهاد مع الفقه والورع ، ومات بمكة وهو ساجد سنة اثنتين أو ثلاث ومائة . مشاهير علماء الأمصار ١٣٣ وانظر ترجمته في : الثقات ٤١٩/٥ ، وتاريخ الإسلام ١٩٠/٤ ، تاريخ الثقات ص٤٢٠ ، السير ٤٤٩/٤ ، طبقات ابن السعد ٤٦٦/٥ ، البداية والنهاية ٢٢٤/٩، شذرات الذهب ١٢٥/١ .

وكعب لعله كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين بن كعب الأنصاري ، توفي بالمدينة أيام قتل علي بن أبي طالب . مشاهير علماء الأمصار ص٣٨ ، وانظر ترجمته في : التاريخ الكبير ٢١٩/٧-٢٢٠ ، والسير ٥٢٣/٢ ، أسد الغابة ٤٨٧/٤ ، تاريخ الإسلام ٢٤٣/٢.

(١) (ضعيف) : رواه ابن النجار عن أنس : ضعيف الجامع الصغير : ٥٣٩٢ .
(٢) نزقا : النّزقُ الخفة والطيش . وأنزق الرجل إذا سفه يعد حلم اللسان مادة (نزق) .
(٣) في الأصل وقداً : والصواب " قد " ليستقيم المعنى والوزن .
(٤) في الأصل تولا والصواب ما أثبتناه .

فأجابه الشيخ : [من مشطور الرجز]

قَـدْ قَـالَ ابْنِـي مَـا تـرى فَصدقـه[1]

رَبَيْتُـه فِـي صِغَـرِ أُمَتِعُـهْ

طـوراً أفديـه وطـوراً أونقـه[2]

حتّـى إذا شَـبّ وسَـاوى مِفْرَقَـهْ

أقرضنـي مـن مَالِـهِ لا يُنْفقُـهْ

فـاقضِ القَضـاء والله ربـي يَرزُقُـهْ

فقال علي ﷺ

[من مشطور الرجز]

قَـدْ سَـمِعَ القَـاضِي وَمِـنْ ربـيٍّ الفَـهم

المَـالُ لـلأب حُـراً [لا] بـالنعم [3]

نَأكُلُـهُ بِرَغْـمِ أنْـفِ مَـنْ زَعَـم

مَـنْ قَـالَ قَـولاً غَـيْرَ ذَا فَقَـدْ ظَلَـم [4]

فَجَـارَ بـالحُكْمِ فبِئْـسَ مَـا حَكَـم

اذهب يالكع أنت ومالك لأبيك [5]

---

(١) في الأصل ترا والصواب ما أثبتناه .

(٢) أنِقتُ الشيء أنقاً إذا أحببته . وتأنق المكان : أعجبه فَعلِقَهُ لا يفارقه ، والأنق : الإعجاب بالشيء ، تقول: أنِقْتُ به وأنا آنقُ به أنَقاً وأنابهِ أنِقُ: معجب. اللسان /مادة (أنق).

(٣) زيادة من عندنا ليستقيم الوزن .

(٤) لم أعثر على الأبيات في ديوان الإمام علي ولم أعثر على القصة فيما بين يدي من مصادر .

(٥) لُكَعُ : اللُّكَعُ : المُهر والجحش والأنثى بالهاء ، ويقال للصبي الصغير ، وإذا أطلق على الكبير أريد به الصغير العِلم والعقل ، ومنه حديث الحسن : قالَ لرجل يا لكع ، يريد يا صغيراً في العلم ، ولكع : هو اللئيم وقيل هو العبد أو هو الصبيُّ الذي لا يتجه لمنطق ولا غيره : اللسان مادة (لكع).

[الباب الثاني]

باب حق الولد على الوالدين

قال الله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾(١) .

وعن أنس بن مالك ﴿ أن النبي - ﷺ - ﴾ قال : " أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم "(٢) .

﴿ وقال رسول الله - ﷺ - ﴾ : " ثلاث من حق الولد على الوالدين : يحسن اسمه وأن يعلمه الكتابة وأن يزوجه إذا بلغ " (٣) .

وعن عبد الله بن عمر ، أنه قال ﴿ قال رسول الله - ﷺ - ﴾ : " بادروا أولادكم الكنى لا يغلب عليهم الألقاب " (٤) .

وعن عباده بن الصامت قال سمعت ﴿رسول الله - ﷺ -﴾[يقول](٥): " إن شر الأسماء عبد الحرب والشهاب ومرة وهمام والحارث وأصدق الأسماء عبد الله وعبد الرحمن " (٦) .

---

(١) سورة التحريم آية (٦) .

(٢) (ضعيف) : رواه " ابن ماجة " عن أنس : ضعيف الجامع الصغير : ١١٣٣ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة - المجلد الرابع ١٦٤٩ ، سنن ابن ماجة - كتاب الأدب- باب بر الوالدين:٣٦٧١، ضعيف الترغيب والترهيب- المجلد الثاني: ١٢٣١.

(٣) (ضعيف) : رواه " ابن النجار " عن أبي هريرة : ضعيف الجامع الصغير :٢٠٠٥ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة - المجلد السابع : ٣٤٩٤ .

(٤) (موضوع) : رواه " الدارقطني في الأفراد ، الكامل لابن عدي " عن ابن عمر : ضعيف الجامع الصغير : ٢٣١٤ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة - المجلد الرابع : ١٧٢٨ .

(٥) زيادة يقتضيها السياق .

(٦) (صحيح) : سلسلة الأحاديث الصحيحة - المجلد الثالث :١٠٤٠ . وكرر اسم عبدالله بعد عبدالرحمن مرة أخرى وحذفناه لعدم دلالته على شيء .

﴿ وقال – ﷺ – ﴾ : " إذا سميتم فعبدوا فكلكم عبيد كلكم "[1].

وعن على ﷺ أنه قال ﴿ قال رسول الله – ﷺ – ﴾ : " من ولد له ثلاثة من البنين فلم يُسمِ أحدهم باسمى فقد جفانى "[2] .

﴿ وقال – ﷺ – ﴾ : " ما اجتمع قوم قط في مشورة فيهم رجل اسمه محمد لم يدخلوه في مشورتهم إلا لم يُبارك لهم " .

﴿ وقال – ﷺ – ﴾ : " من ولد له ثلاثة من الأولاد ولم يسم أحدهم محمداً فقد جهل "[3] .

﴿ وقال – ﷺ – ﴾ : " أيما أهل بيت فيهم محمد لم تزل البركة في ذلك البيت ما دام محمدٌ حياً "[4] .

﴿ وقال النبي – ﷺ – ﴾ : " تسموهم باسمي ثم تلعنونهم كأنه يوبخهم على اللعنة فينهاهم عن شتم من اسمه محمدا "[5] .

﴿ وقال النبي – ﷺ – ﴾ : " من ولد له مولود فأذّن في أذنه اليمنى وأقام في أذنه اليسرى ودفعت عنه أم الصبيان "[6] .

---

(١) (ضعيف جدا) : رواه " الحسن بن سفيان الحاكم في الكني ، الطبراني في الكبير " عن أبي زهير الثقفي : ضعيف الجامع الصغير : ٥٥٨ – مع اختلاف الرواية ﴿ إذا سميتم فعبدوا ﴾.

(٢) (موضوع) : رواه " الطبراني في الكبير ، الكامل لابن عدي " عن ابن عباس : ضعيف الجامع الصغير: ٥٨٨٠، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد الأول :٤٣٧، مع اختلاف الرواية ﴿ من ولد له ثلاثة من الأولاد ولم يسم أحدهم محمداً فقد جهل ﴾ .

(٣) (موضوع): رواه "الطبراني في الكبير ، الكامل لابن عدي" عن ابن عباس : ضعيف الجامع الصغير: ٥٨٨٠، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة–المجلد الأول:٤٣٧

(٤) (موضوع):سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة– المجلد الأول : ١٧١، مع اختلاف الرواية: ﴿من ولد له مولود فسماه محمدا تبركا به كان هو ومولوده في الجنة﴾ .

(٥) (ضعيف) : رواه " البزار في مسند أبي يعلي ، الحاكم في المستدرك " عن أنس : ضعيف الجامع الصغير : ٢٤٣٦ ، مع اختلاف الرواية ﴿ تسمون أولادكم محمدا ثم تلعنونهم ؟ !﴾.

(٦) (موضوع) :ورد في " مسند أبي يعلي " عن الحسين : ضعيف الجامع الصغير : ٥٨٨١، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد الأول : ٣٢١ .

وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : أنّ ﴿ النبـــي - ﷺ - ﴾: " كان يعق عن الغلام شاتين وعن الجارية شاة "[1] .

" وعق ﴿ رسول الله - ﷺ - ﴾ عن الحسن والحسين شاتين شاتين يـــوم السابع "[2] .

وعن سَمُرة [3] قال ﴿ قال رسول الله - ﷺ - ﴾ : " كل مولود أو غـلام مرتهن بعقيقته فأهريقوا دماً ، وأميطوا عنه الأذى "[4] .

وعن عطاءٍ [5] قال : لا يكسر من العقيقة عظم ويطبخ بماءٍ وملح ويهدى في الجيران .

---

(١) (صحيح) : عن عائشة : سنن ابن ماجة – كتاب الذبائح – باب العقيقة :٣١٦٣ .

(٢) (صحيح) : رواه " أبو داود ، النسائي " عن ابن عباس : مشـــكاة المصـــابيح – المجلـد الثاني – باب العقيقة– الفصل الأول : ٤١٥٥[٧] ، سنن أبي داود – كتـــاب العقيقـــة : ٢٨٤١ ، إرواء الغليل : ١١٦٧ .

(٣) سَمُرَة بن جندب الفزاري : كنيته أبو سعيد ، كان زياد يستعمله ستة أشهر على البصـــرة وعلى الكوفة ستة أشهر ، فحديثه عن أهل المصرين ، ومـــات بـــالبصرة ســنة تسـع وخمسين بعد أبي هريرة : مشاهير علماء الأمصار ٦٧ وانظر ترجمته في طبقات ابـــن سعد ٣٤/٦ ، ٤٩/٧ ، السير ١٨٣/٣، التاريخ الكبير ١٧٦/٤ ، جمهرة أنساب العـــرب ٢٥٩ ، أسد الغابة ٣٥٤/٢ ،وتاريخ الإسلام ٢٩٠/٢ .

(٤) (صحيح) : رواه " البيهقي في شعب الإيمان " عن سلمان بن عامر : صحيح الجامع الصغـير – المجلد الثاني : ٤١٨٥ . والعقيقة : يقال لكل ما شقه ماء السـيل فـي الأرض فأنـهره ووسعه : عقيق والعقيقة : الشعر الذي يولد به الطفل لأنه يشق الجلد، وسميت الشاة التـــي تذبح في تلك الحال عقيقة ، لأنه يحلق عنه ذلك الشعر عند الذبح : اللسان / مادة عق .

(٥) لعله عطاء بن أبي رباح : مولى آل أبي خَيْثم الفهري القرشي واسم أبي ربـــاح أسـلم ، وكان عطاء من سادات التابعين وكان المقدم في الصالحين مع الفقه والـــورع ، وكـــان مولده سنة سبع وعشرين ، ومات بمكة سنة أربع وعشرة ومائة ، وكنيته أبـــو محمـــد: مشاهير علماء الأمصار ١٣٣ ، وانظر ترجمته في : الثقات ١٩٨/٥ ، والتاريخ الطبـير ٤٦٣/٢/٣ ، والتهذيب ١٩٩/٧ .

وعن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال : اختتنوا أولادكم يوم السابع فإنه أظهر وأسرع نباتاً للحم [1] .

وعن أبي سعيد الخدري عن ﴿ رسول الله – ﷺ – ﴾ أنه قال : " إذا أفصح أولادكم فعلموهم قول لا إله إلا الله ثم لم تبالوا متى ماتوا وإذا ثغروا عمروهم بالصلاة " [2] .

﴿ وقال – ﷺ – ﴾ : " مروا أولادكم بالصلاة إذا بلغوا سبعاً واضربوهم عليها إذا بلغوا عشراً ، يعني على ترك الصلاة وفرقوا بينهم في المضاجع " [3].

﴿ وقال النبي – ﷺ – ﴾ : " من أدرك له ولد وعنده ما يزوجه فلم يزوجه فأحدث فالإثم بينهما "[4] .

وعن عمر بن الخطاب ﷺ عنه ﴿ عن النبي – ﷺ – ﴾ قال : " مكتوب في التوراة من بلغت له بنت ثنتي عشرة سنة فلم يزوجها فركبت إثماً فإثم ذلك عليه "[5] .

---

(١) (موضوع) : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد السابع :٣٢٨٠ .

(٢) (ضعيف) : رواه " ابن السني في عمل اليوم والليلة " عن ابن عمرو : ضعيف الجامع الصغير :٣٨٨- مع اختلاف الرواية : " إذا أفصح أولادكم فعلموهم لا إله إلا الله ثم لا تبالوا متى ماتوا و إذا أثغروا فمروهم بالصلاة " ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد الخامس : ٢٣٣٦ . ثغروا : الثُّغْر : الفم ، وقيل : هو اسم الأسنان كلها ما دامت في منابتها قبل أن تسقط ،وقيل : هي الأسنان كلها ، وقيل ثُغِـرَ ، فهو فثغور ، فإذا نبتت أسنانه بعد السقوط قيل : اثغر ، وقيل الأثغار : سقوط سن الصبي ونباتها : اللسان / مادة (ثغر) .

(٣) (حسن) : رواه " أحمد في المسند ، أبوداود ، الحاكم في المستدرك " عن ابن عمرو : صحيح الجامع الصغير – المجلد الثاني :٥٨٦٨ ، سنن أبي داود – كتاب الصلاة : ٤٩٥ ، مشكاة المصابيح – المجلد الأول – كتاب الصلاة – الفصل الأول : ٥٧٢ [9] .

(٤) (ضعيف) : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد الثاني :٧٣٧- مع اختلاف الرواية : " من ولد له مولود فليحسن أدبه واسمه فإذا بلغ فليزوجه فإن بلغ ولم يزوجه فأصاب إثما باء بإثمه " .

(٥) (ضعيف):رواه "البيهقي في شعب الإيمان" عن عمر وأنس: ضعيف الجامع الصغير :٥٢٧١.

وعن الشعبي [1] أنه قال : من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها ، قال وجاء رجل إلى الحسن [2] يستشيره في تزويج ابنته فقال زوجها من رجل تقي فإنه إن أحبها أكرمها وإن أبغضها لم يظلمها .

وقال عمر بن الخطاب ﷺ : لا يزوجن أحدكم ابنته من رجل قبيح فإنهن يشتهين الحُسنَ كما تشتهون .

﴿ وقال رسول الله – ﷺ – ﴾ : " ساووا بين أولادكم في العطية فإني لو كنت مؤثراً أحداً لآثرت النساء على الرجال "[3] .

---

(١) الشعبي : واسمه عامر بن شرَاحيل بن عبدالشَّعبي شعب همدان ، كان مولده سنة إحدى وعشرين وكان من الفقهاء في الدين وجلة التابعين مات سنة خمس ومائة وقد أدرك خمسين ومائة من الصحابة : مشاهير علماء الأمصار ١٦٣ ، وانظر ترجمته في : الثقات ١٨٥/٥ ، التهذيب ٦٥/٥ ، تاريخ بغداد ٢٢٧/١٢ .

(٢) لعله الحسن البصري .

(٣) (ضعيف) : رواه " الطبراني في الكبير ، الخطيب البغدادي ابن عساكر " عن ابن عباس: ضعيف الجامع الصغير : ٣٢١٥ .

[الباب الثالث]

باب حق الزوج على زوجته

قال الله عز وجل ﴿ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ [1] .

وعن جابر بن عبد الله ﴿ عن النبي – ﷺ – ﴾ أنه قال : " لا ينبغي لشيء أن يسجد لشيء ولو كان ذلك كان النساء يسجدن لأزواجهن "[2].

وعن أبي سعيد الخدري أن رجلاً أتى بابنته إلى رسول الله– ﷺ– فقال : " هذه ابنتي تأبى أن تتزوج فقال لها ﴿ رسول الله – ﷺ– ﴾ : أطيعي أباك قالت تخبرني ما حق الزوج على زوجته ؟ قال : حق الزوج على زوجته لو كانت به قروح فلحستها ما أدت حقه ، ولو ابتدر أنفه صديداً أو دماً فابتلعته ما أدت حقه ، قالت : والذي بعثك بالحق نبياً ما أتزوج أبداً ، فقال ﴿ النبي– ﷺ – ﴾ : لا تنكحوهن إلا بأذنهن "[3] .

وعن أبي هريرة عن ﴿ النبي – ﷺ – ﴾ أنه قال : " لا يحل للمرأة خروج إلا بإذن زوجها فإن خرجت بغير إذنه فإن الملائكة تلعنها حتى ترجع إليه "[4] .

---

(١) سورة النور آية رقم (٣١) .

(٢) (ضعيف) : رواه " أبو داود ، الحاكم في المستدرك " عن قيس بن سعد : ضعيف الجامع الصغير : ٤٨٤٢ – مع اختلاف الرواية : " لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق " .

(٣) (حسن صحيح) : رواه " البزار بإسناد جيد رواته ثقات مشهورون وابن حبان في صحيحه " صحيح الترغيب والترهيب – المجلد الثاني – كتاب النكاح وما يتعلق به (الترغيب في غض البصرة الترهيب من إطلاقه ومن الخلوة بالأجنبية ولمسها) : ١٩٣٤ . والقروح : مفرد قَرْح وقُرْح – والقَرْح الجرح والقُرح الألم ومنه قوله تعالى : " إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وقيل : القُرح بالضم الاسم ، وبالفتح المصدر : اللسان مادة قرح .

(٤) (موضوع) : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد الرابع : ١٥٥٠ – مع اختلاف الرواية : " أيما امرأة خرجت من بيت زوجها بغير إذنه ، لعنها كل شيء طلعت عليه الشمس والقمر ، إلا أن يرضى عنها زوجها " .

وعن حصين بن محصن الأنصاري عن عمةٍ لـــه أنـــها قـــالت : أتيـــت ﴿ رسول الله – ﷺ– ﴾ لحاجةٍ لي فلما فرغت من حاجتي قـــال : " أذات بعـــل أنت قالت : نعم قال : فكيف أنت له [قالت] : ما ألوه إلا ما عجزت عنهُ قال : انظريه فإنه جنتك ونارك "(١) .

وعن أبي أوفا قال قال معاذ بن جبل رحمه الله قدمت من الشام وإذا كنـت رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم فلما قدمت على ﴿النبي – ﷺ –﴾ سجدت فقال ما هذا قلت يا رسول الله إني رأيتهم بالشام يسجدون لأساقفتهم وبطارقتـــهم فقال ﴿ النبي – ﷺ – ﴾ لو كنت آمراً أحداً يسجد لغير الله لأمرت المـــــرأة أن تسجد لزوجها والذي نفسي بيده لا تؤدي حق ربها حتى تؤدي حق زوجها كلــه حتى ولو سألها نفسها وهي [على] (٢) قتب أعطته إياها (٣).

---

(١) (صحيح) : رواه " أحمد والنسائي بإسنادين جيدين والحاكم وقـــال صحيـــح الإســـناد " : صحيح الترغيب والترهيب – المجلد الثاني – كتاب النكاح وما يتعلق بـــه ١٩٣٣ – مـــع اختلاف الرواية : " عن حصين بن محصن رضي الله عنه أن عمة له أتت النبي صلـــى الله عليه وسلم فقال لها أذات زوج أنت قالت نعم قال فأين أنت منه قالت ما آلـــوه إلا مـــا عجزت عنه قال فكيف أنت له فإنه جنتك ونارك" . وآلوه : ألوى بالكلام: خالف به عـــن جهته ولوى عن الأمر والتوى : تثاقل ولويت أمري عنه ليًا وليّانا طويته . والإلـــواء : أن تخالف بالكلام عن جهته . ويقال لوى رأسه وذنبه وعِطْفَه عنك ، إذا ثناه وصرفه ، وهـــو مثل لترك المكارم والروغان عن المعروف أو هو كناية عن التخلف والتـــأخر : اللســـان مادة (لوى) .

(٢) غير موجود في الأصل ، ولا يستقيم المعنى إلا به . وهو موجود في نص الحديث .

(٣) (صحيح) : رواه " ابن ماجة وابن حبان في صحيحه " ولفظ ابن ماجة حســـن صحيـــح: صحيح الترغيب والترهيب – المجلد الثاني – كتاب النكاح وما يتعلق به ١٩٣٨ ، ســـنن ابن ماجة – كتاب النكاح– باب ما جاء في فضل النكـــاح : ١٨٥٣ . والقَتَـــب والقِتْـــب إكاف البعير ، وقيل : هو الإكاف الصغير الذي على قدر سنام البعير . وفي الصحـــاح : رحل صغير على قدر السنام : اللسان مادة (قتب) .

وعن عمر قال ﴿ قال رسول الله – ﷺ – ﴾ : " اثنان لا تجاوز صلاتهما رؤوسهما : عبد أبق حتى يرجع إلى مواليه ، وامرأة عصت زوجها حتى ترجع إليهم "(١) .

وعن عبدالله بن عباس قال سألت امرأةٌ ﴿ رسول الله – ﷺ – ﴾ فقالت: " ما حق الرجل على المرأة ؟ قال لا تمنعه نفسها وإن كانت على رأس قتب ، ثم قالت وما حق الرجل على المرأة قال : لا تصوم تطوعاً إلا بإذنه فإن فعلت كان له الأجر وعليها الوزر ، قالت وما حق الرجل على المرأة قال : لا تخرج من بيتها إلا بإذنه فإن فعلت لعنتها ملائكة الرحمة وملائكة الغضب حتى تتوب وترجع قالت : لا جرم والله لا يملكُ عليَّ أمري رجل أبداً " (٢) .

وعن جابر بن عبدالله قال ﴿قال رسول الله – ﷺ– ﴾ : " ثلاثة لا يقبل الله صلاتهم ولا ترفع إلى السماء لهم حسنة : العبد الآبق حتى يرجع إلى مواليه فيضع يده في أيديهم والمرأة الساخط عليها زوجها حتى يرضى ، والسكران حتى يصحو " (٣) .

---

(١) (صحيح) : رواه " الحاكم في المستدرك ، الطبراني في الأوسط والصغير بإسناد جيد " عن ابن عمر : صحيح الجامع الصغير – المجلد الأول : ١٣٦ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة – المجلد الأول : ٢٨٨ ، صحيح الترغيب والترهيب – المجلد الثاني – كتاب البيوع وغيرها : ١٨٨٨ .

(٢) (ضعيف) : رواه " الطيالسي " عن ابن عمر : ضعيف الجامع الصغير : ٢٧٣٠ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد الثامن :٣٥١٥ ، ضعيف الترغيب والترهيب – المجلد الثاني : ١٢١٧ .

(٣) (ضعيف) : رواه " ابن خزيمة ، ابن حبان في صحيحه ، البيهقي في شعب الإيمان " عن جابر : ضعيف الجامع الصغير : ٢٦٠٢ ، ضعيف الترغيب والترهيب – المجلد الثاني : ١٢١٨، ١٤٢٠ ، صحيح ابن خزيمة : ٩٤٠ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد الثالث : ١٠٧٥ .

وعن عبدالله بن عمر ﴿ عن النبي - ﷺ - ﴾ قال : " كلكم راعٍ وكل راع مسئول عن رعيته والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسئولة عنه ، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا وكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته "(١) .

---

(١) (صحيح) : رواه " البخاري ، مسلم ، أحمد في المسند ، أبو داود ، الترمذي " عن ابن عمر : صحيح الجامع الصغير - المجلد الثاني : ٤٥٦٩ ، صحيح الترغيب والترهيب - المجلد الثاني - كتاب القضاء وغيره (الترهيب من تولي السلطة والقضاء) .

[الباب الرابع]

باب حق المرأة على الزوج

قال الله سبحانه : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [١]

وقال تعالى ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [٢]

وقال ﴿ رسول الله - ﷺ - ﴾ : " أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائه " [٣] .

وعن فاطمة عليها السلام أنها قالت : قال ﴿ رسول الله - ﷺ - ﴾ : " خياركم ألينكم مناكب وأكرمكم للنساء " [٤] .

---

(١) سورة النساء آية رقم (١٩) .

(٢) سورة البقرة آية رقم (٢٢٨) .

(٣) (صحيح) : رواه " الترمذي ، ابن حبان في صحيحه " عن أبي هريرة : صحيح الجامع الصغير – المجلد الأول : ١٢٣٢ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة – المجلد الأول :٢٨٤ ، سنن الترمذي – كتاب الرضاع – باب ما جاء في حق المرأة على زوجها : ١١٦٢ ، مشكاة المصابيح – المجلد الثاني – باب عشرة النساء : ٣٢٦٤ [٢٧] ، صحيح الترغيب والترهيب – المجلد الثاني – كتاب النكاح وما يتعلق به : ١٩٢٣ .

(٤) (صحيح لغيره) : رواه " ابن ماجة ، والحاكم " عن ابن عباس رضي الله عنهما : صحيح الترغيب والترهيب – المجلد الثاني – ١٧ كتاب النكاح وما يتعلق به – ١ الترغيب في غض البصر : ١٩٢٥ ، مع اختلاف الرواية "" عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال خيركم خيركم لاهله وأنا خيركم لاهلي"" رواه ابن ماجه والحاكم "" إلا أنه قال خيركم خيركم للنساء "" وقال صحيح الإسناد . وورد الجزء الأول من هذا الحديث منفصلا في حديث آخر وهو صحيح : رواه "أبو داود" عن ابن عباس : صحيح الجامع الصغير – المجلد الأول :٣٢٦٤– مع اختلاف الرواية : " خياركم ألينكم مناكب في الصلاة " ، والمناكب :مفرد مَنْكَب وهو مجتمع عظم العضد والكتف ، ونكب فلان ينكب نكبا إذا اشتكى منكبه ، والمعنى أنه أراد لزوم السكينة في الصلاة ؛ وقيل أراد ألا يمتنع على من يجئ ليدخل في الصف ، لضيق المكان ، بل يمكنه من ذلك : اللسان / مادة (نكب) .

وعن أبي برزة [1] ﷺ قال ﴿ قال رسول الله - ﷺ - ﴾ : "مثل المرأة مثل الضلع إن تحرص على إمامته تكسره فدارها تعش لها "[2] .

وعن جرير[3] أنه أتى عمر بن الخطاب فشكا عليه ما يلقى من النساء فقال عمر : إنا لنلقى ذلك منهن فقال ابن مسعود يا أمير المؤمنين أما علمت أن إبراهيم صلى الله عليه شكا إلى ربه من خلق سارة فقال البسها على ما فيها وذكر أنها خلقت من ضلع [أعوج] .

وعن عبدالله بن عباس قال : ما أحب أن تأتى إلى امرأتي كل الذي عليها من الحق لأن الله تعالى يقول ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ[4] ﴾.

وقال ﴿ رسول الله - ﷺ - ﴾ : " من كان له امرأتان فمال مع إحداهما[5] جاء يوم القيامة مايل شقة ، أو قال وشقة مائل "[6] .

---

(١) أبو برزة الأسلمي : اسمه نضلة بن عُبيد بن الحارث ، من المتعبدين ، مات في إمارة يزيد بن معاوية بعد الحرة في المفازة بين سجستان وهراة غازياً : مشاهير علماء الأمصار ص٦٨ ، وانظر ترجمته في الإصابة ٥٥٦/٣ ، أسد الغابة ١٤٦/٥ ، الطبقات الكبرى لابن سعد ١٠٠/٢/٧ .

(٢) (صحيح) : رواه " ابن حبان في صحيحه " : صحيح الترغيب والترهيب- المجلد الثاني - كتاب النكاح وما يتعلق به ١٩٢٦ – مع اختلاف الرواية : " إن المرأة خلقت من ضلع فإن أقمتها كسرتها فدارها تعش بها " .

(٣) جرير بن عبدالله البَجَلي أبو عمر : وكان ممن هاجر إلى رسول الله ﷺ ، ما حجبه رسول الله منذ أسلم ولا رآه :إلا تبسم في وجهه ، سكن الكوفة فلما وقعت الفتن خرج هو وعدي بن حاتم وحنظلة الكاتب وقالوا : لا نقيم ببلدة يشتم فيها عثمان فخرجوا إلى قرقيساء وسكنوها ، ومات جرير سنة إحدى وخمسين : مشاهير علماء الأمصار ص ٧٦ ، وانظر ترجمته في : طبقات ابن سعد ٢٢/٦ ، السير ٥٣٠/٢ ، التاريخ الكبير ٢١١/٢، أسد الغابة ٣٣٣/١ ، شذرات الذهب ٥٧/١، ٥٨ . وأعوج ساقطة من الأصل.

(٤) سورة البقرة آية (٢٢٨) .

(٥) في الأصل أحدهما . والصواب إحداهما كما في نص الحديث .

(٦) (صحيح) : رواه " أبوداود " عن أبي هريرة : إرواء الغليل : ٢٠١٧ ، سنن النسائي – كتاب العشرة – باب ميل الرجل مع بعض نسائه دون بعض : ٣٩٤٢ .

وعن هشام بن عروة [1] قال قالت عائشة رضى الله عنها : " يا ابن أختى كان ﴿ رسولُ الله – ﷺ – ﴾ لا يفضل بعضنا على بعض في القَسْم في مكثه عندنا ، وما كان كل يوم إلا وهو يطرق علينا جميعا ، ويدنوا من كل امرأة من غير مستقرٍ حتى يبلغ إلى التي هي يومها فيبيت عندها "، وقد قالت سودة بنت زمعة [2] حين أسنت ومرقت أن يفارقها ﴿ رسول الله – ﷺ- ﴾ : " إني قد جعلت يومي لعائشة يا رسول الله فرضى ذلك رسول الله – ﷺ – منها[3] وقالت في ذلك أنزل الله تبارك وتعالى وفي أشباهها : ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ [4]" .

وعن القاسم مولى عبد الرحمن [5] أن ﴿ رسول الله –ﷺ- ﴾ قال :" ينكح

---

(١) هشام بن عروة بن الزبير بن العوام أبو المنذر ، وقد قيل أبو بكر ، جالس ابن الزبير ورأى جابراً وابن عمر من حفاظ أهل المدينة ومتقنيهم وأهل الورع والفضل في الدين ، كان مولده سنة ٦٠ أو ٦١ ومات سنة خمس أو ست وأربعين ومائة : مشاهير علماء الأمصار ١٣٠ ، ١٣١ ، ترجمته في الثقات ٥٠٢/٥ ، والتاريخ الصغير ٨٣/٢ ، تاريخ بغداد ٤٧/١٤ ، الكامل في التاريخ ٣٦٠/٤ ، التهذيب ٣١٩/٢ ، وفيات الأعيان ٥٨٠/٦ ، تهذيب الكمال ١٤٤٥ ، تاريخ الإسلام ١٤٥/٦ ، نسب قريش ٢٤٨ ، ميزان الاعتدال ٣٠١/٤ ، العبر ٢٠٦/١ ، مرآة الجنان ٣٠٢/١ ، تاريخ البخاري ١٩٣/٤ .

(٢) أول امرأة يتزوجها الرسول بعد خديجة .

(٣) (صحيح) : عن هشام بن عروة عن أبيه : سنن أبي داود – كتاب النكاح : ٢١٣٥ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة – المجلد الثالث : ١٤٧٩ .

(٤) سورة النساء آية (١٢٨) .

(٥) القاسم مولى عبدالرحمن : لعله القاسم بن معن بن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود الهذلى من متقني أهل الكوفة وكان على القضاء ، ومات بعد جرير بن عبدالحميد بقليل

أحدكم الشابة الرطبة حتى إذا كبرت وبرزت طلقها الله الله في النساء "(١).

وقال القاسم ﴿ قال رسول الله – ﷺ – ﴾ : " حق المرأة على زوجها أن يطعمها من طعامه ويكسوها من كسوته فإن عصت فليضربها ويتق الوجه ولا يضربها ضرباً مبرحا "(٢) .

وقال العلاء بن سفيان : إن من الفواحش التي حرم الله تعالى ما لم يتبين تفسيره أن يتزوج الرجل المرأة فإذا أبغض بطنها وولى سنها طلقها .

وعن عطاء بن أبى رباح (٣) أن ﴿ رسول الله –ﷺ– ﴾ " قال له رجل : عليّ جناح أن أكذب أهلي قال لا يحب الله الكذوب مرتين فقال يا رسول الله أعليّ جناح أن أكذب أهلي استصلحها واستطيب نفسها قال لا جناح عليك ، وقيل في خبرٍ آخر عن ﴿ رسول الله – ﷺ– ﴾ أنه قال : " كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا على ثلاثة ، رجل كذب على امرأته ليرضهَا ورجل نمى بين امرأين ليصلح بينهما ، ورجل كذب على خدعة حربٍ (٤) ".

– مشاهير علماء الأمصار ٢٦٨ وترجمته في : السير ١٩٠/٨ ، العبر ٦٨/١ ، شذرات الذهب ٢٩٨/١ ، الجواهر المضية ٤٢/١ .

(١) (صحيح) : سلسلة الأحاديث الصحيحة – المجلد الثاني : ٩٩٩ – مع اختلاف الرواية: " إن أعظم الذنوب عند الله رجل تزوج امرأة ؛ فلما قضى حاجته منها طلقها وذهب بمهرها

(٢) (صحيح) : رواه " الطبراني في الكبير ، الحاكم في المستدرك " عن معاوية بن حيدة: صحيح الجامع الصغير – المجلد الأول : ٣١٤٩ ، سنن ابن ماجة – كتاب النكاح – باب ما جاء في فضل النكاح : ١٨٥٠– مع اختلاف الرواية : " حق المرأة على الزوج أن يطعمها إذا طعم و يكسوها إذا اكتسى و لا يضرب الوجه و لا يقبح و لا يهجر إلا في البيت " .

(٣) سبقت ترجمته في ص ٣٨٦ .

(٤) (ضعيف) : رواه " الطبراني في الكبير ، ابن السني في عمل اليوم والليلة " عن النواس : ضعيف الجامع الصغير : ٤٢١٥ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد التاسع : ٤١٠٣ – مع اختلاف الرواية : " كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا ثلاثا:

وعن عطاء بن يسار[1] عن ﴿ رسول الله - ﷺ - ﴾ أنه قال : " ما من صباح إلا وملكان يناديان ويل للرجال من النساء وويل للنساء من الرجال "[2].

وعن ثوبان[3] قال ﴿ قال رسول الله - ﷺ - ﴾ : " أفضل دينار ينفقه على عياله ودينار ينفقه على دابةٍ في سبيل الله ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله "[4] ، وقال أبو قلابة[5] بدأ بالعيال، قال رجل وأي رجل أعظم أجراً من رجل يسعى على عيالٍ له صغار حتى يعفهم ويعينهم .

---

(١) عطاء بن يسار : مولى ميمونة زوجة النبي ﷺ ، أخو سليمان وعبدالملك وعبدالله بني يسار ، وكان يقيم بالمدينة مدة وبالشام مدة وكان أهل مصر يكنونه وكان أهل مصر يكنونه بيسار ، وكان مولده سنة تسع عشرة ، ومات بالإسكندرية سنة ثلاث ومائة وكان صاحب قصص وعبادة وفضل : مشاهير علماء الأمصار ١١٤ ، وانظر طبقات ابن سعد ١٧٣/٥ ، والتهذيب ٢١٧/٧ ، تاريخ البخاري ٤٦١/٦ ، التاريخ الكبير ٤٦١/٢/٣ ، تاريخ الإسلام ٣٤/٤ و ١٥٥ ، السير ٤٤٨/٤-٤٤٩ .

(٢) (ضعيف جداً) : رواه " ابن ماجة ، الحاكم في المستدرك " عن أبي سعيد : ضعيف الجامع الصغير : ٥١٨٦ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة - المجلد الخامس: ٢٠١٨ ، سنن ابن ماجة - كتاب الفتن - باب الكف عمن قال لا إله إلا الله : ٣٩٩٩ ، ضعيف الترغيب والترهيب - المجلد الثاني : ١١٩٨ .

(٣) ثوبان بن يَحْدَد الهاشمي مولى رسول الله ﷺ أبو عبدالرحمن مات سنة أربع وخمسين ٥٤هـ وهو من مشاهير الصحابة بالشام : انظر الثقات ٤٨/٣ ، الإصابة ٢٠٤/١ ، أسد الغابة ٢٤٩/١، التجريد ٧٠/١ .

(٤) (صحيح) : رواه " مسلم " عن ثوبان : صحيح الأدب المفرد - باب نفقة الرجل على أهله : ٧٤٨/٥٧٩، مشكاة المصابيح - المجلد الأول - باب أفضل الصدقة : ١٩٣٢[٤] ، سنن ابن ماجة - كتاب الجهاد : ٢٧٦٠ ، صحيح الترغيب والترهيب - المجلد الثاني - كتاب النكاح وما يتعلق به ١٩٥٢ .

(٥) أبو قلابة الجرحي : اسمه عبدالله بن زيد ، من عبّاد التابعين وزهادهم ، ممن هرب من البصرة مخافة أن يولى القضاء ، فدخل الشام ومعه بنيّ له إلى أن اعتل علة صعبة فذهبت يداه ورجلاه وبصره، فما كان يزيد على: اللهم أوزعني أن أحمدك حمداً أكافئ=

وعن عمر بن الخطاب ﷺ عن ﴿ النبي - ﷺ - ﴾ " كان يبيع نخل بني النضير فيخبز لأهله قوت سنتهم "[1] .

وعن عبد الله بن عمر أنه قال لخازن له أركلْتَ لأهلنا قوتهم ؟ فإني سمعت ﴿ رسول الله - ﷺ - ﴾ يقول : " كفى للمرء من الإثم أن يضيع من يعول [2] .

وقال ﴿ -ﷺ- ﴾ : " الخلق كلهم عيال الله فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله" [3] .

وعن أبى هريرة قال ﴿ قال رسول الله -ﷺ- ﴾ :" من طلب حلالاً استعفافا عن المسألة وسعيا على عياله وتعطفا على جاره بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ، ومن طلب حلالا مكاثراً مرائياً بعثه الله تعالى وهو عليه غضبان "[4].

= به شكر نعمتك التي أنعمت علي وفضلتني على كثير ممن خلقته تفضيلا ، مات سنة١٠٤ : انظر الثقات ٥/٢ ، أسد الغابة ٢٤٧/٣ ، التهذيب ٢٢٤/٥ ، العبر ٣٣/١ ، الإصابة ٩٠/٦ ، السير ٢٧٥/٢ ، ابن سعد ٥٣٦/٣-٥٣٧ .

(١) (صحيح) : رواه " البخاري " عن عمر : صحيح الجامع الصغير – المجلد الثاني : ٤٨٩٦ – مع اختلاف الرواية:" كان يبيع نخل بني النضير و يحبس لأهله قوت سنتهم".

(٢) (حسن لغيره) : رواه " أبو داود ، النسائي ، الحاكم " عن عبدالله بن عمرو : صحيح الترغيب والترهيب – المجلد الثاني – كتاب النكاح وما يتعلق به : ١٩٦٥ – مع اختلاف الرواية : " كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت " ، (وقال من يعول وقال صحيح الإسناد).

(٣) (ضعيف جداً) : رواه " أبي يعلي في مسنده " عن أنس ، ورواه " الطبراني في الكبير " عن ابن مسعود: ضعيف الجامع الصغير : ٢٩٤٦ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد الرابع : ١٩٠٠ .

(٤) (ضعيف) : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد الثالث :١٠٣٢ .

وعن ابن عباس ﷺ أنه قال : من حمل طرقة من السوق إلى عياله حتى يضعها فيهم كان كحامل صدقةٍ إليهم ، وليبدأ بالإناث قبل الذكور فإنه من فرح يعنى أنثي فرحه الله يوم الحَزن ، ومن أقر بعين أنثى فكأنما بكى من خشية الله ، ومن بكى من خشية الله أسكنه الله الجنة .

وقال علي عليه السلام لسلمان : يا سلمان سمعت ﴿ رسول الله - ﷺ -﴾ يقول : " من لم يهم للعيال فليس له في الجماعة نصيب ، قال سلمان : يا أبا الحسن أليس النبي - ﷺ - قال : صاحب العيال لا تفلح أبداً إن كسبت عليه من الحرام فإنك لا تفلح أبداً ، يا سلمان إن الجنة مشتاقة إلى أهل الغموم والهموم من الحلال " .

وذكروا أن عبدالله بن كثير بن الصباح [1] اشتغل بالعبادة وهجر فراشه وزوجته ، فأتت به امرأته إلى مسجد رسول الله - ﷺ - في أيام عمر وعمر غائب واستخلف كعب الأحبار [2] على المدينة فصارت إليه فلما مثلت بين يديه أقبلت تقول :

[من مشطور الرجز] .

١- يا أيُّها القاضِي الحليمُ ارْشُدُهْ
٢- ثُمَّ اقْضِ بالحقِّ ولا تُرَدِّده
٣- ألهي خَليلي عَنْ فِراشِي مَسْجدُهْ
٤- وخوفُ ربِّ العالمينَ تَعَبُّدُهْ

---

(١) عبدالله بن كثير بن المطلب بن أبي دراعة القرشي من خيار أهل مكة مات بعد سنة ١٢٠ هـ : مشاهير علماء الأمصار ص ٢٣٢ ـ انظر التهذيب ٣٦٧/٥ ، التقريب ٤٤٢/٢ .

(٢) كعب الأحبار : هو كعب بن مانع الحِمْيري ، كنيته أبو إسحاق ، كان قد قرأ الكتب وأسلم في خلافة عمر بن الخطاب مات سنة ٣٤هـ : انظر جمهرة أنساب العرب ٤٣٤ ، السير ٤٨٩/٣ طبقات ، ابن سعد ٤٤٥/٧ ، أسد الغابة ٤٨٧/٤ ، شذرات الذهب ٤٠٨ ، المعارف ٤٣٠ .

٥- صَلاتُــــه تُقِيمُــــهُ وتُقْعِــــدُهْ .
٦- نَـــهَارُه ولَيْلُـــهُ مَـــا يَرقُـــدُهْ
٧- (مُفترشـــاً) جبينـــه يكـــدده (١)
٨- ولَســتُ فــي أمــرِ النِّســاءِ أحمَـــدُهْ (٢)

فقال للرجل ما تقول به فقال :   [من مشطور الرجز] .

١- إنــي مــروٌ ألــهمَنِي مَــا قَــدْ نَــزَلْ
٢- في سُورةِ النُّور وفـــي الســبع الطِّــولْ

---

(١) يكدده : الكدُّ : الشدة في العمل وطلب الرزق ، والإلحاح في محاولة الشيء . والكدُّ الحك والمراد : أنه لا يرفع جبينه من الأرض ، كناية عن كثرة تعبده : اللسان / مادة (كـد) . وفي الأصل (مفترساً) والصواب ما أثبتناه لدلالته على المعنى .

(٢) وردت الأبيات في كتاب الأذكياء برواية أخرى وهي :

١- يــا أيــها القــاضي الحكيــم أرشـــده
٢- ألــهى خليلــي عــن فراشــي مســجده
٣- زهـــده فـــي مضجعـــي تعبـــده
٤- نـــهاره وليلـــه مـــا يرقـــده
٥- ولســت فــي أمــر النســاء أحمـــده

الأذكياء : لأبي الفرج بن علي بن الجوزي – تحقيق وتعليق : عادل عبدالمنعم أبو العبـــاس – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣م – ص١٧٤ .

ووردت في كتاب تزيين الأسواق برواية أخرى وبها زيادة وهي :

١- يــا أيــها القــاضي الحكيــم رشـــده
٢- ألــهى خليلــي عــن فــراش مســجده
٣- نـــهاره وليلـــه مـــا يرقـــده
٤- فلســت فـــي حكــم النســاء أحمـــده
٥- زهـــده فـــي مضجعـــي تعبَـــده
٦- فـــاقض القضـــاء يـــا كعــب لا تـــردده

تزيين الأسواق : داود الأنطاكي الضرير – تحقيق وشرح د: محمد التونجـــي – ط١- ١٩٩٣ م – عالم الكتب – بيروت – لبنان ٢/ ٢٧٦ .

٣- وفـــي القُــرآن واعــظُ لِمَـــنْ عَقَـــلْ

٤- مــن طاعــةِ البعــلِ ومِــنْ كــلِّ نَفَــلْ

٥- فَحُضَّها يا كعــبُ علــى خَــيْرِ العَمَــلِ[1]

قال فأنشأ كعب : [من مشطور الرجز]

١- إن خَــيْرَ الحَــاكِمينَ مَــنْ عَــدَلْ

٢- ثُــمَّ قَضَــى بــالحق جَــهْراً وفَصَـــلْ

٣- إن لَــهَا عَليــكَ حَقــاً يَـــا بَعَـــلْ

٤- ليلتُــها فــي الأربـــع لِمَـــن عَقَـــلْ

٥- وأنَــتَ أولَــى بــالثلاث فـــي مَــهَلْ

٦- فصـــلْ وصمــــهنَّ وسَــــلْ

٧- ولا تُضَــــعْ حَقْـــهَا فَتَبْتَـــهِلْ[2]

---

(١) وردت الأبيات في كتاب الأذكياء برواية أخرى وهي : فقال زوجها :

١- زهــدت فــي فراشــها وفــي الخجــل

٢- إنــي امــرؤ أذهلنــي مــا قــد نــزل

٣- في سورة النمل وفــي الســبع الطــول

٤- وفـــي كتــاب الله تخويـــــف جلــــل

الأذكياء : ١٧٤ .

ووردت في كتاب تزيين الأسواق برواية أخرى وهي :

١- إنــي امــرؤ أذهلنــي مــا قــد نــزل

٢- فــي ســورة النمــل والســبع الطــول

٣- وفــي كتــاب الله تخويـــــف جلـــل

تزيين الأسواق ٢/٢٧٧ .

(٢) وردت الأبيات في الأذكياء برواية أخرى من حيث عدد الأبيات وهي : فقال كعب :

١- إن لــها حقــاً عليــك يــا رجــل

٢- تصيبــها فــي أربــع لمــن عقـــل

٣- فأعطــها ذاك ودع عنــــك العلــل

فرجع إليها وقال أفعل إن شاء الله .

الأذكياء : ١٧٤ .

وجاءت في تزيين الأسواق برواية أخرى وهي : فقال كعب :

١- إن لـــها حقــاً عليـــك يــــا رجـــــل
٢- تصيبـــها فـــي أربـــع لمـــن عقـــــل
٣- قضيــــة مـــن ربنـــا عــــزّ وجـــــل
٤- فأعطـــها ذاك ودع عنــــك العلـــــل
٥- فـــإن خـــير القـــاضين مـــن عـــــدل
٦- وقد قضــــى بـــالحق جـــهراً وفصـــل

تزيين الأسواق : ٢/٢٧٧ .

[الباب الخامس]

باب حسن الجوار

قال الله ﷻ : ﴿ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ ﴾[1] .الآية .

﴿ وقال رسول الله- ﷺ - ﴾ : " ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه "[2]

وعن أبي هريرة ﴿ عن النبي - ﷺ- ﴾ أنه قال : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت "[3] .

وعن عروة[4] ﴿ عن رسول الله - ﷺ- ﴾ أنه [قال : من][5] بال إلى

---

(١) سورة النساء آية رقم (٣٦) .

(٢) (صحيح) : رواه " أحمد في المسند ، أبو داود ، الترمذي " عن ابن عمر ، " أحمد في المسند " عن عائشة : صحيح الجامع الصغير – المجلد الثاني : ٥٦٢٨ ، صحيح الترغيب والترهيب – المجلد الثاني – كتاب البر والصلة وغيرهما : ٢٥٧٠، سنن الترمذي – كتاب البر والصلة – باب ما جاء في حق الجوار : ١٩٤٢ ، سنن ابن ماجة – كتاب الأدب – باب بر الوالدين : ٣٦٧٣ ، سنن أبي داود – كتاب الأدب : ٥١٥١ ، إرواء الغليل : ٨٩١.

(٣) (صحيح) : رواه " أحمد في المسند ، النسائي ، ابن ماجة " عن أبي شريح وأبي هريرة : صحيح الجامع الصغير – المجلد الثاني : ٦٥٠١ ، سنن الترمذي – كتاب صفة القيامة والرقائق والورع – باب ما جاء في صفة أواني الحوض : ٢٥٠٠ .

(٤) عروة : لعله عروة بن الزبير بن العوام القرشي ، أخو عبدالله بن الزبير أمهما أسماء بنت أبي بكر الصديق من فقهاء المدينة وأفاضل التابعين وعبّاد قريش . توفي سنة تسع وتسعين : مشاهير علماء الأمصار ١٠٥ ،وانظر الثقات ١٩٤/٥ ، طبقات ابن سعد ١٨٧/٥ ، تاريخ البخاري ٣١/٧ ، جمهرة نسب قريش ٢٦٢ ، ٢٨٣ ، التاريخ الكبير ٢٣١/١/٤ ، السير ٤٢١/٤-٤٣٧ ، تاريخ الإسلام ٣١/٤ ، النجوم الزاهرة ٢٢٨/١.

(٥) زيادة لا يصلح المعنى إلا بها .

جدار جاره فقد آذاه ومن رمى كلب جاره فقد آذاه " (١) .

﴿ وقال رسول الله - ﷺ- ﴾ في سفر : " خرّج من كان سئ الجوار فلا يصحبنا "(٢) .

وعن أبي حباب (٣)عن أبيه كان شريح القاضي إذا مات له هرة أو طير دفنه في داره مخافة يؤذي جاره ، وعن حسن البصري أنه قال : من صبر على أذى جاره ملّكه الله داره(٤) .

وعن أبي هريرة ﴿ عن رسول الله - ﷺ - ﴾ أنه قال : " والله لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه "(٥) .

وعن عبدالله بن عمر ﴿ عن رسول الله - ﷺ - ﴾ أنه قال : " (سبعة)(٦) لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ، الفاعل والمفعول به ،

---

(١) (صحيح) : رواه " مسلم " عن أبي هريرة : صحيح الجامع الصغير - المجلد الثاني : ٧٦٧٥ ، صحيح الأدب المفرد- باب لا يؤذي جاره : ١٢١/٨٩ - مع اختلاف الرواية : " لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه " .

(٢) لم أجد له أصلا .

(٣) أبو حباب : اسمه سعيد بن يسار ، أخو أبو مزرد ، مولى شُغران مولى رسول الله ﷺ وقد قيل أنه مولى الحسن بن علي ، واسمه أبي مزرد عبدالرحمن ، من عقلاء أهل المدينة مات بها سنة سبع عشرة ومائة : مشاهير علماء الأمصار ١١٨ ، وانظر : الثقات ٣٥٦/٥، التهذيب ٢٥٦/٩ التقريب ١٧٧/٢ .

(٤) حديث وليس مقولة للحسن ، انظر التذكرة الحمدونية ١٨٦/١ ، البصائر ٧٧/١ برواية : " من أذى جاره ملكه الله داره " .

(٥) (صحيح) : عن أبي هريرة : صحيح الترغيب والترهيب - المجلد الثاني - كتاب البر والصلة وغيرهما (الترغيب في بر الوالدين وصلتهما وتأكيد طاعتهما والإحسان إليهما وبر أصدقائهما من بعدهما : ٢٥٥٠ ، مشكاة المصابيح - المجلد الثالث - كتاب الآداب - باب السلام - الفصل الأول : ٤٩٦٢[١٦] .

(٦) في الأصل (ستة) والصواب ما ورد في الحديث .

وناكح البهيمة، والناكح يده ، والناكح المرأة في دبرها ، وجـامع بيـن امـرأةٍ وابنتها ، والزاني بحليلة جاره ، والمؤذي جاره حتى يلعنه "[١] .

وعن المقداد بن الأسود الكندي[٢] أنه قال ﴿ قـال رسـول الله - ﷺ - ﴾ لأصحابه : " ما تقولون في الزنا قالوا حرمه الله تعالى ورسوله فهو حرام إلـى يوم القيامة ، قال عليه السلام لأن يزني الرجل بعشرة نسوة أيسر عليه مـن أن يزني بامرأة جاره ، ثم قال : ما تقولون في السرقة فقالوا حرمـها الله تعـالى ورسوله فهي حرام إلى يوم القيامة ، قال : لأن يسرق الرجل من عشرة أبيـات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره "[٣] .

وعن سويد بن عبدالعزيز بن زيد ﴿ عن النبي -ﷺ- ﴾ أنه قـال :" هـل تدرون ما حق الجار على ما تدرون ما حق الجار إلا قليلاً لا يؤمن بالله واليـوم الآخر من لا يأمن جاره بوائقه ، إن من حق الجار على جـاره إذا اسـتقرضه أقرضه وإن مرض عاده وإن مات شيع جنازته وإذا أصاب خـيراً هنـأه وإذا أصابه شر عزاه ولا يستطل عليه البناء فيحجب عنـه الريـح إلا بإذنـه، وإذا

---

(١) (ضعيف) : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة - المجلد الأول : ٣١٩ .

(٢) المقداد بن الأسود الكندي : هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة الكندي البَهْراني ، كنيتـه أبـو مَعْبَد ، وهو الذي يقال له المقداد بن أسود ، كان في حجر الأسود بن عبد يغوث فنسـب إليه ، وكان عمرو أبو المقداد حالف كِنده فلذلك قيل المقداد بن عمرو الكنـدي ، مـات بالجرف سنة ثلاث وثلاين فحمل إلى المدينة وصلى عليه عثمان بن عفان ، وكـان لـه يوم مات نحو من سبعين سنة - مشاهير علماء الأمصار ٤٦ ، وانظر السـير ١/٣٨٥ ، الإصابة ٣/٤٥٤ ، الثقات ٣/٣٧١ .

(٣) (صحيح) : رواه " أحمد في المسند ، البخاري في الأدب المفرد ، الطبراني في الكبـير " عن المقداد بن الأسود : صحيح الجامع الصغير - المجلد الثـاني : ٥٠٤٣ ، صحيـح الترغيب والترهيب - المجلد الثاني- كتاب البر والصلة وغيرهما : ٢٥٤٩ .

اشترى فاكهةً فليهد له فإن لم يهد له فليدخلها سراً ولا يعطى صبيانه الشــــيء منها يغاظون صبيانه " (١) .

ثم قال ﴿ رسول الله – ﷺ – ﴾ :" الجيران ثلاثة فمنهم من له ثلاثة حقوق ومنهم من له حقان ومنهم من له حق ، فمن له ثلاثة حقوق فحق القرابة وحــق الإسلام وحق الجوار ، ومنهم من له حقان فحق الإسلام وحق الجوار ، ومنــهم من له حق واحد الكافر له حق الجوار ، قيل يا رسول الله أفنطعمهم من لحــم نسكنا قال نعم يعني الكافر"(٢) .

وعن كلثوم الخزاعي قال : أتى ﴿ النبي – ﷺ – ﴾ رجل فقال : كيف لي أن أعلم إذا أحسنت وإذا أسأت ؟ قال :إذا قال لك جيرانك قــد أحســنت فقــد أحسنت ، وإذا قال لك جيرانك قد أسأت فقد أسأت "(٣) .

وعن أبي ذر قال : أوصاني حبيبي ﴿ رســـول الله – ﷺ – ﴾ أن أســمع وأطيع وإن كان عبد مجدع الأطراف وأن أُصلي الصلاة لوقتها فإن أدرك وقــد صلوا كنُتَ قد أحرزتَ صلواتك وإلا كانت لك نافلةً ، وإذا طبخت لحماً فأكثر مرقته وانظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف "(٤) .

---

(١) (ضعيف جداً) : رواه " عمرو بن شعيب " عن أبيه عن جده عــن النبــي ﷺ : ضعيــف الترغيب والترهيب – المجلد الثاني : ١٥٢٣ . (مع اختلاف في الرواية) .

(٢) (ضعيف) : رواه " البزار أبو الشيخ في الثواب حل " عــن جــابر : ضعيــف الجــامع الصغير : ٢٦٧٤ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد السابع : ٣٤٩٣ .

(٣) (صحيح) : رواه " ابن ماجه " عن ابن مسعود : مشكاة المصابيح – المجلــد الثــالث – كتاب الآداب – باب السلام – الفصل الأول : ٤٩٨٨[٤٢] ، سنن ابن ماجــة – كتــاب الزهد – باب الزهد في الدنيا : ٤٢٢٢ .

(٤) (صحيح) : عن أبي ذر : صحيح الأدب المفرد – بــاب لا يشــبع دون جــاره – ٦١ : ١١٣/٨٣.

وعن أبي هريرة قال : ﴿ قال رسول الله – ﷺ – ﴾ : " من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن ويعلمهن من يعمل بهن فقلت أنا يا رسول الله ، فأخذ بيدي فعد فيها خمساً فقال : اتق المحارم تكن من أعزر الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن من أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وتحب للناس ما تحب لنفسك ، وإياك وكثرة الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب "[1] .

وعن أنس بن مالك قال ﴿ قال رسول الله – ﷺ – ﴾ : " يا أنس أحسن جوار من جاورك تكن مسلما "[2] .

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال قلت يا رسول الله ما حق جاري عليّ ؟ قال: إن مرض عدته وإن مات شيعته وإن استقرضك أقرضته وإن عوز سترته وإن أصاب خيراً هنأته وإن أصاب مصيبة عزيته ولا ترفع بناك فوق بناه فتسد عنه الريح ولا تؤذه برائحة قدرك إلا أن تغرف له منها"[3].

---

(١) (حسن): رواه " أحمد في المسند ، الترمذي، البيهقي في شعب الإيمان " عن أبي هريرة : صحيح الجامع الصغير – المجلد الأول : ١٠٠ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة – المجلد الثاني : ٩٣٠ ، سنن الترمذي – كتاب الزهد – باب من اتقى المحارم كان أعبد الناس : ٢٣٠٥، صحيح الترغيب والترهيب – المجلد الثاني – كتاب الحدود وغيرها : ٢٣٤٩ ، " مع اختلاف في بعض الكلمات في الرواية " ، وأعزر الناس : العَزْر : النصر بالسيف ، وعَزَرَهُ عَزْراً وعَزَّره : أعانه وقواه ونصره قال الله تعالى : " لتعزروه وتوقروه " والتعزير : التوقيف على الفرائض والأحكام وعليه يكون المعنى أي أنك تكن من أقوى الناس وأكثرهم وقوفاً على حدود الله . اللسان مادة (عَزَرَ) .

(٢) (صحيح) : عن أبي هريرة : سنن ابن ماجة – كتاب الزهد – باب الزهد في الدنيا : ٤٢١٧ ، " مع اختلاف في الرواية حيث أن هذا الحديث جزء من حديث آخر " .

(٣) (ضعيف): رواه " الطبراني في الكبير " عن معاوية بن حيدة : ضعيف الجامع الصغير : ٢٧٢٨ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد السادس : ٢٥٨٧ .

وعن عبد الله بن عمر عن ﴿ رسول الله – ﷺ – ﴾ أنه قال: " خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره "[1].

وعنه – ﷺ- أنه قال من فطّر ثلاثة غفر له ومن كانت له جيرة ثلاثة كلهم راضون عليه فغفر له "[2] .

وأنشدنا عمر بن الأنباري : [من الكامل]

إنِّي لأحْسِدُ جَارَكُم لِجِوَارِكُم ... طُوبى لمنْ أمْسَى لِدَارِكَ جَارَا
يَا لَيْتَ جَارَك بَاعَنِي مِنْ دَارِه ... شِبْرَاً فَأعْطَيْتُهُ بِهِ قِنْطَارَا[3]

قال أيضاً : [من الكامل]

وإذا أرَدتَ تَحَولاً عَنْ مَنْزِلٍ ... فانظُرْ مَنِ الجِيرَانِ حَوْلَ المنْزِلِ
لا تَنْزِلنَّ بِجَارِ سُوءٍ يَبْغِي ... وإذَا ظَفِرتَ بِجَارِ صِدْقٍ فَانْزِلِ [4]

---

(١) (صحيح) : رواه " أحمد في المسند ، الترمذي ، الحاكم في المستدرك " عن ابن عمرو : صحيح الجامع الصغير المجلد الأول : ٣٢٧٠ ، سنن الترمذي – كتاب البر والصلة – باب ما جاء في حق الجوار :١٩٤٤ ، صحيح الترغيب والترهيب – المجلد الثالث – كتاب الأدب وغيره : ٣٠١٥ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة – المجلد الأول : ١٠٣.

(٢) لم أجد له أصلا .

(٣) البيتان في غرر الخصائص الواضحة بلا نسبة ، برواية بشبر ......دارا ، والبيت الأول في المنتحل للثعالبي بلا نسبة ص ٢٢٢ برواية: إني لأحسد جاركم .:. طوبى لمن أضحى لدارك جارا .

(٤) لم أعثر على هذين البيتين في المصادر المتاحة لي .

[الباب السادس]

باب حسن الملكة

قال الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾(١) .

وقال ﷻ : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾(٢) .

وروى عن أبى بكر الصديق ﷺ أنه قال ﴿ قال رسول الله - ﷺ- ﴾ : " لا يدخل الجنة خب ولا بخيل ولا سيء الملكة وأول من يدع باب الجنة المملوك إذا أطاع الله وأطاع سيده " (٣) .

وقال ﴿ رسول الله - ﷺ- ﴾ اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم آكلوهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما لا يطيقون وإن استباعوكم فبيعوهم ، ولا تعذبوا خلق الله فإنهم [ـــــــ](٤) ابتليتم بهم وابتلوا بكم "(٥) .

---

(١) سورة النساء آية رقم (٣٦) .

(٢) سورة النور آية رقم (٣٤) .

(٣) (ضعيف) : رواه " الترمذي " عن أبي بكر : سنن الترمذي – كتاب البر والصلة – باب ما جاء في البخيل : ١٩٦٣ ، ضعيف الترغيب والترهيب – المجلد الثاني : ١٥٥١ ، وضعيف الجامع الصغير :٦٣٣٩، " مع اختلاف في الرواية " ، والخب : الخداع والخبث والغش – اللسان /٢ مادة خبب .

(٤) كلمة لم استطع قراءتها .

(٥) (صحيح) : رواه " ابن حبان في صحيحه " عن أبي هريرة : صحيح الجامع الصغير – المجلد الثاني : ٥١٩٢ ، صحيح الترغيب والترهيب – المجلد الثاني – كتاب القضاء وغيره : ٢٢٨٤ ، "" مع اختلاف الرواية "" (للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلف إلا ما يطيق فإن كلفتموهم فأعينوهم و لا تعذبوا عباد الله خلقا أمثالكم) .

وعن عمر بن الخطاب ﷺ عن ﴿ رسول الله - ﷺ- ﴾ أنه قال : " من ابتاع شيئاً من الخدم فلم يوافق شيمته شيمته فليبع وليشترى حتى توافق شيمته شيمته فإن الناس شيم فلا تعذبوا خلق الله ﷻ "[١] .

وعن زياد بن أبى زياد[٢] أن رجلا أتى ﴿ النبي - ﷺ- ﴾ فقال يا رسول الله إن لنا مملوكاً نعاتبه ونضربه قال اضربه على قدر ذنبه . فإن اعتديت عليه أفسدت وهلكت يوم القيامة "[٣] .

وعن عمر ﷺ أنه قال : " من لطم وجه عبده فإن كفارته عتقه[٤] ، ومن كف لسانه ستر الله عورته ومن ملك غضبهُ وقاه الله عذابه ومن اعتذر إلى ربه قبل عذره "[٥] .

---

(١) (صحيح) : رواه " أحمد في المسند ، أبو داود " عن أبي ذر : صحيح الجامع الصغير- المجلد الثاني : ٦٦٠٢ ، سنن أبي داود - كتاب الأدب : ٥١٦١ "" مع اختلاف في الرواية "" (من لايمكم من خدمكم فأطعموهم مما تأكلون و ألبسوهم مما تلبسون و من لا يلايمكم منهم فبيعوه و لا تعذبوا خلق الله)

(٢) زياد بن أبي زياد : مولى عبدالله بن عَيَّاش ، من عباد أهل المدينة وزهادهم ومتقني التابعين ، واسم أبي زياد ميسرة . انظر ترجمته في السير ٥/٤٥٦ ، طبقات ابن سعد ٥/٣٠٥ ، وتاريخ الإسلام ٥/٧٢ .

(٣) (صحيح) : رواه " الترمذي " عن عائشة : جامع الترمذي ٣٢١٢ مع اختلاف الرواية ، الدر المنثور ٤/٣١٩ ، والجامع الصغير (٨٠٣٩ - صحيح) ، والمشكاة ٥٥٦١ ، صحيح الترغيب والترهيب ١/٣٨٤ .

(٤) (صحيح) : رواه " أبو داود ، ومسلم " : صحيح الترغيب والترهيب - المجلد الثاني - كتاب القضاء وغيره : ٢٢٧٨ ، سنن أبي داود - كتاب الأدب : ٥١٦٨ ، وهو حديث وليس مقولة لعمر ولعل المؤلف نسي رفعه للنبي ﷺ وانظر التذكرة الحمدونية ٢/٢٣٩ ، وربيع الأبرار ٣/١٥ .

(٥) (صحيح) : سلسلة الأحاديث الصحيحة - المجلد الخامس : ٢٣٦٠ ، ""مع اختلاف الرواية "" (من كف غضبه كف الله عنه عذابه ، ومن خزن لسانه ستر الله عورته ، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره ، وهو حديث وليس مقولة لعمر .

وعن عبدالله بن عمر قال جاء عثمان بن عفان ﷺ على بغلةٍ له وخلفه غلام يشتد [عليه] ويضربه [إلى] رسولِ الله - ﷺ- فاحمر وجهه وقال يا أبا عمرو إذا جئتنا هاهنا فخَل الغلام في المنزل لا تدعه يسير خلفك فقال عثمان فإني أشهدك يا رسول الله أنه حر لوجه الله ، فقال رسول الله - ﷺ- جعله الله لك حجابا من النار يا أبا عمرو ، فلما خرج عثمان قال للغلام إن شئت فخذ كذا وإن شئت فخذ كذا فأنت حر لوجه الله عز وجل " .

وروى عن أبي هريرة أنه رأى رجلاً راكبا على دابة وخلفه غلامه يسعى فقال يا أبا عبد الله احمله فإنما هو أخوك روحه مثل روحك فحمله[1] . وقال : مرّ عثمان بن عفان ﷺ بغلام له وهو يَعْلِف ناقةً له فرأى في علفها شيئاً فعرك في أذنه ثم ندم فقال اعرك بأذني قال فلم يزل به حتى قام فجعل يعرك بأذنه وهو يقول شدّ شدّ ثم قال وهذا قصاص الدنيا مثل قصاص الآخرة "[2] .

وعن أبي هريرة أن ﴿ رسول الله - ﷺ- ﴾ : " قال إذا أتى خادم أحدكم بطعام قد ولى حره ودخانه ومشقته ومؤنته فليجلسهُ معه بطعام فإن أبى فليناوله أكله في يده "[3] .

وعن أبي سعيد الخدري عن ﴿ رسول الله - ﷺ- ﴾ أنه قال : " إذا ضرب أحدكم خادمه فذكر الله عز وجل فارفعوا أيدكم "[4] .

---

(١) محاضرات الأدباء ٢٦٦/١ .

(٢) التذكرة الحمدونية ٢١٢/٣ . برواية يا حبذا قصاص الدنيا لا قصاص الآخرة .

(٣) (صحيح) : رواه " أحمد في المسند ، ابن ماجه " عن ابن مسعود : صحيح الجامع الصغير - المجلد الأول : ٤٦٩ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة - المجلد الثالث : ١٠٤٢، "" مع اختلاف في الرواية "" (إذا جاء خادم أحدكم بطعامه فليقعده معه أو ليناوله منه فإنه هو الذي ولي حره و دخانه) .

(٤) (ضعيف جداً) : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة - المجلد الثالث : ١٤٤١ .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال ﴿ رســـول الله - ﷺ- ﴾ :" مــن اعتق رقبةً مؤمنةً أعتق الله تعالى بكل عضو منها عضواً منه من النار"[1] .

وعن أبي موسى الأشعري عــن ﴿ رســول الله - ﷺ- ﴾ أنــه قــال : " ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل آمن بالكتاب الأول ثم آمن بمحمـــــد - ﷺ- ورجل أدى حق الله تعالى وحق مولاهُ ، ورجل كانت لـــه [جاريـــة] فأدبـــها وأحسن أدبها ثم اعتقها وتزوجها كان له أجران "[2] .

وعن العباس عم ﴿ رسول الله - ﷺ- ﴾ أنه قال :" كنــت عنــد النبــي - ﷺ- عند موته فسَمِعْتُه يقول مع الذين أنعمت عليهم من النبيين و الصديقيــن والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، أوصيكم بالصلاة وأوصيكـــم بمــا ملكت أيمانكم ثم قضى - ﷺ- مكانه "[3] .

وعن سفينة [4] قال كان آخر وصية رسول الله - ﷺ- الله الله وما ملكـت أيمانكم[5] .

---

(١) (صحيح) : رواه " الترمذي " عن أبي هريرة : صحيح الجامع الصغير - المجلد الثاني : ٦٠٥١ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة - المجلد السادس ١ : ٢٦٨١ .

(٢) (صحيح) : رواه " البخاري ومسلم " : صحيح الترغيب والترهيب - المجلـــد الثـاني - كتاب البيوع وغيرها : ١٨٨٢ ، سنن الترمذي - كتاب النكاح - باب مــــا جـاء فـي الفضل في ذلك : ١١١٦ . "" مع اختلاف في الرواية "" .

(٣) (صحيح) : رواه " أحمد في المسند ، النسائي ، ابن حبان في صحيحه " عـــن أنـس ، " أحمد في المسند ، ابن ماجة " عن أم سلمة ، " الطبراني في الكبير " عن ابـــن عمـر : صحيح الجامع الصغير - المجلد الثاني : ٣٨٧٣ ، سنن ابن ماجة - كتاب ما جاء فـي الجنائز - باب ما جاء في مرض رسول الله ﷺ :١٦٢٥ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة - المجلد الثاني : ٨٦٨ ، "" مع اختلاف الرواية "" .

(٤) سفينة : مولى رسول الله ﷺ وكنيته أبو عبدالرحمن ، كان معه في سفر ، فكان كل مـــن أعيا ألقى عليه بعض متاعه فمر به النبي ﷺ فقال أنت سفينة فغلب عليه . انظر التذكـرة الحمدونية ٨/٣٠٠ ، وربيع الأبرار ٢/٣٨٨ .

(٥) (ضعيف جداً) : رواه " الطبراني في الكبير " عن كعب بن مالك : ضعيف الجامع الكبير - ١١٦١ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة - المجلد الســـادس : ٢٩٠٢ ، "" =

وقال ﴿ رسول الله – ﷺ– ﴾ :" أربع من كنّ فيه أدخله الله عز وجل في رحمته أو قال مغفرته من أوى المساكين ورحم الضعيف ورفق بالمملوك وأشفق على الوالدين "[1] .

وقال ﴿ رسول الله – ﷺ– ﴾ :" ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه وأوصاني بالمملوك حتى ظننت أنه سيجعل له مُدَةَ إذا بلغ ذلك عتق[2] ، وأنشد أبو مطيع :

[من الكامل التام]

١– يا عَبدَ ربكَ لا تُكلِفْ عَبْدَكا	كَذا فَربُكَ لَمْ يُكلِّف كِدكا
٢– ما كَلَّفَ الرحمنُ إلا وسعَهَا	نفساً فَكلِفْ وسعَ نفس عَبدَكا
٣– وأَطِعْ إلَهاكَ مِثْلَما تبتغي	من طاعةِ المسلمينَ واجهدْ جُهدكا
٤– وأقِلْ لَهُ عثراتِه ليقبَلها	لك ذو الجلالِ إذا إليه ردكا[3]

= مع اختلاف الرواية " (الله الله فيما ملكت أيمانكم ألبسوا ظهورهم و أشبعوا بطونهم وألينوا لهم القول) .

(١) (ضعيف) : رواه " الحكيم " عن أبي هريرة : ضعيف الجامع الصغير : ٧٦١ ، " مع اختلاف الرواية " (أربع من كن فيه نشر الله تعالى عليه رحمته و أدخله الجنة: من آوى مسكينا و رحم الضعيف و رفق بالمملوك و أنفق على الوالدين) .

(٢) (ضعيف) : رواه " سنن البيهقي " عن عائشة : ضعيف الجامع الصغير : ٥٠٧١ .

(٣) لم أعثر على الأبيات فى المصادر المتاحه لى .

[الباب السابع]

باب صلة الرحم

قال الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (١).

وروى عن أبى سعيد الخدري عن أبى هريرة أنه قال ﴿ قال رسول الله - ﷺ- ﴾ :" إن في الجنة درجة لا ينالها إلا ثلاثة : إمام عادل وذو رحم وصول وذو عيال صبور ، فقال له على بن أبى طالب - ﷺ-وما صبر ذو العيال ؟ قال أن لا يمن على أهله بما أنفق عليهم "(٢) .

وعن عبد الرحمن بن عقيل عن ﴿ النبي - ﷺ- ﴾ : قال " من سرّه أن يمدَ له في عمره ويوسع له في رزقه فليصل رحمه "(٣) .

وعن درة ابنة أبى لهب أنها قالت : قلت يا رسول الله من خير الناس؟ قال : أتقاهم للرب وأوصلهم للرحم وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر" .(٤)

---

(١) سورة النساء آية (١)

(٢) (صحيح) : رواه " أحمد في المسلم ، مسلم " عن عياض بن حمار : صحيح الجامع الصغير - المجلد الأول : ٢٦٣٧ ، مشكاة المصابيح - المجلد الثالث - كتاب الآداب - [١] باب السلام - الفصل الأول : ٤٩٦٠[١٤] ، " مع اختلاف في الرواية " (أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رفيق القلب لكل ذي قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال) .

(٣) (متفق عليه) : البخاري (١٠/٤٤٥) ، ومسلم (١٩٨٢) من طريق الليث عن أنس وأخرجه البخاري عن طريق معن عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة . (متفق عليه) : الترغيب والترهيب ٣٣٠/٢ برواية : " من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أجله فليصل رحمه " .

(٤) (ضعيف) : عن درة بنت أبي لهب : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة - المجلد الخامس : ٢٠٩٣ ، ضعيف الترغيب والترهيب - المجلد الثاني : ١٣٨٩ .

وعن كعب بن منبه[1] قال : " والذي فلق البحر لبني إسرائيل إن في التوراة لمكتوباً على بني آدم اتق ربك وأبر بوالديك وأصل رحمك يمد لك في عمرك وييسر لك يسرك ويصرف عنك عسرك " .

وعن عبدالله بن عباس عن ﴿ رسول الله - ﷺ - ﴾ أنه قال : " إن الله تعالى ليعمر بالقوم الديار ويكثر لهم الأموال وما نظر إليهم منذ خلقهم ، قيل وكيف ذلك يا رسول الله قال : بصلتهم أرحامهم "[2] .

وعن الحسن قال : صلوا أرحامكم ولو بسلام[3] ، وعن طاووس[4] قال ما شيء أحب إلى الله تعالى في يوم النحر من دم يهراق إلا صلة رحم محتاجة.

قال وجاء رجل إلى ﴿ رسول الله - ﷺ - ﴾: " فقال إن لي ذوى أرحام أصل ويقطعون وأحسن ويسئون أفأكافهم ؟ قال : إذاً تتركون جميعاً ولكن جد الفضل وصلهم فإنه لا يزال معك من الله ظهير ما كنت على ذلك "[5].

---

(١) كعب بن منبه : لعله وهب بن منبه ، حيث لم أعثر على اسم كعب بن منبه ، ووهب هو وهب بن منبه بن كامل بن يسج بن سُحسار من أبناء فارس ، كنيته أبو عبدالله ، كان ممن قرأ الكتب ولزم العبادة وواظب على العلم وتجرد للزهادة ، مات في المحرم سنة ثلاث عشرة ومائة هجرية . انظر ترجمته في الثقات ٤٨٧/٥، شذرات الذهب ١٥٠/١ ، السير ٥٤٤٠٥٥٧/٤ ، معجم الأدباء ٢٥٩/١٩ ، تاريخ الإسلام ١٤/٥ .

(٢) (ضعيف) : عن ابن عباس ﷺ : ضعيف الترغيب والترهيب – المجلد الثاني : ١٤٩١ .

(٣) حديث وليس مقولة (حسن) : عن سويد بن عامر ﷺ : الثقات لابن حبان ٧٥/١ ، ومسند الشهاب للقضاعي ، والصغير للسيوطي (٢٨٣٨) وانظر محاضرات الأدباء ٤٠٣/١ .

(٤) طاووس بن كيسان الهمداني الخولاني ، أمه من أبناء فارس وأبوه من النمر بن قاسط ، كنيته أبو عبدالرحمن ، من فقهاء أهل اليمن وعبادهم وخيار التابعين وزهادهم مرض بمنىءمات بمكة عام عام ١٠١ ، وصلى عليه هشام بن عبدالملك بن مروان بين الركن والمقام – مشاهير علماء الأمصار ١٩٨ ، ترجمته في التهذيب ٢٨/٥ ، التقريب ٣٧٧/١.

(٥) (صحيح) : عن أبي هريرة : صحيح الأدب المفرد – باب فضل صلة الرحم ٢٧ : ٥٢/٣٧ ، "" مع اختلاف الرواية "" (فقال : يا رسول الله! إن لي قرابة أصلهم =

وعن ﴿ رسول الله – ﷺ – ﴾ أنه قال :" ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعته رحمه وصلها "[١].

وعن محمد بن جبير[٢] عن أبنه عن ﴿ النبي – ﷺ – ﴾ أنه قال: " لا يدخل الجنة خمسة مدمن خمر قاطع "[٣] .

وعن أبى سعيد الخدري أنه قال :" لا يدخل الجنة خمسة مدمن خمر ومؤمن بسحر وقاطع رحم ولا كاهن ولا منان "[٤] .

وقال ﴿ رسول الله – ﷺ – ﴾ :" إن من شرائط الساعة سوء الجوار وقطيعة الرحم وأن تعطل السيوف من الجهاد وأن يحل الربا بالدين "[٥] .

= ويقطعون ، وأحسن إليهم ويسيئون إلي ، ويجهلون علي وأحلم عنهم . قال : لئن كان كما تقول كأنما تسفهم الملّ ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك).

(١) (صحيح) : رواه " البخاري ، أحمد في المسند ، أبو داود ، الترمذي " عن ابن عمرو: صحيح الجامع الصغير – المجلد الثاني : ٥٣٨٥ ، سنن الترمذي – كتاب البر والصلة – باب ما جاء في صلة الرحم : ١٩٠٨ ، سنن أبي داود – كتاب الزكاة : ١٦٩٧ .

(٢) محمد بن جُبير بن مطعم القرشي أبو سعيد : من علماء قريش وحفاظهم لأيامها ، مات في خلافة عمر بن عبدالعزيز – مشاهير علماء الأمصار ١١٨ ، طبقات ابن سعد ٢٠٥/٥ ، تاريخ البخاري ٥٢/١ ، تاريخ الإسلام ٥٠/٤ ، السير ٥٤٣/٤-٥٤٤ ، البداية والنهاية ١٨٦/٩ .

(٣) (متفق عليه) : رواه البخاري (٣٤٧/١٠) في الأدب باب إثم القاطع ، ومسلم في البر باب صلة الرحم وتحريم قطعها ، والترمذي ، عن جبير بن مطعم ، برواية لا يدخل الجنة قاطع ، وأبو نعيم في الحلية ١٥٩/٧ عن محمد بن جبير عن أبيه بالرواية ذاتها .

(٤) (ضعيف) : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد الثالث : ١٤٦٤ .

(٥) (صحيح) : رواه " الطبراني في الأوسط " عن أنس : صحيح الجامع الصغير – المجلد الثاني : ٥٨٩٤ ، "" مع اختلاف الرواية "" (من أشراط الساعة الفحش و التفحش و قطيعة الرحم و تخوين الأمين و ائتمان الخائن) .

وعن ميمون بن مهران[1] قال:قال:عمر بن عبدالعزيز :" يا ميمون بن مهران لا تخلون بامرأة ليست لك بمحرم ، وإن قرأت عليها القرآن ، يا ميمون لا تواخين قاطع رحم فإني سمعت الله لعنهم في سورتين في سورة الرعد وفي السورة الذي يذكر فيها محمداً - ﷺ- ، فقال في سورة الرعد : ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ . [2]

وقال في سورة محمد - ﷺ- : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُم * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾.[3]

---

(١) ميمون بن مهران : مولى بني أسد وكنيته أبو أيوب ، كان مولده سنة ٤٠ ومات سنة ١١٨ هـ ، وكان فقيهاً فاضلاً - مشاهير علماء الأمصار ١٩٠ ، البداية والنهاية ٣١٤/٩ ، تاريخ الإسلام ٨/٥ ، السير ٧١/٥ ، التهذيب ٣٩/١٠ .

(٢) سورة الرعد آية رقم (٢٥).

(٣) سورة محمد آية رقم (٢٢، ٢٣) .

[الباب الثامن]

باب حق المسلم على المسلم

قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[1] .

وقال عز من قائل: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾.[2]

وروى أبو أيوب الأنصاري عن ﴿ رسول الله - ﷺ- ﴾ أنـه قـال :

" إن للمسلم على أخيه المسلم ست خصال واجبات إذا ترك منها شيئا ترك حقا واجبا لله عليه ، إذا دعاه أن يجيبه ، وإذا مرض أن يعوده ، وإذا مات أن يحضره ، وإذا لقيه أن يسلم عليه ، وإذا استنصحه أن ينصحه ، وإذا عطس أن يشمته "[3] .

وعن أبى هريرة عن ﴿ رسول الله - ﷺ- ﴾ أنه قـال :" إن المؤمن مرآة المؤمن والمؤمن أخو المؤمن[4] .

وقال ﴿ ﷺ ﴾ : " المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يختلـه ولا يكذبه كل المسلم على المسلم حرام ماله ودمه وعرضه ، التقوى هاهنا وأومـأ بيـده إلى صدره حسب المؤمن من الشر أن يحقر أخاه المسلم " .[5]

---

(١) سورة الحجرات آية رقم (١٠) .

(٢) سورة التوبة آية رقم (٧١) .

(٣) (صحيح) : رواه " البخاري في المفرد ، ومسلم " عن أبي هريرة : صحيح الجامع الصغير – المجلد الأول : ٣١٥١ ، صحيح الأدب المفرد – باب السلام اسم من أسماء الله عز وجل ٤٥١ : ٩٩١/٧٦٦ ، "" مع اختلاف في الرواية "" (حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلم عليه و إذا دعاك فأجبه و إذا استنصحك فانصح لـه و إذا عطس فحمد الله فشمته و إذا مرض فعده و إذا مات فاتبعه) .

(٤) (صحيح) : رواه " البخاري في المفرد ، وأبو داود " عن أبي هريرة : صحيح الجامع الصغير – المجلد الثاني : ٦٦٥٦ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة – المجلد الثاني : ٩٢٦ ، وهو (حسن) في سنن أبو داود – كتاب الأدب : ٤٩١٨ ، "" مع اختلاف الرواية "" (المؤمن مرآة المؤمن و المؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته و يحوطه من ورائه) .

(٥) (صحيح) : رواه " الترمذي ومسلم " عن أبي هريرة : صحيح الجامع الصغير – المجلد=

وعن أنس ابن مالك عن ﴿ رسول الله – ﷺ- ﴾ أنه قال :" لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث "[١].

وعن النعمان بن بشير قال سمعت ﴿ رسول الله – ﷺ- ﴾ يقول :" ألا إن مثل المؤمنين وتوادهم وتراحمهم كمثل الجسد أنه إذا اشتكا عضو[٢] تداعى سائرة بالسهر والحمى "[٣] .

وعن أبى موسى الأشعري عن ﴿ رسول الله – ﷺ- ﴾ أنه قال :" إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه "[٤] .

= الثاني : ٦٧٠٦ ، صحيح الترغيب والترهيب – المجلد الثالث – ٢٣ كتاب الأدب وغيره – ١ الترغيب في الحياء وما جاء في فضله : ٢٩٥٨ ، وسنن الترمذي – كتاب البر والصلة – باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم : ١٩٢٧، والختل : الخداع ، من ختله إذا خدعه والتخاتل : التخادع – اللسان / مادة ختل .

(١) (صحيح) : رواه " أحمد في المسند ، و أبو داود " عن أنس : صحيح الجامع الصغير – المجلد الثاني : ٧٢٠٠ ، سنن أبي داود – كتاب الأدب : ٤٩١٠ ، صحيح الأدب المفرد – باب هجرة المسلم ١٨٩ : ٣٩٨/٣٠٧ .

(٢) في الأصل عضواً ، والصواب عضوٌ بالرفع .

(٣) (صحيح) : سلسلة الأحاديث الصحيحة – المجلد الثالث :١٠٨٣ ، وهو (متفق عليه) عن النعمان بن بشير في مشكاة المصابيح – المجلد الثالث – كتاب الآداب – [١] باب السلام – الفصل الأول : ٤٩٥٣[٧] .

(٤) (متفق عليه) : رواه " الترمذي والنسائي " عن أبي موسى : مشكاة المصابيح – المجلد الثالث – كتاب الآداب – [١] باب السلام – الفصل الأول : ٤٩٥٥[٩] ، وهو (صحيح) في كل من : صحيح الجامع الصغير – المجلد الثاني : ٦٦٥٤ ، سنن الترمذي – كتاب البر والصلة – باب ما جاء شفقة المسلم على المسلم : ١٩٢٨ ، "" مع اختلاف في الرواية في كل منهما "" .

وعن بشير بن يحيى قال سمعت أبا بكر الصديق ﷺ يقول : سمعت رسول الله – ﷺ– يقول:" المسلمون أخوة ذكرهم وأنثاهم حرهم وعبدهم "[١].

وقال – ﷺ– :" [المسلم] [٢] من سلم المسلمون من لسانه يده [٣] ، والمؤمن من أمن جاره بوائقه "[٤] .

وقال – ﷺ– :" المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم "[٥] .

وقال – ﷺ– :" من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا فليس منا "[٦] .

وقال – ﷺ– :" من إجلال الله عز وجل إكرام ذي الشيبة "[٧] .

---

١) لم أجد له أصلا

٢) غير موجودة في الأصل .

٣) (صحيح) : رواه " مسلم " عن جابر : صحيح الجامع الصغير – المجلد الثاني : ٦٧٠٩ .

٤) (صحيح) : عن أبي هريرة : صحيح الأدب المفرد – ٥٧ باب لا يؤذي جاره –٦٦ : ١٢١/٨٩ "" مع اختلاف الرواية "" (لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه) ، وهو (متفق عليه) في : مشكاة المصابيح – المجلد الثالث – كتاب الآداب [١] باب السلام – الفصل الأول : ٤٩٦٢[١٦] برواية (والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قيل: من يا رسول الله ؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه).

(٥) (صحيح): رواه "أحمد في المسند، والترمذي، والنسائي "عن أبي هريرة،ورواه "الطبراني في الكبير" عن واثلة : صحيح الجامع الصغير – المجلد الثاني : ٦٧١٠ ، وسنن النسائي – كتاب الإيمان وشرائعه – باب صفة المؤمن : ٤٩٩٥،وسنن الترمذي– (٣٧) كتاب الإيمان – باب ما جاء في أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده:٢٦٢٧ .

(٦) (صحيح) : رواه " البخاري في الأدب المفرد ، وأبو داود " عن عبدالله بن عمرو بن العاص : صحيح الأدب المفرد – باب فضل الكبير – ١٦٣ : ٣٥٤/٢٧٢ ، سنن أبي داود – كتاب الأدب : ٤٩٤٣ ، صحيح الجامع الصغير – المجلد الثاني : ٦٥٤٠ .

(٧) (حسن) : رواه " أبو داود " عن أبي موسى : صحيح الجامع الصغير – المجلد الأول : ٢١٩٩ ، صحيح الأدب المفرد – ١٤٧ باب إجلال الكبير – ١٦٤ : ٣٥٧/٢٧٤ . "" مع اختلاف في الرواية "" .

وقال :" وما استسقى شيخ شابا فشرب قبله إلا غارت عين من عيـــون الأرض "[1] .

وعن الحسن بن عبدالله[2] قال : يحيى بن أكثم كان صديقا لـــي وكـــان يودني وأوده قال :" فمات وكنت اشتهى أن أرآه في المنام فأقول له: ما فعل الله بك؟ قال: فصليت ذات ليلة صباح الجمعة فحملتني عيناي في السَّعُود[3] فرأيـت يحيى فقلت : يا يحيى ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي إلا أنه وبخَني ثم قـال يا يحيى خلطت في دار الدنيا فقال قلت أي رب اتكلت على حديت حدثني به أبو مطيع الصريم عن الأعمش " عن أبى صالح عن أبى هريرة قال ﴿ قال رسـول الله - ﷺ- ﴾ عنك يا رب أنك تباركت وتعاليت قلت إني لأستحي أن أعـذب ذا شيبه في النار ، قال عفوت عنك يا يحيى ، صدق نبي محمد - ﷺ- " .

---

(١) لم أجد له أصلا .

(٢) الحسن بن عبيد الله النخعي : من ثقات أهل الكوفة ، كنيته أبو عروة ، مات سنة تســـع وثلاثين ومائة - مشاهير علماء الأمصـــار ، التقريـــب ١٦٨/١ ، التـــهذيب ٢٩٢/٢ ، السير ١٤٤/٦ ، التاريخ الكبير ٢٩٧/٢ ، تاريخ الإسلام ٢٣٦/٥ .

(٣) السَّعود والسَّعديَّة : برود من اليمن ولعله يقصد أنه نام في بردتـــه - اللســـان / مـــادة (سعد) .

[الباب التاسع]

باب في الجليس الصالح

قال الله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾(٢) .

وروى عن ﴿ رسول الله - ﷺ- ﴾ أنه قال :" مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ النار فحامل المسك إما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك أو تجد منه ريحاً خبيثة "(٣) .

وعن ابن عمر عن ﴿ النبي - ﷺ- ﴾ : أنه قال " ما اصطحب اثنان على خير ولا على شرٍ إلا حشرا عليه وقرأ : وإذا النفوس زوجت "(٤) .

وعن ابن عباس قال:" قيل يا رسول [الله](٥) أي جلسائنا خير قال: من ذكركم بالله رؤيته وزاد في علمكم منطقة وذكركم بالآخرة عمله "(٦).

---

(١) سورة المجادلة آية رقم (١١) .

(٢) سورة النساء آية رقم (١٤٠) .

(٣) (صحيح) : " رواه البخاري ، ومسلم " عن أبي موسى : صحيح الترغيب والترهيب - المجلد الثالث - ٢٣ كتاب الأدب - وغيره - ١ الترغيب في الحياء وما جاء في فضله : ٣٠٦٤ ، صحيح الجامع الصغير - المجلد الأول : ٢٣٦٨ ، "" مع اختلاف في رواية بعض الكلمات "" .

(٤) سورة التكوير آية رقم (٧) .

(٥) غير موجودة في الأصل (الله)

(٦) (ضعيف) : عن ابن عباس : ضعيف الترغيب والترهيب - المجلد الأول : ٧٩ .

ومعزو إلى عيسى عليه السلام فى إحياء علوم الديم برواية :" جالسوا من تذكركم الله رؤيته ومن يزيد فى عملكم كلامه ومن يرغبكم فى الآخرة عمله " . إحياء علوم الدين ١٥٩/٢ .

وعن لقمان الحكيم أنه قال يا بنى جالس الصالحين من عباد الله فـــإنك ستصيب بمجالستهم ولعل أن يكون في أجر ذلك تنزل الرحمة عليهم وأنت فيهم فتصيبك معهم " .

وقال مالك بن دينار : " احفظ عنى هذه الوصية انظـــر إلـــى كـــل أخ وجليس وصاحب لا تستفيد منه خيراً من أمر دينك ففرعنه "[1] .

وعن مسلم بن كحيل عن أبى جحيفة[2] قال: [قال: رسـول الله - ﷺ -] جالسوا الكبراء وذاكروا العلماء وخاللوا الحكماء[3] .

وقال مروان بن الحكم : إذا خلا بك الحكيم فافض إليه بما لا تفضـــى على رؤس العامة " .

وقال عدى بن ثابت[4] : ثلاثة فاجتنبها لا تجالس ذا هوىً مفرط فإنـــه يمرض قلبك ولا تخلون بامرأة شابه غير ذات حرمة فتمرض عقلـــك وإيـــاك وأبواب الملوك فإنها مباركُ الفتن .

وعن أبى هريرة عن ﴿ النبي - ﷺ - ﴾ أنه قال :" يا معاشر النـــاس لا تجالسوا أبناء الأغنياء فإن لهم(٥) صوراً كصور النساء وفتناً كفتن العذارى " .

---

(١) ذكرت هذه الوصية لمالك بن دينار في كتاب روضة العقلاء ونزهة الفضـلاء ص١٠٩ - لأبي حاتم البستي - اعتنى به : محمد عبدالقادر الفاضلي - طبعة المكتبة العصريـــة - بيروت - ط١ - ٢٠٠٢ - باختلاف يسير في بعض ألفاظها .

(٢) أبو جحيفة السُوائي : اسمه وهب بن عبدالله العامري ، مات سنة أربع وسبعين - مشاهير علماء الأمصار ٨٠ ، وترجمته في الإصابة ٦٤٢/٣ ، أسد الغابة ١٧٥/٥ .

(٣) (ضعيف جداً) : رواه " الطبراني في الكبير " عن أبي جحيفة : ضعيف الجامع الصغـــير ٢٦٢٣: ، برواية (جالسوا الكبراء و سائلوا العلماء و خالطوا الحكماء) .

(٤) عدي بن ثابت الأنصاري : من خيار الكوفيين ، مات في ولايـــة خـــالد بـــن عبـــدالله - مشاهير علماء الأمصار ١٧٣ ، وترجمته فـــي التـــهذيب ١٦٥/٧ ، وتـــاريخ الثقـــات ص٣٣٠ ، التاريخ الكبير ٤٤/١/٤ ، تاريخ الإسلام ٢٧٦/٤ ، السير ١٨٨/٥ .

(٥) فى الأصل له .

وعن الربيع بن أنس[1] قال :" مكتوب في الحكمة من تصحب بصاحب السوء لا يسلم ومن يدخل مدخل السوء يتهم[2] ، ومن لا يملك لسانه ندم " .

وقال إياس بن معاوية[3] لقوم من أهل مكة كانوا يجالسونه : قدمنا بلدكم فعرفنا خياركم من شراركم ، قالوا وكيف عرفت ذاك وإنما قدمت من ثلاثة أيام قال كان معنا خيار وشرار فرأينا خيارنا ألفه قوماً فعرفنا أن خياركم من ألفة خيارنا وشراركم من ألفه شرارنا "[4] .

وعن الشعبى[5] قال كان فتى يعجب به على بن أبى طالب ﷺ فرآه يوما وهو يماشى رجلا متهما فقال له :

[من الهزج]

١- لا تَصْحَبْ أخَا الجهلِ	وإيَّاكَ وإيَّاه
٢- فَكَمْ مِنْ جَاهلٍ أرْدَى	حَليماً حِينَ آخَاهُ
٣- يُقَاسُ المرءُ بالمرءِ	إذا هو ما شَاه
٤- وللشَئ منَ الشَئ	مقاييس وأشباه

---

(١) الربيع بن أنس بن زياد البكري : سكن مرو ، سمع أنس بن مالك وكان رواية لأبي العالية ، وكل ما في أخباره من المناكير إنما هي من جهة أبي جعفر الرازي وهو من مشاهير التابعين – مشاهير علماء الأمصار ٢٠٣ ، وترجمته في الثقات ٢٢٨/٤ ، التاريخ الكبير ٢٤٩/١/٢ ، التهذيب ١٣٩/٣ .

(٢) في الأصل منهم والصواب ما أثبتناه .

(٣) إياس بن معاوية بن قرة المزني أبو واثلة : كان على القضاء بالبصرة ، وكان من دهاة الناس مات سنة اثنتين وعشرين ومائة – مشاهير علماء الأمصار ٢٤١ ، وترجمته في الثقات ٦٤/٦ ، التاريخ الكبير ٤٤٢/١/١ ، التهذيب ٣٩٠/١ .

(٤) محاضرات الأدباء ٧/٢ بزيادة فألِفَ كلّ شكله .

(٥) سبقت ترجمته في ص ٣٨٨ .

٥- وللقَلــــبِ علــــى القلــــبِ دليــــلُ حَيــــنَ يَلْقَــــاه(١)

---

(١) وردت الأبيات في ديوان علي بن أبي طالب جمع وتحقيق مركز البيان العلمي بالمنوفية ١٩٩٥م ، بزيادة بيت : وفي العين غنى للعين .:. أن تنطق أفواهُ .

- ووردت الأبيات باختلاف عددها رُوايتها في عيون الأخبار منسوبة إلى أبي العتاهية ولم نعثر عليها في ديوان أبي العتاهية – عيون الأخبار ٨/٣ ، سلسلة الذخائر ٢٠٠٣

- كما وردت برواية كما في الأصل في عيون الأخبار كذلك برواية : عن أبي قبيل يقول : أسرت ببلاد الروم فأصبت على ركن من أركانها : وذكر الأبيات ، عيون الأخبار ٧٩/٣ .

- وفي الصداقة والصديق باختلاف في عدد الأبيات ص ٢٥٢ .

- وفي الأشباه والنظائر بلا نسبة برواية إذا ما المرء ما شاه .

- وفي الموشى باختلاف في الترتيب بلا نسبة: ص١٧ .

- والأبيات ٢ ، ٣ ، ٤ في روضة العقلاء مع اختلاف في الرواية ١٠٤ .

- والأبيات ١ ، ٢ ، ٣ في بهجة المجالس ٥٤٦/٢ بلا نسبة تحقيق محمد مرسي الخولي ١٩٨١ دار الكتب العلمية – بيروت – مع اختلاف في الرواية : إذا ما هو ما شاه .

- والبيتان ٣ ، ٤ محاضرات الأدباء بلا نسبة مع اختلاف في الرواية ٧/٢ .

- ووردت فى العقد الفريد بلا غرو وبرواية أخرى :

١- خرجنــا مــن قُــرى اصطخــر	إلـــى القصـــر فقِلْنـــاهَ
٢- فمــن يســأل عــن القصــر	فمبْنِيــاً وجدنَــاه
٣- فــلا تصحــب أخــا الســوء	وإيـــاك وإيـــاه
٤- فكــم جــاهل أردى	حكيمــا حيــن آخــاه
٥- يقــاس المــرء بــالمرء	إذا مــا المــرء ماشــاه
٦-وفــى النــاس مــن النــاس	مقــاييس وأشــاه
٧- وفــى العيــن غنــى للعيــن	أن تنطــق أفــواه

العقد الفريد ٣٣١/٢ .

[الباب العاشر]

باب في حسن الخلق

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(١) .

وروى عن ﴿ رسول الله - ﷺ- ﴾ أنه قال :" إن الله عز وجل يرفع العبد المسلم بطلاقة وجهه وحسن بِشْره وخلُقِه حتى ينال(٢) بها درجة العلا مع الصائم والقائم الخائف "(٣) .

وقال ﴿- ﷺ-﴾ لأصحابه : " ألا أخبركم بخياركم قالوا بلى يا رسول الله قال - ﷺ- : "أطولكم أعماراً وأحسنكم أخلاقا "(٤) .

وقال ﴿ رسول الله - ﷺ- ﴾ :" يدخل الجنة رجلان صلاتهما واحدة وحجهما واحد ، وجهادهما واحد ويفضل أحدُهما على صاحبه بحسن خلقه بدرجة كما بين المشرق والمغرب " .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت قال ﴿ رسول الله - ﷺ- ﴾ : " أكثر ما يولج أمتي النار سوء الخلق والأجوفان فإن قيل وما الأجوفان قال البطن والفرج "(٥) .

---

(١) سورة القلم آية رقم (٤) .

(٢) في الأصل يقال .

(٣) (صحيح) : رواه أحمد في المسند ، الطبراني في الكبير " عن ابن عمرو : صحيح الجامع الصغير - المجلد الأول : ١٩٤٩ ، صحيح الترغيب والترهيب - المجلد الثالث - ٢٣ كتاب الآداب وغيره - ١ الترغيب في الحياء وما جاء في فضله : ٢٦٤٧ ، "مع اختلاف الرواية (إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصوام القوام بآيات الله بحسن خلقه وكرم ضريبته) .

(٤) (صحيح) : رواه " البزار ، وابن حبان في صحيحه " عن أبي هريرة : صحيح الترغيب والترهيب - المجلد الثالث - ٢٣ كتاب الآداب وغيره - ١ الترغيب في الحياء وما جاء في فضله : ٢٦٥١، سلسلة الأحاديث الصحيحة - المجلد الثالث : ١٢٩٨ .

(٥) (حسن) : عن أبي هريرة : صحيح الأدب المفرد - ١٢٤ باب حسن الخلق إذا فقهوا - ١٣٨ : ٢٨٩/٢٢٢ ، سنن ابن ماجه - ٣٧ كتاب الزهد - باب الزهد في الدنيا :٤٢٤٦،=

وقال (- ﷺ -) :" إن أحسن الخلق يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الجليد ، وإن الخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل "[1] .

وأنشدونا لابن أبي الدنيا : [من الرمل]

١- أيُّها الفَاخرُ جَـهْلاً بالنَسَـب ... إنمَّـا النَّـاسُ لأمٍ ولأب
٢- هَلْ تراهم خُلِقُوا من فِضـةٍ ... أو حديـدٍ أو نُحـاس أو ذَهـب
٣- فَتَرى فَضْلَهم فـي خَلْقِـهم ... هَل سِوى لحمُ وَعظمُ وعَصَـب
٤- إنَّمـا الفَخْـرُ بعلـمٍ راجـحٍ ... وبـأخلاقٍ حِسَـان وأدَب
٥- ذَاك من قَاربه مـن بينـهم ... فانَّ الفخـر عَليـهم وغَلـب[2]

= "مع اختلاف في الرواية (تدرون ما أكثر ما يدخل النار ؟ ، قالوا: الله ورسوله أعلم ، قال: الأجوفان: الفرج والفم ، وما أكثر ما يدخل الجنة ؟ تقوى الله وحسن الخلق).

(١) (ضعيف جداً) : رواه " الطبراني في الكبير " عن ابن عباس : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد الأول : ٤٤٠ ، ضعيف الجامع الصغير : ٢٩٤٥ .

(٢) الأبيات ليست لابن أبي الدنيا، وهي للإمام علي بن أبي طالب في ديوانه ص ٣٧ برواية:
١- أيها الفاجر جهلا ... ٢- أم حديد أم نحاس أم ذهب .
٣- بل تراهم خلقوا من طينة... هل سوى. ٤- إنما الفخر لعقل ثابت .:. وحياء وعفاف وأدب
- ديوان الإمام علي بن أبي طالب – تحقيق د: محمد خفاجي – دار بن زيدون – بيروت – مكتبة الكليات لأزهرية
- ووردت في روضة العقلاء منسوبة إلى محمد بن عبدالله البغدادي ص ٢٠٦ باختلاف في بعض الألفاظ :

١- أيُّها الطـالب فخـراً بالنَسـب ... إنمـا النـاسُ لأمٍ وأب
٢- هَلْ تراهم خُلِقُوا مـن فِضـةٍ ... أو حديـدٍ أو نُحـاس أو ذَهـب
٣- فَتَرى فضْلَـهم فـي خَلْقِـهم ... هَل سِوى لحمُ وَعظمُ وعصـب ؟
٤- إنمـا الفَخْـرُ بعلـمٍ راجـع ... وبـأخلاقٍ كـرام وأدب
٥- ذَاك من فاخر في النـاس بـه ... فاق مـن فـاخر منـهم وغلـب

وسئل ﴿ رسول الله – ﷺ– ﴾ في حجة الوداع ما خير ما أعطى العبد ؟ قال : " الخلق الحسن " [١] .

وقال ﴿ رسول الله – ﷺ– ﴾ :" إن الرجل ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم "[٢] .

وقال – ﷺ– :" إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق "[٣] .

وعن أم الدرداء أن أبا الدرداء كان يصلي ويبكي ويقول اللهم حسنت خلْقي فأحسن خلُقي حتى أصبح ،فقلت : يا أبا الدرداء ما كان دعاؤك الليلة إلا في حسن الخلق فقال يا أم الدرداء إن العبد يحسن خلقه حتى يدخله الجنة ويسئ خلقه حتى يدخله النار "[٤] .

وعن أنس بن مالك قال ﴿ رسول الله – ﷺ– ﴾ :" من حسّن الله خلْقه وخُلُقه وجعله في موضعٍ غير شائن فهو من صفوة الله عز وجل "[٥] .

---

(١) (صحيح) : رواه " الطبراني ، وابن حبان في صحيحه " عن أسامة بن شريك : صحيح الترغيب والترهيب – المجلد الثالث – ٢٣ كتاب الأدب وغيره – ١ الترغيب في الحياء : ٢٦٥٢ ، صحيح الأدب المفرد – ١٢٤ باب حسن الخلق إذا فقهوا – ١٣٨ : ٢٩١/٢٢٣ .

(٢) (صحيح) : عن عائشة : سنن أبي داود – كتاب الأدب : ٤٧٩٨ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة – المجلد الثاني: ٧٩٥ "مع اختلاف بسيط في الرواية "(إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم)

(٣) (ضعيف) : رواه " البزار ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان " عن أبي هريرة : ضعيف الجامع الصغير : ٢٠٤٣ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد الثاني : ٦٣٤ .

(٤) (ضعيف) : عن أم الدرداء : ضعيف الأدب المفرد – باب حسن الخلق إذا فقهوا – ١٣٨ : ٢٩٠/٤٦ .

(٥) لم أجد له أصلا .

وعن صفوان بن سليم[1] عن ﴿ رسول الله – ﷺ– ﴾ أنه قال :" شـاب سخي حسن الخُلُق أحب إلى الله من شيخ عابد سئ الخلق "[2] .

وعن أبى الدرداء عن ﴿ رسول الله – ﷺ– ﴾ أنه قال :" ما من عمـل أثقل في الميزان من حسن الخلق ، والذي نفسي بيده أن الرجل ليدرك بحسـن خلقه درجة الصوم[3] والصلاة "[4] .

وعن أم الدرداء عن ﴿ رسول الله – ﷺ– ﴾ أنه قال :" أثقل شيء فـي ميزان المرء يوم القيامة الخلق الحسـن ، وأن الله تعـالى يبغـض الفـاحش البذئ"[5].

وعن على بن أبى طالب ﷺ أنه قال :" عنوان صحيفة العبد المؤمـن حسن خلقه "[6] .

---

(١) صفوان بن سليم : مولى حميد بن عبدالرحمن بن عوف ، وكنيته أبو عبدالله ، من عبـاد أهل المدينة وقرائهم ، مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة – مشاهير علماء الأمصـار ص ٢١٦ ، وانظر ترجمته في : التاريخ الكبير ٣٠٧/٤ ، ٣٠٨ ، السير ٣٦٥/٥ ، شـذرات الذهب ١٨٩/١ ، معرفة الثقات ٤٦٧/١ .

(٢) (ضعيف) : رواه " الحاكم في تاريخه ، والديلمي في مسند الفردوس " عن ابن عبـاس : ضعيف الجامع الصغير : ٣٣٧٧ .

(٣) في الأصل : القوم .

(٤) (صحيح) : رواه " الترمذي " عن أبي الدرداء : صحيـح الجـامع الصغـير – المجلـد الثاني:٥٧٢٦ .

(٥) (صحيح) : رواه " الترمذي ، وابن حبان في صحيحه " عـن أبيـد الـدرداء : صحيـح الترغيب والترهيب– ٢٣ كتاب الأدب وغيره – ١ الترغيب في الحياء وغيره : ٢٦٤١، صحيح الأدب المفرد – ١٩٣ باب الرفق – ٢١٧ : ٤٦٤/٣٦١ ، سنن الترمذي – ٢٤– كتاب البر والصلة – باب ما جاء في حسن الخلق : ٢٠٠٢ .

(٦) (ضعيف) : رواه " الخطيب البغدادي " عن أنس : ضعيف الجامع الصغـير : ٣٨٢١ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد الثاني : ٧٨٩ ، "مع اختلاف الروايـة "(عنوان صحيفة المؤمن حب علي بن أبي طالب) .

وقال ﴿ النبي – ﷺ– ﴾ لمعاذ بن جبل :" اتق الله يا معاذ بن جبل حيث ما كنت واتبع السيئة الحسنة يمحها الله وخالق الناس بخلق حسن "(١) .

وعن أبى هريرة عن ﴿ رسول الله – ﷺ– ﴾ أنه قال :" أوحى الله عز وجل إلى إبراهيم – ﷺ– أن يا خليلي حسن خلقك ولو مع الكافر تدخل مدخل الأبرار ، فإن كلمتي من حَسُن خلقهُ أظللته في ظل عرشي واسقيته من حصيرة قدسي وأدنيته من جواري "(٢) .

---

(١) (حسن) : رواه " أبو داود ، والترمذي ، والحاكم في المستدرك ، وأحمد في المسند " عن أبي ذر : صحيح الجامع الصغير – المجلد الأول : ٩٧ ، سنن الترمذي – ٢٤– كتاب البر والصلة وغيرها – باب ما جاء في معاشرة الناس : ١٩٨٧ .

(٢) (ضعيف) : رواه " والطبراني في الأوسط " عن أبي هريرة : ضعيف الجامع الصغير : ٢١١٢ ، ضعيف الترغيب والترهيب – المجلد الثاني : ١٥٩٩ ، سلسلة الأحاديث الضعيف والموضوعة– المجلد السابع : ٣٣٤١ ، ""مع اختلاف في رواية بعض الكلمات " وهي (فإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه: أن أظله تحت عرشي ، وأن أسقيه من حظيرة قدسي ، وأن أدنيه من جواري).

[الباب الحادي عشر]

باب في قري الضيف

قال الله ﷻ :﴿ وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [1] .

وعن عقبة بن عامر الجهني[2] عن ﴿ رسول الله - ﷺ- ﴾ أنه قال : " لا خير فيمن لا يضيف "[3] .

وقال أنس بن مالك :" كل بيت لا يدخله الضيف لا تدخله الملائكة "[4].

وعن عقبة بن عامر أنه قال قلنا يا رسول الله إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقرونا فما ترى ؟ قال لنا ﴿ رسول الله - ﷺ- ﴾ :" إن نزلتم بقوم فأمروا لكم لما ينبغي للضيف فأقبلوا فإن لم تفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي سعى لهم "[5] .

---

(١) سورة هود الآية رقم (٦٩) .

(٢) عقبة بن عامر بن عيسى الجهنى أبو أسيد : وقد قيل أبو عامر ، مات وهو وال بمصر سنة ثمان وخمسين – مشاهير علماء الأمصار ص٩٤ ، وانظر ترجمته في طبقات ابن سعد ٣٤٣/٤ ، ٣٤٤ ، السير ٤٦٧/٢ ، التاريخ الكبير ٤٣٠/٦ ، أسد الغابة ٥٣/٤ ، تاريخ الإسلام ٣٠٦/٢ ، شذرات الذهب ٦٤/١ .

(٣) (صحيح) : رواه " أحمد في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان " عن عقبة بن عامر: صحيح الجامع الصغير – المجلد الثاني : ٧٤٩٢ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة – المجلد الخامس : ٢٤٣٤ .

(٤) محاضرات الأدباء ٦٤٧/١ برواية أخرى : كل بيت لا يدخله ضيف سبعة أيام لا تدخله الملائكة .

(٥) (صحيح) : رواه " أحمد في المسند ، وأبو داود ، وابن ماجة " عن عقبة بن عامر : صحيح الأدب المفرد – ٢٨٣ باب إذا أصبح الضيف محروما – ٣١٥ : ٧٤٥/٥٧٦ ، سنن أبي داود – كتاب الأطعمة : ٣٧٥٢ ، سنن ابن ماجة – ٣٣ – كتاب الأدب – باب بر الوالدين : ٣٦٧٦ .

وعن سعيد بن المسيب أنه قال :" أول الناس ضيّف الضيف إبراهيم – ﷺ– وأول الناس اختتن وأول الناس قصر شاربه وأول الناس رأى الشيب فقال يا رب ما هذا قال الله وقار ، فقال إبراهيم رب زدني وقاراً إلى وقاري"(١) .

وعن شقيق(٢) أنه قال :" ليس شيء أحب إلى في الدنيا من الضيف لأن مؤنته على الله ﷻ والأجر والذخر لي " .

وعن رجل من الأنصار أنه قال ﴿ قال رسول الله – ﷺ– ﴾ :" بريء من الشح من قرى الضيف وأعطى في النائبة وأعطى زكاة ماله "(٣) .

وقال ﴿ رسول الله – ﷺ– ﴾ :" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جاء يقريه يومه وليلته ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو فليصمت ، والضيافة ثلاثة أيام فما كان بعد ذلك فهو صدقه ، ولا يحل للضيف أن يقيم عنده حتى يحرجه "(٤) .

---

(١) (صحيح) : عن أبي هريرة : صحيح الأدب المفرد – ٥٣١ باب الختان الكبير – ٦٠١ : ٩٥١/١٢٥٠، "مع اختلاف في الرواية "(إبراهيم أول من اختتن ، وأول من أضاف ، وأول من قص الشارب، وأول من قص الظفر ، أول من شاب، فقال: يا رب! ما هذا ؟ قال: وقار ، قال: يا رب زدني وقارا)، وانظر محاضرات الأدباء ٣٢٣/٢، والتذكرة الحمدونية ٣٥٩/٢ ، وثمار القلوب ٢٤٥، وربيع الأبرار ٦٩٣/٢، ولعل المؤلف نسي أن يرفعه للنبيﷺ .

(٢) شقيق بن ثور السَدُوسي أبو الفضل : من أصحاب عثمان بن عفان ، مات سنة أربع وستين – مشاهير علماء الأمصار ، وانظر ترجمته في السير ٥٣٨/٣ ، التاريخ الكبير ٢٤٦/٤ ، جمهرة أنساب العرب ٣١٨ ، تاريخ الإسلام ١٨/٣ ، التهذيب ٣٦١/٤ .

(٣) (ضعيف) : رواه " أبي يعلي في مسنده ، والطبراني في الكبير" عن خالد بن زيد بن حارثة : ضعيف الجامع الصغير : ٢٣٢٥ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد الرابع : ١٧٠٩ ، "مع اختلاف في الرواية "(بريئ من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف وأعطى في النائبة).

(٤) (صحيح) : عن أبي شريح : صحيح الأدب المفرد – ٢٧٩ باب جائزة الضيف – ٣١١ : ٥٧٣/٧٤١ ، "مع اختلاف في رواية بعض الكلمات" وهي (ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يحرجه) ، وجاء يقريه : أي جاء بما يضاف به : أي أتى برزقه .

وعن أبى هريرة أن رجلا من الأنصار بات به ضيف فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه فقال لامرأته نومي الصبيان وأطفئ السراج وأقرى الضيف ما عندك[1] ، فنزلت هذه الآية :﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[2] .

وعن ابن عباس عن ﴿النبي- ﷺ- ﴾ أنه قـــال :" والســـنة أن تشـــيع الضيف إلى باب الدار ويا ميمون إذا نزل بك الضيف فلا تكلف له ما لا تطيـق وأطعمه من طعام أهلك وألقه بوجهٍ طلق ، فإنك إن تكلفت له ما لا تطيق أوشك أن تلقاه بوجهٍ يكرهه "[3] .

وقالت عائشة رضي الله عنها :" أخلاق المكارم عشرة : صدق الحديث وصدق الناس وأداء الأمانة وصلة الرحم ، والتذمم للجار والتذمـــم للصـــاحب والمكافأة بالصنائع وقرى الضيف وإعطاء السائل ورأس ذلك كله الحِلم "[4] .

---

(١) (صحيح) : عن أبي هريرة : سنن الترمذي – ٤٤- كتاب تفسير القـــرآن – ٦٠- بـــاب ومن سورة الحشر : ٣٣٠٤ "مع اختلاف في الرواية "(أن رجلا من الأنصار بات بـــه ضيف فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه فقال لامرأته نومي الصبية وأطفئي الســـراج وقربي للضيف ما عندك) .

(٢) سورة الحشر آية رقم (٩) .

(٣) (موضوع) : رواه : " ابن ماجه " عن أبي هريرة : ســـنن ابـــن ماجـــه – ٢٩- كتـــاب الأطعمة : ٣٣٥٨ ، ضعيف الجامع الصغير : ١٩٩٦ ، "مع اختلاف الرواية "(إن من السنة أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار) .

(٤) (ضعيف جداً) : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد الثاني : ٧١٩ ، "مـــع اختلاف في الرواية "(مكارم الأخلاق عشرة تكون في الرجل ولا تكون في ابنه وتكون في الإبن ولا تكون في أبيه وتكون في العبد ولا تكون في سيده فقسمها الله عـــز وجـــل لمن أراد السعادة صدق الحديث وصدق الناس وحفظ اللسان وإعطاء السائل والمكافـــأة بالصنائع وأداء الأمانة وصلة الرحم والتذمم للجار والتذمم للصاحب وإقـــراء الضيـــف ورأسهن الحياء) ، وانظر هذه المقولة لعائشة في التذكـــرة الحمدونيـــة ١٧٢/٢ ، كـــنز العمال ٣ : ٦٦٦/٢ ، بهجة المجالس ٦٠١/٢ : ٦٠٢ ، وعين الأدب والسياســـة ٨٨ ، والمستطرف ١٢٧/١ – مع اختلاف في بعض الألفاظ . =

وعن حاتم الأصم كان يقول : العجلة من الشيطان إلا في خمسة أشـياء فإنها من السنة سنة ﴿النبي- ﷺ- ﴾ إطعام الضيف إذا دخل ، وتجهيز الميت إذا مات وتزويج البكر إذا أدركت ، وقضاء الدين إذا وجب ، والتوبة من الذنب إذا أذنب "[١] .

وقال حاتم الأصم واجب للمضيف ثلاثة وواجب للضيف على المضيف ثلاث أن تطعمه الحلال ويحفظ عليه أوقات صلواته ولا يقصر على ما قدر من الدسم ، وحسن المطعم ، وعلى الضيف أن يجلس حيث يجلَس ويرضى بما قدم إليه ولا يخرج حتى يستأذن " .

وقيل وقف رجل على لقمان الحكيم ، فقال أنـت لقمـان عبـد بنـي الحسحاس قال نعم قال[٢] أنت راعي الغنم قال نعم قال أنت الأسود قـال أمـا سوادي فظاهر فما الذي يعجبك من أمري ؟ قال وطئ للناس بساطك وغشـيهم بابك ورضاهم بقولك قال يا أبن أخي إن صغت ما أقول لك كنت كذلك ، قـال وما ذاك قال غضي بصري ، وكفى لساني ، وعفةُ طعمي[٣] وحفظي فرجـي، وقوامي بعهدي ووفائي بوعدي ، وتكريمي ضيفي وحفظي جارى ، وتركي مـا لا يعنيني ، فقال فذاك الذي صيرك إلى ما أراه[٤] .

وعن أبى هريرة قال ﴿ قال رسول الله – ﷺ- ﴾ :" ما أحب أن أخـذ ذهبا أو قطيفة تمر عليّ ثلاث وعندي منه شيء إلا شيئاً أرصده لدينٍ أو عـدة ضيف" . [٥]

= والتذمم للجار هو أن يحفظ ذمامه أو يطرح عن نفسه ذم الناس له إن لم يحفظه .

(١) الإمتاع والمؤانسة ٤/٣ – باختلاف في بعض الألفاظ .

(٢) في الأصل قالت وهو خطأ ، حيث الرواية لمذكر .

(٣) في الأصل طهي .

(٤) بهجة المجالس ٥٧٤/٢-٥٧٥ باختلاف في بعض الألفاظ .

(٥) (صحيح) : رواه البخاري " عن أبي هريرة : مشكاة المصابيح – المجلـد الأول – بـاب الإنفاق وكراهية الإمساك – الفصل الأول : ١٨٥٩[١] ، سلسلة الأحاديث الصحيحـة – =

وعن أبى الفضل الربعى قال :" خرج المهدى يتصيد فانقطع عن أصحابه وجاع وكان يحب الخلوة والتفرد ، فرأي فلاحا معه بقرتين يفلح الأرض عليهما فقال : يا فلاح أعندك شيء يطعمنا قال : نعم شيء أعددته لنفسي فإن رضيت به فانزل ، فرأى الفلاح هيئة المهدي وشَمَ طيب رائحته ورأى حسن ثيابه وفراهة دابته فتهيبه ، فنزل المهدي وقدم إليه الفلاح خبز شعير مشطوراً [برثيئة] مبرقطا بالزيت وكراثاً حديثا معسولاً فجعل المهدي يأكل بالشهوة ويكسر اللقمة ويجعل فيها كراثا ويأكلها حتى شبع ثم قال اسقني ماءً فأتاه بماءٍ مغترفٍ من السقاية فشرب منه على ظمأٍ شديد حتى روى وحمد الله ولحقته جيوشه وجنوده في السلاح والآت الخلافة ووزيره أبو عبيد الله فقال المهدي لوزيره ما جزاء من أطعمنا خبز شعير مشطوراً [برثيئة] مبرقطا[1] بالزيت وكراثا أخضر قال وزيره أبو عبيد الله :

إن من يطعم الرثينا بالزيت وخبز الشعير بالكراث[2]
لحقيق بلطمة أو ثنتين يحزبهن أو بثلاث[3]

والفلاح مشتغل بعمله لا يدرى ما هم فيه فدعا بة المهدي فقال للوزير بحضرته مثل سؤاله الأول فأجابه بجوابه الماضي والفلاح يسمع فقال المهدي بئس ما قلت لكني أقول :

= المجلد الثالث : ١١٣٩ ، "مع اختلاف الرواية "(لو كان لي مثل أحد ذهبا لسرني أن لا تمر علي ثلاث ليال عندي منه شيء ؛ إلا شيئا أرصده لدين) .

(١) مبرقط : ضرب من الطعام وسمي بذلك لأن الزيت يُفَرّقُ فيه كثيراً – اللسان جـ١ / مادة (برقط) .

(٢) الرثينا : الرثيئة : هي اللبن الحامض يخلط بالحلو – انظر عيون الأخبار ٢٠٨/٣ ، أو هو نوع من الطعام .

(٣) لم أعثر على القصة في المصادر المتاحة .

إن من يطعم [الرثيئا] بالزيت وخبز الشعير بـــالكراث
لحقيق بيـــدرة أو بثنتيـــن [يحـــز بـــهن] أو بثـــلاث

ثم قال المهدي أدفعوا إليه ثلاث بدرات وبغلا يحمـــل عليـــه البـــدرات وبرذوناً يركبه، واشترى له الضيعة التي كان يعمل فيها بما بلغت ودفعها إليـــه فعاذ الله عز وجل الفلاح أن يجعل فيها بيتاً للضيافة ، وقال أنس بن مالك زكـــاة الدار أن يجعل فيها بيتاً للضيافة [1] .

---

(١) التذكرة الحمدونية ٢٣٣/٢ برواية : زكاة الرجل في داره أن يجعل فيها بيتاً للضيافة.

[الباب الثاني عشر]

باب مُعَاشَرِة الرُفَقَاء في السَّفَر

قال الله ﷻ : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّـهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّه ﴾(١) .

وقال ﴿ رسول الله – ﷺ- ﴾:" الرفيق تمام الطريق والجار تمام الدار "(٢) .

وعن عبدالله بن عمر عن ﴿ رسول الله – ﷺ- ﴾ قال : " سافروا تصحوا وتغنموا "(٣) .

وعن ابن عباس قال ﴿ قال رسول الله – ﷺ- ﴾ :" سافروا تصحوا وترزقوا "(٤) .

وعن أبي موسى عن ﴿ رسول الله – ﷺ- ﴾ أنه قال :" إذا سافر أحدكم أو مرض كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل وهو مقيم صحيح"(٥) .

---

(١) سورة المزمل آية رقم (٢٠) .

(٢) (ضعيف جداً) : رواه " الطبراني في الكبير " عن رافع بن خديج : ضعيف الجامع الصغير : ١١٤٧ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد السادس : ٢٦٧٤، ""مع اختلاف الرواية "" (التمسوا الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق) ، وانظر محاضرات الأدباء ٥٥٩/٢ .

(٣) (ضعيف) : رواه " البيهقي في سننه " عن ابن عباس : ضعيف الجامع الصغير : ٣٢١٢ ، وهو (منكر) في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد الأول : ٢٥٥ ، وانظر محاضرات الأدباء ٦١١/٢ برواية : سافروا تصحوا.

(٤) (ضعيف) : رواه " عبدالرازق في مصنفه " عن محمد بن عبدالرحمن مرسلا : ضعيف الجامع الصغير: ٣٢١١.

(٥) (صحيح) : رواه " البخاري ، وأحمد في المسند " عن أبي موسى : صحيح الجامع الصغير – المجلد الأول ٧٩٩ ، مشكاة المصابيح – المجلد الأول – باب عيادة المريض وثواب المرض – الفصل الأول : ١٥٤٤[٢٢] .

وعن أبى هريرة عن (رسول الله - ﷺ-) أنه قال :" ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد "[1] .

وعن عراك بن مالك[2] عن (النبي - ﷺ-) أنه قال :" ثلاثة حق على الله عز وجل لا يرد لهم دعوةً منذ يوم خلق الله السموات والأرض الصائم حتى يفطر والمظلوم حتى ينتصر ، والمسافر حتى يرجع "[3] .

وعن جابر بن عبدالله أنه قال : " المسافر شهيد " .

وعن أحمد بن الحواري قال[4] سمعت أن موسى ﷺ قال : سافروا وأملوا في أسفاركم البركة فإني قد سافرت وما أو مل كل [ما أنا].[.....][5].

وعن جعفر الجلدي قال سمعت بعض مشايخنا يقول سيحوا فإن الماء إذا ساح طاب وإذا وقف نتن "[6] .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص عن (رسول الله - ﷺ-) أنه قال : " خير الأصحاب خيرهم لصاحبه ، خير الجيران خيرهم لجاره "[7] .

---

(١) (حسن) : رواه " ابن ماجة " عن أبي هريرة : سنن ابن ماجة - ٣٤- كتاب الدعاء - باب فضل الدعاء: ٣٨٦٢ ، صحيح الأدب المفرد - ١٤ باب دعوة الوالدين - ١٧ : ٣٢/٢٤ ، وصحيح الجامع الصغير - المجلد الأول : ٣٠٣٣ .

(٢) عراك بن مالك الغفاري : من أهل المدينة ، سكن الشام ومات في ولاية يزيد بن عبدالملك ، وهو والد خثيم بن عراك - مشاهير علماء الأمصار ١٨٧ ، وانظر ترجمته في التهذيب ١٧٢/٧ ، تاريخ الثقات ص ٣٣٠ ، التقريب ١٧/٢ .

(٣) (ضعيف) : رواه " البزار " عن أبي هريرة : ضعيف الترغيب والترهيب - المجلد الثاني : ١٨٢٤ ، "مع اختلاف الرواية " (ثلاث حق على الله أن لا يرد لهم دعوة الصائم حتى يفطر والمظلوم حتى ينتصر والمسافر حتى يرجع) .

(٤) في الأصل قالت وهو خطأ .

(٥) كلمة لم أستطع قراءتها .

(٦) المقولة منسوبة لبشر بن الحارث في محاضرات الأدباء ٦١١/٢ برواية إذا وقف تغير .

(٧) (صحيح) : رواه " أحمد في المسند ، والترمذي ، الحاكم في المستدرك " عن ابن عمرو : صحيح الجامع الصغير - المجلد الأول : ٣٢٧٠ ، صحيح الأدب المفرد - ٥٤ باب=

وعن مكحول[1] أنه قال :" في قول الله ﷻ ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾[2] قال الرفيق الصالح : قلت يا مكحول إن لي رفيقاً يؤذيني قال انبذه عنك فإن الشر للشر خلق " .

وعن سعيد بن جبير قال :" الصاحب بالجنب الرفيق الصالح " .

وعن الإصبع بن هارون المصري لنفسه : [من المتقارب]

١- ألفتُ التغربَ وللغربةُ ففي كل يوم [اطاتربه]

٢- فيوم مقيم على نعمةٍ ويوم مقيم على تعبهِ

٣- ومما يسكّن وجد الغريب رفيق تديم به الصحبة[3]

وقال عمر بن الخطاب ﷺ :" إذا سافرتم فاصحبوا ذوى الجدود الميرة[4] .

= خير الجيران – ٦٣ : ١١٥/٨٤ ، "مع اختلاف في الرواية " (خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره) .

(١) مكحول أبو عبد الله : كان من سَبْى كابل لسعيد بن العاص فوهبه امرأة من هُذَيل فأعتقته بمصر ثم تحول إلى دمشق إلى أن مات بها سنة اثنتي عشرة ومائة وكان من فقهاء أهل الشام وصالحيهم وجامعيهم للعلم – مشاهير علماء الأمصار ١٨٣ ، ١٨٤ ، وانظر ترجمته في : الثقات ٤٤٦/٥، التهذيب ٢٨٩/١٠-٢٩٢ ، تاريخ البخاري ٢٢/٨ .

(٢) سورة البقرة آية رقم (١٩٧) .

(٣) البيت الثالث لأبي دلف في محاضرات الأدباء برواية :

ومما يسكن قلب الغريب .:. رفيق تطيب به الصحبة ٦١٥/٢ ، وبلا نسبة في الصداقة والصديق بالرواية نفسها ص ٢٥٨ .

(٤) الميرة : الطعام يمتاره الإنسان ، أو جلب الطعام للبيع ، ويقال مار عياله وأهله يميرهم ميراً وامتار لهم أي جلب لهم الطعام ، والميَّار : جالب الميرة ، ويقال : ما عنده خير ولا مَيْرٌ ، والمعنى اصحبوا ذوي الحدود الخيرة ، ويقال للرفقة التي تنهض من البادية إلى القرى لتمتار – اللسان /مادة مير .

وعن عبدالله بن عمر قال ﴿ قال رسول الله – ﷺ- ﴾ :" لو يعلم الناس ما أعلم من الوحدة ما سرى راكب بليل وحَدهُ أبداً "[1] .

وعن أبى هريرة قال : لَعَن ﴿ رسول الله – ﷺ- ﴾ راكب الفلوات وحده والبايت وحده قال فشق ذلك على أصحابه حتى بان في وجوههم " .

وعن ابن عباس قال ﴿ قال رسول الله – ﷺ- ﴾ :" خير الصحبة أربعة"[2] .

وعن عبد الله[3] قال": إذا كنتم ثلاثة في السفر فأمروا عليكم أحدكم ولا يتناجى اثنان دون ثالث "[4] .

وعن عمر قال": إذا برزتم ثلاثة فأمروا عليكم أحدكم فإن الفاجر يؤم الفاجر" .

وقال ﴿ رسول الله – ﷺ- ﴾ :" إذا آراد أحدكم سفراً فليودع إخوانه فإن الله جاعل عليهم البركة "[5] .

---

(١) (صحيح) : عن ابن عمر : سنن الترمذي – ٢٠- كتاب الجهاد – ٤- باب ما جاء في كراهية أن يسافر الرجل وحده : ١٦٧٣ .

(٢) (حسن) : أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦١١) ، والترمذي في السير (١٥٥٥) ، والإمام أحمد في مسنده ١٥(/٢٩٤-٢٩٩) عن ابن عباس برواية : " خير الصحابة أربعة وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف ولن يغلب اثنا عشر من قلة .

(٣) لعله عبدالله بن عباس ، أو عبد الله بن عمر .

(٤) (حديث حسن) : أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٠٨) ، والبيهقي في سننه ٢٥٧/٥ عن أبي سعيد الخدري برواية : " إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم " .

(٥) (موضوع) : رواه " ابن عسكر ، والديلمي في مسند الفردوس " عن زيد بن أرقم : ضعيف الجامع الصغير : ٤٧٠ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – المجلد الرابع : ١٦٢٣ ، "مع اختلاف في الرواية " (إذا خرج أحدكم إلى سفر ، فليودع إخوانه ، فإن الله جاعل له في دعائهم البركة) .

وكان رسول الله – ﷺ- إذا ودّع رجلاً أخذ بيده ولا يدعها حتى يكون الرجل يدع يد النبي – ﷺ- ويقول أستودع الله دينك وأمانتك وأحسن عملك"(١).

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن ﴿ رسول الله – ﷺ- ﴾ أنه قال :" من خرج من بيته يريد سفراً فقال حين خرج بسم الله أمنت بالله وتوكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله رزق خير ذلك المخرج وصرف عنه شره"(٢).

وقال ربيعة بن عبدالله(٣) :" المروءة مرؤتان مروءة الحضر ومروءة السفر ومروءة السفر بذل الزاد وقلة الخلاف على الأصحاب وكثرة المزاح في غير معصية وغير مساخط الله عز وجل ، وأما مروءة الحضر فالإدمان على المساجد وكثرة الإخوان في الله عز وجل وتلاوة القرآن "(٤) .

وكان يوسف بن أسباط(٥) لا يرافق أحداً فقيل له في ذلك قال :"

---

(١) (صحيح) : رواه " الترمذي ، وأبو داود ، وابن ماجه " عن ابن عمر : مشكاة المصابيح المجلد الثاني– باب الدعوات في الأوقاف – الفصل الأول : ٢٤٣٥[٢٠] .

(٢) (ضعيف) : عن عثمان بن عفان : ضعيف الترغيب والترهيب – المجلد الأول : ٩٩٥ .

(٣) ربيعة بن عبدالله بن الهُدير التيمي القرشي : عم محمد بن المنكدر ، من أفاضل قريش وعباد أهل المدينة مات سنة ثلاث وتسعين ، مشاهير علماء الأمصار ١١٦ ، وانظر ترجمته في : طبقات ابن سعد ٢٧/٥ ، والتاريخ الكبير ٢٨١/٣ ، أسد الغابة ٢١٤/٢ ، السير ٥١٦/٣ ، شذرات الذهب ٧٩/١ .

(٤) المقولة منسوبة للإمام علي بن أبي طالب في ربيع الأبرار ٤٠٢/٢ ، والتذكرة الحمدونية ١٣١/٨ ، برواية : ست من المروءة : ثلاث في الحضر ، وثلاث في السفر ، فأما اللاتي في الحضر فتلاوة كتاب الله ، وعمارة مساجد الله ، واتخاذ الإخوان في الله ، وأما اللاتي في السفر فبذل الزاد ، وحسن الخلق ، والمزاح في غير معاصي الله .

– والعقد الفريد ٢٩٢/٢ لعمر بن الخطاب برواية المروءة مروءتان : مروءة ظاهرة ومروءة باطنة ، الظاهرة الرياش ، والمروءة الباطنة العفاف .

(٥) يوسف بن أسباط أبو يعقوب : أصله من العراق ، من متقشفي العُبّاد والمتجردين من الزهاد مات سنة خمس وثمانين ومائة – مشاهير علماء الأمصار ٢٩٦ ، وانظر ترجمته في : الثقات ٦٣٨/٧ ، السير ١٦٩/٩ ، التاريخ الكبير ٣٨٥/٨ ، ميزان الاعتدال ٤٦٢/٤.

ومن يقوى على حق الرفيق . وقيل لعون بن عبد الله مالك لا تصاحب فلانـــا.؟ قال لنا مقادير أخلاق ونكره أن يخبر بعضنا من بعض " .

وكان أصحاب ﴿ رسول الله - ﷺ - ﴾ (يشترط) [1] فاضلهم الخدم فمـن أخطأه ذلك اشترط الآذان ".

وعن مجاهد[2] قال كنت أصحب ابن عمر فإذا ركب جـــاء فــأخذ بثيابي وسّوى على ثيابي ".

وقال - ﷺ - :" ليس من صاحب صاحباً إلا وهو مسئول عنه "[3] .

وعن عبدالله بن عباس :" إنما سمي الرفيق ليرفق به وســـمي الجــار ليجيره وسمي الصاحب ليحسن صحبته "[4]

وقال عبدالله بن الاشح[5] من شر المرافقة أن تتوضأ بالعذب ورفيقـــك بالمالح ، وأن طاووساً[6] أقام على رفيق له حتى فاته الحج ".

وكان لحبيب بن مســلمة[7] رفيق ضاق [به] يوما في شــئ فقال له

---

(١) في الأصل اشترط .

(٢) سبق ترجمته ص ٣٨١ .

(٣) (موضوع) : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعـــة - المجلـد الأول :١٢٤ ، "مــع اختلاف الرواية "" (ما من صاحب يصحب صاحبا ولو ساعة من نهار إلا ســئل عـن صحبته هل أقام فيها حق الله أم أضاعه) .

(٤) بلا نسبة في محاضرات الأدباء ٧٠٠/٢ برواية والصديق لتصدقه .

(٥) عبدالله بن الأشح : كان من أهل المناظرة والجدل ، وانتقل من العراق إلى القـــيروان - انظر طبقات علماء افريقية للخشني تحقيق د: محمد زينهم محمد عزب - ط١- مكتبــة مدبولي - ص ٧٥ .

(٦) سبق ترجمته في ص ٤١٥ .

(٧) حبيب بن مسلمة بن شيبان الفهري القرشي : مات سنة اثنتين وأربعين - مشاهير علمــاء الأمصار ٨٨، وانظر ترجمته في الثقات ٨١/٣ ، طبقات ابن ســـعد ٤٠٩/٧ ، الســير ١٨٨/٣ ، التاريخ الكبير ٣١٠/٢ ، جمهرة أنساب العرب ١٧٨ ، ١٧٩ ، أسد الغابـــة ٣٧٤/١ ، تاريخ الإسلام ٢١٥/٢ ، الإصابة ٣٠٩/١ .

حبيب إن استطعت تغير من خُلُقِكَ بأحسن منه فافعل وإلا فسيسعك من أخلاقنا ما ضاق عنا من خلقك[1] .

وقال إبراهيم بن سكنة : " انظر رفقاءك في السفر وخلطاءك في الحضر وشركاءك في العمل فاحفظ لمصاحبتهم أبياتا قلتها وهي :-

[من الوافر التام]

١- وكنتُ إذا صحبتُ رِجَالَ قومٍ صَحِبتُهم وشيمتي الوفاءُ

٢- فأحْسِنُ حين يُحسن مُحْسِنُوهم وأجتنبُ الإساءةَ ما إن أسَاءوا

٣- اشأسوى مشيئتهم فإني مسيتهم وأترك ما أشاؤا

٤- وأبصر ما يعيبهم بعين عليها من عيونهم الغطاء[2]

وأنشد المسَيب[3] : [من الوافر التام]

١- وإن رافقتَ في الأَسْفارِ قوماً فَكُن لهم كذِي الرَّجم الشَفيق

٢- يعيب النفس ذا بَصَرٍ وعلمٍ عَمِيَّ العين عن عَيبِ الرفيق

٣- عليكَ بِعَالي الأخلاقِ فيهم ولا تَسعف إلى الخلق الوَفِيق

---

(١) محاضرات الأدباء ٢٧٥/١ - برواية : " ما ضاق به ذرعك " .

(٢) الأبيات ١ ، ٢ ، ٤ في الصداقة والصديق ٣٦٠ ، ٣٦١ باختلاف الرواية في البيت الأول والرابع ١- .... وثبتني الوفاء ٤- .... غطاء

- والأبيات ١ ، ٢ ، ٤ في بهجة المجالس ٦٦٨/٢ بلا نسبة ، باختلاف رواية البيت الرابع: وأبصر ما ينقِّصني بعين .:. عليها من عيوبهم غطاءُ .

والمعنى : أي أبصر عيوبي فأعالجها ، ولا أبصر عيوبهم فأتتبعها وأغفل عن معايبي .

(٣) المُسَيِّب بن رافع الأسدي التغلبي الكاهلي أبو العلاء : مات سنة خمس ومائة وهو والد العلاء بن المسيب - مشاهير علماء الأمصار ١٧٤ ، وانظر ترجمته في الثقات ٤٣٧/٥ ، التهذيب ١٥٣/١٠ ، الكاشف ١٢٩/٣ .

٤- ولا تــأخذْ بعــثرةِ كــلِ خـــلِ ولكن قل هلــمّ إلــى الطريــق

٥- متــى تــأخذْ بِعثْرتِــهم يقلــوا وتَبْقَــى فــي الزمــانِ بِــلا صَديــق[١]

وقال غيره : [من البسيط التام]

١- أكرِمْ رَفِيقَكَ حتى يُنجزَ الســـفرَ إنَّ الَــذي أنــتَ تُوليــه سَيَنْتَشِــرُ

٢- ولا تكن كلئامِ أظْهَروا ضَجَــراً إن اللئامَ إذا ما سَافَرُوا ضَجروا[٢]

وقال آخر : [من الطويل]

١- إذا أنتَ رافقتَ الرجالَ فَكُن فَتــىً كــأنّكَ مملــوكٌ لكــلِ رَفِيــق

٢- وكُن مثلَ الماءِ عَذْبــاً وبــارداً على الكَبِدِ الحَري لكلِ صَدِيــق[٣]

تم كتاب العِشْرَةِ يوم الأربعاء الثالث عشر من شهر رجـب الفـرد مـن ثلاث وعشرون وثمانمائة (٨٢٣هـ) من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

---

(١) الأبيات ١ ، ٢ ، ٤ ، ٥ في ديوان عبدالله بن المبارك ص ٨٦ برواية :
١- إذا صاحبت
٢- بعيب .... عَمِيُّ القلب
٤- كل قوم
٥- فإن تأخذ بهفوتهم ...... تَمَلُّ
- جمع وتحقيق د : مجاهد مصطفى بهجت - دار الوفاء - المنصورة - ط٢- ١٩٨٩م .
- وانظر الأبيات السابقة في ذيل الجواهر المضيئة ٢/٥٣٠ .
- كما وردت للشافعي في مناقبه ٢/٨٤ ، وتاريخ دمشق [مخطوط] ج ٦/٢٦٠ ب .

(٢) للعطوي في محاضرات الأدباء ٢/٦١٥ في باب الحث على إجمال المعاشرة في السفر برواية (١) ..... حتى ينقضي السفر .

(٣) البيتان لابن المعتمر في محاضرات الأدباء ٢/١٧ ، وبلا نسبة في الصداقة والصديق ص٧٣ برواية :
١- صاحبت فكن فتى ....
٢- وكن مثل طعم الماء .... على كبد حرى .
- ولأحمد بن يحيى في تزيين الأسواق ٢/٢٨٩ برواية : طعم الماء .

فهرس الآيات القرآنية

رقم الصفحة	رقم الآية	السورة	الآيـــــة
	١٠	الحجرات	• إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .
	١١	المجادلة	• يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِـــي الْمَجَـــالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ .
	٩	الحشر	• وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .
	٦	التحريم	• يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا .
	٤	القلم	• وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ .
	٢٠	المزمل	• وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّـــهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .
	٧	التكوير	• وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ .

فهــرس الأحـــــاديث

م	الحـــــديث	الصفحة
١٩	اثنان لا تجاوز صلاتهما رؤوسهما	
٢٠	إذا أتى خادم أحدكم بطعام قد ولي حره ودخانه ومشقته ومؤنته فليجلســه معــه بطعام	
٢١	أذا أراد أحدكم سفراً فليودع إخوانه فإن الله ﷻ جاعل عليهم البركة	
٢٢	إذا أفصح أولادكم فعلموهم قول لا إله إلا الله	
٢٣	إذا برزتم ثلاثة فأمروا عليكم أحدكم فإن الفاجر يوم الفاجر	
٢٤	إذا سافر أحدكم أو مرض كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل وهــو مقيــم صحيح	
٢٥	إذا سميتم فعبدوا فكلكم عبيد كلكم	
٢٦	إذا ضرب أحدكم خادمه فذكر الله ﷻ فارفعوا أيديكم	
٢٧	إذا قال لك جيرانك قد أحسنت فقد أحسنت ، وإذا قال لك جيرانك قد أسأت فقــد أسأت	
٢٨	إذا ودع رجلاً أخذ بيده ولا يدعها حتى يكون الرجل يدع يد النبي ﷺ ...	
٢٩	أوصيكم بالصلاة وأوصيكم بما ملكت أيمانكم ثم قضى ﷺ مكانه	
٣٠	إن حسن الخلق يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الجليد	
٣١	إن أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه	
٣٢	إن الرجل ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم	
٣٣	إن شر الأسماء عبدالحرب والشهاب ومرة وهمام والحارث وأصــدق الأســماء عبدالله وعبدالرحمن	
٣٤	إن في الجنة درجة لا ينالها إلا ثلاثة :	
٣٥	إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم	
٣٦	إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك أصابعه	
٣٧	إن المؤمن مرآة المؤمن والمؤمن أخو المؤمن	
٣٨	إن من شرائط الساعة سوء الجوار وقطيعة الرحم وأن تعطل السيوف من الجهاد وأن يحل الربا بالدين	

م	الحـــــديث	الصفحة
٩٥	ما أحب أن آخذ ذهبا أو قطيفة تَمُر عليّ ثلاث وعندي منه شيء	
٩٦	ما استسقى شيخ شاباً فشرب قبله إلا غارت عين من عيون الأرض .	
٩٧	ما اصطحب اثنان على خير ولا على شر إلا حشرا عليه .	
٩٨	ما بر والديه من شد النظر إليهما .	
٩٩	ما تقولون في الزنا قالوا حرمه الله تعالى ورسوله فهو حرام	
١٠٠	ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه .	
١٠١	ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه وأوصاني بالمملوك حتى ظننت أنه سيجعل له مدة إذا بلغ ذلك عتق .	
١٠٢	ما من عمل أثقل في الميزان من حسن الخلق	
١٠٣	ما من صباح إلا وملكان يناديان ويل للرجال من النساء وويل للنساء من الرجال	
١٠٤	مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ النار .	
١٠٥	مثل المرأة مثل الضلع الأعوج إن تحرص على إمامته تكسره فدارها تعش لها .	
١٠٦	مروا أولادكم الصلاة إذا بلغوا سبعاً واضربوهم عليها إذا بلغوا عشراً ...	
١٠٧	المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يختله ولا يكذبه	
١٠٨	المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .	
١٠٩	المسلمون أخوة ذكرهم وأنثاهم حرهم وعبدهم .	
١١٠	مكتوب في التوراة من بلغت له بنت ثنتي عشرة سنة فلم يزوجها فركبت إثمـــاً فإثم ذلك عليه .	
١١١	المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم .	
١١٢	من أحبَّ أن يُمد له في العمر ويزاد له في الرزق فليبر والديه وليصل رحمه	
١١٣	من أدرك له ولد وعنده ما يزوجه فلم يزوجه فأحدث فالإثم بينهما .	
١١٤	من أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار فأبعده الله وأسحقه .	
١١٥	من أرضى والديه فقد أرضى الله ومن أسخطهما فقد أسخط الله ﷻ .	
١١٦	من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله تعالى بكل عضو منها عضواً منه من النار .	
١١٧	من إجلال الله ﷻ إكرام ذي الشيبة .	

م	الحــــــديث	الصفحة
١١٨	من بَالَ إلى جدار جاره فقد آذاه ومن رمى كلب جاره فقد آذاه .	
١١٩	من حسّن الله خَلْقه وخُلُقه وجعله في موضع غير شائن فهو من صفوة الله ﷺ .	
١٢٠	من خرج من بيته يريد سفراً فقال حين خرج بسم الله آمنت بالله وتوكلت على الله	
١٢١	من سره أن يمد له في عمره ويوسع له في رزقه فليصل رحمه .	
١٢٢	من طلب حلالاً استعفافاً عن المسألة وسعياً على عياله وتعطفا على جاره بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر	
١٢٣	من فطر ثلاثة غفر له ومن كانت له جيرة ثلاثة كلهم راضون عليه فغفر له ..	
١٢٤	من كان له امرأتان فمال مع إحداهما جاء يوم القيامة مائل شقه	
١٢٥	من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فيلكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه	
١٢٦	من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا فليس منا .	
١٢٧	من لم يهم للعيال فليس له في الجماعة نصيب .	
١٢٨	من ولد له ثلاثة من الأولاد ولم يسم أحدهم محمداً فقد جهل .	
١٢٩	من ولد له ثلاثة من البنين فلم يسم أحدهم باسمي فقد جفاني .	
١٣٠	**من ولد له مولود فأذن في أذنه اليمنى وأقام في أذنه اليسرى دفعت عنه أم الصبيان** .	
١٣١	من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن ويعلمهن من يعمل بهن .	
	هـ	
١٣٢	هل تدرون ما حق الجار على ما تدرون .	
	و	
١٣٣	والله لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه .	
	ي	
١٣٤	يا أنس أحسن جوار من جاورك تكن مسلما .	
١٣٥	يدخل الجنة رجلان	
١٣٦	ينكح أحدكم الشابة الرطبة حتى إذا كبرت وبرزت طلقها .	

فهرس القــوافي والأوزان

القافيـــــة	البحـــــر	عدد الأبيات	الصفحة
وإياه	الهزج	٥	
الوفاء	الوافر التام	٤	
ولأب	الرمل	٥	
تعبه	المتقارب	٣	
بالكراث	ـــــ	٢	
أرشده	مشطور الرجز	٨	
جارا	الكامل	٢	
سينتشرا	البسيط التام	٢	
حقا	مجزوء الوافر	٥	
فصدقه	مجزوء الوافر	٦٥	
الشفيق	الوافر التام	٢	
رفيق	الطويل	٢	
كدكا	الكامل التام	٤	
نزل	مشطور الرجز	٥	
عَدَلْ	مشطور الرجز	٧	
المنزل	الكامل	٢	
الفهم	مشطور الرجز	٥	

المصـــــادر

١- **ابن الرومي حياته وشعره** : عباس محمود العقاد - المجموعة الكاملة - مجلد ١٥ - ط١ - دار الكتاب اللبناني - ١٩٨٠م .

٢- **الأذكياء** : لأبي الفرج علي بن الجوزي - تحقيق وتعليق : عادل عبدالمنعم أبو العباس - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠٣م .

٣- **إرواء الغليل في شرح أحاديث منار السبيل في شرح الدليل** : لإبراهيـم ابـن محمد بن ضويان - تأليف محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي .

٤- **أسد الغابة في معرفة الصحابة** : عز الدين بن الأثير أبي الحسن علـــي بـن محمد الجزري - دار الفكر .

٥- **الأشباه والنظائر** : للخالديين - حققه وعلّق عليه د: السيد محمـــد يوســف - الهيئة العامة لقصور الثقافة - ٢٠٠٢م .

٦- **الإصابة في تمييز الصحابة** : شيخ الإسلام شهاب الدين أبي الفضل أحمد بـن علي العسقلاني المصري الشافعي - دار الكتب العلمية - بيروت .

٧- **الإمتاع والمؤانسة** : لأبي حيان التوحيدي صححه وضبطه وشرح غريبـــه : أحمد أمين ، أحمد الزين ــ دار مكتبة الحياة ــ بيروت ــ لبنان ــ د.ت .

٨- **الأنيس في غرر التجنيس** : لأبي منصور الثعالبي - تقديم وتحقيــق : هــلال ناجي - عالم الكتب - ط١- ١٩٩٦م .

٩- **الاقتباس من القرآن الكريم** : لأبي منصــور الثعــالبي - تحقيــق د: ابتسـام مرهون الصفار - الهيئة العامة لقصور الثقافة - سلسلة الذخائر - ٢٠٠٣م .

١٠- **البداية والنهاية** : للإمام الحافظ بن كثير- دار الفكر العربي- ط١-١٩٣٣م.

١١- **برد الأكباد في الأعداد** : لأبي منصور عبدالملك بن محمد الثعـــالبي (٣٥٠-٤٢٩هـ) - تحقيق : أسامه البحيري - مطبعة البربري - طنطا - ١٩٩٩م .

١٢- **البصائر والذخائر** : لأبي حيان التوحيـــدي (٤١٤هـــ) - تحقيــق د: وداد القاضي - دار صادر بيروت - ط١- ١٩٨٨م.

١٣- **بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس** : لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد القرطبي (٣٦٨-٤٦٣هـ) - تحقيق د: محمد مرسي الخولي - دار الكتب العلمية - بيروت - د.ت .

١٤- **تاريخ آداب اللغة العربي** : جرجي زيدان - مراجعة د: شوقي ضيف - دار الهلال .

١٥- **تاريخ الأدب العربي** : كارل بروكلمان - ترجمة د: رمضان عبدالتواب - دار المعارف - ط٣ - ١٩٨٣م .

١٦- **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام** : لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨) تحقيق: عمر عبد السلام تدموي ـ دار الكتاب العربي ـ ط٢ ـ١٩٩٣م .

١٧- **تاريخ بغداد أو مدينة السلام منذ تأسيسها حتى سنة ٤٦٣هـ** : للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) والمكتبة السلفية - المدينة المنورة - (د٠ت) .

١٨- **تاريخ دمشق** : مخطوط ج٦ - جمع وتحقيق د: مجاهد مصطفى بهجت - دار الوفاء - المنصورة - ط٢ - ١٩٨٩م .

١٩- **التذكرة الحمدونية** : ابن حمدون ـ محمد بن الحسن محمد علي (٤٩٥ ـ ٥٦٢ هـ) ـ تحقيق د / إحسان عباس ، وبكر عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ لبنان ط١ ـ ١٩٩٦ م .

٢٠- **التاريخ الكبير** : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبدالله البخاري الجعفي (١٩٤-٢٥٦هـ) - تحقيق : السيد هاشم الندوي - دار الفكر .

٢١- **تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق** : للعلامة داود الأنطاكي الضرير (ت١٠٠٨هـ) - تحقيق د: محمد التونجي - عالم الكتب- بيروت - ط١- ١٩٩٣م - ٢٧٦/٢ .

٢٢- **التمثيل والمحاضرة** : لأبي منصور الثعالبي ـ تحقيق المرحوم عبد الفتاح محمد الحلو ـ الدار العربية للكتاب ـ ط٢ ـ ١٩٨٣م

٢٣- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : **للثعالبي - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف - القاهرة - ١٩٨٥م .**

٢٤- جمهرة أنساب العرب : **لأبي محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (٣٨٤-٤٥٦هـ) تحقيق عبد السلام هارون - دار المعارف - ط٢ - ١٩٨٢م .**

٢٥- **الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية** : لمحي الدين بن محمد عبدالقادر بن محمد بن نصر الله أبي الوفاء القرشي الحنفي (٦٩٦-٧٧٥هـ) - تحقيق د: عبدالفتاح الحلو - دار هجر للطباعة والنشر - القاهرة - ط٣ - ١٩٩٣ م .

٢٦- **ديوان علي بن أبي طالب** : جمع وتحقيق : مركز البيان العلمي بالمنوفية - ١٩٩٥م ، وله تحقيق آخر - تحقيق د : محمد خفاجي - دار ابن زيدون - بيروت - مكتبة الكليات الأزهرية .

٢٧- **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** : لابن بسام الشنتريني - تحقيق د: إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت .

٢٨- **ربيع الأبرار ونصوص الأخبار** : لجار الله محمود بن عمر الزمخشري (٤٦٧- ٥٣٨ هـ) - تحقيق ودراسة : عبدالمجيد دياب - الجزء الأول - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٢م .

٢٩- **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء:** لأبي حاتم البستي- اعتنى به : محمد عبد القادر الفاضلي - طبعة المكتبة المصرية - بيروت - ط١ - ٢٠٠٢م .

٣٠- **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السئ في الأمة** : محمد ناصر الدين الألباني - المكتبة الإسلامية - عمان ، مكتبة المعارف - الرياض - ط٣- ١٤٠٦هـ .

٣١- **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها** : محمد ناصر الدين الألباني - المكتبة الإسلامية - عمان ، الدار السلفية - الكويت - ط٣- ١٤٠٦هـ .

٣٢- **سنن الترمذي** : للإمام الترمذي (محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي ٢٠٩-٢٧٩هـ) - تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون - دار إحياء التراث العربي - بيروت ؟

٣٣- **سنن أبي داود** : للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (٢٠٢- ٢٧٥هـ) - تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد - دار الفكر .

٣٤- **سنن ابن ماجه** : للإمام ابن ماجه (محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني (٢٠٧-٢٧٥هـ) - تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي - دار الفكر - بيروت .

٣٥- **سنن النسائي** : تصنيف أبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي (٢١٥-٣٠٣) - بيت الأفكار الدولية - مع أحكام الشيخ الألباني .

٣٦- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** : لأبي الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ) - طبعة دار المسيرة - بيروت - لبنان - ط٢ - ١٩٧٩م .

٣٧- **شعب الإيمان** : أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤-٤٥٨هـ) - تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٤١٠هـ .

٣٨- **صحيح الأدب المفرد** : للإمام البخاري - بقلم : أبي عبدالرحمن محمد ناصر الدين الألباني - نشر دار الصديق - توزيع مؤسسة الريان - ط١- ١٤٢١هـ .

٣٩- **صحيح البخاري** : محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي (ت ٢٥٦هـ) - تحقيق : مصطفى ديب البغا - دار ابن كثير - اليمامة - بيروت - ط٣- ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

٤٠- **صحيح الترغيب والترهيب** : محمد ناصر الدين الألباني (الجزء الثاني) - مكتبة المعارف - الرياض - ط١- ١٤١٢هـ.

٤١- **صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)** : لمحمد ناصر الدين الألباني - الطبعة المجددة والمزيدة والمنقحة - المكتب الإسلامي - ١٤٠٨هـ .

٤٢- **صحيح ابن حبان** : محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (ت٣٥٤هـ) - تحقيق : شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط٢ - ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م

٤٣- **صحيح ابن خزيمة** : محمد بن إسماعيل بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري (٢٢٣-٣١١هـ) - تحقيق د: محمد مصطفى الأعظمي - المكتب الإسلامي - بيروت - ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م

٤٤- **صحيح مسلم** : مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشير النيسابوري (ت٦٠٦هـ) - تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت .

٤٥- **الصداقة والصديق** : لأبي حيان التوحيدي - تحقيق وشرح : علي متولي صلاح - مكتبة الآداب - القاهرة - ١٩٧٢م .

٤٦- **الصغير** : اللخمي الطبراني - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

٤٧- **ضعيف الجامع الصغير : وزيادته (الفتح الكبير)** : محمد ناصر الدين الألباني - الطبعة المجددة والمزيدة والمنقحة - المكتب الإسلامي - ١٤٠٨هـ .

٤٨- **طبقات علماء إفريقية** : للخشني - تحقيق د: محمد زينهم محمد عرب - ط١ - مكتبة مدبولي .

٤٩- **الطبقات الكبرى** : لابن سعد - دار بيروت للطباعة والنشر - ١٩٨٠م.

٥٠- **ظهر الإسلام** : أحمد أمين - مكتبة النهضة المصرية .

٥١- **العقد الفريد** : لأحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي (ت٣٢٨هـ) - تحقيق : أحمد أمين وآخرين - لجنة التأليف والترجمة والنشر - مصر - ١٩٦٩م .

٥٢- **عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرئاسة** : لأبي الحسن علي بن عبدالرحمن بن هذيل (من علماء القرن الثامن الهجري) - مطبعة مصطفى الحلبي - مصر - ١٩٦٩م .

٥٣- **عيون الأخبار** : لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قُتَيْبَة الدِّيَنَوري (ت ٢٧٦هـ) - شرحه وعلق عليه : د : مفيد قميحة - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٩٨٦ م .

٥٤- **غرر الخصائص الواضحة ، ودرر النقائص الفاضحة** : لأبي إسحاق برهان الدين الكتبى المعروف بالوطواط (ت ٧١٨هـ) ــ دار صعب ــ بيروت ــ (د . ت).

٥٥- **فقه اللغة وسر العربية** : للثعالبي - تحقيق : خالد فهمي - مكتبة الخانجي - القاهرة - ١٩٨٨م .

٥٦- **الكناية والتعريض** : لأبي منصور الثعالبي ــ تحقيق : محمد إبراهيم سليم ــ مكتبة ابن سينا ــ ١٩٩٢ .

٥٧- **لسان العرب** : لأبي الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور (ت٧١١هـ) - تحقيق : عبدالله الكبير وزميليه - دار المعارف - مصر - ١٩٨١م .

٥٨- **لطائف المعارف** : للثعالبي - تحقيق : إبراهيم الإبياري ، حسن كامل الصيرفي - مطبعة الحلبي - ١٩٦٠م .

٥٩- **اللطف واللطائف** : للثعالبي - تحقيق د: محمود الجادر - دار العروبة - الكويت - ط١ - ١٩٨٤م .

٦٠- **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء** : لأبي القاسم حسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ) - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - د.ت .

٦١- **المستطرف في كل مستظرف** : لشهاب الدين محمد الإبشيهي (ت٨٥٠هـ) - تحقيق : عبدالله أنيس الطباع - دار القلم - بيروت- ١٩٨١م .

٦٢- **مسند الإمام أحمد** : للإمام أحمد بن حنبل - شرحه وصنع فهارسه : أحمد محمد شاكر .

٦٣- **مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار** : لأبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي - (ت٣٥٤هـ) - تحقيق : مرزوق علي إبراهيم- دار الوفاء - المنصورة - ط١ - ١٩٩١م

٦٤- **مشكاة المصابيح** : محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي - تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني .

٦٥- **معجم الأدباء** : لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت٦٢٦هـ) ـ تحقيق :محمد يوسف نجاتي وآخر ـ دار الفكر ـ ط٣ ـ ١٩٨٠م .

٦٦- **من غاب عنه المطرب** : لأبي منصور الثعالبي - تحقيق د : النبوي عبد الواحد شعلان - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط١- ١٩٨٤م .

٦٧- **الموشى أو الظرف والظرفاء** : لأبي الطيب محمد بن إسحاق الوشاء (٣٢٥هـ) - تحقيق : كمال مصطفى - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط٢- ١٩٥٣م .

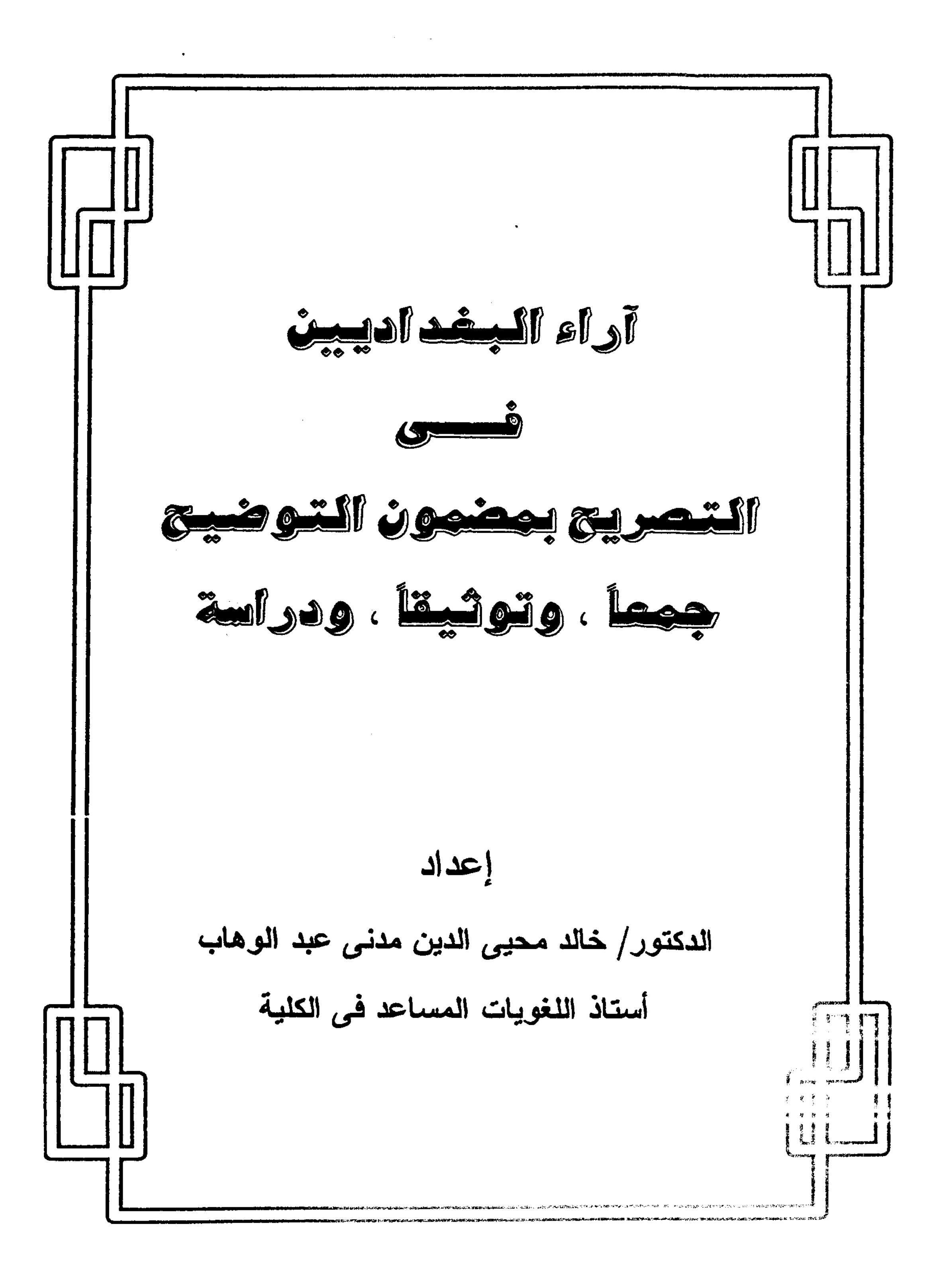
٦٨- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** : لجمال الدين أبي المحاسن يوسف ابن تغري بردي الأتابكي (٨١٣-٨٧٤هـ) طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية _د٠ت)

٦٩- **وفيات الأعيان** : لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد المعروف بابن خلكان (ت ٦٨١هـ) - تحقيق د: إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت - لبنان - ١٩٦٤م .

٧٠- **يتيمة الدهر** : للثعالبي - طبعة محمد إسماعيل الصاوي - القاهرة - ط١ - ١٩٣٤م .

٧١- **يتيمة الدهر** : للثعالبي - تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد - المكتبة التجارية .

الفهـــــرس



آراء البغداديين

فى

التصريح بمضمون التوضيح

جمعاً ، وتوثيقاً ، ودراسة

إعداد

الدكتور/ خالد محيى الدين مدنى عبد الوهاب

أستاذ اللغويات المساعد فى الكلية

المقدمة :

الحمد لله الذى أنزل على عبده القرآن الكريم ، ولم يجعل لــه عوجــاً ، وجعله أحسن الحديث بلسان عربى مبين ، فهو خير الكتب ، مصــــدق لـــها ، ومهيمن عليها ، نزل على خير رسول إلى خير أمة أخرجت للناس .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح العرب لسانا وأبلغـــهم بيانـــا وأفضل الرسل شأنا وأقواهم حجة وبرهانا .

ورضى الله عن آله الأطهار وصحابته الأخيار الذين تمســـكوا بســـنته وساروا على نهجه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد..

فما من ريب أن المعارف والعلوم تنمو وتزدهر فى ظل اهتمام الخلفـــاء بالعلم وتشجيعهم للعلماء ، ومن ثم وجدنا خلفاء بنى العباس قــد اســتطاعوا أن يجتذبوا إلى بغداد التى اتخذوها حاضرة لدولتهم كثيرا من العلماء فى شتى فنون العلم والمعرفة لما وجدوا من العطاء الجزيل والتشجيع العظيـــم لـــدى هـــؤلاء الخلفاء ، ولم يكن علماء الكوفة والبصرة بمنأى عن ذلك ، فما إن سمعوا بتلـــك الحياة المرفهة والعيشة المترفة التى يحظى بها العلماء لدى خلفاء بنى العبـــاس فى بغداد حتى رحلوا إليها زرافات ووحدانا حاملين معهم علم الكوفة والبصـــرة اللتين لم تزل جذوة الخلاف بين علمائها مستعرة ، إلا إن التقاء الفريقيـــن فـــى بغداد جعلهم يعيدون النظر فى القواعد والآراء السابقة ويعرضونها من جديـــد على بساط البحث المنصف المدعوم بالأدلة القياســـية والســـماع مـــن العـــرب الثقات ، فيرتضون ما ثبت لديهم صحته دون تعصب لمذهب معيـــن أو تـــأثر برأى سابق مما جعل نحاة بغداد يتوصلون أحيانا فى بعض المسائل إلـــى آراء

جديدة مخالفة لكل من أهل الكوفة والبصرة ، وقد يذهب بعضهم إلى ترجيح المذهب الكوفى على البصرى أو العكس .

ومن ثم نجد أن جهود البغداديين إما ابتكار لرأى جديد وإما ترجيح لمذهب إحدى المدرستين الكوفة أو البصرة على الآخر .

ومن هنا رأيت أن أقوم بجمع آراء البغداديين ودراستها دراسة تحليلية أبين فيها ما يثبت صحته من الآراء والمذاهب معتمدا فى ذلك على الحجج والتعليل والاستدلال بالقياس أو السماع من كلام العرب نثرا وشعرا .

وقد آثرت أن يكون حصر هذه الآراء واستقرؤها من كتاب (التصريح بمضمون التوضيح) للعلامة الشيخ خالد الأزهرى – رحمة الله – حيث جمع فيه لكونه من المؤلفين المتأخرين جل آراء البغداديين .

ولم أجد من جمع آراء البغداديين فى كتاب كما فعل الشيخ خالد الأزهرى فى كتابه (التصريح بمضمون التوضيح) .

وقد جاء هذا البحث فى مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة أما **التمهيد** فقد تحدثت فيه عن نشأة المذهب البغدادى وأصوله .

وأما المبحث الأول : فقد تحدثت فيه عن الآراء التى انفرد بها البغداديون . وفيه أربع مسائل :

المسألة الأولى : حكم اسم (لا) التبرئة إذا كان شبيها بالمضاف .

المسألة الثانية : حكم (ويح – ويل – ويس) إذا وقعت منصوبة .

المسألة الثالثة : الخلاف فى وزن (سيِّد) ونحوه .

المسألة الرابعة : حكم فاء الافتعال المبدل من همزة .

وأما المبحث الثانى : فقد تحدثت فيه عن الآراء التى وافق فيها البغداديون البصريين . وفيه مسألتان :

المسألة الأولى : حقيقة اللام الواقعة بعد (إن) المخففة .

المسألة الثانية : حكم وقوع الحال معرفة .

وأما المبحث الثالث : فقد تحدثت فيه عن الآراء التى وافق فيها البغداديون الكوفيين . وفيه خمس مسائل :-

المسألة الأولى : جواز كسر وفتح همزة (إن) بعد القسم .

المسألة الثانية : جواز إتباع المستثنى منه للمستثنى إذا تقدم المستثنى عليه.

المسألة الثالثة : مجىء (ليس) حرف عطف .

المسألة الرابعة : حكم نداء ما فيه (ال) دون (أى) أو اسم إشارة .

المسألة الخامسة : هل يراعى فى العدد لفظ الجمع أو مفرده ؟ .

وأما المبحث الرابع : فقد تحدثت فيه عن ما وافق فيه البغداديون بعضا من الكوفيين والبصريين . وفيه مسألة واحدة هى :

* إعراب المنقوص الممنوع من الصرف .

وأما الخاتمة فأثبت فيها أهم نتائج البحث . ثم جاء بعد ذلك فهرس المراجع ، وفهرس الموضوعات . والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يغفر لى ما فيه من الزلل والخطأ إنه قريب مجيب .

دكتور / خالد محيى الدين مدنى عبد الوهاب .

تمهيد :

فى : نشأة المذهب البغدادى وأصوله (١)

استطاعت بغداد التى اتخذها خلفاء بنى العباس حاضرة لدولتهم الفتية ببريقها ورفاهية الحياة فيها أن تجذب إليها العلماء على اختلاف تخصصاتهم ، وتنوع مشاربهم ، ولقد كان تقريب الخلفاء لهم وتشجيعهم والبذل لهم خير دافع لعرض ما لديهم من علوم وأفكار وأشعار .

ولقد كان النحويون الكوفيون أسبق من النحويين البصريين فى الوفود إلى بغداد ونيل الخطوة عند خلفاء بنى العباس ، حيث وفد إليها الكسائى حاملا معه نحو الكوفة وعلمها وآراء العلماء فيها ، فقربه إليه الخليفة المهدى وجعله فى حاشية ابنه الرشيد ، وعندما آلت الخلافة إليه ندبة الكسائى لتأديب ولدية الأمين والمأمون ، فلما مرض الكسائى وتقدمت به السن اختار بطلب من الرشيد أن يخلفه على بن المبارك الأحمر فى تأديب الأمين والمأمون .

وهكذا استطاع الكسائى أن يمكن للنحو الكوفى فى بغداد وبعد الكسائى رحل إلى بغداد يحيى بن زياد الفراء من علماء الكوفة فعهد إليه الخليفة المأمون بتأديب ولديه .

وفى هذا يقول أبو الطيب اللغوى :

" فلم يزل أهل المصرين على هذا حتى أنتقل العلم إلى بغداد قريبا ، وغلب أهل الكوفة على بغداد ، وحدثوا الملوك فقدموهم ، ورغب الناس فى

---

(١) ينظر نشأة النحو للشيخ محمد الطنطاوى ص ١٨٤ وما بعدها ، والمدارس النحوية لشوقى ضيف ص ٢٤٥ وما بعدها ، والنحو العربى نشأته وتطوره د. صلاح رواى ص ٤٤١ وما بعدها .

الروايات الشاذة ، وتفاخروا بـــالنوادر ، وتبـاهوا بالترخيصـــات ، وتركـوا الأصول ، واعتمدوا على الفروع ، فاختلط العلم " . (1)

وإذا كان سبق نحويِّى الكوفة إلى بغداد يعد من العوامل التى مكنت لتغلـل المذهب الكوفى فى بغداد فإن من أهم تلك العوامل أن البيئة فى بغداد وطبيعـة الحياة فيها كانت مهيأة لاستقبال علماء الكوفة والاحتفاء بهم وبما يحملون معـهم من العلوم النحوية واللغوية ؛ إذ كانت مدينة بغداد آنذاك مدينة ملك ، فالجميـع ينشغلـون بدعيم الدولة وتوطيد سلطانها ، ولم تكن مدينة علم ، حيث لم يسـبق لها معرفة بتلك العلوم ، ويشير إلى هذا قول أبى الطيب اللغوى : " وأما مدينـة بغداد فمدينة ملك ، وليست بمدينة علم ، وما فيها من العلـــم منقـول إليـها ، ومجلوب للخلفاء وأتباعهم ، ورغبتهم ونيتهم مع ذلك فـــى العلـــم ضعيفـة ؛ لأن العلم جد ، وهم قوم الهزل أغلب عليهم ،واللعب أملك لهم ، فـإن تعـاطى أحدهم شيئا أو أشد به فإنما بغيته المسماة ، وهمه المباهاة فيه ، فترى أحدهـــم يتكلم بغير علم ، ويلمز لبعد فى العلماء ، ويذكر رغبته فـــى أطـراف العلـم ودواوينه وفروعه وغرائبه ، ويسامح نفسه فى أصوله وسهلة وذلولـــة : فـهو يبنى على غير أُس ، ويحب الرياسة بأهون مس ، فلا جرم أنهم يوهمـــون ولا يفهمون ويسألون فيستهمسون".(2)

حينما تواردت الأخبار إلى البصرة عن مدى النعيم الذى يعيش فيه نحـــاة الكوفة فى كنف خلفاء بنى العباس فى بغداد عقد بعض نحاة البصرة العزم على الرحيل إلى بغداد ليقاسموهم هذا النعيم ، ورفاهية الحياة ، فشد المبرد رحالـــه إلى بغداد واحتال لإقامة مجلس له فى مسجدها ، رغم تصدى ثعلب وأنصـــاره له ، ولم ينجح المبرد فى اختراق هذا الحصار فقط بل أسس لنفسه حلقـــة فـــى

---

(1) مراتب النحويين : ١٤٤ .

(2) مراتب النحويين : ١٦٠ .

مسجد الكوفة ، ليس هذا فحسب بل استطاع أن يستقطب إلـــى حلقتــه بعــض أنصار ثعلب كأبى إسحاق الزجاج . وهكذا التقت فى بغداد مدرســـة البصـــرة وزعيمها المبرد ومدرسة الكوفة وزعيمها ثعلب .

وأخذ كل فريق يعرض بضاعته ، ويســتعرض علمــه ويقيــم بحججــه وبراهينه على نقض الفريق الآخر، وتفنيد براهينه ، فكثرت بينهما المناظرات ، واشتدت المنافرات ، وأصبح لكل فريق أنصار مؤيدون ، واشتعلت بينهما جذوة المنافسة واستعرت بينها نار المنافرة ، وظل الحال هكذا إلى منتصــف القــرن الثالث الهجرى تقريبا حتى برز اتجاه جديد لدى الخلفاء وفريق من النحاة ممــن هالهم ما وصل إليه حال النحو واللغة من الاختـــلاف والتبــاين فـــى الآراء ، والإسراع فى نقض الرأى الآخر بتمحل الأدلـــة وتصيـــد الـــبراهين ، فجعــل أصحاب هذا الاتجاه الجديد الذى أخذ عن علماء المدرستين معا ، وأفـــاد مــن آرائهما جميعا يعمقون فى دراسة المذهبين محاولة للتعرف علـــى الآراء التـــى تتميز بالجدية والابتكار ، ثم الخروج بمذهب موحد يجمع مـــا تطمئــن إليــه نفوسهم ، ويغلب على ظنهم صحته ، سواء أكان منتميا لمذهب البصريين أم مما نادى به الكوفيين فلا تعصب لأحد الفريقين ضد الآخر .

فعرض هؤلاء العلماء المذهبين على بساط البحث والنقـــد فاســتعرضوا دعائم القواعد التى تركزت عليها من الرواية والشواهد والأقيسة ليتعرفوا .

مقدار هذه القواعد من الصحة والضعف حتى يبتنى حكمهم فى الاختيـــار على أساس غير منهار .

فهذا المذهب الجديد يقوم على الاختيار والانتخاب مــــن آراء المذهبيــن جميعا .

ومع ذلك فقد اختلف هؤلاء فى أنفسهم ما بين محافظ على ترسم خطى سلفه من علماء الكوفة أو البصرة ، وبين منصف تحلل من قيود الحزبية ، ونظر إلى العلم نظرة خالصة لا يشوبها عاطفة ، فآثر ما رجح عنده وتمذهب به .

ومن ثم نجد آراء البغداديين قد اتخذت عدة اتجاهات : -

١- آراء انفرد بها البغداديون .

٢- آراء وافق فيها البغداديون البصريين .

٣- آراء وافق فيها البغداديون الكوفيين .

٤- آراء وافق فيها البغداديون بعضا من البصريين والكوفيين .

وفيما يلى عرض ودراسة لهذه الاتجاهات الأربع ممثلة فى أربعة مباحث ، وقد رتبت المسائل فى كل مبحث منها وفقا لترتيب أبواب النحو والصرف فى ألفية ابن مالك .

المبحث الأول

ما انفرد به البغداديون

المسألة الأولى

حكم اسم (لا) التبرئة إذا كان شبيها بالمضاف .

الشبيه بالمضاف : كل اسم له تعلق بما بعده .

١-إما بالعمل فيه رفعا نحو : لا قبيح فعله مذموم ، لا حسنا وجهه لك ، (ففعله) فاعل (قبيحا) ؛ لأنه صفة مشبهة وكذا (وجهه) فاعل حسنا ، أو نصبا نحو : لا طالعا جبلا ظاهر ، لا ضاربا بكرا فى الدار ، (فجبلا) و (بكرا) مفعولان ل (طالعا ، ضاربا) ؛ لأنهما اسدا فاعل وكذا قولك : لا عشرين درهما ، (فدرهما) تمييز منصوب (بعشرين) أو جرا نحو : لا خيرا من زيد عندنا فمن (زيد) متعلق (خيرا) ؛ لأنه اسم تفضيل .

٢-وإما بالعطف نحو قولك : لا ثلاثة وثلاثين عندنا ، فـ(ثلاثين) معطوف على (ثلاثة) وله تعلق به بواسطة حرف العطف .

ويسمى هذا النوع أيضا مطولا وممطولا أى ممدودا من قولهم : مطلت الجديدة إذا مددتها .[1]

هذا ، وقد اختلف النحويون فى هذا النوع إذا وقع اسما لـ (لا) النافية للجنس على خمسة مذاهب **نفصلها فيما يلى** :-

المذهب الأول :-

عدم تنوين الشبيه بالمضاف جوازاً إذا وقع اسماً فيقال : لا قبيحَ فعله مذموم ، لا حسنَ وجهه لك ، لا طالع جبلا ظاهر ، لا ضاربَ بكرا فى الدار ، لا خير من زيدِ عندنا ، لا ثلاثةَ وثلاثين عندنا ، وقد نسب هذا المذهب إلى البغداديين كلُ من الشيخ خالد الأزهرى والصبان بيد أن عبارتهما تُفهم أن

---

(1) ينظر شرح ابن عقيل ٨/٢ ، ارتشاف الضرب ١٦٤/٢ ، ١٦٩ ، التصريح ٣٤٤/١ .

فتحة الشبيه بالمضاف حينئذ فتحة إعراب ؛ حيث عللا تنوين الشبيه بالمضاف بالحمل له على المضاف كما حمل عليه في الإعراب .(1)

وأما أبو حيان والسيوطي فقد نصا على أن فتحة الشبيه بالمضاف عند البغداديين فتحة بناء ، فيكون مبنيا على الفتح ، وجعلا ذلك مخصوصا بكون معمول الشبيه بالمضاف ظرفا أو جارا ومجرورا بخلاف المفعول الصريح .(2)

وأما الشيخ خالد الأزهري فقد نص على أن البغداديين يجيزون عدم تنوين الشبيه بالمضاف إذا كان معمولا صريحا ومثل له بنحو : لا طالع جبلا ظاهر .(3)

ومما سبق يتبين أن في النقل عن البغداديين في هذه المسألة خلافا في فتحة الشبيه بالمضاف : هل هي فتحة إعراب أو بناء ؟ وفي جواز ترك تنويه : هلى هو مخصوص بكون معموله ظرفا أو جارا أو مجرورا أو يشمل المفعول الصريح أيضا ؟ .

وقد خرج ابن هشام على هذا المذهب قوله ﷺ : " لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلا معْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ".(4)

---

(1) ينظر التصريح ٣٤٤/١ ، حاشية الصبان ٦/٢ .

(2) ينظر ارتشاف الضرب ١٦٩/٢ ، ١٧٠ ، الهمع ١٤٧/١ .

(3) ينظر التصريح ٣٤٤/١ .

(4) هذا جزء من حديث نبوي أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأذان . باب (الذكر بعد الصلاة) ، وكتاب الدعوات باب (الدعاء بعد الصلاة) ، وكتاب القدر باب (لا مانع لما أعطى الله) . وكذا أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الصلاة باب (اعتدال أركان الصلاة وتخفيضها في تمام) وباب ما يقال إذا رفع رأسه من الركوع ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب الذكر بعد الصلاة وصفته .

بترك التنوين فى (مانع) ، (معطى) حيث ذكر أن جماعة الظـــروف فى الحديث المذكور وفى قوله تعالى : ﴿ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّـــهِ ﴾.(١) ، ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ ﴾ .(٢)

تتعلق باسم على مذهب البغداديين ، وجعله مما يراعى فيه المعرب معنى صحيحا ، ولا ينظر فى صحته فى الصناعة (٣)

المذهب الثانى :-

جواز تنوين الشبيه بالمضاف وعدم تنوينه وهو أحسن - أى عدم تنوينه - وقد نسب هذا المذهب إلى ابن كيسان أبو حيان (٤) وكذا الســـيوطى حيــث ذكر أن ابن كيسان أجراه فى ذلك مجرى المفرد فـــى البنـــاء لعـــدم الاعتـــداد بالمفعول من حيث أنه لو أسقط لصح الكلام .(٥)

المذهب الثالث :-

جواز عدم تنوين الشبيه بالمضاف بقلة ، إلى هذا ذهب ابن مـــالك حيــث قال فى التسهيل : " وقد يعامل غير المضاف معاملته فـــى الإعــراب ونـــزع التنوين .(٦)

وقال فى شرحه : " ولو تعلقت اللام بالاسم تعيـــن الإعــراب وتوابعـــه غالبا ، نحو : " لا واهب لك درهما " . (٧)

وقال أيضا : " وقد يحمل على المضاف مشابهة بالعمل . ويمكن أن يكون

---

(١) سورة هود ٤٣ .

(٢) سورة يوسف ٩٢ .

(٣) ينظر مغنى اللبيب ٥٣٩/٢ ، ٥٤٢ .

(٤) ينظر ارتشاف الضرب ١٦٩/٢ .

(٥) ينظر الهمع ١٤٧/١ .

(٦) ينظر تسهيل الفوائد ص ٦٧.

(٧) ينظر شرح التسهيل ٦٣/٢ .

من هذا قول النبى ﷺ : " لاَ صَمْتَ يَومٌ إلى الليلِ " ([1]) على رفع يوم بـالمصدر على تقديره : بأن وفعل ما لم يسم فاعله ".([2])

المذهب الرابع :-

جواز بناء الشبيه بالمضاف إذا كان مطولاً نحو : لا قائلَ قولاً حسنا ، ولا ضاربَ ضرباً كثيرا ، وقد نسب هذا المذهب إلى الكوفيين كلٌّ من أبى حيان ([3]) والسيوطى .([4])

المذهب الخامس :-

وجوب تنوين الشبيه بالمضاف ونصبه فتقول : لا قبيحاً فعله ، لا طالعـاً جبلا. وقد نسب هذا المذهب إلى الجمهور كلٌّ من أبى حيان ([5]) والسيوطى.([6])

ونسبه إلى البصريين كل من ابن هشام ([7]) والشيخ خـالد الأزهـرى ([8]) والدمامينى ([9]) وهو مذهب الخليل وسيبويه حيث قال فى كتابه : " هذا باب مـا يثبت فيه التنوين من الأسماء المنفية ، وذلك من قبل أن التنوين لم يصر منتـهى الاسم ، وهو قولك : لا خيرا منه لك ، ولا حسنا وجهه لك ، ولا ضاربا زيـدا لك ؛ لأن ما بعد حسن وضارب وخير صار من تمام الاسم فقبـح عندهـم أن

([1]) هذا جزء من حديث نبوى أخرجه عبد الرازق فى مصنفه برقم ١١٤٥٠ ، ١٥٩١٩ .

([2]) شرح التسهيل ٦٣/٢ .

([3]) ارتشاف الضرب ١٧٠/٢ .

([4]) الهمع ١٤٧/١ .

([5]) ينظر ارتشاف الضرب ١٦٩/٢ .

([6]) ينظر الهمع ١٤٧/١ .

([7]) ينظر مغنى اللبيب ٥٤٢/٢ .

([8]) ينظر التصريح ٣٤٤/١ .

([9]) ينظر حاشية الصبان ٦/٢ .

يحذفوا قبل أن ينتهوا إلى منتهى الاسم ؛ لأن الحذف فى النفى فى أواخر الأسماء . ومثل ذلك قولك : لا عشرين درهما لك .

وقال الخليل – رحمه الله – : كذلك لا آمرا بالمعروف لك إذا جعلت بالمعروف تمام الاسم وجعلته متصلا به ، كأنك قلت : " لا آمرا معروفا لك " .(1)

هذا وإذا كان ابن هشام قد خرج قول النبى ﷺ : " لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ " بعد تنوين اسم (لا) فى الموضوعين على مذهب البغداديين كما سبق فإن الدمامينى ذكر أنه يمكن تخريجه على مذهب البصريين الموجبين تنوينه أيضا بأن يُجعل (مانع) اسم (لا) مفردا مبنياً والخبر محذوف والتقدير ، لا مانعَ مانعٌ لما أعطيت ، واللام للتقوية ، وكذا القول فى ولا معطى لما منعت .(2)

---

(1) الكتاب ٢/٢٨٧ .

(2) ينظر حاشية الصبان ٢/٦ .

المسألة الثانية

حكم ويح – ويل – ويس ([1]) إذا وقعت منصوبة .

(ويح وويل وويس) من قبيل المصادر التى هى بدل من اللفظ بفعلها ولها حالان :-

الحال الأولى : أن تكون مضافة نحو : ويحَ فلان وويلـــهَ وويســـةَ ، وويحَـــك وويلَك وويسَك وويحَ غيرك ، وويلَ غـــيرك ، وويـــس غـــيرك وهى من إضافة المصدر إلى مفعوله وفى هذه الحال تكون هـــذه الكلمات منصوبة وجوبا .

الحال الثانية : أن تكون مفردة نحو : ويحًا له وويحٌ له وويلاً له وويـــلٌ لـــه وويساً له وويسٌ له وفى هذا الحال يجوز الرفع والنصب. ([2]).

وفى هذا يقول المبرد : " فأما قولهم : ويلٌ لزيد ، وويحٌ لزيد ، وتـــبٌ لزيد ، وويس له . فإن أضفت لم يكن إلا النصبُ فقلت : ويحه وويلَه ، فإنمـــا ذلك ؛ لأن هذه مصادر ، فإذا أفردت فلم تضف ، فأما النصب فعلـــى الدعـــاء وأما الرفع فعلى قولك : ثبت ويل له ؛ لأنه شىء مستقر ، فويل مبتدأ ، و(لـــه) خبره ، وهذا البيت ينشد على وجهين ، وهو :

كَسا اللؤمُ تَيْماً خُضرَةً فى جُلُودها

فَويْلٌ لِتَيْمٍ مِنْ سرابِيلِها الخُضرِ ([3]) " ([4])

([1]) (ويح) : كلمة رحمة و(ويل) كلمة عذاب ، وقيل هما بمعنى واحد و (ويـــس) كلمـــة تقال فى موضع رأفة واستملاح . ينظر الصحاح مـــادة : و ى ح ، و ى ل . و ى س ، لسان العرب مادة : و ى ح ، و ى ل ، و ى س .

([2]) ينظر الهمع ١٨٩/١ .

([3]) البيت من البحر الطويل وهو لجرير فى ديوانه ص ٥٩٦ .

- السرابيل (جمع سربال) : وهو القميص ، والخضرة فى ألوان الناس السمرة كما فـــى اللسان مادة خضر.
- الشاهد فيه قوله : (فويل لتيم) حيث روى برفع ويل ونصبه لإذ لم يضف والأكثر فـــى كلام العرب رفعه بالابتداء .
- ينظر البيت فى الكتاب ٣٣٣/١ ، شرح المفصل ١٢١/١ ، لسان العرب مادة : ويل .

([4]) ينظر المقتضب ٢٢٠/٣ .

وإذا استعملت هذه المصادر منصوبة فإن العامل فيها يحذف وجوبا ؛ لأنها بدل من اللفظ به . وقد اختلف النحويون فى هذه الألفاظ الثلاثة هل هى من قبيل المصادر التى استعمل لها أفعال أو هى من المصادر التى أهملت أفعالها ولم تستعمل ، **وذلك على مذهبين نفصلهما فيما يلى :-**

المذهب الأول :-

أن ويله وويحه وويسه من قبيل المصادر التى نصبت وجوبا ؛ لأنها بدلُ من أفعالها المصوغة من ألفاظها ، فويله منصوبة بفعل تقديره (والَ) وويحه منصوبة بفعل تقديره (واحَ) وويسه منصوبة بفعل تقديره (واسَ) ، وهو مذهب بعض البغداديين ذكر ذلك الشيخ خالد الأزهرى (1) وأنشد :

فما وال ولا واح

ولا واس أبو هند (2)

المذهب الثانى :-

أن ويحه وويله وويسه من قبيل المصادر التى نصبت وجوبا ؛ لأنها بدلُ من اللفظ بأفعال غير مستعمله من ألفاظها فتكون ويحه منصوبة بفعل محذوف وجوبا تقديره (رحم) ؛ لأنها كلمة ترحم وتكون ويله منصوبة بفعل محذوف وجوبا تقديره (عذّب) ؛ لأنها من كلمة عذاب .(3)

وقد نص على هذا جمع من النحويين منهم المبرد حيث ذكر أن ويح -

---

(1) ينظر التصريح ١/٥٠٠ .

(2)البيت من الهزج ولم أقف له على نسبه .

وقد ورد منسوبا إلى لبيد فى شرح اللباب للاسفرابينى ولم أجده فى ديوانه . وينظر البيت فى المنصف ٢/١٩٨ ، والممتع ٢/٥٦٧ ، والارتشاف ١/٩٠ .

- الشاهد فى قوله : (وال ولا واح ولا واس) حيث استعمل الأفعال الماضية من المصادر (ويل وويح وويس) وهو جائز عند البغداديين .

(3) ينظر التصريح ١/٥٠٠ .

ويل – ويس لم يجز أن يكون منها أفعال ([1]) ، وكذا أبو عثمان المازنى حيث قال : ، ومثل ذلك (ويل وويح ، وويس) هذه كلها مصادر ؛ لأن معناها الدعاء ، كـ (سَقْياً) من (سقيت) ، فلو على صاغوا منها فعلا لزمهم ما يستثقلون .([2])

وعلل ابن جنى امتناع استعمال أفعال لهذه المصادر فى أثناء شرحه عبارة المازنى السابقة بقوله : " إنما يعنى بما يستثقلون : أنه كان يلزم حذف الفاء فى المضارع ؛ لأنها كواو " وَعَدَ ووزن " وكان يلزم الياء الإعلال وحذفها وسكون اللام كما كان ذلك فى باع ، وقال " ، فكان يجب من هذا إعلال الفاء والعين جميعا وهذا إجحاف . فأما قولهم : " ع كلاماً ، وشِ ثوباً ، ولِ أمراً ، وفِ بعهدك " . فإنما جاز حذف الفاء واللام جميعا ؛ لأنهما فى الطرفين ، ولم يجتمع الإعلالان فى جهة واحدة ."([3])

وذكر الأنبارى أن نصب ويلك على المصدر بفعل مقدر لم يستعمل ، ولم يستعمل منه فعل لأن فاءه وعينه من حروف العلة .([4])

وكذا ذكر أبو حيان أن (ويل ، ويح ، ويس) مصادر لا أفعال لها من لفظها ؛ لأن ويل وبابه مما كانت فاؤه واوا وعينه ياءا قليل .([5])

وأما البيت السابق الذى أنشده الشيخ خالد الأزهرى على ورود أفعال لهذه المصادر من لفظها فقد أورده ابن جنى ، ثم قال : " وهذا من الشاذ وأظنه مولداً " .([6])

وقال أبو حيان : " (واح ، وواس ، ووال) مصنوع ".([7])

([1]) ينظر المقتضب ٢٥٧/١، ٢٠٦/٢، ١٠٧ .
([2]) ينظر متن تصريف المازنى فى المنصف ١٩٨/٢ .
([3]) المنصف ١٩٨/٢ .
([4]) ينظر البيان فى غريب إعراب القرآن ٩٩/١ .
([5]) ينظر البحر المحيط ٢٧٠/١ ، ارتشاف الضرب ٩٠/١ .
([6]) المنصف ١٩٨/٢ .
([7]) ارتشاف الضرب ٢٠٨/٢ .

المسألة الثالثة

الخلاف فى وزن (سيِّد) ([1]) ونحوه .

ما كان من الأسماء على نحو (سيِّد ، كميِّت ، وهيِّن ، ليِّن) مما كانت عينه فى الأصل واوا فقبلت ياءا وأدغمت فى الياء التى بعدها أو كانت عينه ياءا فأدغمت فى الياء الزائدة كما فى (ليِّن) **مختلف فيه على مذاهب من حيث : -**

١- هل حركة عينه فتحه أو كسره ؟

٢- وهل فيه قلب مكانى أو لا ؟

وتفصيل ذلك فيما يلى :-

المذهب الأول :-

أن (سيِّد ، ميِّت) ونحوهما على وزن (فَيْعَل) والأصل (سَيْوَد ، مَيْوَت) من ساد يسود ن ومات يموت بفتح العين فيهما ك (ضَيْغَم ، صَيْرَف) .([2])

وقد نسب سيبويه ([3]) هذا المذهب إلى غير الخليل ونسبه الأنبارى ([4]) إلى قوم وأما الشيخ الأزهرى ([5]) فقد صرح بنسبته إلى البغداديين .

واحتج أصحاب هذا المذهب بأن (فعيلا) – بفتح العين –له نظير فى كلام العرب (كرجل جَيْدَر ، وخَيْفَق ، وزيْنَب) وأن (فعيلاً) بكسر العين

([1]) أصل (سيد) سيود – فيعل – من ساد يسود فاجتمعت الواو والياء والأول منهما متأصل فى الذات والسكون ، وهما بمنزلة ما تدانت مخارجه وهما مشتركان فى المد واللين فقبلت الواو ياء ثم أدغمت الياء فى الياء ولا تقلب الياء واوا ؛ لأن الياء أخف ، والإدغام نقل الأثقل إلى الأخف (ينظر شرح المفصل لابن يعيش ٢٣/١٠ .

([2]) الصيرف والصيرفى : المحتال المتقلب فى أموره ، المتصرف فى الأمور المجرب لها (ينظر لسان العرب مادة (صرف) .

([3]) ينظر الكتاب ٣٦٥/٤ .

([4]) ينظر الإنصاف ٧٩٦/٢ .

([5]) ينظر التصريح ٧١٩/٢ .

ليس له نظير من الصحيح فى كلام العرب فكان هذا الأصل (فيعَلا) بفتح العين ثم كسرت العين وإنما غيرت حركتهما ؛ لأن الحركة قد تقلب إذا غير الاسم ، إلا تراهم قالوا بِصْرِىَ وقالوا أَمَوِىَ بفتح الهمزة ، وقالوا أخت وأصله الفتح وقالوا دُهرِىٍ فكذلك غَيَّروا حركة (فيعل) .

هذا ، وقد جاء فى بعض هذا المعتل (فيعَل) – بفتح العين – كما فى قول الشاعر :

مَا بَالُ عَيْنِى كَالشعِيبِ العَيَّن .[1]

بفتح الياء فى كلمة (عيَّن).[2]

ويضعفه أنه لو جاز أن يعتد بقولهم عَيَّن – بفتح العين – مع شذوذه وندوره لجاز أن يعتد بما حكى الأصمعى قال : حدثنى بعض أصحابنا قال : سمعتهم يقولون جاءت الصَّيَقِل – بكسر القاف – وإذا امرأة كأن وجهها سيف فلما رأتنا أرخت البرقع فقلت يرحمك الله إنا سَفر وفينا أجر فلو منحتنا من وجهك فانصاعت فتضاحكت وهى تقول :

وكنتَ مَتَى أرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائداً

يقَلْبِكَ يَوْماً أَتْعبتْكَ المَنَاظِرُ

---

[1] هذا رجز لرؤية بن العجاج فى ديوانه ص ١٦٠ .
- (الشعيب) المزادة أو القربة ، العين : البالية .
- شبه عينه لسيلان دمعها بالقربة البالية فى سيلان مائها من بين خرزها لقدمها .
- الشاهد فى قوله (العين) حيث جاء المعتل من وزن فيعل مفتوح العين ولم يسمع إلا فى هذه الكلمة من المعتل .
- ينظر هذا الرجز فى الكتاب ٣٦٦/٤ ، الخصائص ٤٨٥/٢ ، المنصف ١٦/٢ ، الإنصاف ٨٠١/٢ ، شرح الشافية ١٥٠/١ ، ١٧٦/٢ ، ولسان العرب مادة (عين) ، وشرح شواهد الشافية ص ٦١ .

[2] ينظر الكتاب ٣٦٥/٤ ، الإنصاف ٨٠١/٢، ٨٠٢ ، التصريح ٧١٩/٢ .

رَأَيْتَ الذى لاَ كُلُّه أَنْتَ قَادرُ

عَلَيْهِ ، وَلا عَن بَعْضهِ أَنْتَ صَابِرُ (١)

فصيقِل – بكسر العين – فى لشذوذه فى الصحيح بمنزلة عين فى المعتل وكما لا يعتد به فى الصيقل لشذوذ فكذلك فى عين .(٢)

المذهب الثانى :–

أن (سيِّد ، وميِّت) نحوهما على وزن فيعِل – بكسر العين – وقد نسب هذا المذهب إلى البصريين الأنبارى (٣) وجمال الدين بن منظـــور (٤) وأبـــو حيان (٥) ، ونسبة الشيخ خالد الزهرى إلى المحققين مـــن أهـــل البصرة (٦).

وقد ذكر سيبوية أنه مذهب الخليل حيث قال : " وكان الخليـــل يقـــول : (سيد فيعل) وإن لم يكن فيعل فى غير المعتل ؛ لأنهم قد يخصمون المعتل بالبناء لا يخصمون بع غيره المعتل ألا تراهم قالوا كيْنونة والقيْدودة (٧) ... وليس فى

(١) ينظر عيون الأخبار لابن قتيبه ٢٢/٤ ، والإنصاف ٨٠٣/٢ ، ٨٠٤ .

(٢) ينظر الإنصاف ٨٠٣/٢ ، ٨٠٤ .

(٣) ينظر الإنصاف ٧٩٦/٢.

(٤) ينظر لسان العرب مادة (سود)

(٥) ينظر البحر المحيط ٨٣/١ .

(٦) ينظر التصريح ١٩/٢ .

(٧) الأصل (كيْنونة والقيْدودة) والذى يدل على ذلك أن الشاعر يرده إلى الأصل فـــى حالـــة الاضطرار قال الشاعر :

قد فارقت قرينها القرينة وشخطت عن دارها الظعينة

ياليتنا قد ضمنا سـفينة حتى يعود الوصل كينونـــة

إلا أنهم خففوه كما خففوا ريحان ،وأصله ريحان - بالتشديد علـــى فيعـــلان وأصـــل ريحان " ريوحان " فلما اجتمعت الواو إلا أن التخفيف والياء والسابق منها ساكن قلبوا الـــواو ياء وجعلوها ياء مشدودة ، وكما خففوا سيد وهين وميت إلا أن التخفيف فى نحو سيد وميـــت جائز والتخفيف فى نحو كيْنونة والقيْدودة واجب ، وذلك لأن نهاية الاسم بالزيـــادة أن يكـــون على سبعة أحرف وهو مع الياء على سبعة أحرف ، فخففوه كما خففـــوا اشـــهيبات ، فقـــالوا الشهباب ، الإنصاف ٧٩٧/٢ ، ٧٩٨ .

غير المعتل ، فيعلُولُ مصدراً وقالوا فجاءوا به على فُعَله فى الجمع ولا يكـون فى غير المعتل للجمع ، ولو أرادوا فيعل لتركوه مفتوحاً كما قالوا (تَيَّحـــان ، هَيَّبان [1]) . [2]

وممن ذهب إلى هذا أيضا المبرد حيث يقول : " هذا باب ما كانت عينـه إحدى هذه الأحرف اللينة ولقيها حرف لين وذلك نحو : سيِّد وميِّــت ، هيِّـن ، ليِّن ؛ لأن هذا البناء إنما هو (فيعِل) من ياء أو واو فأمـا ذوات الـواو منـه فهين ، ميت ، سيد ، لأنه من ساد يسود ، مات يموت ، وأما لين فمـن اليـاء والحكم فيها واحد فى بنائهما على باب (فيعِل) ؛ لأنهما مشتركان فـى العلـة فخرجا إلى باب واحد " [3] .

واحتج أصحاب هذا المذهب بأمرين :

أحدهما :

أن (سيِّد) ونحوه وزنه فيعِل ؛ لأن الظاهر من بنائه هذا الوزن والتمسك بالظاهر واجب مهما أمكن .

الثانى :-

أن هذا الصحيح إن لم يكن له نظير فى الصحيح [4] فإن المعتل قد يـأتى فيه ما لا يأتى فى الصحيح ؛ لأنه نوع على انفراده فقد يختص بأبنيـة ليسـت

---

(1) النيحان هو الذى يعترض فى كل شىء الهيبان الذى يهاب كل شىء .

(2) الكتاب ٣٦٥/٤ .

(3) المقتضب ٢٦٢/١ .

(4)ويرى أبو حيان أن ما جاء على فيعل بكسر العين من الصحيح كقولهم صيقل بكسر القاف.
- علم لأمراه من قبيل الشاذ ، ينظر البحر المحيـط ٨٣/١ ، وذكـر الشـهاب ٦٠٧/١ (أن صيقَل بفتح القاف على وزن فيعَل - وفى لسان العرب مادة (صقل) الصيقل بفتح القـاف هو شحاذ السيوف وجلاؤها .

للصحيح فمنها فُعَلَه فى جمع فاعل نحو قاض وقُضاة ، ومنها فيعَلُولة نحو كيْنونة وقَيدودة وإذا جاز أن يختص المعتل بأبنية ليست للصحيح كان حمل سيِّد وهيِّن وميِّت على الظاهر أولى من العدول عنه إلى غيره (1).وهذا المذهب هو الراجح عند سيبوية ؛ لأن وزن فيعَل مختص بالمعتل وأما تَيَّحان وهيَّبان والعَيَّن فى البيت السابق من قبيل الشاذ الذى لا يطرد .(2)

وذكر الشهاب أن هذا المذهب هو الصحيح عند اللغويين .(3)

المذهب الثالث :-

أن (سيد ، ميت) ونحوهما على وزن (فَعْيِل) بسكون العين وكسر الياء والأصل (سَوْيِد – مَوْيِت) فقدمت الياء الساكنة الزائدة على الواو فصارت (سيود ، ميوت) فقلبت الواو ياءاً ؛ لأنهما اجتمعا فى كلمة وكان الأول منهما متأصلاً فى الذات والسكون ثم أدغمت الياء فى الياء .

وقد نسب هذا المذهب إلى الكوفيين الأنبارى (4) ، وأبو حيان (5) ورد هذا المذهب بأن هذا التقديم والتأخير لا نظير له فى الصحيح ؛ لأن ياء فعيل لا تتقدم على عينة فى شىء من الصحيح ، وإذا جاز أن يختص المعتل من التقديم والتأخير بما لا يوجد مثله فى الصحيح جاز أن يختص ببناء لا يوجد مثله فى الصحيح (6).

---

(1) ينظر الإنصاف ٧٩٦/٢ ، البحر المحيط ٢٨٣/١ ، التصريح ٧١٩/٢ .

(2) الكتاب ٣٦٦/٤ .

(3) ينظر حاشية الشهاب ٦٠٧/١ .

(4) ينظر الإنصاف ٧٩٥/٢.

(5) ينظر البحر المحيط ٨٣/١.

(6) ينظر الإنصاف ٨٠٢/٢ .

ويرى الشهاب الخفاجى أن القول بأن أصل سيد فعيل فحدث فيه قلب مكانى تكلف ([1]) وذهب بعض الكوفيين إلى أن (سيِّد ، ميِّت) اصلهما (سويد ، مويت) إلا أنهم لما أرادوا أن يُعِلّوا الواو كما أعلوها فى (ساد ومات) قلبوها ألفاً فحذفت لالتقائها ساكنه الياء فيؤدى هذا إلى التباس وزن فعيل بفَعْل فزادوا ياء على الياء ليكمل بناء الحرف ويقع الفرق بها بين فعيل وفَعْل.([2])

وهذا أيضا مردود بأنه لو جاز ما ذكر لكان ينبغى أن لا يجوز فيه التخفيف فلا يقال (سَيْد ، مَيْت) ؛ لأنه يؤدى إلى الالتباس المذكورة ولكن لما جاز ذلك – أعنى التخفيف فى (سَيْد ، مَيْت) بالإجماع دل على فساد هذا القول .([3])

هذا ، واستنتاجا مما سبق يتبين أن الراجح من هذه المذاهب هو المذهب البصريين لقوة حجتهم وسلامة من الرد عليه وتضعيفه بخلاف المذهبين الآخرين ؛ وذلك أن العرب قد خصت معتل العين المزيد فيه بعد الفاء بالمجيء على زنة فيعل بكسر العين كسيد وميت وهين وخصت صحيح العين بالمجيء على وزن (فَيْعَل) بفتح العين نحو صيرَف وجيدَر هذا هو الأصل الذى خصوا به الصحيح مثل كلمة (العيَن) وربما جاءوا بكلمة من الصحيح على الوزن الذى خصوا به المعتل مثل كلمة الصيقل التى حكاها الأصمعى وهذا وذاك شاذان .([4])

([1]) ينظر حاشية الشهاب ٦٠٧/١ .

([2]) ينظر الإنصاف .٧٩٦/٢ .

([3]) ينظر الإنصاف ٦٠١/٢ ، ٨٠٢ .

([4]) ينظر الانتصاف من الإنصاف ٨٠٤/٢ .

المسألة الرابعة

حكم فاء الافتعال المبدل من همزة

إذا كانت فاء الافتعال واواً أو ياءاً وجب فى اللغة الفصحى إبدالها تاء فيه ([1]) وفى فروعه إبدالا قياسيا ، ومثال ذلك أن يبنى من الوصل على هذه الصيغة وفروعها فيقال اتِّصال واتَّصَل واتَّصِلْ ويتَّصِل ومُتَّصِل ومُتَّصَل به والأصل اوتصال واو تصل موتصل وموتصل به أو يبنى من اليسر أيضا على هذه الصيغة وفروعها فيقال اتِّيسار واتَّسرَ ويتَّسر و اتَّسِرْ ومتَّسرْالأصل ايتسار وايتسَرَ ويتسر وايتسِرْ ومُيْتسِر . ([2])

ومقابل اللغة الفصحى السابقة لغة بعض الحجازيين حيث يبدلون حروف اللين من جنس حركة ما قبله فيقلون : يا تعد مُوتعد ايتعاداً .([3]) وما سبق من قلب الواو والياء تاءً إذا وقعت إحداهما فاءًللأفتعال وما تصرف منه مشروط بكونهما أصليتين غير مبدلتين من حرف آخر فإن كانتا مبدلتين من همزة كما فى (أوتمن) من الأمانة (وايتزر) من الإزار ، فلا يجوز قلب إحداهما ياءً ، وقولهم فيما سبق (اتُّمِن) ، (واتَّزر) بإبدال الواو والياء تاءً وإدغامها فى تاء الافتعال شاذ ([4]) .

([1]) إنما ابدلت الواو فى ذلك تاء ؛ لأنها لو لم تقلب لتلاعبت بها حركات ما قبلها ، فيلزم قلبها ياء بعد الكسر فى نحو : ايتصل ، وقلبها ألفا بعد الفتح نحو : ياتصل وذلك على لغة من يقول فى يوجل : ياجل فلما رأو مصيرها إلى تغيرها لتغير أحوال ما قبلها أبدلوا منها حرفا جلداً قوياً يلزم وجهاً واحداً وهو التاء – وهو اقرب الزوائد من الفم الى الواو ليوافق ما بعده لفظا فيدغم فيه ويقع النطق بهما دفعه واحده (ينظر شرح المفصل لابن يعيش ٣/١٠ ، شرح الأشمونى ٣٢٩/٤ ، ٣٣٠ .

([2]) ينظر الكتاب ٣٣٤/٤ ، شرح الألفية لابن الناظم ص ٨٦٥ ، التصريح ٧٣٦/٢ ، شرح الأشمونى والصبان ٣٢٩/٤ .

([3]) ينظر الكتاب ٣٣٤/٤ ، التصريح ٧٣٧/٢ ، شرح الأشمونى ٤/ ٣٣٠ .

([4]) ينظر التصريح ٧٣٧/٢ ، شرح الأشمونى ٣٣٠/٤.

وجعل ابن مالك ذلك الإبدال قليلاً فقال : " تُبدل فى اللغة الفصحى التـــاء من فاء الافتعال وفروعه إن كانت واواً أو ياءً غير مبدلة من همزة وقد تبـــدل وهى بدل منها " . (١)

وأما البغداديون فإنهم يبدلون الواو والياء المبدلتين من الهمزة تـــاءً فـــى الافتعال ، وحكوا من ذلك ألفاظاً وهى : " اتَّزَرَ ، واتَّمَنَ ، واتَّهَلَ ، واتَّكَلَ " من " الإزار والأمانة والأهل والأكل " .

ذكر هذا المذهب الشيخ خالد الأزهرى (٢) وجعل منه قولـــه ﷺ : " وإنْ كَان قَصيراً فَلْيَتَّزر به " (٣) .

ووافق الجوهرى (٤) وجمال الدين بن منظور (٥) البغداديين حيث نصـــا على أن الاتخاذ افتعال من الأخذ إلا أنه أدغم بعد تليين الهمزة وإبدال الياء تـــاء ثم لما كثر استعماله على لفظ الافتعال توهموا أن التاء أصلية فبنوا منـــه فَعِـلَ يَفْعَل وقالوا تخِذَ يتخذُ ، وقرئ (٦) ﴿ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ (٧) .

وقد غلَّط الشيخ خالد الأزهرى والأشمونى الجوهرى فى هذا حيث نصـــا على : " أن قول الجوهرى فى اتخذ إنه افتعل من الأخذ وهم " (٨) .

---

(١) تسهيل الفوائد ص ٣١٢ .

(٢) ينظر التصريح ٧٣٨/٢ .

(٣) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ ١٤١/١ . كتاب النداء للصلاة .

(٤) ينظر الصحاح مادة (اخذ) .

(٥) ينظر لسان العرب مادة (أخذ) .

(٦) القراءة المذكورة لابن كثير وأبى عمرو ويعقوب وابن محيصن واليزيدى والحســن بتــاء مفتوحة مخففة وخاء مكسورة بلا ألــف وصــل (ينظــر الكشــف ٧٠١ ، والاتحــاف ٢٢٣/٢).

(٧) سورة الكهف (٧٧) .

(٨) ينظر التصريح ٧٣٨/٢ ، الأشمونى ٣٣٠/٤ .

قال الشيخ ياسين : " فإن الإقدام على تغليط الجوهرى ليس بالهين فيجوز أن يكون ذلك مذهباً له كما ذهب البغداديون إلى ذلك فى اتَّزر واتَّمن واتَّهل واتَّكل كما حكاه الشارح عنهم ، ولا يقال : الجوهرى ليس من أرباب المذاهب ؛ لأنا لا نسلم بذلك مع أن الظاهر يساعده (1) .

ويرى بهاء الدين بن النحاس : " أن اتخذ مما أبدل فيه الواو تاء ؛ لأن فيه لغة يقال وخذ بالواو فجاء على هذه اللغة " (2) .

وعلى هذا تكون الواو الواقعة فاءاً للافتعال ليست مبدلة من همزة بل هى أصلية .

---

(1) حاشية الشيخ ياسين ٢/٣٩٥ .

(2) ينظر التعليقة لابن النحاس على المقرب ٢/٧٩١ .

المبحث الثانى

موافقة البغداديين للبصريين

المسألة الأولى

حقيقة اللام الواقعة بعد [إن] ([1]) المخففة

تمهيد : فى حكم مجئ اللام بعد " إن " المخففة .

لمجئ اللام بعد " إن " المخففة ثلاث حالات :-

الحال الأولى :

وجوب مجيء اللام بعد " إن " المخففة ، وذلك إذا أهملت نحو قولك : إنْ زيدَ لمنطلقٌ إذا لم يكن فى الكلام قرينة لفظية ولا معنوية تدل على كون " إن " هى المخففة من الثقيلة .

الحال الثانية :

جواز مجيء اللام وتركها بعد (إنْ) المخففة ، وذلك إذا أعْمِلَت (إن) فنصبت بها نحو قولك : إن زيداً لمنطلق ، ويجوز ترك اللام فتقول : إن زيداً منطلقٌ ؛ لأن الفرق بين (إن) المخففة والنافية يحصل بالعمل ([2]).

الحال الثالثة :

امتناع مجيء اللام بعد " إن المخففة وذلك إذا قامت قرينة لفظية أو معنوية على أن المراد (إن) المخففة لا النافية :

(أ) فاللفظية بأن يكون الخبر منفياً نحو : إن زيدٌ لن يقوم ، أو لم يقم أو لما يقم أو ليس قائماً .

([1]) تخفف (إن) المكسورة فيبطل اختصاصها بالجملة الإسمية ، فتدخل على الأفعال الناسخة التى تدخل على ما كان أصله المبتدأ والخبر وإذا دخلت " إن " المخففة على الجملة الإسمية فيكثر الإهمال ويقل الإعمال ، ينظر الكتاب ١٠٤/٢ ، ١٤٠/٢ ، ينظر شرح الجمل لابن عصفور ٤٣٨/١ .

([2]) ينظر المقتضب ٣٦٠/٢ ، شرح المفصل لابن يعيش ٧١/٨ ، ٧٢ ، التصريح ٣٢٩/١ .

(ب) والمعنوية بأن يكون الكلام سبق للإثبات والمدح كقوله :-

أنا ابنُ أُبَاةِ الضَّيمِ من آل مالكٍ

وإن مالكٌ كانت كرامَ المعادنِ (١)

إذا لو كانت " إن " نافية لكان هجواً وذماً ، فلو حمل الكلام على ذلك لتناقض واضطراب ، والشاعر إنما يمدح قومه ويفتخر بهم (٢) .

حقيقة هذه اللام :-

اختلف النحويون فى اللام الواقعة بعد (إنْ) المخففة على ثلاثة مذاهب ، نفصلها فيما يلى :-

المذهب الأول :

أن هذه اللام هى لم الابتداء أفادت – مع إفادتها توكيد النسبة وتخليص المضارع للحال – الفرق بين (إن) المخففة من الثقيلة وإن النافية ، ولهذا صارت لازمة بعد أن كانت جائزة ، اللهم إلا أن يدل دليل على قصد الإثبات كقراءة :﴿ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لِمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٣) بكسر اللام وتخفيف

---

(١) البيت للطرماح – الحكم بن حكيم – وكنيته أبو نضر ، وهو شاعر طائى ، وهو من البحر الطويل .

- اللغة : (إنا ابن أباة الضيم) يروى مكانه : (ونحن أباة الضيم) ، و(أباة) جمع آب اسم فاعل من أبى يأبى أى ممتنع و (الضيم) ، و (مالك) اسم قبيلة الشاعر ، و (كرام المعادن) طيبة الأصول .

- الشاهد فى قوله : (وإن مالك كانت .. إلخ) حيث لم يأت باللام الفارقة فى خبر (إن) المخففة اعتمادا على المعنى بقرينة أن الكلام فى مقام المدح والافتخار .

- (ينظر البيت فى أوضح المسالك رقم ١٤٦ ، شرح ابن عقيل ٣٧٥/١ ، العينى ٢٤٦/١ ، ٢٤٧ ، والتصريح ٢٣١/١ ، والهمع ١٤١/١ ، والدرر اللوامع ١١٨/١ ، ١١٩) .

(٢) ينظر التصريح على التوضيح ٢٣١/١ ، الهمع ١٤١/١ .

(٣) سورة الزخرف ٣٥ .

الميم [1] أى للذى ، وكقوله :

إن كُنْتُ قاضِيَ نَحبي يَومَ بينكُمْ

لَوْ لَمْ تَمنُّوا بوعدِ غَيْرِ تَوْديعِ [2]

إلى هذا ذهب أكثر البغدادين نص على ذلك الشيخ خالد الأزهرى [3] والسيوطى [4] .

وممن نص على هذا أبو على الفارسى حيث قال : " ظننت أن فلاناً نحوىُ محسن ، حتى سمعته يقول : إن اللام التى تصحب إن الخفيفة هى لامُ الابتداء ، فقلت له : أكثر نحوى بغداد على هذا " . [5]

وممن ذهب إلى هذا أيضاً سيبويه حيث يرى أنه يلزم مجيء اللام بعد (إن) المخففة فرقاً بينها وبين النافية وتعويضاً عما حذف منها نص على ذلك فى كتابه حيث قال : " واعلم أنهم يقولون إن زيد لذاهب وإن عمرو لخير منك ، لما خففها جعلها بمنزلة (لكن) حين خففها ، وألزمها اللام لئلا تلتبس بإن التى هى بمنزلة (ما) التى تنفى بها " [6] .

وقال فى موضع آخر : " و (إن) توكيد لقوله : زيد منطلق وإذا خففت

---

[1] القراءة المذكورة لأبى رجاء ينظر المحتسب ٢/٢٥٥ .

[2] البيت : من البحر البسيط ، ولم أقف له على نسبة .

- والشاهد فيه : ترك اللام الفارقة بين (إن) المخففة من الثقيلة ، و " إن " النافية ، لوجود دليل على " أن " التى فى صدر البيت هى " إن " النافية ، وهو قوله : (لو لم تمنوا) .

- ينظر البيت فى المغنى ١/٢٣٢ ، شرح شواهده ٢/٦٠٤ .

[3] ينظر التصريح على التوضيح ١/٢٢٩ .

[4] ينظر الهمع ١/١٤١ .

[5] ينظر مغنى اللبيب ١/٢٣٢ .

[6] الكتاب ٢/١٣٩ .

فهى كذلك تؤكد ما يتكلم به وليثبت الكلام ، غير أن لام التوكيد تلزمها عوضاً مما ذهب منها " [1] .

وكذا الأخفش الأوسط حيث نص فى (كتاب المسائل الكبير) على أن اللام الواقعة بعد المخففة هى الواقعة بعد المشددة ، ذكر ذلك ابن مالك وهو الصحيح عنده [2] .

ومن ذهب إلى هذا أيضاً الأخفش الأصغر ذكر ذلك ابن عقيل [3] والشيخ خالد الأزهرى [4] والسيوطى [5] كما ذكر ابن عقيل [6] والسيوطى [7] أنه مذهب ابن الأخضر أيضاً .

ومما يؤكد كون اللام الواقعة بعد إن المخففة هى لام الابتداء المفيدة للتوكيد ، اجتلبت للفرق بينها وبين إن النافية أنها تدخل فى خبر إن المخففة مع الإعمال نحو : إن زيداً لقائم وإن لم يكن ثَّم لَبْسُ [8] .

المذهب الثانى :

أن اللام الواقعة بعد (إن) المخففة لام اجتلبت للفرق بينها وبين (إن) النافية وهى غير لام الابتداء ، وممن ذهب إلى هذا أبو القاسم الزجاجى حيث ذكر فى كتابه (حروف المعانى) ، أن اللام فى نحو قولك : إن زيدُ لقائم ،

---

(1) الكتاب ٢٣٣/٤ .

(2) ينظر شرح تسهيل الفوائد ٣٦/٢ .

(3) ينظر شرح ابن عقيل ٣٨٠/١ .

(4) ينظر التصريح ٣٢٩/١ .

(5) ينظر الهمع ١٤٢/١ .

(6) ينظر شرح ابن عقيل ٣٨١/١ .

(7) ينظر الهمع ١٤٢/١ .

(8) شرح المفصل لابن يعيش ٧٢/٨ .

هى الفارقة بين الإيجاب والنفى ، وفرق بينها وبين لامى الابتداء والتأكيد بأنـها تدخل على الماضى نحو قولك : إن زيد لقام بخلافهما وأنها تدخل على المفعول به نحو قوله : ﴿ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ [1] بخلافهما [2] .

وكذا أبو على الفارسى فى معرض حديثه عن لام الابتداء حيث قـال : " فأما اللام التى تصحبها مخففة فهى لأن تفرق بينها وبين (إن) التى تجىء نافية بمعنى (ما) كالتى فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ [3] وليست هذه اللام بالتى تدخل على خبر (إنَّ) المشددة التى هـى للابتـداء ، لأن تلك كان حكمها أن تدخل على (إن) فأخرت إلى الخبر لئلا يجتمع تأكيدان إذ كان الخبر هو المبتدأ فى المعنى أو هو واقع موقعه ، وراجع إليـه ، فـهذه اللام لا تدخل إلا على المبتدأ أو على خبر (إنَّ) إذ كان إيـاه فـى المعنـى أو متعلقا به ، ولا [على شىء] من الفعل إلا على ما كان مضارعا واقعـا فـى خبر (إنَّ) وكان فعلاً للحال .

فإذا لم تدخل إلا على ما ذكرنا لم يجز أن تكون هذه اللام التى تصحـب (إنْ) الخفيفة إياها ، إذ لا يجوز دخول لام الابتداء على الفعل الماضى ، وقـد وقع بعد (إن) هذه الفعل نحو : ﴿ إِنْ كَـادَ لَيُضِلُّنَـا ﴾ .[4] ، ﴿ وَإِنْ وَجَدْنَـا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ .[5] وقد جاوزت الأفعال الواقعة بعد (إن) فعملـت فيمـا بعد اللام ، ومعلوم أم لام الابتداء التى تدخل فى خبر (إنَّ) الشديدة لا يعمـل الفعل الذى قبلها فيما بعدها ، وذلك قولُهُ : ﴿ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ .[6] وقول القائل :

---

[1] سورة الأعراف ١٠٢ .
[2] ينظر حروف المعانى للزجاجى ٤٣ .
[3] سورة الأحقاف ٢٦ .
[4] سورة الفرقان ٤٢ .
[5] سورة الأعراف ١٠٢ .
[6] سورة يونس ٢٩ .

هبلتك أمك إن قتلت لفارسا

حلت عليك عقوبة المتعمد (1)

ولما عمل الفعل فيما بعد هذه اللام ، علم من ذلك أنها ليست التى تدخل فى خبر (إن) الشديدة " .(2)

وذكر ابن جنى فى المحتسب أنه إذا خففت (إن) وأبطل عملها لزمتها اللام فى آخر الكلام للفرق بينها وبين إن النافية بمعنى ما وذلك قولك (إن) زيد لقائم (3) ، وممن ذهب إلى هذا أيضا ابن أبى العافية ، ذكر ذلك ابن عقيل (4) والسيوطى . (5)

واستدل لهذا المذهب بما يلى : -

١- أن لام الابتداء منوية بالتأخير من تقديم ،واللام الفارقة بخلافها ؛ إذ لا تدخل فى الجملة الفعلية .

٢- أن اللام الفارقة يعمل ما قبلها فيما بعدها بخلاف لام الابتداء ، فلا يقال : إنك قتلت لمسلما .

---

(1) هذا البيت من البحر الكامل .

- من قصيدة لعاتكة بنت زيد بنت عم عمر بن الخطاب ترثى بها الزبير بن العوام ، والخطاب لعمرو بن جرموز قاتل الزبير ، ونسب فى العقد الفريد لأسماء بنت أبى بكر ٢٧٧/٣ .

- ويروى (تالله ربك) مكان (هبلتك أمك) ويروى مكان أيضا (شلت يمينك) و (وجبت) بمعنى حقت مكان (حلت) .

- ينظر هذا البيت فى البغداديات ص ١٧٨ ، سر صناعة الإعراب ٥٤٨/٢ ، المحتسب ٢٥٥/٢ شرح المفصل ٢٧١/٨ ، شرح شواهد المغنى ٧١/١ ، خزانة الأدب ٣٧٣/١٠ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ .

(2) ينظر المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات ص ١٧٦،١٧٧ ، ١٧٨ .

(3) ينظر المحتسب ٢٥٥/٢ .

(4) ينظر شرح ابن عقيل ٣٨٠/١،٣٨١ .

(5) ينظر الهمع ١٤٢/١ .

٣- أنها تدخل على غير المبتدأ والخبر ومعمولة من الفاعل والمفعول كقوله تعالى :﴿ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ .[١]

وَرُدَّ ما استدل به هؤلاء بأن ذلك كله إنما جاز تبعا وتسمحا على خلاف الأصل لضرورة الفرق فإنها تبيح أكثر من ذلك .[٢] ورد ابن مالك أيضا ما استدل به أصحاب المذهب الثانى بأن يقال : إنما جاز أن يكون مصحوب ما بعد المخففة معمولا لما قبلها من الأفعال ؛ لأن الفعل بعد المخففة فى موضع الخبر الذى كان يلى المشددة فكان لما بعده ما كان لما بعد تاليها ؛ لأن من قال : " إن قتلت لمسلماً " بمنزلة من قال : " إن قتيلك لمسلم " أو يقال لما بطل عمل (إن) بالتخفيف وقصد بقاؤها توكيدا على وجه لا لبس فيه استحقت ما يميزها من النافية فكان الأولى بذلك اللام التى كانت تصحب حال التشديد ، فسلك بها مع التخفيف ما كان لها مع التشديد ، من التأخير فى اللفظ ، والتقدم فى النية بها التقديم ، وبما تقدم عليها التأخير .[٣]

ثمرة الخلاف :

تظهر ثمرة الخلاف بين المذهبين عند دخول (علمت) وأخواتها فإن كانت اللام للفرق لم تعلق فعل العلم وإن كانت للابتداء علقته ومن ثم وقع الخلاف فى مسألة جرت بين الأخفش الأصغر والفارسى ثم ابن الخضر وابن أبى العافية وهى قوله ﷺ : " قدْ علِمنَا إنْ كنْتَ لَموْمِناً " .[٤]

---

(١) سورة الأعراف ١٠٢ .

(٢) ينظر البغداديات لأبى على الفرسى ص ١٧٧، ١٧٨، التصريح ١/٣٢٩ ، الهمع ١/١٤٢.

(٣) ينظر شرح التسهيل لابن مالك ٢/٣٦ .

(٤) هذا جزء من حديث نبوى شريف وقد أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الوضوء. باب من لم يتوضأ إلا من المغشى المثقل ، كما أخرجه مالك فى موطنه . كتاب النداء للصلاة . باب ما جاء فى صلاة الكسوف .

فقال الأخفش وابن الأخضر لا يجوز فى (إن) إلا الكسر بناء على أن اللام للابتداء فعلقت فعل العلم عن العمل وقال أبو على الفارسى وابن أبى العافية لا يجوز فى (إن) إلا الفتح بناء على أن اللام الفارقة غير لام الابتداء . ([1])

وظاهر هذا القول دخول اللام الفارقة على خبر أن المفتوحة المخففة مع أنها لا تلتبس (بإن) النافية حتى يحتاج للفرق ، وقد يقال إنها دخلت بعد إن المكسورة للفرق فلما دخل الفعل فتحت الهمزة وأبقيت اللام ، فالكسر وقصد الفرق سابقان على دخول الطالب لفتح الهمزة أو يقال لام الفرق قد تدخل مع الاحتياج إلى الفرق كما تدخل بعد المكسورة عند قيام القرينة والاستغناء عن اللام ([2]) .

المذهب الثالث :

أن (إن) المخففة إذا دخلت على الجملة الاسمية كانت اللام للابتداء نحو : إن زيد لقائم ن وإن دخلت على الجملة الفعلية كانت اللام للفرق نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ .([3]) ذكر هذا المذهب السيوطى ونسبه إلى بعض النحويين . ([4])

([1]) ينظر ارتشاف الضرب لأبى حيان ١٤٩/٢ .شرح ابن عقيل ٣٨٠/١ ، الهمع ١٤٢/١ ، شرح الأشمونى ٢٨٨/١ .

([2]) ينظر حاشية الصبان ٢٨٨/١ ، ٢٨٩ .

([3]) سورة الأعراف ١٠٢ .

([4]) ينظر الهمع ١٤٢/١ .

المسألة الثانية

حكم وقوع الحال معرفة

ورد عن العرب أمثلة غير قليلة وقعت المعرفة فيها حالا ومن ثم اختلفت آراء النحويين فى حكم وقوع الحال معرفة ما بين الإجازة المطلقة والإجازة المشترطة والمنع مع التأويل لما ورد على **التفصيل التالى** :-

المذهب الأول :

أنه يجوز أن تقع الحال معرفة مطلقا بلا تأويل فتقول : جاء زيد الراكبَ ، قياساً على الخبر وعلى ما سمع من ذلك كقولهم : جاءوا الجَمَّاء الغفير .

فأَرْسَلَهَا الْعِرَاكَ . (1)

اجتهد وحدك ، كلمته فاه إلى فىَّ (2) .

وقد نسب هذا المذهب إلى يونس والبغداديين الشيخ خالد الأزهرى (3)وقد سبقه إلى هذا ابن عقيل (4) وأبو حيان (5) وتبعهم السيوطى(6) والأشمونى.(7)

---

(1) هذا جزء من صدر بيت من البحر الوافر للبيد فى ديوانه ص ٨٦ وتمامه :

وَلَمْ يَذُدْهَا ولم يشفق على نَغَصِ الدِّخَالِ

- أرسلها " أى خلاها وأطبقها " العراك " ازدحام الإبل أو غيرها حين ورود الماء " يذدها " يطردها " يشفق " يرحم " نغص " مصدر نغص الرجل إذا لم يتم مراده ونغص البعير إذا لم يتم شربه " الدخال " إن يداخل الرجل بعيره الذى شرب مرة مع الابل التى لم تشرب حتى يشرب معها وذلك إذا كان البعير كرعا أو شديد العطش ، أو ضعيفاً .
- الشاهد فى قوله : " أرسلها العراك " حيث وقعت الحال معرفة " العراك " .
- ينظر البيت فى الكتاب ٣٢٧/١ ، أساس البلاغة مادة (نغص) ، شرح المفصل ٦٢/٢ ، لسان العرب ٩٩/٧ (نغص) .

(2) ينظر شرح ابن عقيل ٢٤٨/٢ ، ٢٤٩ ، الهمع ٢٤٩/١ ، شرح الأشمونى ١٧١/٢،١٧٢.

(3) ينظر التصريح ٥٨٠/١ .

(4) ينظر شرح ابن عقيل ٢٥٠/٢ .

(5) ينظر ارتشاف الضرب ٣٣٧/٢ .

(6) الهمع ٢٣٩/١ .

(7) شرح الأشمونى ١٧٢/٢ .

وأمـــا ابـــن عصفـــور فقد نسب هذا المذهب إلى يونـــس بـــن حبيـــب فقط.[1]

فـــ(الجمَّاء ، العراك) حالان معرفتان بـــ(ال) و (فـــاه ، وحـــدك) حالان معرفتان بإضافتهما إلى المعرفة وهو ضمير الغائب فى الأول وضمـــير المخاطب فى الثانى .

المذهب الثانى :

أنه يجب تنكير الحال فلا يجوز تعريفها ، وما ورد منها معرفـــا لفظـــا فهو منكر معنى فقولهم : (جاءوا الجماء الغفير) تقديره (جـــاءوا جميعـــا) وقولهم : (وأرسلها العراك) تقديره (أرسلها معتركة) ، وقولهم : (اجتـــهد وحدك) تقديره (اجتهد منفردا) وقولهم : (كلمته فـــاه إلـــى فـــى) تقديـــره (كلمته مشافهة) .[2] وقد نسب هذا المذهب إلى جمهور النحويين كل من ابـــن عقيل [3] وأبى حيان [4] والسيوطى[5] .

وممن ذهب إلى هذا أيضاً سيبويه حيث قال : " ولا يجوز للمعرفـــة أن تكون حالاً كما تكون النكرة ، فتلتبس بالنكرة ، ولو جاز ذلك لقلت : هذا أخوك عبد الله ، إذا كان عبد الله يعرف به ، وهذا كلام خبيث يوضع غير موضعه .. فالنكرة تكون حالاً وليست تكون شيئا بعينه قد عرفه المخاطب قبل ذلك . [6]

---

(1) ينظر شرح الجمل لابن عصفور ٣٣٧/١ .

(2) ينظر شرح ابن عقيل ١٤٩،٢٤٨/٢ ، شرح الشمونى ١٧١/٢ ، ١٧٢ .

(3) ينظر شرح ابن عقيل ٢٤٨/٢ .

(4) ينظر ارتشاف الضرب ٣٣٧/٢.

(5) ينظر الهمع ٢٣٩/١.

(6) الكتاب ١١٤/٢.

وقد علل ابن يعيش مجئ الحال نكرة بأنها في المعنى خبر ثان ، فقولك : جاء زيد راكباً تضمن الإخبار بمجيء زيد وركوبه في حال مجيئه ، وأصل الخبر كونه نكرة ، وأنها تشبه التمييز في الباب فكانت نكرة مثله ، وأنها تقع في جواب كيف جاء ء ؟ وكيف سؤال عن نكرة . (1)

وكذا علله ابن مالك بأنه لما كان الغالب اشتقاقها وتعريف صاحبها ، لأنه مخبر عنه بها الزموها التنكير ، لئلا يتوهم كونهما نعتاً (2) ومنعوتا ، وأيضاً فإن الحال فضلة ملازمة للقصيلة ، فاستثقل واستحق التخفيف بلزوم التنكير وليس غير الحال من الفضلات ملازما للقصيلة لجواز صيرورته عمدة بقيامه مقام الفاعل كقولك : في ضربت زيداً : ضُرِبَ زيدٌ وفي اعتكفت يوم الجمعة : اعتُكف يومُ الجمعة وفي اعتكفت اعتكافاً مباركاً اعتُكِفَ اعتكافَ مباركٌ ، وفي قمت إجلالاً لك : قيم إجلالٌ لك فلصلاحية ما سوى الحال من الفضلات لصيرورته عمدة جاز تعريفه بخلاف الحال .(3)

المذهب الثالث :

أنه يجوز أن تأتي الحال على صورة المعرفة إذا تضمنت معنى الشرط وهو مع ذلك نكرة نحو : عبد الله المحسن أفضلُ منه المسيءَ ، عبد الله عندنا الغنيَّ فأما الفقير فلا ، وأنت زيداً أشهر منك عمراً ، فالأحوال في هذه الأمثلة وقعت معرفة ، لأنها تضمنت معنى الشرط ، إذ التقدير في الأول عبد الله إذا أحسن أفضلُ منه إذا أساء وفي الثاني عبد الله عندنا إذا استغنى فأما إذا افتقر

---

(1) شرح المفصل ٦٢/٢.

(2) أي ولو مقطوعا عند اختلاف الحركة فلا يقال هذا لايظهر إلا عند اتحاد حركتي الحال وصاحبها ، أو يقال حملت حالة الاختلاف في الحركة على حالة الاتفاق فيها طرداً للباب ينظر حاشية الصبان ١٧٢/٢.

(3) ينظر شرح التسهيل ٣٢٥/٢ ، ٣٢٦ .

فلا وفى الثالث وأنت إذا تسميت زيدا أشهر منك إذا تسميت عمراً وسمع : لـذو الرَّمَّةِ ذا الرمة أشهر منه غيلاناً على تقدير إذا سمى ذات الرمة أشهر منـــه **إذا** سمى غيلاناً.

وأجازوا أيضا انتصاب ضمير الغائب على الحال بالشرط المتقدم نحـــو: عبد الله إياه أشهر منه إياها ، ولا يجوز ذلك عندهـــم فـــى ضمـــير الخطـــاب والتكلم ، فلا يقال : زيد إياى أشهر منه إياك .

فإذا لم تتضمن المعرفة معنى الشرط لم يجز وقوعها حالاً عندهم ، فـــلا يقال : جاء زيد الراكب .(١)

وقد نسب هذا المذهب الى الكوفيين كل مـــن أبـــن عقيـــل (٢) وأبـــى حيان (٣) والشيخ خالد الأزهرى (٤) والسيوطى (٥) والأشـــمونى (٦) ويـــرى الجمهور أن انتصاب المحسن وشبهه على أن يكـــون خـــبراً لكـــان محذوفـــا وانتصاب (ذا الرمة) وشبهه بفعل التسمية المحذوف .(٧)

وهذا ، وقد اختلف النحويون فى إعراب الأمثلة السابقة :

- فذهب سيبويه فى (جاءوا الجمَّاء الغفير) أن الجمَّاء اسم موضوع موضـــع المصدر أى (مررت بالجموم الغفير) ، على معنى : مررت بـــهم جـــامين غافرين . (٨)

---

(١) ينظر ارتشاف الضرب ٣٣٧/٣، التصريح ٥٨٠/١، الهمع ٣٩/١، شرح الأشمونى ١٧٢/٢.
(٢) ينظر شرح ابن عقيل ٢٥٠/٢.
(٣) ينظر ارتشاف الضرب ٣٣٧/٢.
(٤) ينظر التصريح ٥٨٠/١.
(٥) ينظر الهمع ٢٣٩/١.
(٦) ينظر شرح الأشمونى ١٧٢/٢.
(٧) ارتشاف الضرب ٣٣٧/٢ ، الهمع ٢٣٩/٢.
(٨) ينظر الكتاب ٣٧٥/١ ، وشرح المفصل ٦٣/٢.

وهو مذهب أبى على الفارسى أيضا نص على ذلك بقوله :

" إذا قلت : (جاءنى القوم الجماء الغفير) ، نصبت (الجماء) ، لأنها أسم وقع موقع المصدر ، إذ دل على ما يدل عليه المصدر ، ألا ترى أنه يدل على ضرب من الكثرة والجماعة ؟ ، كذلك يدل قولك : (طراً) و(قاطبة) ، فلما دل هذا على حدث كما يدل المصدر صار بمثابته " ([1]).

- وذهب الى أن الجماء الغفير منتصب على المدح لا حال ([2]) .

- ومذهب الفارسى فى (أرسلها العراك) أن العراك ليس حالاً فى الحقيقة وإنما الحال هو العامل المضمر الناصب (للعراك) وهو فعل والتقدير (تعترك العراك) . ([3])

وذهب بعضهم الى أن العامل فى (العراك)ليس فعلاً مقدراً وإنما هو اسم مشتق من (العراك) فيكون التقدير أرسلها (معتركة العراك) وعلى هذين الوجهين يكون العراك منصوباً على المصدرية . ([4])

وذهب ابن طاهر وابن خروف الى أن (العراك) ليس معمولاً لعامل مضمر به هو واقع موقع اسم فاعل منتصب على الحال بنفسه مشتق من لفظه ومن معناه فيكون التقدير أرسلها معتركة . ([5])

وذهب الكوفيون الى أن العراك منصوب على أنه مفعول ثان لأرسلها ، لأنه مضمن معنى أوردها .([6])

([1]) المسائل المنثورة ص١٧.

([2]) ينظر الارتشاف ٣٣٨/٢.

([3]) ينظر الارتشاف ٣٣٨/٢.

([4]) ينظر الارتشاف ٣٣٨/٢.

([5]) ينظر الارتشاف ٣٣٨/٢.

([6]) ينظر الارتشاف ٣٣٨/٢.

- ومذهب الخليل وسيبوية فى لفظ(وحدك) ، فى نحو اجتهد وحدك و(وحـــده) فى نحو : جاء محمد وحده أنه اسم مصدر منصوب على الحـــال ، لأنـــه وضع موضع المشتق النكرة ، وكأنك حين قلت : جاء محمد وحـــده ، قـــد قلت : جاء محمد إيحاداً أى : إنفراداً وأنت تريد جاء محمـــد متوحـــداً أى منفرداً .[1]

- وذهب يونس وهشام والكوفيون أنه منصوب على الظرفية ، كأنك حين قلت جاء محمد وحده ، قد قلت : جاء محمد على حياله أو جاء محمـــد لامـــع غيره .

وهؤلاء قاسوا (وحده) على مقابلة وهو قولهم : جـــاء محمـــد وعلـــى معاً [2] وفى هذا يقول سيبويه : " وزعم يونس أن (وحده) بمنزلة عنـــده ... وجعل يونس نصب (وحده) كأنك قلت : مررت برجل على حيالـــه فطرحـــت (على) فمن ثم قال : هو مثل عنده" .[3]

وذهب أبو على الفارسى إلى أنه مفعول مطلـــق ، والعـــامل فيـــه اسـم مشتـــق مقدر وهو حال من ضمير الفاعل ، فإذا قلت : جاء محمـــد وحـــده ، فالتقدير : جاء محمد منفرداً وحده أو متوحداً وحده ، و(وحده)مصدر مضـــاف الى فاعله . [4]

وذهب قوم الى انه مصدر على حذف حروف الزيادة من (إيجاداً) واقـــع موقع الحال .

وذهب آخرون الى أنه مصدر لم يلفظ له بفعل كالأُخوَّة.

---

[1] ينظر الكتاب ٣٧٤/١ ، شرح المفصل ٦٣/٢، شرح الكافية للرضـــى ٢٠١/١ ، تفســير القرطبى ٥٧٠٨/٨.

[2] ينظر شرح الكافية للرضى ٢٠٣/١.

[3] الكتاب ٣٧٧/١، ٣٧٨.

[4] ينظر شرح الكافية للرضى ٢٠٣/١.

وقيل إنه مصدر بلا خلاف ، لأنه سمع وحد يحد . (1)

هذا ، ومع أن القياس يقتضى نصب كلمة(وحده) فقد وردت مجرورة شذوذاً فى عدة أمثلة منها قولهم هو نسيجُ وحدِه ، وفلانٌ قريع وَحْدِه ، وهو رُجَيْلُ وحدِه ، وحجيش وحدِه ، وعُيَيْر وَحْدِه.(2)

- ومذهب سيبويه فى (كلمته فاه الى فىَّ) ، أنه نُصِبَ نَصْبَ الحال ، لأنه واقع موقع (مشافها) ومؤدٍ معناه ، نص على ذلك بقوله : " هذا باب ما ينتصب من الأسماء التى ليست بصفه ولا مصادر ، لأنه حال يقع فيه الأمر فينتصب ، لأنه مفعول به : وذلك قولك كلمته (فاهُ الى فِىَّ) وبايعته يداً بيد ، وكأنه قال : كلمته مشافهة وبايعته نقداً ، أى كلمته فى هذه الحالة " . (3)

- وذهب الكوفيون الى أن أصل (كلمته فاهُ الى فِىَّ) ، جاعلاً فاه الى فِىَّ ، فيكون (فاه) معمول (جاعلاً) ناب منابه فى الحالية . (4)

- وذهب الأخفش الى أن أصله (كلمته من فيه الى فِىَّ) فيكون انتصاب فاه على نزع الخافض . (5)

- ومذهب سيبويه أولى المذاهب وأصحها عند ابن مالك قال : " لأنه قول يقتضى تنزيل جامد منزلة مشتق على وجه لا يلزم منه لبس ولا عدم للنظير ، وذلك موجود بإجماع فى هذا الباب وغيره فوجب الحكم بصحته ، ومن نظائره المستعملة فى هذا الباب بايعته يداً بيد ، وبعت الشاء شاة

---

(1) الهمع ٢٤٠/١.

(2) ينظر شرح المفصل ٦٣/١ ، شرح الكافية ٢٠٣/١.

(3) الكتاب ٣٩١/١.

(4) ينظر شرح التسهيل ٣٤٢/٢، حاشية الصبان ١٧١/٢.

(5) ينظر شرح التسهيل ٣٤٢/٢.

بدرهم ، والبر قفيزاً بدرهم ، والدار ذراعاً بدرهم فلا خلاف فى أن يـداً ، شاةً ، قفيزاً ، زراعاً ، منصوبة نصب الحال لا نصب المفعول بـه ، ولا نصب المسقط منه حرف الجر ، فإذا أجرى ذلك المجرى (كلمته فاهُ الـى فِيَّ) توافقت النظائر وأُمن الضائر ، بخلاف تقديرنا جاعلاً أو (مـن) فـلا نظير له فى هذا الباب ، وفى التقدير ضعف زائد ، وهو أنـه يلـزم منـه تقدير (من) فى موضع (إلى) ، ودخول (الى) فى موضع (من) ، لأن مبـدأ غاية كلام المتكلم فمه لا فم غيره المخاطب فلو كان معنى (من) مقصـوداً لقيل كلمته من فِيَّ الى فيه ، على إظهار (من) ، وكلمته فيَ الى فيه علـى تقديرها " . [1]

وبعد ، فإذا كان جمهور النحويين يستدلون على وجوب تنكـير الحـال بالقياس فإن يونس والبغداديين يستدلون على جواز تعريفها بالسماع والقيـاس معاً كما سبق .

وفى هذا المذهب إثراء للغة وتوسعة على الناطقين ، ومن ثم فـإنى أرى أن ما ذهب إليه يونس والبغداديون أولى بالترجيح والقبول لما سبق ، وأيضـاً فإن الجمهور يلجأون الى تأويل ما ورد عن العرب مـن الأحـوال المعرفـة بالنكرة ، وأما يونس والبغداديون فلا حاجة لهم الى التأويل ، ومـا لا يحتـاج إلى تأويل أولى مما يحتاج إليه .

---

[1] ينظر شرح التسهيل ٢/٣٢٤ ، ٣٢٥.

المبحث الثالث

موافقة البغداديين للكوفيين



المسألة الأولى

جوزا كسر وفتح همزة (إن) بعد القسم

تمهيد : فى ضابط همزة (إن) من حيث الفتح والكسر :

تفيد كل من (إن) و(أن) معنى التوكيد لمضمون ما دخلت عليه إحداهما من المبتدأ والخبر ، فقولك : إن زيدا منطلق وقولك : علمت أن زيداً منطلقٌ سواء فى توكيد مضمون الجملة فى المثالين وهو انطلاق زيد بيد أنهما يفترقان من حيث كون الجملة بعد أن المكسورة على استقلالها بفائدتها بدليل أنها تقع صلة للموصول كما كانت الجملة تقع هذا الموقع قبل دخول (إن) عليها نحو قولك : جاءنى الذى إنه عالم قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ .(1)

وأما (أن) المفتوحة فتؤول مع معموليها بمصدر فلا تقع إلا حيث يقع الاسم ، لأنها مع معموليها فى حكم المفرد . (2)

ومن ثم نجد أن همزة (إن) تكسر وجوباً إذا وقعت فى موضع لا تقع فيه إلا الجملة ويجب فتحها فى كل موضع لا يقع فيه إلا المفرد حيث تؤول مع معموليها بمصدر ويشمل ذلك ثلاث صور :

١- أن تقع (أنَّ) ومعمولاها فى موضع مصدر مرفوع ويندرج تحت هذه الصورة ما يلى :

(أ) (أنَّ) الواقعة فى موضع الفاعل ، نحو : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ . (3)

---

(1) سورة القصص ٧٦ .

(2) ينظر المقتضب ٣٣٦/٢، المفصل فى العربية ص ٣٩٣، شرح المفصل لابن يعيش ٥٩/٨.

(3) سورة العنكبوت ٥١.

(ب) (أنَّ) الواقعة فى موضع النائب عن الفاعل ، نحو : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ . (١)

(ج) (أنَّ) الواقعة فى موضع مبتدأ نحو قولك : فى ظنى أنك فاضل ، والواقعة اسماً لـ (كان) نحو : كان فى ظنى أنك فاضل ، والواقعة خبراً عن اسم معنى نحو : أمرك أنك ذاهب .

٢- أن تقع (أنَّ) ومعمولاها فى موضع مصدر منصوب ويندرج تحت هذه الصورة ما يلى :

(أ) (أنَّ) الواقعة اسماً لـ(إنَّ) إذا فُصِلَ بينهما بالخبر ، نحو إنَّ عندى أنك فاضل .

(ب) (أنَّ) الواقعة فى موضع مفعول غير خبر فى الأصل ، نحو قوله تعالى: ﴿ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ (٢) فإن كان خبراً فى الأصل كثانى مفعولى ظَنَّ وجب كسر الهمزة إذا كان المفعول الأول اسم عين.

٣- أن تقع (أنَّ) ومعمولاها فى موضع مصدر مجرور ويندرج تحت هذه الصورة ما يلى :

(أ) (أنَّ) الواقعة فى موضع مصدر مجرور بحرف ، نحو : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ . (٣)

(ب) (أنَّ) الواقعة فى موضع مجرور بإضافة ، نحو : ﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ . (٤)

نص على هذه الصور المرادى . (٥)

---

(١) سورة الجن ١.

(٢) سورة الأنعام ٨١.

(٣) سورة الحج ٦٢.

(٤) سورة الذاريات ٢٣.

(٥) ينظر الجنى الدانى ص ٤٠٧ وما بعدها .

الاختلاف فى كسر همزة (إن) بعد القسم :

إذا وقعت (إن) جواباً للقسم وذكر فعل القسم ولم تذكر بعدها اللام نحو : حلفت إنَّ زيداً قائمُ . فللنحويين فى مثل هذا أربعة مذاهب فى حكم همزة (إن) من حيث الفتح والكسر نفصلها فيما يلى :

المذهب الأول :

جواز كسر همزة(إن) وفتحها فيقال : حلفت إن زيداً قائم ، حلفت أن زيداً قائم مع اختيار الفتح . ومنه قول الشاعر :

أو تَحلِفِى بِربَك العَلىِّ

أنِّى أبو ذَيَّالِك الصَّبِىِّ (1)

حيث روى بكسر همزة(إن) على جعلها جواباً للقسم وبفتح همزة (إن) على جعلها مفعولاً بواسطة نزع الخافض أى - على أنِّى - ويكون المصدر المؤول من أن ومعموليها ساداً مسد الجواب ، وجواب القسم لا يكون إلا جملة ، وإذا امتنع أن يكون جوابا للقسم كان الفعل إخباراً بمعنى الطلب بقسم لا قسماً إذ الأصل فى الجواب أن يكون مذكوراً لا محذوفاً (2) وقد نسب الشيخ خالد الأزهرى والسيوطى (3) هذا المذهب للكسائى والبغداديين وقد حكم ابن أبى الربيع على هذا المذهب بالضعف .(4)

---

(1) هذا رجز لرؤبة بن العجاج فى ملحق ديوانه ص ١٨٨.

- الشاهد فيه : قوله (أنى أبو زيالك الصبى)حيث يجوز كسر همزة "إن" وفتحها ، لكونها واقعة بعد فعل قسم وليس بعدها اللام .
- ينظر هذا الرجز اللمع فى العربية ٣٠٤ ، لسان العرب مادة (ذا) شرح ابن عقيل ص ٣٥٨/١، التصريح ٣٠٦/١، شرح الأشمونى ٢٧٦/١.

(2) ينظر التصريح ٣٠٦/١، شرح الأشمونى وحاشية الصبان ٢٧٦/١ ، ٢٧٧ .

(3) ينظر التصريح ٣٠٦/١ ، الهمع ١٣٧/١.

(4) ينظر البسيط فى شرح جمل الزجاجى ٨١٨/٢.

المذهب الثانى :

وجوب الفتح وقد نسب الشيخ خالد الأزهرى هذا المذهب إلى أبى عبد الله الطوال من الكوفيين [1] وقد نسبه السيوطى إلى الفراء . [2]

فأما الفتح فبالقياس ووجهه أن (علمت) قد أجريت مجرى القسم ، فقالوا : علمتُ لزيدُ قائم ، وعلمت إنَّ زيداً لقائم ، وعلمتُ ليقومن زيد ، فإذا أجريت (علمت) مجرى القسم فتتلقى بما يتلقى به القسم ، فجرى القسم مجرى (علمت) وأخواتها ، فكما يقولون : علمتُ أن زيداً قائم ويفتحون (أن) هنا قالوا : والله أن زيداً قائم ، ففتحوا (أنَّ) بعد القسم . [3]

المذهب الثالث :

وجوب الكسر ، فيقال : حلفت إن زيداً قائمُ ، ولايجوز فتح الهمزة وقد نسب الشيخ خالد الأزهرى والسيوطى هذا المذهب إلى البصريين .[4]

واحتج هؤلاء بأن الكسر هو الأصل وبورود السماع به حيث ورد كسر همزة (إن) بعد القسم فى مواضع عدة من القرآن الكريم ولم ترد أن المفتوحة بعد القسم فى القرآن الكريم قال تعالى : ﴿حم*وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ*إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [5] وكذلك قوله تعالى " ﴿ حم*وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ*إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ [6] حيث كسرت (إن) الواقعة جوابا للقسم وليس معها اللام .[7]

المذهب الرابع :

جواز الكسر والفتح ، والكسر أجود ، إلى هذا ذهب أبو القاسم الزجاجى

---

(1) ينظر التصريح ٣٠٦/١.

(2) ينظر الهمع ١٣٧/١.

(3) ينظر البسيط فى شرح جمل الزجاجى ٨١٨/٢.

(4) ينظر التصريح ٣٠٦/١ ، الهمع ١٣٧/١.

(5) سورة الزخرف (١، ٢، ٣)

(6) سورة الدخان (١، ٢، ٣)

(7) ينظر البسيط فى شرح جمل الزجاجى ٨١٧/٢ ، ٨١٨ ، ٨٢٥ ، ٦٢٨.

حيث قال : " والكسر أجود وأكثر فى كلام العرب ".[1]

وهذا المذهب - أعنى مذهب الزجاجى - أرجح المذاهب ، لأن السماع يؤيده حيث ورد الكسر والفتح فى شعر العرب كما مر ولم تأت (إن) فى القرآن بعد القسم إلا مكسورة إذا لم تذكر اللام بعدها .

هذا وينبغى أن يعلم أن (لإن) الواقعة بعد القسم أربع صور :

١- أن يذكر فعل القسم ولا تقع اللام بعد إن ، وهذه الصورة محل الخلاف السابق كما مر .

٢- أن يذكر فعل القسم وتقع اللام بعدها نحو قولك : حلفت بالله إنك لصادق . ومنه قوله تعالى ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ ﴾ [2] ، وقوله تعالى : ﴿ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ﴾ . [3]

٣- أن يحذف فعل القسم وتقع اللام بعدها نحو قولك : والله إنك لمؤدب ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ *إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ . [4]

ولا خلاف فى تعيين كسر همزة إن فى هاتين الصورتين ، لأن اللام لا تدخل إلا على خبر إن المكسورة .

٤- أن يحذف فعل القسم ولا تقع اللام بعد إنّ نحو قولك : والله إنك عالم ومنه قوله تعالى : ﴿حم*وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ*إِنَّا أَنزَلْنَاهُ ﴾ [5] ، وحكى ابن كيسان عن الكوفيين جواز الوجهين فى هذه الصورة . [6]

---

[1] الجمل للزجاجى ص ٧٠.

[2] سورة التوبة ٥٦.

[3] سورة المائدة ٥٣.

[4] سورة العصر (٢،١) .

[5] سورة الدخان (١ ، ٢ ، ٣)

[6] ينظر التصريح ٣٠٦/١ ، منحة الجليل بتحقيق : شرح ابن عقيل ٣٦٠/١.

المسألة الثانية

جواز إتباع المستثنى منه للمستثنى إذا تقدم المستثنى عليه (١)

إذا تقدم المستثنى على المستثنى منه فقد يكون الكلام موجباً وقد يكون منفياً وقد يكون الاستثناء متصلاً وقد يكون منقطعاً ، وقد اختلفت آراء النحويين فى حكم المستثنى فى هذا على مذهبين نفصلهما فيما يلى :

المذهب الأول :

أنه يجوز فى المستثنى إذا تقدم على المستثنى منه غير النصب على الاستثناء وهو الإتباع نحو ذلك إذا كان الكلام غير موجب نحو (ما قام إلا زيدٌ أحد) . (٢)

وقد نسب الشيخ خالد الأزهرى هذا المذهب إلى الكوفيين والبغداديين.(٣)

---

(١) قد يكون تقديم المستثنى أول الكلام وقد يكون تقديمه على المستثنى منه وعلى العامل فيه معاً إذا توسط بين جزأى كلام :

- فأما الحال الأولى فالجمهور يمنعون تقديمه مطلقاً سواء أكان موجباً أم منفياً فلا يقال : (إلا زيداً قام القوم) ، ولا (إزيدا ما أكل أحد طعاماً) ، واحتجوا بأن مثل هذا لم يسمع عن العرب، ولأن (إلا) مشبهة بـ(لا) و واو(مع) وهما لا يتقدمان أول الكلام ، وجوزه الكوفيون والزجاج ، وجوزه الأبدى فى النفى بعد سبق حرف النفى ، لأنه لم يتقدم على الكلام بجملته لسبق حرف النفى ، وجوز الكسائى تقديمه على حرف النفى أيضاً ، وجوزه الفراء إلا مع المرفوع ، ومنعه هشام إلا مع الدائم .
- وأما الحال الثانية ففيها مذاهب :
- أحدها : المنع مطلقاً سواء أكان العامل متصرفاً أم غير متصرف فلا يقال : (القوم إلا زيداً قاموا) ولا (القوم إلا زيداً فى الدار) تشبيها بالمفعول معه .
- الثانى : الجواز مطلقاً ، وصححه بعض المغاربة .
- الثالث : الجواز مع المتصرف والمنع فى غيره ، وهو مذهب الأخفش (ينظر الارتشاف ٣٠٧/٢، ٣٠٨ والهمع ٢٢٦/١) .

(٢) ينظر شرح ابن عقيل ٢١٦/٢ ، شرح الأشمونى ١٤٨/٢.

(٣) ينظر التصريح ٥٤٩/١.

ويؤيد صحة هذا المذهب قول سيبويه : " حدثنا يونس أن بعض العرب الموثوق بهم يقول : (مالى إلا أبوك ناصر) ، بالرفع " . (1)

وقال حسان ﷺ :

لأنهُمُ يَرْجُوْنَ مِنْهُ شَفَاعَةً

(إذَا لَمْ يَكُنْ إلا النَّبِيُّونَ شَافِعُ)(2)

وعلى هذا المذهب يكون العامل وهو (قام) فى المثال الأول والابتداء فى المثال الثانى و(يكن) التامة فى البيت - قد فرغ لما بعد إلا - وهو (زيد) فى المثال الأول و(أبوك) فى المثال الثانى و(النبيون) فى البيت - وأن المؤخر - وهو (القوم) فى المثال الأول و(ناصر) فى المثال الثانى و(شافع) فى البيت - عام لوقوعه فى سياق النفى أريد به خاص فصح إبداله من المستثنى لكنه بدل كل من كل لابدل بعض ، ونظير هذا ما أخر فيه المتبوع وصار تابعاً بعد ما كان متبوعاً كقولك : ما مررت بمثلك أحد بالجر والأصل ما مررت بأحد مثلك فـ(مثلك) تابع لـ(أحد) على أنه نعت له، فلما قدم النعت على المنعوت أعرب النعت بحسب العامل وأعرب المنعوت بدلاً من النعت كقوله تعالى : ﴿ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ*اللَّهِ ﴾(3) فى قراءة الجر .(4)

---

(1) الكتاب ٣٣٧/٢.

(2) البيت من البحر الطويل وهو لحسان بن ثابت ﷺ فى ديوانه ص ٢٤١. ويروى (فإنهمْ).
- والشاهد قوله : (إلا النبيون شافع) حيث جاز الرفع فى المستثنى المتقدم على المستثنى منه والكلام منفى ينظر البيت فى شرح ابن عقيل ٢١٧/٢ ، أوضح المسالك رقم ٢٦٣، الهمع ٢٢٥/١، شرح الأشمونى ١٤٨/٢.

(3) سورة ابراهيم ١ ، ٢ .

(4) القراءة المذكورة لأبى عمرو ، عاصم ، حمزة ، الكسائى ، ينظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكى ٢٥/٢.

وإنما ألجاهم إلى دعوى أن المؤخر عام أريد به خاص ، ولم يبقوه على عمومة ، لأن الأعم لا يبدل من الأخص . (1)

قال ابن الضائع : إن الوجه أن يقال هو بدل من الاسم مع " إلا " مجموعين ، فيكون بدل شيء لعين واحدة ، لأن : ما قام إلا أبوك فى قوة ما قام غير أبيك ، وغير أبيك أحد فيصح انطباقه . (2)

وذكر ابن عقيل أن وجه إيدال المستثنى منه من المستثنى الأخص منه من قبيل القلب .(3)

وجوب نصب المستثنى إذا تقدم على المستثنى منه مطلقاً سواءً أكان الاستثناء متصلاً نحو : نَجَحَ إلا علياً الطُّلابُ ، أم منقطعاً نحو : وَصَلَتْ إلا سَيَّارةً الطَّائِراتُ وسواءُ أكان موجبا كما سبق أم منفياً نحو: ما قام إلا زيداً القوم . (4)

وقد نسب الشيخ خالد الأزهرى هذا المذهب إلى البصريين . (5)

وفى نصب المستثنى المتقدم وعلة ذلك يقول سيبويه : " باب ما يقدم فيه المستثنى وذلك قولك : ما فيها إلا أباك أحد ، ومالى إلا أباك صديق ، وزعم الخليل أنهم إنما حملهم على نصب هذا أن المستثنى إنما وجهه عندهم أن يكون بدلاً ، ولا يكون مبدلاً منه ، لأن الاستثناء إنما حده أن تتداركه بعد ما تنفى ، فتبدله ، فلما لم يكن وجه الكلام هذا حملوه على وجه قد يجوز إذا أخرت المستثنى " . (6)

وكذا المبرد حيث يقول : " هذا باب مالا يجوز فيه البدل وذلك الاستثناء

---

(1) ينظر التصريح ١/٥٤٩ ، ٥٥٠.
(2) ينظر التصريح ١/٥٥٠ ، الهمع ١/٢٢٥.
(3) شرح ابن عقيل ٢/٢١٧.
(4) شرح بن عقيل ٢/٢١٦.
(5) التصريح ١/٥٤٩.
(6) الكتاب ١/٣٣٥.

المقدم نحو : ما جاءنى إلا زيداً أحد ، وما مررت إلا زيداً بأحد وإنما امتنع البدل ، لأنه ليس قبل زيد ما تبدله منه فصار الوجه الذى يصلُح على المجاز لا يجوز هاهنا غيره وذلك أنك كنت تقول : ما جاءنى أحد إلا زيد وتجيز : ما جاءنى أحد إلا زيداً ، فلما قدمت المستثنى بطل وجه البَدلَ ، فلم يبق إلا الوجه الثانى " . (1)

ومما نصب فيه المستثنى المتقدم على المستثنى منه قول الشاعر:

وَمَالِى إلاَّ آل أحْمَدَ شِيْعَةٌ

وَمَالِى إلاَّ مَذْهَبَ الْحَقِّ مَذْهَبُ (2)

والأصل ومالى شيعة إلا آل أحمد ومالى مذهب إلا مذهب الحق فلما قدم المستثنى على المستثنى منه وجب نصبه .

هذا ، رمثل الخلاف السابق فى المستثنى بإلا المتقدم على المستثنى منه جرى الخلاف بين النحويين أيضا فى المستثنى المتقدم على المستثنى منه إذا كانت أداة الاستثناء لفظ (غير) فنحو : ما فيها غير زيدٍ أحدٌ فيجب نصب لفظ (غير) عند البصريين .

ويجوز فيه الاتباع على البدلية عند الكوفيين والبغداديين .(3)

ويكون المستثنى مجروراً بإضافته إلى غير ، لأن (غير) تأخذ حكم المستثنى بإلا . (4)

---

(1) المقتضب ٣٩٧/٤ .

(2) البيت من البحر الطويل وهو للكميت بن زيد الأسدى من قصيدة يمدح فيها آل النبى ﷺ ويروى (مشعب) مكان (مذهب).

- الشاهد قوله " إلا آل أحمد " وقوله (إلا مذهب الحق) حيث نصب المستثنى بإلا فى الموضعين ، لأنه متقدم على المستثنى منه .
- ينظر البيت فى المقتضب ٣٩٨/٤، اللمع فى العربية ص ١٥٢ ، الإنصاف ٢٧٥ ، لسان العرب مادة شعب ، التصريح ٥٤٩/١ ، خزانة الأدب ٣١٤/٤ ، ٣١٩ ، ١٣٨/٩.

(3) ينظر التصريح ٥٥٧/١.

(4) الأصل فى (غير) أن يوصف بها لما فيها من معنى اسم الفاعل ، فقولك : " زيد غير =

المسألة الثالثة

مجيء ليس حرف عطف

(ليس) إحدى الأدوات التى اختلف النحويون فيها هـــل تـــأتى عاطفـــة أولا ؟ ([1]) وبيان ذلك مفصلاً فيما يلى :

المذهب الأول :

أن ليس تأتى حرف عطف فتقول : قام زيد ليس عمرو ، ضربت زيـــداً ليس عمراً ، مررت بزيدٍ ليس عمروٍ ، فعمرو معطوف على زيد بـــ(ليس) .

كما تقول : قام زيدٌ لا عمرو ، ضربت زيداً لا عمراً ، مررت بزيـــدٍ لا عمروٍ (فليس) محمولة على (لا) فى العطف . ([2])

وقد نسب هذا المذهب إلى البغداديين أبـــو حيـــان ([3]) ، والشـــيخ خـــالد الأزهرى([4]) نقلاً عن ابن عصفور .([5])

= عمرو " معناه : زيد مغاير لــ(عمرو)، وقد تخرج(غير) عن الصفة وتتضمن معنى (إلا) فيستثنى بها اسم مجرور بإضافتها إليه ، كما تخرج " إلا " من الاستثناء ، وتتضمن معنى " غير " فيوصف بها جمع منكر قبلها ، نحو " لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا الله " (سورة الأنبياء ٢٢)

- أى : غير الله فلما حملت " إلا " على " غير " انتقل إعراب " غير " إلى الاسم الذى بعد " إلا " كما انتقل إعراب الاسم الذى بعد " إلا " إلى " غير " فى الاستثناء فيعـــرب الاســـم الذى بعد " إلا " بما يستحقه وتعرب هى أى " غير " نفسها بما يستحقة المستثنى بـــ " إلا " فى ذلك الكلام .

- ينظر التصريح ٥٥٦/١.

([1]) الأدوات المختلف وقوعها حروف عطف هى(لكن ، ليس ، أى) ينظر شرح الجمل لابـــن عصفور ٢٢٣/١ ، ٢٢٥.

([2]) ينظر الارتشاف ٦٣/٢ ، خزانة الأدب ١٩١/١١.

([3]) ينظر ارتشاف الضرب ٦٣٠/٢.

([4]) ينظر التصريح ١٥٥/٢.

([5]) ينظر شرح الجمل لابن عصفور ٢٢٥/١.

واحتج أصحاب هذا المذهب بقوله :

وإذا أُقرِضْتَ قرضاً فاجْزِه

إنَّما يَجْزِى الْفَتَى لَيْسَ الْجَمَل ([1])

فالجمل عندهم معطوف على الفتى بليس كأنه قال : لا الجمل .

وقد نسب هذا المذهب إلى الكوفيين أيضا ابن مالك ([2]) وكذا أبو حيان ([3]) والشيخ خالد الأزهرى ([4]) نقلاً عن أبى جعفر النحاس وابن بابشاذ .

([1]) البيت من البحر الطويل وهو للبيد بن ربيعة فى ديوانة ص ١٧٩.

- المقصود بالقرض هنا ما سلف من إحسان أو إساءة ويروى (وإذا أوليت) ، (وإذا جوزيت) مكان (وإذا أقرضت).
- وفى المستقصى ٤١٩/١ " الفتى" : السيد اللبيب والعرب تقول للجاهل ياجمل أى إنما يجزى اللبيب من الناس لا الجاهل ، ورواية البيت عند سيويه ٣٣٣/٢ (إنما يجزى الفتى غير الجمل) ، وأنشده على أن الفتى وهو معرفة قد نعت بغير ، وهى نكرة والذى سوغه أن(ال) فى الفتى للجنس ، فلا يخص واحداً بعينه ، فيكون مقارباً للنكرة ، وأن غيراً مضاف إلى معرفة فقاربت المعارف لذلك . كذا أورده ابن السراج فى الأصول ٢٨٦/١مستشهداً به على أن غيراً لا تدخل فى الاستثناء إلا فى الموضع الذى ضارعت فيه إلا .
- والشاهد فى قوله : (إنما يجزى الفتى ليس الجمل) حيث جاءت ليس عاطفة كـ(لا) عند البغداديين .
- ينظر البيت فى المقتضب ٤١٠/٤ ، الأصول ٣٠١/١ ، شرح الجمل لابن عصفور ٢٢٥/١.، أوضح المسالك رقم ٤١٢ ، التصريح ١٥٥/٢ ، خزانة الأدب ٢٩٦/٩ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ١٩٠/١١ ، ١٩٢ .

([2]) ينظر شرح التسهيل .

([3]) ينظر الارتشاف ٦٣٠/٢.

([4]) التصريح ١٥٥/٢ .

وذكر ابن مالك أن من أجود ما يستدل به للكوفيين قول أبى بكر الصديق ﷺ : " بَأبِى شَبِيْهُ بالنَّبىّ لَيس شَبِيْهُ بِعَلِىّ " (1) برفع شبيه كما يقول : بأبى شبيه بالنبى لا شبيه بعلى . (2)

ومما يحتج لهم به أيضاً قول الراجز :

أيْنَ الْمَفَرُ وَالإِلَهُ الطَّالِبُ

وَالأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبُ(3)

كما يقال والأشرم المغلوب لا الغالب .

وقد رد ابن عصفور(4) ما احتج به البغداديون فى البيت الأول بأن ليس باقية على أصلها فالجمل (اسم ليس) ، والخبر محذوف أى ليس الجمل جازياً أو ليس الجمل يجزى ، والعرب قد تحذف خبر ليس فى الشعر كقوله :

لَهفِى عَليْكَ لِلَهفَةِ مِن خَائفٍ

يَبْغِى جَوارَكَ حِيْنَ لَيْسَ مُجِيْرُ (5)

---

(1) أخرجه البخارى فى كتاب المناقب باب مناقب الحسن والحسين -ﷺ-

(2) شرح لتسهيل ٣٤٦/٣.

(3) هذا رجز لنفيل بن حبيب الحميرى .

- والشاهد فيه قوله : (والأشرم المغلوب ليس الغالب) حيث جاءت ليس حرف عطف كـ(لا).
- ينظر البيت فى شرح التسهيل ٣٤٦/٣ ، المغنى ص ٢٩٦ ، الهمع ١٣٨/٢ ، شرح شواهد المغنى ص ٧٠٥.

(4)ينظر شرح الجمل ٢٢٥/١.

(5) البيت من البحر الكامل وهو لعبد الله بن أيوب التيمى فى شرح ديوانه الحماسة للمرزوقى ص ٩٥٠ ، ولشمرول الليثى فى التصريح ٢٧٠/١ برواية (حين لات مجير)

- والشاهد فى قوله (حين ليس مجير) حيث حذف ليس فى الشعر .
- ينظر البيت فى شرح الجمل لابن عصفور ٢٢٥/١ وخزانة الأدب ١٩٢/١١.

فليس فى هذا البيت ليست عاطفة باتفاق ، ولا يتصور العطف فيها ، وخبرها محذوف ، أى ليس مجير فى الدنيا .

ويحتمل أن يكون الجمل خبر ليس ، وسكن آخره للقافية ، واسمها ضمير اسم الفاعل المفهوم من يجزى أى ليس الجازى الجمل . [1]

وكذا رد ابن مالك ما أورده دليلاً للكوفيين بأنه تنظير لا يلزم ، لإمكان غيره مما لا خلاف فى جوازه ، وذلك لأنه يجوز أن يكون خبر كان وأخواتها ضميراً متصلاً ثم يحذف منوياً ثبوته ، كما يفعل إذا كان الضمير مفعولاً به ، فيقال : صديقك إنى أكرمت ، فكذلك يقدر قول أبى بكر ﷺ : ليس شبيه بعلى ، فيجعل " شبيه " اسم ليس ، والهاء خبرها محذوفاً ، واستغنى بنيته عن لفظه ، قال الشاعر :

فَأطْعَمَنا مِنْ لَحْمِها وَسَدِيفِها
شِواءً وخَيْرُ الخَيرِ مَا كَانَ عَاجِلُه [2]

وقول الآخر :

مُعِينُكَ إنىَ مَا بَرِحتُ فَلاَ تَزَلْ
مَعِينِى عَلَى مَا مِلا مُورِ أرُومُ[3]

---

[1] خزانة الأدب ١٩٢/١١.

[2] البيت من البحر الطويل ولم أقف له على نسبة .

- ويروى (سنامها) مكان(وسديفها) وهو شحم السنام .
- الشاهد : فى قوله (ما كان عاجله) حيث حذف الضمير المتصل الواقع خبرا لكان والتقدير (ما كأنه عاجله).
- ينظر البيت فى شرح التسهيل ٣٤٦/٣.

[3] البيت من البحر الطويل ولم اقف له على نسبة .

- الشاهد فى قوله : (ما برحت) حيث حذف الضمير المتصل الواقع خبراً (لبرج) والتقدير (ما برحته).

أراد الأول : ما كانه عاجله ، وأراد الثاني : ما برحته ، محذوفا الضميرين ونوياهما والتقدير في ليس الغالب : ليسه الغالب ، والضمير ضمير الأشرم وهو خبر ليس واسمها الغالب . ([1])

هذا ، ويرى أبو حيان أن ليس في الحقيقة ليست عند الكوفيين حرف عطف قال : " لأنهم أضمروا الخبر في قولهم : قام زيد ليس عمرو وفي النصب والجر جعلوا الاسم ضمير المجهول وأضمروا الفعل بعدها وذلك الفعلى المضمر في موضع خبر ليس هذا تحرير مذهبهم فليس بعطف مفرد على مفرد .([2])

ويؤيد ما ذهب إليه أبو حيان قول الكسائي : " هي - يعني ليس - على بابها ترفع اسماً وتنصب خبراً ، وأجريت في النسق مجرى (لا) مضمراً اسمها فإذا قلت : رأيت زيداً ليس عمراً ففيها اسم مجهول وهو الأمر ورأيت محذوفة اكتفاء بالتي تقدمها وعمرو محمول على المحذوف لا على العطف على ما قبله .([3])، وكذا قول ابن كيسان وهذا الذي أذهب إليه ، لأن ليس فعل ولابد للفعل من اسم فإذا علمت في اسم فلابد من خبر ، والخبر حذفه جائز . ([4])

المذهب الثاني :

أن جعل (ليس) من حروف العطف خطأ ، وقد نسب هذا إلى البصريين أبو حيان . ([5])

([1]) ينظر شرح التسهيل ٣٤٦/٣ ، ٣٤٧.

([2]) ينظر الارتشاف ٦٣١/٢.

([3]) ينظر الارتشاف ٦٣١/٢.

([4]) ينظر الارتشاف ٦٣١/٢.

([5]) ينظر الارتشاف ٦٣١/٢.

وما ذهب إليه البصريون من القول بأن ليس لا تكون عاطفة وتأويل المرفوع بأنه اسمها ، وخبرها ضمير متصل فيه نظر عند السيوطى ، لأن حذف باب خبر كان ضرورة . (1)

ويرجح مذهب البغداديين قول الشافعى فى الأم فى أثناء مسألة : " لأن الطهارة على الظاهر ليس على الأجواف " (2) يعنى : (لأن الطهارة على الظاهر لا على الأجواف) إذ لا يصح أن يكون اسم ليس هنا ضميراً مستتراً لوجوب تأنيث الفعل حينئذ . ذكر ذلك السيوطى(3) وقال : " وقول الشافعى حجة فى اللغة " . (4)

وقد نص علماء اللغة والأصول على أن كلام الإمام الشافعى – رحمه الله – مما يحتج به فى اللغة . (5)

---

(1) ينظر الهمع ١٣٨/٢.

(2) قال الإمام الشافعى فى الأم ١٩٥/١ ما نصه : " لأن الطهارات كلها إنما جعلت على ما يظهر ليس على الأجواف " . والاختلاف فى بعض ألفاظ عبارة السيوطى المنقولة عن الإمام الشافعى كما هو واضح لا يبطل وجه الاستشهاد بها ، لأن الاختلاف بين العبارتين فى ألفاظ ليست فى محل الشاهد ، و(ليس) فى كلتا العبارتين عاطفة بمعنى(لا) .

(3) ينظر الهمع ١٣٨/٢.

(4) الهمع ١٣٨/٢.

(5) ينظر شرح القاضى عضد الملة والدين على مختصر المنتهى الأصولى لابن الحاجب المالكى مع حاشية سعد الدين التفتازانى ١٧٤/٢ ، ١٧٥ .

المسألة الرابعة

حكم نداء ما فيه (ال) دون (أى) أو اسم إشارة

حروف النداء لا تجامع ما فيه الألف واللام وإذا أريد ذلك توصل إليه (بأى وهذا) وعلة ذلك أحد أمرين :

الأول :

أن الألف واللام تفيدان التعريف ، والنداء يفيد التخصيص ، وإذا قصدت واحداً بعينه صار معرفة كأنك أشرت إليه ، والتخصيص ضرب من التعريف ، ولذلك لم يجمع بينهما .

الثانى :

أن الألف واللام تفيدان تعريف العهد ، وهو يتضمن معنى الغيبة ، وذلك أن العهد يكون بين اثنين فى ثالث غائب ، والنداء خطاب لحاضر فلم يجمع بينهما لتنافى التعريفين .(١)

ومع هذا ، اختلف النحويون فى نداء ما فيه (أل) كما يلى :

المذهب الأول :

أنه يجوز نداء ما فيه (أل) دون التوصل إلى ذلك بـ(أى) و(هذا) مطلقاً نثراً وشعراً فيقال يا الرجل ، ويا الغلامان .

وقد نسب هذا المذهب إلى الكوفيين والبغداديين الشيخ خالد الأزهرى (٢) ونسبه الأنبارى (٣) وابن مالك (٤) والسيوطى (٥) إلى الكوفيين فقط ونسبه الأشمونى .(٦) إلى البغداديين فقط .

---

(١) ينظر شرح المفصل ٨/١ ، ٩ .
(٢) ينظر التصريح ٢٢٦/٢.
(٣) ينظر الإنصاف ٣٣٦/١.
(٤) شرح التسهيل ٣٩٨/٣.
(٥) ينظر الهمع ١٧٤/١.
(٦) شرح الأشمونى ١٤٥/٣.

واحتج أصحاب هذا المذهب بالقياس والسماع .

أما القياس فقد جاز يا الله ، بالإجماع ، فيجوز يا الرجل ، قياساً عليه بجامع أن كلا منهما فيه (أل) وليست (أل) من اصل الكلمة .

وأما السماع فاحتجوا بقوله :

فَيَا الْغُلامَانِ اللَّذَانِ فَرَّا

إِيَّاكُمَا أَنْ تَكْسِبَانَا شَرّاً (1)

وقوله :

عَبَاسَ يَا الْمَلِكُ الْمتَوَّجُ والَّذِى

عَرَفَتْ لَهُ بَيْتَ العُلَى عَدْنَانُ (2)

---

(1) هذا رجز لم أقف له على نسبة .

- وروى فى الإنصاف ٣٣٦/١(تكسبانى)مكان (تكسبانا) وأورده ابن عقيل ٢٦٤/٣ والأشمونى ١٤٥/٣ بلفظ (تعقبانا) مكان (تكسبانا) ، وتكسبانا ماضيه كسب يتعدى إلى اثنين يقال : كسبت زيداً علماً أى أنلته . ويقول ابن الإعرابى إن ماضيه أكسب فيكون المضارع يكسب بضم حرف المضارعة وكسر السين .
- والشاهد فى قوله : (فيا الغلامان) حيث جمع بين (يا) و(أل) فى النداء ، فى غير لفظ الجلالة وهو جائز عند البغداديين والكوفيين فى النظم والنثر .
- ينظر البيت فى المقتضب ٢٤٣//٤ ، أسرار العربية ص ٢٣٠ ، اللمع فى العربية ص ١٦٩، شرح المفصل ٩/٢ ، عمدة الحافظ ص ٢٩٩ ، شرح الألفية لابن الناظم ص ٤٠٦ ، الهمع ١٧٤/١ ، خزانة الأدب ٢٩٤/٢.

(2) البيت من البحر الكامل ولم أقف له على نسبة .

- و(عباس)منادى حذف حرف النداء أى يا عباس و(المتوج) الذى على رأسه تاج ويجوز فيه الرفع والنصب ، وقيل (عدنان) أبو العرب والأصح أن المقصود بـ(عدنان) القبيلة بدليل تأنيث الفعل (عرفت) المسند إلى عدنان .

ولا يقال إن الجمع فى الرجز السابق بين (يا) و(أل) ضرورة لتمكن قائله من أن يقول : فيا غلامان اللذان فرا مع استقامة الوزن .[1]

المذهب الثانى :

أنه لا يجوز نداء ما فيه أل إلا فى الضرورة .

وقد نسب هذا المذهب إلى البصريين الانبارى وممن ذهب إلى هذا أيضاً المبرد حيث قال : " واعلم أن الأسم لا ينادى وفيه الألف والـــلام ، لأنـك إذا ناديته فقد صار معرفة بالإشارة بمنزلة هذا ، وذاك ، ولا يدخل تعريف علـــى تعريف ، فمن ثم لا تقول : يا الرجل ، تعال .[2] واحتج أصحاب هذا المذهـب بأن الألف واللام يفيدان التعريف و"يا" تفيد التعريف وتعريفان فـــى الكلمـة لا يجتمعان ومن ثم لا يجوز الجمع بين تعريف النداء وتعريف العلمية فى الاســم المنادى العلم فى نحو " يا زيد " إلا بعد تعريته عن تعريف العلميـــة ويعـرف بالنداء ، دفعاً للجمع بين تعريفين .

فإذا لم يجز الجمع بين تعريف النداء ، وهو علامة لفظية وتعريف العلمية وهو علامة معنوية ، فالأولى عدم جواز الجمع بين التعريف بالنداء والتعريـف بأل ، لأنهما علامتان لفظيتان .[3]

- الشاهد فى قوله (يا الملك) حيث جمع بين (يا) و (أل) فى النداء ، فى غير لفظ الله وهــو جائز عند البغداديين والكوفيين فى النظم والنثر .
- ينظر أوضح المسالك رقم ٤٤٠ ، التصريح ٢/٢٢٦، الهمع ١/١٧٤ ، شرح الأشــمونى ١٤٥/٣.

[1] ينظر الارتشاف ٢/٢٣٦، ٢٣٧ ، التصريح ٢/٢٢٦.

[2] ينظر المقتضب ٤/٢٣٩.

[3] الإنصاف ٤/٢٣٩.

ومما يدلك على أن النكرة تصير معرفة بالنداء ما ذكره سيبويه من أن رجلاً في قولك يا رجل معرفة بالقصد والإشارة إليه فاستغنى عن الألف واللام كما استغنى اسم الإشارة ، وكما استغنى اضرب عن لام الأمر .[1]

وما استدل به أصحاب المذهب الأول مردود بما يلي :

- فأما قياس (يا الرجل)على قولهم (يا الله) بأن الألف واللام في الله عوض عن همزة(إله) ، فكانت بمنزلة أحد حروف الكلمة ، فجاز دخول حرف النداء عليه ، وبأن لفظ (الله) كلمة كثر استعمالها في كلامهم فلا يقاس عليها غيرها . [2]

- واستثنى البصريون من منع نداء ما فيه أل اسم الله تعالى كما سبق [3] وأجاز سيبويه . أن يقال يا الرجل قائم ، في المسمى بالرجل قائم على طريق الحكاية ، نص على ذلك بقوله : " ولو سميته - يعني رجلاً - الرجل منطلقٌ جاز أن تناديه فتقول : يا الرجل منطلقٌ ، لأنك سميته بشيئين كل واحد منهما اسم تام .... وأما الرجل منطلق فبمنزلة تأبط شراً ، لأنه لا يتغير عن حاله لأنه قد عمل بعضه في بعض .[4]

وعلل ابن مالك ما جوزه سيبويه بأنه في معنى يا مقولاً له الرجل قائم [5] وقاس على هذا المبرد [6] الاسم الموصول المصدر بالألف واللام نحو : يا الذي قام لمسمى به ، وأنشد قوله :

---

(1) ينظر الكتاب ١/١٩٧.

(2) الإنصاف ١/٣٣٨،٣٣٩،٣٤٠ ، التصريح ٢/٢٢٦.

(3) الهمع ١/١٧٤.

(4) الكتاب ٣/٣٣٣.

(5) ينظر شرح التسهيل ٣/٣٩٨.

(6) ينظر الانتصار لابن ولاد ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، الهمع ١/١٧٤.

مِنَ اجْلكِ يا الّتِى تَيَّمْت قَلْبى

وَأنْتِ بَخِيلَةٌ بالْودِّ عَنِّى (١)

قال ابن مالك وهو قياس صحيح . (٢)

وأجاز ابن سعدان (٣) : يا الأسد شدة ، يا الخليفة جوداً ، ونحو ذلك ممـا فيه تشبيه .

وقال ابن مالك : " وهو قياس صحيح ، لأن تقديره : يا مثل الأسد يا مثل الخليفة ، فحسن لتقدير دخول " يا" على غير الألف واللام .(٤)

---

(١) البيت من البحر الوافر ولم أقف له على نسبة .

- ويقرأ(من أجلك) بنقل حركة الهمزة وهى الفتحة إلـى نـون (مـن)وحـذف الـهمزة وروى(فديتك) مكان (من أجلك) كما يروى أيضا (بالوصل)مكان (بالود) و(عنى) بمعنـى (على) .

- الشاهد فى قوله (يا التى حيث جمع بين (يا) و(أل) فى النداء وهو جائز عند المبرد قياساً على نحو يا الرجل قائم علماً .

- ينظر البيت فى المقتضب ٢١٤/٤ ، أسرار العربيـة ص ٢٣٠ ، الإنصـاف ٣٣٦/١ ، شرح المفصل ٨/٢ ، شرح عمدة الحافظ ص ٢٩٩ ، لسان العرب (لتا) ، الهمع ١٧٤/١ ، الخزانة ٢٩٣/٢.

(٢) ينظر شرح التسهيل ٣٩٨/٣.

(٣) ينظر شرح التسهيل ٣٩٨/٣ ، الهمع ١٧٤/١.

(٤) ينظر شرح التسهيل ٣٩٨/٣.

المسألة الخامسة

هل يراعى فى العدد لفظ الجمع أو مفرده؟

لفظ ثلاثة وأربعة وما بعده إلى العشرة تثبيت فيه التاء ، إن كان المعدود مذكراً ، وتسقط إن كان المعدود مؤنثاً . قال تعالى : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ . (1)

وإنما حذفت التاء من عدد المؤنث وأثبتت فى عدد المذكر ، لأن الثلاثة وأخواتها أسماء جماعات (كزمرة ، أمة ، فرقة) ، فالأصل أن تكون بالتاء لتوافق نظائرها فاستصحب الأصل مع المذكر لتقدم مرتبته ، وحذفت مع المؤنث لتأخر رتبته . (2)

وأما تمييز هذه الأعداد فيكون جمعاً مجروراً بإضافة العدد إليه ، ولا يكون هذا الجمع جمع كثرة ما أمكن جمع القلة (3) غالباً ومن جموع القلة جمع التصحيح . قال تعالى : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ . (4)

وقال تعالى : ﴿ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ ﴾ (5) ﴿ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ﴾(6) ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ﴾ . (7)

---

(1) سورة الحاقة ٧.

(2) ينظر شرح التسهيل ٣٩٨/٢ ، شرح ابن عقيل ٦٧/٤ ، التصريح ٤٤٦/٢ ، ٤٤٧ ، حاشية الصبان ٦١/٤ .

(3) جمع القلة هو جمع التكسير الذى على وزن أفْعُل - أفْعَال - أفْعِلَة - فِعْلَة وكذا جمع المذكر السالم وجمع المؤنث السالم ، ينظر شرح المفصل ١٩/٦ ، الهمع ٢٥٣/١.

(4) سورة البقرة ٢٩.

(5) سورة يوسف ٤٣.

(6) سورة يوسف ٤٣.

(7) سورة الإسراء ١٠١.

ومن القليل قوله تعـــالى : ﴿ كَمَثَــلِ حَبَّــةٍ أَنْبَتَــتْ سَــبْعَ سَــنَابِلَ﴾[1] ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾[2] ﴿ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَــانِيَ حِجَــجٍ﴾[3] ، فإن لم يكن جمع القلة تعين جمع الكثرة ، نحو ثلاثة رجال .[4]

هذا ، وإذا كان الجمع الواقع تمييزاً للثلاثة فما فوقها حتى العشرة لفظـــه مؤنث ومفرده مذكر (كاصطبلات) فإن مفرده(اصطبل) وهو مذكر ، وحمامـات فإن مفرده حمام وهو مذكر ، وسجلات فإن مفرده سجل وهو مذكر فهل يراعى فى لفظ الجمع وهو مؤنث فيذكِّر العدد أو يراعى المفرد وهو مذكـــر فيؤنـــث العدد ؟ مذهبان نفصلهما فيما يلى :

المذهب الأول :

أن تذكير العدد أو تأنيثه يعتبران بحال المفرد ، فإن كان مذكـــراً أنـــث العدد ، وإن كان مؤنثاً ذكر العدد ، فتقول : ثلاثة حمامات ، وثلاثة اصطبلات ، وثلاثة سجلات . [5]

وهذا المذهب هو الصحيح عند ابن عصفور .[6]

المذهب الثانى :

أن تذكير العدد وتأنيثه يعتبران بلفظ الجمع لا بحال مفـــرده ، فتقـــول : ثلاث حمامات ، ثلاث اصطبلات ، ثلاث سجـــلات بتذكير لفظ العدد (ثلاث) ، لأن هذا الجمع (حمامات ، اصطبلات ، سجلات) لفظه مؤنث فذكر العدد.[7]

---

(1) سورة البقرة ٢٦١.

(2) سورة البقرة ٢٢٨.

(3) سورة القصص ٢٧.

(4) ينظر شرح ابن عقيل ٦٨/٤ ، الهمع ٢٥٣/١.

(5) ينظر شرح التسهيل ٣٩٨/٢ ، الارتشاف ٣٦١/١ ، التصريح ٤٥١/٢ .

(6) ينظر شرح الجمل لابن عصفور ٤٣/٢.

(7) ينظر التصريح ٤٥١/٢ ، شرح الأشمونى ٦٣/٤.

وقال الكسائي تقول : مررت بثلاث حمامات ، ورأيت ثـــلاث ســـجلات بغير هاء وإن كان الواحد مذكراً ([1]) وقاس عليه ما كان مثله ([2])

وقد نسب ابن عصفور هذا المذهب إلى أهل بغداد .([3])

ونسبة أبو حيان ([4]) والشيخ خالد الأزهـــري ([5]) والأشـــموني ([6]) إلـــى البغداديين والكسائي .

([1]) ينظر الارتشاف ٣٦١/١ ، شرح الأشموني ٦٢/٤.

([2]) يتظر الارتشاف ٣٦١/١ ، شرح الأشموني ٦٢/٤.

([3]) ينظر شرح الجمل لابن عصفور ٤٣/٢ .

([4]) الارتشاف ٣٦١/١.

([5]) ينظر التصريح ٤٥١/٢.

([6]) شرح الأشموني ٦١/٤

المبحث الرابع

موافقة البغداديين للبصريين والكوفيين معاً

إعراب المنقوص الممنوع من الصرف

تمهيد :

إذا كان الاسم المنقوص ممنوعاً من الصرف سواءً أكان جمعاً لا نظير له في الآحاد نحو : (غواشٍ ، جوارٍ) ، أم مصغراً نحو : (أُعَيْمٍ) فحكم هذا النوع أنه تحذف ياؤه رفعا وجراً ، ويُنَوّن بإتفاق [1] ، وتظهر الفتحة على الياء دون تنوين في النصب فتقول (هذه جوارٍ ، غواشٍ) وهذا (أعيمٍ) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [2] ، وتقول : (مررت بغواشٍ ، وجوارٍ) و (سلمت على أعيمٍ) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [3] ،

---

[1] اختلف في تنوين نحو(جوار) في الرفع والجر فمذهب الخليل وسيبوية أنه تنوين عوض عن الياء المحذوفه وأصل (جوارٍ ، جوارىٌ) اشتثقلت الضمة على الياء في الرفع والكسرة في الجر مع ثقل الجمع فحذفت الضمة والكسرة فالتقى ساكنان (الياء، والتنوين) فحذفت الياء ثم حذف التنوين لوجود صيغة منتهى الجمع تقديراً ، لأن المحذوف لعلة كالثابت ثم خيف رجوع الياء فأتى بالتنوين عوضاً .

- هذا بناء على أن الإعلال مقدم على منع الصرف لكون سببه وهو الثقل – أمراً ظاهراً محسوساً بخلاف منع الصرف فإن سببه مشابهة الاسم للفعل وهي خفية .
- ومذهب المبرد والزجاجي والزجاج أنه عوض عن حركة الياء (الضمة أو الكسرة) فاصل(جوار) على هذا المذهب (جوارىُ) بترك التنوين ، حذفت الضمة أو الكسرة لثقلها وأتى بالتنوين عوضاً عن الحركة المحذوفة فالتقى ساكنان الياء والتنوين فصارت جوارٍ ، هذا بناء على أن منع الصرف مقدم على الإعلال .
- ومذهب الأخفش أنه تنوين صرف ، لأن الياء لما حذفت تخفيفاً زالت صيغة مفاعل وبقى اللفظ كجناح فانصرف ، وهذا المذهب مبني على تقديم منع الصرف على الإعلال .
- وينظر شرح المفصل ٦٣/١ ، شرح جمل الزجاجي لابن عصفور ٢١٩/٢ ، شرح الأشموني وحاشية الصبان ٢٤٥/٣.

[2] سورة الأعراف ٤١.

[3] سورة الفجر ١ ، ٢.

وتقول : (رأيت غواشىَ ، جوارىَ) ، (وقابلت أعيميًا) ومنه قوله تعالى : ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيَّامًا﴾ ([1]) فتقدر حركة الإعراب فى الرفع والجر وتظهر فى النصب.([2])

وكذا الاسم المنقوص الممنوع من الصرف إذا كان علماً نحو : قاض علم امرأة ، فإنه ممنوع من الصرف للعملية والتأنيث .

فإنه يأخذ حكم جوارٍ وغواشٍ ، فينون رفعاً وجراً ، وتظهر الفتحة لخفتها على الياء بلا تنوين فى حال النصب كما سبق ، فتقول هذه قاضٍ ، ومررت بقاضٍ ، ورأيت قاضىَ .

وهو مذهب الخليل وأبى عمرو بن العلاء وابن أبى إسحاق وجمهور البصريين .([3])

وهو أيضا مذهب سيبويه نص على ذلك فى كتابة حيث قال : " اعلم أن كل شىء كانت لامه ياءً أو واواً ، ثم كان قبل الياء والواو حرف مكسور أو مضموم فإنها تعتل وتحذف فى حال التنوين واواً كانت أو ياء ، وتلزمها كسره قبلها أبداً ، ويصير اللفظ بما كان من بنات الياء والواو سواء ، واعلم أن كل شىء من بنات الياء والواو كان على هذه الصفة فإنه ينصرف فى حال الجر والرفع ، وذلك أنهم حذفوا الياء فخف عليهم ، فصار التنوين عوضاً وإذا كان شىء منها فى حال النصب نظرت : فإن كان نظيره من غير المعتل مصروفاً صرفته ، وإن كان غير مصروف لم تصرفه ، لأنك تتم فى حال النصب كما تتم غير بنات الياء والواو . ([4])

([1]) سورة سبأ ١٨.

([2]) ينظر شرح المفصل ٦٣/١، شرح ابن عقيل ٣٢٨/٣ ، شرح الأشمونى ٢٤٤،٢٤٥/٣.

([3]) ينظر شرح المفصل ٦٤/١ ، التصريح ٣٥٤/٢.

([4]) الكتاب ٣٨٠/٣.

ومقابل المذهب السابق أن الاسم المنقوص الممنوع من الصرف سواءٌ أكان جمعاً نحو : (جوارٍ) أم مصغراً نحو : أعيمٍ ، أم علماً نحو : قاضٍ علم امرأة تثبت فيه الياء مطلقاً ، وتكون ساكنة فى الرفع ، ولا تظهر الضمة لثقلها ، وتفتح هذه الياء جراً ونصباً لخفة الفتحة على الياء ، فتقول : جاءنى جوارِى ، وأعيمىِ ، وقاضىِ ، فى الرفع ، وتقول مررت بجوارىَ ، وأعمىَ ، وقاضىَ ، فى الجر ، وتقول : رأيت جوارى ، وأعيمىَ ، وقاضىَ فى النصب .[1]

وهذا المذهب ليونس وعيسى بن عمر من البصريين وأبى زيد والكسائى والبغداديين على ما ذكره ابن يعيش [2] وأبو حيان [3] والشيخ خالد الأزهرى.[4]

واحتج هؤلاء بقول الفرزدق :

قَدْ عَجِبَتْ مِنِّى وَمِنْ يُعَيْلِيَا

لَمَّا رَأَتْنِى خَلَقاً مَقْلَوْلِيَا [5]

بفتح الياء الأخيرة من يعيليا مصغر (يعلى) علم رجل ، ولم ينونه ، لأنه لا ينصرف للعلمية ووزن الفعل والألف فيه للإطلاق .

---

[1] ينظر التصريح ٣٥٤/٢، ٣٥٥ ، شرح الأشمونى وحاشية الصبان ٢٧٣/٣.

[2] ينظر شرح المفصل لابن يعيش ٦٤/١.

[3] ينظر الارتشاف ٤٤٧/١.

[4] ينظر التصريح ٣٥٤/٢.

[5] هذا رجز للفرزدق كما فى شرح ابن الناظم ص ٤٧٠ ، التصريح ٣٥٥/٢.

- خَلَقًا بفتحتين العتيق جداً ، والمراد هنا : رث الهيئة ، المقلولى بفتح الميم : المتجافى المنكمش .
- والشاهد فى قوله : ومن يعيليا حيث بقيت الياء وفتحت دون تنوين حال الجر فى الاسم المنقوص الممنوع من الصرف .
- ينظر الرجز فى الكتاب ٣١٥/٣ ، المقتضب ١٤٢/١ ، الخصائص ٦/١ ، المنصف ٦٨/٢ ، ولسان العرب مادة (علا) ، الهمع ١٣٦ ، شرح الأشمونى ٢٧٣/٣.

قال عبد الله بن أبى إسحاق : " إن الفرزدق أخطأ فى فتـــح اليــاء مــن (يعيليا) ورُد بأنه من إجراء المعتل مجرى الصحيح فى ترك تنوينة وجره بفتحة ظارهة .

فلما بلغ الفرزدق مقالة عبد الله هجاه بقوله :

وَلَوْ كَانَ عَبْدُ اللهِ مَوْلَىً هَجَوْتُه

وَلَكِنَّ عَبْدَ اللهِ مَوْلَى مَوَالِيا (١)

فلما بلغ عبد الله هجو الفرزدق له بهذا البيت قال : قولوا للفرزدق لحنــت فى هذا البيت أيضا حيث حركت موالىَ فى الخفض (٢)

وهذان البيتان ونحوهما مما حمل على الضرورة عند الخليــل وســيبويه والجمهور . (٣)

---

(١) البيت من البحر الطويل ، والصواب فى روايته كما ذكر البغـــدادى فـــى خزانـــة الأدب ٢٣٧/١: " لو كان عبد الله مولى هجوته " ....البيت .

- بحذف الواو وجعل البيت مخروماً ، لأنه بيت واحد ولم يتقدمه شيء حتى تكـــون الـــواو عاطفة ، وهذا البيت للفرزدق كما فى الكتـــاب ٣١٣/٣ ، المقتضـــب ١٤٣/١ ، ولســـان العرب (عرا) ، شرح المفصل ٦٤/١ ، التصريح ٣٥٥/٢ ، خزانة الأدب ٢٣٥/١.

- والمولى الحليف ، والرجل إذا كان ذليلاً يوالى قبيلة وينضم اليها ليعتز بهم ، فـــإذا إلـــى مولى كان أذل ذليل ، وأراد بالموالى الحضرميين ، يقول الفرزدق : لو كــــان عبـــد الله ذليلاً لهجوته ولكنه أذل من الذليل لأنه حليف الحضرميين .

- والشاهد فى قوله : (مولى مواليا) حيث بقيت الياء وفتحت دون تنوين حال الجـــر فـــى الاسم المنقوص الممنوع من الصرف .

- ينظر البيت فى أوضح المسالك رقم ٤٨٩ ، الهمع ٣٦/١ ، شرح الأشمونى ٢٧٣/٣.

(٢) الكتاب ٣١٥/٣ ، ٣١٦ ، شرح الأشمونى ٢٧٣/٣.

(٣) ينظر التصريح ٣٥٥/٢ ، شرح الأشمونى ٢٧٣/٣ ، خزانة الأدب ٢٣٨/١.

الخاتمـــــة

الحمد لله فى البدء والختام ، والصلاة والسلام على خير الأنام ، ورضـــى الله عن صحابته السادة الأعلام .

وبعـــد ؟؟

فإن حصر آراء البغداديين النحوية والصرفية وتناولها بالدراسة والتحليـل والحكم لها أو عليها بالحجج والبراهين من خلال المقارنــــة بينــــها وبيـــن آراء غيرهم من النحويين لهو أمر من الأهمية بمكان ، فقد عرض هذا البحـــث آراء إحدى المدارس النحوية العريقة التى كان لها دور مهم فى مجـــال الدراســـات اللغوية بوجه عام وتطور الدراسات النحوية والصرفية بوجه خاص ، فإن أحـدا لا يستطيع أن ينكر ما قام به البغداديون من جهد كبير وما أضـــافوا مـــن آراء انفردوا بها عن غيرهم أو اختيارات لما ثبت لديهم صحته بالأدلة القطعية أو بان لهم رجحانه بالحجج القوية من آراء البصريين والكوفيين .

ومن ثم نجد أن هذه الدراسة قد أسفرت عن تصنيف آراء البغداديين فـــى ضوء كتاب (التصريح بمضمون التوضيح) للشيخ خالد الأزهرى ، وهى كمـــا يلى :

١-ما انفرد به البغداديون .

٢-موافقة البغداديين للبصريين .

٣-موافقة البغداديين للكوفيين .

٤-موافقة البغداديين ببعض من البصريين والكوفيين .

وأخيرا فإن ما انفرد به البغداديون من آراء وإن كانت قليلة - يُعد مـــن قبيل التوسع فى اللغة والتيسير فيها ، ومن ذلك تجويز البغداديين تذكير العدد إذا

كان المعدود مذكراً وقد جمع بالألف والتاء فنقول : ثلاث مجلدات ، وخمس سجلات ، مراعاة للفظ الجمع ، أما غيرهم فيؤنث العدد مراعاة للمفرد المذكر ، إذ لا اعتداد حينئذ يكون المعدود مؤنثا فى الجمع ، فنقول : ثلاثة مجلدات ، وخمسة سجلات ، وعلى هذا يكون كلا الاستعمالين.

أعنى تذكير العدد وتأنيثه فى مثل هذه الحال - جائزين ، ولا يخص ما فى هذا ونحوه من التيسير فى اللغة وإثرائها .

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهة الكريم وينفع به ، ويغفر لى ما فيه من الخطأ والتقصير ، إنه قريب مجيب .

دكتور

خالد محى الدين مدنى عبد الوهاب

فهرست المراجع

١-إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للشيخ أحمـــد البنـــا . ت/د شعبان محمد إسماعيل ، ط/ عالم الكتب ومكتبة الكليات الأزهرية ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـــ - ١٩٨٧م.

٢-ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبى حيان الأندلســـى .ت/د مصطفـــى أحمد النماس ، ط/ مطبعة المدنى ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـــ-١٩٨٧م.

٣-أساس البلاغة للزمخشرى .ت/ عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة بـــيروت ١٩٨٢م.

٤-أسرار العربية للأنبارى .ت/ محمد بهجت البيطار ، مطبوعات المجمــــع العلمى العربى بدمشق ، الطبعة الأولى ١٩٥٧م.

٥-الأصول فى النحو لابن السراج .ت/د. عبد الحسين الفتلى ، ط/مؤسســـة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـــ- ١٩٨٥م.

٦-الأم للإمام الشافعى .ط/ دار الشعب .

٧-الانتصاف من الإنصاف للشيخ محمد محى الدين عبد الحميد ١٩٨٢م.

٨-الإنصاف فى مسائل الخلاف لأبى البركات الأنبارى .ت/محمد محيى الدين عبد الحميد ١٩٨٢م.

٩-أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام الأنصارى .ت/ محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط/دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

١٠- البحر المحيط لأبى حيان ، ط/دار الكتاب الإسلامى . القاهرة ، الطبعـــة الثانية ١٤١٣هـــ - ١٩٩٢م.

١١- البسيط فى شرح جمل الزجاجى لابن أبى الربيع .ت/ عياد بن عيد الثبيتى ، ط/ دار الغرب الإسلامى ، بيروت . لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

١٢- البيان فى غريب إعراب القرآن لأبى البركات الأنبارى .ت/د٠طه عبد الحميد طه ، ومراجعة / مصطفى السقا ، ط / الهيئة العامة للكتاب ١٤٠٠ هـ -١٩٨٠م.

١٣- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك .ت/ محمد كامل بركات ، ط/ دار الكاتب العربى ١٣٨٧هـ -١٩٦٧م.

١٤- التصريح بمضمون التوضيح للشيخ خالد الأزهرى ، ط/ دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ت / محمد باسل عيون السود ، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م .

١٥- التعليقة لبهاء الدين ابن النحاس .

١٦- تفسير القرطبى .ط/ دار الريان للتراث مصورة عن طبعة الشعب .

١٧- الجمل للزجاجى . ت/أمين أبى شنبار ياريس ، الطبعة الثانية ، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

١٨- الجنى الدانى فى حروف المعانى للمرادى . ت / طه محسن ، ط/مؤسسة دار الكتب ، جامعة الموصل ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م.

١٩- حاشية الشهاب المسماة بعناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى . ضبطه وخرَّج آياته وأحاديثه الشيخ عبد الرازق المهدى ، ط / دار الكتب العلمية . بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٢٠- حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك . دار حياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاه .
٢١- حاشية ياسين على تصريح الشيخ خالد الأزهرى . ط / دار الفكر .
٢٢- حروف المعانى لأبى القاسم الزجاجى . ت / على توفيق الحمد ، ط/ مؤسسة الرسالة ، دار الأمل ، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م .
٢٣- خزانة الأدب للبغدادى . ت/ عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجى بالقاهرة - دار الرفاعى بالرياض .
٢٤- الخصائص لابن جنى . ت/محمد على النجار ، دار الكتاب العربى - بيروت .
٢٥- الدرر اللوامع على همع الهوامع للشنقيطى . تحقيق وشرح / عبد العال سالم مكرم ، دار البحوث العلمية الكويت ، الطبعة الأولى ١٩٨١م.
٢٦- ديوان جرير بن عطية . ت/ نعمان أمين طه ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة .
٢٧- ديوان حسان بن ثابت الانصارى ز ت/ سيد حنفى حسنين ، دار المعارف بمصر ١٩٧٧م.
٢٨- ديوان رؤبة بن العجاج . ت / وليم بن الورد ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.
٢٩- ديوان لبيد بن ربيعة العامرى . ت/ إحسان عباس ، نشر وزارة الإعلام فى الكويت ، مطبعة حكومة الكويت ، الطبعة الثانية ١٩٨٤م.
٣٠- سر صناعة الإعراب لابن جنى ز ت/حسن هنداوى ، ط/دار القلم دمشق ، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٣١- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك . ت/ محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة دار التراث - القاهرة - الطبعة العشرون ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

٣٢- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك . ط / دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه .

٣٣- شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم . ت/د عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد ، ط/دار الجيل ، بيروت .

٣٤- شرح التسهيل لابن مالك ز ت/د عبد الرحمن السيد ، د٠ محمد بدوي المختون ، ط/دار هجر ، الجيزة ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٣٥- شرح جمل الزجاجي لابن عصفور ، ت /د٠صاحب أبو جناح ، ط/ مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر جامعة الموصل - بغداد ١٤٠٢- ١٩٨٢هـ .

٣٦- شرح ديوان الحماسة للمرزوقي . ط/دار الجيل - بيروت . الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٨٢م.

٣٧- شرح شافية ابن الحاجب للرضي ز ت/ محمد نور الحسن وآخرين ، ط / دار الكتب العلمية ، بيروت .

٣٨- شرح شواهد الشافية للبغدادي ز ت / محمد نور الحسن وآخرين ، ط/دار الكتب العلمية ، بيروت .

٣٩- شرح شواهد المغني للسيوطي . منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت .

٤٠- شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ لابن مالك . ت/ رشيد عبد الرحمن العبيدى . نشر لجنة إحياء التراث فى وزارة الأوقاف فى الجمهورية العراقية ، الطبعة الأولى ١٩٧٧م.

٤١- شرح القاضى عضد الملة والدين على مختصر المنتهى الأصولى لابن الحاجب المالكى مع حاشية سعد الدين التفتازانى . ط/١٣٩٤هـ، ونشر مكتبة الكليات الأزهرية .

٤٢- شرح كافية ابن الحاجب للرضى .ط/دار الكتب العلمية . بيروت - لبنان .

٤٣- الصحاح للجوهرى تحقيق / أحمد عبد الغفور عطا - دار العلم للملايين بيروت - الطبعة الثانية - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٤٤- صحيح البخارى .

٤٥- صحيح مسلم .

٤٦- العقد الفريد لابن عبد ربه . شرحه وضبطة وعنون له أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبيارى . ط / دار الكتاب العربى . بيروت ١٩٨٨م.

٤٧- عيون الأخبار لابن قتيبه . شرحه وضبطة وعلق عليه وقدم له ورتب فهارسه يوسف على طويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٤٨- كتاب سيبوية . ت/ عبد السلام هارون ، ط/ مكتبة الخانجى بالقاهرة، دار الرفاعى بالرياض - الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٤٩- الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي بن أبي طالب .ت/د٠محيي الدين رمضان ، ط/ مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٥٠- لسان العرب لجمال الدين بن منظور .

٥١- اللمع في العربية لابن جني . ت/ حسين محمد محمد شرف . عالم الكتب القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٧٥م.

٥٢- المحتسب لابن جني . ت/ علي النجدي ناصف ، د٠ عبد الحليم النجار ، د٠ عبد الفتاح شلبي . ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

٥٣- المدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف . الطبعة الثامنة ، دار المعارف.

٥٤- مراتب النحويين ، لأبي الطيب عبد الواحد اللغوي ، مخطوط بالخزانة التيمورية رقم ١٠٢٥.

٥٥- المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات لأبي علي الفارسي ، دراسة وتحقيق / صلاح الدين عبد الله السنكاوي . ط / العاني - بغداد .

٥٦- المسائل المنثورة لأبي علي الفارسي . ت/ مصطفى الحدري ، ط/ مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .

٥٧- المستقصى في أمثال العرب للزمخشري . ط/ دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان . الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

٥٨- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري . ت/ محمد محيي الدين عبد الحميد . ط/ محمد علي صبيح وأولاده .

٥٩- المفصل فى العربية للزمخشرى . ط / دار الجيل بيروت - لبنان الطبعة الثانية .

٦٠- المقرب لابن عصفور . ت/ أحمد عبد الستار الجوارى ، عبد الله الجبورتى . الطبعة الأولى . ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .

٦١- الممتع فى التصريف لابن عصفور . ت / فخر الدين قباوة . دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٧٩م.

٦٢- منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل للشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، مكتبة دار التراث . القاهرة - الطبعة العشرون ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

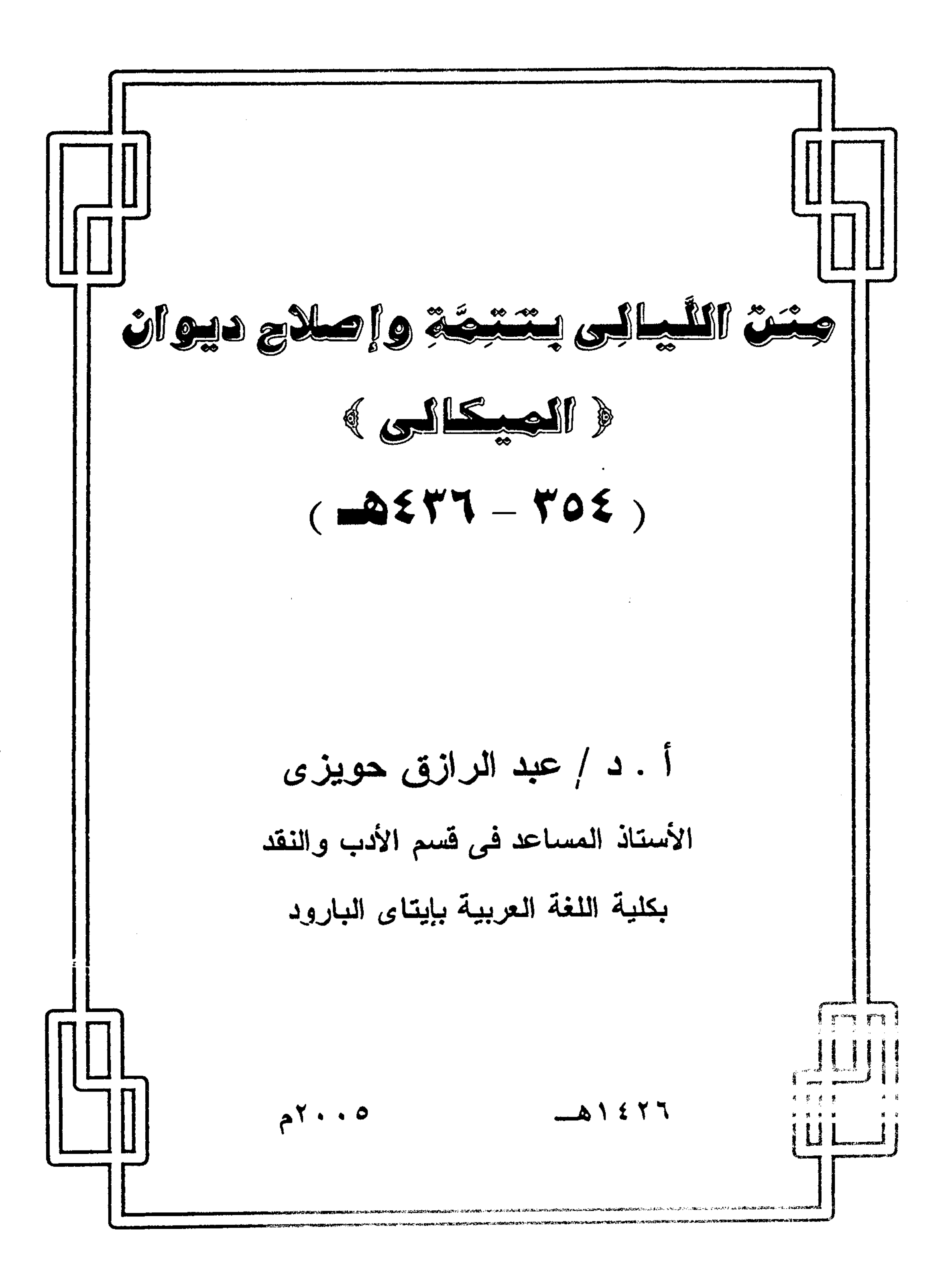
٦٣- المنصف شرح الإمام أبى الفتح عثمان بن جنى ، لكتاب التصريف للإمام أبى عثمان المازنى . ت- الأستاذين : إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين . ط/ وزارة المعارف العمومية . إدارة إحياء التراث القديم . الطبعة الأولى ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

٦٤- النحو العربى . نشأته وتطوره ، للدكتور / صلاح رواى ، ط/دار غريب - القاهرة .

٦٥- نشأة النحو للشيخ محمد الطنطاوى ، ط/دار المعارف . الطبعة الثانية.

٦٦- همع الهوامع شرح جمع الجوامع فى العربية للسيوطى . عنى بتصحيحه / السيد محمد بدر الدين النعسانى ، ط/دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان .

فهرست الموضوعات



مِنَ اللَّيالِى بِتَتِمَّةِ وإصلاح ديوان

« الميكالى »

(٣٥٤ - ٤٣٦هـ)

أ . د / عبد الرازق حويزى

الأستاذ المساعد فى قسم الأدب والنقد

بكلية اللغة العربية بإيتاى البارود

١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م

المقدمة :

" أبو الفضل الميكالي ، عبيدالله بن أحمد بن علي " اسم لمع نجمه في سماء الأدب العباسي ، وبالتحديد في النصف الثاني من القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الهجري ، ترك تراثاً أدبياً لا يستهان به في الدراسات الأدبية ، فقد حفظ له كل من " الثعالبي " في كتابه " يتيمة الدهر " ، و " ياقوت الحموي " في موسوعته " معجم الأدباء " طائفة حسنة من النصوص النثرية ، كما حفظت لنا كثير من المصادر الأدبية والتاريخية عدداً كبيراً من مقطعاته الشعرية التي أفصحت عن مذهبه في تعاطي الشعر ونظمه ، وهو مذهب الجناس ، وخاصة " جناس القوافي " ، ويعد شاعرنا بمذهبه هذا أبرز أفراد تلك المدرسة التي ضمت كوكبة من شعراء عصره ، وهم : (أبو الحسن أحمد بن المؤمل " أبو الفتح البستي ت ٤٠٠هـ " ، والقاضي أبو بكر عبد الله ابن محمد البستي ، وأبو سعد عبد الرحمن بن محمد بن دوست ، وأبو عبد الرحمن محمد بن عبد العزيز النيلي ، وأبو سهل بكر بن عبد العزيز النيلي) .

وكان " للميكالي " ديوان شعر ، يضم كُلَّ ما نظم من قصائد ومقطعات ، أتى على ذكر هذا الديوان " ابن شاكر الكتبي ت ٧٦٤هـ " في كتابه " فوات الوفيات " ، وهو بصدد ترجمته " للميكالي " ، وقد ضاع هذا الديوان في جملة ما ضاع من تراثنا النفيس الذي نستمد منه كل أصيل ورصين ، وبضياعه خلت مكتبة الشعر العباسي من أثر نفيس ، له أهمية خاصة ، إذ بوجود هذا الديوان كاملاً كان من الممكن للباحثين أن يستجلوا مذاهب شعرية جديدة ، واتجاهات أدبية طريفة .

ومن حسن الحظ لنا و" للميكالي " أن رفيقه " عمر بن علي بن محمد المطوعي ت ٤٣٠هـ" قد جمع له حصيلة شعرية لا بأس بها ، ورصَّع بها كتابه الموسوم بـ " دَرْج الغُرَر ودُرَج الدرر" ، وهذه الحصيلة هي في حقيقة الأمر

تعد معظم ما بين أيدينا من شعر " الميكالي " ، ويبقى بعد ذلك أصل ديوانه المخطوط في ذمة الأيام والتاريخ ، ننتظر العثور عليه بين الفينة والأخرى .

وقد تدارك ما يمكن تداركه من هذا الأمر أحد المحققين الأثبات ، وهو الدكتور " جليل العطية " ، فقد عَزَّ عليه ضياع هذا الديوان ، وبُعدهُ عن أقلام الباحثين والدارسين ، فشمَّر عن ساعد الجد ، وحقق كتاب " دَرْج الغُرَر " الذي ضم بين دفتيه أكثر شعر " الميكالي " ثم هرع إلى المصادر الأدبية والمظان التاريخية فجمع منها ما عثر عليه منسوباً " للميكالي " ، وضَمَّ ما جمعه من المصادر إلى ما سبق أن قام بتحقيقه في كتاب " درج الغرر " مما يخص شعر "الميكالي" ، ونشر الجميع في ديوان قائم بذاته تحت عنوان : "ديوان الميكالي" ، صدرت طبعته الأولى عن عالم الكتب - بيروت - ١٩٨٥م ، وهي الطبعة المشهورة المتداولة في أيدي الباحثين حتى الآن .

وكنا نأمل أن تأتي نشرة د : " جليل العطية " لديوان " الميكالي " خالية من النقص ، خاوية من الأخطاء ، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ، فقد جاءت هذه النشرة حاوية لكثير من الأوهام التي جعلت الديوان مسخاً شائهاً ، وجعلت من قراءته ودراسته أمراً صعباً بعيد المنال ، وقد لحظنا أن هذه الأوهام متنوعة ، فمنها ما يرجع إلى الخلل والاضطراب في المنهج ، ومنها ما يرجع إلى إهمال التحقق من نسبة بعض المقطَّعات إلى "الميكالي" ، فقد قام المحقق بدَسِّ خمس عشرة مقطعة في الديوان ، مع أنها لشعراء آخرين دون أدنى تعليق منه يفيد بأن هذه المقطعات مختلف في نسبتها إلى " الميكالي " ، ومن هذه الأوهام أيضاً ما يرجع إلى الخلل العروضي في كثير من أبيات الديوان ، والخطأ في تحديد أوزان كثير من مقطعاته ، ومنها ما يرجع إلى الضبط الخاطئ لبعض الألفاظ ، هذا إلى النقص الواضح في تخريج المقطَّعات ، ورصد جميع روايات الأبيات في المصادر المختلفة .

ومن هنا أتت دراستنا هذه لتزيل الخلل المنتشر عبر صفحات الديوان ، وتكمل ما يحتاج إلى إكمال ، وتحذف ما يستحق الحذف ، وتقوّم ما يفتقر إلى التقويم ، وتمحو العوار الظاهر في جوانب مختلفة في تحقيق الديوان تطلعاً إلى تنقيته والوصول به إلى درجة تقترب من الكمال – وسبحان من له الكمال المطلق – ، وأملاً في وضعه بين أيدي الدارسين في صورة مرضية كي يقبلوا عليه باطمئنان تام إلى صحة ما جاء به .

وقد وزّعنا مآخذنا على هذا الديوان على عدة عناصر ، تمكّنا من خلالها رصد هذه المآخذ ، وبالتالي تصحيحها ، ورأب صدعها ، هذه العناصر هي :

أولاً : خلل المنهج .

ثانياً : إخراج ما دسه المحقق وَهْماً في ديوان " الميكالي " .

ثالثاً : تتمة ديوان الميكالي .

رابعاً : إصلاح الأوهام العروضية .

خامساً : تتمة الروايات .

سادساً : تتمة التخريج .

سابعاً : تصحيح تعليقات المحقق على النتف والمقطعات .

ثامناً : إصلاح الأخطاء الضبطية والمطبعية .

وتكمن أهمية هذه الدراسة ومثيلاتها في أنها ذات آصرة قوية وعميقة بمنهج دراسة الأدب العربي الذي يشوبه كثير من الخلط والخبط على غير هدي في كثير من البحوث ، فهناك عزوف من الجمع الغفير من الباحثين الذين يتناولون دراسة شعراء تم جمع شعرهم وتحقيقه في العصر الحديث ، بعد ضياع أصول دواوينهم المخطوطة ومواصلة بذل الجهد في البحث عن أشعار جديدة لم تتضمنها تلك الدواوين كي تأتي نتائجهم تامة وشاملة ، لا يعتورها نقص أو قصور ، وكذلك هناك قعود واضح من عدد كبير من الدارسين عن التحقق من نسبة الأشعار التي ضمها الديوان أو الدواوين المجموعة الخاضعة

للدراسة ، هل هذه الأشعار لهذا الشاعر فعلاً أو لا ، كي يبتعدوا عما يجدونه مختلطاً من أشعار فات المحقق التنبيه عليها ، ومن ثم تأتي نتائجهم سديدة وأحكامهم صحيحة ، فالظاهر الآن أن باحثي الدراسات العليا يقنعون باليسير من الجهد ، فيؤثرون الراحة ، ويخلدون إلى الدعة ، ويتناولون في دراستهم الشعر المجموع على ما هو عليه دون مزيد منهم أو تعليق أو تعقيب ، ودون أن تظهر بصماتهم العلمية التي يجب أن تفوق بصمات محققي هذه الدواوين .

ولم يقتصر الخلط الشعري على الشعراء في قرن واحد فقط ، بل تعدى ذلك إلى عصور الأدب المختلفة ، حيث نجد أن مقطعات بعض الشعراء الأمويين نسبت في بعض المصادر لبعض الشعراء العباسيين ، كما نجد مقطعات بعض شعراء القرن الثالث الهجري منسوبة لبعض شعراء القرن الرابع أو الخامس الهجريين .

ومن هنا تنشأ المعضلة الكبرى في دراسة الأدب العربي ، ويكمن الخطأ الفادح في دراسة نصوصه الشعرية ،إذ يترتب على ذلك فوضى لا حد لها ، لا تأتي في جميع أحوالها بخير ، وما ذلك إلا لأن دراساتنا للأدب العربي لم تقم على أسس سليمة ، ومن هنا تأتي نتائجنا على الشعراء أولاً ، وعلى العصور الأدبية ثانياً خداجاً، يشوبها الضعف ، ويعتريها القصور ، والسبب في ذلك أن كثيراً من الباحثين يهملون التحري ، ويطرحون البحث والتقصي عن مدى صحة نسبة الأشعار التي يدرسونها لأربابها الذين هم أولى بها وأحق .

هذا ، والله – ﷻ – أسأل أن يوفقني وجميع الباحثين في شتى أرجاء المعمورة لما فيه الخير والصلاح لخدمة لغتنا العربية لغة الذكر الحكيم وتراثنا العربي النفيس الذي نستمد منه عظمة ماضينا ، وعدة حاضرنا ، وأمل مستقبلنا المشرق الزاهر الزاهي .

د : عبد الرازق حويزي

الميكالي وديوانه :

يعد الأمير " أبو الفضل " عبيدالله بن أحمد بن علي الميكالي من أبرز أعلام الأدب العربي في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، فقد وُلِدَ في خراسان عام (٣٥٤هـ) ، وتوفي عام (٤٣٦هـ) .

نشأ " أبو الفضل الميكالي " منذ نعومة أظفاره على حب الثقافة العربية الخالصة ، فدرس بعض العلوم العربية ، غير أن ولعه بالأدب العربي ملك عليه حسه ، فتخصص فيه ، ومن ثم أصبح بعد ذلك أديباً لوذعياً وشاعراً مشهوراً ، يشار إليه بالبنان في شتى المحافل الأدبية والأندية الشعرية والمجالس العلمية ، وبجانب ذلك كان له باع طويل في التأليف ، فقد ألف بعض المؤلفات القيمة ، أتى على ذكر أسمائها الدكتور : " جليل العطية [(١)] " في تقديمه للديوان ص ١٠، ١١ ، وأتى على ذكر أكثرها " ابن شاكر الكتبي ٧٦٤هـ [(٢)] " ، في كتابه فوات الوفيات ٣٢٨/٢ ، ولا بأس من ذكر مؤلفات الميكالي هنا ، خاصة وأن منها كتاباً طبع مؤخراً ، وهذه المؤلفات هي : الأمثال ، وديوان رسائل ، ومخزون البلاغة ، وملح الخواطر ، ومنح الجواهر ، ونزهة اللواحظ من كلام الجاحظ ، أما الكتاب الذي طبع مؤخراً فهو المنتخل ، وهو مجموعة طيبة من عيون الشعر العربي ، اختارها بدقة ، وكشف في اختياره لها عن ذوقه الأدبي الرفيع ، وحسه الشعري المرهف ، ووزَّعها على خمسة عشر فصلاً ، ويقع هذا الكتاب في مجلدين ، وعُني بتحقيقه الدكتور : " يحيى الجبوري " ، ونشرته دار الغرب الإسلامي – بيروت – للمرة الأولى عام ٢٠٠٠م .

---

(١) انظر ديوان الميكالي ص ١٠ ، ١١ جمع وتحقيق د : جليل العطية – عالم الكتب – بيروت – ط١ – ١٩٨٥م .

(٢) انظر فوات الوفيات ٣٢٨/٢ تحقيق د: إحسان عباس – دار صادر – بيروت – د.ت.

والجدير بالذكر أن " أبا منصور الثعالبي ٣٥٠ - ٤٢٩هـ " قد انتخب هـذا الكتاب في مؤلَف له ، نشره " أحمد أبو علي " في الإسكندرية عـام ١٩٠١م ، ونشرته مؤخراً مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة بعد ذلك بالتصوير عـن الطبعـة السابقة دون ذكر لسنة النشر .

ولا شك أن هذه المؤلفات تعطي لنا صورة واضحة عن نشاط " الميكالي " على صعيد التأليف الأدبي ، أما نشاطه على صعيد الإبداع الشعري فـلا يقـل بحال من الأحوال عن نشاطه في التأليف ، فقد تبقى لنا من تراثه الشعري بعد ضياع ديوانه الذي ذكره " ابن شاكر الكتبي " حصيلة شعرية لا بأس بها ، أرى أنها قمينة بالبحث، حرية بالدراسة ، جديرة - من وجهة نظـري - بإلقـاء الضوء على شاعرية " الميكالي" والكشف عن منزلته في موكب الشعر العربي ، جمع أكثر هذه الحصيلة أحد أجدادنا الأدباء ، وهو " عمر بن علي بـن محمـد المطوعي ت ٤٤٠هـ تقريباً "في كتابه الموسوم بـ " درَج الغرر ودُرج الدرر " ، الذي أوقف معظم صفحاته على جمع شعر " الميكالي " اللـهم إلا فـي القليـل النادر.

وقد قام جامع ديوان " الميكالي " ومحققه وهو الدكتور " جليل العطيـة " بتحقيق هذا الكتاب ، وجعله - كما قال- نواة لديوان " الميكالي " ، وأضاف إلى ما احتجنه هذا الكتاب من شعر" الميكالي " كثيراً من المقطعات ، وقف عليها في المصادر الأخرى ، وبذلك تكونت لديه من شعر " الميكالي " حصيلـة شـعرية ممتازة ، بادر بنشرها في ديوان مستقل ، وهو محور دراستنا الآن .

وبهذا يتضح لنا أن د: " جليل العطية "لم يتحمل جهداً كبيراً في إخـراج ديوان " الميكالي " ، إذ حقق معظمه في كتـاب " دَرْج الغـرر للمطوعـي " ، وبذلك يكون المحقق قد قام - كما يقال - بضرب عصفورين بحجر واحد !

وكنا نأمل من محقق ديوان " الميكالي " أن نقف له على جهد أكبر من الجهد المشكور الذي بذله ، حتى لا تأتي محاولته لنشر هذا الديوان طافحة بالأخطاء ، زاخرة بالأوهام من كل لون .

وكم كنتُ أتمنى منذ وقفتُ على الديوان فور نشره أن أستقطع له بعضاً من وقتي ، أقرأ فيه شعر " الميكالي " برمته أولاً ، ثم سائر نثره المنثور كاللآلي في بطون المظان والأسفار المختلفة ثانياً ، خاصة وأن اسم " الميكالي " يتردد بصورة تسترعي الانتباه في كتب التراجم والأدب العربي ، وهذا دليل على مكانته السامية في عالم الإبداع الأدبي ، تلك المكانة التي أفصح عنها الثعالبي في قوله : "[1] والأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد يزيد على الأسلاف والأخلاف من آل ميكال زيادة الشمس على البدر ، ومكانه منهم مكان الواسطة من العقد ؛ لأنه يشاركهم في جميع محاسنهم وفضائلهم ومناقبهم وخصائصهم ، ويتفرد عنهم بمزية الأدب الذي هو ابن بَجْدته وأبو عذرته وأخو جملته ، وما على ظهرها اليوم أحسن منه كتابة وأتم بلاغة ، وكأنما أوحي بالتوفيق والتسديد إلى قلبه ، وحبست الفقر والغرر بين طبعه وفكره، فهو من ابن العميد عوض ، ومن الصاحب خلف ، ومن الصابي بدل ، ثم إذا تعاطى النظم فكأن عبدالله بن المعتز ، وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وأبا فراس قد نشروا بعدما قبروا.

وقد ترجم هذه المكانة الشماء ومنزلته السامية شعراً أحد الشعراء عندما قال[2] :

لك في المحاسنِ مُعْجِزَات جَمَّةٌ ... أبداً لِغَيْرِك في الورى لم تُجْمَعِ

بَحْران بَحْرٌ في البَلاغَةِ شَابَهَ ... شِعْرَ "الوليد" وحسن حفظ "الأصْمَعِي"

وتَرَسُّل " الصابي " يزين علوه ... خَطُّ " ابن مقلة " ذي المَحَلَّ الأرفعِ

---

(١) يتيمة الدهر ٤/٣٥٤-٣٥٧ .

(٢) السابق ٤/٣٥٥ .

شكراً فكم من فقـــرة لـــك كـــالغِنَى وافـــى الكريـــم بعيـــد فقـــر مُدْقِــــعِ
وإذا تفتّـــق نَـــورُ شـــعرك نـــاضِراً فالحســـنُ بيـــن مُرَصَّـــعٍ ومُصَـــرَّعِ
أرجلتَ فرسان القريــــضِ ورُضْـــتَ أفـــراسَ البديـــعِ وأنـــتَ أفـــرسُ مُبْـــدِعِ

هذا ، فضلاً عن كون " الميكالي " أحد أفراد مدرسة تحتاج إلـــى دراســـة جادة من باحث جاد ، مدرسة ذات منهج طريف في توظيف الجناس في الأبيات والنتف الشعرية ، والحرص على التلاعب بالألفاظ من أجل إحداثـــه ، وهـــي مدرسة " جناس القوافي " في القرن الرابع الهجري ، ومن أعلام هذه المدرســـة غير شاعرنا " الميكالي " : " أبو الحسن أحمد بن المؤمـــل " ، و " أبـــو الفتـــح البستي ت ٤٠٠ﻫ " ، و " القاضي أبو بكر عبد الله ابن محمد البستي " ، و " أبـــو سعد عبد الرحمن بن محمد بن دوست " ، و " أبو عبد الرحمن محمد بن عبـــد العزيز النيلي " ، و " أبو سهل بكر بن عبد العزيز النيلي [١] " .

إن ما تمتَّع به " الميكالي " من موهبة ندية في سماء الأدب العربي ، ومـــا تبوأه من مكانة مرموقة بين أدباء عصره ، وما تميز به إبداعـــه مـــن طرافـــة وسلاسة، كل ذلك قد وَطَّدَ في نفسي العزم الأكيد على قراءة أدبـــه لاســـتجلاء خصائصه ، كما حفَزَ باحثاً من قبلي ، ومن قبل د: " جليل العطية " – محقـــق الديوان – إلى إفراد دراسة متخصصة عن حياة "الميكالي " وأدبه فـــي رســـالة ماجستير ، هذا الباحث هو: " حامد عبدالكريم الخطيب " ، وقد تقـــدم برســـالته إلى كلية اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٧٩م.

وعندما أتيحت لي الفرصة ، واتسع أمامي الوقت لم أتوان لحظـــة عـــن اهتبالها ، فهرعت إلى الديوان ، وبدأت بقراءة ما به من شعر لإعـــداد دراســـة

---

(١) انظر السابق ١٤٨/٤ ، ٣٠٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ وترتيب الصفحات علـــى ترتيب الشعراء .

عنه ، هالني ما وجدت ، فقد وقفت فيه على كثير من الأخطاء التي جعلت الديوان مسخاً شائهاً ، وأساءت إلى أدب " الميكالي " إساءة بالغة ، وما كنا نظن بأي حال من الأحوال أن يزل قلم د: " جليل العطية " في كل هذه الأوهام ، خاصة وأنه قد نهض بتحقيق معظم هذا الديوان مرتين ، مرة في كتاب درج الغرر ، والمرة الأخرى في ديوان " الميكالي " .

إن انتشار هذه الأخطاء على صفحات هذا الديوان بهذه الصورة السافرة تجعل تناول الباحثين له بالدراسة والتحليل أمراً شبه مستحيل ، ولن تأتي أي دراسة مقامة عليه وهو بصورته الحالية بخير ، وهذا ما أثنانا عن قصدنا ، وجعلنا نفرد له هذه السطور التي تهدف إلى تنقيته وتصحيح ما اشتمل عليه من أخطاء حدت بنا إلى القول : إن تحقيق هذا الديوان على هذا النحو يعد من أسوأ نماذج التحقيق العلمي على المستوى الأكاديمي وغيره ، ولعل السبب الأساسي في ذلك يرجع إلى التعجل في التحقيق والنشر ، وإهمال الاعتصام بالتريث والأناة ،وما من شك في أن عملاً واحداً يعتصم صاحبه في تنفيذة بالأناة ليخرج العمل جيداً ويظل خالداً، يذكر به اسم منفذه ، ولا يحفز الآخرين إلى نقده والاستدراك عليه ، وإضاعة الوقت والجهد في إعادة نشره أو في التعقيب عليه أفضل - من وجهة نظري - من إنجاز عشرة أعمال تطغى عليها جميعاً العجلة ، وتتسم بالعوار والنقص .

أما عن الأخطاء التي سقطت في هذا الديوان فهي كثيرة ومتنوعة ، فيقف الباحث فيه على أبيات كثيرة جداً مختلة عروضياً ، وأخرى لا تقل عنها كثرة بل تزيد كتبت بطريقة شعرية خاطئة ، ويقف كذلك على ألفاظ كثيرة جداً تم ضبطها بطريقة خاطئة ، أدى هذا الضبط إلى كسر وزنها ، ونشاز موسيقاها ، ويقف كذلك على النقص الواضح في تخريج المقطعات والنتف الشعرية ، ورصد روايات أبياتها في المصادر المختلفة ، هذا إلى جانب وقوفه على خمس

عشرة مقطعة شعرية قام المحقق بدسها في ديوان الميكالي مع أنها ليست خالصة النسبة إليه دون أن يشير إلى أنها تنسب لغيره في بعض المصادر الأخرى ، أضف إلى ذلك تلك المقطعات التي يقف عليها الباحث في بعض المصادر ولا يجد لها أثراً في الديوان ! .

وقد حدا بنا تنوع هذه الأخطاء وتعددها إلى توزيعها على عناصر ، يمكن من خلالها رصد هذه الأخطاء ، ومحاولة إصلاحها ، ورأب صدعها ، رغبة في الوصول بالديوان إلى درجة تقترب من الكمال – لأن الكمال المطلق لله – ﷻ – وحده، فيقبل الباحث على دراسة شعر " الميكالي " وهو مطمئن إلى أن ما في الديوان من شعر إنما هو صحيح النسبة إليه ، وأن المقطعات والنتف خالية – إلى حد ما – من التشويه والخطأ ، ومن ثم تأتي نتائجه صحيحة ، وأحكامه النقدية على شاعرية " الميكالي " ومكانته الأدبية سديدة ، أما العناصر التي سنحاول من خلالها معالجة ما سقط في الديوان من أوهام فهي :

أولاً : الإشارة إلى خلل المنهج .

ثانياً : إخراج ما دسَّه المحقق وهماً في ديوان " الميكالي " .

ثالثاً : تتمة ديوان " الميكالي " .

رابعاً : إصلاح الأوهام العروضية .

خامساً : تتمة الروايات .

سادساً : تتمة التخريج .

سابعاً : تصحيح تعليقات المحقق على النتف والمقطعات .

ثامناً : إصلاح الأخطاء الضبطية والمطبعية .

هذه هي العناصر التي سنحاول من خلالها تصحيح ما انكدر فيه قلم د : " جليل العطية " من أوهام ، وأرى أن هذه العناصر سوف تستوعب جميع ملحوظاتنا على الديوان ، ونبدأ بالعنصر الأول وهو :

أولاً : الإشارة إلى خلل المنهج :

ذكرنا آنفاً أن الدكتور " جليل العطية " قام بتحقيق كتاب " درج الغرر للمطوعي " ، الذي احتوى على أكثر شعر الميكالي[1] ، ثم أضاف إلى الحصيلة الشعرية التي وردت في هذا الكتاب ما عثر عليه من مقطعات ونتف في المصادر الأخرى ، ونشر كل ما تجمَّع لديه من شعر في ديوان مستقل ، وسمه بـ " ديوان الميكالي : عبيدالله بن أحمد بن علي ٤٣٦هـ - ١٠٤٥م " ، وصدرت طبعته الأولى ، وهي الطبعة المتداولة حتى الآن في أيدي الباحثين عن عالم الكتب - بيروت - ١٩٨٥م ، وقد وقع هذا الديوان في ٢٤٨ صفحة ، واشتمل على ١٩٤ مقطعة ونتفة ، احتجنت - كما ذكر المحقق - ٦١٥ بيتاً .

أما عن المنهج الذي امتطاه المحقق فقد أفصح عنه في قوله : "[2] حرصت فيه على تقديم كل ما صح عندي من أشعار أبي الفضل الميكالي ، جمعتها من طائفة من المصادر المطبوعة والمخطوطة ، وحرصت أن تكون هذه الأشعار مُوَثقة من قبل رواته المعروفين : المطوعي ، والثعالبي ، والعتبي ، والباخرزي " .

وأقول : شيء طيب وحميد أن يحرص المحقق في جمعه لشعر "الميكالي" على الاعتماد على رواته المعروفين ، لكن الأمر الذي لا يحمد عليه حقاً هو اطمئنانه التام إلى عدم وَهْم هؤلاء ، وكأنهم مبرؤون من الخطأ معصومون من الزلل ! ، وهذا ما أوقعه في حَرَج شديد ، وسوف أسوق لذلك بعض الأمثلة .

---

(١) ضَمَّ منها كتاب دَرْجُ الغرر وحده (١٥٥) مقطعة ونُتْفة شعرية ، ولم ترد فيه ٣٩ مقطعة فقط ووردت في بعض المصادر ، وهي تحمل الأرقام : ٥ ، ٧ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢، ٧١-٧٤ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٩ ١٣٠ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٨ ، ١٩٣ .

(٢) ديوان الميكالي ٢١ .

١- نسب النتفة رقم ٦١ ص ٩٠ " للميكالي " اعتماداً على " الثعالبي " في كتابه أحسن ما سمعت ٤٣ ، واطمأن إلى ذلك مع أن " الثعالبي " نسبها لنفسه في كتابه من غاب عنه المطرب ١٥-١٦ ، وهي له كذلك في ديوانه ٥٩ .

٢- نسب المحقق كذلك المقطعة رقم ٧٣ ص ١٠٢ " للميكالي " اعتماداً على " الثعالبي " في كتابه المنتحل ٢٢٨-٢٢٩ ، مع أن الثعالبي نفسه نسبها " للقاضي التنوخي " الكبير في كتابه يتيمة الدهر ٣٤٣/٢ ، كما نسبها إليه " ياقوت الحموي" في موسوعته معجم الأدباء ١٤/١٦٩-١٧٠ .

٣- نسب المحقق كذلك المقطعة رقم ٧٤ ص ١٠٣ للميكالي اعتماداً على " الثعالبي " في كتابه المنتحل ٢٢٨ مع أن " الثعالبي " ذاته نسبها " للقاضي التنوخي " أيضاً في كتابين من كتبه هما يتيمة الدهر ٣٤٣/٢ ، وخاص الخاص ١٣٩ .

إن خلل المنهج لا يكمن في ذلك فقط ، وإنما يكمن أيضاً في عدم قيام المحقق بفصل الشعر الذي صحت نسبته " للميكالي " ، ولم ينازعه فيه أحد عن الشعر الذي نسب إليه وإلى غيره من الشعراء ، فخلط هذا بذاك ، وأخرج شعر الديوان كله في قسم واحد على الرغم من اشتماله على ثمان وثلاثين مقطعة ونتفة شعرية ، نسبتها حائرة بين الميكالي وبين أربعة شعراء غيره ، نازعه " أبو الفتح البستي " وحده في ٣٥ مقطعة ونتفة ، تحمل الأرقام : ٨ ، ١٠ ، ١١ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠-٣٢ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٥٠ ، ٦٦ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ونازعه قابوس ابن وشمكير في رقم ٨٨ ، وابن رشيق في رقم ١٧٥ ، وابن المعتز في ١٨١.

فكان على المحقق الفاضل إزاء هذا الخلط الكبير أن يجتهد ليقول الكلمة الفصل في كل مقطعة مختلطة النسبة ، فينهض بتقسيم الديوان إلى ثلاثة أقسام ،

يضع في القسم الأول الشعر الذي نسب " للميكالي " ولم يشاركه فيه أحد ، ويضع في القسم الثاني الشعر الذي نسب له ولغيره من شعراء ، والصواب أنه له ، ويضع في القسم الثالث الشعر الذي نسب للميكالي ولغيره من الشعراء والصواب أنه لغيره .

٢- ومما يتعلق بالمنهج أيضاً ما لحظناه من خلل في التنسيق ، فقد وضع المحقق النتفة رقم ١٨٣ ذات المطلع :

ما صُورٌ أبدعَ في تركيبها أصْحَابُها

في قافية الهاء ، وأرى أن حقها أن توضع في قافية الباء ، لأن حرف الباء هنا هو حرف الروي ، والهاء وصل ، والألف خروج .

وشبيه بهذه النتفة أيضاً النتفة رقم ١٩٠ ص ٢٣٣ ذات المطلع :

نَبَتْ بك عن أوطان عِزِّك غيبةٌ فَكُنَّا كَزَنْدٍ عُطِّلَتْ من سِوَارِها

فقد وضعها المحقق في قافية الهاء أيضاً ، وحقها أن توضع في قافية الراء ، لأن حرف الراء هنا هو حرف الروي ، أما الهاء فهي وصل ، والألف خروج .

٣- أما المأخذ الثالث من مآخذنا على المنهج فيكمن في عدم خدمة الديوان بالفهارس الفنية المفيدة ، فلم يصنع المحقق له فهرساً لقوافي القصائد والمقطعات كي يسهل على القارئ والباحث الوقوف على المقطعة المرادة في سهولة ويسر بدلاً من البحث في كل المقطعات التي أتت على رويها ، هذا فضلاً عن عدم وجود فهرس للأعلام ، وآخر للأوزان .

ثانياً : إخراج ما دسه المحقق - وهماً - في ديوان " الميكالي " :

بذل الدكتور " جليل العطية " جهداً مشكوراً في جمع وتحقيق ديوان " الميكالي " ، وعلى الرغم من جهده هذا لم تسلم محاولته لتحقيق هذا الديوان من الأوهام ، فقد وقع في طائفة من الأخطاء في نسبة كثير من المقطعات "

للميكالي " حيث قام بدس خمس عشرة مقطعة شعرية في ذلك الديـــوان دون أن يفصح عن الاختلاف في نسبتها بين " الميكالي " وغيره من الشعراء ، ومن ثـــم نلحظ أن المحقق لم يمتثل إلى قوله في نقد د:(١) " محمد مرسي الخولي " فـــي تحقيقه لديوان " أبي الفتح البستي ت٤٠٠هـ " : " إن من واجـــب المحقـــق أن يتحقق من صدق النصوص التي يقدمها " .

ومهما يكن من أمر فسوف أقوم الآن برصد النتف والمقطعات التي دســها المحقق على سبيل الوهم في ديوان " الميكالي " مشيراً إلى اختلاف الرواة فـــي نسبتها تطلعاً إلى تحقيق الأمانة العلمية ، ورغبة في إعطاء كل ذي حق حقــه ، ووضع النقط على الحروف ، وتنقية للديوان مما علق به من خلط .

(١)

النتفة رقم٢ ص ٢٨ ، وتقع في بيتين ، هما : [من الكامل]

١- يشقَى الفتَى بخـــلافِ كُـلِّ مُعـــانِدٍ يُؤذيه حتـــى بـــالقَذَى فـــي مَائِـــه

٢- يُهوِي إذا أصغى الأنـــاءُ لشُـربِه ويروغُ عنـــه عِنـد صَـبِّ إنائِـــه

الـــرواية : (٢) ورد البيت الثاني في زهر الآداب برواية : " عند سكب " .

التعقيب : دس الدكتور جليل العطية هذين البيتين في ديوان أبي الفضل الميكالي على أنهما صحيحا النسبة إليه ، اعتماداً على بعض المصادر ذكرهـــا في تخريجه لهما ، وليس الأمر كذلك ، فهناك اختلاف في نســبتهما ، فقد نسبهما الحصري القيرواني في زهر الآداب ٦٩٤/٢ لكشـــاجم ، وهما في ذيل ديوانه ٤٦٩ ، وعليه فيجب إسقاطهما مـــن الصحيـــح من شعر الميكالي ووضعهما وأمثالهما في قسم خاص تحت عنـــوان : " ما نسب للميكالي ولغيره من الشعراء " .

---

(١) ديوان الميكالي ١٨ .

(٢)

المقطعة رقم ٧ ص ٣٤ ، وتقع في أربعة أبيات هي : [من الخفيف]

١- عــيرتني تــركَ المُــدامِ وقــالتْ هــل جَفاهــا مــن الكــرامِ لبيــبُ

٢- هي تحتَ الظلامِ نورٌ وفي الأكــ بــادِ بــردٌ وفــي الخــدودِ لــهيبُ

٣- قلتُ يا هذه عَدلتِ عــن النُصــحِ أمــا للرشــادِ فيــك نصيــبُ

٤- إنــها للســتورِ هتــكٌ وبالألــ باب فتــكٌ وفــي المعــادِ ذنــوبُ

الــرواية : (١) ورد البيت الأول في الإعجاز والإيجاز برواية : " الكــرام أديب " ، وورد في غرر الخصائص الواضحة بروايــة : " مــن الرجال " .

(٣) ورد البيت الثالث في الإعجاز والإيجاز برواية : " وما للرشــاد منك "، وورد في غرر الخصائص الواضحة برواية : " ومــا"، وورد في البديع في نقد الشعر برواية : " عن الرشد ".

(٤) ورد البيت الرابع في الإعجاز والإيجاز برواية : " إنما للستور " ، وورد في البديع في نقد الشعر برواية : " وللألباب " .

التعقيب : جمع المحقق هذه المقطعة للميكالي من أربعة مصــادر ، والحقيقــة أنها تنسب إليه أيضاً في مصادر أخرى هي : لباب الآداب للثعــالبي ١٣٣ ، وغرر الخصــائص الواضحــة ٩٢ ، ومســالك الأبصــار ٢٥٦/١٥ ، والمقطعة بلا نسبة في البديع في نقد الشعر لأسامة بــن منقذ ٦٢ ، وعلى الرغم من أن هذه المقطعة نسبت في كثــير مــن المصادر للميكالي فإن في النفس شيئاً من نسبتها إليه فقد وقفت عليها منسوبة لابن المعتز في الإعجاز والإيجــاز ٢٧٥ ، وعليــه فيجــب استبعادها من دراسة شعره إلى أن يزول هذا الشك .

(٣)

النتفة رقم ٤٣ ص ٧٠ ، وهي : [من المنسرح]

١- يا مهدياً لــي بنفسجاً أرجـاً يرتَـاحُ صَـدري لـه وينشــرحُ
٢- بشّـرني عَـاجلاً مصحَفُـه بـأنَّ ضيـقَ الأمـورِ ينفســحُ

التعقيب : أدرجها المحقق في الديوان على أنها خالصة النسبة للميكالي اعتمـاداً على عدد كبير من المصادر نسبتها إليه ، يزاد على هذه المصادر ما يلي : تحسين القبيح وتقبيح الحسن ٨٧ ، ومطـالع البـدور ١٢٣ ، وحسن المحاضرة ٤١٣/٢ ، ونفحات الأزهار ٢٤٦ ، وهي بلا نسبة في حدائق الأنوار وبدائع الأشعار ٢٠١ ، وعلى الرغم من نسبتها في كل هذه المصادر للميكالي يجب علينا أن نأخذ الحذر مـن دراسـتها على أنها له ، لأنها نسبت لمنصور الهروي في حلبة الكميت ٢٤٧ .

(٤)

النتفة رقم ٥٢ ص ٨١ ، وهي : [من السريع]

١- كـم والـدٍ يحـرمُ أولادَه وخـيرُه يَحظـى بـه الأبعـدُ
٢- كالعَين لا تُبصرُ مـا حولَـها ولحظُـها يـدركُ مـا يبعـدُ

الـرواية : (٢) ورد البيت الثاني في مسالك الأبصار برواية : " لا تدرك ".
التعقيب : نسب المحقق هذه النتفة للميكالي ، وخرجها من عدة مصادر نسـبتها إليه ، يضاف إليها ما يلـي : لبـاب الآداب ١٣٣ ، وكتـاب الآداب ١١٨ ، ونَور الطَّرْف ٢٢٨ ، والدر الفريد ١٢٨/٥ ، والثاني له فيـه أيضاً ٣٥٢/٤، وهي له في نهاية الأرب ١١٢/٢ ، ومسالك الأبصـار ٢٥٥/١٥ ، والمقطعة بعد ذلك لابن المعتز في الإعجـاز والإيجـاز ٢٧٦ ، ولم أجدها في ديوانه ! ، وبناء على هذا يجب استبعادهما من دراسة شعر الميكالي .

(٥)

النتفة رقم ٦١ ص ٩٠ ، وهي : [من السريع]

١- إنــــي أرى ألفــــاظَكَ الغُـــــرّا عطّلـــت اليــــاقوتَ والـــــدرّا
٢- لك الكلامُ الحُرُّ يا مــن غَـدَتْ أفعالُـــه تَسْـــــتَعبِدُ الحُـــرّا

الـــرواية : (١) ورد البيت الأول في نفحة الريحانة برواية : " ألفاظه " .

(٢) ورد البيت الثاني فيه أيضاً برواية : " الحر وهو الذي ألفاظه " ، وورد في ديوان الميكالي برواية : " أفعاله تســـتبعد الحــرا " ، وهي رواية خاطئة .

التعقيب : نسب المحقق هذين البيتين للميكالي ، وهذا خطأ ظهر ، فهما للثعالبي في من غاب عنه المطرب ١٦ ، وإلى قائل نرجح أنه الثعالبي فـــي يتيمة الدهر ٣٥٦/٤ ، وديوانه ٥٩ ، وقال محققه : " وقد رأينـــا أن هذه المقطعة مما نسبه الثعالبي إلى نفسه بشكل صريح في كتابين من كتبه ، فهي صحيحة النسبة إليه " ، وبناء على هذا يجب حذفهما مــن ديوان الميكالي ، أو وضعهما في قسم خاص بما نسب للميكالي وإلى غيره من الشعراء .

(٦)

النتفة رقم ٧١ ص ١٠٠ ، وتقع في بيت واحد ، هو : [من البسيط]

١- ألفانيَ الدهرُ لما مسّني حجــراً أذكر من المِسك لَمّا مَسَّـــه الحَجَــرُ

الــرواية : ورد البيت في ديوان الميكالي برواية : " لما مسني " ، وهي روايــة غير صحيحة ، والصواب الرواية التي أثبتها اعتمـــاداً علـــى بـــاقي مصادر التخريج .

التعقيب : أدرج المحقق هذا البيت في ديوان الميكالي اعتماداً على الإعجاز والإيجاز ٩٩ فقط .

قلت : البيت للميكالي أيضاً في لباب الآداب ١٣٣ ، والتوفيق للتلفيق ١٤٥ ، وقد وقفت عليه في الإعجاز والإيجاز ص ٢٧٥ منسوباً لابن المعتز.

(٧)

المقطعة رقم ٧٣ ص ١٠٢ ، وتقع في ٦ أبيات ، وهي : [من الطويل]

١- كتبتُ وليلي بالسهادِ نهارُ	وصَدري لورادِ الهمومُ صِدارُ
٢- ولي أدمعٌ غزرٌ تفيض كأنَّها	سحائبُ فاضتْ من يديكَ غزارُ
٣- ولم أرَ مثلَ الدمع ماءً إذا جرى	تلهّب منه في الجوانحِ نارُ
٤- رحلتُ وزادي لوعةٌ ومطيّتي	جوانح من جمرِ الفراق حِرارُ
٥- مسيرٌ دعاه الناس سيراً توسعاً	ومعنى اسمه إن حققوه إسارُ
٦- وهذا كتاب والجفونُ كأنها	تحكّم في أشفارهنَ شِفارُ

الرواية : (٣) ورد البيت الثالث في يتيمة الدهر برواية : " منه في المدامع نار " .

(٤) ورد البيت الرابع في يتيمة الدهر ، ومعجم الأدباء برواية : " من حر الفراق " .

(٦) ورد البيت السادس في ديوان الميكالي١٠٢ برواية :" لي أشفارهن "، والصواب ما أثبت اعتماداً على المصادر التي أوردت المقطعة ، وورد في اليتيمة برواية :" والجفون كأنما ".

التعقيب : دس د : جليل العطية هذه المقطعة في ديوان الميكالي اعتماداً على مصدر واحد فقط هو المنتحل ٢٢٨-٢٢٩ .

قلت : والصواب أنها للقاضي التنوخي " علي بن محمد " ، فقد وردت في ثمانية أبيات منسوبة إليه في يتيمة الدهر ٢/٣٤٣، ومعجم الأدباء ١٤/١٦٩-١٧٠ ، وبعد البيت السادس بيتان هما :

إذا رمتُ أن أنسَى الأسى ذكرتْ بـه ... ديـار لـها بيـن الضُلـوع دِيَـارُ

لك الخير من غير اختياري ترحلي ... وهل بي على صرف الزّمانِ خِيَـارُ

والمقطعة بعد ذلك في ديوانه المنشور في المورد ص٥٨ / العدد ١ / المجلد ١٣ / ١٩٨٤م – جمع وتحقيق الأستاذ : هلال ناجي ، وفي ديوان القاضي التنوخي مصادر أخرى نسبتها إليه .

(٨)

المقطعة رقم ٧٤ ص ١٠٣ ، أوردها المحقق في ثلاثة أبيات فقط ، هي:[من الطويل]

١- أسيرُ وقلبي في هَواكَ أسـيرُ ... وحـادي رِكـابي لوعـةٌ وزفـيرُ

٢- ولي أدمعٌ غزرٌ تفيضُ كأنـها ... ندىً فاضَ في العافينَ منك غزيـرُ

٣- وطرفٌ طريفٌ بالسهادِ كأنـه ... لُهاكَ جليـس الجـودِ فيـه يغـيرُ

الـرواية : (١) ورد البيت الأول في ديوان القاضي التنوخي برواية : " في ذراك " .

(٢) ورد البيت الثاني في يتيمة الدهر ، وديوان القاضي التنوخي برواية : " كأنها جدى " .

(٣) ورد البيت الثالث في يتيمة الدهر برواية : " لهاك وجيش .... مغير" ، وورد في ديوان القاضي التنوخي برواية : " نداك وجيش الجود " .

التعقيب : أورد المحقق هذه المقطعة في ديوان الميكالي اعتماداً على المنتحل ٢٢٨

قلت : البيتان ١ ، ٢ للميكالي أيضاً في الإعجاز والإيجاز ٢٧٠، وعلى الرغم من ذلك نرجح نسبة المقطعة للقاضي التنوخي أيضاً ، فالبيتان ١ ، ٢ منها له في خاص الخاص ١٣٩ ، وهي منسوبة إليه ضمن خمسة أبيات في يتيمة الدهر ٢/٣٤٣، وبعد البيت الثالث البيتان :

رياضكم خضر يرف نباتُها ونوءكم رطب السحاب مطيرُ

وجوه كأكباد المجدين رقَّةً ولكنها يوم الهياج صخورُ

والمقطعة للقاضي التنوخي في ديوانه في سبعة أبيات ص ٥٨ من العدد الأول / مجلد ١٣ / ١٩٨٤م ، وانظر مصادر أخرى نسبتها للقاضي التنوخي في تخريجها في ديوانه .

والمقطعة بعد ذلك لا تشبه شعر الميكالي ، ومن ثم يجب إسقاطها من شعره ، وعدم الاعتداد بها في دراسته .

(٩)

النتفة رقم ٨٠ ص ١١٠ ، وتقع في بيتين هما : [من البسيط]

١- أرى وصَالَك لا يصفُو لآمِلِه والهجرُ يتبعُه رَكضاً على الأثرِ

٢- كالقوسِ أقربُ سَهْميها إذا عَطفتْ عليه أبعدُها عن منزعِ الوَترِ

الرواية : (٢) ورد البيت الثاني في فوات الوفيات ، ونصرة الثائر على المثل السائر برواية : " من منزع " .

التعقيب : أدرج المحقق هذين البيتين في ديوان الميكالي على أنهما صحيحا النسبة إليه اعتماداً على درج الغرر ٢٣٩ فقط .

قلت : البيتان لكشاجم في فوات الوفيات ٤/١٠٠ ، وملحق ديوانه ٤٥٠ ، وعلى هذا يجب عدم الاعتماد عليهما كذلك في دراسة شعر الميكالي ، حتى تتضح صحة نسبتهما إليه .

(١٠)

الأرجوزة المدرجة تحت رقم ٨٦ ص ١١٧ ، وهي : [من الرجز]

١- ربَّ جَنينٍ من جنـى النميرِ مهتّكِ الأسرارِ والضمّيرِ
٢- سَللتُه من رَحمِ الغَديرِ كأنها صَفائحُ البلّورِ
٣- أو قطعٌ من خالصِ الكافورِ [لو بقيتْ سلكاً على الدّهورِ
٤- لعطّلتْ قلائدَ النحورِ وأخجلتْ جواهرَ البُحورِ
٥- وسمّيتْ ضرائرَ الثّغورِ] يا حُسْنه في زمنِ الحرورِ
٦- إذ قيظُه مثلُ حشا المَهجورِ [يُهدي إلى الأكبادِ والصُّدورِ
٧- روحاً يحاكي نفثةَ المصدورِ] [ويجلبُ السرورَ للمقرورِ]

الرواية : (٢) ورد البيت الثاني في مسالك الأبصار برواية : " صحائف البلور " .

(٤) ورد البيت الرابع فيه أيضاً برواية : " أو أحجلت جواهر النحور " .

(٥) ورد البيت الخامس في يتيمة الدهر برواية: " زمن الحدور ".

(٦) ورد البيت السادس فيه أيضاً برواية : " إذ قيضه " ، وورد في ريحانة الألبا برواية : " تهدي " ، وورد في مباهج الفكر برواية : " وقيظه " .

(٧) ورد البيت السابع في مسالك الأبصار برواية : " الصدور " .

التعقيب : لنا عدة ملحوظات على هذه الأرجوزة :

١- يضاف إلى تخريجها مسالك الأبصار ٢٥٧/١٥ ،ومباهج الفكر ١٣٧/١.

٢- يضاف إليها بعد الشطر الرابع الشطر التالي :

" أو أكـــــــر تجـــســـمـــت مــــــن نــــــــور "

وليس هذا الشطر رواية لصدر البيت الثالث كما ذكــر المحقــق وقـد أورده على أنه شطر مع صدر البيت الثالث كل مــن ابــن فضــل الله العمري في مسالك الأبصار ٢٥٧/١٥ ، والحصري في زهـــر الآداب ٨٧٠/٢-٨٧١ ، والوطواط الكتبي في مباهج الفكر ١٣٧/١ ، والثعالبي في يتيمة الدهر ٣٧٤/٤ .

٣- وقفت على الأشطار الموضوعة ما بين الأقواس منسوبة لشـــاعر آخر غير الميكالي في كتاب ريحانة الألبا ٢٨٨/١ ، هذا الشـــاعر هو : " أحمد بن شاهين الشامي " .

(١١)

النتفة رقم ٩٢ ص ١٢٣ ، وتقع في بيتين ، هما : [من الطويل]

١- كتبتُ وخطي من أذى السّقم شـــاهدٌ بأن بَناني من أذى السُقم مُرتعـشْ

٢- ونفسي إن تُؤْمَرْ تعشْ في سَـــلامةٍ فأهدِ لها منكَ السـلام ومُرتَعِـشْ

الــرواية : (١) ورد البيت الأول في معجم الأدباء برواية : " وخطـــي حـــاش وجهك شاهد " .

(٢) ورد البيت الثاني ديوان الميكالي برواية : " تأمر .... الســكون ومُنّ تَعِشْ " ، وهي رواية مخلة بالوزن ، والصواب مــا أثبــت اعتماداً على معجم الأدباء .

التعقيب : دس المحقق هذه النتفة في ديوان الميكالي اعتماداً على مخطوط ملـح الملح ق ١١٨ أ .

قلت : ونسبتها للميكالي غير صحيحة له ، وإنما للباخرزي (علي بن الحســن السنخي) فهي له في معجم الأدباء ٤٨/١٣ ، وديوانه ١٢٣ .

(١٢)

المقطعة رقم ١١٧ ص ١٥٤ ، وتقع في ثلاثة أبيات ، هي : [من المتقارب]

١- رأيتُ الهلال وقد حلّقتْ	نجومُ الثريا لكي تسبقَه
٢- فشبهتُه وهو في إثرها	وبينهما الزهرةُ المُشرِقَه
٣- كرامٍ بقوسٍ رأى طائراً	فحلّق في إثره بُنْدَقَه

الرواية : (١) ورد البيت الأول في يتيمة الدهر ، ومعاهد التنصيص برواية : " وقد أحدقته " ، وورد في نهاية الأرب برواية : " وقد أحدقت ".

(٣) ورد البيت الثالث في يتيمة الدهر ونهاية الأرب ، ومعاهد التنصيص برواية : " بقوس لرام رمى طائراً .:. فأتبع في إثره بندقه " .

التعقيب : أورد المحقق هذه المقطعة في ديوان الميكالي اعتماداً على حلبة الكميت ٣٣٥ .

قلت : ليس الأمر كذلك ، فهي لأبي عاصم البصري في يتيمة الدهر ٣٦٨/٢، ومعاهد التنصيص ٢٢/٢ ، ونهاية الأرب ٥٤/١ ، وعليه فيجب إسقاطها من صحيح شعر الميكالي ، وعدم الاعتداد بها في دراسته .

(١٣)

النتفة رقم ١٢٣ ص ١٦٠ ، أوردها المحقق في بيتين هما : [من الرجز]

١- ظبيٌ يَحارُ البرقُ عن بَريقِه	غَنيتُ عن إبريقِه بريقِهِ
٢- فلم أزلْ أرشفُ من رَحيقِه	حَتى شَفَيتُ القلبَ من حَريقِه

الرواية : (١) ورد البيت الأول في ديوان ابن النبيه المصري برواية : "ظبي يخال" ، وورد في مسالك الأبصار برواية : " في بريقه " .

(٢) ورد البيت الثاني فيه أيضاً برواية : " ولم أزل أشرب من .... حتى سقيت " ، وورد في مسالك الأبصار برواية : " ولم " .

التعقيب : أدرج المحقق هذه النتفة في ديوان الميكالي اعتماداً على أربعة مصادر نسبتها إليه ، يضاف إليها مسالك الأبصار ٢٥٥/١٥ ، وعلى الرغم من ذلك فإنني لا أقطع بصحة نسبتها إليه ، حيث إنها نسبت لكمال الدين بن النبيه ، ووردت في ديوانه ٤٦٥ ، وعليه فيجب إسقاطها من شعر الميكالي أيضاً ، وعدم الاعتداد بها في دراسته .

(١٤)

النتفة رقم ١٤٥ ص ١٨٤ ، وهي : [من الطويل]

١- تصوغُ لنا كَفُّ الربيعِ حَدائقاً   كعقدِ عَقيقٍ بينَ سِمْطِ لآلي
٢- وفيهنَّ أنوارُ الشقائق قد حَكَتْ   خُدودَ عَذارى نُقِّشَتْ بغوالي

الرواية : (١) ورد البيت الأول في فوات الوفيات برواية : " بدايعا " ، وورد السفينة برواية : " في سلوك لآلي " ، وورد في مسالك الأبصار برواية : " مصوغ " .

(٢) ورد البيت الثاني في معاهد التنصيص برواية : " نقطت " ، وورد في نهاية الأرب برواية : " نوار .. حكى خدود غوان نقطت " .

التعقيب : أوردها المحقق للميكالي اعتماداً على طائفة من المصادر يضاف إليها فوات الوفيات ٤٣٢/٢ ، الوافي بالوفيات ٢٣٥/١٩ ، ومعاهد التنصيص ٦/٢ ، والسفينة جـ٧ ، ومسالك الأبصار ٢٥٦/١٥ ، والأول له في سلك الدرر ٩٤/٢ ، وعلى الرغم من ذلك يجب علينا

أن نسقط هذه النتفة من دراسة شعره لأنني وقفت عليها في نهاية الأرب ٢٨٢/١١ منسوبة لابن الرومي ، ولم أجدهما في ديوانه .

(١٥)

النتفة رقم ١٧٩ ص ٢٢١ ، وهي : [من البسيط]

١- عمرُ الفتى ذكرُه لا طولُ مدتِه ... وموتُه خزيُه لا يومُه الدَاني

٢- فأحي ذكرك بالأحسانِ تودعه ... تَجمعْ بذلكَ في الدنيا حياتانِ

التعقيب : أدرج المحقق هذه النتفة في ديوان الميكالي اعتماداً على طائفة من المصادر نسبتها إليه ، ويضاف إلى هذه المصادر ما يلي : التمثيل والمحاضرة ١٢٨ ، ولباب الآداب للثعالبي ١٣٣ ، وقد وقفت على هذه النتفة في كتاب الإعجاز والإيجاز ٢٧٥ منسوبة لابن المعتز .

ثالثاً : تتمة ديوان الميكالي :

على الرغم من حرص المحقق ، وحذره من ألاّ تفوته بعض المقطعات أو النتف الشعرية فقد فاتته عدة مقطعات ، وقفنا عليها في بعض المصادر ، ولم نجد لها أثراً في الديوان ، والحق أنها مقطعات قليلة ، لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة عداً ، وقلتها هذه لا تمنعنا من إدراجنا إياها هنا ، وها هي ذي :

(١)

وقال : [من السريع]

١- اصبر إذا نَابَتْكَ من خطَّةٍ ... فَهْي سواءٌ والتي ولَّتِ

٢- وارهفِ العزمَ فليس الظُّبَى ... تَفْرِي وتَمْضي كالتي كَلَّتِ

الروايات : (١) ورد البيت الأول في والوافي بالوفيات برواية : " اصبر على حادثة أقبلت " ، وورد في ذيل المرآة برواية : " نازلة أقبلت".

(٢) ورد البيت الثاني الوافي بالوفيات ، وذيل المرآة برواية : " تفري وتبري " .

التخريج : البيتان للميكالي في الدر الفريد ١٤٧/٢ ، وهما لشمس الدين التونسي في الوافي بالوفيات ١٥١/٢ ، وبلا نسبة في ذيل مرآة الزمان ١٦٦/٢ .

(٢)

وقال : [من الطويل]

١- أطالبُ أيامي بإنجازِ مَوْعِدي ... وها هي تَلْوي بالوفاءِ وتَجْمَحُ

٢- أقول عَسَاها أن تلينَ لمطْلَبي ... قليلاً فَبعْضُ الشَّوكِ بالثُّمرِ يسمحُ

التخريج : نور الطرف ٢٢٨ .

(٣)

وقال : [من الوافر]

١- غزالٍ ينْثَني ويُريك غُصْناً ... ويَرْنُو تارةً ويُريك ريما

٢- كريمٌ كلّه ظَرْفٌ ولكن ... إذا سَمَّيته فاقلِبْ كريما

التخريج : معاهد التنصيص ٣٠٦/٣

(٤)

وقال : [من الطويل]

وأنجزنا جانى يُؤَدّى رسالةً ... فقلتُ له : نجوى تَحملْتَ أم نجوا؟

وأصبحت مزكوماً وإنى لخائف ... على كبدى من نتن نجواه أن نجوى

التخريج : الحماسة الشجرية ٩٣٩/٢ تحقيق عبد المعين الملوحى - دمشق - ١٩٧٠م.

(٥)

ونسب إليه : [من الوافر]

لسيف الدولة انشقت أمورٌ	رأيناها مبددة النِّظَامِ
سما وحمى بني سامٍ وحامٍ	فليس كمثله سَامٍ وحامِ

التخريج : البيتان له في السفينة (الجزء السابع) ، وهما للبستي في ديوانه ص ١٧٣-١٧٤ ، وأرجح نسبتهما للبستي لإجماع أكثر المصادر على نسبتهما إليه ، يتضح ذلك من تخريج المحققين لهما في نهاية الديوان تحت رقم ٣٦٧ ص ٣٤٩ - طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق - ١٩٨٩م .

رابعاً : إصلاح الأوهام العروضية .

ضم ديوان " الميكالي " كثيراً من الأخطاء العروضية التي أدت إلى تشويه صورة الديوان ، بما أحدثته في العديد من أبياته من خلل موسيقي ، ونشاز إيقاعي ، ففي الديوان أخطاء في تحديد الوزن الصائب لطائفة من المقطعات والنتف ، وفيه أيضاً عدد غير قليل من الأبيات المكسورة التي أدى إلى كسرها الخطأ في رسم بعض الكلمات وضبط حروفها ، وفي الديوان أيضاً كثير من الأبيات المدورة التي كتبت بطريقة غير مدورة ، وفيه كذلك أبيات أخرى غير مدورة كتبت بطريقة مدورة، هذا إلى جانب التحديد الخاطئ لنهاية الشطر الأول في الأبيات التي أشير إلى أنها مدورة ، وسوف أتعرض لكل ذلك محاولاً تصحيح ما يمكن تصحيحه من أوهام.

(أ) تصحيح التحديد الخاطئ لأوزان المقطعات :

قام محقق ديوان " الميكالي " بالإشارة إلى وزن كل مقطعة ونتفة ضمها الديوان ، وقد وقفت أثناء قراءتي لهذا الديوان ، على بعض المقطعات قام بتحديد وزنها تحديداً يبتعد عن الصواب ، وها هي ذي :

(١) النتفة رقم (١) ص ٢٧ ومطلعها :

إنــي تغديــت صــــدر يَوْمـــي ثــــم تَــــأذَّيتُ بــــــالغَداءِ

ذهب المحقق إلى أن هذه النتفة من البسيط ، والصواب أنها مــن " مخلــع البسيط " .

(٢) كما ذهب إلى أن المقطعة رقم ٢١ ، ص ٤٨ والتي مطلعها :

وقضيبِ من بناتِ النحل فـــي قَـدِّ الكعــابِ

من بحر الرمل ، والصواب أنها ليست من الرمل التام ، وإنما هـــي مــن مجزوء الرمل.

(٣) كما ذهب إلى أن النتفة رقم ٦١ ض ٩٠ ومطلعها :

إنـــي أرى ألفـــاظك الغُـــرّا عطلـــت اليـــاقوت والـــدُرّاً

من الرجز ، والصواب أنها من السريع .

(٤) النتفة رقم ٦٥ ص ٩٤ ومطلعها :

لا تطـغ فـي حـــال الـــثَّرَاءِ وكُـــنْ لفقـــركَ ذاكِـــرَا

حَدَّد المحقق وزنها ، وقال : إنها من الكامل ، قلت : هـــي مــن مجــزوء الكامل .

(٥) النتفة رقم ٩٠ ص ١٢١ ، وتقع في بيت واحد هو :

لا تعصين شمس العــلا "قابوســا" فمن عصَىَ " قابوس " لاقى بُوســا

قال المحقق : إنه من السريع ، قلت : الصواب أنه من الرجز .

(٦) المقطعة رقم ٩٦ ص ١٢٩ ، مطلعها :

قـــال لمـــن يحلقـــه وشـــعره مختلـــط

حدَّد وزنها من مجزوء الرمل ، قلت : الصواب أنها من مجزوء الرجز .

(٧) المقطعة رقم ١١٣ ص ١٤٩ ، ومطلعها :

رُبَّمَـــا أمتـــع القليــــــ ـلُ مـــن المـــال أو كَفَـــى

حدَّد المحقق وزن هذه النتفة ، وقال : إنها من الخفيف ، قلت : الصـــواب أنها من مجزوء الخفيف ، وليس من الخفيف التام .

(٨) المقطعة رقم ١٢٥ ص ١٦٣ ، ومطلعها :

يـــا جميــــل الظـــن بالأيــــ ـــيـــام مـــا أحســـن ظَنَّـــكَ

ذكر المحقق أنها من الرمل ، والصواب أنها من مجزوء الرمل .

(٩) النتفة رقم ١٢٨ ص ١٦٦ ، ومطلعها :

أخـوك مــن إن كنـــت فـــي نُعمـــى وبـــؤسٍ عــــادَلَكْ

قال : إنها من مجزوء الكامل ، قلت : هناك تشابه في وزن هذه النتفة ، فقد تكون من مجزوء الكامل ، وقد تكون من مجزوء الرجز ، وأرجح الأخير ، لأنني لم أقف من بين تفاعيلها على تفعيلة هكـــذا : " متفـــاعلن " بتحريـــك الحرف الثاني حتى يتسنى لنا بأن نحكم عليها بأنها من مجزوء الكــــامل ، وكان من الممكن أن نحكم بأنها من مجزوء الكامل لـــو اعتمدنـــا روايـــة الثعالبي لصدر البيت الثاني ، وهي : " وإن بدا لك منعماً " بدلاً من الرواية التي رصدها المحقق في الديوان ، وهي : " فإن راك منعما ".

(١٠) القصيدة رقم ١٥٢ ص ١٩١ ، ومطلعها :

يـــا حبـــذا خـــبر الصَّديـــ ـــق مُحَدِّثًا عـــن جمـع شَـمْلي

قال المحقق : إن هذه القصيدة من الكامل ، قلت : الصواب أنها من مجزوء الكامل .

(١١) النتفة رقم ١٥٤ ص ١٩٣ ، ومطلعها :

بـــالأمس قـــد قـــال الحِجَـــى لِـــي   لا تلـــق نـــاظريكَ إلـــى الحجـــالِ

حدد وزن هذه النتفة وقال : إنها من مجزوء الطويل ، قلـت : الطويـل لا يأتي إلا تاماً ، والنتفة من مجزوء الكامل ، والبيت علـى هـذه الصـورة مكسور ، وسنحاول تصحيحه فيما بعد .

(ب) تصحيح الخلل الإيقاعي :

اشتمل ديوان " الميكالي " على أبيات كثيرة ذات إيقاع مختل ، سوف أقوم برصدها محاولاً تصحيح إيقاعاتها المختلة مع بيان السبب الذي أدى إلى إيجـاد هذا الاختلال .

(١) أورد المحقق البيت الأول من المقطعة رقم ١١ ص ٣٨ هكذا :

وشـــادنٍ أصبحـــتْ أربابَـــه   عـــن أن يلـــي خدمـــة أَرْبَابِـــهِ

هكذا ضبط المحقق تاء الفاعل في كلمة " أصبحت " بالسكون ، وهذا الضبط أخل بالوزن ، والصواب أن تضبط " التاء " بالضم هكـذا " أصبحـتُ " ، والبيت من السريع .

(٢) أورد المحقق البيت الأول من النتفة رقم١٥ ص ٤٢ هكذا :

إذا دَهَـــى خطـــبٌ فـــاراؤه   تُغنـــي عـــن الجيـــشِ وتَسْـــريبه

فنلحظ أنه الهمزة الأولى من كلمة " آراء " محذوفـة ، وحذفـها هـذا أدى إلى خلل إيقاعي ، والصواب إثباتها ، لأن البيت من السريع .

(٣) أورد المحقق البيت الأول من النتفة رقم ٣٠ ص ٥٧ بالضبط التالي :

لقد راعني بدرُ الدُّجـى بصُـدُوده ووكلٍّ أجفـاني برَعْـي كواكبـهِ

هكذا ضبط اللام من الفعل الماضي "وكلٍّ " بالتشديد ، كما ضبط هاء الضمير في " كواكبه " بالكسر ، وضبط هاتين الكلمتين بهذا الشكل مُخِل بالوزن ، والصواب أن يكونا هكذا : " ووَكل " ، و " كَوَاكِبَهْ " ، لأن البيت من الطويل .

(٤) رصد المحقق البيتين ٨ ، ١٠ من القصيدة رقم ٥٣ ص ٨٢ على النحو التالي :

فان تجمـع شـتيت الشـمل منًـا وفـي الايـام جـورٌ واقتصـادُ

وكيـف يصـحُ للايـامِ عـهدٌ وشِـيمَتُها التغـيرُ والفسَـادُ

هكذا حُذفت الهمزة من الكلمات : " فإن " ، و " الايام " ، " الايـام " في البيتين ، وحذفها أدى إلى اضطراب وزن البيت ، وعليه فيجب إثباتها في الكلمات الثلاثة لأن القصيدة من الوافر التام .

(٥) كما حذفت الهمزة أيضاً من البيت الثاني من النتفة رقم ٨٥ ص ١١٦ ، حيث ورد البيت هكذا :

فاحداقُـه أحـداقُ تِـبرٍ وسَـاقُه كقَامةِ ساقٍ في غلائلِـه الخُضْـرِ

والصواب إثباتها في كلمة "أحداق" لاستقامة وزن البيت ، وهو من الطويل .

(٦) وحذفت الهمزة كذلك من البيت الأول من النتفة رقم ٩٢ ص ١٢٣ ، حيث ورد البيت هكذا :

كتبت وخطي من أذى السُّقْمِ شاهدٌ بان بناني من أذى السُّقمِ مُرتَعِشْ

والصواب إثبات الهمزة في الحرف " أن " لاستقامة وزن البيت وهو من الطويل أيضاً .

(٧) ضبط المحقق البيت الأول من النتفة رقم ٩٥ ص ١٢٧ هكذا :

مـــا لليـــالي ولِـــي كَـــأنَّ لـــــــها   في مُـــهجتي أن يُفتِنِـــها غَرَضَـــا

هكذا ضبط التاء في الفعل المضارع " يفتنها " بالكسر ، وهو ضبط مخـــل بالوزن، والصواب أن تكسر الفاء لا التاء ، فيصبح الفعل هكذا " يُفِتْنَـــــها " لاستقامة وزن البيت ، وهو من المنسرح .

(٨) أما البيت الثاني من النتفة رقم ١٠٦ ص ١٤٠ فقد ورد على هذه الصورة:

فان لا ترحمـــــي سُـــقْمِي فَـــرْدِّي   على أجفانـــــها بَغْـضَ الـــهُجُوعِ

هكذا سقطت همزة " إن " الشرطية ، والصـــواب إثباتـــها لاســـتقامة وزن البيت ، وهو من الوافر

(٩) ضبط المحقق البيت الرابع من المقطعة رقم ١٢٥ ص ١٦٣ هكذا :

ودعْ الدُّنْيـــــــــا لِقَـــــــــومِ   قرعـــوا بـــــــاللَّوم أذنــــك

فنلحظ أن حرف العين من فعل الأمر " ودع " ساكنة ، والصواب أن يكسـو آخر هذا الفعل للتخلص من التقاء الساكنين أولاً ، ولاستقامة وزن البيـت ثانياً ، والبيت من مجزوء الرمل .

(١٠) أورد المحقق البيت الرابع عشر من القصيدة رقم ١٣٩ ص ١٧٧- ١٧٨ هكذا:

مُسْعِدٌ في الرخاءِ سَـــمحٌ شَـــفِيقٌ   وله فـــي النائبـــاتِ بـــرٌ وَصُـــول

والبيت على هذه الصورة مختل في شطره الثاني فهو من الخفيــف ، وأرى أن حرف الجر " في " زائد ، وزيادته هذه أدت إلى خلل البيت وكســـره ، فيجب حذفه والإشارة إلى ذلك في الهامش .

(١١) حذفت الهمزة من الحرف " إلى " في البيت الثاني من المقطعة رقم ١٤٩ ص ١٨٨ ، حيث ورد البيت هكذا :

فقلت إلـى المعـالي حَـنَّ قَلبـي   وفي سـبل المكـارم لَـجَّ مَـالي

هذا البيت من الوافر ، ولصواب استقامته أن تثبت الهمزة في حرف الجر " إلى ".

(١٢) حذفت الهمزة أيضاً من الحرف " أو " في البيت الأول من النتفـة رقـم ١٥٠ ص ١٨٩ ، حيث ورد البيت هكذا :

وكـلُّ غِنـيّ يتيـه بـه غَنـيٌّ   فمرتجـعٌ بمـوتٍ او زَوالِ

هذا البيت من الوافر أيضاً ، ولصواب استقامته أن تثبت الهمزة في الحرف " أو " .

(١٣) أورد المحقق البيت الأول من النتفة رقـم ١٥٤ ص ١٩٣ علـى هـذه الصورة :

بـالأمس قـد قـال الحِجَـى لـي   لا تلـق نـاظريك إلـى الحِجَـال

نأخذ على المحقق في رصده هذا البيت مأخذين :

أولهما : أنه حدد وزنه بأنه من مجزوء الطويل ، ونعـرف أن الطويـل لا يأتي مجزوءاً، بل يأتي تاماً ، ثم إن البيت ليس من الطويل وإنمـا هو من مجزوء الكامل .

وثانيهما : أن البيت على صورته السابقة مختل الوزن في شطره الثـاني ، ولعل صواب رواية هذا الشطر هي : " **لا تلق طرفك للحجال** ".

(١٤) رصد المحقق البيت الثاني من المقطعة رقم١٩١ ص ٢٣٥ علــى هــذه الصورة :

ملكتَ الحُسنَ أجمـــع فــي قَــوَامٍ فـــادً زكـــاةَ منظــــرك البَـــهِيَ

هكذا ورد فعل الأمر خالياً من الهمزة ، والصواب إثباتها : " فأد" ، والبيت من الوافر.

وننتقل من الأبيات ذات الإيقاع المختل إلى الأبيات التي كتبت بطريقـــة غير دقيقة ، لا تتسق والنسق الشعري ، فقد وقفنا على أبيات لم تحـــدد نهايـــة الشطر الأول منها تحديداً دقيقاً ، ومن ثم جاءت تفعيلة العـــروض فيـــها غـــير منسجمة مع تفعيلة العروض في البيت السابق عليها واللاحق لها ، كما أن هناك أبياتاً أخرى مدورة لم تكتب على وجهها الصحيح ، وأخرى غير مدورة كتبـــت بطريقة توحي بأنها مدورة ، وهذا بيان بكل ذلك :

(١) ورد البيت (٤) من المقطعة رقم ٧ ص ٣٤ على هذا النحو :

إنـــها للســـتورِ هتـــكٌ وبالألبــــابِ فَتْـــكٌ وفـــي المَعَـــادِ ذُنُـــوبُ

وصواب كتابته أن يأتي هكذا :

إنـــها للســـتورِ هتـــكٌ وبالألــــــ باب فتـــكٌ وفـــي المَعَـــادِ ذُنُـــوبٌ

(٢) كتبت النتفة رقم ١٠ ص ٣٧ ، وهي بيتان من المجتث على هذا النمط :

أنكرتِ من أدْمُعي تَترى سَـــوَاكِبِها سَلِي دموعي هل أبكِي سواكِ بـــها

والصواب أن تكتب على هذا النحو :

أنكـــرتِ مــــن أدْمُعِـــــي تَـــــــتْرَى سَـــــــوَاكِبِها

سَــــلِي دموعـــــي هَـــلْ أبكِـــي ســـواكِ بـــــها

لأن المجتث لا يأتي إلا مجزوءاً .

(٣) ورد البيت الثالث من المقطعة رقم ٢١ ص ٤٨ ، على هذه الشاكلة :

كَسَى الباطنُ منـــه وَهُــو عُريــانُ الأهــاب

فنلحظ أن كتابة البيت على هذه الشاكلة التي تشير إلى أنه مدور ، والحقيقـة أنه ليس مدوراً، فكان حق كتابته أن تكون هكذا :

كَسَـــــى البــــاطنُ مِنْــــه وهـــو عريـــــان الأهـــــاب

(٤) كتب البيت الرابع من المقطعة رقم ٣٦ ص ٥٣ هكذا :

تَصْحِيفُــــــه إن نَســـــــقْتَ الحــــروف : بِـــرُّ حبيــــــبِ

هذا البيت مدور ، وهو من المجتث ، وصواب كتابته هكذا :

تصحيفـــــه إن نَســـقْتَ الــــــ حـــروف : بِـــرُّ حبيـــــبِ

(٥) كتب البيت الثاني من النتفة رقم ٣٥ ص ٦٢ هكذا :

هو فوق الجبال وَعْلٌ وفي السـهلِ عقـابٌ وفـي المعـابرِ حــوتُ

هذا البيت من الخفيف ، وهو مدور ، وحقه أن يكتب هكذا :

هو فوق الجبال وَعْلٌ وفي السهـــ لِ عقــابٌ وفــي المعــابرِ حــوتُ

(٦) كتب المحقق النتفة رقم ٦٢ ص ٦١ على هذا النحو :

إرض مـــــــن دُنْيَــــــاك بــــالقوتِ وإن كَـــانَ يَسِــيرا
فـــــــهلاكُ النَّمْـــــــلِ أن يُكْســـــى جَنَاحـــاً فَيطـــــيرا

وهي كتابة غير مستقيمة ، والصواب أن يكتب هكذا :

إرض مـــن دنيـــاك بـــــالقو ت وإن كَـــــانَ يَسِـــــيرا
فـــهلاكُ النَّمـــلِ أن يكســـــ ـــي جناحـــــاً فيطـــيرا

(٧) كتب المحقق البيت الخامس من المقطوعة رقم ٧٣ ص ١٠٢ هكذا :

مسيرٌ دَعَاه النَّاسُ سَيراً   توسعاً ومعنى اسمه إن حَقَّقُوه أسارُ

وصواب كتابته أن تكون هكذا :

مسيرٌ دَعَاه الناسُ سـيراً توسـعاً   ومعنى اسـمه إن حَقَّقُـوه إسـارُ

(٨) كتب المحق الأبيات ٤ ، ٥، ١٣ ، ١٨ من القصيدة رقم ٧٨ ص ١٠٨ على هذا النمط :

خِدرُها في السوادِ من حبة القلـبْ   منيـع الجَنَـاب لا كـالخُدورِ

مَهْرُها أن تذال بـالبذل والنشـرِ   وأن لا تصـان لا كالمُـهُورِ

وخصوصاً فـي عينـهم وعديـم   الشكل من بينـهم أبـي مَنْصُـورِ

إنـه قَـادرٌ علـى رد مـا فـاتَ   وتيسـير كُـلِّ أمـرٍ عسـيرِ

هذه الأبيات مدورة ، وقد كتبت بطريقة توحي بأنها غير ذلك ، والصـواب أن تكتب هذه الأبيات بحيث ينتهي الشطر الأول من البيت الأول عند حرف اللام من كلمة " القلب " ، وينتهي الشطر الأول من البيت الثاني عند حـرف الشين من كلمة " النشر " ، وينتهي الشطر الأول من البيـت الثـالث عنـد الشين الأولى من كلمة " الشكل " ، وينتهي الشطر الأول من البيت الرابـع عند حرف الألف من كلمة " فات " .

(٩) ورد البيت الأول من المقطعة رقم ٩٧ ص ١٣١ هكذا :

ومهفـهف غـرسَ الجمـالُ   بخـدِّه رَوضـاً مَريعـا

هذا البيت مدور ، وكتب بطريقة توحي بأنه غير مـدور ، والصـواب أن يكتب هكذا :

ومهفـهفٍ غـرس الجمـا   ل بخـده روضـاً مريعـا

(١٠) ورد البيت الثاني من النتفة رقم ١٠٠ ص ١٣٤ هكذا :

فـــاجعل لنســـــك طـــول عمـــرك مســـجداً أو صومعـــة

هذا البيت من مجزوء الكامل ، وهو مدور ، لذا كان من الواجب أن يكتـب هكذا :

فــاجعل لنُسـكِك طــول عُمْـــ ـــرِك مَسْـــجِداً أو صَوْمَعَـــة

(١١) ورد البيت الأول من النتفة رقم ١١٣ هكذا :

ربمـــا أمتـــع القليـــلُ مـــن المـــالِ أَوْ كَفَـــى

وقال المحقق : إن النتفة من الخفيف ، قلت : النتفة من مجزوء الخفيــف ، وهذا البيت مدور ، والصواب أن يأتي على هذه الصورة :

ربمـــا أمتـــع القَليـــ ـــلُ مـــن المـــالِ أَوْ كَفَـــى

(١٢) ورد البيت الأول من النتفة رقم ١١٤ ص ١٥١ على هذه الشاكلة :

للأُقحِـــوان علـــى ملاحتـــه وَخَـــزٌ بقلـــبَ يشـــتكي العِشْـــقَا

هذا البيت من الكامل ، وكتابته على النحو السابق خاطئة ، والصـــواب أن يأتي هكذا :

للأقحـــوان علـــى ملاحتِـــه وخـــزٌ بِقلـــبٍ يشـــتكي العِشْـــقا

(١٣) أدرج المحقق البيت الأول من المقطعة رقم ١٢٥ ص ١٦٣ على النحـــو التالي :

يـــا جميـــل الظـــن بالأيـــام مـــا أحســـن ظنـــك

وهذا البيت من الرمل ، وهو من الأبيات المدورة ،والصواب أن يكتب هكذا:

يـــا جميـــل الظَـــن بالأيـــا م مـــا أَحْسَـــنَ ظَنَـــكْ

(١٤) أدرج المحقق النتفة رقم ١٢٩ ص ١٦٧ على هذا النمط :

يـــا مــــن يُضيِّــــع عُمْـــرَه   متماديـــاً فـــي اللَّـــهو أمْسِـــكْ
واعلــــم بــــأنك لا مُحَـــا   لـــة ذاهـب كذِهَـــاب أمْسِــكْ

وهذان البيتان من مجزوء الكامل ، وهما مدوران ، لم يحدد المحقق نهايـــة الشطر الأول من البيت الأول تحديداً دقيقاً ، ولم يكتب البيت الثاني كتابـــة صحيحة ، والصواب أن يكتب هذان البيتان هكذا :

يا مـــن يُضيِّـــع عُمْـرَه متماديـــاً   فـــي اللَّـــهو أمْسِـــكَ
واعلـــم بـــأنك لا مُحَالـــــةَ   ذَاهِـــبٌ كَذِهَـــابِ أمْسِـــكْ

(١٥) أثبت المحقق البيت الأول من النتفة رقم ١٣٢ ص ١٧٠ على الصـــورة التالية :

أهـــدت جُفُونُــــك للفـــؤادِ   مـــن الغــــرامِ بَلابِـــلا

هذا البيت مدور ، وهو من مجزوء الكامل ، وصواب كتابته هي :

أهـــدت جُفُونَــــك للفُـــؤا   دِ مـــن الغـــرامِ بَلابِـــلا

(١٦) كتب المحقق مطلع المقطعة رقم ١٣٧ ص ١٧٥ على النحو التالي :

ومهفـــهف تـــــهفو بلُـــبَ   المـــرءِ منـــه شَـــمائلُ

البيت من مجزوء الكامل ، وهو مدور ، ولم يشر المحقق إلى أنه مـــدور ، وصواب كتابته هي :

ومهفـــهف تـــهفو بلُــــ   بِ المـــرء منـــه شَـــمائلُ

(١٧) أورد المحقق البيت الثاني من النتفة رقم ١٣٨ ص ١٧٦ هكذا :

عـــن ســـؤال اللئـــام مغـــنٍ   وفي العَظْمِ مُغنٍ وللمَنَايا رَسُـــولُ

هكذا أورده المحقق غير مدور ، والصواب أن يكون هكذا :

عن سؤال اللئام مغنٍ وفي العَظْـــ ـــمِ مُغْــنٍ وللمَنَايـا رَسُـــولُ

(١٨) أورد المحقق الأبيات ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٨ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٤ من القصيدة رقم ١٣٩ ص ١٧٧-١٧٨ على النحو التالي :

بأبي القاسم الـذي أقسـم المجـدُ	يمينـا أن ليـس منـه بَديـلُ
كـان مغنـى الوفـاء والـبرّ إن	حـال زمـان فـودُه مـا يَحُـولُ
كـان زيـن النـدى فـي العِلْـمِ	والآداب ترعى رياضهن العُقُـولُ
كان كهفي على الحوادث ما عـاشَ	عليـها برأيـه أسْـتَطِيلُ
زانه العقـل والحصافـة والـرَّأيُ	وحسـن البيـان والتَّحْصِيـلُ
وعفاف يثنيه عن موقـف الشَّـك	إذا أطلـق العنـان الجَهُولُ
خُلُق كـالزلال زل عـن الصَّخْـر	ونفـسٌ للعيـب عنـها زليـلُ
واجتناب لما يعـاب مـن الأمْـرِ	وعـرضٌ مـن الدنـاءِ صَقِيـلُ
فعليه سـلامُ ذي العـرشِ يهديـه	إلـى حشـو قـبره جِـبْرِيلُ

هذه الأبيات من الخفيف ، وقد كتبها المحقق بطريقة غير مستقيمة ، وصواب كتابتها أن تأتي على هذا النمط :

بأبي القاسم الذي أقسـمَ المجـ	ـدُ يمينـاً أن ليـس منـه بديـلُ
كان مغنى الوفاء والـبرّ إن حـا	لَ زَمـانٌ فـودُه مـا يَحُـولُ
كان زين النَّـدّى فـي العِلْـم والآ	داب ترعـى رياضـهن العقـولُ
كان كهفي على الحوادث مَـا عـا	ش عليـها برأيـه أسـتطيلُ
زانـه العقـل والحصافـة والـرأ	ي وحسـن البيـان والتحصيـلُ
وعفاف يثنيه عن موقـف الشـ	ـك إذا أطلـق العنـان الجـهولُ
خلق كـالزلال زلَّ عـن الصَّخْـ	ـر ونفـسٌ للعيـب عنـها زليـلُ

واجتناب لما يعــاب مــن الأمــــ ر وعرضٌ مـــن الدنــاءِ صقيــلُ
فعليه سلامُ ذي العَـــرْشِ يهديـــ ه إلـــى حشــو قــبرِه جـــــبريلُ

(١٩) كتب المحقق البيت الثالث من المقطعة رقم ١٥٧ ص ١٩٧ هكذا :

مــاذا تقــولُ لصَــبٍّ شــفاوْه منــك قبلــه ؟ !

وكتابته على هذا النحو توحي بأنه مدور ، والصحيح أنـــه غــير مــدور ، فحق كتابته أن تأتي هكذا :

مـــــاذا تقــــــولُ لصَـــــــبٍّ شـــفاوْه منــــك قبلـــــــه ؟ !

تلك هي مآخذنا على الديوان مما يتصل بإيقاعه العروضي ، نأمل أن نكون قد وفقنا إلى تصحيحها ، واستيعابها على كثرتها .

خامساً : تتمة الروايات :

لم تستوعب محاولة د: " جليل العطيـــة " كــل روايــات الأبيــات فـــي المصادر ، فهناك أبيات كثيرة وقف عليها في مصادرها ولكن لم يرصـــد كــل رواياتها ، وهناك أبيات أخرى ذكرت في مصادر لم يرجع إليها ، وبالتالي فاته رصد رواياتها، وأزجي الآن ثبتاً بما يجب أن يضاف إلى روايات الأبيات فـــي الديوان مشيراً إلى أن فيه روايات يجب الأخذ بها لأنها أصح مـــن الروايــات المعتمدة في نص الديوان :

- النتفة رقم ٤ ص ٣١ : ورد البيت الأول منها فــــي نثــار الأزهـــار ٨٧ ، ومسالك الأبصار ٢٥٦/١٥ برواية : " نوره نـــور اللـــهب " ، وورد في يتيمـــة الدهــر ٣٧٣/٤ ، وزهــر الآداب ١/ ٤١٥ برواية : " لونه يحكي اللهب " .

- القصيدة رقم ٦ ص ٣٣ : ورد البيت الثالث منها في التمثيل والمحاضرة ١٢٩ برواية : " على حلل الحب " .
- النتفة رقم ٨ ص ٣٥ : ورد البيت الثاني منها في الوافي بالوفيات ٣٢/١٩ برواية : " أرادت صدودي " .
- المقطعة رقم ١٣ ص ٤٠ : ورد البيت الثالث منها في مسالك الأبصار ٢٥٥/١٥ ، والدر الفريد ٢٠/١ برواية : " هو روحي " .
- النتفة رقم ١٥ ص ٤٢ : ورد البيت الثاني منها في السفينة جـ٧ برواية : " فهو يسري " .
- النتفة رقم ٢٤ ص ٥١ : نسبت للباخرزي في البديع لأسامة بن منقذ ٤١٦.
- النتفة رقم ٢٥ ص ٥٢ : ورد البيت الثاني منها في زهر الآداب ٧٦٥/٢ برواية : " إلى الأتراب " .
- المقطعة رقم ٢٦ ص ٥٣ : ورد البيت الثاني منها في نزهة الأنام في محاسن الشام ٧٥ ، ونهاية الأرب برواية : " عيني غزال " .
- النتفة رقم ٣٠ ص ٥٧ : ورد البيت الثاني منها في ديوان الصبابة ١٦٤ برواية : " فيا عاذلي دعني ويا مهجتي " .
- النتفة رقم٣٩ ص ٦٦ : ورد البيت الأول منها في مسالك الأبصار ٢٥٧/١٥ برواية : " متع شبابك " .

  - وورد البيت الثاني منها برواية : " فالعمر من فضة " .
- النتفة رقم ٤٥ ص ٧٣ : ورد البيت الثاني منها في فوات الوفيات ٤٣٣/٢ برواية : " بشرني عاجلا " .

- المقطعة رقم ٤٦ ص ٧٥ : ورد البيت الأول منها في يتيمة الدهـــر ٣٧٧/٤ برواية : " وهي به الناس " .

  - وورد البيت الثاني منها في اليتيمة ٣٧٧/٤ أيضاً بروايـــة : " مذ تولى ..... فما يرى موقف " .

- النتفة رقم٥٢ ص ٨١ : وهي في بيت واحد ورد في زهـو الآداب ٢٧٠/١ ، ٧١٩/٢ برواية : " هو الشوك .... حين تضربه " .

- المقطعة رقم ٥٥ ص ٨٤ : ورد البيت الأول منها فـــي مســالك الأبصــار ٢٥٧/١٥ برواية : " البعيد وتقصد " .

  - وورد البيت الثالث فيه أيضاً ٢٥٧/١٥ برواية : " للصبابة".

- النتفة رقم ٥٧ ص ٨٦ : ورد البيت الثاني منها في يتيمـــة الدهـــر ٣٦٩/٤ برواية : " وكأن قد " .

- المقطعة رقم ٥٨ ص ٨٧ : ورد البيت الأول منها في السفينة جـــ٧ برواية : " مجروحاً على أعماد " .

  - وورد البيت الرابع منها فيه برواية : "وجعت .... بشقيقة".

  - وورد البيت الخامس منها فيه كذلك برواية : " جمرتها ".

- النتفة رقم ٦٦ ص ٩٥ : ورد البيت الخامس منها في فوات الوفيات ٤٣٠/٢ برواية : " في خدك نيلوفرا " .

- النتفة رقم ٧٠ ص ٩٩ : ورد البيت الثاني منها في التذكرة الســـعدية ١٦٣ برواية : " فالكرم " .

- النتفة رقم ٧١ ص ١٠٠ : وتقع في بيت واحد ، ورد في لبـــلب الآداب ١٣٣ ، والتوفيق للتلفيق ١٤٥ برواية : " لما مسه الحجر " ، وهـــي الرواية الصحيحة .

- النتفة رقم ٨١ ص ١١١ : ورد البيت الثاني منها في الوافي بالوفيات ٣٢/١٩ برواية : " خوف ثان " .
- النتفة رقم ٨٥ ص ١١٦ : ورد البيت الأول منها في نور الظرف ١٧٨ ، ومسالك الأبصار ٢٥٦/١٥ برواية : " عن خالع " .
  - وورد البيت الثاني منها في المصدر الأخير ٢٥٦/١٥ برواية : " أقداح تبر .... وساقه كأشواق " .
- المقطعة رقم ٨٨ ص ١١٩ : ورد البيت الثاني منها في السفينة جـ٧ برواية : " على بحر " .
  - وورد البيت الثالث منها في المصدر ذاته برواية : " ومن يفتخر " .
- النتفة رقم ٨٩ ص ١٢٠ : ورد البيت الأول منها في الدر الفريد ٣١/٥ برواية : " ذوي الجهالة " .
- النتفة رقم ٩١ ص ١٢٢ : ورد البيت الثاني منها في الوافي بالوفيات ٣٢/١٩ برواية : " فهو فيض " .
- النتفة رقم ٩٣ ص ١٢٤ : ورد البيت الثاني منها في الدر الفريد ٢٧٣/٣ برواية : " نقد " ، وورد في مسالك الأبصار ٢٥٧/١٥ برواية : " فقد تهلك"، وورد في تمام المتون ٣١٥ برواية : " عنه بعيشه " .
- النتفة رقم ٩٥ ص ١٢٧ : ورد البيت الثاني منها في يتيمة الدهر ٣٨٠/٤ برواية : " أظنها قد " .
- المقطعة رقم ٩٨ ص ١٣٢ : ورد البيت الأول في المستطرف ١٣٧/٢ برواية : " قد كسبت .... طلعاً " .

- وورد البيت الثاني منها فيه برواية : " والنهر منظرة شهب سماوية فارتج والتمعا ".

- وورد البيت الثالث فيه كذلك برواية : " يقلبه " .

- النتفة رقم ١٠١ ص ١٣٥: ورد البيت الثاني منها في يتيمة الدهر ٣٨١/٤ برواية : " سير بديع " .

- النتفة رقم ١٠٥ ص ١٣٩ : ورد البيت الثاني منها فيه أيضاً ٣٧١/٤ برواية : " فأخدعه " .

- المقطعة رقم ١٠٨ ص ١٤٣ : ورد البيت الثاني منها في حسن المحاضرة ٤١٩/٢ برواية : " فيه اليوم " ، وورد في السفينة جـ٧ برواية : " روض يروض " .

- وورد البيت الثالث فيه أيضاً برواية : " فإذا بـرت " ، وورد في غرائب التنبيهات ٩١ برواية : " إذا أتت " .

- النتفة رقم ١٠٩ ص ١٤٥ : ورد البيت الثاني منها في يتيمة الدهر ٣٧١/٤ برواية : " لؤلؤ أدمع " .

- النتفة رقم ١٢٩ ص ١٦٧ : ورد البيت الأول منها في نفحة الأزهار ٣٩ برواية : " يا من يضيع عمره في اللهو " بحذف كلمة " متمادياً " قبل حرف الجر " في " .

- المقطعة رقم ١٣٧ ص ١٧٥ : ورد البيت الأول منها في مسالك الأبصار ٢٥٥/١٥ برواية :" يلهو بلب " .

- النتفة رقم ١٣٨ ص ١٧٦ : ورد البيت الثاني منها في البديع في نقد الشعر ٦٢ برواية : " سؤال الكرم مغن " ، وورد في مسالك الأبصار ٢٥٦/١٥ برواية : " ومنى المنايا " .

- القصيدة رقم ١٣٩ ص ١٧٧ : ورد البيت السادس منها في الدر الفريد ٢٥٥/٣ برواية : " وعرض للعار عنه زليل " .
  - وورد البيت السابع عشر منها في يتيمة الدهر ٤/ ٣٧٧-٣٧٨ برواية : " لما يعيب " .
- المقطعة رقم ١٤٤ ص ١٨٣ : ورد البيت الأول منها في مسالك الأبصار ٢٥٧/١٥ برواية : " يزري بها " .
- المقطعة رقم ١٤٩ ص ١٨٨ : ورد البيت الثاني منها في السفينة جـ٧ برواية : " وفي سفن " .
- النتفة رقم ١٥٠ ص ١٨٩ : ورد البيت الأول منها في المدهش ٣٦٣ برواية : " غناه " .
  - وورد البيت الثاني فيه أيضاً ٣٦٣ برواية : " الأرض طياً ".
- النتفة رقم ١٥٨ ص ١٩٩ : ورد البيت الأول منها في يتيمة الدهر ٣٧٢/٤ برواية : " لاذ وثوباً " .
- النتفة رقم ١٦١ ص ٢٠٢ : ورد البيت الأول منها في نظم الدر ٢٤٢/٤ برواية : " ولم تأخذه " .
  - وورد البيت الثاني منها فيه أيضاً ٢٤٢/٤ برواية : " وإن همت " .
- النتفة رقم ١٦٢ ص ٢٠٣ : ورد البيت الأول منها في نفحات الأزهار ١٣ برواية : " عاشر بالجميل " .
  - وورد البيت الثاني منها فيه أيضاً ١٣ برواية : " وتيقظ " .
- المقطعة رقم ١٦٥ ص ٢٠٦ : ورد البيت الثالث منها في يتيمة الدهر ٣٧٥/٤-٣٧٦ برواية : " مثلما يرتاح " .

- وورد البيت الرابع منها فيه أيضاً ٣٧٥/٤-٣٧٦ برواية : " نسله لا يرام .

- وورد البيت الخامس منها فيه أيضاً ٣٧٥/٤-٣٧٦ برواية : " وأتاه " .

- النتفة رقم ١٧٧ ص ٢١٩ : ورد البيت الثاني منها في نهاية الأرب ٢٦٩/٢ ، وتشنيف السمع ٧٨ برواية : " كلها راقة سواك ".

- النتفة رقم ١٨٦ ص ٢٢٩ : ورد البيت الأول منها في نفحات الأزهار ٣٨ برواية : " قلبي من ... شفتاه وشفتاه " .

  - وورد البيت الثاني منها فيه ٣٨ برواية : " جاد بوصل " .

- النتفة رقم ١٨٧ ص ٢٣٠ : ورد البيت الأول منها في الكشكول ٣٨٣/١ برواية : " له حقوق .... راحتنا " ، وورد في نفحات الأزهار ١٨ برواية : " راحتنا " .

- النتفة رقم ١٨٨ ص ٢٣١ : ورد البيت الأول منها في معاهد التنصيص ٢١٢/٣ برواية : " ناصبت " .

  - وورد الثاني منها فيه أيضاً ٢١٢/٣ برواية : " عندي ولا ".

- النتفة رقم ١٨٩ ص ٢٣٢ : ورد البيت الثاني منها في مسالك الأبصار ٢٥٥/١٠ برواية : " يبدي الذي " .

- المقطعة رقم ١٩١ ص ٢٣٥ : ورد البيت الأول منها في اللطف واللطائف ٤٢ برواية : " الحسن أضحى " .

  - وورد البيت الرابع منها فيه أيضاً ٤٢ برواية : " فدعني " .

سادساً : تتمة التخريج :

يعد استقصاء مصادر التخريج في العملية التحقيقة أمراً في غاية الأهمية ، خصوصاً في جمع الدواوين الشعرية من بطون المظان المختلفة ، والأسفار المتعددة ، ولا قيمة لأي عمل – من الوجهة الأكاديمية – " يتم دون مراعاته ، والحرص على القيام به وإتمامه على أكمل وجه ، فعلى المحقق إذن ملاحقة الأبيات وجمعها من كل المصادر التي اشتملت عليها ، وعليه بعد ذلك إثبات كل المصادر التي روت هذه المقطعة أو بعض أبياتها ، ولا يكتفي بذكر بعض المصادر ولا يعد إثبات المحقق كل المصادر في هامشه من باب الفضول والزيادة التي ليست لها فائدة .

إن استقصاء المحقق لمصادر التخريج له أهمية بالغة تكمن في النقاط التالية:

(١) يزيد في توثيق الشعر ، خاصة بعد ضياع الأصل المخطوط لهذا الشعر.

(٢) يجعل الدارس والباحث مطمئناً إلى صحة نسبة الشعر إلى الشاعر .

(٣) يعرف الباحث بنوعية المصادر التي روت المقطوعة ، ومن ثم يكون على بينة من أمره هل يرجع إلى تلك المصادر أو لا يرجع .

(٤) يسهل على دارس الديوان الرجوع إلى المصدر ، وذلك إذا ما حَدَّد المحقق رقم الجزء ، ورقم الصفحة، ورقم الطبعة ، ومحل الإصدار ، وسنة النشر.

(٥) يكشف عن مدى سيرورة الشعر على ألسنة الرواة ، وبالتالي يمكن تحديد منزلة الشاعر في موكب الشعر العربي بسهولة .

ومن ثم كان التخريج أمراً بالغ الأهمية، يجب على المحقق العناية به، والحرص على استقصائه،والتأكيد على إثباته في هوامش المقطوعات والقصائد[1].

---

(١) تحقيق الأستاذ هلال ناجي لشعر الببغاء تكملة وإصلاح أخطاء ص ٣٠-٣١ بحث لكاتب هذه السطور – معد للطبع ، وانظر أيضاً : ديوان عمرو بن أحمر الباهلي ص ٢٢ جمع وتحقيق وشرح وتقديم كاتب هذه السطور- الجزء الثاني من رسالة الماجستير المخطوطة – كلية اللغة العربية – إيتاي البارود – ١٩٩٣م .

والحقيقة أن محقق ديوان " الميكالي " قد بذل جهداً كبيراً في ملاحقة المقطعات والنتف الشعرية في كثير من مصادر التراث العربي ، وأثبت المصادر التي روت شعر " الميكالي " أسفل كل مقطعة ونتفة ، وليس معنى ذلك أنه استقصى كل مصادر التخريج ، فهذا أمر يحتاج إلى جهد خارق يفوق طاقة الفرد ، بسبب صعوبة الحصول على كثير من مصادر التراث التي قد تطبع خارج القطر الذي يقطنه المحقق .

ومهما يكن من أمر تلك المصادر التي لم يرجع إليها المحقق ، ولم يستقص منها مصادر التخريج ، فقد رجعت إلى طائفة من تلك المصادر ، وكثفت من تخريج المقطعات والنتف ، كما استدركت على المحقق تخريجات كثيرة لكثير من المقطعات والنتف من مصادر رجع إليها وأفاد منها ،وهذا ثبت بما تجمع لدي من تخريجات ، تضاف إلى تخريجات المحقق لتكتمل الصورة التامة للتحقيق كي يعطي ثماره يانعة .

- المقطعات والنتف ذوات الأرقام ٤، ١٣ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٥٥ ، ٨٥ ، ٩٣ ، ٩٧ ما عدا البيت الأول منها ، ١٣٧ ماعدا البيت الرابع منها ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٨٩ للميكالي في مسالك الأبصار ١٥/٢٥٥-٢٥٧ .
- والمقطعات والنتف ذوات الأرقام : ١٥، ٢٦ ، ٥٨ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩١ ، ١٠٨ ، ١٤٩ ، ١٦١ ، ١٨٥ له في مخطوط السفينة (الجزء السابع) .
- النتفة رقم ٤ ص ٣١ : للميكالي في زهر الآداب ٤١٥/١ ، والتذكرة السعدية ٥٠١، ونثار الأزهار ٨٧ .
- القصيدة رقم ٦ ص ٣٣ : ورد البيت الثالث منها منسوباً إليه في التمثيل والمحاضرة ١٢٩ .
- المقطعة رقم ١٣ ص ٤٠ : للميكالي في الدر الفريد ٢٠/١ .

- النتفة رقم ١٤ ص ٤١ : له في ثمار القلوب ٣٣٥ .
- النتفة رقم ٢٤ ص ٥١ : نسبت للباخرزي في كتاب البديع لأسامة بن منقذ ٤١٦ ، ولم أجدها في ديوانه .
- النتفة رقم ٢٥ ص ٥٢ : له في مباهج الفكر ومناهج العبر ١٦٧/١ ، وزهو الآداب ٧٦٥/٢ .
- النتفة رقم ٢٧ ص ٥٤ : له في يتيمة الدهر ٣٧١/٤ .
- النتفة رقم ٢٨ ص ٥٥ : له في نهاية الأرب ٢٦٨/٢ وليس ٢٦٨/١ كما ذكر المحقق .
- النتفة رقم ٣٠ ص ٥٧ : له في جوهر الكنز ٩٨ ، والمنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ٤٩٢ ، وهي بلا نسبة في ديوان الصبابة ١٦٤ .
- النتفة رقم ٣٦ ص ٦٣ : بلا نسبة في البديع في نقد الشعر ٢٣٨ .
- النتفة رقم ٤٤ ص ٧١ : له في زهر الآداب ٢٧٠/١ .
- النتفة رقم ٤٥ ص ٧٣ : له في تحسين القبيح وتقبيح الحسن ٨٦-٨٧ .
- النتفة رقم ٥١ ص ٨٠ : له في زهر الآداب ٢٧٠/١ ، ٧١٩/٢ .
- المقطعة رقم ٥٥ ص ٨٤ : له في نور الطرف ٣٠٢ .
- المقطعة رقم ٨٩ ص ٨٨ : له في اللطف واللطائف ٤٢ ، والوافي بالوفيات ٣٢/١٩ ، والأبيات ١ ، ٢ ، ٤ منها له في خاص الخاص ٧٢ ، وهي بلا نسبة في خزانة الأدب لابن حجة الحموي ٣٩٢/٤ بزيادة بيتين أوردهما المحقق في هامش هذه المقطعة في ديوان الميكالي ، وقد وردت هذه المقطعة على قافية الياء ، وعلى هذه القافية وردت أيضاً في ديوان الميكالي تحت رقم ١٩١ ص ٢٣٥ .

- النتفة رقم ٧١ ص ١٠٠ : له في لبـــاب الآداب للثعـــالبي ١٣٣، والتوفيـــق للتلفيق ١٤٥.
- النتفة رقم ٧٠ ص ٩٩ : له في الدر الفريـــد ٤٣٠/٥ ، والتذكـــرة الســـعدية ١٦٣.
- القصيدة رقـــم ٧٢ ص ١٠١ : وردت الأبيـــات ١ ، ٢ ، ١١ ، ١٢ منـــها منسوبة إليه في الدر الفريد ٤٦٣/٥ ، وورد البيتان ١١ ، ١٢ منها له فـــي مسالك الأبصار ٢٥٧/١٥ .
- النتفة رقم ٨٥ ص ١١٦ : له في نور الظرف ٥١٧٨ .
- النتفة رقم ٨٧ ص ١١٨ : له في معاهد التنصيص ٢١١/٣-٢١٢ .
- النتفة رقم ٨٩ ص ١٢٠ : له في الدر الفريد ٣١/٥ .
- النتفة رقم ٩٣ ص ١٢٤ : له في التذكرة الحمدونية ١٠٥/٨ ، وتمام المتـــون ٣١٥، والدر الفريد ٢٧٣/٣ ، والثاني منها له في التمثيل والمحاضرة ١٢٨، وهي بلا نسبة في المستطرف ٢٦٩/٢ .
- المقطعة رقم ٩٤ ص ١٢٥ :له في معاهد التنصيص ٣٠٦/٣ .
- المقطعة رقم ٩٨ ص ١٣٢ : وردت الأبيات ١ ، ٢ ، ٤ منها بلا نسبة فـــي المستطرف ٤٣٧/٢ .
- المقطعة رقم ١٠٨ ص ١٤٣ : له في نور الظـــرف ١٧٧، ونهايـــة الأرب ٢٥٢/١١، وحسن المحاضرة ٤١٩/٢ .
- النتفة رقم ١٠٩ ص ١٤٥ : له في تشنيف السمع ١٠٣ .
- النتفة رقم ١١٠ ص ١٤٦ : له في كنايات الأدباء وإشارات البلغاء ١٠٠ .

- النتفة رقم ١١٢ ص ١٤٨ : له في التذكرة السعدية ٤٢٩ .
- النتفة رقم ١٢٩ ص ١٦٧ : له في نفحات الأزهار ٣٦ .
- المقطعة رقم ١٣٧ ص ١٧٥ : له في معاهد التنصيص ١١/٣ .
- النتفة رقم ١٣٨ ص ١٧٦ : بلا نسبة في البديع في نقد الشعر ٦٢ ، والأول منها له في الدر الفريد ٢٦٧/٣ .
- القصيدة رقم ١٣٩ ص١٧٧ : ورد البيت السادس عشر منها منسوباً إليه في الدر الفريد ٢٥٥/٣ .
- النتفة رقم ١٤٤ ص ١٨٣ : ورد البيتان الأول والثاني منها منسوبين للميكالي في الدر الفريد ١٦٩/٣ .
- النتفة رقم ١٦١ ص ٢٠٢ : له في نظم الدر والعقيان ٢٤٢/٤ .
- النتفة رقم ١٦٢ ص ٢٠٣ : بلا نسبة في نفحات الأزهار ١٣ .
- المقطعة رقم ١٧٥ ص ٢١٧ : له في نثار الأزهار ١٤٢ .
- النتفة رقم ١٧٧ ص ٢١٩ : له في تشنيف السمع ٨٧ .
- النتفة رقم ١٨٦ ص ٢٢٩ : له في نفحات الأزهار ٣٨ .
- النتفة رقم ١٨٧ ص ٢٣٠ : له في الكشكول ٣٨٣/١ ، وبلا نسبة في نفحات الأزهار ١٨
- النتفة رقم ١٨٨ ص ٢٣١ : له في معاهد التنصيص ٢١٢/٣ .
- النتفة رقم ١٨٩ ص ٢٣٢ : له في تشنيف السمع ٧٥ ، ونفحات الأزهار ١٥، وفوات الوفيات ٤٣١/٢ .

سابعاً : تصحيح تعليقات المحقق على النتف والمقطعات :

وقعت بعض الأوهام في تعليقات المحقق على بعض الأبيات وتخريجاته لبعض النتف والمقطعات ، فكثيراً ما نقف على تغيير في أرقام الصفحات في التخريج ، وأرقام المقطعات في الإحالات إليها ، هذا إلى جانب وقوفنا على بعض المآخذ في التخريج والتعليق ، وهذا بيان بذلك :

- خَرَّجَ المحقق المقطعة رقم ٧ ص ٣٤ من عدة مصادر ، منها زهر الأكم لليوسي ٢٨٦/١، دون أن يشير إلى أنها بلا نسبة فيه .
- ذكر أن النُتفة رقم ٤٥ ص ٧٣ لغير الميكالي في نهاية الأرب ٢٨٨/١١ . قلت : النتفة لم تنسب لأحد في هذا المصدر وفي الصفحة المذكورة ، فهي بلا نسبة .
- ذكر أن المقطعة رقم ٢١ ص ٤٨ وردت ما عدا البيت الثالث منها في زهو الآداب ٦٩٣ . قلت : البيت الثالث فيها في هذا المصدر .
- خَرَّجَ النتفة رقم ٢٨ ص ٥٥ من نهاية الأرب ٢٦٨/١ . والصواب ٢٦٨/٢.
- خَرَّجَ النتفة رقم ١٧٥ ص ٢١٧ من نهاية الأرب ٢٣٢/١. والصواب ٢٣٢/١٠.
- خَرَّجَ النتفة رقم ١٧٧ ص ٢١٩ من نهاية الأرب ٢٦٩/١ . والصواب ٢٦٩/٢ .
- خَرَّجَ النتفة رقم ٦٢ ص ٩١ من ثمار القلوب ٣٤٦ . والصواب ٤٣٧ .
- خرج المقطعة رقم ٩٨ ص ١٣٢ من عدة مصادر ، من بينها مخطوط نور الظرف الورقة ٦٢ ، وذكر أن أبيات هذه المقطعة ما عدا البيت الثالث في هذا المصدر . قلت : وقفت على المقطعة مشتملة على هذا البيت في نور الظرف المطبوع ص ٣٠٧ .

- أحالنا المحقق في تعليقه على النتفة رقم ٤٣ ص ٧٠ على النتفـــة رقـــم ٤٤ ص ٧١ لنقف على ما بينهما من تشابه . والصواب أن يحيلنا على النتفة رقم ٤٥ ص ٧٣ .
- وكذلك أحالنا في تعليقه على النتفة رقم ٤٥ ص ٧٣ على النتفـــة رقـــم ٤٢ ص ٦٩ لنقف على التشابه الحاصل بينهما . والصواب أن يحيلنا على النتفة رقم ٤٣ ص ٧٠ .
- كما أحالنا في تعليقه على المقطعة رقم ٥٩ ص ٨٨ إلى المقطعة رقـــم ١٨٦ ص ٢٣٥ لنقف على ما بينهما من تشابه . والصواب أن يحيلنا على المقطعة رقم ١٩١ ص ٢٣٥ .
- ذكر المحقق في تعليقه على المقطعة رقم ٧٣ ص ١٠٢ ما يلي : " نرجح أن تكون هذه القطعة ، والقطعة التالية (الرقم٧٠) من قصيدة واحدة ، وقد تكرر صدر البيت الثاني في القطعة (٧٠) . والصواب أن يقال الرقم ٧٤ .
- كما أحالنا في تعليقه على القصيدة رقم ١٣٩ ص ١٧٧ بخصوص ترجمـــة أبي القاسم الكرخي على النتفة رقم ١٦٨ وقد بحثنا عن ترجمـــة الكرخـــي تحت هذا الرقم ، فلم نعثر عليها ، وأخيراً عثرنا عليها تحت النتفة رقم ١٧٣ ص ٢١٥ .
- وكذلك أحالنا في تعليقه على القصيدة رقم ٤٧ ص٧٦ بخصوص ترجمـــة " أبي بشر القوال" على النتفة رقم ١٨٩ ص ٢٣٢ ، وقد بحثنا عـــن ترجمـــة " القوال " في تعليقه على هذه النتفة فلم نجد لها أثراً ، ووجدنا إشارة عـــابرة عنه في الهامش الخاص بالمقطعة رقم ١٩٤ ص ٢٣٩ ، وتحت هذا الرقـــم أحالنا إلى ذكر " القوال " إلى المقطعة رقـــم ٤٦ ص ٧٥ ، والصـــواب أن يحيلنا على القصيدة رقم ٤٧ ص ٧٦ .

- خرَّجَ المحقق القصيدة رقم ١٣٩ ص ١٧٧-١٧٨ وهي تقع في ٢٨ بيتاً من : درج الغرر ٢٢٤ ، وذكر أيضاً أن الأبيات ١- ٣ - ٦ - ١٦ - ١٧ - ٢٠ - ٢٤ - ٢٥ في يتيمة الدهر ٤/٣٧٧-٣٧٨ .

قلت : لقد رجعت إلى دَرْج الغرر فوجدتُ القصيدة مذكورة فيــه فــي ٢٧ بيتاً ، بعد غياب البيت الثامن ، كما رجعت إلى يتيمة الدهر فلم أجـد هذا البيت ، ووجدت فيها الأبيات التاليــة ١ ، ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٦، ٧ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ويتبقى بعد ذلك البيــت رقــم (٨) ، وهو مذكور في الديوان، ولم يذكر له مصدر تخريج ، ولســنا ندري من أين أتى به المحقق ؟!

- قال " الميكالي " في المقطعة رقم ١٧٢ ص ٢١٣ مقتبساً من القرآن الكريم:

كذلــك قَــالَ خالقُنــا تعــــالى "جَعَلنا بَعضكم للبَعْضِ فتنــــة "

علق المحقق على هذا الاقتباس قائلاً : " نص الآية الكريمــة : وكذلــك فتنــا بعضهم ببعض " الأنعام ٥٣ .

قلت : الميكالي لم يقتبس من هذه الآية الكريمة ، وإنما اقتبس من الآية رقم ٢٠ سورة الفرقان ، ونصها : "وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَــانَ رَبُّكَ بَصِيرًا" !

ثامناً : إصلاح الأخطاء الضبطية والمطبعية :

أما عن الأخطاء المطبعية ، والأوهام في ضبط بعض الكلمات فهي كثيرة ، قمنا بحصرها في الديوان ، ولحظنا أن معظمها يرجع إلى إهمال كتابة الهمزة ، وجعل همزة الوصل قطعا ، والعكس ، وقد أدى ذلك إلى خلل في الإيقاع في عدد غير قليل من الأبيات ، وقد ألمحنا إلى ذلك آنفاً ، ونورد هنا ما تمكنا من رصده :

م	الخطأ	الصواب	الصفحة	البيت	م	الخطأ	الصواب	الصفحة	البيت
١	الأناء	الإناء	٢٨	٢	٥	بانفس	بأنفس	٣٢	٥
٢	إرتيائه	ارتيائه	٢٩	٣	٦	فانكرت	فأنكرت	٣٣	٦
٣	الزَّهرة	الزُّهرة	٣١	١	٧	والفيتها	وألفيتها	٣٣	٦
٤	الا	إلا	٣٢	١	٨	الاكباد	الأكباد	٣٤	٢
٩	بالالباب	بالألباب	٣٤	٤	١٧	فاصداغه	فأصداغه	٦٠	٢
١٠	الى	إلى	٤١	١	١٨	والحاظه	وألحاظه	٦٠	٢
١١	فاراوه	فآراوه	٤٢	١	١٩	الصَّدغ	الصُّدغ	٦٨	١
١٢	اذا	إذا	٤٣	٤	٢٠	بان	بأن	٧٠	٢
٢٥	اكيدا	أكيدا	٨٢	٩	٢١	فأما	فإما	٧٧	٢
٢٦	او	أو	١٠١	٨	٢٢	وللاحزان	وللأحزان	٨٢	٥
٢٧	الورادَ	الوراد	١٠٢		٢٣	فان	فإن	٨٢	٨
٢٨	الى	إلى	١١٧	٦	٢٤	الايام	الأيام	٨٢	٨ ، ١٠
٢٩	الينا	إلينا	١٠٦	٢	٤٨	الى	إلى	١٧١	١
٣٠	الى	إلى	١٠٧	٢	٤٩	الى	إلى	١٧٧	١
٣١	احداقه	أحداقه	١١٦	٢	٥٠	اليه	إليه	١٧٨	١١
٣٢	قلائد	قلائدَ	١١٧	٤	٥١	الاخاء	الإخاء	١٧٨	١٥
٣٣	ماءّ	ماءَ	١٠٢	٣	٥٢	واذا	وإذا	١٧٨	٢٧
٣٤	أسار	إسار	١٠٢	٥	٥٣	الاشجان	الأشجان	١٨١	٤

م	الخطأ	الصواب	الصفحة	البيت	م	الخطأ	الصواب	الصفحة	البيت
٣٥	وصُنْ	وصَن	١٢٣	٢	٥٤	الى	إلى	١٨٢	١
٣٦	بان	بأن	١٢٣	١	٥٥	اليه	إليه	١٨٥	١
٣٧	إرتفعا	ارتفعا	١٣٢	٩	٥٦	الى	إلى	١٨٨	٢
٣٨	الى	إلى	١٣٢	٤	٥٧	اذا	إذا	١٨٨	٤
٣٩	ولُوع	ولَوع	١٣٥	١	٥٨	او	أو	١٨٩	١
٤٠	الاحلام	الأحلام	١٣٦	١	٥٩	الارض	الأرض	١٨٩	١
٤١	فان	فإن	١٤٠	٢	٦٠	اليس	أليس	١٨٩	٢
٤٢	الارواح	الأرواح	١٤١	٧	٦١	الى	إلى	١٩٠	٧
٤٣	اي	أي	١٤٣	٢	٦٢	حلُ	حلٌ	١٩٠	٤
٤٤	الاصداغ	الأصداع	١٤٣	٣	٦٣	نفعَ	نفعُ	١٩٠	٤
٤٥	الينا	إلينا	١٥٩	٢	٦٤	بالامس	بالأمس	١٩٣	١
٤٦	الامن	الأمن	١٦٣	٢	٦٥	الى	إلى	١٩٣	١
٤٧	كلُ	كلٌ	١٦٨	٢	٦٦	الى	إلى	١٩٥	٥ ، ١٤
١٣	فانجم	فأنجم	٤٣	٥	٦٧	قبلةَ	قبله	١٩٧	٣
١٤	الابدان	الأبدان	٤٨	٤	٦٨	باطرافها	بأطرافها	١٩٩	٢
١٥	او ...الى	أو ... إلى	٥٢	٢	٦٩	الالفاظ	الألفاظ	٢٠٩	٢
١٦	الا	إلا	٥٤	٢	٧٠	فادً	فأدٌ	٢٣٥	٢

تلك هي أهم الإضافات والملحوظات التي عَنَّت لي وأنا أستعرض هـذا الديوان ، أسأل الله – ﷻ – أن يفيد منها كل من يقف عليها ، وأن يجعل جهدي في رصدي إياها في ميزان حسناتي يوم الدين ، يوم لا ينفع مال ولا بنـون إلا من أتى الله بقلب سليم .

الخـــاتمة

تناولت في الصفحات السابقة ديوان " أبـــي الفضـــل الميكـــالي " بـــالنقد تطلعاً إلى تنقيحه وإكماله ، وتنقيته مما علق به من أوهـــام ، وخلـــط ، وكـــل الأمل أن أكون قد وفقت فيما ذهبت إليه ، واستطعت أن أصل بـــالديوان إلـــى درجة تشحذ همم الباحثين إلى الإلتفات إليه لدراسته وتقويمه ، يحدوهم الأمـــل في الوقوف على قيم فنية آسرة ، تضاف إلى ما يتمتع به تراثنا العربـــي مـــن تلك القيم ، ويبعثهم الاطمئنان بعد وقوفهم على دراستنا هذه إلى الخـــوض فـــي دراسة شعر " الميكالي " دون شك أو تردد .

وقد خرجتُ من دراستي هذه بعدة نتائج ، أحسب أنني لم أسبق إليها فيمـــا أعلم ، من أهمها :

١- أثبتُ أن المحقق قام بدَسٍّ خمس عشرة مقطعة شعرية على " الميكـــالي " ، دون أن ينبس بِبِنْتِ شفة إزاء نسبتها إليه ، وأدرجها في ديوانه مـــع أنـــها منسوبة لشعراء آخرين في مصادر غير التي نسبت فيـــها " للميكـــالي " ، فيجب إذن على الباحثين أن يطرحوا هذه المقطعات أثناء دراســـتهم لشـــعر " الميكالي " ، إلا إذا ثبت لديهم أنها صحيحة النسبة إليه حقـــاً كـــي تـــأتي نتائجهم صائبة .

٢- أضفت إلى ديوان " الميكالي " بعض المقطَّعات ، وقفتُ عليها فـــي بعـــض المصادر ، ولم أجدها في الديوان ، ويجبُ الاعتداد بما صحت نسبته منـــها " للميكالي " في دراسة شعره .

٣- حدَّدْتُ الأوزان الصحيحة لكثير من المقطعات والنتف التي أخطأ المحقـــق في تحديد وزنها ، كما أقمتُ وزن كثير من الأبيات المختلة عروضياً .

٤- لحظتُ أن تخريج المحقق للمقطعات يشوبه نقص كبير ، فرحت أستقصي مصادر أخرى للتخريج رغبة في توثيق الشعر ، والوقوف على مدى سيرورته في المصادر ، ومن ثم استشراف منزلة " الميكالي " في موكب الشعر العربي .

٥- رصدتُ ما لم يرصده المحقق من روايات كثير من الأبيات ، كما قمتُ بتصحيح ما سقط من أوهام الضبط والطباعة في كثير من أبيات الديوان.

والله – ﷻ – أسأل أن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علمنا ، إنّه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المصـــــادر

١- **الآداب** : لجعفر بن شمس الخلافة (٥٤٣-٦٢٢هـ) - عنـي بتصحيحـه: محمد أمين الخانجي - مكتبة الخانجي - ط٢ - ١٩٩٣م.

٢- **أحسن ما سمعت** ـ لأبي منصور عبد الملك بن محمـد بـن إسـماعيل الثعالبى النيسابوري (٣٥٠ ـ ٤٢٩ هـ) تحقيق : محمـد إبراهيم سليم ـ دار الطلائع ـ ١٩٩٢ م .

٣- أسرار البلاغة : للأمام : عبد القاهر الجرجانى (ت ٣٧١هـ) تحقيـق : هلموت وينز - مكتبة المتنبي - ط٢ - ١٩٧٩م.

٤- **الإعجاز و الإيجاز** : لأبي منصور الثعالبي ـ صححه و نشره ـ إسـكندر أصاف ـ دار صعب بيروت - لبنان ـ (د.ت).

٥- **أنوار الربيع في أنواع البديع** : لابن معصوم المدني : تحقيق المرحـوم : شاكر هادي شكر - مكتبة العرفان - بغداد .

٦- **البديع في نقد الشعر**: لأبي المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بـن نصر بن منقذ(٤٨٨-٥٨٤هـ) ـ تحقيق د: أحمد أجمد بـدوي و د: حامد عبد المجيد ـ مصطفي البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٦٠م .

٧- **البناء الفني للصورة الأدبية عند ابن الرومي** : تأليف د: علي علي صبـح - مطبعةالأمانة - القاهرة - ط١ - ١٩٧٦م .

٨- **تحسين القبيح وتقبيح الحسن** : لأبي منصور عبدالملك محمـد الثعـالبي (ت٤٢٩هـ) ـ تحقيق : علاء عبدالوهـاب محمـد ـ دار الفضيلة ـ ١٩٩٤م.

٩- **التذكرة الحمدونية** : ابن حمدون ــ محمد بن الحسن محمد علي(٤٩٥ ــ ٥٦٢ هــ) ــ تحقيق د / إحسان عباس ، وبكر عباس ــ دار صادر ــ بيروت ــ لبنان ط١ ــ ١٩٩٦ م .

١٠- **التذكرة السعدية في الأشعار العربية** : لمحمد بن عبدالرحمن بن عبدالمجيد العبيدي (من رجال القرن الثامن الهجري) - تحقيق د: عبدالله الجبوري - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط١- ٢٠٠١م .

١١- **تشنيف السمع بانسكاب الدمع** : لصلاح الدين خليل بن آيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ) - تحقيق د: محمد علي داود - دار الوفاء الإسكندرية - ١٩٧٧م .

١٢- **تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون** : لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٤٦هـ) تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم - دار الفكر العربى - مطبعة المدنى - ١٩٦٩م .

١٣- **التمثيل والمحاضرة** : لأبي منصور الثعالبي ــ تحقيق المرحوم عبد الفتاح محمد الحلو ــ الدار العربية للكتاب ــ ط٢ ــ ١٩٨٣م .

١٤- **التوفيق للتلفيق** : لأبي منصور الثعالبي ــ تحقيق الأستاذ :هلال ناجي ، د: زهير غازي زاهد ــ مطبعة المجمع العلمي العراقي ــ ١٩٨٥م .

١٥- **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب** : لأبي منصور الثعالبي ــ تحقيق المرحوم : محمد أبي الفضل إبراهيم ــ دار المعارف ــ مصر ــ ١٩٨٥م .

١٦- جوهر الكنز : لنجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبي - تحقيق د:محمد زغلول سلام - منشأة المعارف - الإسكندرية - د.ت.

١٧- **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقـاهرة** : للحـافظ جـلال الديـن عبدالرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) - تحقيق : محمـد أبـي الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية - عيسـى البـابي الحلبي - ط١ - ١٩٦٨م .

١٨- **حلبة الكميت في الأدب والنوادر والفكاهات المتعلقة بالخمريات** : لشمس الدين النواجي - طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة - ١٩٩٨م .

١٩- **خاص الخاص** : لأبي منصور الثعالبي ـ قدم لـه : حسـن لأميـن ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ لبنان ـ د.ت

٢٠- **خزانة الأدب وغاية الأرب** : لتقي الدين أبي بكر المعروف بـابن حجـة الحموي (ت ٨٣٧ هـ) ـ مطبعة بولاق

٢١- **الدر الفريد وبيت القصيد** : لمحمد بن أيدمر المحيوي (ت٧١٠هـ) - مخطوط أشرف على طباعته مصوراً الأستاذ فؤاد سـزكين - معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية - فرانكفورت - ألمانيا - ١٩٨٨-١٩٨٩م.

٢٢- **الدر المصون المسمى بسحر العيون** : لأبي بكر بن تقي الدين أبي البقاء البدري (٨٤٧-٨٩٤هـ) - تقديم وتحقيـق : سـيد صديـق عبدالفتاح - مطبوعات دار الشعب - ١٩٩٨م .

٢٣- **ديوان الباخرزي** : ضمن كتاب : علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب الباخرزي (ت ٤٦٧ هـ) : حياته وشعره وديوانه : تأليف وتحقيق د : محمـد التونجـي ـ دار صـادر ـ بـيروت ـ ١٩٩٤م.

٢٤- **ديوان البستي** (أبي الفتح علي بن محمد بن الحسين ٣٦٠-٣٧٨هـ) : تحقيق : لطفي الصقال ، درية الخطيب - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق - ١٩٨٩م .

٢٥- **ديوان الثعالبي** (أبي منصور عبدالملك بن محمد ٣٥٠-٣٤٩هـ) : دراسة وتحقيق د : محمود عبدالله الجادر - عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية - بيروت - ١٩٨٨م .

٢٦- **ديوان ابن الرومي** (علي بن العباس بن جريج ت ٢٨٣ هـ) : تحقيق : فريق من الباحثين بإشراف د : حسين نصار ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٠ وما بعدها .

٢٧- **ديوان الصبابة** : لابن أبي حجلة التلمساني (ت٧٧٦هـ) - تحقيق د: محمد زغلول سلام - منشأة المعارف - الإسكندرية - ١٩٨٧م .

٢٨- **ديوان عبدالله بن المعتز** (ت٢٩٦هـ) : تحقيق ودراسة د: محمد بديع شريف - دار المعارف - مصر - ١٩٧٧م .

٢٩- **ديوان عمرو بن أحمر الباهلي** (ت ٧٥ هـ) : جمع وتحقيق وشرح وتقديم د : عبدالرازق حويزي - الجزء الثاني من رسالة الماجستير المخطوطة - كلية اللغة العربية - إيتاي البارود - ١٩٩٣م .

٣٠- **ديوان مجنون ليلي** : (قيس بن الملوح بن مزاحم بن عدس بن ربيعة) وهو مجنون بني عامر ـ توفي بحدود (٦٨ هـ) ـ جمع وتحقيق : المرحوم : عبد الستار أحمد فراج ـ مكتبة مصر ـ القاهرة ـ (د.ت) .

٣١- **ديوان الميكالي** (أبي الفضل عبيد الله بن أحمد بن علي ت ٤٣٦ هـ): جمع وتحقيق د : جليل العطية ــ عالم الكتب ــ بيروت ــ لبنان ــ ط١ ــ ١٩٨٥ م .

٣٢- **ديوان ابن النبيه المصري** (كمال الدين أبي الحسن علي بن محمد ت ٦١٩هـ) : تحقيق د: عمر محمد الأسعد - دار الفكر - ط١ - ١٩٦٩م .

٣٣- **ذيل مرآة الزمان** : للشيخ قطب الدين موسى بن محمد اليونيني (ت٧٢٦هـ) - دار الكتاب الإسلامي - القاهرة - ط٢- ١٩٩٢م .

٣٤- **ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا** : لشهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي (ت١٠٦٩ هـ) تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ــ دار إحياء الكتب العربي ــ عيسى الحلبي ــ القاهرة ــ ط١ - ١٩٦٧ م.

٣٥- **زهر الآداب وثمر الألباب** : لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني - تحقيق : علي محمد البجاوي - عيسى البابي الحلبي - مصر - ط٢ - ١٩٦٩ م .

٣٦- **السفينة(الجزء السابع)** : لأحمد بن مبارك شاه المصري - نسخة مخطوطة ومحفوظة في معهد المخطوطات العربية برقم ٤٧٧ أدب .

٣٧- **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر** : لأبي الفضل محمد خليل بن علي المرادي (١١٧٣- ١٢٠٦هـ) - دار الكتاب الإسلامي - القاهرة - د.ت.

٣٨- **السلوك لمعرفة دول الملوك** : لتقي الدين أحمد بن على المقريـــزي (ت ٨٤٥هـ) – صححه ووضع حواشيه : محمد مصطفي زيادة – القاهرة – ١٩٥٧م .

٣٩- **شعر القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجـــاني** : صنعـه وقـدم لـه د : عبدالرازق حويزي – مكتبة الآداب – ط٢ – ٢٠٠٣م .

٤٠- **غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات** : لعلـــي بـــن ظـــافر الأزدي المصري (٦٢٣ هـ) – تحقيق : مصطفى الجويني وآخر – دار المعارف – القاهرة – ١٩٨٣م .

٤١- **غرر الخصائص الواضحة** ، **ودرر النقائص الفاضحة** : لأبـــي إســـحاق برهان الدين الكتبى المعروف بالوطواط (ت ٧١٨هـ) ـ دار صعب ـ بيروت ـ (د . ت).

٤٢- **فوات الوفيات والذيل عليها** : لمحمد بن شاكر بن أحمـــد الكتبـــي (ت ٧٦٤هـ) – تحقيق المرحوم : إحسان عباس – دار صادر – بيروت – د ت .

٤٣- **الكشكول** : لبهاء الدين العاملي (ت١٠٣١هـ) – تحقيق: الطاهر الـزاوي –طبع بدار إحياء الكتب العربية – عيسى الحلبي – مصـــر – ١٩٦١م .

٤٤- **كنايات الأدباء في إشارات البلغـــاء** : لأحمـــد بـــن محمـــد الجرجـــاني (ت٤٨٢ه) – تحقيق د : محمـــود شـــاكر القطـــان – الهيئـــة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠٣م .

٤٥- **لباب الآداب** : لأبي منصور الثعالبي ـ تحقيق د : قحطان رشيد التميمـي ـ دار الشئون الثقافية العامة ـ بغداد ـ ١٩٨٨ م .

٤٦- **اللطف واللطائف** : لأبي منصور الثعالبي ـ تحقيق : محمود عبد الله الجادر ـ مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ـ ط١ ـ ١٩٨٤م .

٤٧- **مباهج الفكر ومناهج العبر للوطواط الكتبي** (ت٧١٨هـ) : مخطوط طبعه بالتصوير الدكتور فؤاد سزكين ، ومازن عماوي – معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية – فرانكفورت – ألمانيا – ١٩٩١م .

٤٨- **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء** : لأبي القاسم حسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ) – منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت – د.ت

٤٩- **المدهش في علوم القرآن والحديث واللغة وعيون التاريخ والوعظ** : لعبدالرحمن ابن علي الجوزي (ت٥٧٩هـ) – تحقيق : خيري سعيد – المكتبة التوفيقية – القاهرة – ٢٠٠٠م .

٥٠- **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** : لشهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩ هـ) مخطوط أشرف على طباعته مصورا فؤاد سزكين وآخرون ـ معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ـ فرانكفورت ـ ألمانيا - ١٩٨٨م .

٥١- **المستطرف في كل مستظرف** : لشهاب الدين محمد الإبشيهي (ت٨٥٠هـ) – تحقيق : عبدالله أنيس الطباع – دار القلم – بيروت- ١٩٨١م .

٥٢- **مطالع البدور في منازل السرور** : لعلاء الدين علي بن عبدالله البهائي الغزولي (ت٨١٥هـ) - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة - ٢٠٠٠م .

٥٣- **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص** : لعبد الرحيم بن أحمد العباسي (ت ٩٦٣ هـ) ـ حققه : محمد محيي الدين عبد الحميد ـ المكتبة التجارية ـ القاهرة ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ١٩٤٧م .

٥٤- **معجم الأدباء** : لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت٦٢٦هـ) ـ تحقيق :محمد يوسف نجاتي وآخر ـ دار الفكر ـ ط٣ ـ ١٩٨٠م .

٥٥- **المنتحل** : لأبي منصور الثعالبي (٣٥٠-٤٢٩هـ) - صححه : أحمد أبو علي - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة - د.ت .

٥٦- **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع** : لأبي محمد القاسم السجلماسي (ت بعد ٧٠٤هـ) - تحقيق : علال الغازي - مكتبة المعارف - الرباط - ط١- ١٩٨٠م .

٥٧- **نثار الأزهار في الليل والنهار** : لجمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري (٦٣٠ - ٧١١هـ) - شرح وتعليق : أحمد تمام - مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - ط١ - ١٩٨٨م .

٥٨- **نظم الدر والعقيان** : لمحمد بن عبدالله التنسي - تحقيق : نوري سودان - دار نشر فرانزشتاينر - فيسبادن - بيروت - ١٩٨٠م .

٥٩- **نفحات الأزهار على نسمات الأسحار في مدح النبي المختار** : تأليف العلامة : عبد الغني النابلسي (ت١١٤٣هـ) - عالم الكتب - بيروت ، مكتبة المتنبي - القاهرة - د.ت .

٦٠- **نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة** : لمحمد أمين بن فضل الله المحبي (١١١١هـ) - تحقيق : عبدالفتاح الحلو - مطبعة عيسى البابي الحلبي - ط١- ١٩٦٧م .

٦١- **نهاية الأرب** : لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣ هـ) ـ طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ١٣٤٢ هـ وما بعدها.

٦٢- **نور الظرف ونور الطرف** : لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت٤١٣هـ) - تحقيق : لينة عبدالقدوس أبو صالح - مؤسسة الرسالة بيروت - ط١- ١٩٩٦م .

٦٣- **الوافي بالوفيات** : لصلاح الدين الصفدي خليل بن آيبك (ت ٧٤٦هـ) ـ الجزء الثاني - تحقيق : س.دريدينغ - دار نشر فرانزشتاينر - بفيسبادن - ط٢- ١٩٨٣م .

٦٤- **يتيمة الدهر** : لأبي منصور الثعالبي ـ تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة ـ المكتبة التجارية ـ مصر ـ ط٢ ـ ١٩٥٦م .

الفهـــــرس

ملامح القصة الفنية
فى كتاب البخلاء للجاحظ

د . أنور حميدو على فشوان
الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد بالكلية



مقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، وعلى آله وصحبه الكرام أجمعين ...وبعد :

فلا نكاد نبعد إذا قلنا إن العربية لم تشهد فى تاريخها البعيد والقريب ، كاتباً أغناها ، وأترع مكتبتها بمختلف العلوم والآداب والمعارف ، وأتى قلمه وبيانه على كل ما هو معروف فى زمانه وقبل زمانه ، مثل ما شهدت من أبى عثمان الجاحظ ، وإذا كان العلماء والكتاب فى كل زمان ومكان إنما يتخصص الواحد منهم فى شعبة من شعب العلم ، أو فرع من فروع الأدب ، ويكرس لذلك جهاده وحياته ، ولا يكاد يتجاوز ذلك إلا فى القليل ، فإننا نرى الجاحظ يشذّ عن هذه القاعدة الطبيعية ، فيتسع عقله حتى تستغرق معرفته جلّ ما زخر به زمانه من ألوان العلوم والآداب والفنون ، فأنت لا تكاد تجد باباً من أبواب المعارف الإنسانية ، على كثرتها ، وتنوعها ، إلا وللجاحظ فيه قدم راسخة ، وشخصية بارزة ومكان مرموق .

وكتاب البخلاء ، واحد من تلك الآثار الأدبية الخالدة التى ترك لنا الجاحظ ، وهو من أمتع كتبه الأدبية التى وصلتنا ، يتألف من جزئين كبيرين ، جمع فيهما من أخبار ونوادر البخلاء ، فى شكل فنى يجمع بين البناء القصصى والتحليل النفسى ، حيث تتبعّ الجاحظ بخلاءه متعمقاً أساليب حياتهم ، وكاشفاً عن أغوار نفوسهم ، مصوراً طبائعهم المستورة ، مستخدماً منهجه التهكمى الساخر الذى يقوم على المراوغة والمخاتلة ، واصطناع أساليب الجدل التى افتنّ الجاحظ فيها كل ألوان الافتنان ، والتى يعرض من خلالها صوراً مختلفة من ثقافته وفكره .

هذا فى الوقت الذى يعرض لنا هذه القصص ، فى صياغة أدبية وفنية ، يحافظ فيها على وحدة الموضوع بشكل كبير ، مبتعداً عن أهم خاصية عرف بها فى نثره ، وهى خاصية الاستطراد ، واستطاع أن يجعل (البخل)

موضوعاً أدبياً خالصاً ، ومتعة فنية راقية ، ولوناً من ألوان الفكاهة المغلّفة بثوب قصص ، جاعلاً كل شخصياته وصوره ومواقفه وأحداثه في خدمة الموضوع .

ومن منطلق هذا الصنيع الفنى للجاحظ ، فإنه بإمكاننا أن نستشهد به للرد على كثير من الباحثين الذين يذهبون إلى أن القصة العربية الحديثة منبتّة الجذور عما يحمله التراث العربى من قصص وحكايات [1] فى حين أن الحقيقة الأدبية تؤيد بوضوح ، أن التراث بما يحمله من أخبار ونوادر ، وسير وحكايات ، وقصص قصيرة وطويلة ، المترجم منه مثل كليلة ودمنه والأصيل كالمقامات ، والشعبى منه كالسيرة الهلالية وألف ليلة وليلة ، والرسمى كالأخبار والحكايات والنوادر ، إنما يمثل مرحلة طفولة ونشأة وتطور هذا الفن .

إننا بالرجوع إلى التراث فى عصوره المختلفة ، نجد أنواعاً كثيرة من القصص ، بل ويلحظ تطوراً ونضجاً الى حد ما فى فنية هذه القصص .. فمن حكايات بسيطة ، ونوادر صغيرة متناثرة ، تلعب فيها الأساطير والخرافات دوراً كبيراً ، مثل الغول والعنقاء ، وحكايات الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ، إلى أنواع مختلفة من القصص فى العصر الإسلامى والأموى والعباسى ، من قصص دينية هدفها العظة والعبرة ، الى قصص اجتماعية تصور طبقات المجتمع المختلفة ، إلى قصص عاطفية مستوحاة من سير الشعراء العذريين ، إلى قصص رمزية كقصص الصوفية ، إلى قصص فلسفية ، ومثلها الحى فى قصة (حى بن يقظان) .

وعرف التراث أيضا المجموعات القصصية التى تندرج تحت موضوع واحد ، فلما نجد مثيلاً لها فى المجموعات القصصية الحديثة ، مثل كتاب البخلاء للجاحظ، والفرج بعد الشدّة للتنوخى، ومصارع العشاق لابن السواج ..

---

(1) للوقوف على أصحاب هذا الرأى ، راجع : (فجر الإسلام) لأحمد أمين ، و(الفصول) للعقاد ، و(زهرة العمر) لتوفيق الحكيم ، و(فجر القصة المصرية) يحيى حقى .

كما عرف التراث السير الشعبية كالسيرة الهلالية،وسيرة عنترة، إذ أن قصص السير الشعبية يجمعها بطل واحد هو بطل السيرة،وهناك قالب قصصى أخر عرفه التراث، وهو المقامات التى تقترب فى بعض قصصها من فن القصة القصيرة .

ولانودّ أن نطيل أكثر فى تعداد أنواع وأشكال القصة التراثية فى هذه المقدمة ، بقدر ما نريد أن نؤكد أن موضوع القصة فى التراث مهما اختلفت مستوياتها الفنية – موضوع لا يمكن إنكاره .

أما أحاديث البخل والبخلاء ، فقد كانت منتشرة ومعروفه فى البيئات العربية قبل أن يشرع الجاحظ فى كتابه البخلاء ، بيد أن الذى روّج لهذه الأحاديث أن تذاع وتنتشر ، عاملان مهمان ، أولهما : الشعرييون الذين قصدوا إلى تحقير شأن العرب ، والانتقاص من قدرهم ، ومن ثم فقد أرادوا أن يثبتوا – بمثل هذه الموضوعات – أن صفة الكرم التى يفتخر بها العرب ليست إلا وهماً لا حقيقة لها .

ثانيهما : الخصومة السياسية بين الأمويين والعباسيين ، فقد كان كل فريق منهم يعمل على إشاعة النقائص والمثالب للفريق الآخر، ولو عن طريق الاختلاق والادعاء ، وكان البخل من هذه النقائص التى يذم كل فريق بها الفريق الآخر .

أما الجاحظ فى بخلائة ، فقد اتخذ من البخل موضعاً لدراسة علمية وفنية دقيقة ، بعيداً عن أية تأثيرات جنسية أو سياسية ، تعرض لطبيعة البخل ودوافعه ، وتصوير حياة البخلاء ، والتغلغل فى اعمال نفوسهم ، والكشف عن أسرارها ، ثم حكاية نوادرهم والسخرية بهم أو الاحتجاج لهم .

ومن ثم فإن كتاب البخلاء للجاحظ، يُعدّ نموذجاً متقدماً للقصة التراثية ، سواء فى شكله الفنى الذى يضمّ مجموعة من القصص ، ترتبط بموضوع واحد – وهو البخل – أو فى بناء القصص نفسها ، ومميزاتها الفنية التى تقترب فى بعض جوانبها من فنية القصة الحديثة وهذا ما اضطلع البحث بمعالجته وتفصيله ، على هذا النحو المبثوث فى مباحثه الأربع .

المبحث الأول

مقومات فنية فى شخصية الجاحظ

فى إطار من نظرة موضوعية منصفة ، لا يختلف اثنان على أن أبا عثمان الجاحظ [1] تجاوز بفكره وعبقريته وفنه حدود الزمان والمكان ، فرض السمة على تاريخ الفكر الإنسانى قديمة وحديثة ، شرقه وغربة ، أغرم به الدارسون ، وتعلقوا بإنتاجه الخصب الغزير ، ليجدو فى آفاقه الرحبة الواسعة ، معظم ما حفلت به صفحة الوجود من معارف ، وليستثمروا حصاد فكره المتنوع العميق فى أبحاث تتعدد ميادينها وتتنوع ، حتى تشمل جوانب عديدة مما عرفه نشاط الفكر الإنسانى فى الفلسفة والمنطق والسياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية والأخلاق وعلم النفس والدين واللغة والأدب والنقد ، وما إلى ذلك اتسعت له مصنفات الجاحظ ووسائله التى بلغ إحصاؤها فيما ينقله (سبط الجوزى) فى كتاب (مرآة الزمان) ثلاثمئة وستين مصنفاً ، حيث يقول : " أما مصنفات الجاحظ فثلاثمئة وستون مصنفاً ، ووقفت على أكثرها فى مشهد الإمام أبى حنيفة " . [2]

وفى محاولة للوقوف على أهم المقومات والأسباب التى شكلت هذه الشخصية العلمية والثقافية الفذة ، فليس لنا إلا أن نبسط القول فى طبيعة البيئات المختلفة التى درج عليها ، وتربى فيها ، وامتاح منها ثقافته .. وذلك على النحو التالى .

- **بيئته العلمية :**

وليس ثمة غرابة أن يصل الجاحظ إلى هذا المستوى من النبوغ والعبقرية ، حين ندرك طبيعة العصر الذى عاش فيه ، فهو من أزهى عصور

---

[1] هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى الليثى العربى، اشتهر بلقب الجاحظ، نسبة إلى نتوء حدقتيه وجحوظهما، ولد بالبصرة حوالى سنه(١٦٠هـ) وتوفى عام (٢٥٥هـ).

[2] انظر : معجم الأدباء – ياقوت الحموى – مطبعة دار المأمون ، جـ١٦ – ص ٧ .

المدنية الإسلامية ، وأحفلها بكل مظاهر الحضارة ، وأغناها بكل روافد العلم والمعرفة ، ذلكم هو العصر العباسى الأول الذى بلغ أوْجَه من القوة والمنفعة وعزة السلطان ، والذى تزاحمت فيه – إلى اللسان العربى – عناصر الثقافات الأجنبية التى عرفت فى ذلك الحين من ألوان الفكر والمعرفة ، حيث كُفلت الحريات للعلماء والأدباء فى كل نتاجاتهم العلمية والأدبية ، من قول وتأليف ، وشجعهم الخلفاء والوزراء ، وأمروا بالترجمة من اليونانية والسريانية ، فكثر النابغون من العلماء فى كل ضرب من ضروب المعرفة ، وراجت الوراقة والنسخ ، لشغف الخلفاء والأمراء بالكتب والمكتبات ، وتنافس العلماء والدارسين على اقتناء الكتب . (1)

وفى عصر الرشيد والمأمون بوجه خاص ، زخرت بغداد والبصرة والكوفة وسائر العواصم الإسلامية بالعلوم والعلماء والأدب والأدباء ، الأمر الذى أسفر عن ثقافة إسلامية وعربية تتسم فى جلّ مظاهرها برقى الأفكار ، ونضج العلوم ، وتنوع مباحثها ، كما هو الحال فى المنطق وعلم الكلام ، واستنباط الأحكام ، والفلسفة والرياضة ، والطب والحيوان ، والنبات وغيرها . (2)

وكذلك ظهرت آثارها فى اللغة والأدب ، حيث جدّت ألفاظ ومصطلحات وموضوعات كثيرة ، وتعمق الأدباء فى التفكير ، وأمعن الشعراء فى الخيال ، ودققوا فى التعبير ، ومال بعضهم إلى الصنعة والمبالغة ، واستخدم بعضهم كلمات أعجمية كثيرة ، وامتلأت كتب الأدب بأقوال الحكماء والفلاسفة . (3)

---

(1) انظر : تاريخ التمدن الإسلامى – جرجى زيدان – دار الهلال – جـ3 ص 161 .

(2) طالع التفاصيل فى كتاب : المناحى الفلسفية عند الجاحظ – د . على أبو ملحم – دار مكتبة الهلال – ط1 سنة 1994 ص 56 وما بعدها .

(3) المرجع السابق .

ولعل البيئة الثقافية فى البصرة ، كانت من أهم العوامل التى ساعدت على ازدهار النثر العربى ، ومضاهاته للشعر ، ذلك لأن العصر لم يكن عصر خيال واندفاع ، وإنما كان عصر روية وتفكير عقلى ، ومصدر ذلك إنما هو طبيعة الحركة العلمية الواسعة ، والنشاط المعرفى المتنوع ، والتيارات الفكرية المتصارعة التى شهدتها البصرة ، مما دعت الناس إلى التفكير والابتكار ، وكان النثر هو اللسان الذى يعبر عن هذا كله ، فقد أصبح فناً تؤدى فيه جميع العلوم الشائعة على كثرتها واختلافها . (١)

هذا بالإضافة إلى ما شهده الجاحظ فى البصرة ، من حركة علمية مزدهرة ، ونشاطاً ثقافياً متنوعاً ، وعلماء أعلاماً فى تخصصاتهم ، من مجاميع اللغوين والنحويين والإخباريين والشعراء ، إلى الفلاسفة والمتكلمين من كل الفرق الإسلامية وغير الإسلامية ، إلى المتخصصين فى العلوم الطبيعة كالفلك والرياضيات والطب والكيمياء ، إلى حلقات الفقهاء والمفسرين ورواة الحديث والوعاظ والقصاصين . (٢)

ولعل حلقة القصاصين – بنوعيها الرصناء منهم كالحسن البصرى ، والظرفاء – من بين الحلقات الثقافية التى استهوت الجاحظ وأثرت عليه ، فقد زاد هؤلاء القصاص الظرفاء فى تجاربه الإنسانية ، كما تدل على ذلك الاستشهادات المبعثرة فى كتبه ، أما القصاصون الرصناء ، فقد أسهموا ولا ريب فى تكوينه الدينى . (٣)

---

(١) انظر : رحلة التراث العربى – د. سيد حامد النساج – دار المعارف – ط١ سنة ١٩٨٤ – ص ٦١ .

(٢) شازل بلك : الجاحظ . ترجم : د. إبراهيم الكيلانى – دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر – دمشق د ط١ سنة ١٩٨٥ ، ص ١٦٤ .

(٣) نفسه ص ١٦٥ .

- **ثقافته الموسوعية :**

في البدء التحق الجاحظ في حداثته بكتاب من كتاتيب البصرة ، حتى أجاد القراءة والكتابة ولم يكد يشتد وينع حتى ظهرت عليه علائم النبوغ ، فأخذ يكرس كل وقته لطلب العلم والمعرفة ، ويتلقى العلم والفصاحة شفاها من العرب في المربد ، ويلتقي بالعلماء والخطباء في مجالسهم وحلقاتهم ، فيأخذ عنهم كل ما وعت صدورهم من علم ومعرفة .

ولقد أتيح للجاحظ أساتذة أجلاء كانوا غرّة دهرهم ، وآية عصرهم ، ويكفي أن يكون من بين هؤلاء الأساتذة " الأصمعي " ذلك العالم الأريب الذي كان يحفظ ثلث اللغة ، وجمع شتيتها في الشجر والنبات والإبل والشاء والوحوش ، وكذلك " أبو عبيدة معمر بن المثنى " الذي كان يقول فيه الجاحظ "لم يكن في الأرض خارجي ولا إجماعي أعلم بجميع العلوم منه" [1] وله مصنفات كثيرة في مختلف أنواع الحيوان والطيور والنباتات ، ومنهم كذلك " أبو الحسن الأخفش " الذي أخذ عنه النحو والتصريف ، وهو فارس ميدانهما.[2]

ومن بين الحلقات التي استهوت الجاحظ ، ووجد في نفسه ميلاً لها ، هي حلقات المتكلمين بشكل عام ، وحلقات المعتزلة بشكل خاص التي أثرت فيه تأثيراً كبيراً فاعتنق مذهبها ، إذ وجد فيه ما يرضى نوازعه العقلية ، ويقف (إبراهيم النظام) [3] من أئمة المعتزلة المشهورين كأكثر الشخصيات التي

---

[1] معجم الأدباء – ياقوت الحموي – جـ ١٦ – ص ٨٤ .

[2] راجع الفصل الخاص بـ (مناهل فكر الجاحظ) من كتاب : المناحي الفلسفية عند الجاحظ – د. علي بو ملحم – ص ٧٩ .

[3] راجع حول النظام : محمد عبد الهادي أبو ريدة – إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية – لجنة التأليف والترجم ، سنة ١٩٤٧ .

اتصل بها الجاحظ تأثيراً عليه، حتى ليعد مصدراً من مصادر ثقافته ([1]) ، وكثيراً ما كان يشيد الجاحظ بأستاذه ومكانته ، وبالمعتزلة وأثرهم ، يقول في كتاب الحيوان : " لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل ، وأقول لولا أصحاب إبراهيم ، وإبراهيم (النظام) لهلكت العوام من المعتزلة ، فإنى أقول إنه قد أنهج لهم سبلاً وفتق لهم أموراً ، واختصر لهم أبواباً ، ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم النعمة . ([2])

ويبدو أن النظام هو الذى غرس فى نفسه فكرة الثقافة الموسوعية – كما يرى الدكتور شوقى ضيف – فإن ما رواه عنه فى كتاب الحيوان ، يدل على أنه كان مستوعباً لكل الثقافات فى عصره ، من فارسية وهندية وعربية وإسلامية ، وهداه طول تفكيره فى آراء أستاذه الاعتزالية وغيره من المعتزلة ، إلى أن يعتنق مجموعة من الآراء ، كونت له فرقة سميت الجاحظية " . ([3])

ولاشك أن بيئة المتكلمين – والمعتزلة على وجه الخصوص – هى التى طبعت الجاحظ بطابع الجدل والمناظرة التى عرف بها للردّ على الزنادقة والشعوبيين ، وهى التى صبغت كتاباته بالصبغة الكلامية ن ولونت أدبه باللون العقلى فى كل مؤلفاته الجديدة منها والهزلية .

على أن بيئة المعتزلة ، جزء من بيئة أكبر كان لها أثرها العميق فى تكوين شخصية الجاحظ وثقافته ووعيه ، وهى بيئة البصرة التى أكمل فيها

([1]) فى معجم الأدباء لخص ياقوت الحموى روافد ثقافة الجاحظ بقوله :"سمع من أبى عبيدة ، والأصمعى ، وأبى زيد الأنصارى ، وأخذ النحو عن الأخفش وكان صديقه ، وأخذ الكلام عن النظام ، وتلقف الفصاحة عن العرب شفاها فى المربد " جـ١٦– ص ٧٤ .

([2]) الحيوان جـ٤ : ص ٢٠٦ .

([3]) د. شوقى ضيف : العصر العباسى الثانى – دار المعارف – ط٢ ، سنة ١٩٧٥ ، ص ٥٨٩ .

الجاحظ ثقافته الموسوعية ، ومعارفه المتنوعة ، كانت مركز إشعاع حضارى لا تضاهيها مدينة أخرى فى ذلك العهد ، باستثناء الكوفة التى كانت مع البصرة قطبى الثقافة الإسلامية والعربية فى تلك الفترة ، والموطن الأول للعلم والفلسفة والأدب ، والمصدر الخصب للحياة الزاخرة التى حفلت بها بغداد فى نهاية القرن الثانى .

- طوابعه الشخصية :

على الرغم من قلة المصادر والروايات التى تكشف لنا عن طفولة الجاحظ ، سوى أنه نشأ فى البصرة - مسقط رأسه - يتيماً فى أسرة فقيرة ، ليس له أمه ، وأنه كان يبيع الخبز والسمك بسيحان - أحد نهيرات البصرة - كما ورد فى معجم الأدباء [1] ، إلا أن هذا الصبى اليتيم الفقير الدميم الخلقة عوضه الله تعالى بأهم معلم من معالم شخصيته وهو الذهن الصافى ، والذكاء الحاد ، والميل الشديد إلى التعليم والمعرفة ، ومواهب خاصة فى قوة الذاكرة ، ودقة الملاحظة .

وثمة قصة يوردها الجاحظ فى (الحيوان) تشير إلى اختلافه إلى الكتّاب ، ولنا أن نستشف منها كذلك قوة الذكاء والعقل لدى الجاحظ (الصبى) فيقول : " وأنا - حفظك الله - رأيت كلباً مرة فى الحى ونحن فى الكتّاب ، فعرض له صبى يسمّى مهدياً من أولاد القصابين وهو قائم - يمحو لوحة - فعضّ وجهة ، فنقع شنيّته دون موضع الجفن من عينه اليسرى ، فخزق اللحم الذى دون العظم إلى شطر خده ، فرمى به ملقياً على وجهه ، وجانب شدقه ، وترك مقلته صحيحة ، وخرج منه من ألام ما ظننت أنه لا يعيش معه ، وبقى الغلام مبهوتاً قائماً لا ينبس ، وأسكته الفزع ، وبقى طائر القلب ، ثم خيط ذلك الموضع ، ورأيته بعد ذلك بشهر ، وقد عاد إلى الكتاب ، وليس فى وجهه من

---

(1) معجم الأدباء - ياقوت الحموى - جـ١٦ ص ٧٤ .

الشتر إلى موضع الخيط الذى خيط ، فلم ينبح إلى أن برئ ، ولا هرّ ، ولا دعا بماء ، حتى إذا رآه صاح : ردوه ! ولا بال جرواً ولا علقاً ، ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير ، ولم أجد أحداً من تلك المشايخ يشك أنهم لم يروا كلباً قط أكلب ولا أفسد طبعاً منه ، فهذا الذى عاينت " . [1]

هذه الحادثة التى نقلها الجاحظ نقلاً ، عن صورة تصورها فى طفولته تبين قوة ملاحظته ، ودقة تصويره ، وتشير إلى عين لاقطة حسّاسة ، وذاكرة واعية ، حتى لا يفوته شئ مما يجرى أمامه ، " وفى قوة تكفل لها البقاء فى (خزانة الصور العقلية) ذلك العهد الطويل المختلف " . [2]

وإن قوة الملاحظة ودقة التصوير ، عنصر سنلمحه فى قصص البخلاء فيما سيأتى ذكره .

وثمةَ جانب آخر مهم ، يمثل معلماً بارزاً فى شخصية الجاحظ ، وهو جانب الفكاهة والسخرية ، ذلك الذى يطفح به نتاجه الأدبى عامة ، وكتاب البخلاء خاصة ، وهو جانب يمثل طبعًا ذاتيا جُبل عليه وسمه نفسية تكون بها ، فهو جانب متصل بتكوينه النفسى ، وميوله ، وميوله الطبيعية نحو حب الدعابة والظرف ، وخفّة الروح ، فلقد تجاوز الجاحظ بثقافته الواسعة ، وتجاربه العميقة ، مرارة الطويل بالناس والحياة ، مرارة الإحساس بدمامة خلقته ، فانطلق من وراء ذلك إلى أفق عريض من السمو العقلى والنفسى ، جعله يستقبل أمور الحياة كلها فى رضا وابتسام ، ثم إن طبيعة الجاحظ الضاحكة تلك ، جعلته يفلسف الضحك برؤية ذاتية يروى فيها ، أن الحزن

---

[1] كتاب الحيوان للجاحظ – جـ٢ ص ١٤ .

[2] د. طه الحاجرى : الجاحظ .. حياته وآثاره – دار المعارف – ص ٩٣ .

يوهن الجسم ، ويميت النفس ، أما السرور ، فهو على العكس ، يربى الصحة ، ويزيل الهموم . (1)

المجتمع العباسى :

لم تكن فكرة تصوير البخل والحديث عن البخلاء منفصلةً عن الواقع المادى للمجتمع العباسى الذى نشأ فيه الجاحظ ، وبخاصة مجتمع البصرة ، هذه المدينة الثرية الغنية مادياً ، والتى انتقلت من مدينة بدوية قاسية تحاذى الصحراء إلى مدينة حضارية تكدست فيها الأموال الوفيرة، لموقعها التجارى الهام ، والى جانب رخص المستوى المعيشى فيها .(2)

هذه البيئة الثرية الرخيصة ، أوجدت طبقة ثرية مترفه من التجار وكبار الملاك ، تمتلك المال وتحتكر التجارة الواسعة فى البصرة ، فشكّلوا الطبقة البصرية البرجوازية كما يسميهم (شارل بللا) ويرى " أن البخل الذى أنشأ عليه الجاحظ كتاب البخلاء ، كان صفة بارزة للطبقة البصرية البرجوازية التى أثرت بفضل اقتصادها المفرط " (3)

هذه الطبقة الغنية – طبقة التجار والأثرياء التى حققت بغناها ذاتها ، وصورت مثلها ونظرتها إلى الحياة ، كانت بطبيعتها أكثر الناس تقديراً للمال ، وأشدهم مغالاة به ، وحرصاً عليه مع اختلاف أفرادها فى هذا ، وقد ساعد الجو الفكرى المذهبى على التعبير عن هذا الحرص مذهبياً ، ويعرض

---

(1) البخلاء للجاحظ – ؟؟؟ : طه الحاجرى – دار المعارف بمصر ، سنه ١٩٧١ ، ص ٢٨.

(2) للمزيد ... راجع : بغداد فى عهد الخلافة العباسية –جى استرانج – ترجمة : يوسف فرنسيس ، وتاريخ العرب العام – ل.أ سيديو – ترجمة : زعيتر وتاريخ التمدن الإسلامى – جرجى زيدان .

(3) شارل بللا : الجاحظ ومجتمع البصرة ، ص ٣٤٨.

كتاب البخلاء مفهومهم للمال ، ويكشف عن مذهبهم الاقتصادى القـــائم علـــى (الجمع والمنع) كما يقول الجاحظ.([1])

غير أن مفهوم البخل والحرص الشديد على المال الذى اتصفت به هـــذه الطبقة ، ويناقض مفهوم الكرم عند العـــرب ، والعـــرب معرفـــون بطبيعتـــهم السمحة ، وميلهم الفطرى الى السخاء والجود ، لـــذا أثـــار البخـــل دهشـــتهم واشمئزازهم ، وبالتاحقدهم على البخل والبخلاء ، وقد عقد الجاحظ فى الكتـــاب فصلاً عن علم العرب فى الطعام . مشيراً الى صفة الكرم التى يتصـــف بـــها العرب ، وكأن الجاحظ أراد بهذا أن يعقد مقارنة بين البخـــل والكـــرم ، نـــاقداً الأول كصفة ذميمة ، ومادحاً الثانى كصفة حميدة .

([1]) البخلاء : ص ٢٩.

المبحث الثانى

بناء النموذج الغنى للبخلاء

النموذج الإنسانى :

فى الوقت الذى يؤكد فيه بعرض النقاد المحدثين على أن خلق النماذج الأدبية -بشكل عام- لا يتأتى إلا لأقلام العباقرة من رواد الأدب الموضوعى([1]) نرى كذلك - ومن منطلق نظرة نقدية منصفة - أن الجاحظ فى كتابه (البخلاء) جدير بأن نجعل منه كاتباً عالمياً ، أسهم فى خلق نموذج أدبى عام لصورة (البخيل) يمكن متابعته مع بقية الكتاب العالميين الذين تناولوا هذه الشخصية ، وذلك فى إطارها الأدبى المقارن .

ففى إطار الوحدة الروائية الطويلة (قصة / مسرحية) عالج الكتاب الغربيون موضوع البخل . فى العديد من أعمالهم الأدبية فى العصور الوسطى والحديثة ، مثل مسرحية (البخيل) لموليير ، حيث يقف بطله (هارباجون) كأشهر بخيل فى الأدب الأوربى ، وفى مسرحية (يهودى مالطة) ١٦٣٠ لكريستوفر مالرو ، حيث نجد فيها نموذجا جديدا للبخيل (بارياس) وكأنه يمهد لأنموذج (شيلوك) لشكسبير فى مسرحية (تاجر البندقية) ١٦٩٥ ، وغيرها من المسرحيات الكثيرة ، حتى تصل إلى القرن التاسع عشر حيث تعرضت القصة التاريخية للبخل فى قصة (ايفنهو) سنة ١٨١٨ للكاتب الإنجليزى (والتر سكوت) وفى (الفارس البخيل) ١٨٣٠ للكاتب الروسى (بوشكين) نجد صورة للبخيل الجشع القاسى الذى لا يعرف إلا جمع الثروة ، مستبيحا كل شئ فى هذا السبيل ، وفى قصة (أوجينى وجرانديه) ١٨٣٣ للكاتب الفرنسى (بلزاك) يعرض من خلال شخصية الأدب (جرانديه) صورة نفسية للبخيل . ([2])

([1])انظر : النماذج الإنسانية - د.محمد غنيمى هلال - معهد الدراسات العربية سنة ١٩٦٤ ص٧.

([2]) حول موضوع البخل فى الأدب الغربى ، انظر : مع بخلاء الجاحظ / فاروق سعد ، ورحلة التراث العربى / د. سيد حامد النساج . والجاحظ والحاضرة العباسية / د. وديعة النجم .

وفى أدبنا العربى يأتى الجاحظ ليتفرّد من بين كتّاب العربية ، ويتناول هذا النموذج فى إطاره الفنى والأدبى ، حيث يقوم برسم نموذجه ، ويجسّمه أمام العيون ، دقيق المعالم ، واضح التفاصيل ، حتى كأنه لا يغادر ملامح شخصية من الشخصيات ، أو طبيعة من الطبائع المختلفة – جميلة كانت أم قبيحة – من التى كانت من قبل متفرقة فى أشخاص عديدين .

ولكى نتصور نموذج البخيل فى عمل فنى ، فقد عمد الجاحظ إلى إخراج ذلك فى قالب يجمع فيه من الصفات التى تتوافر فيها أبعاد النموذج بصورة مميزة للشخصية ، حتى تشدّ إليها الانتباه ، وتجذب إليها الأنظار ، فهو يصور سلوكه مع نفسه ، ومع أسرته ، ومع المجتمع الذى يعيش بين جوانبه ، ومن خلال هذا السلوك نقف على دخائل نفسه ، وأصداء الحوادث فيها ، ثم أثرها بدورها فى الشخصيات الأخرى المشتركة مع النموذج فى الموقف الأدبى .

وبشكل عام لا يعدو الكاتب أو الشاعر الحقيقة حين يجمع فى نموذجه أشتات صفات متفرقة فى الطبيعة ، متى استطاع أن يقنع بها فى تصويره الفنى ، وأن يتنزل بها إلى عالم الواقع ، لأنه حينئذ بصدد خلق شخصية متكاملة مقنعة .. من حيث عمق الدلالة ، وإثارة الشعور أو الفكر تجاه هذه الدلالة ، سواء من حيث السموّ أو الإسفاف . ([1])

وفى صدر كتاب البخلاء ، نجد تركيزاً شديداً حول هذا الجانب ، عنى به الجاحظ حين تحدث عن سبب وضع الكتاب ، والباعث على تأليفه ، والإلماع إلى المصادر التى زودته بمادة هذا الكتاب ، والأبواب التى سيتناولها ، فمن رسالة سهل بن هارون فى آداب الإنفاق إلى تصوير بخلِ أهل خراسان ، ولاسيمّا أهل مَرْو الذى يكاد يكون البخل فيهم فطرة وغريزة يولدون عليها ، وليس ذلك فى الأناسى فقط ، وإنما هو وباء تسرّب إلى الحيوانات أيضاً .

([1]) انظر : النماذج الإنسانية : محمد غنيمى هلال – ص ٨ .

" قـــال تمامة : لم أر الديك فى بلدة قط إلا وهـــو لاقـــط يـــأخذ الحبـــة بمنقارة ، ثم يلفظها قدام الإجاج ، إلا ديكة مرو ، فإنى رأيت ديكة مرو تســـلب الدجاج ما فى مناقيرها من الحب ، فعلمتُ أن بخلهم شئ فـــى طبـــع البـــلاد ، وفى جواهر الماء ، فمن ثمّة عمّ جميع حيوانهم ، فحدثتُ بهذا الحديث أحمد بن رشيد ، فقال : كنت عند شيخ من أهل مرو ، وصبى له صغير يلعب بين يديه ، فقلت له ، إما عابثاً وإما ممتحناً : أطعمنى من خبزكم .

قال : لا تريده ، هو مرّ

فقلت : اسقنى من مائكم

قال : لا تريده ، هو مالح

قلت : هات لى كذا وكذا

قال : لا تريده هو كذا وكذا

إلى أن عددتُ أصنافاً كثيرة ، كل ذلك يمنعنيه ويبغضه إلىّ ، فضحـــك أبوه وقال : ماذنبنا ؟ هذا مَنْ علّمه ما تسمع " . ([1])

ومن قصص أهل البصرة من المسجدين ، إلى قصص زبيدة ، وليلـــى ، وابن خلف ، وابن يزيد التى تدور على أن لُحمة البخل كصلـــة النســـب ، وأن بيوت الأموال درهم إلى درهم ، وأن القناعة شئ لا يدرك ، وأن فضيلة المـــال فى الحفاظ عليه لا فى جمعه .

ومن نوادر أبى جعفر والخزامـــى ، وخـــالد بـــن عبـــد الله القســـرى ، والحارثى ، إلى نوادر أبى فاتك والكندى ، وابن أبى المؤمل ، وابـــن جـــانى ، والثورى التى يفلسف فيها البخل ، فالسخاء مال وحمد ، والبخـــل مـــال وذم ، وأن سوء المعاملة فى أمور المال تؤدى إلى هبود الأسعار والكساد الاقتصادى ، وأن الإنفاق مرتبط بالمنفعة ، والموت منوط بالتخمة .

([1]) البخلاء للجاحظ – تح أحمد العوامرى وعلى الجارم – دار الكتب العلمية – بيروت ســـنة ١٩٩١ ص ٤٦ .

ومن خلال هذا العرض يمكن لنا الاستنتاج بأن الجاحظ ترك لنا في بخلائه نماذج تتعدد جوانبها وأبعادها على النحو التالي :

أولاً : صور لنا البخلاء من كل جنس وصنف ، فمنهم الموالي الشعوبيون كسهل بن هارون ، ومنهم الموالي غير الشعوبيين ، ومنهم العرب الأقحاح كالأصمعي ، ومنهم الفقراء ، ومنهم الأذكياء ، ومنهم السذج البسطاء ، ومنهم حق من المعتزلة أنفسهم ، وكل هؤلاء تجمعهم صفة واحدة هي البخل ، مما يعني أنه كان ينتقد البخل كطبيعة من طبائع النفس الإنسانية من جهة ، وكظاهرة أبرزتها ظروف عصره حتى أصبحت مذهباً يدافع البخلاء عنه ، ويجادلون فيه من جهة أخرى .

ثانياً : أراد الجاحظ أن يعطينا صورة من صور المجتمع العباسي بشكل عام ، والمجتمع البصري بشكل خاص ، واصفاً هذه الطبقة وصفاً دقيقاً ، محللاً نفسياتهم ، وكاشفاً عن طبائعهم الداخلية بحسّه الاجتماعي ونزعته الفنية ، والجاحظ من أكثر الأدباء اهتماماً بمجتمعه ، فقد صوره بكل إيجابياته وسلبياته من خلال استعراض طبقاته المختلفة ، وظاهره المتعددة ، ثم إن الجاحظ جمع شخصيات البخلاء وأحاديثهم ، وحاورهم في بخلهم بسخريته المعهودة ، ضاحكاً معهم ولهم ، فكانت أمثلة للبخل ونماذج للفكاهة .

ثالثاً : القصد إلى تصوير أحد الطباع الأساسية الضاربة في مجال البخل ، وهم المقتصدون الذين ينحون نحو الادخار في النفقة ، المقتّرين على أنفسهم وعلى ذويهم ، وقد كان جاداً في سوق أقاصيه في هذا الاتجاه ، بحيث يجعلها تنبئ عن التعره في الإسراف والتبذير ، وأن ذلك الادخار هو العقل بعينه ، والتدبير الذي هو عماد الحياة المتزنة ، حتى يمكن أن نعتبر الكتاب من هذه الزاوية كتاباً في وصف حال المقتصدين ، مما حدا

ببعض الكتاب إلى أن يسلك الجاحظ فى زمرة البخلاء ، ويلزمه من هذه الناحية حيث لم يدفع حجج البخلاء ، ويذم صنيعهم ، ويستنكر مسلكهم .

رابعاً : تصوير حالات الشره والنهم فى الأكل ، وتبيان حال المكدين فى كيفيه الحصول على المال ، كقصص الحارنى وهو رجل شره ، يحسن البحث عن بيوتات الناس ، ثم يتطفل عليهم ليغير على مماسنها ، ويستلب أطايبها ، وكقصص خالد بن يزيد الذى استطاع أن يجمع ثروة طائلة من وراء تسّله ، واتخاذ الكُدية مهنة له ، والكتاب من هذه الوجهة صورة للمطبخ وأدبه ، كما ذهب إلى ذلك شفيق جبرى[1] ، وصورة لأدب الكدية .

خامساً : أنه يكشف بهذا التصوير – عن سوءات البخلاء الذين يطوون هذه السوءات المؤلمة فى قرارة نفوسهم ، ولكن لا يلبث اللاشعور أن يلفظها دون وعى منهم ، ويجعلها تطفو على السطح ، وقد هتكت سترهم ، ودلت على حقائق المتمرهين – وطبائع النفس البشرية – وهنكت عزّ أستار الأدعياء ، وفرقت بين الحقيقة والرياء ، وفصلت بين المقهور المترجر – فى طوايا النفوس – والمطبوع المبتهل " [2] والكتاب من هذه الزواية يُعدّ كتاباً فى تحليل نفسيه البخلاء .

السبق الفنى للجاحظ :

فيما يمكن أن نعدّه إضاءة حقيقية حول القيمة الفنية لكتاب البخلاء ، وأصالة الجاحظ فى هذا المضمار ، نؤكد على السبق (الفنى)لا(الزمنى)، فالجاحظ ليس أول من تناول موضوع النجل وليس أخرهم ، فقد أشار هو نفسه

---

[1] انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب – شفيق جبرى – مطبعة دار المعارف سنه ١٩٤٨ ، ص ٣٥.

[2] البخلاء للجاحظ تج : الحاجرى ، ص ٣.

فى (البخلاء) إلى بعـــض الأسماء التى تناولت حكايات البخلاء وإجبارهم، مثل أبى عبد الرحمن الثورى ، وسهل بن هارون ، والصمعى ، وأبى عبيده ، وأبى الحسن المدائنى ([1]) كما ذكرها ابن النديم فى الفهرست أيضاً ، غير أنها كـــانت كتابات إخبارين لافنية فيها ، كما أنها تعرض صوراً من الحياة الماضيـــة دون الحياة الحاضرة ، وبالإضافة إلى ما ماحققه بعض النقاد وذهب إلى أن ثمّـــة ن الأسباب التى روّجب لهذه الكتابات القديمة وأتاح لها أن تنتشر منها :

١- الشعوبيون الذين كانوا يحقرون شأن العرب ، ويرون أن فخرهـــم بصفـــة الكرم ليس إلا وهماً لاحقيقه له .

٢- الخصومة السياسية بين الأمويين والعباسين ، فقد كان كل فريق منهم يعمل على إشاعة النقائض والمثالب للفريق الآخر ، ولو عن طريق الاختـــلاف والادعاء ، وكان البخل من هذه النقائص التى يذم كل فريق بـــها الفريـــق الآخر .

عبر هذا السياق نشأ الحديث عن البخل والكتابة فيه ، ولـــم تكـــن هـــذه الأحاديث فى حقيقتها إلا نوعاً من الدعاية الجنسية أو السياسية التى لـــم يكـــن الغرض منها إلا تحقيق هذا الغرض وحده .. أما أن يكون البخـــل فـــى ذاتـــه موضوعاً لدراسة علمية فنية دقيقة ، بعيدة عن التـــأثير الجنـــس والسياســـى ، تعرض لطبيعة البخل وحقيقته ، والدافع إليه وتصوير حياة البخلاء ، والتغلغـــل فى أعمال نفوسهم، وتتبّع حركاتها وخلجاتها ،والكشف عن أغوارها وسرائرها، ثم حكاية نوادرهم والسخرية بهم ، أو الاتياج لهم ، وما إلى ذلك مما تســـتلزمه طبيعة هذه الدراسة ، فذلك هو ما قام به الجاحظ ، وعالجـــه بأســـلوبه الفنـــى الساخر و، وروحه المرح الخفيف ، فكان له ذلك الكتاب الذى يُعدّ مـــن أجـــلّ كتبه وأخلدها ، بل من أجلّ وأخلد ما حفظت المكتبة العربية من تراث عربى .

([1]) نفسه : ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٤٨.

وثمّة من الآراء التى ترجّح – وأتفق معها – أثر هذه الأحاديث التى سبقت الجاحظ فى موضوع البخل – على الرغم من ضآلتها وقصورها ، واختلاف الغاية التى تتجه إليها – فى توجيهه وعنايته بهذه الموضوع ([1]) ، ولكن أثر الجاحظ يظهر فى عمق الدراسة وشمولها واتساعها ونزوعها إلى التحقيق العلمى الذى لا يشوبه غرض سياسى أو جنسى ، تم فى هذا الطابع الفنى الخالص الذى طبعت به هذه الدراسة ، ولو لم يكن للجاحظ من فضل إلا أنه قد صبغ الدراسات العلمية الدقيقة بالصبغة الفنية الخالصة ، لكفاه ذلك .

ولعل من أهم الظواهر الفكرية التى تميز بها ، وهى ظاهرة تلفت الأنظار ن التهكم الممزوج بروح العطف والشفقة ، البعيد كل البعد عن معانى الحقد والتشفى والانتقام ، فالجاحظ لم يكن يفارقه الابتسام حينما يسخر من بخلائه ، ويتهكم من أشراره وحمقاه ، ولم يكن يفقد حبّه للناس حينما يسخر من عيوبهم ، ويكشف أمامهم سلبياتهم حتى يتجنبوها ويجتهدوا فى الخلاص منها ، ولكنه كان فى كل ذلك إنساناً عطوفاً يمتلئ قلبه بالحب والشفقة على هؤلاء الضعفاء .

– التأثير الفنى للجاحظ :

على أن الأدب العربى القديم لم يخل من موضوع البخل والبخلاء ، فالشعر العربى حافل بما يشير إلى نبذ هذه الظاهرة ، لانتقائها مع ما عرف عن العرب من جود وسخاء ، ووجدت أيضاً فى بعض الكتب النثرية مثل المقامات ، وبعض النوادر والأخبار الواردة فى (ألف ليلة وليلة) والمؤلفات الجامعة مثل (العقد الفريد) لابن عبد ربه ، و (الإمتاع والمؤانسة) لأبى حيان الوحيدى ، و (عيون الأخبار) لابن قتيبة ، و (محاضرات الأدباء) للراغب الأصفهانى ، و (المستطرف فى كل فن مستظرف) للأبشيهى .

([1]) أنظر : النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه – د٠عبد الحكيم بلبع – مكتبة وهبة ط٣ سنه ١٩٧٥ ، ص ٢٣٤.

بيد أن معظم الذين تناولوا موضوع البخل بعد الجاحظ تـــأثروا بكتابــه البخلاء ، وساروا على منواله ، سواء فى موضوعـــه أو أســلوبه أو طريقــة معالجته أو لغته أو حواره أو سخريته ومن هذه الآثار – على سبيل المثـــال لا الحصر – رسالة لأبى حيان التوحيدى ، وهو من أشد تلاميذ الجـــاحظ تـأثراً وإعجاباً به ، ساقها مساق السخرية والتندر بأبى العباس أحمد بن ثوابة الكاتب ، والتى تعد صورة من أروع صور الفن التصويرى الساخر ، وتبيـن بوضــوح تلمذة أبى حيان للجاحظ ، وتأثره به فى ذلك الاتجاه (1) وهناك أيضاً الحكايـــة التى وضعها أبو على الحاتمى – من رجال القرن الرابع – على أستاذه على ابن هارون ، وصفها الحصرى بأنها طويلة فى نحو أربع مجلــدات ، الـتزم فــى كتابتها وصناعتها نفس المنهج الفنى الذى استطاع الجاحظ أن يجعلـــه منــهجاً مقرراً ، وفناً من الفنون الأدبية المعتبرة .

وأخيراً فإن الهمذانى فى مقاماته قد عرف طريق الجاحظ واســتفاد مــن بخلائه ، بل إن فى شخصية بطل المقامات ملامح كثيرة من خالد بن يزيــد أو (خالويه المكدى) إحدى شخصيات بخلاء الجاحظ ، وفى هذا الصدد شارل بللا : أن " المستشرق آدم متز قد لاحظ ذلك عندما قال : " إن طريق الجاحظ يقـــود إلى الهمذانى ماراً بالأحنف الكعبرى شاعر المكدين الكبير ، فـــهو بذلــك قــد تناول الموضوع الذى أوجده الجاحظ فى فصله الذى عقده عن خالويه ، فخلــق بذلك نموذج شخصية أضفى عليها الهمذانى شكلاً جديداً " . (2)

على أن تأثير الجاحظ وكتابه البخلاء ظل قوياً ممتداً على الأدباء العــرب حتى العصر الحديث ، فطه حسين على سبيل المثال من أكثر الأدباء المحدثيــن

---

(1) انظر : البخلاء – مقدمة الحاجرى ص ٣٢ .

(2) شارل بللا : الجاحظ – ترجمة د. إبراهيم الكيلانى – دار الفكر للطباعــة والتوزيــع ط١ سنة ١٩٨٥ ص ٧٧ .

تأثراً بالجاحظ وأسلوبه ، وهو شديد الإشادة بفكر الجاحظ وعقله وأسلوبه وسخريته ، وطريقته فى الحوار والجدل . " وليس ثمّة من ينكر إعجاب طه حسين الكبير بالجاحظ وتقليده إياه فى تناوله للموضوعات الاجتماعية والأدبية ، بل إن السخرية المرة الكامنة وراء الكلمات والألفاظ التى يكشف عنها التأمل الدقيق فى كتابات طه حسين موردها كتاب البخلاء للجاحظ " . (1)

وتوفيق الحكيم نموذج آخر - لا يخفى إعجابه بكتابات الجاحظ ، وبكتابه البخلاء بشكل خاص فهو يرى أن الجاحظ قد أنشأ فناً جديداً بالنثر أقرب على فن الكاريكاتير بالرسم قبل وجوده فى القرن السادس عشر عند رابيه فى كتاب (الأحلام المضحكة) فهو من أسبق الكتّاب إلى التصوير الكاريكاتيرى . (2)

وكتاب البخلاء هو أحد الكتب التى جعلت الحكيم يفكر فى كتابه (أشعب أمير الطفيليين) الذى حرص أن يرسم فيه صوراً من الحياة العربية ، كما أراد الجاحظ ذلك فى كتابه البخلاء .

- دافعية الكاتب :

إن كتاب البخلاء اعتباره ظاهرة من ظواهر الفكر العربى ، ينطوى على إيجابية مهمة ، تتعلق بدافعية الكاتب حيال كشفه عن أحد جوانب المجتمع العباسى ، والعناية بتصوير العصر ونقده ، وإبراز محاسنه وعيوبه ، حيث نقف فى تضاعيف محتواه على أنماط الحياة التى أخذت تتحول من البساطة إلى التعقيد ، وقد زايلتها تلك السهولة التى كانت تتسم بها كما يجسّد لنا كثيراً من العوامل الفعّالة فيه ، كالعامل الاقتصادى والاجتماعى والخلقى والفنى .

فعلى الصعيد الاقتصادى نرى العراق وقد تحولت إليها مقاليد الأمور ، وغدَتْ مركزًا للحياة الاقتصادية ، وقد جذبت أضواؤها كثيراً من طلاب المال ،

---

(1) سيد حامد النساج : رحلة التراث العربى- دار المعارف - ط1 سنة 1984ص 132.

(2) توفيق الحكيم : فن الأدب - مكتبة الآداب - بدون تاريخ .

وحولت أذهانهم فى جميع القيم ، وتركتهم فى ريب منها ، عدا القيمة المادية (١) وأحدثت انحرافاً فى تفكيرهم ، فتسابقوا إلى ميادين المال ، وغالوا فى انصرافهم إليه .

وقد كان لنشأة الدجاحظ فى مدينة البصرة ، حيث تكثر هذه الطبقة ، وتحتل مكاناً ظاهراً ، واتصاله على نحوٍ ما ببيئاتها – كان له أثره فى اتجاهه إلى تصويرها ، حتى انتقى أكثر نماذجه من بين هذه الطبقة ، حتى ليمكن القول – على حد تعبير الحاجرى : " بأن كتاب البخلاء ، يُعدّ من أحد جوانبه تصويراً لها " .

وعلى صعيد العامل الاجتماعى ، فإن هذا الانشطار فى المجتمع العباسى أدى إلى خلق فئة كادحة ، وإلى نوع من البلبلة والتشكك ، أما عن الفئةَ الكادحة ، فهى تعمل ولا تكاد تصيب ما يسدّ الرمق ، ويكفى حاجتها ، حتى رأينا صدى ذلك فى المقامات ، بل لعلها كانت السبب فى ابتداعها ، وإذا كانت نماذج البخلاء من بعض جوانبها ردّ فعل لتلك الفئة ، فإن نماذج المقامات أوضح منها فى تلك السبيل ، فهى صورة صحيحة لفئة البائسين وطرداء المجتمع الذين اندفعوا تحت وطأة الحاجة إلى تسخير مواهبهم وجعلها أحابيل للرزق ، وفى المقامة التاسعة والأربعين ، وصيّة ، هى أوضح ما تكون فى هذا المجال ، وفيها يبنى أبو زيد بطل مقاماته – مبدأه فى الحياة على الاعتداد بسلطان المال ، كما يعكسه المجتمع ، فيقول : " .. يا بنىّ إنى جرّبت حقائق الأمور ، وبلوت تصاريف الدهور ، فرأيت المرء بنشبه لا بنسبه ، والفحص عن مكسبه لا عن حسبه .. (٢)

---

(١) انظر : القيم الروحية – د. أحمد الأهوانى – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – سنة ١٩٦٠ ص ١٣ .

(٢) مقامات الحريرى – الطبعة التجارية – ص ٥٦٩ .

وعلى الصعيد العامل الخلقى ، فقد سرى تيار الاستهتار بالقيم ، مما أدى إلى نوع من البلبلة وإحداث ضرب من الشك فى القيم والأخلاق ، من تلك التى كانت شائعة بين العرب ، فبعد أن كانت الشجاعة فى ميادين القتال والكرم فى مشارف الجزيرة ، وحفظ الجوار بين القبائل ، هى المثل العليا فى الحياة ، وجدوا أن هذه القيم لم تعد تسمن أو تغنى من جوع ، ولابد من حلول قيم جديدة ، تتواءم مع المجتمع فى تطوره ، وفى ناصيته العملية ، هذا فضلاً عن انتشار تيارات اللهو والمجون التى أدت إلى زعزعة القيم الروحية ، مما أدى إلى ردّة فعل من اتجاهات معاكسة ، ممثّلة فى اتجاه الزهد ، وقد صوّر الطبرى هذا الاضطراب الذى غزا الطباع ، وزعزع القيم ، وبخاصة بعد فتنة الأمين والمأمون ، فقال : " ولقد نقّب أهل السجونِ السجونَ ، وخرجوا منها ، وفتن الناس ، وتبلبلت خواطرهم ، ووثب على الصلاح الرعاع والشطار ، فعزّ الفاجر ، وذلّ المؤمن ، واحتل الصالح ، وساءت حال الناس " . (1)

وعلى صعيد العامل الفنى ، تطالعنا فى كتاب البخلاء – فى القسم الأكبر منه – مجموعة من القصص الواقعية الساخرة ، تتضح فيها مواصفات كثيرة من فن القصة ، من خلال التصوير الدقيق للمشاهد والشخصيات ، والتحليل الفنى لها ، والحوار المتنوع المحكم ، والسخرية المنتقاة بعناية ، واللغة البسيطة المفعمة بالحياة المتأثرة بالمجتمع ، والمستمدة من الحياة ، وتمثّل الجاحظ الدقيق للتجارب المختلفة للآخرين ، إضافة إلى عنصر التشويق والمفاجأة ، وغيرها من العناصر الفنية فى قصص البخلاء والتى سنوردها مفصلة بعد أن نحلل بعضاً من قصصه .

والمعروف عن الجاحظ الذى مثّل فى كتاباته تشعّب الحركة الفكرية ، وانطلاق العلوم ، واتساع الآفاق ، والبحث العلمى المؤسسى على التجربة

---

(1) تاريخ الطبرى – طبعة دار القاموس – بيروت – جـ ١٠ ص ١٧٣ .

والعقل – أنه خاص فى كل تلك الموضوعات بشخصيته الموسوعية الفذة ، وبعقليته العلمية ، وبفزعته النقدية المستندة إلى التجربة والعقل ، وهو الذى طبع مؤلفاته بطابع الفن والأدب ، واستطاع أن يزاوج بين نزعته الأدبية وصفته العلمية ، مما خلّف شكلاً من أشكال التعبير الأدبى الذى يمتاز برهافة الحسّ ، وخصوبة الخيال ، وقوة الملاحظة ، وقدرة على التغلغل فى دقائق الموجودات ، واستشفاف الحركات النفسية المختلفة ، إضافة إلى عبارات طيعة ، وصور حيّة نابضة ، وأسلوب لفظى يتسم بالبساطة والدقة والجمال ، حتى أصبح أستاذ العصر الذى يروق الكبير والصغير ، إذ كان كل إنسان يجد فيه ما يطلبه من تنوّع يبعد عن السأم ، وتصوير أخلاق العصر وفئات الناس ، وتبسيط المسائل العلمية والفلسفية فى أسلوب واضح ، مما أوجد صلة بين الناس وبين ما مثّله لهم .

المبحث الثالث

العرض القصصي للبخلاء

في مؤلف يتكون من جزئين كبيرين ، يعالج الجاحظ فيه بأسلوبه الرائع الفريد الذي يجمع بين البناء القصصي والتحليل النفسي عيباً من أخطر العيوب الاجتماعية وهو البخل ، وفي هذا الإطار يتتبع الجاحظ بخلاءه ، ويتعمق حياتهم ، ويستشف أغوار نفوسهم ، ويكشف كل ما فيها من طبائع مستورة ، مستخدماً منهجه التهكمي الساخر الذي يقوم على المراوغة والمخاتلة ، واصطناع أساليب الجدل التي افتن الجاحظ فيها كل ألوان الافتتان ، والتي يعرض من خلالها صوراً مختلفة من ثقافته وفكره ، وذلك على النحو الذي سنعرض فيه لهذه القصص مع التعليق عليها .

*** قصة زبيدة بن حميد :**

في قصة (زبيدة بن حميد) – وهو صيرفي كبير من أثرياء البصرة أشهر البخلاء ([1]) يمهد الجاحظ للتعريف بهذا البخيل قبل أن يزجّه في الموقف الرئيسي في القصة ، فيروي لنا بعضاً من سلوكه وتصرفاته إزاء الآخرين ، راسماً بذلك أبعاد هذه الشخصية ، كي لا يفاجأ القارئ بطريقة تصرفها في الموقف الذي تواجهه .

يحدثنا الجاحظ عن (زبيدة) أنه استلف من بقال كان على باب داره درهمين وقيراطاً ، وبعد ستة أشهر من المماطلة في ردّ الدين ، دفع للبقال ناقصاً (قيراطاً وثلاث حبات شعير) فاغتاظ البقال وذكّره بأنه غني يملك آلافاً من الدنانير ، ويرد الدين ناقصاً ، في حين أن البقال الذي يعيش بكدّه وتعبه قد صنع به معروفاً ، حين سدّد عنه في غيبته مبلغاً كان مطلوباً ، فقال زبيدة : " يا مجنون أسلفتني في الصيف فقضيتك في الشتاء ، وثلاث شعيرات شتوية ندية ،

([1]) انظر ترجمة (زبيدة بن حميد) في كتاب البخلاء ، بتحقيق طه الحاجرة ص ٢٩٨.

أرزن من أربع شعيرات صيفية ، وما أشك فى أن معم فضلاً " . (1)

هذا جانب من جوانب الشخصية ، وهو بعد تنطلق منه الشخصية فى تعاملها مع الآخرين . ثم يكشف لنا الجاحظ بعداً آخر فى تعامله مع غلمانه ، فهو يضربهم بحجة أنهم يأكلون (الجوارش) وهو دواء مخصص للهضم ، وحين يستنكر صديق له هذا الضرب المبرح ، ويسأل رئيس الغلمان عن حقيقة الضرب ، فيفاجأ به يتلوى من الجوع ، وأنه لا حاجة به إلى ما يهضم ... (ولا يحتاج إلى الجوارش ، ونحن الذين إنما نسمع بالشبع سماعاً من أفواه الناس ، ما نصنع بالجوارش) . (2)

وجانب ثالث يكشفه الجاحظ أيضاً فى تعامل (زبيدة) مع زواره حين يشتدّ على غلمانه أمامهم ، بتصفية الماء وتبريده وتزميله ، فقال له أحد الزوار : " مر بتزميل الخبز وتكبيره ، فإن الطعام قبل الشراب " . (3)

وبهذا الشكل استكمل الجاحظ تقديم شخصيته المحورية (زبيدة بن حميد) كيف أنه يبخل فى الطعام ، ولا يرد الدين إلا ناقصاً ومتأخراً ، وكيف يضرب غلمانه بخلاً وظلماً ، حتى يصل الجاحظ إلى الحدث الرئيسى الذى يواجهه (زبيدة) وراح يلاحظه من بعيد : " وسكر زبيدة ليلة ، فكسا صديقاً له قميصاً ، فلما صار القميص على النديم خاف البدوات (4) ، وعلم أن ذلك من هفوات السكر – فمضى من ساعته إلى منزله ، فجعله برنكاناً لامرأته ، فلما أصبح سأل عن القميص وتفقده ، فقيل له إنك قد كسوته فلانا ، فبعث إليه ، ثم أقبل عليه فقال : ما علمت أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا

---

(1) البخلاء ص ٣٥ .

(2) نفسه ص ٣٦ .

(3) نفسه ص ٤٠ .

(4) البدوات : ما يبدو له من الرجوع بعد أن يصحو من السكر .

يجوز .. ؟ وبعد فإنى أكره ألا يكون لى حمد ، وأن يوجه الناس هذا منى على السكر ، فردّه علىّ حتى أهبه لك صاحياً عن طيب نفس ، فإنى أكره أن يذهب شئ من مالى ، فلما رآه صمم ، أقبل عليه فقال : يا هناه ، إن الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤاخذون بشىء من ذلك ، فردّ القميص عافاك الله .

قال الرجل : إنى والله قد خفت هذا بعينه ، فلم أضع جنبى إلى الأرض حتى جيّبته لامرأتى ، وقد زدت فى الكمين ، وحذفت المقاديم ، فإن أردت بعد هذا كله أن تأخذه فخذه .

قال : نعم آخذه لأنه يصلح لامرأتى كما يصلح لامرأتك .

قال : فإنه عند الصباغ .

قال : فهاته .

قال : ليس أنا أسلمته إليه .

فلما علم أنه وقع قال : بأبى وأمى رسول الله - ﷺ - حيث يقول : جمع الشرك كله فى بيت ، وأغلق عليه ، فكان مفتاحه السكر .

- **التعليق :**

هذه الحكاية تقترب إلى حد بعيد من القصة ، وتحمل عناصرها الفنية ، فنحن هنا إزاء حادثة وموقف وحوار ، بل بداية ووسط ونهاية ، أو ما يسمى فى فن القصة بلحظة التنوير ، وأمامنا شخصيتان رئيسيتان تتصارعان ، أما الشخصيات الأخرى كالبقال والصديق ورئيس الغلمان ، فهى شخصيات ثانوية ، أضفت على الشخصية الرئيسية أبعاداً تخدم الموضوع الرئيسى ، والكاتب لا يزجّ بنفسه فى هذا الصراع ، بل يرقبه ويصوره من بعيد ، ويعكس الحوار الدائر بين الشخصيتين أفكار كل شخصية ونوازعها وطموحها ومشاعرها ، ولكل شخصية قدرة على التصرف والتحايل .

والجاحظ يبتعد هنا عن كل استطراد أو شرح ، أو تفصيل ، أو تعقيب كما أنه استغنى عن كثير من الجزئيات والتفصيلات إلا ما يخدم الموقف الرئيسى ، ويكشف الشخصية من الداخل ، دون تدخّل من الكاتب ، لأنه وعد بعدم التدخل سواء بالتعليق أو بالرفض أو بالانحياز ، وكان دوره فى أن يجسّد الموقف الأساسى من خلال ما مهّد له بتلك اللوحات التى سبقت الإشارة إليها .

*** قصة (أبو مازن وجبل الغمر) :**

فى هذه القصة التى يتقاسم بطولتها (أبو مازن وجبل الغمر) يرسم الجاحظ صورة لتصرف البخيل المواقف المفاجئة ، لذا ينقلنا – دون تمهيد – إلى الموقف مباشرة .

تقول القصة :

(وكان جبل خرج ليلاً من موضع كان فيه ، فخاف الطائف (١) ولم يأمن المستقضى (٢) فقال : لو دققت الباب على أبى مازن ، فبت عنده فى أدنى بيت أو فى دهليزه ، ولم ألزمه من مؤنتى شيئاً ، حتى إذا انصدع عمود الصبح ، خرجت فى أوائل المدلجين ، فدق عليه الباب دق مدلّ ، ودقّ من يخاف أن يدركه الطائف ، أو يقفوه المستقفى ، وفى قلبه عز الكفاية والثقة بإسقاط المؤنة ، فلم يشك أبو مازن أنه دق صاحب هدية ، فنزل مسرعاً ، فلما فتح الباب وبصر بجبل ، بصر بملك الموت ، فلما رآه جبل واجماً لا يحير كلمة ، قال له : إنى خفت معرة الطائف ، وعجلة المستقصى فملت إليك لأبيت عندك ، فتساكر أبو مازن ، وأراه أن وجومه إنما كان بسبب السكر ، فخلع جوارحه وخبل لسانه ، وقال : سكران والله ، أنا والله سكران .

قال له جبل : كن كيف شئت ، ونحن فى أيام الفصل ، لا شتاء ولا

---

(١) الطائف : الذى يطوف بالمدينة ليلاً بأمر الحاكم ليتفقد أهلها .

(٢) المستقضى : الذى يقفو الأثر للسلب .

صيف ، ولست أحتاج إلى سطح فأغم عيالك بالحر ، ولست أحتاج إلى لحـــاف فأكلفك أن تؤثرنى بالدثار ، وأنا كما ترى ثمل مـــن الشــراب ، شــبعان مــن الطعام ، ومن منزل فلان خرجت ، وهو من أخصب الناس رحلاً ، وإنما أريـد أن تدعنى أغفى فى دهليزك إغفاءة واحدة ، ثم أقوم فى أوائل المبكرين

قال أبو مازن : وأرضى عينيه وفكيه ولسانه ، ثم قال : ســكران ، والله أنا سكران ، لا والله ما أعقل أين أنا ، والله إنْ أفهم ما تقول .

ثم أغلق الباب فى وجهه ، ودخل لا يشك أن غدره قد وضح ، وأنه قــد ألف النظر ([1]) حتى على هذه الحيلة) . ([2])

- **التعليــق :**

فى هذه القصة شخصيتان وجوار ، ووجهتا نظر ، وبداية ونهاية ، وفيها تصوير نفسى لدواخل شخصية (جبل الغمر) الذى يخاف العسس واللصوص ، ويبحث عن مأوى يبيت فيه ، ثم ردّ الفعل على الشخصية الثانية (أبو مــازن) الذى تجسّد فى اصطناع البلاهة والسذاجة والمبالغة فى السكر ، كحيلة من حيل البخلاء ، للتهرب من المواقف الحرجة التى يقع فيها ، وقد اعتمد الجاحظ فــى تصوير ردّ الفعل وانعكاساته على (أبى مــازن) علــى الرســم الكاريكــاتيرى للشخصية : (أرخى عينيه ، وفكيه ، ولسانه) الشكل الخــارجى المضحــك ، وهو لون من ألوان الضحك الذى يزخر به كتاب البخلاء .

هذا بالإضافة إلى وحدة الشخصية ووحدة الحدث ، ووحدة الأثــر مــن عناصر القصة الفنية ، والتى تحققت فى هذه القصة ، فإن للموقف إطاراً زمنيـاً حددهما الجاحظ فى البداية : (خرج ليلاً من موضع كان فيه) بمعنى وحـــدة الزمان والمكان التى لها أثر بلاشك فى تحديد الموقف ، وربط القصة بالواقع .

([1]) ألطف النظر : أمعن النظر .

([2]) البخلاء ص ٣٩ .

* قصة (المروزى والعراقى) :

قدم الجاحظ أجناساً متنوعة من البخلاء ، وخص بخلاء مرو بعدد من الحكايات والقصص عن أهلها ، وبخلهم الشديد الذى يراه الجاحظ طبيعة جبلوا عليها ، يقول : " إن البخل طبع منهم ، وفى أعراقهم وطينهم " ([1]) ، ومن هذه القصص قصة (المروزى والعراقى) التى جاءت بعد مجموعة من الحكايات عن بخل أهل هذه المدينة ، مما أعطى القارئ صورة واضحة جلية عن بخلاء مرو .

يقول الجاحظ فى هذه القصة : (ومن أعاجيب أهل مرو ما سمعناه من مشيختنا على وجه الدهر ، وذلك : أن رجلاً من أهل مرو كان لا يزال يحج ويتجر ، وينزل على رجل من أهل العراق ، فيكرمه ويكنيه مؤنته ، ثم كان كثيراً ما يقول لذلك العراقى ، ليت أنى قد رأيتك بمرو ، حتى أكافئك ، لقديم إحسانك ، وما تجدّد لى من البر فى كل قدمة ، فأما ههنا فقد أغناك الله عنى ، قال فعرضت لذلك العراقى بعد دهر طويل حاجة فى تلك الناحية ، فكان مما هوّن عليه مكابدة السفر ، ووحشة الاغتراب ، مكان المروزى هناك ، فلما قدم ، مضى نحوه فى ثياب سفره وفى عمامته وقلنسوته وكسائه ، ليحط رحله عنده ، كما يصنع الرجل بثقته وموضع أنسه ، فلما وجده قاعداً فى أصحابه ، أكب عليه وعانقه ، فلم يره أثبته ، ولا سأل به سؤال من رآه قط ، قال العراقى فى نفسه : لعل إنكاره إياى لمكان القناع فرمى بقناعه ، وابتدأ مساءلته ، فكان له أنكر ، فقال : لعله أن يكون إنما أتى من قبل العمامة ، فنزعها ثم انتسب ، وجدد مساءلته ، فوجده أشدّ ما كان إنكاراً ، قال : فلعله إنما أتى من قبل القلنسوة ، وعلم المروزى أنه لم يبق شئ يتعلق به المتغافل والمتجاهل ، فقال : لو خرجت من جلدك لم أعرفك) . ([2])

([1]) البخلاء ص ١٨ .
([2]) البخلاء ص ٢٢ .

- التعليــق :

في هذه القصـة مقدمة سردية ، توضح علاقة الرجلين ، وإكرام العراقـي لزميله المروزى ، ودعاء الثانى برد جميل الأول لو رآه بمرو ، ويقع الحدث ، ويتقابل الرجلان فى مرو ، ويسقط فى يد المروزى ، فيدّعى الإنكار ، وهـي حيلة من حيل البخلاء الكثيرة التى أوردها الجاحظ فى الكتاب .

ويستغنى الكاتب عن الحوار مستخدماً أداة أخرى للكشف عن الشخصيتين المتناقضتين : الكريم والبخيل من خلال الدخول إلى مخيلة العراقى ، وإصراره على تعريف نفسه ، ويستخدم الجاحظ هنا عنصـر التشـويق ، إذ أن القـارئ يريد أن يعرف بعد كل حركة يقوم بها العراقى ، من خلع قناعة ، ثم عمادتـه ، ثم قلنسوته ، وانعكاس ذلك على المروزى .

وعنصر التشويق وإن كان ضئيلاً فى قصص البخلاء ، إلا أن الجـاحظ يجيد توظيفه حين يستخدمه ، فهو يرسم المواقف . ويؤخر الحلول ، حتى يعلق القارئ به ، وتقع المفاجأة فى النهاية بعدما أدرك المـروزى إصـرار زميلـه العراقى فى عبارة واحدة ، تفصح عن كذب ادعائه فيما كان يعد بـه مـن ردِّ الجميل : " لو خرجت من جلدك لم أعرفك " .

* **قصة (الداردارِيشى) :**

وفى قصة (الداردريشى) يقدم الجاحظ – قبل أن يحكى لنا قصته مـع أخيه – لوحة صغيرة تدل على حرص هذا البخيل وخوفـه علـى مالـه مـن الضياع ، وذلك حينما سأله سائل انتهره ، فلما أنكر جاره عليه انتهاره للسائل ، قال له : " كل هؤلاء لو قدروا على دارى هدموها ، وعلى حياتى لنزعوهـا ، أنا لو طاوعتهم فأعطيتهم كلما سألونى ، كنت قد صرت مثلهم منـذ زمـان ، فكيف تظن بغض يكون لمن أرادانى على هذا " . (1)

---

(1) البخلاء ص ١٣٣ .

هذه إذن هى الشخصية التى سيعرض لنا الجاحظ قصته مع أخيه : شخصية البخيل الخائف من الفقر ، وبعدها تبدأ القصة بمقدمة وصفية موجزة ، نتعرف بها على أخ للداردريش الذى لا يختلف عن أخيه فى البخل ، وهو شريكه فى تجارته ، ثم يأتى الحدث الرئيسى الذى أثار حفيظة الداردريش على أخيه ، وهو الحادث الذى بنيت القصة عليه ، فقد وضع هذا الأخ فى يوم جمعة طبقاً من الرطب ، يقدر بدانقين أمام أصدقائه وهم على بابه ، فدعاهم إلى الأكل ، فلما حضر الداردريش لم يسلّم ولم يتكلم حتى دخل الدار ، مما أثار تعجب أخيه واستنكار أصحابه ، وزاد تعجب الأخ وحيرته واستنكار أصحابه ، أن تكرر التصرف من أخيه لجمعتين متتاليتين حين تكرر وضع طبق الرطب أمام الأصدقاء ، فكتب الداردريش إلى أخيه يقول : " يا أخى كانت الشركة بينى وبينك حين لم يكثر الولد ، ومع الكثرة يقع الاختلاف ، ولست آمن أن يخرج ولدى وولدك إلى مكروه ، وهاهنا أموال باسمى ولك شطرها ، وأموال باسمك ولى شطرها ، وصامت فى منزلى وصامت فى منزلك ، لا نعرف فضل بعض ذلك على بعض ، وإن طرقنا أمر الله ، ركدت الحرب بين هؤلاء الفتية ، وطال الصخب بين هؤلاء النسوة ، فالرأى أن نتقدم اليوم فيما يحسم عنهم هذا السبب " (1) فاستغرب الأخ لهجة أخيه وهاله الأمر ، وجمع ولده وأهله واستجوبهم ، إن كانوا قد أساءوا لأخيه ، فوجدهم براء مما يدعيه أخوه ، وظل يناشد أخاه أن يخبره بذنبه ، وأنه على استعداد أن يجعله وكيلاً لكل هذه الضياع ، فلما طال عليه الأمر ، وبلغ منه الجهد كشف الداردريش عن السبب الحقيقى وهو حادثة أطباق الرطب .

ويكشف الجاحظ من خلال حوار الأخوين – بخل الداردريش ، وحرصه وقلقة من الفقر وضياع الأموال بالتبذير ، ذلك القلق النفسى الذى يسيطر عليه ،

---

(1) البخلاء ص ١٣٤ .

ويملى عليه كل تصرفاته وسلوكه ، فطبق الرطب يحتاج إلى فرش البسط أمام الدار ، ويتبعه لماء البارد ، وتجمع الناس حوله مما يزيد فى طمعهم فيه ، فيتحول الطبق إلى أطباق ن ثم يصير ذلك فى سائر أيام الأسبوع ، وينتقل الرطب إلى غداء ، والغداء إلى عشاء ، ثم إلى كساء ، وهكذا تتطور وجوه الصرف حتى يعود البخيل الثرى فقيراً ، فقال أخوه : جعلت فداك تريد أن لا آكل فضلاً على غير ذلك ؟ وأخرى فلا والله لا كلمتهم أبداً) .

قال : " إياك أن تخطئ مرتين : مرة فى إطعامهم فيك ، ومرة فى اكتساب عدواتهم ، اخرج من هذا الأمر على حساب ما دخلت فيه ، وتسلم تسلم " . (1)

- **التعليق :**

هذه قصة يتجلى فيها بوضوح الكثير من عناصر القصة القصيرة ، ففيها حدث ، وشخصيات تتصارع ، وفيها تجديد للزمان والمكان ، وفيها عنصر التشويق الذى يشد القارئ من بداية القصة ، حتى تنكشف الأمور ، وفيها يسلط الجاحظ الضوء على الحدث الذى ينمو حتى يصل الذروة حين يطلب الأخ فسخ شراكته مع أخيه ، ودعياً أسباب ليست هى السبب الرئيسى ، ثم تتعقد الأمور فى حيرة الأخ الذى راح يتأكد من دعاوى أخيه .

وأخيراً نصل إلى نهاية القصة ، أو لحظة التنوير ، فيكشف الأخ عن السبب الحقيقى ، مصرّاً على فسخ الشركة ، بمعنى آخر كان فى القصة بداية ووسط ونهاية ، والحدث فيها مرتبط بحبكة فنية متقنة .

إن قصة الداردريشى تغدو – مع شئ بسيط من التعديل – قصة قصيرة من وحدة الهدف ، ووحدة الانطباع أو الأثر ، والتركيز والتكثيف فى السرد

---

(1) نفسه ص ١٣٥ .

والحوار ، دون حشو أو إطالة ، حتى أننا لا نجد فيها جملة واحـــدة لا تخـدم الموضوع الأساسى .

وبعد . فهذه نماذج متفرقة منتقاة من قصص البخلاء التى تحقـــق فيــها الكثير من عناصر فن القصة ، عرضتها على سبيل المثال لا الحصر ، وثمّـــة قصص أخرى ، تتشابه فى فنيتها مع هذا الذى عرضته ، ولكنـــى آثــرت أن أورده ضمن الحديث عن الخصائص الفنية لهذه القصص ، وذلك فى المبحـــث الأخير .

المبحث الرابع

التشكيل الفنى فى قصص الجاحظ

- **التشكيل بالصورة :**

يُعد التشكيل بالصورة ، وطريقة بنائها ، من أبرز الجوانب التى تتركز فى إبداع الجاحظ وتشهد بتفوقه فى عالم الكتابة والنثر الفنى ، وبخاصة حذقه تلك الأبعاد التصويرية لتى تجسّد فيما بينها مواقف وأشخاصاً تغدو نماذج أدبية عامة للبخل والبخلاء ، " حتى إنك لتقرأ فترى هؤلاء الذين درجوا ، وطوتهم الأيام أحياءً متكلمين ، مجادلين مناضلين ، جادين أو عابثين هازلين ، يفهمون الحياة على نحوٍ من الفهم قد يكون غريباً ، وقد يبدو لك وأنت تقرأ عجيباً " . (1)

وترد طريقة التصوير عند الجاحظ عبر نمطين مهمين ، أولهما : نمط التصوير الخارجى ، وثانيهما : نمط التصور النفسى ، وكلاهما يصاغان عبر طريقة فنية تعبرّ عن ذكاء الجاحظ وإدراكه لآلية القصص وأدواته ، وهى الطريقة الواقعية التى لا يشوبها خيال جامح ، أو مبالغة تجافى الحقيقة ذلك لأنه يعتمد منهج الواقعية فى سر دراما الواقع بكل هيئاته وحركاته ، بعيداً عن الاستعانة بأدوات من التعبير الجمالى ، والصور الخيالية ، التى تجافى الواقع ، وتزوّر الحقيقة ، وإذا ما لجأ إلى شئ من هذه الأدوات ، أو استعان بما لديه من خصوبة فى الخيال ، فإنه بالقدر الطبيعى الذى يعينه على توصيل الصورة الحقيقية لكل مقوماتها ، حتى تبدو وكأنها ناطقة متحركة .

ولعل عنصر التصوير ، هو من أكثر العناصر سيادة فى الأدب الذى يصور الطبائع ، ذلك أن الوصف والتصوير والحوار وسائل يستخدمها الكاتب

---

(1) انظر مقدمة كتاب البخلاء – تح : أحمد العوامرى وعلى الجارم – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت سنة ١٩٩١ ص ٥ .

فى تحليل شخصية البطل . وتصور مزاجه وطبيعته واستجاباته ، ومظاهر سلوكه ، حتى نصل – من ذلك – إلى (العقدة) الأصلية التى تلتف حولها شخصيته فى الأعماق السحيقة من (اللاشعور) .

وقد أجاد الجاحظ فى توظيف هذا العنصر بمستويات مختلفة حسبما يستدعيه الموقف ، فأحياناً يقتصر تقديم الشخصية أو الحدث من خلال الوصف العادى ، كما فى تقديم شخصية (قاسم التمار) " .. وكان قاسم شديد الأكل ، شديد الخبط ، قذر المؤاكلة ، وكان أسخى الناس على طعام غيره ، وأبخل الناس على طعام نفسه " (1) ، وأحياناً يبلغ التصوير حدّ الرسم الكاريكاتيرى للشخصية ، كما فى صورة (على الأسوارى) على الطعام ، وهى من الصور التى حرص الجاحظ فيها على تحريك الشخصية تحريكاً مضحكاً ، نابضاً بالحركة : " .. وكان إذا أكل ذهب عقله ، وجحظت عيناه ، وسكر وسدر وابنهر ، وتربّد وجهة ، وعصب ولم يسمع ، ولم يبصر ، فلما رأيت ما يعتريه وما يعترى الطعام منه ، صرت لا آذن له إلا ونحن نأكل التمر والجوز والباقلى ، ولم يفجأنى قط وأنا آكل تمراً إلا استفّه سفّاً ، وحساه حسواً ، وزاد به زوداً ، ولا وجده كبيراً إلا تناول القطعة كجمجمة الثور ، ثم يأخذ بحضنيها ويقلّها من الأرض ، ثم لا يزال ينهشها طولاً وعرضاً ، ورفعاً وخفضاً ، حتى يأتى عليها جميعاً " . (2)

وأحياناً أخرى ، يأتى الحدث فى صورة وصفية بالحياة ، وكأننا نشاهد الحدث ممثلاً أمامنا فى فيلم سينمائى ، كما فى حادثة الشيخ الأهوازى الذى كان يأكل طعامه على ظهر السفينة، وليس معه غير رجل واحد – هو راوى القصة، فطلب الشيخ من الرواى أن يصرف عينه عن الطعام لأنه يخاف الحسد .

---

(1) البخلاء ص ١٩٨ .

(2) نفسه ص ٧٩ .

قال الراوى : " فوثبت عليه ، فقبضتُ على لحيته اليسرى ، ثم تناولت الدجاجة بيدى اليمنى ، مازلت أضرب بها رأسه حتى تقطعت فى يدى ، ثم تحول إلى مكانى ، فمسح وجهه ولحيته ، ثم أقبل علىّ فقال : قد أخبرتك أن عينك مالحة ، وأنك ستصيبنى بعين " . [1]

ومن أبرز الصور الحسية الجميلة التى افتنّ الجاحظ فى إبرازها ، وأبدع فى التعبير عنها فى دقة وإبداع ، صورة قاضى البصرة (عبد الله بن سواء) ، ففى هذه الصورة ، تظهر بوضوح مقدرة الجاحظ على الإلمام بأطراف الحقيقة ، والتعبير عنها تعبيراً واقعياً محسوساً ، استمع إليه يقول : " كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار ، لم ير الناس حاكماً قط ، ولا زمّيتاً [2] ولا زكيناً [3] ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته ، مثل الذى ضبط وملك ، كان يصلى الغداة فى منزله ، وهو قريب الدار فى مسجده ، فيأتى مجلسه فيحتبى ولا يتكئ ، فلا يزال مغتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحل حُبْوته [4] ولا يحوّل رجلاً عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه ، حتى كأنه بناء مبنىّ أو صخرة منصوبة ، فى يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة المغرب ... كذلك كأن شأنه فى طوال الأيام وفى قصارها ، وفى صيفها وفى شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرك يده ، ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم فيوجز ، ويبلغ بالكلام اليسير المعانى الكثيرة .

فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه وفى السماطين [5] بين يديه ،

---

(1) البخلاء ص ١٤٨ .

(2) زمّيتاً : وقوراً .

(3) ركيناً : رزيناً .

(4) حُبْوته : الحبوة أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

(5) السماطين : مثنى سماط وهو الصف .

إذ سقط على أنفه ذباب ، فأطال المكث ، ثم تحول إلى مُوْق (1) عينه ، فرام الصبر فى سقوطه على المؤق ، وعلى عضّه ونفاذ خرطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبتاه ، أو يغضّن وجهه ، أو يذبّ بإصبعه ، فلما طال ذلك عليه من الذباب ، وشغله وأرجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم ينهض (الذباب) فدعاه ذلك إلى أن والى بين الإطباق والفتح ، فتنحى ريثما سكن جفنه ، ثم عاد إلى مُوْقته بأشد من مرّته الأولى ، فغمس خرطومه فى مكان ما كان قد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتماله له أضعف ، وعجزه عن الصبر فى الثانية أقوى ، فحرّك أجفانه ، وزاد فى شدّة الحركة ، وفى فتح العين ، وفى تتابع الفتح والإطباق ، فتنحّى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، مازال يُلح عليه حتى استفرغ صبره ، وبلغ مجهوده ، فلم يجد بُدّاً من أن يذبّ عن عينيه بيده ، ففعل ، وعيون القوم إليه ترمقه ، فتنحّى عنه بقدر ما ردّ يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذبّ عن وجهه بطرف كمّه ، ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك ، وعلم أن فعله كله بعين مَنْ حضره من أمنائه وجلسائه ، فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألجّ من الخنفساء ، وأزهى من الغراب ، واستغفر الله ، فلما أكثر مَنْ أعجبته نفسه ، فأراد الله عز وجل أن يعرّفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً ، وقد علمت أنى عند الناس من أزمت الناس ، فقد غلبنى وفضحنى أضعف خلقه ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾. (2)

---

(1) المؤق : طرف العين مما يلى الأنف .

(2) الحيوان للجاحظ : ٣/٣٤٣ – ٣٤٥ – وقد آثرت الاستشهاد بهذه القصة رغم أنها من خارج كتاب البخلاء – موضوع الدراسة – وذلك لأنها أظهر فى الجانب التصويرى .

وهكذا ترى القوة الجاحظية البارعة فى الوصف والتصوير ، والإحاطة بدقائق الحركات والهيئات ، حتى لكأنك ترى بعينك عبد الله بن سوار وهو فى هذه المعركة الحامية مع الذباب ، إن الجاحظ هنا يريد أن ينقل إلينا صورة من الصور التى أضحكته ، حيث لاحظ هذا الرجل ، وتتبع حركاته ، وضحك منها كثيراً ، وهو فى ذلك لا ينعكف أكثر من يعطينا صورة الرحل كما رآها ، ومن ثم تظهر لنا عبقرية الجاحظ ومنه فى استخدام الكلمة ، والاستعانة بها على تصوير الواقع الذى رآه ، إنه ينقل إليك فى هذا التصوير المحكم هيئة الرجل وحركته وجلسته ، ويستطرد فى بقية المشهد فى تصوير معركة بينه وبين الذباب ، وكيف اختلفت وسائله فى ذبّه عن نفسه ، إنه ينقل إليك كل حركة مهما صغرت وهو فى سبيل ذلك يستعين بالكلمة المجسدة للحركة ، حتى لا تكاد تنتهى من قراءة المشهد حتى تتخيل وكأنك قضيت يوماً مع هذه الشخصية ، ولو أن مصوراً أراد أن ينقل إلينا صورة هذا القاضى ، لم يزد على أن نقل لنا هيئته وصورته ، ولكن الجاحظ يعطينا زيادة على ذلك حركاته وسكناته وخلجاته ، فكانت الصورة النابضة بالحركة والحياة ، ولم يفعل الجاحظ سوء أنه نقل لنا الواقع كما رآه ، ولو أنه أعمل خياله الخصب ، لم تكن له مثل هذه الدقة أو هذه الروعة .

أما جانب التصوير النفسى ، فالجاحظ ينزع فيه إلى تصوير نفسية البخلاء من خلال مجادلاتهم ومناظراتهم ، فيسوق أقاصيصهم فى هذا الاتجاه ، بحيث يجعلها توحى ببعض هذا المسلك من الشحّ والبخل ، ملاحظاً سلوكهم وتصرفاتهم فى مختلف المواقف ، مركزاً على إبراز اهتماماتهم وعلاقاتهم بالآخرين ، معترضاً لنظرياتهم فى البخل ، ناقلاً حواراتهم ونصائحهم ووصاياتهم بكل دقة وتفصيل وواقعية ، وبأسلوب فنى ساخر فكه .

وثمّة من النقاد مَنْ أن الجاحظ لم يُعن – فى بخلائه – إلا بالتصوير الخارجى ، والأشكال الظاهرة من حركات وهيئات ، وأن التصوير النفسى

للشخصيات جاء باهت الملامح ، وأنه كذلك فى معرض المقارنة بينه وبين بخيل (موليير) الفرنسى ، لم يرق إلى ما جاء به هذا الأخير من حيث استبطان الشخصية ، وكشف دخائلها النفسية . (1)

والحق أن الممعن فيما بين السطور عند الجاحظ ، يلحظ بوضوح اعتنائه الشديد بنقل الواقع الذى يستند إلى الوصف النفسى ، والتصوير لبعض الأحاسيس والعواطف ، وأرى أن الذى يدفع بالبعض ينفى عنه هذا المسلك ، أو يعدّه ذا ملامح باهته ، هو طبيعة إيراد الجاحظ لهذا المسلك ، حيث يخفيه وراء تصوير المظاهر المادية ، ويجعل لكل حالة نفسيه شكلاً مادياً تبرز وتتجسّم فيه ، " إنه الوصف الذى يعتمد على استشفاف الحركات النفسية التى تلابس البخل ، واستبطان الأحاسيس التى تصحبه ، وهو شيء من أروع ما أتيح للجاحظ أن يبرزه ، حتى إنه يعنى بالهنات ، أى الغلتات والأمور البسيطة التى تجرى على غير إرادة المتعكفين ، والتى تدلّ على حقائق حاولوا إخفاءها ، والتحول بها إلى غير مقصدها .(2) لقد أدرك الجاحظ كل هذا ، وعرف أن ليست حقيقة الحياة فى هذه الهيئات والحركات الخارجية ، وإنما وراء ذلك عالم زاخر ، يعجّ بألوان مختلفة من الطبائع المستورة الخفية .

من ثمّ فقد عرض علينا الجاحظ كثيراً من هذه الصور النفسية الممتعة ، وبخاصة فى قصص (ابن أبى المؤمل) – أحد بخلاء البصرة المشهورين وقد أراد الجاحظ من قصص هذا البخيل أن يعطى صورة عن بعض البخلاء الذين يدّعون الكرم ، ويدعون الناس إلى موائدهم ويتكلّفون لهم خلاف ما يبطنون

---

(1) انظر : نموذج البخيل فى الأدب العربى والأدب الفرنسى – محمد الصادق عفيفى – دار الفكر – ط2 سنة ١٩٧١ ، ص ١٠٥ ، وانظر : مجلة الثقافة المصرية : شفيق جبرى – العدد الأول – يناير سنة ١٩٣٩ ص ٢٥ .

(2) مقدمة البخلاء للحاجرى : ص٥٠.

من حقائق بغية الثناء والشكر ، بيد أنهم لايلبثون أن تفضحهم طبائعهم ، والتى تفصح عنها نفسيات يبدع الجاحظ فى تصويرها تصويراً واقعياً مثلما نرى فى القصة الأخيرة لابن أبى المؤمل ، حين اشترى شبوطه ، وهى من أطيب الأسماك وجّهزها لنفسه ، واستعد لا لتهامها ، فدخل عليه الجاحظ ومعه (السدرى) وهو أحد الشعراء المغمورين زمن الجاحظ ، فكانت (المفاجأة العظيمة على البخيل .. " فلما رآه أى الموت الأحمر ، والطاعون الجارف ، ورأى الحتم المقضى ، ورأى قاصمة الظهر وأيقن بالشر ، وعلم أنه قد ابتلى بالتنين " ([1]) ، فشمّر السدرى عن مساعدة ، ونزل تقطيعاً وتمزيقاً والتهاماً فى السمكة ، والبخيل ينظر إليه وهو يغلى فى داخلة ، حتى إنه لم يتحمل الموقف فمرض ، أو كما يصفه الجاحظ : " فخبثت نفسه ، فمازال يقىء ويسلح ، ثم ركبته الحمّى" ([2]) فتلك قصة تصلح أن تكون – لوحدها قصة فنية مستقلة ، لما فيها من وحدة الموضوع ووحدة الهدف ، بل أنها بلغت الغاية فى التصوير النفسى للبخيل وسلوكه ، وهو يرى طعامه الطيب الذى أعده لنفسه يلتهم من قبل الآخرين ، إضافة إلى عنصر التشويق والتكثيف ، وتركيز الضوء فى تصوير الشخصية من الداخل.

بناء الشخصيات :

ندا الواقع هو الأساس الذى انبثقت منه كل الشخصيات التى درج الجاحظ يصور أبعادها ويحدد معالمها ، ولم يكن لابتداع الخيال أدنى نصيب فى تكوينها على الرغم من تنوعها ، وتعدد مشاربها ، فهى ما بين قاض أو عالم ، أو أديب أو تاجر ، أو صانع أو أعرابى ، ومن سكان البصرة أو بغداد أو خراسان أو البادية ، تتنوع ثقافاتهم وأخلاقهم ، وتختلف منازلهم بين علية القوم وأسافلها ،

([1]) البخلاء : ص ١٠٠.

([2]) نفسه : ص ١٠١.

وكذلك أو ضاعهم الاجتماعية من فقر وغنى ، ومشهورون ومغموزون ، فيما يمكن أن يكون الجاحظ قد أحاطا بمختلف الأبعاد والجوانب لنموذج الإنسان البخيل .

ويبتدع الجاحظ – فى رسم شخصياته – عدة طرائق فنية :

منها : أنه يعمد إلى تقديم البخيل بطريقة الوصف ، قبل أن يسرد قصصه وطرائفه ، كاشفاً عن بعض أبعاد الشخصية ، مثل قصة أبى سعيد المدائنى .. " كان أبو سعيد المدائنى إماماً فى البخل عندنا فى البصرة ، وكان من كبار المعنيين ومياسيرهم ، وكان شديد العقل ، شديد العارضة ، حاضر الحجة ، بعيد الروية " . (1)

ومنها : أن يمهد للتعرض بالشخصية قبل أن يروى الحدث الرئيسى فى القصة بلوحه أو لوحتين ، يسرد فيها بعض تصرفات الشخصية . " وكأنما ليوحى ببعض الأبعاد النفسية حتى لا يفاجأ القارئ بما قد لا يتصوره عقله من تصرف هذا البخيل " (2) ، كما صنع فى قصة (زبيدة بن حميد) و(الدراويش) السالف ذكرهما .

وأحيانا نرى الشخصية داخل الحدث مباشرة دون تعريف أو تمهيد ، ومن خلال الأحداث والحوار ، نستكشف الأبعاد السلوكية والأخلاقية للشخصية ، مثل قصة (أبى عبد الله المروزى) التى تبدأ بالحدث مباشرة على هذا النحو : " دخل أبو عبد الله المروزى على شيخ من أهل خراسات ، وإذا هو قد استصبح فى مسرجة حذف ، من هذه الخَزفية الخضر ، فقال الشيخ : لايجيء والله منك صالح أبداً ... " (3)

---

(1) البخلاء : ص ١٣٧.

(2) د.سيد حامد النساج : دحلة التراث العربى – دار المعارف – ط ١سنه ١٩٨٤، ص ٩٥.

(3) البخلاء : ص ٢٠.

أما الشخصية المحورية فى معظم قصص البخلاء ، فإنها تأخذ مساحة أكبر ، والجاحظ يسلّط عليها الضوء كله حتى تختفى الشخصيات الثانوية الأخرى فى الظل ، وكأنها اتخذت لتظهر الشخصية الرئيسية ، وتعين على إبراز سلوكها ، وتساعد عى تطوير بعض المشاهد ، وتوجيه الأنظار إلى الشخصية المحورية ، ولعل الجاحظ كان يدرك بسلامة إحساسه الفنى ، الحدود التى يجب أن تقف عندها أدوار هذه الشخصيات فى تصوير الأبطال ، مثل الشخصيات الثانوية ، فى قصه (زبيده بن حميد) الآنفة الذكر ، وهى الصديق والبقال ، ورئيس الغلمان الذين استخدمهم الجاحظ ليضفوا على الشخصية الرئيسية أبعاداً تخدم الفكرة الأساسية للقصة ، حين تحقق ذلك انتهى دورهم واختفوا .

أما الجاحظ نفسه وهو مبدع العمل ، وراوى القصص ، فقد كان حريصاً على الابتعاد عن مسرح القصة ، مختفياً فى الشخصيات التى يصورها وينطقها ، ولا نجد له صورة مفردة فى الكتاب إلا فى قصص شارك شخصياتها أدوار البطولة فيها ، وحتى فى مثل هذه المواقف ، كان يدرك أنه أداة لإظهار الشخصية الرئيسية ، وبالتالى كان يفعل بنفسه ما يفعل بالشخصيات الثانوية الأخرى .

أما فى القصص التى يتخذ فيها دور الراوى ، فكان يترك شخصياته تتحرك وتتصرف وتتصارع وتتحادث بحرية دون أن يتدخل فى تحريكها ، أو يملى عليها حوارها ، أو يحصى عليها سكناتها ، بل كانت الشخصية تتحرك بشكل منطقى ، ضمن إطار الموقف العام .

تنفرد بها شصخية البخيل الإنسان ، مهما اختلفت بيئته وثقافته ومنزلته الاجتماعية ، وهى أن البخيل منغلق على نفسه ، ينتابه الخوف والقلق ، والخوف من الناس ، وسوء الظن بهم ، والخوف من الفقر وضياع أمواله ،

والخوف من المستقبل وما يخبئه له ، والخوف من الموت جوعاً ، فالخراساني يصل به الخوف بالآخرين أن يسيء الظن بأقرب الناس له ، حين رد على زميله ورفيق سفره الذى ألح عليه أن يأكلا فى قصعة واحده أثناء السفر – ففى الاجتماع بركة – قال له : " ياعبد الله معك رغيف ومعى رغيف ، ولولا أنك تريد الشر ما كان حرصك على مؤاكلتى ، تريد الحديث والمؤانسة ؟ اجعل الطبق واحداً ويكون كل رغيف كل منا قدام صاحبه" ([1])

والدراويش الذى مر ذكره ، يخاف أن يعطى الشحاذين حسنة لئلا تنتهى أمواله – وهو الثرى – فيعود شحاذاً مثلهم ([2]) ، ولعل أغرب موقف للخوف سليمان الكثرى من الضحك ، فلما عوتب فى قلة الضحك ، وشدّة القطرب ، قال : " إن الذى يمنعنى من الضحك أن الإنسان أقرب ما يكون من البذل ، إذا ضحك وطابت نفسه " . ([3])

والطريف أن هذه الحقيقة الإنسانية فى تحليل شخصية البخيل ، قد توصل إليها كذلك معظم الذين كتبوا فى تصوير البخلاء وتحليل نفسياتهم من الكتّاب العرب والغربيين ، مثل نجد فى بخيل موليير – على سبيل المثال – فهو يخاف على أمواله حتى من أولاده ، متصوراً أنهم سيخونونة ويصبحون أعداءً له .

– اللغة والحوار :

لم يكن اهتمام الجاحظ بالكلمة إلا مظهراً من مظاهر النزعة الفنية التى غلبت ، فهو وإن كان متكلماً وعالماً وفيلسوفاً إلا أنه قبل هذا كله فنان يصبغ كل شيء بالصبغة النية الخالصة ، وفى هذا الإطار ، تجده دائما يبرز طبيعة الدور الذى تلعبه الكلمة فى إنضاج العمل الفنى ، ولا أدلّ على ذلك من أنه جعل

([1]) البخلاء : ص ١٩.

([2]) نفسه : ص ١٢٣.

([3]) انظر: نموذج البخيل .. محمد صادق عفيفى – ص ٣٧ وما بعدها .

اختيار الكلمات والمناسبات بينها ، وبين معانيها مذهباً من أهم مذاهبة فى بلاغة الكلام ، وأوصى به ، ودعا إليه ، قال : " ولك ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ولكل نوع من المعانى نوع من الأسماء ، فالسخيف لسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل والإفصاح فى موضع الإفصاح ، والكناية فى موضع الكفاية ، والاسترسال فى موضع الاسترسال ، وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك ملهى ، وداخل فى باب المزاح والطيب ، فاستعملت فيه الإعراب انقلب عن جهتة ، وإن كان فى لفظه سخف ، وابدلت السخافة بالجزالة ، صادر الحديث الذى وضع على أن يسر النفوس يكر بها ، ويأخذ بأكظامها" . (١)

من ثمّ فإننا نلحظ بوضوح تطبيقه هذا المذهب فى حواراته التى يراعى فيها ظروف كل شخصية من تلك الشخصيات التى تعجّ بها قصصه ، من حيث طبيعتها الثقافية والاجتماعية فكان يورد على ألسنتهم من المصطلحات والتعابير التى تنبىء بمهنهم و، وكذلك وضعيتهم الثقافية مما يحقق البغية الفنية لدى الجاحظ ، من اتخاذ الحوار أداة للكشف عن نفوس شخصياته وتوجهاتهم ، وتحليل دوافعهم العميقة ، وتصوير أخلاقهم ومشاعرهم وإحساسهم ، وطريقة تفكيرهم ، لذا اختلف مستوى الحوار باختلاف مستوى الشخصية .

ولأن الجاحظ كان واقعياً فى اختيار نماذجه من الحياة ، قد أعطى لكل شخصية حوارها ونعتها كما فى الواقع ، لذا نراه يترك اللفظ العامى ، أو الكلام غير المعرب كما هو ، اعتقاداً منه بأن الإعراب قد لا يتسق مع الموقف أو الشخصية ، أو أنه لا يستقيم مع محاولة تصوير الواقع بحذافيره ، ويرى أن التقعّر والتعقيد اللغوى ، قد يبغض هذا الباب ، ويخرجه عن حدّه ، ويدفع بالقراء إلى التصور . (٢)

---

(١) الحيوان للجاحظ - ج٣ ، ص٣٩.
(٢) طالع ما يؤيد هذا الكلام من كلام الجاحظ بكتابة البخلاء : ص ٤٠.

ويلعب الحوار دوراً كبيراً فى تطويـــر الأحـداث ، ورســم المواقــف واتجاهاتها فى بعض القصص ، ففى إحدى قصص (محمد بن أبى المؤمل) — أحد بخلاء البصرة — يشكل فيها الحوار لبنة أساسية فى تفعيل الدراما والكشف عن طبائع الشخصية ، حين يدور نقاش بين الجاحظ الذى يسأل هــذا البخيـل بتعجب ، فى أنه يطعم الطعام ، وينفق عليه المال ويجوّده ، رغبة منه بــالذكر والشكر ولكن طعامه لا يكفى عدد الآكلين على مائدته ، فينقلب المــدح ذمــاً ، ويطالبه بزيادة الخبز .

ويبرر ابن أبى المؤمل — بدوره — صنيعه هذا ، بأن كثرة الطعام علـــى المائدة تقلل الشهية وتغلقها ، ويرى أن ما يصنعه يــدل علـــى ســخاء النفــس بالمأكول ، أما ضيوفه ، فما بين طيب الخلق كرين ، يقدّر الدعوة لذاتها ، بغضّ النظر عن الطعام المقدّم وكميته فلا يذقّه ، وأما السيئ الخلق ، فإنه لائم ذام فى الحالين : كثرة الطعام وقلته ، ويواصل الجاحظ أسئلته ويواصل البخيل المدعى تبريراته ، حتى إذا شعر أنه حوصر بالأسئلة ، كشف عن طبعه المتأصّل فيه : " فإن الخبز إذا كثر على الخوان ، فالفاصل مما يأكلون لا يسلم مـــن التلطيـخ والتغمير ، والرقاقة المتلطخة ، لا أقدر أن أنظر إليها ، وأستحى أيضــاً مـن إعادتها ، فيذهب ذلك الفضل باطلاً ، والله لا يحب الباطل " . [1]

رغم ذلك يصرّ الجاحظ على أن يجد له سبيلاً فى تكثــير الخــبز علـــى المائدة ، فيقترح البخيل طريقة للحل ، وهى أن يجعل الزيادة من الخبز فى طبق قريب من متناول اليد : " فلا يحتاج أحد مع قربه منه إلى أن يدعو به ويكـــون قربه من يده كثرة على مائدته " [2] ولكن حين يحضر وقت الغــداء ، يــأمر غلامه أن يحضر من الخبز تمام عدد الرؤس ، فيرى الجاحظ أن كل المناقشـــة

---

[1] البخلاء : ص ٩٥ .

[2] نفسه : ص ٩٦ .

كانت هباء ، وينهى البخيل مناقشته بقوله : " لا أعلم إلا ترك الطعام البتة أهون علينا من هذه الخصومة " . ([1])

هذه القصة يلعب فيها الحوار دوراً كبيراً فى الكشف عن الشخصية وتحليل دوافعها العميقة وسلوكها ومشاعرها ، بل إن الحوار فى هذه القصة جعل البخيل يكشف عن طبيعته بشكل ساخر حين أعيته الحيلة .

وتأتى خاصية الجدل ، لتشكّل أهم سمة فى حوار الجاحظ ، وهو أثر بارز فى نثره عاقه ، استقاه ، من غشيانه فرق المعتزلة ، والتى يشكل فيها علماً من أعلامها ([2]) فكان لها أثر كبير فى صقل موهبته الفنية فى الحوار ، لما عُرف عنهم من قوة المجادلة ، لذا نجد معظم بخلائه أصحاب منطق وجدل ، يدافعون عن مذهبهم فى البخل كما يدافع المتكلمون عن عقيدتهم ، ويجادلون من يعيب عليهم تقتيرهم ، كما يجادل المعتزلة أصحاب الفرق الأخرى .

وهذا نجده بوضوح فى رسالة الكندى إلى المستأجر بيته ، يطالبه فيه بزيادة الإيجار لزيادة عدد الساكنين فى الدار ، فنلحظ الفكرة الفلسفية الدقيقة ، والحوار العميق ، وتوليد المعانى ، وترتيب الأفكار ، واختيار الكلمات بدقة ، والأسلوب المقنع ، والإيمان القوى بنظرية الجدل ودفاع قوى عنها ، بل استطاع الكندى أن يجعل الساكن متهماً جانياً ، يتوسل بشتى الطرق والوسائل غير الحميدة لاستغلال الدار . ([3])

على أن بعض النقاد لا يكتفى بتفوّق الجاحظ فى صفة الجدل فحسب ، وإنما يضيف إليها كذلك خبرته المتعمقة فى بواطن النفس البشرية ، وبما يعتمل

([1]) نفسه : ص ٩٧ .

([2]) انظر فى تفصيل ذلك : مقدمة البخلاء للحاجرى : ص ١٣ وكتاب : النثر الفنى ... د. عبد الحليم بلبع – ص ٢٦١ .

([3]) انظر هذه القصة فى كتاب البخلاء : ص ٨١ – ٩٣ .

فى داخلها من صراعات ، وبأن السلوك الذى يسلكه الإنسان ، ليس إلا بلـــورة لمحصلة مجموعة من التجارب والخبرات ، وخاتمة لمطاف طويـــل ارتضـــاه لنفسه . (١)

أما لغة الجاحظ فى البخلاء ، فهى لا تنفصل عن لغته فى سائر كتاباتـــه الأخرى ، والتى تتميز بالجزالة والوضوح وبساطة التعبير ، غير أنه فى هــذه الحوارات ، راعى اهتماماً خاصاً بتوليد المعانى والصور ، وذلك بإبراز الألفاظ التى تعبر عن شح النفس وبخلها (٢) ، والتعابير التى تجسّد حركات الأشـخاص وهيئاتها ، وتصور حالاتهم النفسية ، الأمر الذى حدا به أن يتجنـــب التكلّــف والتعقيد ، والتصنع فى السجع ، وتزويق الألفاظ .

ويرى الدكتور طه الحاجرى ، أن ذخيرة الجاحظ اللغويـــة ، أدت إلـــى الإسهاب وترجيع المعنى ، وقد لا يروق هذا لبعض الناس ، غير أنه يُرجعـــها إلى " طبيعة الجاحظ الفنية ، المعنية بالجمال ومظاهره المختلفـــة ، والجمـــال اللفظى – إن صح أن يكون هناك جمال لفظى بحت – مـــن أقـــوى عنـــاصر الأدب ، وهذه المزواجة اللفظية ، ليست إلا مظهراً من مظاهر هـــذا الجمـــال اللفظى " . (٣)

والجاحظ نفسه يؤكد على الاهتمام بانتقاء الكلمة ، والابتعاد عن المبتـــذل والوحشى من الألفاظ فى نفس الوقت ، وهو وإن لم يتحرج عن إيراد الألفـــاظ العامية على ألسنة العوام من البخلاء ، والألفاظ الغريبة على ألسنة المتعـــاقلين من البخلاء كما يسميهم ، كجزء من موضوعيته فى نقل حديث الآخريـــن ، إلا

---

(١) د. سيد حامد النساج : رحلة التراث العربى – ص ١١٣ .

(٢) مقل : الحكرة ، والكسرة ، والعسرة ، والحبة ، واللقمة ، والجمع ، والمنع ، والحـوص ، والمثقال ، والتقتير ، والقيراط ، وغيره كثير .

(٣) البخلاء – مقدمة الحاجرى : ص ٢٧ .

أنه يقول : وكما لا ينبغى أن يكون اللفظ عامياً وساقطاً سوقياً ، فكذلك لا ينبغى أن يكون غريباً وحشياً ، إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً ، فإن الوحشى من الكلام ، يفهمه الوحشى من الناس ، كما يفهم السوقى رطانة السوقى " . (1)

- الإطار الزمانى والمكانى :

امتدى الوعى الفنى لدى الجاحظ ، ليدرك أهمية تحديد الإطار الزمانى والمكانى فى القصة ، وأنه عنصر يمثل دوراً مهماً فى ربط القصة بالواقع ، كما أنه يساعد على فهم سلوك الشخصية وتصرفاتها ، فضلاً عن أنه يسهم فى تفسير الأحداث .

وغالباً ما نجد المسرح القصصى عند الجاحظ ، أو بالأحرى المكان الذى يجرى فيه محدداً تحديداً كافياً ، فقد تجرى القصة فى دار ، أو فى بستان ، أو فى حمام ، أو فى مسجد ، وأما العصر فهو عصر الجاحظ ، وأما الزمان الخاص الذى تجربى فيه القصة ، فهو يحدده ، حيث الحاجة ، كأن تجرى القصة صباحاً أو مساءً أو ظهراً .

ومن هذا المنطلق يمكن لنا أن نقسم هذا الإطار عند الجاحظ إلى قسمين :

عام وخاص ، فالإطار الزمانى العام هو العصر الذى عاش فيه الجاحظ ، أما الخاص فقد يحدد الجاحظ وقت وقوع الحادثة فى بعض القصص ، كأن تدور الحادثة فى الليل ، مثل (المراوزة الذين اشتركوا فى مصباح) (2) ، أو قد تقع الحادثة عند الظهر مثلا (الشيخ الخراسانى الذى يتغدى فى البستان بعد صلاة الجمعة) (3) ، أو قد تقع فى الغروب مثل (مأدبة بلال بن بردة وقت الإفطار فى رمضان) (4) .. وغيرها من الأوقات.

---

(1) الجاحظ : البيان والتبين – تح: عبد السلام هارون – مطبعة الخانجى – جـ٣ ص ١٤٤.

(2) البخلاء : ص ١٨ .

(3) نفسه ص ٢٥ .

(4) نفسه ص ٢٩ .

أما الإطار المكانى العام ، فهو البعد الجغرافى المتمثل بمدينة (البصرة أو بغداد ، أو خراسان أو واسط ، أو مرو ..) أما الخاص فيشير إليـه الجـاحظ فى بعض القصص مثل (اجتماع المسجدين فى مسجد البصرة)([1])، أو حادثـة (الشيخ الأهوازى وهو مسافر فى جعفرية - مركب نـهرى) ([2]) أو اجتمـاع الجاحظ والنظام وعمر بن نهيوى فى ظل حائط) ([3]) .. وغيرها من الأماكن .

غير أن الجاحظ لم يعوّل كثيراً على تحديد الإطار الزمـانى والمكـانى الخاص ، لأن الذى كان يعنيه أكثر المواقف ، وتصرّف الشـخصيات تجاهـها هادفاً من كل ذلك إلى توضيح طبيعة شخصية البخيل فى مواقف متعددة ، ومع ذلك فإن استخدام الجاحظ لإطار الزمان والمكان الخاص - على قلتـه - يـدل على وعى الجاحظ بقيمة هذا العنصر ، فهو يستخدمه حين يشعر أنه يضيـف شيئاً للقصة ، ففى قصة (جبل الغمر وأبى مازن) التى مرّ ذكرها على سـبيل المثال ، حيث يطرق (جبل) باب أبى مازن ، وكان الوقت فى ساعة متـأخرة من الليل ، والأزقة مظلمة ، والعسس يلفّون الطرقات ، فتحديد الزمن هنا لـه دوره فى تفسير هلع (جبل الغمر) ([4]) .

- السخريـة :

أما عن الإضحاك وجانب السخرية : فالأمر أظهر من أن يكون موضـع مماراة ، فروح السخرية سارية فى كل جزء ، مترقرقة فى كل نمـوذج مـن نماذجه " ([5]) ، وفى تحليل هذا العنصر فى كتاب البخلاء - وهو من أبرز مـا

([1]) البخلاء : ص ٢٠ .

([2]) نفسه ص ٣٨ .

([3]) نفسه : ص ٩ .

([4]) نفسه : ص ٩ .

([5]) انظر : مقدمة البخلاء للحاجرى - ص ٥٤ .

يلفت نظر القارئ ، ويثير نشاطه العقلى والوجدانى – يُرجع غالبية النقاد هذا الأمر إلى طبيعة السيكولوجية للجاحظ ([1]) ، فقد كان مطبوعاً على الظرف والفكاهة ، ميّالاً إلى التفاؤل ، يمتاز بحب الدعابة وخفة الروح ، وكان لطيف المعشر ، مرح النفس ، سريع البديهة ، سريع النكتة .

والجاحظ فى بخلائه ، إنما يدعو دعوة صريحة إلى الضحك والمزاح والفكاهة ، ويدافع عنها ، فقد خصص جزءاً من المقدمة تحدث فيه عن المزاح ، وعرض لوجوه النظر المختلفة ، وقارن بينه وبين البكاء ، وقد حدد فيه فلسفته الخاصة للضحك ، ومواضعه ، ومدى حاجة الإنسان إليه ، حتى ليصبح ضرورة من ضرورات حياته ، يقول الجاحظ : " وللضحك موضع وله مقدار ، وللمزح موضع وله مقدار ، متى جازهما أحد وقصّر عنهما أحد صار الفاضل خطراً والتقصير نقصاً ، فالناس لم يعيبوا المزح إلا بقدر ، ومتى أريد بالمزح النفع ، وبالضحك الشيء الذى له جُعل الضحك ، صار المزج جداً ، والضحك وقاراً " . ([2])

وفى إطار دفاعه عن الضحك ، يستشهد بالقرآن الكريم ، فيورد قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ ([3]) ويعقب عليها بأن الله تعالى ، وضع " الضحك بحذاء الحياء ، ووضع البكاء بحذاء الموت ، وأنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح " . ([4])

ويستمر فى دفاعه عن الضحك – كذلك – بأن العرب تسمى أولادها بالضحّاك وبسّام وبطلق وطليق ، وأن الرسول ﷺ وصحابته والسلف الصالح ،

([1]) انظر كتاب : الجاحظ – للدكتور أحمد محمد الحوفى ص ١٠٠ ، وكتاب : النثر الفنى .. للدكتور عبد الحكيم بلبع ص ٢٦٠ ، ومقدمة كتاب البخلاء للحاجرى ص ٥٤ .

([2]) البخلاء : ص ٧ .

([3]) سورة البخلاء : آية ٤٣ ، ٤٤ .

([4]) البخلاء : ص ٦ .

قد ضحكوا ومزحوا وأن العرب إذا مدحوا قالوا : هو ضحوك السنّ ، وبسّام العشيان ، وهشّ الضيف ، بل إن الجاحظ يحدد الهدف فى الكتاب فى ثلاثة أشياء : " تبين حجة طريفة ، أو تعرف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة ، وأنت فى ضحك منه إن شئت ، وفى لهو إذا مللت الجد " . (1)

وللجاحظ فى فن الإضحاك فلسفة ومذهب ، وباستطاعتنا أن نتلمس طبيعة هذا المذهب الفنى الذى يمثل علامة إبداعية متفرّدة لهذا الكاتب ، وذلك على النحو التالى :

أولاً : إن دعوة الجاحظ فى بخلائه إلى الضحك ، هو جزء من نظرته العامة إلى النادرة والدعابة التى استخدمها فى كتاباته الجدية ، كما استخدمها فى كتاباته الهزلية على أنها ملمح نفسى يقطع على القارئ الملل والرتابة ، ويجدد نشاطه الذهنى والنفسى فى إطار من التغيير وإثارة غريزة المدح وحب الترفيه ، فهو يرى أن العقل يتعب من الجد ، ويحتاج إلى الترويح ، وحرصاً منه على ربط القارئ بكتبه ، عمد إلى الانتقال من الجد إلى الهزل ، ومن الهزل إلى الجد ، مما أكسب كتاباته ميزة الاستطراد ، يقول الجاحظ فى كتابه الحيوان : " قد عزمت – والله الموفق – أنى أوشّح هذا الكتاب ، وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر ، وضروب الأحاديث ، ليخرج قارئ هذا الكتاب ، من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فإنى رأيت الأسماع تملّ الأصوات المطربة ، والأغانى الحسنة ، والأوتار الفصيحة ، إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا فى طريق الراحة التى إذا طالت أورثت الغفلة " . (2)

وفى هذا ملمح نفسى ، فهى يخشى على القارئ الملل إذا ما استمر يحدثه فى موضوع واحد ، لذا جاء حرصه على التنويع فى موضوعاته ،

---

(1) البخلاء : ص ٥ .

(2) كتاب الحيوان للجاحظ جـ٣ – ص ٧ .

وهو منهج سار عليه وأكده فى كتابه القيم (البيان والتبيين) ، وفى رسالته الهزلية (التربيع والتدوير) ، بل إن نزعة التنويع ترافقه حتى فى كتاب البخلاء ، وهو أكثر مؤلفاته سخرية وإضحاكاً ، فنراه يبدأ الكتاب برسالة طويلة لسهل بن هارون ، فى دفاعه عن نظريته فى البخل ، وهو دفاع ملئ بالجدية ، والاستشهادات من النصوص القديمة مثقف جاد ، تأخذ ثمانى صفحات من الكتاب ، ينتقل بعدها إلى مجموعة من النوادر والطرف لبخلاء ، خراسان ، ويتبعها بقصص أهل البصرة من المسجديين ثم يأتى بقصة بطلها بخيل واحد هو (زبيدة بن حميد) وهكذا يظل ينتقل من قصة إلى مجموعة من النوادر إلى أحاديث متنوعة ، إلى تجربة أحد البخلاء فى الكدية ، وغيرها من الموضوعات المتنوعة .

ثانياً : اعتاد الجاحظ أن يجعل للسخرية دلالة أخرى إضافة إلى الإضحاك والإمتاع ، إنها لون من ألوان النقد ، فالجاحظ ناقد بطبعه ، غير أن لين جانبه ، وحبه للحياة وللناس جعلاه يبتعد عن طريق الجد الصارم فى النقد ، فكانت السخرية فى يده أداة نقدية مؤثرة ، وأحد أساليب الفنية فى معالجة سلبيات المجتمع . والجوانب المظلمة فى النفس الإنسانية ، والجاحظ نفسه يعى تأثير هذه الأداة وفعاليتها ، فهو لم يرفض نظرة البخلاء للحياة صراحة ، ولكن السخرية اللاذعة التى صور فيهم منطقهم كانت مرآة عاكسة لعيوبهم وخطأ نظريتهم .

ثالثاً : ثمّة أمر جدير بذكره ، وهى أن سخرية الجاحظ ومزاجه ودعاباته ، وميله الفطرى إلى الضحك ، ليست سخرية مبتذلة هدفها التهريج والضحك على الناس ، بمعنى آخر لم يكن هدفها الضحك للضحك لذاته ، بل هى سخرية أديب مفكر ، تمتاز بالموازنة بين الإمتاع والترويح عن النفس والفائدة فى نفس الوقت ، إنها سخرية ذكية راقية تنمّى الأذواق ،

وترهف الأحاسيس ، " ولو أن الجاحظ فى هذا الكتاب كان كغيره من الكتاب ، يُتبع القصة القصصى ، والنادرة النادرة ، عاريةً عن هذا الحجاج البارع ، لكانت غثّة باردة ، ولجاءت لجة فاترة ، وكأنه رأى من أول الأمر أن يُفهم القارئ أن كتابه هذا ليس مجّرد أقاصيص وأفاكيه ، بل هو آراء فى البخل ، وصور من عقول البخلاء ، قد تكون أحياناً شاذة وآونة سخيفة مضحكة ، ولكنها مدعومة بحججهم ، مؤيدة ببراهينهم " . (١)

وتأكيداً على هذا المذهب الفنى ، فلم يكن يرضى الجاحظ عن المبالغة فى السخرية ، أو خروجها عن الحد المعقول ، أو الجنوح بها إلى الخيال المسرف ، وهذا مسلك فنى نتبينه بوضوح فى أقصوصة إمام البخلاء ، وفى تعقيبه على هذه القصة :

أما الأقصوصة فتقول : " زعموا أن رجلاً قد بلغ فى البخل غايته ، وصار إماماً ، وأنه كان إذا صار فى يده الدرهم ، خاطبه وناجاه ، وفداه واستبطأه ، وكان مما يقول له : كم من أرض قد قطعت ، وكم من كيس قد فارقت ، وكم من خامل دفعت ، ومن رفيع قد أخملت ، لك عندى ألاّ تعرى ولا تضحى ، ثم يلقيه فى كيسه ، ويقول له : اسكن على اسم الله فى مكان لا تهان ولا تذل ، ولا تزعج منه ، وأنه لم يُدخل فيه درهماً فأخرجه .

وإن أهله أحلوا عليه فى شهوة ، وأكثروا عليه فى إنفاق درهم ، فدافعهم ما أمكن ذلك ، ثم حمل درهماً واحداً ، فبينما هو ذاهبٌ إذ رأى (حوّاءً) قد أرسل على نفسه أفعى لدرهم يأخذه ، فقال فى نفسه : أتلفُ شيئاً تبذل فيه النفس بأكلة أو شربة ؟ والله ما هذا إلا موعظة لى من الله ، فرجع إلى أهله ، ورد الدرهم إلى كيسه ، فكان أهله منه فى بلاء ، وكانوا يتمنون موته والخلاص منه ، والحياة بدونه .

---

(١) مقدمة البخلاء – تح : أحمد العوامرى وعلى الجارم – دار الكتب العلمية – بيروت سنة ١٩٩١ ص ٨ .

فلما مات ، وظنوا أنهم قد استراحوا منه ، قدم ابنه – وكان غائباً – فاستولى على ماله وداره ، ثم قال : ما كان أدُم أبى ؛ فإن أكثر الفساد إنما يكون فى الإدام ،

قالوا : كان يتأدّم بجبنه عنده .

قال : أرونيها ، فإذا فيها حزّ كالجدول من أثر قسْم اللقمة .

قال : ما هذه الحفرة .. ؟

قالوا : كان لا يقطع الجبن ، وإنما كان يمسحُ على ظهره ، فيحفر كما ترى .

قال : فبهذا أهلكنى، وبهذا أقعدنى هذا المقعد ، لو علمت ذلك ما صليتُ عليه

قالوا : فأنت كيف تريد أن تصنيع .. ؟

قال : أضعها من بعيد ، فأشير إليها باللقمة . ([1])

قال الجاحظ معقباً على هذه الأقصوصة: ولا يعجبنى هذا الحرف الأخير لأن الإفراط لا غاية له ، وإنما نحكى ما كان للناس ، وما يجوز أن يكون فيهم : مثلة أو حجة ، أو طريقة ، فأما مثل هذا الحرف ، فليس مما نذكره .

ولعل هذا التعقيب يوضح لنا مذهبه فى السخرية ، فهو يركز على الجانب العقلى ، ويتأتى بجانبه عن المبالغات الصارخة ، ومن ثمّ قال : زعموا ، لأن مصادر الرواية داخلها الشك العلمى ، ثم هو لا يريدها سخرية مبتذلة مفتعلة ، ولكن يريدها سخرية مبطنة فى قالب أدبى ، بعيدة عن الإغراق الذى يجعل التقتير ، وكأنه مصنوع متكلف ، وليس الأمر على طبيعته .

والجاحظ فى بخلائه ، يورد سخريته على كافة الوجوه ، ففيه مضحك الشكل ، ومضحك الحركة ، ومضحك الكلمة إضافة إلى كون البخل بحد ذاته مدعاة للسخرية ، فهو يدخل فى باب مضحك الطباع ، " ولو قيد لهنرى

([1]) البخلاء : ص ١٣١ .

برجسون ، أو لهربرت سبنسر ، أو دوجا ، أو شابير ، ممن درسوا الفكاهة والضحك قراءة كتاب البخلاء ، لوجدنا كتاباتهم عن الضحك والمضحك ، تزخر باستشهادات منه " . (1)

أما مضحك الشكل فنجده فى شكل البخيل وملابسه ووجهه حين يأكل ، فتجحظ عيناه ، ويغيب وعيه ، كصورة على الأسوارى على الأكل ، ويبدو مضحك الشكل فى وجه البخيل حين يحل ضيف على مائدته ، فهو ينظر إلى يدى صيفه ، فتتحرك عيناه معهما بآلية فى صعودهما وهبوطهما من وإلى الخوان ، وقميص ليلى الناعطية صورة أخرى لمضحك الشكل ، " فإنها مازالت ترقع قميصاً لها وتلبسه حتى صار القميص الرقاع ، وذهب القميص الأول " . (2)

أما مضحك الحركات ، فيظهر فى الصور النابضة بالحياة والحركة التى يرسمها الجاحظ للبخيل ، فى موقف من المواقف ، كصورة الشيخ الخراسانى الذى لم يدع رفيقه للأكل وهما على ظهر السفينة ، فتعرض للضرب " (3) وصورة إسماعيل بن غزوان الذى سهر عنده المكى ، ولما غلبه النوم رمى له إسماعيل بمخدة لينام عليها ، قال المكى : " فمنعنى من النوم إنكارى للموضع ، ويبس فراشى ، وظن أنى قد نمت ، فجاء قليلاً قليلاً ، حتى سلّ المخدّة من تحت رأسى ، فلما رأيته قد مضى بها ضحكت وقلت : قد كنت عن هذا غنياً .

قال : إنما جئت لأسوى رأسك .

قلت : إنى لم أكلمك حتى وليت بها .

قال : كنت لهذا جئت ، فلما صارت المخدة فى يدى نسيت ما جئت له " . (4)

---

(1) فاروق سعد – مع بخلاء الجاحظ – دار الآفاق الجديدة – بيروت – ط4 سنة 1983ص 97.

(2) البخلاء : ص 37 .

(3) البخلاء : ص 148 .

(4) نفسه : ص 130 .

أما مضحك الكلمات ، فيزخر به احتجاج البخلاء وأحاديثهم ومراسلاتهم التى يوردها الجاحظ بجدية مبطنة بسخرية مرة ، وبسخرية سافرة مرة أخرى ، مراعياً ظروف المتكلم ، وكثيراً ما يحملنا على الاعتقاد بمعقولية دفاعهم وتبريراتهم المضحكة ، وحججهم الساخرة .

فالكاتب سهل بن هارون يستحسن ترقيع الثوب لأن " ترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع ، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر " ([1])، والثورى ينصح بأكل الباقلى بقشوره " فإن الباقلى يقول : من أكلنى بقشورى فقد أكلنى ، ومن أكلنى بغير قشورى فأنا الذى آكله ، فما حاجتكم إلى أن تصيروا طعاماً لطعامكم ، وأكلاً لما جعل أكلاً لكم " . ([2])

ونموذج ثالث من العبارات المضحكة ، ترد على لسان أبى قطبى – أحد البخلاء السذج ، يقول : " إياكم والفساء فى ثيابكم التى تخرجون فيها ، وفى لحفكم التى تنامون فيها ، فإن الفساء يدرّ القمل .. إنى والله ما أقول إلا بعلم " . ([3])

– الواقعية :

فى عملية لتحديد الاتجاه الأدبى لبخلاء الجاحظ ، يحاول بعض النقاد أن يخلع عليه مذهب الفن للفن ، بمعنى أن الجاحظ قصد من وراء هذا الكتاب غاية فنية خالصة لإمتاع الروح والخيال ، حتى يستطرد أحدهم فيقول : " ومن هذا نرى أنه لم تنزع بالجاحظ إلى هذه الأحاديث غير النزعة الفنية " . ([4])

وفى حين أننا لا ننفى وجود الحسّ الفنى والجمالى فى كتاب البخلاء ، وإسهامه الحقيقى فى إشباع حاسة التذوق عند القارئ ، إلا أن توخيه غاية فنية

([1]) نفسه : ص ١٢ .

([2]) البخلاء : ص ١٠٣ .

([3]) نفسه : ص ١١٥ .

([4]) مقدمة البخلاء للحاجرى ص ٤٢ .

خالصة ، من تلك التى يصلح أن ندرجها تحت مدرسة الفن للفن ، هو أمر يحتاج إلى موضوعية ، ذلك لأن الجاحظ لم نعهد عليه فى غالب كتاباته أن يقصد إلى هذه الغاية فى حد ذاتها ، بقدر ما كان يعنى دائماً بمعالجة قضايا الواقع ، ونقل حقيقة مجتمعه ، وتعامله دائماً مع حقائق تمثل المجتمع العباسى كما هو ، وهو الأمر الذى يقره الدكتور شوقى ضيف – كذلك – معتبراً أن الجاحظ كثيراً ما يعنى فى كتاباته " بحكاية عصر ، وتمثيله تمثيلاً دقيقاً ، بحيث تعدّ أعماله أهم مراجع تكشف لنا عن حقائق العصر الذى عاش فيه ، فنراه يصور هذه الحقائق بكل ما فيها من طُهر ووزر ، ودين وزندقة وجد ولهو .. " . (1)

أقام الجاحظ إذن كتابه فى إطار الواقعية التى تنطوى على الكثير من الأهداف والغايات الإصلاحية ، من ثم فقد عرض هذه النماذج ، وأبان ما لها وما عليها ، وصور البخل والبخلاء وكشف عن نفسياتهم ، وتطرق إلى شئ من الجدل ليعمق النظرة ، وهو عندما استجاب لطلب صديقه فى تأليف هذا الكتاب ، فقد – فعل ذلك تحت تأثير عوامل بيئية واجتماعية وأخلاقية .

ومن خلال النظر إلى مجموع الطرائق الفنية التى اعتمدها الجاحظ فى معالجة قضايا البخلاء نلمح كثيراً من مميزات هذا الاتجاه الواقعى ، لاسيما الجانب المتعلق بالوصف والتصوير فلم يكن يلجأ الجاحظ إلى الصور الخيالية فى رسم شخوصه ، أو رصد أحداثه ، وإنما كان يعتمد فى ذلك على الحسّ والمواقع ، فيعطيك الحقيقة التى يريد بألفاظ حقيقية مباشرة تبرز لك المعنى فى جلاء ووضوح ، دون أن يجهد نفسه فى تلمسّ التشبيهات والاستعارات والكنايات ، وما إليها من هذه الصور التى يبتعثها الخيال .

---

(1) د. شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العربى – دار المعارف – سنة ١٩٦٥ ص ١٥٣ .

ومن جهة أخرى ، تأخذ الواقعية شكلاً واضحاً من خلال ربط القصص بالواقع المعاش ، أو ما يسمى فى النقد الحديث بالصدق الفنى ، وهو أن يجوى التفاعل بين الأبطال والأحداث كما يجرى فى منطق الحياة الواقعية ، حتى يشعر القارئ ، أن الكاتب لا يخادعه ، ولا يسرد له مما هو بعيد عن المنطق والحياة ، ويتضح هذا الربط فى رسم الشخصيات وتصوير الأحداث ، وإدارة الحوار ، ودقة التفاصيل ، والوصف السردى ، وتحديد الزمان والمكان .

والشخصيات التى يختارها الجاحظ شخصيات معروفة فى بيئته ، وقد ذكر أسماء بعضها وأخفى بعضها الآخر ، إكراماً أو خوفاً كما ذكر فى مقدمته (1) ، ومن الأسماء من سمع عنها ، وعرف أخبارها ، فنقلها عمن سمع منه ، ومنها من عايشها واتصل بها ، فكان يبدى رأيه فيها ، كقوله عن أحد البخلاء : " وأبو عبد الله هذا كان من أطيب الخلق ، وأملحهم بخلاً ، وأشهرهم رياءً " (2) ومن ثمّ فقد صورها بواقعية متناهية ، لا تخرجها عن حدودها المعقولة ، فكانت الشخصية كما هى فى تصرفها ، وسلوكها ، وعلاقاتها ، وحوارها وأحاديثها ، بل كان حريصاً أن تظل حكاياته وقصصه مرتبطة بالحياة ، فلا تخرج عما هو متعارف عليه بين الناس .

وتبدو موضوعية الجاحظ إزاء شخصياته ، فى أنه صورهم بجوانبهم المختلفة ، فى خيرهم وشرهم ، فى جدهم وهزلهم ، فى حبهم وبغضهم ، فى وداعتهم وعنفهم ، فى خبثهم وتخابثهم ، إنها شخصيات إنسانية نابضة بالحياة ، مرتبطة بالواقع ، بكل ما تحمله النفس الإنسانية من إيجابيات وسلبيات .

وارتباطاً بموضوع الواقعية فى البخلاء ، يأتى تركيز الجاحظ على رسم الصور بكل دقائقها وتفاصيلها ، يصل فى بعض القصص إلى حد التعداد

---

(1) البخلاء : ص ٧ .

(2) نفسه ص ٢١ .

السابق التجهيز ، مثل صورة الشيخ الخراساني ، " إذا كان في غداة كل جمعة ، حمل معه منديلا فيه جرذفتان ، وقطع لخم سكباج مبرد ، وقطع جبن ، وزيتونات ، وصره فيها ملح ، وأخرى فيها أشنان ، وأربع بيضات ليس منها بد ، ومعه خلال " . (1)

ويدخل في هذا الباب تصوير العادات والتقاليد في عصره ، كتجهيز العروس في قصة مريم الصناع التي زوجت ابنتها " فحلتها الذهب والفضة ، وكستها المروي والوشي والقز والخز وعلقت المعصفر ، ودقت الطيب ، وعظمت أمرها في عين الختن ، ودفعت قدرها عند الأحماء " . (2)

أما على صعيد حوار البخلاء وأحاديثهم ، فلكل شخصية ألفاظها وتعابيرها ومنطقها ، وصيغها المطابقة لما هي عليه في الحياة ، فالمتكلم يتحدث ويناقش بكلام المتكلمين ، والقاضي ترد على لسانه التعابير الفقهية ، والتاجر يستعمل الألفاظ المتداولة في السوق ، والمكدي واللص كذلك ، فخالويه المكدي مثلا يتحدث عن تجربته في الكدية فيقول : " سل عني صعاليك الجبل ، وزواقيل الشام ، وزط الآجام ، ورؤوس الأكراد ، ومردة الأعراب ، وفتاك نهر بط ، ولصوص القفص .. كيف بطشي ساعة البطش ، وكيف حيلتي ساعة الحيلة ، وكيف أنا عند الجولة " . (3)

وقد ذهب الجاحظ أكثر من ذلك حين أباح لنفسه رواية اللحن والخطأ في النادرة ، إذا ورد كذلك في كلام قائلها ، مراعيا وضع المتكلم ومناسبة الكلام ، وفي ذلك يقول في البخلاء : " وإن وجدتم في هذا الكتاب لحنا أو كلاما غير معرب ، ولفظا معدولا عن جهته ، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب

---

(1) البخلاء : ص ٢٤ .

(2) نفسه : ص ٣٠ .

(3) نفسه : ص ٤٩ .

يبغض هذا الباب ، ويخرجه عن حدّه ، إلا أن أحكى كلاماً من كلام متعاقلى البخلاء ، وأشخاص العلماء " .

والجاحظ يذهب هذا المذهب فى كل مؤلفاته ، إمعاناً منه بالواقعية فى نقل الأخبار ، وسرد الحكايات والنوادر ، وله فى ذلك نظرة ، إذ يرى أن تدخل الكاتب فى تغيير الكلام المنقول ، يبعده عن الواقع من جهة ، ويفقد القارئ المتعة فيه من جهة أخرى ، وفى هذا يقول الجاحظ : " ومتى سمعت – حفظك الله – بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيرّتها بأن تلحن فى إعرابها ، وأخرجتها مخارج كلام المولّدين والبلديين ، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كثير ، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة الطغام ، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب ، أو تتخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذى أريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها " .

خاتمـــة

من الأمور الجديرة حقاً بالتسجيل والملاحظة في تراث الجاحظ الفكرى ، أنه سبق بآرائه عدداً من المفكرين الأجانب ، في بعض القضايا والنظريات العلمية التى انطلقوا بها إلى آفاق واسعة من الشهرة والذيوع ، ونحن لا نستطيع أن نزعم أن هؤلاء المفكرين قد قرءوا للجاحظ وتأثروا به فى هذه القضايا والنظريات ، ولكن الذى نستطيع أن نزعمه ، أنه أولى منهم بهذه الشهرة التى طيرت أسماءهم فى الآفاق ، وأجدر أن يوضع اسمع إلى جانب هذه المواقف الفكرية ، طالما أنه هو الذى راد الطريق إليها ، ولكننا – مع الأسف – مغبونون أبداً ومجهولون أبداً ، لأن الاستعمار الفكرى الذى استبدّ بكل مقدراتنا العقلية والفكرية ، منذ قيام حركة الاستشراق حتى اليوم ، قد استطاع أن يوهن من إيماننا بأنفسنا ، وأن يوهم صغار النفوس وضعاف العقول على فترات متلاحقة من تاريخنا الثقافى الحديث ، بأننا أمة لا تستطيع الإبداع والخلق ، وأنه مقضىّ علينا إلى الأبد بالتبعية الفكرية والاستعمار العقلى ، وأنه يجب علينا دائماً أن نستقطب حول محور واحد لا ننفك عنه أبداً ، هو عطاء الغرب وثقافته ، وبسبب هذه التبعية الجائرة ، كم من شموس لنا أفلت ، ونجوم غابت فى تراثنا التليد .

وعبر هذا التطواف حول بعض الأعمال الأدبية العربية الكبير ، وفى إطار موضوع البحث الذى يمثل جانباً من منظومته الفكرية والإبداعية ، يمكن أن نكوّن خلاصة لنتائجه ، وثمرة للقراءة المستأنية فى هذا التراث الأدبى ، وذلك على النحو الآتى :

- لقد قدّر للجاحظ أن يعيش فى زمن أسهم فيه العرب بأضخم حركة للنقل عرفها تاريخهم ، أدت إلى وضع تراث الأمم الأعجمية التى سبقتهم فى

مضمار الحضارة بين أيديهم ، ومن ثم فإن الثقافة المتنوعة كانت تشكّل بعداً هاماً من أهم الأبعاد التى قامت عليها شخصية الجاحظ .

- أنه فى غمار هذا المنهج الموسوعى للثقافة والمعرفة التى اتسع فيها الجاحظ ، فقد أتاحت لنزعته الأدبية أن تتخذ من الحياة الاجتماعية الواقعية موضوعاً لها ، فأتيح للأدب العربى هذا النوع من الأدب الموضوعى الذى لا تطغى عليه الذات طغياناً كبيراً ، الأمر الذى جعل الجاحظ يتمثل فيه النموذج الحى للأدب ذى الأسلوب المتميز ، والمنهج الواضح ، والرؤيا الاجتماعية والنظرة الموضوعية .

- فى أسلوب رائع فريد ، يجمع بين البناء القصصى والتحليل النفسى ، عالج الجاحظ عيباً من أخطر العيوب الاجتماعية وهو البخل .. تتبّع فيه خصال البخلاء ، واستشف أغوار نفوسهم ، وكشف عن طبائعهم النفسية الخفية ، مفتناً فى تصوير ذلك أسلوب التهكم والسخرية ، ومن ثم فإنه على الرغم من القالب الفنى الذى صيغت فيه قصص البخلاء ، إلا أن غاية الكاتب تحددّت فى الاتجاه الإصلاحى لسلبيات المجتمع ، وهو الاتجاه الغالب على جلّ الأعمال النثرية للجاحظ .

- فيما يمكن أن تكون قد أظهرته هذه القصص بوضوح ، استطاع الجاحظ أن يزاوج بين نزعته الأدبية وصفته العلمية ، مما خلّف شكلاً من أشكال التعبير الأدبى الذى يمتاز برهافة الحسّ ، وقوة الملاحظة ، وقدرة على التغلغل فى دقائق الموجودات ، واستشفاف الحركات النفسية المختلفة .

- فيما افتنّ الجاحظ من أساليب فنية عالج من خلالها قصص البخلاء ، ابتدع فن السخرية والتهكم الذى ارتفع به عن مضارب الابتذال والسفه ، وجعل منه نموذجاً للكوميديا الراقية والإمتاع الهادف .. ومن ثم فقد اتسمت

خاصية الإضحاك عند الجاحظ بالمنهجية ، فهى تمثل جزءاً من نظرته العامة إلى النادرة والدعابة التى استخدمها فى كتاباته الجدية ، كما استخدمها فى كتاباته الهزلية ، حيث يرى أن العقل يتعب من الجد ، ويحتاج إلى الترويح .

على أن السخرية فى بخلاء الجاحظ لها دلالة أخرى إضافة إلى الضحك والإمتاع ، فقد اتخذها لونا من ألوان النقد الذى يوجه سهامه إلى سلبيات المجتمع ، والجوانب الغير سوّية فى نوازع الإنسان .

- أنه بالرغم من أن معالجة موضوع البخل لم يخل منه الأدب القديم ، إلا أن الجاحظ حاز قصب السبق فى إطار المعالجة الفنية التى ارتفع فيها عن الأسلوب الإخبارى – وهو صنع الآخرون – وارتقى بأسلوب معالجته إلى إطار فنى تضمن الكثير من عناصر فن القصة الحديثة .

وقد اتسمت الواقعية التى انتهجها الجاحظ فى قصصه بالواقعية الفنية ، حيث واءم فيها بين واقع اجتماعى ينقل صوره ، ويرصد أحداثه ، وبين المنهج الانتقائى والقالب الفنى الذى تصاغ فيه هذه الأحداث .

- وأخيراً .. فلسنا نتجاوز الحقيقة حين نقرر بكل ثقة ، أن بذور القصة العربية وجذورها ترجع إلى أصول ثابتة فى تراث الأدب العربى ، وهذه المجموعة القصصية المندرجة تحت موضوع واحد ، خير دليل على تأكيد هذا الحكم وتأييده .

أهم مراجع البحث

د. أحمد الأهوانى :

١- القيم الروحية - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - ١٩٦٠ .

د. أحمد محمد الحوفى :

٢- الجاحظ - المجلس الأعلى للشئوت الإسلامية - ١٩٦٤ .

توفيق الحكيم :

٣- فن الأدب - مطبعة الآداب - بدون تاريخ .

الجاحظ :

٤- البخلاء - تح : أحمد العوامرى وعلى الجارم - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩١ .

٥- البخلاء - تح : د. طه الحاجرى - دار المعارف - القاهرة ١٩٧١ .

٦- البيان والتبيين - تح : عبد السلام هارون - مطبعة الخانجى - القاهرة.

٧- الحيوان : تح : عبد السلام هارون - مطبعة مصطفى البابى الحلبى - القاهرة - ١٩٤٥ .

٨- تاريخ التمدن الإسلامى - دار الهلال - بدون تاريخ .

د . سيد حامد النساج :

٩- رحلة التراث العربى - دار المعارف - مصر - ١٩٨٤ .

شارل بللا :

١٠- الجاحظ ومجتمع البصرة - ترجمة د. إبراهيم الكيلانى - دار الفكر للطباعة والنشر - دمشق - ١٩٨٥ .

شفيق جبرى :

١١- الجاحظ معلم العقل والأدب - دار المعارف - ١٩٤٨ .

د. شوقى ضيف :

١٢- العصر العباسى الثانى - دار المعارف - مصر - ١٩٧٥ .

١٣- الفن ومذاهبه فى النثر العربى - دار المعارف - مصر - ١٩٦٥ .

د. طه الحاجرى :

١٤- الجاحظ .. حياته وآثاره - دار المعارف - مصر - ١٩٦٢ .

د. عبد الكريم بلبع :

١٥- النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه - مكتبة وهبه - ١٩٧٥ .

د. على أبو ملحم :

١٦- المناحى الفلسفية عند الجاحظ - دار الهلال - بيروت - ١٩٩٤ .

فاروق سعد :

١٧- مع بخلاء الجاحظ - دار الآفاق الجديدة - بيروت - ١٩٨٣ .

محمد الصادق عفيفى :

١٨- نموذج البخيل فى الأدب العربى والأدب الفرنسى - دار الفكر - ١٩٧١.

د. محمد غنيمى هلال :

١٩- النماذج الإنسانية - معهد الدراسات العربية - ١٩٦٤ .

ياقوت الحموى :

٢٠- معجم الأدباء - مطبعة دار المأمون - القاهرة - بدون تاريخ .

الفهرســـت



قراءة النص الأدبى
بردتا البوصيرى وشوقى نموذجاً

دكتور
عبد الوهاب برانية
مدرس بكلية اللغة العربية إيتاى البارود

(١)

مقدمة نقدية لابد منها :

إذا كان النقد الأدبى يعنى فهم الأدب وتفسيره وتقديره ، وذلك " بتقويم الأعمال الفنية والأدبية وتحليلها تحليلاً قائماً على أساس علمى" ([1]) فإنه بهذا المعنى يعد ذا أهمية قصوى بالنسبة للأديب والقارئ والأدب نفسه ، ولا يمكن الاستغناء عنه لكل واحد منهم بأى حال من الأحوال .

فالأديب : يحتاج النقد فى تفسير آثاره وتقويمها وتقديمها للقراء ، فالناقد يوجه الأديب إلى ما فيه إصلاح عمله ، وتهذيبه حتى يخرج فى صورة لائقة مقبولة .

والقارئ : يحتاج النقد لأنه يفسر النصوص الأدبية ويقدمها له فى صورة تامة ، كما أن الناقد يوجه القارئ كذلك إلى مواطن الحسن والقبح والجودة والرداءة فى النصوص الأدبية والأعمال الإبداعية ؛ إذ ربما أغلق الأمر على القارئ لنقص فى خبرته أو ثقافته واستيعابه ، وربما يسلك بعض المبدعين فى كتاباتهم مسلكاً غامضاً فيلوون الحقائق ويحمّلون النصوص ما لا تحتمل ، فيأتى دور الناقد ليبرز ذلك للقارئ ويكشف له عن مقاصد المبدع ويلفت نظره إلى ما غاب عنه ، وغمض عليه واستعصى على الفهم ، فيزيده بذلك خبرة فى كيفية التعامل مع الأثر الأدبى والحكم عليه وتقديره .

والأدب : نفسه فى حاجة إلى النقد ؛ لأن النقد يوجه الأدباء ويدفعهم إلى الرقى بالأدب والإجادة فيه، فيسعى كل أديب إلى تجويد فنه حتى يحظى بالقبول من القارئ والناقد على سواء ، فالفائدة تعود بالدرجة الأولى على الأدب نفسه ؛ لأن مراقبة المبدع للقارئ والناقد ووضعهما فى اعتباره عند الإنشاء يجعله أكثر دقة وبالتالى يجعل أدبه أحظى بالقبول عند القراء ، وأكثر شعبية وجمهوراً .

([1]) معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب – د / مجدى وهبة وكامل المهندس ، مادة (نقد) مكتبة لبنان بيروت د. ت ٥١٤.

ولما كان النقد الأدبى أكبر مقوم من مقومات العمل الإبداعى ؛ لذا كان من المهم جداً عند دراسة النص الأدبى مراعاة عدة أمور :

١- ذكر الحقائق التاريخية التى تعد بمثابة الباعث على النص ؛ إذ من خلال ذلك يمكن الوقوف على الأثر أو الجو النفسى الذى تتضمنه القصيدة .

٢- عرض الأفكار التى اشتمل عليها النص وتحليلها تحليلاً أدبياً ، حتى تتضح الرؤية للقارئ أو الدارس ، وتتكشف العاطفة من خلال أجزاء النص وعناصره .

٣- شرح بعض الصفات الأدبية والخلقية والنفسية التى انطوى عليها النص الأدبى ؛ لأنها مفردات أساسية فى العملية الإبداعية .

٤- مناقشة النص وقراءته قراءة نقدية تشمل عناصر العمل الأدبى التى تعارف عليها النقاد ، من الفكرة إلى العاطفة والخيال والصورة والموسيقى واللغة وغيرها .

٥- وضع النص فى ميزان نقدى ، ببيان ما له وما عليه وأقوال النقاد ومواقفهم منه وما دار حول النص من مناقشات وما طرح حوله من قضايا وأفكار .

فإذا كانت قراءة النص الأدبى مقرونة بغيره من النصوص بحيث تأخذ طابع الموازنة بين نصين ، فإن الأمر يحتاج إلى صبر وعزيمة ؛ لأنه أشد صعوبة وأكثر خطورة ؛ إذ الوقوف أمام النصوص لاستجلاء أسرارها، والنفوذ إلى أعماقها لاستخراج كنوزها ودررها أمر لا يتيسر لكل قارئ أو دارس ، ولا يستطيعه إلا شخص واسع الإطلاع غزير الثقافة ، كثير القراءة للنصوص دائم الوقوف على الأعمال الإبداعية ، وما دار حولها من رؤى نقدية مختلفة .

وتجدر الإشارة إلى أن مرحلة الموازنة والتحليل للنصوص الأدبية تقوم أو تنهض على عدة عناصر أساسية تكون هى المحاور الخاصة التى يعتمد

عليها الناقد فى قراءته ، ولعل أهم هذه المحاور هـى : العاطفة والخيال ، والصورة والذوق اللغوى الذى يقاس به جمال النص وبلاغته وحسنه ، أو رداءته وقبحه .

فالعاطفة : هى حالة من الانفعال تصيب الأديب عند إحساسه بالتجاوب النفسى مع باعث من بواعث الألم أو الفرح ، وترجمة هذا الانفعال بلغة الأدب إلى تجربة فنية معبرة عن الآلام أو الآمال ، فى أسلوب رائع مشوّق ، وصدق فنى يعكس هذا الفوران العاطفى عند الأديب .

ويرى " د . عبد الحميد المسلوت " أن العاطفة هى انفعال نفس الأديب بالألم المر حين يلقى إليه نبأ محزن ، أو بالسرور والبهجة حين تَدْخُلُ على نفسه أخبار مبهجة ، هذه العاطفة يثيرها الرضى والسخط والألم والأمل ، فتحتشد النفس بالمعانى وتجيش بالخواطر ... " (1) .

فالعاطفة هى التى تكسب النص الأدبى صفة الخلود ، وتمنحه مصدر البقاء دون غيره من النصوص العلمية والصحافية ؛ لذا كانت من أهم عناصر النص الأدبى التى تميزه عن غيره من النصوص العلمية والأخبار العادية بما تظهر من شخصية الأديب ، وتصور من ذوقه ومزاجه وفكره وروحه .

وللعاطفة مقاييس منها : الصدق ، والقوة ، والتنوع ، و الاستمرار فى العمل الأدبى بحيث تتحقق فى كل أجزائه وتبقى وتستمر بالدرجة نفسها من الصدق والقوة والسمو .

فحين تتحقق هذه المقاييس تكون العاطفة هى القوة التى تكمن فى النص الأدبى وتبعث فيه الروح ، أما فى غير ذلك من النصوص فإنها تفتقد تلك القوة المهمة التى تسرى فى أوصال النص وتحمل عناصر بقائه واستمراره ، ونضرب مثلاً لذلك بمرثية أبى العلاء المعرى التى مطلعها :

---

(1) محاضرات فى أدب العصر الجاهلى – د . عبد الحميد المسلوت – القاهرة – د.ت ص ٤٦ .

غيرُ مُجْدٍ فى ملتــــى واعتقــادى
نــوحُ بــاكٍ ولا ترنــم شــــادى

حيث تثير هذه المرثية فى نفس القارئ عاطفة الأسى والحزن ، وتنتقــل إليه إحساس الشاعر ، وتأثره الذى تشبعت به نفسه ومزاجه وروحه وتفكـيره ، ونحو ذلك من عناصر شخصيته ، ثم يتركها إلى أن تدعوه الدواعى لإثارة هذه العاطفة فى نفسه بوفاة صديقه مثلاً ، فيعود إلى مرثية أبى العلاء مرة أخـــرى ليظفر بهذه اللذة النفسية ، وهكذا ...

فالذى دعا المتلقى إلى العودة مرة ثانية إلى النص الأدبـــى بعــد طــول فراق له ، ما يحتوى عليه من عاطفة قوية صادقة تعبر عن شخصية الأديـــب بوضوح ، وتعكس أثراً نفسياً احتواه فى ظل التجربة التى مر بها .

وإذا كانت العاطفة تعطى الأثر الأدبى روحه وتهبه نفحة الخلود ؛ فـــإن الفكرة هى التى تمسك بزمام العمل الفنى ، فلا يجمح بعيداً فى انسيابية ليس لها حدود ، بمعنى أن الفكرة هى التى توضح معالم الأثر الفنى بما فيه من خواطـر وحقائق وأفكار ، يتلاحم بعضها مع بعض لإعطاء العمل الفنى صورتـــه ، أو إطاره الذى ينبغى أن يقوم وينهض عليه ، فأى عمل فنى لا يحيا دون الاعتمـاد على فكرة تحلق بين جوانحه وتنطوى عليها عناصره ، وقد وصف " الدكتــور محمد عبد المنعم خفاجى " كل أدب تتخلف عنـــه الفكرة بأنه أدب ميت خـــامل ضعيف (١) .

وإذا كانت الفكرة عنصراً أساسياً من عناصر العمل الفنى ، فهى - لاشك - فى أمسِّ الحاجة إلى خيال يشرق فى جوانبها ؛ إذ بدون الخيـــال لا يلتفـت إليها ، وتبدو وكأنها شئ لا قيمة له ، " فالخيال هو الذى يضيف إلـــى الفكــرة ظلالاً وألواناً تدنى إلى النفس قبولها وتشيع الاطمئنان إليها " (٢) .

---

(١) انظر النقد العربى الحديث ومذاهبه - د / خفاجى ص ٤٦ .
(٢) محاضرات فى الأدب الجاهلى - د / المسلوت ص ٥٩ .

ولتفسير ذلك أسوق هذا المثال : عندما يقول الأديب معبراً عن فقد صديق عزيز لديه : إنى حزين لموت صديقى ، فإن ذلك لا يترك أثراً فى النفس ، ولا يثير انفعالاً بها ، ولكن هذا الأثر وتلك الإثارة نحسهما بقوة فى قول " الشيخ عبد العزيز البشرى " فى رثاء " حافظ إبراهيم نثراً " [1] : " إننى ما برحت مقروح الكبد لفقده ، ما ترقأ لى عليه دمعة ، ولا تبرد لى كلما ذكرته لوعة " ، أو قوله [2] : " هذه شعبة من قلبى قد انخلعت لموتك ، ولعلها دفنت معك ، وما لها لا تفعل وقد كنتَ بعضى وكنتُ بعضَك فإذا أنا بكيتك فإنما يبكى بعضى على بعضى معى " .

إن الذى عمق الفكرة لدى المتلقى فى كلام البشرى عن حافظ هو عنصر الخيال المحلق الذى رسم هذه اللوحات المعبرة عن المرثى .

فالخيال هو تلك القوة النفسية التى ترسم المشاهد والأحداث والأفكار وتصورها تصويراً رائعاً ، محدثاً أعمق الأثر فى نفس القارئ ، ولذا كان الخيال من أهم العناصر الفنية فى تقويم العمل الأدبى والحكم عليه .

وتتضح أهمية الخيال فى إبراز الفكرة وإثارة المشاعر وإلهاب العواطف فى قول المتنبى مادحاً :

طلبتَهُمو على الأمواه حتى ... تَخَوَّف أن تفتشه السحاب

يهز الجيش حولك جانبيه ... كما نفضت جناحيها العقاب

فالشاعر يكبر همة ممدوحه وسطوته وهيبته ، وقد امتلأت نفسه بالإجلال نحوه ، فأراد أن ينقل مشاعره تلك إلى السامعين فاستخدم الألفاظ القوية الضخمة التى تلائم العظمة والقوة والسطوة والسيطرة والإحكام واستعان فى ذلك بالخيال الذى منحه صوراً طريفة تبعث فى النفس الإحساس بهيبة الممدوح

---

[1] السياسة الأسبوعية عدد ٢ سبتمبر ١٩٣٢م .

[2] قطوف للبشرى دار الكاتب المصرى سنة ١٩٤٧م ٧٤/٢ .

وعظمته ، فصور طلبه للأعداء وتتبعه لهم فى كل مكان بدقة شديدة ، حتى ليخشى السحاب أن يفتشه للبحث عنهم ، كما صور الممدوح وهو يمشى بين جانبى جيشه الذى يهتز قوة وبأساً كالعقاب (وهو طائر من الكواسر) الذى يهز جناحيه باعتبارها مصدر قوة له .

فالمعنى الذى صوره الشاعر هنا كان من الممكن - إذا لم يكن الشاعر على هذه الدرجة الفائقة فى استخدام الخيال وتوظيفه - أن يأتى فى إطار لا يلفت إليه الأنظار ، ولا يستوقف القارئ لحظة ، ولكنه اكتسب قوته وجماله وطرافته أيضاً من هذا الأسلوب الفنى المعتمد على إخضاع الفكرة لعنصر الخيال ، مع التأكيد على استخدام لغة قوية وألفاظ مناسبة للسياق .

والخيال نوعان : بسيط فى صورة واحدة وكلى يجمع عدة صور متشابكة ، تكوّن وحدة فنية ، وأدواته فى النوع الأول : الاستعارة والتشبيه المفردان ، وفى النوع الثانى يبدأ من التمثيل إلى القصة أو الملحمة ، فليستا إلا من قبيل الخيال الكلى بشعرهما أو نثرهما " (1) .

فالمراد بالخيال البسيط : ذلك الذى يعتمد على صورة واحدة فى نسجه ، أو ذلك الخيال الساذج الذى يحمل بعض الرتوش الفنية التى يضيفها الشاعر إلى الصورة فى سذاجة (2) .

والمراد بالخيال الكلى : ما يسمى بالخيال المبتكر أو الابتكارى ، وإن كان فى هذه التسمية شئ من التحفظ ، فكأن من يأتى بخيال مفرد لم يبتكر شيئاً.

ويمكن أن نلمس الخيال بنوعيه فى قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقى فى أبى الهول والتى مطلعها :

---

(1) الأسس الفنية للإبداع الأدبى - د / عبد العزيز شرف ص ٣٨ - دار الجيل بيروت - ط١ - سنة ١٩٩٣م .

(2) نفسه ص ٣٨ ، ٣٩ .

أبا الهول طال عليـــك العُصُـــر   وبُلِّغتَ فى الأرض أقصـــى العُمُـــرْ ([1])

فنرى كيف عبر شوقى فيها تعبيراً يمزج فيه الإعجاب بالفن البنائى بالتاريخ الوطنى ، ويكوّن حول الصورة الحقيقية موضوعات ، ويأتى بالتشبيهات والاستعارات ، وغير ذلك من أدوات الخيال ، فيرسم إطاراً فيه الحقيقة ، وفيه الرتوش ، وفيه كما يقولون : الإبداع والابتكار.

وتجدر الإشارة إلى أن الأديب باستخدام عنصر الخيال فى العمل الأدبى لا يخترع شيئاً غير موجود ، ولكنه ينظر إلى وقائع الأشياء فيحسنها ويجملها ، أو يقبحها بخياله ، ويكسوها بشاعريته ، ويلبسها من عنده ثوبها الفنى الجميل ، ولكنه لايوجد الأشياء من عدم ، ولا يخلقها من لا شئ .

ومن لوازم النص الأدبى كذلك : الصورة الأدبية ؛ إذ هى من أهم الوسائل التى يحاول الأديب بها نقل فكرته وعاطفته معاً إلى قرائه أو سامعيه ([2]) .

والصورة الأدبية هى الإدراك الحسى للأشياء كإدراك ألوان الأشياء وأشكالها وأحجامها وأبعادها وأوضاعها بوساطة البصر ، وإدراك الأصوات والنغمات بالسمع ، وإدراك الطعوم بالذوق ، والروائح بالشم ، وملمس الأشياء باللمس ، أى أن الإدراك الحسى يترتب عليه إدراك المرئيات والمسموعات والمذوقات والمشمومات والملموسات بوساطة الحواس الخمس الظاهرة ، وهى العين ، والأذن ، واللسان ، والأنف ، والجلد ([3]) .

فالإدراك الحسى ذو أثر كبير فى العمل الأدبى ، فإذا كان قوياً واضحاً استطاع المنشئ أو الأديب أن يصف ما يحس وصفاً دقيقاً مطابقاً للواقع .

([1]) الشوقيات أحمد شوقى ١٣٢/١ - ط / المكتبة التجارية الكبرى سنة ١٩٧٩م .

([2]) أصول النقد الأدبى لأحمد الشايب ص ٢٤٦ - ط٤ - مكتبة النهضة المصرية د.ت .

([3]) دراسات فى علم النفس الأدبى - حامد عبد القادر ص ٣١ - ط/ لجنة البيان العربى - المطبعة النموذجية سنة ١٩٤٩م .

وقد اشترط بعض النقاد لجمال الصورة فى العمل الأدبـــى ، ألا تكـون مستنفرة ، بحيث تبدو وحدتها متماسكة مترابطة ، تنمو وتتجه بالقصيدة اتجاهـاً موحداً فإذا تضاربت تضارب اتجاهها ، والمنطق الشعرى يخلق كـأى منطـق آخر نظاماً ونسقاً ، وقد نعجب بصورة مفردة فإذا نحن أرجعناها إلى ســـياقها بدت غريبة وأقل جمالاً (١) .

ولاشك فى أن من لوازم وحدة الصورة فى العمل الأدبى - التى هى مـن أسباب جماله - أن تتوافر فيها وحدة النسج ، بمعنـى اسـتواء لغـة القصيـدة واطرادها على صفة واحدة ، فإذا وُجِد فى لغتها تفاوت وفى نسجها اضطراب ، فإن ذلك يؤثر على قيمتها الفنية ، وعلى جمالها الشكلى .

فالشاعر المجيد هو الذى يوفق بين أنماط التعبير من الألفاظ والتراكيب ، وبين ما يعرض له من مواقف وأغراض شعرية ؛ إذ لا يليق به مثلاً أن يـأتى فى الحماسة بلغة الغزل من رقة وعذوبة وتلطف ، أو يأتى فى المـدح بألفـاظ الهجاء والإقذاع والذم والتنفير والتقبيح ، ولا عكس ذلك كله .

وفى النقد الحديث يرى " د . محمد مندور " (٢) أن الأديب الحق لا يقف فى تحصيله اللغة على معرفة قواعد النحو والصرف ، وإنما يتعدى ذلك إلـى معرفة اللغة معرفة حس وعاطفة ، بمعنى أن يدرك أرواح الألفاظ لا أشباحها ، وما أرواحها إلا الإيحاءات والظلال ، وأما أشباحها فمعانيها المعجمية الباردة ، وهذا الضرب من معرفة اللغة هو من المواهب التى لا يرزقها إلا القليل .

فاللغة خاصية من أهم خصائص الشعر ، يحرص فيها الشـاعر علـى اختيار كلماته خالية من التصنع الممقوت ، الذى لا يلائم فكرته ولا عواطفـه ، ويحرص - أيضاً - على استخدام عناصر اللغـة البيانيـة المكونـة للصـورة الشعرية ، حتى يظفر بالتعبير الدقيق المناسب ، ليوصل ما فى ذهنه إلى القارئ أو المتلقى بوجه عام .

---

(١) الصورة الأدبية - د / مصطفى ناصف ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ - ط / مكتبة مصر د. ت .
(٢) راجع : فى الأدب والنقد - د/ محمد مندور ص ١٨ - ط٣ - القاهرة - سنة ١٩٥٦م.

(٢)

موازنات نقدية :

آثرت قبل الشروع فى تناول قصيدتى " البوصيرى وشوقى " فى مدح النبى ﷺ - بالعرض والتحليل والموازنة والنقد - أن أنتقى عدة مقطوعات شعرية وقطع نثرية فى القديم والحديث ثم أقوم بالموازنة بينها مراعياً العناصر النقدية التى مهدتُ بها فى مقدمة الدراسة ، من حيث الفكرة والعاطفة والخيال والصورة والتعبير ، وهذه الموازنات ضرورة للقارئ والباحث على سواء ، حيث تعتبر بمثابة الكشاف الذى يهتدى به ويسير على ضوئه فى الموازنات التى قد يتعرض لها أو يحاول صنعها فى الآثار المختلفة .

وإليك بعض هذه الموازنات :

١- بين " المتنبى " و " عبد الحميد الكاتب " فى الشكوى من الزمان والتبرم بالحياة : يقول المتنبى (١) شاكياً :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادى فى غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتنى سهام ... تكسرت النصال على النصال

وهان فما أبالى بالرزايا ... لأنى ما انتفعت بأن أبالى

وفى المعنى نفسه يقول عبد الحميد الكاتب (٢) نثراً :

---

(١) المتنبى : هو أبو الطيب أحمد بن الحسين ، كوفى المنشأ ، خرج من الكوفة وعمره بضع عشرة سنة يطلب اللغة فى بادية بنى كلب فالتف عليه قبائلها وشاع ذكره بينهم ، وبلغ أهل الشام أنه تنبأ بينهم فخرج إليه عامل حمص وأسره وسجنه ، ثم أُطلق ، ومدح سيف الدولة الحمدانى أمير حلب ، فقربه إليه وأغدق عليه وعلمه الفروسية ثم حدثت بينهما جفوة فتركه إلى مصر ، ومدح أميرها كافوراً الإخشيدى ثم هرب من مصر وهجاه ، ثم ذهب إلى فارس ماراً ببغداد فمدح عضد الدولة وابن العميد فأغدقا عليه ثم رجع قاصداً الكوفة فقتله الأعراب سنة ٣٥٤هـ قرب بغداد .

(٢) هو عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، نشأ بالأنبار بليغاً حصيفاً ، وصاحب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية أيام ولايته وخلافته حتى قتلا بعد خروج العباسيين عليهما سنة ١٣٢هـ ، ويعد عبد الحميد من أعلام البلاغة العربية وشيخ كتاب الرسائل عامة .

أما بعد فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالمكـــاره والســـروز ، فمــن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته بنابها ذمها ساخطاً عليها ، وشـــكاها مستزيداً لها وكانت قد أذاقتنا أفاويق ([1]) استحليناها ثـــم جمحـــت بنـــا نـــافرة ورمحتنا ([2]) مولية فملح عذبها وخشن ليِّنُها ، فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنـــا عن الإخوان"([3]) .

فالفكرة فى شكوى المتبنى هى : العنصر العقلى فى شعره ، متمثلة فـــى قسوة الدهر عليه ، وعلى غيره ، غير أنه سلط الفكرة على نفسه أولاً وكثفـــها بشكل يدعو إلى تأثر القارئ وتعاطفه مع الشاعر .

والعاطفة : عاطفة إنسان ساخط على الحياة ضائقة بها نفسه ، متبرم بـــها لكثرة ما رمته من المصائب وأذاقته من الأهوال حتى يئس من تحقيق الراحة ، إنه ساخط على الدنيا لأنه لم يحقق فيها آماله ، ولم يذق فيـــها طعـــم الراحـــة والسعادة ، فالمصائب تلاحقه والأرزاء تتناوشه حتى ضعفت قوتـــه وخـــارت عزيمته ، وهان الأمر عليه ولحقه اليأس وسيطر عليه الاستسلام ، فمـــا عـــاد يبالى بما يحدث له ، لأنه جرب المعاناة ولم يتحقق له نفع ، فقد رضـــى بمـــا أصابه وقنع به ، وهو يثير فى قارئه عاطفة مماثلة أو مشابهة لما أحســـه هـــو وعاشه فى حياته ، وقد يثير شفقة القارئ عليه ومشاركته له فى الحس والشعور فيتمنى أن لو قدر على تخفيف أعبائه والحد من معاناته ، ومـــن القـــراء مـــن يحس بتطابق التجربة عليه ، وكأن الشاعر يقصد كل مرزوء ، ويعـــبر عـــن معاناة الآخرين ، وهى صورة من معاناته هو ، فالتجربة عامة ، لأن العاطفـــة

([1]) أفاويق : جمع أفواق ومفرده : فيقة وهو : اللبن الذى يجتمع بين الحلبتيـــن . (المعجـــم الوجيز) .

([2]) رمحتنا : رفستنا أو طعنتنا بما يشبه الرمح .

([3]) انظر : سرح العيون لابن نباتة ص ١٦٥ دار الكتب المصرية .

فيها صادقة وواقعية إلى حد كبير ، حينئذ يتطابق الأثر النفسى بين القارئ والشاعر .

والخيال فى نص المتنبى خيال قوى مؤثر ، وذلك لأن الشاعر لما ألمت به الخطوب وصوب الدهر إليه سهامه الفتاكة فأحدث فيه شروخاً بينة جعلته يسخط على الدنيا كلها ويستسلم لما أصابه وألمَّ به ، فلم يعد يحفل أو يبالى بتناوب الأحداث عليه ، فأراد الشاعر من أجل ذلك كله أن يثير فى القارئ عاطفة مماثلة لما يحس هو به ، فيشاركه فى السخط على الدنيا أو يثير فيه عاطفة الإشفاق عليه ، ولما كانت الألفاظ بمعناها اللغوى أو المعجمى لا تؤدى هذه الوظيفة ولا تساعد الشاعر على تحقيق هذا الغرض فقد عمد إلى طريقة تجسيم المعانى حيث حول المعنويات إلى ماديات ، فجعل الزمن إنساناً أو كائناً يدبر له المكائد ، وجعل المصائب فى صورة نبال يرميه بها هذا الإنسان ، فقد أخذ كل عناصره الخيالية من الطبيعة مستعيناً بالتشبيه والاستعارة فى نسج خيوط هذه الصورة الخيالية .

وأما لغة الشاعر : أو القالب الذى صب فيه هذه المعانى ، فقد اختار أنسب الكلمات التى توافق عاطفته ، فكلها كلمات توحى بالسخط على الدنيا والتبرم بالحياة والاستسلام للخطوب والأرزاء ، ومنها كلمات : (رمانى – الدهر – الأرزاء – نبال – أصابتنى – سهام – تكسرت – النصال – وهان فما أبالى – الرزايا) وهى كلها ألفاظ تحمل معانى الضيق بالحياة والسخط على الدنيا فجاءت موافقة لعاطفة الشاعر مؤدية للغرض الذى استهدفه من شعره .

ولقد وفق الشاعر فى اختيار الوزن الشعرى الذى يناسب تبرمه بالحياة وثورته على مصائبها المتوالية ثم استسلامه وعدم مبالاته لما توجهه إليه من ضربات ، فجاءت أبياته على وزن (بحر الوافر) مفاعلتن مفاعلتن فعولن ، ولاشك فى أن ما يحمله هذا البحر من توالى عدة متحركات فى كل تفعيلة قد

يهيئ للشاعر فرصة للتعبير عن ثورته والتنفيس عن براكين الغضب والرفض التي تمور في وجدانه ، فهذا الوزن قد ساعد الشاعر بما فيه من موسيقى غاضبة على تحقق هذه الثورة وإزكاء روح الانفعال .

وفى قطعة " عبد الحميد " : يعبر الكاتب عن حقائق صادقة حين يطرح فكرته ، حيث عبر عن مرحلتين فى حياته : مرحلة النعيم والسرور فى ظلال الخليفة " مروان بن محمد " آخر خلفاء بنى أمية يوم كان عبد الحميد كاتب ديوانه ومن خواصه المقربين منه ،ومرحلة البؤس والشقاء يوم ثار العباسيون على الخليفة وانتصروا عليه وطاردوه وشردوا معه خاصته ، هنا أحس " عبد الحميد الكاتب " مرارة الحياة وقسوتها ؛ لأنه ذاق حلاوتها من قبل ، واليوم يتجرع كأس المرارة ولا يكاد يسيغه .

وعاطفة الكاتب : قوية مؤثرة وصادقة ، لأنه يشعر بالحزن والأسى لفراق أيام الهناء والسعادة ، فقد كان يعيش فى عز ونعيم مقيم ، ثم ارتحل النعيم وفارقه العز ، ولبس ثوب الذل والمهانة وصار طريداً شريداً ، معرضاً للأسر أو القتل ، فمن خلال رسالته هذه يبرز آثار هذه التقلبات فى حياته على نفسه وعواطفه ، ويحاول مع ذلك أن ينقل هذا الأثر النفسى إلى مشاعر قارئه ليشاركه عاطفته .

والخيال فى رسالة عبد الحميد الكاتب ثرى ؛ ذلك أنه لما أراد نقل عاطفته إلى القارئ وجد أن الألفاظ لا تسعفه فى بث تلك العاطفة وإثارة المتلقى بما حدث له ، ومن هنا لجأ إلى الخيال ليجعل آلامه فى صورة بارزة ، ويصورها فى إطار يقربها إلى الأذهان ، ويهيئ المشاعر للانفعال بها – فالدنيا مثل وحش كاسر إذا عضت بنابها إنساناً تركته فى حالة من البؤس والعذاب والمعاناة لا مثيل لها ، ولم يكتف الكاتب بهذه الصورة بل أضاف إليها صورة أخرى تزيدها وضوحاً ، حيث رسم الدنيا فى صورة ناقة كانت وطيئة المركب

أليفة وفيَّة ثم تحولت إلى ناقة جموح نافرة لا يقدر على سياستها أحد ، وجعل أيام الهناء التى عاشها وتمتع بها فى صورة لبن سائغ للشاربين ثم سرعان ما انقطع وخلف وراءه ظمأ لا رواء منه .

وتعبيرات عبد الحميد دقيقة موفقة غاية التوفيق ، حيث اختار الكاتب لأفكاره وعاطفته وخياله ألفاظاً تتناسب مع مقاييس كل عنصر منها وتؤدى إلى إقناع القارئ بمضمونها أو بما يحاول الكاتب أن يتركه فيه من أثر .

فألفاظه توحى بالمعنى الذى أراد ، وتنقل التجربة بصدق ، وتساعد على تصوير ما فى نفسه من حسرة وألم ، فاختار للتعبير عن حياته فى تينك الفترتين : (السعادة والشقاء) ألفاظاً تحمل معنى هذه وتلك ، واستخدم أسلوب المطابقة بين المعانى لإيضاح الصورة فيقول مثلاً : (ملح عذبها وخشن لِيُنُها) فقد صارت الحياة العذبة المستساغة ملحاً أجاجاً تمجه النفس ولا تقدر على تذوقه ، والعيش اللين الوثير تحول إلى خشن حريش . بمثل هذه المطابقة الدقيقة يحكم للكاتب بالبراعة والتفوق حيث استكملت رسالته كل عناصر العمل الفنى التى توصله إلى الجودة .

٢- فى وصف الفجر بين الشاعرين : " إبراهيم ناجى " و " على محمود طه " " الملاح التائه " : يقول ناجى ([1]) :

يطلع الفجر مرهقاً شاحب النو	**ر عليه الكلال والإعياء**
وبنفسى دبٍّ المساء وحل الليـ	**ل من قبل أن يحين المساء**

([1]) إبراهيم ناجى : شاعر مصرى حديث ، ولد فى ١٨٩٨/١٢/٣١م وتلقى تعليمه فى المدارس المصرية حتى التحق بكلية الطب ، وبعد تخرجه فيها عمل طبيباً ، وتغلب عليه الجانب الإنسانى فى عمله ، وبرع فى كتابة الشعر وله عدة دواوين منها : ليالى القاهرة، ووراء الغمام ، والطائر الجريح ، ثم (ديوان ناجى) وتوفى إبراهيم ناجى فى ٢٤ مارس سنة ١٩٥٣م مخلفاً وراءه ثروة شعرية هائلة تذكره بها الأجيال المتتالية .

ويقول فى الغرض نفسه على محمود طه [1] :

أقبل الفجر فى شفوف رقاق	**يتهادى فى منظر خلاب**
حلل من وشائج النور زهر	**يتماوجن فى حواشى السحاب**
وإذا الشاطئ الضحوك تغنى	**حوله الطير بالأغانى العذاب**
ونسيم الصباح يعبث بالغا	**ب ويثنى ذوائب الأعشاب**

فالفكرة فى المقطوعتين توحى بمعنى مختلف فى كل منهما عن الأخرى ، فإبراهيم ناجى صور الفجر حين يطلع على الدنيا كما لو كان إنساناً متعباً شاحب الوجه قد أصابه الإعياء ثم صور نفسه الحزينة الكئيبة وقد حل بها الظلام قبل أن يسدل الليل أستاره على الدنيا ، ثم جاء الليل فاختلط ظلامه بظلام نفسه الحزينة .

أما " على محمود طه " فقد صور الفجر على خلاف ذلك ، فإذا كان " ناجى " قد رسم له صورة قاتمة كئيبة ، فإن الملاح التائه قد صوره بصورة ضاحكة مستبشرة تبعث فى النفس التفاؤل وتبث الأمل وتجدد الحيوية والنشاط ، فالفجر يقبل فى ثياب رقاق ويدخل الدنيا متمايلاً فى هدوء ، فيستقبله الشاطئ مبتسماً حين يراه موشحاً بأشعته الهادئة ونوره الوقور .

ثم أبرز الشاعر انعكاس هذه اللوحة الجميلة على سائر الكائنات الحية ، فالأمر – إذن – غير قاصر على الآدميين ، بل كل الكائنات تحس بالبهجة وتشعر بالفرحة وتستقبل هذا النور الهادئ بالبشرى ، وضرب مثلاً بالطيور فى أعشاشها فهى أول من يستقبل هذا النور ويرقب مجيئه ، لأنه بداية انطلاقها من

---

[1] على محمود طه : هو الشاعر المهندس على محمود طه ، اشتهر بلقب الملاح التائه ، ولد بالمنصورة سنة ١٩٠٢م وانتقل إلى القاهرة ، حيث نشر بعض أشعاره فى مجلة أبولو وتوفى سنة ١٩٤٩م .

أوكارها ، والأغصان والأعشاب تهتز طرباً للقائه ، لأنه يأتى بالنسمات الهادئة التى تلاطف الطبيعة وتلثم صفحتها الخضراء .

وعاطفة إبراهيم ناجى فى البيتين حزينة كئيبة تعكس ما تحتـوى عليـه نفس الشاعر من رؤية سوداوية للدنيا ، فالشاعر لا يرى إلا الظلام الذى حـل بنفسه قبل أوانه ، ولا يسمح لبصيص من النور أن يتسرب إليه ، وما ذلـك إلا نتيجة للمآسى التى لحقت به فى حياته فلونتها بهذا اللون القائم وجللتـها بـهذا الرداء المظلم حتى انعكس ذلك على نفسه التى تغنت بالألم ودغدغت الخطـوب والمحن ، فصبغتها بروح اليأس والحزن .

ولكن عاطفة " على محمود طه " مرحة مجللة بهالات من النور والجمال والإشراق ، ترى ما فى الكون من جمال وتعمى عن رؤية القبح فيه ، ومن هنا يمكن أن نقول : إن كل واحد من الشاعرين صادق فى عاطفتـه ، لأنـهما لا يفتعلان هذه العاطفة ، بل يعبر كل منهما عما يحسه ومـا يمـور فـى نفسـه ووجدانه ، وعن رؤيته للحياة ، وطبعى أن ينعكس ذلك على مظاهر الطبيعـة ، لأن كل شاعر يصبغ الحياة بريشته التى تناسب وجدانه ومزاجه .

وأما الصور والأخيلة : فنرى أن كل واحد من الشاعرين قد أتى بالصور المجازية واستعان بالتشبيه والاستعارة لتوضيح المعنى الذى أراده .

فإبراهيم ناجى مزج بين الليل والفجر مع أن الليل حين يـأذن بـالرحيل ويلملم أطراف ثيابه ويطوى أوراقه يكون ذلك إيذاناً بفجر جديد تشرق به الدنيـا وتسعد به الخلائق ، لكن الشاعر " ناجى " لم يجد فى نفسه الحزينة مـا يمـيز الليل عن النهار ، فالمساء يحل قبل أوانه ويأتى الليل ليجد نفسه فى ظلام الحزن فيزيد الصورة تعتيماً .

والشاعر " على محمود طه " يصور الشاطئ حين قدوم الفجـر بإنسـان يضحك من المنظر الخلاب ، والطيور تتغنى بالأغنيات العذاب ، والأغصـان تهتز طرباً أو تتراقص فرحاً بقدوم هذا الوافد الجديد .

وإذا كان الشاعر " على طه " قد سيطر عليه الشعور بالفرحة ومتعة الإقبال على الحياة واستقبالها مع طلعة الفجر استقبالاً حسناً بالطرب والبشرى فإن الشاعر " إبراهيم ناجى " قد سيطر عليه الشعور بالتعب والإرهاق ، ولذا رأينا نفسه مضطربه حزينة بائسة وقد انعكس كل شعور على شعر صاحبه ، فإبراهيم ناجى صور الفجر حين يقدم بإنسان مريض قد أصابه الإعياء على حين نرى " على طه " يصور الفجر بفتاة عليها ثياب شفافة رقيقة تتمايل قادمة فى هدوء وجمال ، ويا بعد ما بين الصورتين !

والأسلوب عند الشاعرين مختلف ، حيث جاء كل منهما بألفاظ تناسب حالته الشعورية ، فناجى أراد التعبير عن تشاؤمه ونظرته الضيقة لصورة الفجر فاختار الألفاظ التى توحى بذلك مثل : (مرهقاً – شاحب – الكلال – الإعياء) كما لا يخفى ما فى كلمة (دبٍّ) من أثر فى إبراز تسلل الحزن إلى نفس الشاعر ، وكذلك فعل " على طه " غير أنه اختار ألفاظاً على النقيض من ذلك . فألفاظه تعبر عن البهجة والمرح والسرور مثل قوله : (وشائج – يتماوجن – الضحوك – الأغانى العذاب – نسيم الصباح) فجاء التعبير صادقاً موافقاً لما يحس به الشاعر من عواطف البهجة والفرح والطرب للحياة .

٣- بين شوقى والكميت :

قال الكميت (١) معبراً عن رأيه فى حكم الأمويين :

فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى مساوئهم لو كان ذا الميل يعدل

وعُطِّلت الأحكام حتى كأننا على ملة غير التى نتنحل

---

(١) هو الكميت بن زيد ، كان شاعراً خطيباً ، نشأ فى الكوفة وتأدب على علمائها ، وأخذ عن الأعراب وعالج الشعر حتى نبه شأنه ، واتصل بالولاة والهاشميين يمدحهم وينال عطاياهم ، وقد عانى كثيراً من تشيعه لآل البيت وتوفى سنة ١٢٦هـ . راجع ترجمته فى الأغانى للأصفهانى ج١٨ وخزانة الأدب ج١ .

كلام النبيين الهداة كلامنا وأفعال أهل الجاهلية نفعل

فتلك ملوك السوء قد طال حكمهم فحتَّام حتَّام العناء المطول ؟

وقال شوقى ([1]) واصفاً ما كان بمصر من انقسام وتناحر بين الأحزاب :

إلام الخلفُ بينكمو إلا ما وهذى الضجةُ الكبرى علاما ؟

وفيم يكيد بعضكمو لبعض وتبدون العداوة والخصاما ؟

ولينا الأمر حزباً بعد حزب فلم نك مصلحين ولا كراما

جعلنا الحكم تولية وعزلاً ولم نعد الجزاء والانتقاما

وسسنا الأمر حين خلا إلينا بأهواء النفوس فما استقاما

فالكميت بن زيد كان شيعياً متعصباً للعلويين ، شديد الولاء لهم ، عظيم الإخلاص لدعوتهم ، ناقماً على بنى أمية اضطهادهم آل البيت واستئثارهم بالخلافة ، وهو فى هذه الأبيات يندد بحكم الأمويين ويدعو إلى بغضهم ويتمنى زوال سلطانهم وعزهم .

أما أحمد شوقى فهو شاعر عاش فى العصر الحديث فى مصر ، وشهد الأحداث والتقلبات السياسية التى منيت بها البلاد ، ورأى تناحر الأحزاب

([1]) أحمد شوقى : هو الشاعر الناثر ، ويلقب بأمير الشعراء ، انحدر من أصل تركى ، ولكنه ولد بمصر ونشأ فيها ، واستظل برعاية البيت المالك منذ مولده ، وتعلم فى مدرسة الحقوق وسافر إلى فرنسا ، ثم صحب الخديو ، ونال حظاً وافراً فى صحبته ، وعندما شبت الحرب الكبرى ١٩١٤م ارتحل عن مصر واختار أسبانيا مقراً له هو وأسرته حتى استقر السلام العالمى فأذن له فى العودة إلى مصر .

وكان رحمه الله شاعراً مجيداً نظم أفخر الكلام ، وأصاب أرفع المعانى ، وله نثر جيد ، واشتهر بعدة روايات تاريخية لعل أشهرها : مصرع كليوباترا وتوفى رحمه الله تعالى فى سنة ١٩٣٢م هامش المنتخب من أدب العرب ٢/٥٢٥ طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر سنة ٢٠٠١م .

ومحترفى السياسة وما أدى إليه من تفرق الأمة والعبث بمقدراتها من أجل تحقيق المصالح الشخصية ، فعبر عن ذلك فى قصيدته التى اجتزأنا منها عدة أبيات .

وتبدو الفكرة متقاربة عند الشاعرين ؛ إذ كلاهما يندد بسياسة فئة معينة من الحكام ، فالكميت يندد بسياسة الأمويين وحكمهم . مبيناً أن سكوت المسلمين على مساوئهم وأفعالهم هو الذى دفعهم إلى الظلم والفساد ، فعطلوا بعض أحكام الدين ، وعادوا بالناس إلى حياة الجاهلية ، فأذكوا روح العصبية وأثاروا الفتن والحروب ، ثم دعا " الكميت " إلى الثورة على الفساد وإزاحة الظلم وإقامة مجتمع عادل ، ولن يتحقق ذلك إلا بالقضاء على رموز الفساد وإزالة ملكهم .

والأمر قريب منه عند " شوقى " ؛ إذ هو يحارب فساد الأحزاب السياسية ، منكراً عليها ما بينها من فرقة وانقسام وعداء وتخبط ، شغل هذا البلد عن مكافحة المستعمر البغيض ، ثم يقرر " شوقى " أن المطامع الشخصية والأهواء النفسية هى التى سيطرت على قيادات هذه الأحزاب ، فجعلت كلاً منها يسعى لتحقيق مصالحه وأهدافه دون مراعاة صالح الأمة فأدى ذلك إلى فساد الأحوال وتعثر خطوات الإصلاح فى شتى المجالات .

وعاطفة الشاعرين : فيها صدق وقوة ، فالكميت يبدى إخلاصه للعلويين وبنى هاشم وسخطه على الأمويين ، وكذا تبدى العاطفة غيرته الشديدة على الدين وآلامه النفسية لتعطيل أحكامه ، ثم أمله الكبير فى عودة الحكم إلى مستحقيه شرعاً لأن ذلك – من وجهة نظره – هو سبيل خلاص المسلمين من العناء والظلم .

و " شوقى " تبدو عاطفته الوطنية فى الأبيات واضحة جلية ، فحرصه على الوطن وانتماؤه الشديد وغيرته على مصالحه ومقدراته كل ذلك جعله يثور فى وجه الأحزاب السياسية المتناحرة متمنياً أن ينصرف كل حزب عن الجرى وراء مطامعه مؤثراً العمل لصالح البلاد .

والخيال فى النصين محدود ، إذ المقام يستدعى استخدام الحقيقة لإبراز الفكرة ، حيث يقتضى الموقف الإقناع بها والكشف عنها .

ولذا جاء الخيال متوارياً إلى حد كبير فى هذين النصين ، ومع ذلك لا تعدم الصورة الخيالية فى قول الكميت :

فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى مساوئهم ....

حيث استعار النوم للسكوت عن مظالم بنى أمية ، وهى استعارة تبرز المعنى دقيقاً رائعاً .

وأما **الأسلوب** عند الشاعرين فهو أسلوب خطابى يناسب الشعر السياسى. الذى يدعو إلى الثورة على الفساد والظلم ويحمس فئات الشعب للنهوض والاستيقاظ ، وفى أسلوب الكميت كثير من الجمل الإنشائية مثل : (حتام حتام) أو التقديم والتأخير مثل قوله : (أمثال أهل الجاهلية نفعل) والاستفهام الكثير عند الشاعر يدل على ضيقه ببنى أمية ورغبته فى التخلص منهم .

ويكثر الاستفهام كذلك فى أبيات أمير الشعراء ، فهو يدل على ما يملأ نفس الشاعر من أسى وما يفيض به قلبه من حزن ، مصدره ما أصاب الأمة من تفرق وتمزق .

والبيت الخامس رائع فى بيان مدى الاضطراب الذى لحق بسياسة البلاد حيث خضعت للأهواء وسيطرت عليها المفاسد والمطامع الشخصية .

وقد تعاونت كل هذه العناصر الفنية لإبراز الفكرة فى النموذجين حيث يتفق الشاعران فى أن كلاً منهما يصور الفساد فى أنظمة الحكم وانحرافها عن الواجب ، غير أن الكميت يدعو إلى الثورة والغضب بدافع حرصه على الدين ورد الحقوق المغتصبة – فى رأيه – إلى أصحابها الشرعيين من آل البيت ، وشوقى يدعو إلى الثورة على الأحزاب المتفرقة ، ففكرة الكميت مبعثها الدين والسياسة ، وفكرة شوقى مبعثها الوطنية ، وقد استطاع كلاهما أن يخدم الفكرة التى حرص عليها ، مستعيناً فى سبيل ذلك بكل الوسائل المتاحة .

(٣)

عن البوصيرى وشوقى :

١- **البوصيرى :** هو محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن سرور بن حيـــان ابن عبد الله بن ملاك الصنهاجى، ينحدر من أصل مغربى، حيث ينتمى إلى بنى حبنون وهم فرع من قبيلة صنهاجة التى عاشت ببلاد المغرب ([١]).

وقد اختلف المؤرخون فى تحديد مسقط رأسه ، فذكر المقريزى أنه ولـــد بدلاص بلدة أمة ، وأما ابن تغرى بردى فذكر أنه ولد ببهشيم من أعمال البهنسا التى تلحق بها مدينة دلاص الواقعة غربى النيل .

وكما اختلفوا فى موطنه – فقد اختلفوا فى العام الذى ولد فيه ، فقيـــل : ولد فى عام ٦٠٨هـ وقيل : ولد ما بين الأعوام السابع والثامن والعاشر مـــن القرن السابع الهجرى .

وعن حياته الثقافية يقول " محمد سيد كيلانى " محقق ديوانه : " ليس لدينا من أخبار البوصيرى ما يكشف لنا كيف قضى طفولته أو صباه ، غير أنه يمكن القول بأنه بدأ حياته الدراسية كما كان يبدؤها معاصروه ، وذلك بحفظ القرآن ، ثم جاء إلى القاهرة والتحق بمسجد الشيخ عبد الظاهر – ثم علق المحقق علـــى هذا المسجد قائلاً : بحثنا عنه فى كتب التاريخ فلم نعثر على شئ .. حيث درس العلوم الدينية وشيئاً من علوم اللغة والصــــرف والعـــروض كمـــا درس الأدب وجانباً من التاريخ الإسلامى ، وبخاصة السيرة النبوية ، وربما يكون قـــد درس فى مساجد أخرى غير مسجد الشيخ عبد الظاهر " ([٢]) .

([١]) راجع : مقدمة ديوان البوصيرى بتحقيق محمد سيد كيلانى ص٥ مكتبة مصطفى البـــابى الحلبى بمصر الطبعة الثانية ١٩٧٣م .

([٢]) السابق ص ٦.

وقد درس البوصيرى التصوف ، وتتلمذ على أبى العباس المرسى خليفة أبى الحسن الشاذلى وانتمى إلى الطريقة الشاذلية وكتب قصائد يمدح فيها الشاذلى والمرسى . فمن قوله عن المرسى :

سيف من الأنصار ماض حدُّه فاضرب به فى النائبات وهدِّد

ومن ذلك قوله :

فاصحب أبا العباس أحمد آخذاً يد عارف بهوى النفوس ومنجد

فإذا سقطت على الخبير بدائها فاصبر لمر دوائهِ وتجلد

وإذا كان البوصيرى قد درس مناقب الصوفية وتعلم أصولها ومدح أقطابها إلا أنه أخفق فى تشرب تعاليم المذهب يقول محقق الديوان :

" أراد البوصيرى أن يكون صوفياً فأخفق .. فلم يستطع أن يتشرب تعاليم الشاذلى ، وإننا لنجد فى أخلاقه وحياته المنزلية ما لا يتفق مع أخلاق الصوفية . ثم إنه كان رب أسرة كبيرة ، فاضطر أن يمدح الأمراء والوزراء ، وقد يكون فيهم الظالم الذى يستحق القدح ، وليس هذا من شأن الصوفية ، الذين كان الحكام يتزلفون إليهم ، وعلاوة على ذلك فإن البوصيرى كانت تغلب عليه الدعابة ، وقد عرف بها بين الناس ، حتى فضله بعضهم على الجزار : أحد من اشتهروا بالدعابة فى ذلك الوقت ، وكل هذا وغيره لا يتفق مع طابع التصوف ، أما البوصيرى كشاعر ، فإنه تأثر بالتصوف إلى حد كبير " ([1]) .

ومن يقرأ ديوان البوصيرى يجد فيه شعراً متعدد الأغراض من مدح وهجاء ودعابة ونقد للمجتمع ، غير أن جل شعره كان فى المديح النبوى يقول " عبد العال الحمامصى " : " لقد عاش البوصيرى فى مكابدة وضنك ومسبغة .. وانعكست ظروف العصر القاسية على حياته وشعره .. ولكنه وجد الخلاص

([1]) مقدمة ديوان البوصيرى تحقيق : محمد سيد كيلانى ص ٢١ .

الحقيقى فى التمسك بدينه والالتجاء إلى حمى رسول الله - ﷺ - يلوذ بكنفه .. إلى أن توفاه الله عام ٦٩٦هـ وله مسجد معروف فى مدينة الإسكندرية بالقرب من ضريح شيخه : أبى العباس المرسى " ([1]) .

ومن أشهر القصائد فى مدح النبى - ﷺ - بردة البوصيرى التى مطلعها:

أمن تذكر جيران بذى سلم   مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وقد زعم بعض من قرأها وعلق عليها أنه قالها فى مرضه ، وكان قد فُلِجَ ، فنظمها متوسلاً بها إلى رسول الله - ﷺ - فشفى من مرضه ، وبعضهم يبالغ فيقول : إنه - ﷺ - أكمل له بعض أبياتها .

وقد أبطل محقق ديوانه دعوى إصابته بالفالج ببيت من شعره حيث قال يشكو من امرأته الولود :

أو هذه الأولاد كلهمو   من فعل شيخ ليس بالقوام ؟

فهو رجل يأتى زوجته وينجب منها وهو شيخ بلغ من الكبر عتياً ، فهل يستطيع هذا رجل أبطل الفالج نصفه كما قيل ؟

فكل ما أشيع عن البردة كما يقول " الحمامصى " ([2]) : هو من نسج الخيال ، الخيال الذى أذكاه الواقع الصوفى المتأجج فى عصره .. ثم إن ديوانه الذى حققه الأستاذ " محمد سيد كيلانى " لم ترد فيه قصيدة تذكر الفالج الذى أصابه ، وقد كان البوصيرى مثلاً للطبع المصرى الفضفاض الذى يحب أن يتحدث بكل ما يقع له .

وقد ذكر لنا أدق تفاصيل حياته ، حتى ما كان يحدث بينه وبين امرأته من شجار ، أفلا يذكر شيئاً عن مرضه الخطير الذى أقعده وألزمه بيته وفراشه كما قيل ؟

([1]) البوصيرى المادح الأعظم للرسول - عبد العال الحمامصى ص ٣٨ دار المعارف ١٩٧٨م.

([2]) راجع : البوصيرى المادح الأعظم للرسول ص٢٦ ، ٢٧ بتصرف ومقدمة ديوان البوصيرى للمحقق .

وإذا كانت القرائن المادية تنفى أن يكون البوصيرى قد قالها فى مرض شديد وأتمها له الرسول - ﷺ - حيث لم يرد فى الديوان شئ من هذا القبيلى إلا أن بعض النقاد لم يستبعدوا ذلك وإن لم يشبر إليه الشاعر فى ديوانه ، يقول د. زكى مبارك : " ونرى أن البوصيرى صادق فى رؤياه ، لأن قوة الإيمان تؤثر أبلغ التأثير على الجسم ، ولاسيما إذا تذكرنا أنه لم يزد على أن قال : إنه وجد فى نفسه نهضة ، وذلك أقل ما ينتظر لرجل مؤمن يرى الرسول - ﷺ - فى المنام ، ويسمع منه التشجيع " (1) .

وقريب منه ما أشار إليه " عبد العليم القبانى " فى مقال بمجلة الهلال عدد أغسطس ١٩٧٣ بعنوان: " البوصيرى – إمام المادحين " حيث يقول : " قيل إن الرسول الكريم أتم بعض أبياتها للشاعر – فى رؤيا منامية – حين عجز الشاعر عن إتمامها ، مع وجود نصوص قرآنية قد تتعارض مع هذا القول ، منها : " وما علمناه الشعر وما ينبغى له " فقد قالوا : إن هذا لا يمنع من القول بأن اشتغال الشاعر بموضوع قصيدته ، قد مهد له السبيل إلى هذا الرؤيا " .

ولعل الذى آثار هذا الخلاف حول البردة قول البوصيرى :

" كنت قد نظمت قصائد فى مدح الرسول - ﷺ - ، منها ما كان اقترحه علىَّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير . ثم اتفق بعد ذلك أن أصابنى خِلْطُ فالج أبطل نصفى ، ففكرت فى عمل قصيدتى هذه : البردة ، فعملتها ، واستشفعت بها إلى الله فى أن يعافينى ، وكررت إنشادها ، وبكيت ودعوت ، وتوسلت ونمت ، فرأيت النبى - ﷺ - فمسح على وجعى بيده المباركة ، وألقى علىَّ بردة ، فانتبهت ووجدت فىَّ نهضة ، فقمت وخرجت من بيتى ، ولم أكن أعلمت بذلك أحداً ، فلقينى بعض الفقراء ، فقال لى : أريد أن تعطينى القصيدة

---

(1) المدائح النبوية فى الأدب العربى د. زكى مبارك هامش ص ١٩٧ ط/ الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة ذاكرة الكتابة عدد ٤٨ سنة ٢٠٠٣م .

التى مدحت بها رسول الله – ﷺ – ، فقلت : أيَّها ؟ فقال : التى أنشـأتها فـى مرضك ، وذكر أولها ، وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهى تنشد بين يـدى رسول الله – ﷺ – ، فرأيت رسول الله – ﷺ – يتمايل وأعجبته ، وألقى علـى من أنشدها بردة ، فأعطيته إياها ، وذكر الفقير ذلك ، وشاع المنـام ، إلـى أن اتصل بالصاحب بهـاء الدين بن حنا ، فبعث إلىَّ ، وأخذها ، وحلف ألا يسمعها إلا قائماً حافياً مكشوف الرأس ، وكان يحب سماعها هو وأهل بيته ، ثم إنه بعد ذلك أدرك " سعد الدين الفارقىّ " رمدٌ أشرف منه على العمى ، فرأى فى المنـام قائلاً يقول له : اذهب إلى الصاحب ، وخذ البردة ، واجعلها علـى عينيـك ، فتعافى بإذن الله عز وجل . فأتى إلى الصاحب ، وذكر منامه فقال : ما أعـرف عندى من أثر النبى – ﷺ – بردة ، ثم فكر ساعة وقال : لعل المـراد قصيـدة البردة التى للبوصيرى . يا ياقوت افتح الصندوق الذى فيه الآثـار ، وأخـرج القصيدة التى للبوصيرى ، وأت بها ، فأتى بها ، فأخذها سعد الدين ، ووضعـها على عينه ، فعوفى ، ومن ثم سميت البردة ، والله أعلم " (1) .

هذا وقد ذكرنا بعض ما دار حول نسبة هذا الكلام للبوصيرى – رحمـه الله تعالى – وسوف نتناول فى مبحث قادم إن شاء الله تعـالى هـذه القصيـدة ونهجها لأحمد شوقى بالتحليل والنقد نسأل الله العون .

٢– أحمد شوقى ونهج البردة :

هو أمير الشعراء ، كان ميلاده سنة ١٨٦٩م حين كانت مصر فى تـاج تركيا ، أرادت له الأقدار أن يكون أمير الشعر الحديث ، فكان مولـده بقصـر الخديو إسماعيل ، ومرباه فى ربوع العز والجاه ، ونشأ نشأة مترفـة أرادتـه شاعراً ، فوهب الشعر رقراقاً وهو لا يزال طالباً فى المرحلة الثانوية . يحصـل

(1) راجعه فى ديوان البوصيرى .

العلوم فيصوغها شعراً بديعاً مثل قوله فى قارة إفريقية ذاكراً موقعها الجغرافى ومطامع الغرب فيها :

إفريقيا قسم من الوجود ... فى شكله أشبه بالعنقود

وذلك العنقود فى الماء انغمر ... ما أملح الماء وما أحلى الثمر !

مدت إليه يدها أوربا ... من فوقه كمن يريد الحبا

وقد أغرى هذا النبوغ المبكر القصر باحتضانه ، والإنفاق عليه فى مراحل التعليم المختلفة بمصر ، أو فرنسا لدراسة الحقوق حتى أتمها وتعلم الفرنسية والإنجليزية والتركية ثم عاد ليستقبله القصر ، ويتلقى ثمرة رعايته ، فكان شوقى وفياً للخديو ولأبنائه من بعده وفى ذلك يقول :

أألخوان إسماعيل فى أبنائه ... ولقد ولدت بباب إسماعيلا

وبقى شوقى قرابة النصف القرن يتغنى للقصر ويعبر عن رأيه ويتحرك فى إطاره ، حتى إذا كانت الحرب العالمية الأولى عام (١٩١٤ — ١٩١٨م) دق ناقوس الخطر ، حيث كان الخديو عباس فى تركيا فحال الإنجليز بينه وبين العودة إلى مصر ، وحالوا بين شاعره وبين الذهاب إليه فى تركيا ، وفى هذا الجو من الرهبة وسيطرة الأحكام العرفية ، نفى شوقى إلى الأندلس مع أفراد أسرته فأقام بها مدة الحرب ثم عاد إلى مصر ليغير وجهته ، فيصبح شاعر الشعب بعد أن كان شاعر القصر أو الأمير .

وفى سنة ١٩٢٧م بايعه الشعراء العرب بإمارة الشعر ورددوا مع شاعر النيل حافظ إبراهيم قوله :

أمير القوافى قد أتيت مبايعاً ... وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

وقد قيل فى الباعث على نهج البردة : إن شوقى رحمه الله قد مرض فى أخريات حياته بمرض عضال ، فنذر إن شفاه الله وعافاه لابد أن ينهج نهج البوصيرى فى مدح رسول الله – ﷺ – بقصيدة طويلة ، وكان له ما أراد .

نص القصيدتين

أولاً : بردة البوصيرى

قال يمدح النبى ، ﷺ ؛ وهى من أشهر شعره . وهذه القصيدة تعرف بالبردة أو البُرْأة . وقيل : إنه مدح بها النبى - ﷺ - وهو مريض ، فعوفى من وقته وساعته :

أمِنْ تذكُّرِ جيران بذى سَلَم مزجتَ دمعاً جَرَى من مقلة بدم

أم هبت الريحُ من تِلْقاء كاظمة وأومض البرق فى الظلماء من إضَم

فما لعينيكَ إن قلتَ اكففا هَمَتا وما لقلبكَ إن قلتَ استفقْ يَهِم

أيحسب الصَّبُّ أن الحب منكتم ما بينِ منسجم منه ومضطرم ([1])

لولا الهوى لم تُرِقْ دمعا على طلل ولا أرِقْتَ لذكر البان والعلَم

فكيف تنكر حبا بعد ما شهدتْ به عليك عدولُ الدمع والسَّقَم

وأثبت الوَجْدُ خطَّىْ عَبرة وضَنًى مثل البَهَار على خديكَ والعَنَم ([2])

نعمْ سَرَى طيف مَنْ أهوى فأرَّقنى والحُبُّ يعترض اللذاتِ بالألم

يا لائمى فى الهوى العذرىِّ معذرةً منِّى إليك ولو أنصفتَ لم تلُم

عدَتْك حالىَ لا سِرِّى بمستتر عن الوُشاة ولا دائى بمنحسم ([3])

([1]) المنسجم : الدمع السائل ، والمضطرم القلب : المشتعل بالحب .

([2]) البهار : ورد أصفر . والعنم : ورد أحمر .

([3]) عدتك : تجاوزتك . ومنحسم : منقطع .

مَحَّضْتَنِى النُّصحَ لكنْ لستُ أســمعه إنَّ المحب عن العُـذَّال فــى صَمَــم ([1])

إنى اتَّهمتُ نصيح الشَّيب فى عَذَلٍ([*]) والشيبُ أبعد فــى نصــح عــن التُّــهم

فإنَّ أمَّارتى بالســوء مــا اتعظــتْ من جهلها بنذير الشــيب والــهَرَم ([2])

ولا أعَدَّت من الفعل الجميل قِــرَى ضيــفٍ أَلَــمَّ برأســى غــيرَ محتشــم

لو كنــتُ أعلــم أنــى مــا أُوقِّــره كتمتُ سرًّا بــدا لــى منــه بــالكَتَم ([3])

مَنْ لى برد جمــاحٍ مــن غَوَايتــها كمــا يُــرَد جمــاحُ الخيــل بــاللُّجُم

فلا تَرُمْ ([4]) بالمعاصى كسر شهوتها إن الطعــام يُقَــوِّى شــهوة النَّــهِم

والنفس كالطفل إن تهملْه شبَّ على حُــبِّ الرضــاع وإن تفطمْــه ينفطــم

فاصرف هواها وحــاذر أن تُوَلِّيَــهُ إن الهوى ما تَوَلَّى يُصْــمِ أو يَصِــمِ ([5])

وراعها وهْى فى الأعمال ســائمةٌ وإن هى استحلت المرعى فلا تُسَــم([6])

كــم حسَّــنتْ لَــذَّةً للمــرء قاتلــةً مِنْ حيث لم يدر أن السُّمَّ فــى الدَّسَــم

([1]) محضتنى النصح : أخلصته .

([*]) العذل بفتح الذال وسكونها : اللوم .

([2]) الأمارة بالسوء : هى النفس .

([3]) الكتم : نبت يخضب به كالحناء .

([4]) لا ترم : لا تقصد ولا تطلب .

([5]) أن توليه : تجعله والياً عليك . ويصم : يقتل ؛ من أصمى . ويصم : يعيــب ؛ مــن وصم .

([6]) السوم : الرعى فى العشب المباح .

واخش الدسائس من جوع ومن شِبَع فَرُبَّ مخمصة شرٌّ من التُّخَم ([1])

واستفرغِ الدمع من عين قد امتلأتْ من المحارم والزمْ حِمْيَةَ الندم ([2])

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محَّضاك النصح فاتَّهِمِ

ولا تطع منهما خصماً ولا حكماً فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

أستغفر الله من قول بلا عمل لقد نَسَبْتُ به نسلاً لذى عُقُم

أَمَرْتُكَ الخيرَ لكنْ ما ائتمرتُ به وما استقمتُ فما قولى لكَ استقم

ولا تزودتُ قبل الموت نافلةً ولم أُصَلِّ سوى فرضٍ ولم أصُم

ظلمتُ سُنَّةَ من أحيا الظلام إلى أنِ اشتكتْ قدماه الضُرَّ من وَرَم

وشدَّ من سَغَبٍ أحشاءه وطوى تحت الحجارة كَشْحاً مُتْرَف الأدم ([3])

وراودتْه الجبال الشُّم من ذهب عن نفسه فأراها أيَّما شَمَم

وأكدتْ زهده فيها ضرورته إن الضرورة لا تعدو على العِصَمِ([4])

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورةُ مَنْ لولاه لم تُخْرَجِ الدنيا من العدم

محمدٌ سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجم

نبينُا الآمرُ الناهى فلا أحدٌ أبرَّ فى قول " لا " منه ولا " نعم "

([1]) المخمصة : الجوع .

([2]) الحمية عن الشيء : الامتناع عنه .

([3]) السغب : الجوع . والكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع . والمترف : المنعم .

([4]) العصم : جمع عصمة ، وهى الحفظ .

هو الحبيب الذى تُرْجى شفاعته لكل هولٍ من الأهوال مقتَحَمَ

دعا إلى الله فالمستمسكون به مستمسكون بحبلٍ غيرِ منفصم

فاق النبيين فى خَلْق وفى خُلُق ولم يدانوه فى علم ولا كرم

وكلُّهم من رسول الله ملتمس غَرْفاً من البحر أو رَشْفاً (١) من الدِّيَم

وواقفون لديه عند حدهم من نقطة العِلْم أو من شَكْلَة الحِكَم

فهو الذى تم معناه وصورتُه ثم اصطفاه حبيباً بارئُ النَّسَم (٢)

مُنَزَّهٌ عن شريكٍ فى محاسنه فجوهر الحسن فيه غيرُ منقسم

دعْ ما ادعته النصارى فى نبيهمُ واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

وانسب إلى ذاته ما شئتَ من شرف وانسب إلى قدره ما شئتَ من عِظَم

فإن فضل رسول الله ليس له حدٌّ فيعُربَ عنه ناطق بِفَم

لو ناسبتْ قدرَه آياتُه عِظَماً أحيا اسمُه حين يُدْعى دارس الرِّمم

لم يمتحِنَّا بما تعيا العقولُ به حرصاً علينا فلم نَرْتَبْ ولم نَهِم (٣)

أعيا الورى فهمُ معناه فليس يُرَى فى القرب والبعد فيه غيرُ منفحم

كالشمس تظهر للعينين من بُعُدِ صغيرةً وتُكِلُّ الطَّرفَ من أَمَم

وكيف يدرك فى الدنيا حقيقتَه قومٌ نيامٌ تَسَلَّوْا عنه بالحُلُم

---

(١) الرشف : المص . والديم : جمع ديمة ، وهى المطر .

(٢) النسم : جمع نسمة ، وهى الإنسان .

(٣) لم نهم : لم نضل .

فمبلغُ العلم فيه أنه بشر وأنه خيرُ خلق الله كلِّهم
وكلُّ آيٍ أتى الرُّسْلُ الكرامُ بها فإنما اتصلت من نوره بِهِمِ
فإنه شمسُ فضلٍ هم كواكبها يُظْهِرن أنوارَها للناس في الظُّلَم
أكْرِمْ بخَلْق نبيٍ زانه خُلُق بالحسن مشتملٍ بالبشر مُتَّسِم
كالزَّهر في ترفٍ والبدر في شرف والبحرِ في كرم والدهرِ في هِمَم
كأنه وهْو فردٌ من جلالته في عسكرٍ حين تلقاه وفي حشم
كأنما اللؤلؤُ المكنونُ في صدف من معدِنَيْ منطق منه ومبتسم
لا طيبَ يعدل تُرْباً ضمَّ أعظمَه طوبى لمنتشق منه وملتثم [1]
أبان مولدُه عن طيب عنصره يا طيب مبتدإٍ منه ومختتم
يومٌ تفرَّس فيه الفرسُ أنهمُ قد أُنذِروا بحلول البؤس والنِّقَم
وبات إيوانُ كسرى وهْو منصدعٌ كشمل أصحاب كسرى غيرِ ملتئم
والنارُ خامدةُ الأنفاس من أسَفٍ عليه والنهرُ ساهى العين من سَدَم [2]
وساء ساوةَ أن غاضتْ بُحَيْرَتُها وَرُدَّ واردها بالغيظ حين ظَمِي [3]
كأن بالنارِ ما بالماء من بللٍ حزنا وبالماء ما بالنار من ضَرَم [4]

---

(1) المنتشق : من يشمه ، والملتثم : من يقبله .

(2) ساهى : ساكن . والسدم : الحزن .

(3) ساوة : مدينة فى بلاد فارس بين همذان والرى .

(4) الضرم : الالتهاب .

والجنُّ تـــهتف والأنـــوارُ ســـاطعةٌ والحقُّ يظهر مِـــنْ معنـــىً ومـــن كَلِـــم

عَمُوا وصَمُّوا فإعلانُ البشـــائر لـــم تُسمَعْ وبارقـــةُ الإنـــذار لـــم تُشَـــم (1)

مِنْ بعد ما أَخْبَرَ الأقـــوامَ كاهنُـــهُم بـــأن دينـــهمُ المُعْـــوَجَّ لـــم يَقُـــم

وبعد ما عاينوا فى الأفق من شـــهب مُنْقَضَّةٍ وَفْقَ ما فى الأرض مـــن صنـــم

حتى غداً عن طريق الوحى منـــهزمٌ مـــن الشـــياطين يقفـــو إِثْـــر منـــهزم

كأنـــهم هربـــاً أبطـــــالُ أبرهـــــةٍ أو عسكرٌ بالحصى من راحتيـــه رُمِـــى

نَبْذاً بـــــه بعـــد تســـبيح ببطنـــهما نبـــذَ المُسَـــبِّح مـــن أحشـــاء ملتقـــم

جاءت لدعوتـــه الأشـــجارُ ســـاجدةً تمشى إليـــــه علـــى ســـاق بـــلا قـــدم

كأنما سَطَرَتْ ســـــطراً لِمَـــا كَتَبَـــتْ فروعُها من بديع الخط فـــــى اللَّقَـــم(2)

مثلَ الغمامـــةِ أنَّـــى ســـار ســـائرةٌ تقيـــه حـــرَّ وطيـــس للـــهجير حَمِـــى

أقسمتُ بـــــالقمر المنشـــقِّ إنَّ لـــه مـــن قلبـــه نســـبةً مـــبرورةَ القســـم

وما حوى الغارُ من خيرٍ ومن كـــرم وكلُّ طَرْفٍ مـــن الكفـــار عنـــه عَمِـــى

فالصدقُ فى الغار والصديق لم يَرِمـــا وهم يقولون مـــا بالغـــار مـــن أرِم (3)

ظنوا الحمامَ وظنوا العنكبوت علـــى خير البريـــــة لـــم تنسُـــجْ ولـــم تَحُـــم

وقايةُ الله أغنـــتْ عـــن مضاعفـــة من الدروع وعن عال مـــن الأُطُـــم (4)

---

(1) تشم : تنظر .

(2) اللقم : بفتح اللام والقاف : وسط الطريق لكونها مشت مشى استقامة .

(3) لم يرما : لم يبرحا . وأرِمْ على وزن كتف : العلم والأثر .

(4) الأطم : الحصون .

ما سامنى الدهرُ ضيما واستجرتُ بــه إلا ونلــتُ جــواراً منـــه لــم يُضَـــم

ولا التمستُ غنى الدارين من يـــده إلا استلمتُ النَّدَى مـــن خــير مســتَلَم

لا تنكرِ الوحىَ من رؤيـــاه إنَّ لـــه قلباً إذا نـــامتِ العينــانِ لــم يَنَــم ([1])

وذاك حيــن بلــوغٍ مــن نبوتــــه فليــس يُنْكَــرُ فيــه حــالُ محتلِــم ([2])

تبــارك اللهُ مـــا وَحْــىٌ بمكتسَـــب ولا نبـــىٌّ علـــى غيـــبٍ بمتـــهم

كم أبرأتْ وَصِباً باللمــــس راحتــهُ وأطلقتْ أرِبـــاً مـــن رِبقَـــةِ اللَّمَــم ([3])

وأحيت الســـنةَ الشـــهباءَ دعوتُــه حتى حكت غُرَّةً فى الأعصُـــر الدُّهُــمِ([4])

بعارضٍ جادَ أو خِلْتُ البطـــاحَ بـــها سيبا من اليَمِّ أو سيلاً مـــن العَــرِم ([5])

دعنى ووصفىَ آياتٍ لــــه ظـــهرت ظهور نـــار القِــرَى ليــلا علــى علم

فالدُّرُّ يزداد حســـناً وهْــو منتظــم وليــس ينقــص قــدراً غــيرَ منتظـــم

فما تَطـــاوَلُ آمـــالُ المديــح إلـــى ما فيه من كرم الأخــــلاق والشِّــيَم ([6])

آياتُ حقٍّ مـــن الرحمـــن مُحْدَثَـــةٌ قديمةٌ صفـــةُ الموصـــوفِ بـــالقِدَم ([7])

([1]) يقول : إن رؤيا النبى فى المنام هى وحى من عند الله .

([2]) المحتلم : الذى يرى الحلم فى النوم ، فحلم النبى كما يقول وحى لا ينكر .

([3]) الوصب : المريض . والأرب : المحتاج . والربقة أصلها الحبل . واللمم : الجنون .

([4]) السنة الشهباء : المجدبة .

([5]) أوخلت : أى إلى أن خلت . والبطاح : جمع أبطح ، وهو مسيل المـــاء . والســـيب : الجرى . العرم : الوادى

([6]) تطاول إلى كذا : طلب الوصول إليه .

([7]) محدثة : إنزالها محدث .

لم تقترن بزمـــان وهــى تخبرنــا عــن المعــاد وعــن عــاد وعــن إرم

دامت لدينــا ففــاقت كــل معجــزة مــن النبييــن إذا جــاءت ولــم تــدُم

مُحَكَّماتٌ فمــا تُبْقيــن مــن شُــبَهٍ لذى شــقاق ومــا تبغيــن مــن حَكَــم

ما حوربتْ قطُّ إلا عادَ مــن حَــرَبٍ أعدى الأعــادى إليــها مُلْقِــىَ السَّــلَم

رَدَّتْ بلاغَتُــها دعــوى مُعارِضِــها ردَّ الغَيُور يــدَ الجــانى عــن الحُــرَم

لها معانٍ كموج البحــر فــى مَــدَد وفوق جوهــره فــى الحســن والقِيَــم

فمــا تُعَــدُّ ولا تُحْصَــى عجائبُــها ولا تُســامُ علــى الإكثــار بالسَّــأم

قرَّتْ بها عينُ قاريــها فقلــتُ لــه لقــد ظفِــرتَ بحبــل الله فــاعتصم

إن تتلُهَا خِيفةً من حر نــارِ لَظَــى أطفأتَ نارَ لظــى مــن وِرْدِهــا الشَّــبِم

كأنها الحوضُ تَبْيَضُّ الوجــوهُ بــه مــن العصــاة وقــد جــاءوه كــالحُمَم

وكــالصراطِ وكــالميزانِ مُعْدِلَـــةً فالقِسْطُ مِنْ غيرها فى الناسِ لــم يَقُــمِ

لا تعجبــنْ لحســودِ راح ينكرهـــا تجاهلاً وهــو عيــنُ الحــاذق الفَــهِم

قد تنكر العينُ ضوء الشمس من رمــدٍ وينكر الفَــمُ طعــمَ المــاء مــن سَــقَم

يا خير من يمَّم العــافونَ ســاحتَه سعياً وفوق متون الأَيْنُــق الرُّسُــم ([1])

ومَنْ هو الآيــةُ الكــبرى لِمُعْتَــبِر ومَــنْ هــو النعمــة العظمــى لمغتنــم

سريتَ من حَرَم ليــلا إلــى حــرم كما سرى البدر فــى داج مــن الظُّلَــم

([1]) العافون : طلاب الرزق. والأينق : النياق ، والرســم : التــى ترســم الأرض : أى تعلمها.

وبتَ ترقى إلـــى أن نلــتَ منزلــةً من قاب قوسين لم تُــدرَكْ ولــم تُــرَم

وَقَدَّمَتْــكَ جميــعُ الأنبيــاءِ بـــــها والرُّسْلُ تقديــم مخــدومٍ علــى خــدم

وأنت تخترق السبع الطبــاقَ بــهمْ فى موكب كنــتَ فيــه صــاحب العَلَــم

حتى إذا لم تَــدَعْ شــأوا لمســتبق مــن الدُّنُــوِّ ولا مَرْقَــى لمســتنم (1)

خفضــتَ كــلَّ مقــام بالإضافــة إذ نوديت بالرفع مثلَ المفــرد العلــم (2)

كيمــا تفــوزَ بوصــلٍ أىِّ مُسْــتَتِر عــن العيــون وســرٍّ أىِّ مُكْتَتِــم

فَحُزْتَ كــلَّ فَخَــار غــيرَ مُشْــتَرَكٍ وَجُــزْتَ كــلَّ مقــامٍ غــيرَ مُزْدَحَــمِ

وجَلَّ مقدارُ ما وُلِّيــتَ مــن رُتَــب وعَــزَّ إدراكُ مــا أُولِيــتَ مــن نِعَــم

بشرى لنا معشرَ الإســلام إنَّ لنــا مــن العنايــة ركنــا غــيرَ منــهدِم

لمــا دعــا اللهُ داعينــا لطاعتــه بــأكرم الرُسْــل كنــا أكــرمَ الأمــم

راعت قلوبَ العــدا أنبــاءُ بَعْثَتِــهِ كَنَبْــأَةٍ أجفلــتْ غُفْــلا مــن الغنــم

ما زال يلقــاهم فــى كــل مُعْــتَرَك حتى حَكَوا بالقَنَا لحماً على وَضَــم (3)

وَدُّوا الفرار فكــادوا يَغْبِطــون بــه أشْلاءَ شــالتْ مــع العِقْبَــان والرَّخَــم

تمضى الليالى ولا يَــدْرون عِدَّتَــها ما لم تكن من ليــالى الأشــهر الحــرم

كأنما الدين ضيــف حــل ســاحتهم بكل قَــرْمٍ إلــى لَحْــمِ العِــدا قَــرِمِ (4)

---

(1) المستنم : طالب الرفعة إلى السنام ، وهو أعلى الشيء .

(2) بالإضافة إلى مقامك . والرفع:الارتفاع ، وفيه تورية برفع الإعراب عند النحاة .

(3) الوضم : كل خشبة يقطع عليها اللحم .

(4) القَرْم : السيد . والقَرِم : بالتحريك شدة الشهوة إلى اللحم .

يجُرُّ بحرَ خميسٍ فوق سابحةٍ يَرْمى بموج من الأبطالِ مُلتَطِم (١)

مِن كل منتَدِبٍ لله محتسبٍ يسطو بمستأصل للكفر مَصطَلِم (٢)

حتى غدتْ ملةُ الإسلام وهْى بهم مِن بعد غُربتها موصولةَ الرَّحِم

مكفولةً أبداً منهم بخير أب وخيرِ بَعْلٍ فلم تَيْتَمْ ولم تَئِم (٣)

هم الجبال فسل عنهم مُصادمَهم ما ذا رأى منهمُ فى كل مصطَدَم

وسل حُنَيناً وسلْ بدراً وسل أُحُداً فُصُولُ حتفٍ لهم أدهى من الوَخَم (٤)

المصدِرِى البيضَ حُمْراًبعد ماوردتْ من العدا كلَّ مُسْوَدٍّ من اللِّمَم (٥)

والكاتبين بسُمْر الخط ما تركتْ أقلامُهم حرفَ جسمٍ غيرَ مُنْعَجِم

شاكى السلاحِ لهم سِيمَى تُميِّزهم والوردُ يمتاز بالسِّيمَى عن السَّلَم (٦)

تُهدى إليك رياحُ النصر نَشْرَهم فتَحسَبُ الزَّهَر فى الأكمامِ كُلَّ كَمِى

كأنهمْ فى ظهور الخيل نبتُ رُبًا من شدة الحَزْم لا من شدة الحُزُم (٧)

طارت قلوبُ العدا من بأسهم فَرَقاً فما تُفَرِّقُ بين البَهْم والبُهَم (٨)

---

(١) السابحة : الخيل .

(٢) المنتدب : المجيب .

(٣) التأيم : فقدان الزوج .

(٤) الوخم : الوباء .

(٥) اللمم : جمع لمة وهى الشعر إذا جاوز الأذن .

(٦) السيمى : العلامة . والسلم : نوع من الشجر .

(٧) الحَزْم : قوة الثبات . الحُزُم جمع حزام : وهى ما يشد به سرج الفرس ونحوها .

(٨) البَهْم جمع بَهْمة : وهو الصغير من الضأن . وجمع بُهْمة . وهو الشجاع .

ومن تكــن برســول الله نصرتُــه إن تَلْقَــهُ الأسْـدُ فــى آجامــها تَجِــم

ولن ترى مِنْ ولىٍّ غــيرِ منتصــر به ولا مــن عــدو غــيرِ منقصِــم (1)

أحــلَّ أُمَّتَــهُ فــى حِـرزِ ملتـــه كالليث حــل مــن الأشــبال فــى أجَــم

كم جدَّلتْ كلمـــاتُ الله مــن جَــدِلٍ فيه وكم خَصَمَ البرهانُ من خَصِــم (2)

كفاكَ بــالعلم فــى الأُمــىِّ معجـزةً فــى الجاهليــة والتــأديب فــى اليُتُــم

خدمتُــه بمديــح أســـتقيل بـــه ذنوبَ عُمْرٍ مضى فى الشــعر والخِـدَم

إذ قلدانـــىَ مــا تُخْشَـــى عواقبُـــه كــأننى بــهما هَــدْىٌ مــن النَّعَــم (3)

أطعتُ غَىَّ الصِّبَا فى الحالتين ومـــا حصلْـــتُ إلا علـــى الآثــــام والنــــدم

فيا خَســـارةَ نفــسٍ فــى تجارتــــها لم تشترِ الدين بالدنيــا ولــم تَسُــم (4)

ومــن يبــع آجــلاً منــه بعاجِلِــه يَبِنْ له الغبنُ فى بيــع وفــى سَـلَم (5)

إنْ آتِ ذنبا فما عـــهدى بمنتقِـضٍ مــن النبــى ولا حبلـــــى بمنصــــرم

فــإنَّ لــى ذِمَّــةً منــه بتســـميتى محمــداً وهــو أوفــى الخلــق بــالذمم

إن لم يكن فى مَعادى آخــذا بيــدى فضــلا وإلا فقــل يــا زَلَّـــةَ القَــدَم

---

(1) المنقصم : المنقطع .

(2) جدل : صرع . والجدالة : الأرض . والجدِل : كثير الجــدال ، خصمــه : غلبــه . والخصم : شديد الخصومة .

(3) الهدى : ما يهدى إلى الحرم ليذبح .

(4) سام البائع السلعة : عرضها للبيع : وسامها المشترى : طلب شراءها .

(5) السلم فى البيع : هو البيع المؤجل الدفع .

حاشاه أن يَحْرِم الراجـــى مكارمـــه أو يَرْجِعَ الجـــارُ منـــه غـــيرَ محـــتَرَم

ومنـــذ ألزمـــتُ أفكـــارى مدائحَـــه وجدتـــه لخلاصـــى خـــيرَ ملـــتزم

ولن يفوتَ الغِنَى منه يـــداً تَرِبَـــتْ إن الحَيَا يُنْبِتُ الأزهار فـــى الأَكَـــم (١)

ولم أُرِدْ زهرةَ الدنيا التى اقْتَطَفَـــتْ يَـدَا زهـيرٍ بمـا أثنـى علـى هَـرِمِ

يا أكرمَ الرُّسْل مالى من ألـــوذ بـــه سواك عند حلـــول الحـــادث العَمِـــم (٢)

ولن يضيق رسولَ الله جـــاهُك بـــى إذا الكريـــمُ تَحَلَّـــى باســـم منتقـــم (٣)

فإنَّ من جـــودك الدنيـــا وضَرَّتَـــها ومن علومك علـــمَ اللـــوح والقلـــم (٤)

يا نفس لا تقنطى من زَلَّةٍ عظُمـــتْ إن الكبـــائر فـــى الغفـــران كـــاللَّمَم (٥)

لعل رحمـــةَ ربـــى حيـــن يَقسِـــمها تأتى على حسب العصيان فـــى القِسَـــم

يا ربِّ واجعل رجائى غيرَ منعكـــس لديكَ واجعل حسابى غـــيرَ منخـــرِم(٦)

والطف بعبدك فى الداريـــن إنَّ لـــه صبرا متـــى تدعُـــهُ الأهـــوالَ ينـــهزم

وائذن لسُحْبِ صـــلاةٍ منـــكَ دائمـــةٍ علـــى النبـــى بمُنْـــهَلٍّ ومُنْسَـــجم (٧)

ما رنَّحتْ عذَباتِ البان ريـــحُ صَبَـــا وأطْرَبَ العِيسَ حادى العيسِ بـــالنَّغَم(٨)

---

(١) تربت : افتقرت . والأكم جمع أكمة : وهى الربوة .

(٢) الحادث العمم : يوم القيامة ؛ لأن هوله يعم الخلق .

(٣) تحلى : اتصف . والمنتقم : من أسماء الله .

(٤) ضرة الدنيا : هى الآخرة .

(٥) اللمم : صغار الذنوب .

(٦) المنخرم : المتقطع .

(٧) المنهل : السائل بشدة . والمنسجم : السائل بهدوء ورفق .

(٨) رنحت : أمالت . وعذبات البان : أغصانه . والعيس : الإبل البيض .

ثانياً : نهج البردة لشوقى :

ريمٌ على القاع بين البـــان والعلـم أحل سفك دمى فى الأشهر الحـرم ([1])

رمى القضاء بعينَــىْ جـؤذر أســدا يا ساكن القاع ، أدرك ساكن الأجـم([2])

لما رنـــا حدثتنــى النفـس قائلـة ياويح جنبك،بالسهم المصيب رُمِـى([3])

جحدتُها ، وكتمتُ السهم فى كبـــدى جُرحُ الأحبة عندى غيرُ ذى ألـــم ([4])

رُزِقْتَ أسمح ما فى الناس من خلـق إذا رزقتَ التماس العذر فى الشِّيَم ([5])

يا لائمى فى هواه - والهوى قـدر - لو شَفَّكَ الوَجْدُ لم تعذل ولم تلـــم ([6])

لقـد أنلتـك أذنـاً غـيرَ واعيـــة ورُبَّ مُنْتَصِـتٍ والقلـبُ فـى صمـم

يا ناعس الطرف، لاذقت الهوى أبـداً أسهرتَ مُضْنَاكَ فى حفظ الهوى فنـم([7])

أَفْدِيكَ إلفاً ، ولا آلو الخيــال فـدى أغراك بالبخل مــن أغـراه بـالكرم

سرى ، فصادف جُرحا دامياً ، فأســا ورب فضــل علـى العشــاق للحُلُــم

([1]) الرئم : الظبى الخالص البياض . والقاع : الأرض السهلة المطمئنة . والبان : جمـع بانة ، ضرب من الشجر . والعلم : الجبل .

([2]) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية . والأجم : جمع أجمة ، وهى الشجر الكثير الملتـف ، وهو مسكن الأسد .

([3]) رنا : أدام النظر فى سكون الطرف .

([4]) جحدتها ، الجحود : الإنكار مع العلم .

([5]) الشيم : جمع شيمة ، وهى الخلق والطبيعة .

([6]) شفه الوجد : أهزله وأنحل جسمه .

([7]) الناعس : الوسنان . والطرف (بالفتح) : العين . والمضنى : الذى أثقلـه المـرض . ومضناك : الذى أضنيته بما لحقه من الوله عليك .

مِنْ الموائـــسِ بانــاً بــالرُّبى وقنــاً اللاعباتُ بروحى،السافحات دمـــى؟[1]

السافراتُ كأمثـــال البــدور ضحـــى يُغِرْنَ شمسَ الضحى بالحَلْى والعِصَـــم[2]

القـــاتلاتُ بأجفـــانٍ بـــــها سَـــقَم وللمنيـــة أســـــبابٌ مـــن السَّـــقَم

العـــاثراتُ بألبـــاب الرجـــال ، ومـــا أقلن من عثرات الدَّلِّ فـــى الرَّســـم[3]

المضرماتُ خدوداً ، أسفرت، وَجَلَـــتْ عن فتنـــــةٍ ، تُســـلم الأكبـــادَ للضَّـــرَم

الحـــاملاتُ لـــواءَ الحســـن مختلفـــاً أشكاله ، وهْـــو فـــرد غـــيرُ منقســـم

من كل بيضـــاءَ أو ســـمراءَ زُيِّنتـــا للعين، والحسن فى الآرام كـــالعُصُم[4]

يُرَعْنَ للبصر السامى . ومِنْ عجـــب إذا أشرن أســـرن الليـــث بـــالعَنَم [5]

وضعتُ خدى، وقسَّمتُ الفؤاد رُبَـــى يرتعن فى كُنُس منـــه وفـــى أكَـــم [6]

---

(1) الموائس : جمع مائسة ، وهى المتبخترة. والبان : ضرب من الشجر واحدتها : بانة ، والقنا : جمع قناة ، وهى الرمح . وسفح الدم : سفكه وأساله .

(2) الحلى : ما تزين به المرأة من مصوغ المعادن وكريم الحجارة . والعصم : القلائـــد ، جمع عصمة .

(3) أقاله من عثرته : أنهضه منها . والدل قريب المعنى من الهدى : وهما من الســـكينة والوقار فى الهيئة والمنظر والشمائل وغير ذلك . والرسم : حسن المشى .

(4) العصم : جمع أعصم ، الذى فيه العصمة بالضم ، وهى بياض اليدين والعصماء مـــن المعز : البيضاء الذراعين وسائرها أسود وأحمر .

(5) يرعن : يخفن . والعنم : شجرة حجازية لها ثمرة حمراء تشبه بها البنان المخضوبة .

(6) الكنس (بضمتين) جمع كناس : وهو مستقر الظباء فى الشجر . والأكم : جمع أكمـــة وهى الموضع يكون أشد ارتفاعاً مما حوله .

يا بنت ذى اللِّبدِ المحمىِّ جانبُه ... ألقاكِ فى الغاب،أم ألقاكِ فى الأطُم؟(1)

ما كنت أعلم حتى عنَّ مسكنُه ... أن المنى والمنايا مضرِب الخِيَم (2)

مَن أنبت الغصن من صمصامةٍ ذكر ... وأخرج الرِّيم من ضِرْغامة قَرِم (3)

بينى وبينكِ من سُمْر القَنَا حجبٌ ... ومثلُها عفةٌ عذريةُ العِصَم (4)

لم أغشَ مغناكِ إلا فى غضون كَرَى ... مغناكِ أبعدُ للمشتاق من إِرَم (5)

يا نفس ، دنياك تخفى كل مبكية ... وإن بدا لك منها حسنُ مبتسم

فُضِّى بتقواك فاهاً كلما ضحكت ... كما يُفَضُّ أذى الرَّقشاءِ بالثَّرَم (6)

---

(1) اللبد : جمع لبدة ، وهى الشعر المتراكب بين كتفى الأسد . والغاب : جمع غابة ، وهى الشجر المتكاثف . والأطم : القصر ، وكل حصن مبنى بالحجارة .

(2) عَنَّ الشىء : بان وظهر . والمنايا : جمع المنية ، وهى الموت . ومضرب الخيم : المكان الذى تضرب فيه وتقام ، أى حيث تنزل تلك المحبوبة فى جوار أبيها .

(3) الصمصامة : السيف . والضرغامة : الأسد . وأراد " بالغصن " و الريم" معشوقته ، و " بالصمصامة " و " الضرغامة " أباها . يتعجب كيف يولد لمثل هذا الرجل ، الشبيه بالسيف فى صلابته ومضائه ، مثل هذه المعشوقة ، التى هى كالغصن فى اللدونة ولطف التثنى وأيضاً : كيف يكون لمن يشبه الأسد فى قوته وسطوته وبأسه ، مثل هذه التى تشبه الغزال فى رقته وضعفه ؟

(4) العفة العذرية : نسبة لقبيلة بنى عذرة ، اشتهر شبابها بالعشق والعفاف . والعصم : جمع عصمة وهى المنع والحفظ .

(5) غشى المكان : وافاه . والمغنى : المنزل الذى غنى به أهله . والكرى : النوم . وإرم : هى إرم ذات العماد ، التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم .

(6) الرقشاء من الحيات : المنقطة بالسواد والبياض . والثرم : كسر السن من أصلها .

مخطوبةٌ -منذ كان الناسُ- خاطبـــةٌ من أول الدهر لم تُرْمِل ، ولم تئـــم [1]

يَفنَى الزمانُ . ويبقى من إســـاءتها جُرحٌ بآدمَ يبكـــى منـــه فـــى الأَدَم [2]

لا تحفلـــى بجناهـــا . أو جنايتــــها الموت بالزهر مثلُ الموت بـــالفَحَم [3]

كم نائم لا يراهـــا ، وهـــى ســـاهرة لولا الأمـــانىُ والأحـــلامُ لـــم يَنَـــم [4]

طوراً تمـــدك فـــى نُعْمـــى وعافيـــةٍ وتارة فى قرار البـــؤس والوصـــم [5]

كم ضللتك ،ومن تُحْجَـــبْ بصيرتُـــه إن يلق صاباً يَردْ ، أو علقماً يَسُـــم [6]

يا ويلتاه لنفســـى ! راعـــها ودَهَـــا مُسْوَدَّةُ الصحفِ فى مُبْيَّضِةِ اللَّمَـــم [7]

ركضتها فى مريع المعصيات ، ومـــا أخذتُ من حِمْية الطاعـــات للتُّخَـــم [8]

---

(1) أرملت المرأة : أى مات عنها زوجها . وآمت المرأة من زوجها تئيم . والأيم : التـــى لا زوج لها . سواء أكانت بكراً ، أم كان لها زوج فقدته .

(2) الأدم : الجلد . يقول : مع أن حالها وحال الناس ما ذكرنا ، فإن إساءتها ما تنتـــهى ، حتى إن آدم عليه السلام لا ينسى كيدها إلى آخر الزمان ، وفى البيت الجناس بيـــن آدم والأدم .

(3) الجنى : ما يجتنى من الشجرة ويقطف من ثمرها .

(4) يريد بالنائم : المغتر بالدنيا الغافل عن مصائبها وغيَرِها .

(5) الوصم (بالتحريك) : الألم والمرض . يقال وصمته الحمى فتوصم : أى آلمته فتألم.

(6) الصاب : جمع صابة ، شجر مر . والعلقم : الحنظل ، ويسم : من سام يســـوم : أى رعى يرعى .

(7) دها : أى دهاها . اللمم : جمع لمة ، وهى الشعر يجـــاوز شـــحمة الأذن . مســـودة الصحف : كناية عن العمل السيئ .

(8) ركضتها : المراد هنا مجرد إطلاق النفس وإرسالها فى طريق غوايتها . والمريـــع : الخصيب .

والنفس إن يدعها داعى الصِّبَا تَهِم هامت على أثر اللذات تطلبها

فقَوِّم النفسَ بالأخلاق تستقم صلاحُ أمركَ للأخلاق مرجعُه

والنفس من شرها فى مرتع وخم (١) والنفس من خيرها فى خير عافية

طَغْىَ الجياد إذا عضت على الشُّكُم(٢) تَطْغَى إذا مُكِّنَتْ من لِذَّةٍ وهَوًى

فى الله يجعلنى فى خير معتصَم إن جل ذنبى عن الغفران لى أمل

مفرِّجِ الكرب فى الداريـن والغُمَمِ أَلْقِى رجائى إذا عَزَّ المُجِيرُ على

عِزَّ الشفاعة ؛ لم أسألْ سوى أَمَم إذا خفضتُ جَنَاح الذل أسأله

قدمت بين يديه عَبْرَةَ الندم وإن تقَدَّم ذو تقوى بصالحةٍ

يُمْسِكْ بمفتاح باب الله يغتنم لزمت باب أمير الأنبياء ، ومن

ما بين مستَلِمٍ منه وملتَزَمِ فكل فضل ، وإحسان ، وعارفة

فى يومِ لا عِزَّ بالأنساب واللُّحَم عَلِقْتُ من مدحه حبلاً أَعَزُّ به

ولا يقاس إلى جودى ندى هَرِمٍ (٣) يُزْرِى قريضى زهيراً حين أمدحه

وبغية الله من خلق ومن نَسَم محمد صفوة البارى ، ورحمته

---

(١) المرتع : موضع الرتوع . والوخم : الردئ الوبى .

(٢) الشكم : جمع شكيمة ، وهى الحديدة المعترضة فى لجام الفرس .

(٣) يزرى : يعيب . والقريض : الشعر ، وزهير : هو زهير بن أبى سلمى المزنى ، كان سيدا غنياً فى الجاهلية ، معروفاً بالحلم والحكمة ، شاعراً فحلا ، وهرم . بكسر الراء : هو هرم بن سنان بن أبى حارثة المرى ، مدح زهير هرماً فأحسن ، ووصله هرم فأجزل الصلة ، وبالغ فى العطاء .

وصاحب الحوض يومَ الرسْلُ سائلةٌ متى الورودُ؟وجبريل الأمين ظَمِى(١)

سناؤه وسناه الشمس طالعةٌ فالجِرْمُ فى فَلَكٍ ، والضوء فى علم

قد أخطأ النجمَ ما نالت أبوتُه من سؤدد باذخ فى مظهر سنم (٢)

نُمُوا إليه، فزادوا فى الورى شرفاً ورُبَّ أصل لفرع فى الفخار نَمِى

حَوَاه فى سُبُحات الطهر قبلهمُ نورانِ قاما مقام الصُلْب والرَّحم

لما رآه بحِيرا قال : نعرفه بما حفظنا من الأسماء والسِّيَم (٣)

سائل حراء،وروحَ القُدْس: هل علما مصونَ سرٍ عن الإدراك منكتم

كم جِيئَةٍ وذهاب شُرِّفتْ بهما بطحاءُ مكة فى الإصباح والغَسَم (٤)

ووحشةٍ لابن عبد الله بينهما أشهى من الأنس بالأحباب والحشم

يسامر الوحىَ فيها قبل مهبطه ومن يبشَّرْ بسِيمَى الخير يتَّسِم

لما دعا الصحبُ يستسقون من ظمأ فاضت يداه من التسنيم بالسَّنِم (٥)

---

(١) وجبريل الأمين ظمى : الملائكة لا تظمأ ، فلعل مراده بالظمأ هنا لازمه وهو الطلب أى للناس بمعنى أن حاله تقتضى ذلك إشفاقاً على حالهم ، لما يرهقهم من شدة الظمأ وحرج الموقف .

(٢) السؤدد : السيادة ، والباذخ : العالى . السنم (ككتف) : المرتفع .

(٣) السيم : جمع سيمة ، وهى العلامة . وبحيرا ، بفتح الياء وكسر الحاء : الراهب النصرانى المشهور .

(٤) البطحاء : المسيل الواسع فيه دقاق الحصى . والغسم : الامساء وظلمة الليل . " الإصباح والغسم : أى من كل مرة كان يطلب فيها النبى ﷺ حراء .

(٥) التسنيم : ماء بالجنة يجرى فوق الغرف ، وسنم الإناء تسنيماً : ملأه ، فكأنه أراد بالسنم هنا الإناء المملوء .

وظللتـــه ، فصـــارت تســتظل بـــه   غمامـــةٌ جذبتْـــــها خِـــيرَةُ الدِّيَـــم

محبـــــةٌ لرســــول الله أشـــــربَها   قعائدُ الدير ، والرهبانُ فى القمـــم (١)

إن الشـــمائل إن رقــت يكــاد بـــها   يُغْرَى الجمادُ، ويغرى كـــلُّ ذى نَسَـم

ونودى : اقـــرأ تعـــالى الله قائلــها   لم تتصلْ قبــلُ مَــنْ قيلــت لــه بفــم

هنـــاك أُذِّنَ للرحمـــن ، فـــامتلأت   أســماعُ مكــةَ مــن قدســية النغـــم

فلا تسل عن قريش كيف حَيْرتُـــها ؟   وكيف نَفْرَتُـــها فـــى الســـهل والعلـــم

تساءلوا عن عظيم قـــد ألـــمَّ بـــهمْ   رمى المشـــايخَ والولـــدانَ بـــاللَّمَم (٢)

يا جاهلين على الــــهادى ودعوتــــه   هل تجهلون مكـــان الصـــادق العَلَــمَ ؟

لقبتموه أميـــنَ القـــوم فـــى صغـــر   ومـــا الأميـــنُ علـــى قـــول بمتـــــهم

فاق البدور ، وفاق الأنبيـــاءَ ، فكـــمْ   بالخُلْق والخَلْق من حُسْنٍ ومن عِظَـــم

جاء النبيون بالآيـــات ، فـــانصرمت   وجئتنـــا بحكيـــم غــــــير منصــــرم

آياتــه كلمـــا طـــال المـــدى جُـــدُدٌ   يَزِينُـــهن جـــلالُ العتــــق والقِـــدَم

يكـــاد فـــى لفظـــة منـــه مشــــرفة   يوصيك بالحق ، والتقـــوى وبـــالرحم

يا أفصح النـــاطقين الضـــادَ قاطبـــة   حديثُك الشَّـــهْد عنـــد الذائـــق الفَـــهِم

---

(١) القعائد : جمع قعيدة . وقعائد الدين : ملازموه من متنسكة النصارى والقمـم : جمـع قمة ، وهى أعلى الرأس من كل شئ ، والمراد بها هنا أعالى الجبل .

(٢) ألمَّ : نزل . واللمم (محركة) الجنون .

حلَّيْتَ من عَطَلٍ جِيدَ البيان به … فى كل منتثر فى حسن منتظِم

بكل قول كريم أنت قائلُه … تحيى القلوب ، وتحى ميِّت الهمم

سرتْ بشائرُ بالهادى ومولده … فى لشرق ولغرب مسرى لنور فى لظُّلم

تخطفتْ مُهَجَ الطاغين من عرب … وطيَّرتْ أنفسَ الباغين من عجم

رِيعَتْ لها شُرَفُ الإيوان.فانصدعت … من صدمة الحق لا من صدمة القُدُم

أتيتَ والناس فوضى لا تمرُّ بهمْ … إلا على صنم ، قد هام فى صنم

والأرضُ مملوءةٌ جوراً ، مسخرةٌ … لكل طاغية فى الخلق محتكم

مسيطِرُ الفرسِ يبغى فى رعيته … وقيصرُ الروم من كِبْرٍ أصمُّ عَمِ

يعذبان عباد الله فى شُبَهٍ … ويَذْبَحَانِ كما ضحيتَ بالغنم

والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم … كالليث بالبُهْمِ ، أو كالحوت بالبَلَمِ (١)

أسرى بك الله ليلاً ، إذ ملائكُه … ولرسلُ فى لمسجد الأقصى على قدم (٢)

لما خطرتَ به التفوا بسيدهم … كالشهب بالبدر ، أو كالجند بالعلم

صلى وراءك منهم كلُّ ذى خطر … ومن يفز بحبيب الله يأتمِ

جُبْتَ السموات أو ما فوقهن بهم … على مُنَوَّرَةٍ دريةِ اللُّجُم

ركوبة لك من عز ومن شرف … لا فى الجياد،ولا فى الأينُق الرُّسُم(٣)

---

(١) البهم : جمع بهمة . وهى وِلد الضأن والمعز . والبلم : صغار السمك .

(٢) المسجد الأقصى : بيت المقدس . وعلى قدم : قائمون محتشدون .

(٣) الأينق الرسم : النوق الشديدة الوطء لقوتها ، حتى كأنها ترسم فى الأرض بمشيها أثاراً ظاهرة ، والرُسْم : واحدها رسوم ، والجياد : جمع جواد ، وهو الفرس الرائع البين الجودة .

مشيئةُ الخالق البـــارى ، وصنعتـــه وقـــدرُة الله فـــوق الشـــك والتُّـــهَم

حتى بلغـــتَ ســـماء لا يُطَـــار لـــها على جناح ، ولا يُسْـــعَى علـــى قـــدم

وقيـــل : كـــلُّ نبـــى عنـــد رتبتـــه ويا محمـــدُ ، هـــذا العـــرش فاســـتلم

خَطَطْتَ للديـــن والدنيـــا علومـــهما يا قارئ اللوح ، بل يا لامس القلـــم[1]

أحطتَ بينهما بالســـر ، وانكشـــفتْ لك الخزائنُ من عِلْـــم ، ومـــن حِكَـــم

وضاعفَ القُرْبُ ما قُلِّدْتَ من مِنَـــنٍ بلا عِـــدادٍ ، ومـــا طُوِّقْـــتَ مـــن نِعَـــم

سل عصبة الشرك حول الغار ســـائمةٌ لـــولا مطـــاردةُ المختـــار لـــم تَسُـــم

هل أبصروا الأثر الوضّاء،أم ســـمعوا همس التسابيح والقـــرآنَ مـــن أَمَـــم

وهل تمثّل نســـجُ العنكبـــوت لـــهم كالغاب،والحائمـــاتُ الزُّغْـــبُ كـــالرَّخَم[2]

فأدبروا ، ووجـــوهُ الأرض تلعنـــهم كبـــاطل مـــن جـــلال الحـــق منـــهزم

لوى يـــدُ الله بالجـــارين مـــا ســـلما وعينه حول ركن الديـــن ؛ لـــم يقـــم

تواريـــا بجنـــاح الله ، واســـتترا ومـــن يضُـــمُّ جنـــاحُ الله لا يُضَـــم

يا أحمدَ الخير ، لى جـــاهٌ بتســـميتى وكيف لا يتســـامى بالرســـول سَـــمِى

المـــادحون وأربـــابُ الـــهوى تبـــعٌ لصاحب الـــبردة الفيحـــاء ذى القَـــدَم

([1]) خطه علوم الدين والدنيا : كناية عن تعليمها الناس ، وبثها فيهم وقراءة اللوح ولمـــس القلم : كناية عن إطلاع الله له على ما أطلعه عليه من الغيوب .

([2]) الغاب : الشجر الكثير المتكاثف والحائمات الزغب : الحمام ، والرخم : جمع رخمة ، وهى طائر على شكل النسر ، إلا أنه منقط السواد والبياض .

مديحةُ فيكَ حــبٌّ خــالص وهــوى وصادق الحب يملــى صــادق الكلــم

الله يشـــهد أنـــى لا أعارضـــه من ذا يعارض صوب العــارض العَـرِمِ([1])

وإنما أنا بعض الغــابطين ، ومــن يغبــطْ وليَّـكَ لا يُذْمَـــم ، ولا يُلَـــم

هذا مقـــامٌ مــن الرحمــن مُقْتَبَــسٌ تَرْمــىِ مهابتــهُ سـحبانَ بـــالبَكَم ([2])

البدر دونكَ فى حسن وفــى شــرف والبحر دونك فــى خــير وفــى كــرم

شُمُّ الجبال إذا طاولْتَـــها انخفضــتْ والأنجم الزُّهْر ما واســمتَها تسِـم ([3])

والليث دونــك بأســاً عنــد وثبتــه إذا مشيت إلى شاكى السلاح كَمِــى ([4])

تـهفو إليــك - وإن أدميــتَ حبتــها فى الحرب- أفئــدةُ الأبطــال والبُــهَم

محبـــةُ الله ألقاهـــا - وهيبتُـــه على ابــن آمنــةٍ فــى كــل مصطــدم

كأن وجهك تحت النقع بـــدرُ دُجــىً يضــىء ملتثمــاً ، أو غــيرَ ملتثـــم

بــدرٌ تطلــع فــى بــدرٍ ، فَغُرَّتُـــه كغرة النصــر ، تجلــو داجــى الظُّلَـم

ذُكِرْتَ باليتم فـــى القــرآن تَكْرِمَــةً وقيمة اللؤلـــؤ المكنــون فــى اليُتُــم

([1]) الصوب : الانصباب ، ومجىء السماء بالمطر . والعارض : السحاب المعترض فــى الأفق . والعرم : يريد المطر الشديد .

([2]) البكم : الخرس . وسحبان : هو سحبان وائل من بنى باهلة . كان يضرب بفصاحتــه المثل .

([3]) يقال : واسمه فى الحسن فوسمه : غلبه فيه .

([4]) الكمى : لابس السلاح .

الله قسـم بيـن النـاس رزقــهمُ   وأنت خُــيِّرْتَ فــى الأرزاق والقِسَـم

إن قلت فى الأمر:"لا"أو قلت فيه:"نعـم"   فَخِيرة الله فى " لا " منــك أو " نعـمِ "

أخوكَ عيسى دعا مْيتاً ، فقــام لــه   وأنــت أحييـت أجيـالاً مـن الرِّمَـم

والجهل موت ، فإن أُوتِيتَ معجــزة   فابعث من الجهل،أو فابعث من الرَّجَـم

قالوا:غزوتَ ، ورسْلُ الله ما بعثــوا   لقتل نفــس ، ولا جـاءوا لسـفك دم

جهلٌ ، وتضليلُ أحلامٍ ، وسفســطةٌ   فتحتَ بالســيف بعـد الفتـح بـالقلم

لما أتى لك عفــواً كـلُّ ذى حسـب   تكفـل السـيف بالجـهال والعَمَـم

والشرُّ إن تلقه بـالخير ضقـت بــه   ذرعـاً ، وإن تلقــه بالشـر ينحسـم

سل المسيحية الغراء : كـم شَـرِبَتْ   بالصاب من شهوات الظالم الغَلِـم (1)

طريدة الشرك ، يؤذيها ، ويوسـعها   فى كل حين قتالاً سـاطع الحـدم (2)

لولا حمــاة لــها هبـوا لنصرتـها   بالسيف، ما انتفعت بـالرفق والرَّحِـم

لولا مكـانٌ لعيســى عنـد مرسـله   وحرمة وجبـت للـروح فــى القِـدَم

لَسُمِّرَ البدنُ الطُّهْرُ الشـريفُ عَلَــى   لوحين، لم يخش موذيه، ولم يَجُـم (3)

جلَّ المسيحُ ، وذاق الصَّلْبَ شـانِئُه   إن العقـاب بقـدر الذنـب والجُـرُم

---

(1) الغلم : الهائج الثائر .

(2) الحدم : (بالتحريك) : شدة احتراق النار .

(3) اللوحان : الصليب الذى أعد له عليه السلام ، والمراد بالتسمير : الصلب . لم يجم لم يفزع .

أخو النبي ، وروح الله في نُزُلٍ فوق السماء ودون العرش مُحْتَرَم

علمتهم كل شئ يجهلون به حتى القتالَ وما فيه من الذِّمَم

دعوتهم لجهادٍ فيه سؤددهم والحربُ أسُّ نظام الكون والأُمَم

لولاه لم نر للدُّولات في زمن ما طال من عَمَدٍ ، أو قر من دَعَم

تلك الشواهد تترى كلَّ آونة في الأعصر الغُرِّ،لا في الأعصر الدُّهُم[1]

بالأمس مالت عروشٌ،واعتلت سررٌ لولا القذائف لم تُثْلَم ، ولم تُصَم

أشياعُ عيسى أعدوا كلَّ قاصمة ولم نُعِدَّ سوى حالات منقصم

مهما دُعيتَ إلى الهيجاء قمتَ لها تَرْمِي بأُسْدٍ ، ويَرْمِي اللهُ بالرُّجُم

على لوائك منهم كلُّ منتقم لله ، مستقتلٍ في الله ، معتزم

مسبحٍ للقاء الله ، مضطرمٍ شوقاً ، على سابحٍ كالبرق مضطرم

لو صادف الدهرَ يَبغي نُقْلَة ، فرمى بعزمه في رحال الدهر لم يَرِمِ

بيضٌ ، مفاليلُ من فعل الحروب بهم من أسيُفِ الله ، لا الهنديةِ الخُذُم [2]

كم في التراب إذا فتشتَ عن رجل مَنْ مات بالعهد ، أو من مات بالقسم

لولا مواهبُ في بعض الأنام لما تفاوت الناس في الأقدار والقيم

شريعةٌ لك فجرتَ العقول بها عن زاخر بصنوف العلم ملتطم

([1]) إضافة (آونة) وهى جمع أوان إلى (كل) خطأ ، والصواب : كل أوان.

([2]) مفاليل : الفل : الثلم فى السيف . والهندية : نسبة إلى الهند كانت مشتهرة بصنع السيوف . والخذم : جمع خذم ، ككتف السيف القاطع . بيض : أى سيوف بيض .

يلوح حول سنا التوحيد جوهرُها كالحلْى للسيف أو كالوَشْى للعلم

غراء حامت عليها أنفسٌ ، ونُهىً ومن يجد سلسلاً من حكمة يَحُم

نورُ السبيل يساس العالَمون بها تكفلت بشباب الدهر والهَرَم

يجرى الزمان وأحكام الزمان على حُكْمٍ لها نافذٍ فى الخلق مرتسم

لما اعتلتْ دولةُ الإسلام واتسعت مشت ممالكه فى نورها التَّمِم

وعلَّمتْ أمةً بالقفر نازلة رَعْىَ القياصرِ بعد الشَّاءِ والنَّعَم

كم شيد المصلحون العاملون بها فى الشرق والغرب مُلْكاً باذخ العِظَم

للعلم ، والعدل ، والتمدين ماعزموا من الأمور ، وما شدوا من الحُزُم

سرْعانَ ما فتحوا الدنيا لملتهم وأنهلوا الناس من سَلسالها الشَّبِم (١)

ساروا عليها هداةَ الناس ، فهْى بهم إلى الفلاح طريقٌ واضحُ العِظَم

لا يهدِمُ الدهرُ ركناً شاد عدلُهُمُ وحائطُ البغى إن تلمسه ينهدم

نالوا السعادة فى الدارين ، واجتمعوا على عميمٍ من الرَّضوان مقتسم

دع عنك روما ، وآثينا ، وما حوتا كلُّ اليواقيت فى بغدادَ والتُّوَم (٢)

---

(١) النهل : أول الشرب ، تقول : أنهلت الإبل إذا شربت من أول الورد . والسلسال : الماء العذب . والشبم : البارد .

(٢) روما : هى المدينة المعروفة الآن بهذا الاسم ، قاعدة لمملكة إيطاليا . وكانت فى الزمن السابق قاعدة لمملكة الرومان المشهورة . وآثينا : قاعد مملكة اليونان الآن ، وكانت من أكبر مدن الأمة اليونانية فى العصور السابقة وبغداد : قاعدة الخلافة الإسلامية فى دولة بنى العباس ، والتوم : جمع تومة ، وهى الحبة من الفضة تعمل على شكل الدرة .

وخلِّ كسرى ، وإيواناً يُدِلُّ به   هوى على أثَرِ النيران والأُيُم ([1])

واترك رَعَمْسِيسَ . إن الملك مظهرُه   في نهضة العدل . لا في نهضة الهَرَم

دارُ الشرائع روما كلما ذُكِرَتْ   دارُ السلام لها ألقت يد السَّلَم ([2])

ما ضارعتها بياناً عند ملتَأم   ولا حكتْها قضاءً عند مختصَم ([3])

ولا احتوت في طراز من قياصرها   على رشيدٍ ومأمون ، ومعتصم ([4])

مِنَ الذين إذا سارت كتائبهم   تصرفوا بحدود الأرض والتُّخم ([5])

ويجلسون إلى علم ومعرفة   فلا يدانون في عقل ولا فَهَم

يطاطئ العلماءُ الهَامَ إن نبسوا   من هيبة العلم ، لا من هيبة الحُكُم

ويمطرون ، فما بالأرض من مَحَل   ولا بمن بات فوق الأرض من عُدُم([6])

خلائف الله جلوا عن موازنة   فلا تقيسنَّ أملاك الورى بهم

([1]) كسرى : لقب لكل من يلي ملك فارس . والنيران : لعله يريد بهم نيران فارس ، التي خبت ليلة مولد النبي – ﷺ – ، وكان ذلك أيام كسرى أنو شروان . والأيم : الدخان .

([2]) دار السلام : بغداد .

([3]) ملتام : مجتمع . مختصم : بمعنى المصدر : أي اختصام .

([4]) الطراز : علم الثوب ، والجيد من كل شئ ، ولا احتوت على رشيد الخ ، أي على أمثالهم في الفضل والعدل والحزم . ورشيد : هو هارون الرشيد . ومأمون : هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد الخليفة العباسي المشهور ، ومعتصم : هو أبو إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد ، ولي الخلافة يوم وفاة أخيه المأمون .

([5]) الكتائب : جمع كتيبة ، وهي الجيش ، والتخم : كعنق : جمع تخوم وهي الفواصل بين الأرضين من معالم الحدود .

([6]) المحل : الجدب ، والعدم : فقدان المال .

مَنْ فى البرية كالفـــاروق مَغْدَلَـــةً ؟ وكابن عبدِ العزيـــزِ الخاشـــعِ الحَشِـــم

وكالإمـــام إذا مـــا فـــض مزدَحمـــاً بمدمعٍ فى مـــآقى القـــوم مزدَحِـــم (١)

الزاخرُ العذبُ فى علـــم وفـــى أدب والناصر النَّدبُ فى حرب وفى سَـلَم (٢)

أو كابن عفان والقـــرآنُ فـــى يـــده يحنو عليه كما تحنـــو علـــى الفُطُـــم

ويجمـــع الآىَ ترتيبـــاً ويَنْظِمـــــها عِقداً بجيد الليـــالى غـــيرَ منفصـــم ؟

جُرحان فى كبد الإسلام مـــا التأمـــا جُرح الشهيد،وجُرْحٌ بالكتاب دَمِـــى (٣)

ومـــا بـــلاء أبـــى بكـــر بمتـــــهم بعدَ الجلائـــلِ فـــى الأفعـــال والخِـــدَم

بالحزم والعزم حاط الدينَ فى مِحَـــنٍ أضلتِ الحِلْمَ مـــن كـــهل ومحتلِـــم (٤)

وَحُذْنَ بالراشد الفاروق عـــن رَشَـــدٍ فى الموت ، وهْو يقينٌ غـــيرُ منبـــهم

يجـــادل القـــومَ مســـتَلاًّ مـــهنَّدَه فى أعظم الرُّسْل قدراً ، كيف لـــم يـــدُم

لا تعذلـــوه إذا طـــاف الذهـــولُ بـــه مات الحبيب، فَضَلَّ الصَّبُّ عـــن رَغَـــم

يا رب صلِّ وسلم مـــا أردتَ علـــى نزيـــل عرشـــك خـــيرِ الرُّسْـــل كلِّـــهم

---

(١) الإمام : هو الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه . ومآقى العيون : أطرافها ممـــا يلى الأنوف ، وهى مجارى الدمع .

(٢) يقال : رجل ندب ، أى خفيف فى الحاجة سريع ظريف نجيب .

(٣) وجرح بالكتاب دمى : أى وجرح دمى به الكتاب ، وذلك أن قتله عثمان رضـــى الله عنه دخلوا عليه الدار ، وخبطوه بالسيوف وهو صائم ، والمصحف فى حجره ، وهـــو يقرأ فيه ، فوقع المصحف من يده وسال الدم عليه .

(٤) يشير إلى حروب الردة بعد وفاة النبى - ﷺ - وانتصاره على المرتدين .

مُحيى الليالى صــــلاةً ، لا يُقَطِّعُــها إلا بدمــع مــن الإشــفاق منســجم

مسبحاً لكَ جُنْــحَ الليــل ، محتَمِــلاً ضُرًّا من السُّهد، أو ضُرًّا مــن الــورم

رَضَّيةً نفسُــهُ ، لا تشــتكى ســأماً وما مع الحب إن أخلصت مــن سـأم

وصــلِّ ربــى علــى آلٍ لــه نُخَــبٍ جعلتَ فيــهمْ لــواء البيــت والحــرم

بيضُ الوجوه، ووجهُ الدهر ذو حَلَكٍ شُمُّ الأنوفِ، وأنفُ الحادثات حَمِــى (١)

وأهِـد خــير صــلاة منــك أربعــةً فى الصَّحْب. صحبتهم مرعية الحُــرَم

الراكبيــن إذا نــادى النبــى بــهم ما هال من جلل . واشــتد مــن عمــم

الصابرين ونفــس الأرض واجفــةٌ الضاحكين إلى الأخطــار والقُحَــم (٢)

يا رب ، هبت شعوبٌ مــن منيتــها واستيقظت أمــم مــن رقــدة العــدم

سعدٌ ، ونحسٌ ، ومُلْكٌ أنــت مالكــه تُدِيلُ مــن نعَــمٍ فيــه ، ومــن نِقَــمِ

رأى قضــاؤك فينــا رأى حِكْمتــه أكرِمْ بوجــهك مــن قــاضٍ ومنتقــم

فالطف لأجل رسول العــالمين بنــا ولا تَــزِدْ قومــه خســفاً ، ولا تَسِــم

يا ربِّ ، أحسنتَ بدء المسلمين بــه فتمم الفضل ، وامنــح حســن مختتــم

(١) الحلك (محركة) : شدة السواد . والشمم فى الأنف : ارتفاع القصبة وحسنها .

(٢) القحم : جمع قحمة بالضم ، ومن معانيها : الأمر الشاق لا يكاد يركبه أحــد ، وهــو المراد هنا .

(٤)

معالم النص الأدبى بين الشاعرين :

*** أولاً : الأفكار**

تحتوى بردة " البوصيرى " على ١٦٢ (مائة واثنين وستين) بيتاً من الشعر، بدأها الشاعر بالنسيب الرمزى الذى يوحى ظاهره أن الشاعر يتغزل فى محبوبة ما ، وقد سلك بذا مسلك معاصريه من أمثال : " ابن الفارض " (٥٧٦ - ٦٣٢هـ) - رحمه الله - ولكنه ينطوى - فى الحقيقة على غزل روحى مشبَّع بأدوات الرمز التى تصرف المعنى إلى غير المراد منه .

فمطلع قصيدة " البوصيرى " :

أمِن تذكر جيران بذى سَلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

أم هبتِ الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق فى الظلماء من إضَمِ

ومطلع ميمية معاصره " ابن الفارض " :

هل نار " ليلى " بدت ليلاً بذى سلم أم بارقٌ لاح فى الزوراء فالعلم

أرواحَ نعمانَ هَلاَّ نَسْمَةٌ سَحَراً وماءَ وَجْرَةَ هلاَّ نَهْلَةٌ بفم (١)

فكل واحد من الشاعرين يتغزل فى مطلع قصيدته ، وإن صرح " ابن الفارض " باسم محبوبته " ليلى " إلا أنه يجعل ذلك مدخلاً رمزياً يصل به إلى هدفه من القصيدة .

والملحوظ فى تشبيب الشاعرين أنه يتعلق بقوة بالمعالم العربية كالأودية والجبال والمياه ، وكلها أمكنة تتصل بالبيئة الحسية التى عاشها النبى - ﷺ -

---

(١) ديوان ابن الفارض ص ٧٤ ، ٧٥ مكتبة زهران بمصر د.ت . والأرواح : جمع : ريح ، وهى منادى محذوف حرف النداء ، ونعمان : واد ، ووَجْرة : موضع ، والنهلة : الشربة .

وقضى حياته كلها : يرتع فيها صبياً ، ويتعبد ويدعو إلى الله عز وجل نبيـــاً ، ويجاهد أعداءه غازياً فى سبيل الله ، وكل ذلك بمثابة التمهيد أو تهيئـــة الجـو النفسى لمدحه - ﷺ - .

ثم يتخلص " البوصيرى " من مطلعه الغزلى ليتحدث عن النفس وهواها ، ويحذر من انحرافها ومن تسليم القياد لها ، فإنها إن لم تورد صاحبـــها مـــوارد الهلاك ، تصمه بالمعايب التى تبقى سبة فى جبينه مدى الدهر .

وقد ابتدأ الشاعر - رحمه الله - حديثه عن النفس بقوله :

إنى اتهمت نصيح الشيب فى عَــذَلٍ والشيب أبعد فى نصــح عــن التــهم

فإن أمَّارتى بالســـوء مـــا اتعظـت من جهلها بنذيـــر الشـــيب والـــهرم

وقد استغرق حديث الشاعر عن النفس وأهوائها سبعة عشــر بيتــاً مــن القصيدة ، بما يدل على قوة نزعة " البوصيرى " الدينية ، وصدق عاطفة التوبة والندم على ما بدر منه فى الشطر الأول من حياته .

وينصح الشاعر بعدم موافقة النفس فى رغباتها ، وعدم تحقيق مطالبها ؛ لأنها لا تشبع أبداً ، وبين أن خير ما تساس به هو كسر شهوتها بالجوع وفطمها عن الطعام كما يُعَوَّد الطفل على ترك الرضاع ، وهى نظرة صوفية ، لعـــل " البوصيرى " أفادها من مخالطته بعض رموز الصوفيـــة أو أقطابـــها ، فتـــأثر بطبائعهم ورأى فيها النفع فى صرف النفس عن هواها .

يقول فى هذا المعنى :

واخش الدسائس من جوع ومن شــبع فـــرب مخمصـــة شـــر مـــن التخـــم

والنفس كالطفل إن تهمله شب علـــى حب الرضـــاع وإن تفطمـــه ينفطـــم

ثم ذكر من دواعى الندم أنه اقتصر على أداء الفرض ، ولم يـزد علـى ذلك ، وهى رتبة صغيرة لا يرقى بها العبد إلى درجة القرب والاصطفاء :

ولا تـزودت قبـل المـوت نافلــة   ولم أُصَلِّ سوى فـرض ولـم أصُـمِ

ثم أخذ الشاعر فى مدح النبى - ﷺ - وتصوير شخصيته فى أبيات غاية فى الجمال والقوة يقول :

ظلمتُ سُنَّةَ من أحيـا الظـلام إلـى   أنِ اشتكتْ قدمـاه الضُـرَّ مـن وَرَم

وشدَّ من سَـغَبٍ أحشـاءه وطـوى   تحت الحجـارة كَشْـحاً مُـتْرف الأدم

وتحدث عن آيات القرآن الكريم ، وبين ما فيها من إعجاز يفحـم بلغـاء العرب وأساطين البيان . ويردهم عن التحدى عاجزين عن الإتيان بمثل أصغـر آية منه يقول " البوصيرى " :

لم يمتحِنّا بمـا تعيـا العقـولُ بـه   حرصاً علينا فلم نَرتَـبْ ولـم نَـهِم

أعيا الورى فهمُ معناه فليس يُـرَى   فى القرب والبعد فيه غـيرُ منفحـم

وتحدث عن " الإسراء والمعراج " وما وقع فى تلك الليلة للنبـى - ﷺ - من معجزات وما رأى من آيات بينات ، وما عاد به من نفحات من تلك الرحلة العلوية المباركة ، ومن شعره فيها قوله :

سريتَ من حَـرَمٍ ليـلا إلـى حـرم   كما سرى البدر فى داج مـن الظُّلَـم

حتى وصل إلى قوله :

فَحُزْتَ كـلَّ فَخَـار غـيرَ مُشْـتَرَك   وَجُـزْتَ كـلَّ مقـامٍ غـيرَ مُزْدَحَـمِ

وجَلَّ مقدارُ ما وُلِّيـتَ مـن رُتَـب   وعَزَّ إدراكُ مـا أُولِيـتَ مـن نِعَـم

وانتقل الشاعر إلى الحديث عن شجاعة النبى - ﷺ - وجهاده فى سـبيل الله معجباً بشجاعته وبسالة أصحابه - رضى الله عنهم - ، وكيف أن أعداءهـم

انهزموا من هول ما رأوا من تضحيات ومواقف فدائية لا مثيل لها فى ساحات القتال ، يقول الشاعر :

هم الجبال فسل عنهم مُصادِمَهم   ما ذا رأى منهمُ فى كل مصطَدَم

كأنهمْ فى ظهور الخيل نبتُ رُبَاً   من شدة الحَزْم لا من شدة الحُزُم

طارت قلوبُ العدا من بأسهم فَرَقاً   فما تُفَرِّقُ بين البَهْم والبُهَم

ومن تكن برسول الله نصرتُه   إن تَلْقَهُ الأسْدُ فى آجامها تَجِم

ثم ختم قصيدته بالاستغفار والندم والمناجاة ومراجعة النفس وردها عن غوايتها إلى الوقوف بباب الرجاء والتماس لطف الله وعفوه :

لعل رحمةَ ربى حين يَقسِمها   تأتى على حسب العصيان فى القِسَم

يا ربِّ واجعل رجائى غيرَ منعكس   لديكَ واجعل حسابى غيرَ منخرِم

والطف بعبدك فى الدارين إنَّ له   صبرا متى تدعُهُ الأهوالُ ينهزم

وأما نهج البردة لأمير الشعراء " شوقى " فتحتوى على ١٩٠ (مائة وتسعين) بيتاً من الشعر ، بدأها الشاعر – رحمه الله – بالتشبيب فقال :

ريمٌ على القاع بين البان والعلم   أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

ثم ضمَّن هذا المطلع الغزلى شيئاً من الحكم وحديث النفس قائلاً :

لما رنا حدثتنى النفس قائلة   يا ويح جنبك، بالسهم المصيب رُمِى

جحدتُها ، وكتمتُ السهم فى كبدى   جُرحُ الأحبة عندى غيرُ ذى ألم

أو قوله :

يا نفس ، دنياك تخفى كل مبكية   وإن بدا لك منها حسنُ مبتسم

فُضِّى بتقواك فاهاً كلما ضحكت   كما يُفَضُّ أذى الرَّقشاءِ بالثَّرِم

ثم تخلص من حديث النفس – الذى طال بعض الشئ – إلى المدح فى خير البرية – ﷺ – قائلاً :

لزمت باب أمير الأنبياء ، ومن يُمْسِكْ بمفتاح باب الله يغتنم

وتلمُّ أثناء هذا المديح بأطراف من صفات الرسول وإشادة من الشاعر بسمو منزلته – ﷺ – وكرم أصله وشرفه فى قومه يقول الشاعر :

نُمُوا إليه، فزادوا فى الورى شرفاً وربَّ أصل لفرع فى الفخار نُمِى

وعرج " شوقى " على مولده وما صاحب ذلك من معجزات ، ثم تحدث عن جهاد الصحابة وبلائهم فى سبيل الله عز وجل وحكمة النبى فى غزوه وجهاده يقول الشاعر :

علمتهم كل شئ يجهلون به حتى القتال وما فيه من الذِّمَم

دعوتهم لجهادٍ فيه سؤددهم والحربُ أسُّ نظام الكون والأُمَم

ثم يتحدث عن فضل الشريعة الإسلامية وسماحتها قائلاً :

شريعة لك فجَّرتَ العقول بها عن زاخر بصنوف العلم ملتطم

يلوح حول سنا التوحيد جوهرُها كالحَلْى للسيف أو كالوَشْى للعلم

غرَّاءُ حامت عليها أنفس ، ونُهىً ومن يجد سلسلاً من حكمة يَحُم

ولا ينسى شوقى ذكر مآثر الخلفاء وحاملى مشاعل الدعوة إلى الله من الصحابة الكرام – رضى الله عنهم وتابعيهم – ومن ذلك قوله :

خلائف الله جلوا عن موازنة فلا تقيسنَّ أملاك الورى بهمِ

مَنْ فى البرية كالفاروق مَعْدَلَةً ؟ وكابن عبد العزيز الخاشع الحَشِم

وكالإمام إذا ما فض مزدَحماً بمدمع فى مآقى القوم مزدحِم

أو كابن عفانَ والقـرآنُ فـى يـده   يحنو عليه كما تحنـو علـى الفُطُـم
ومـا بـلاء أبـى بكـر بمتـهم   بعد الجلائـل فـى الأفعـال والخِـدَم

ويختم الشاعر نهجه بالدعاء للمسلمين أن يلطف الله بهم ويكشف عنهم الخسف والاستبداد والظلم :

فالطف لأجل رسول العـالمين بنـا   ولا تـزد قومـه خسـفاً ، ولا تُسِـم
يا رب ، أحسنت بدء المسلمين بـه   فتمم الفضل ، وامنح حسـن مختتـم

ويستطيع القارئ أن يلحظ اشتراك الشاعرين " البوصيرى وشوقى " فى بعض المعانى مع احتفاظ كل منهما بلغته وطريقته فى الأداء والتعبير ، وإذا كان الشاعران قد اشتركا أو اتفقا فى بعض المعانى ، فإن كلاً منهما قد انفرد عن الآخر بمعان وأفكار لم يأت بها نظيره ، وسنذكر شيئاً من هذا فى الصفحات التالية :

موازنة بين الشاعرين :

ابتدأ الشاعران قصيدتيهما بالتشبيب ، ليهيئا النفس للسماع والتلقى ، ويشعلا نار العاطفة فى قلب السامع ونفسه .

لكن " شوقى " أكثر فى هذا المطلع الغزلى عن " البوصيرى " ؛ فعلى حين نجد التشبيب يستغرق عند " البوصيرى " أحد عشر بيتاً منذ بدء القصيدة منتهياً عند قوله :

عدَتْك حالىَ لا سِرِّى بمستتر عن الوُشاة ولا دائى بمنحسم

مَحَضْتَنِى النُصحَ لكنْ لستُ أسمعه إنَّ المحب عن العُذَّال فى صَمَم

نجد ذلك عند " شوقى " يستغرق أربعة وعشرين بيتاً منذ مطلع القصيدة منتهياً عند قوله :

لم أغشَ مغناكِ إلا فى غضون كِرىً مغناك أبعد للمشتاق من إرَم

فالبوصيرى طوى أموراً كثيرة فى تشبيبه ، جاء " شوقى " بعده ففصلها ووضحها مثل قوله :

يا بنت ذى اللِّبَدِ المحمىِّ جانبُه ألقاكِ فى الغاب،أم ألقاكِ فى الأطُم ؟

ما كنت أعلم حتى عنَّ مسكنُه أن المنى والمنايا مضرب الخِيَم

مَن أنبت الغصن من صمصامةٍ ذكر وأخرج الرِّيم من ضِرغامة قرم

وحين انتقل الشاعران إلى الحديث عن النفس نرى فى ذلك عكس ما رأيناه فى المطلع الغزلى ، حيث أطال " البوصيرى " بعض الشئ عن "شوقى" فى حديث النفس وأهوالها ، فتحدث عنها حديثاً يبرز خفاياها ويفضح مستورها ويحذر منها مشدداً فى التحذير ، على حين نجد شوقى يوجز فى هذا الأمر ولم

يأت بما أتى به صاحبه ولم يقفنا على حقيقة النفس وطبائعها بالشكل الذى عرضه الآخر .

والبوصيرى لم يكتف بعرض أحوال النفس الإنسانية وطبائعها فحسب، بل وجَّه النصح للإنسان المسلم أن يخالفها ولا يركن إلى رغباتها ، ولم يفعل مثل ذلك " شوقى " يقول " البوصيرى " :

فلا تَرُمْ بالمعاصى كسر شهوتها   إن الطعام يُقَوِّى شهوة النَّهِمِ

ويقول أيضاً :

وخالف النفس والشيطان واعصمها   وإن هما محَّضاك النصح فاتَّهِمِ

و" البوصيرى " بعد ذلك يتحدث عن استغفاره وتوبته وندمه ، و " شوقى " يتحدث عن أمله فى الله ورجائه فى عفوه .

وينتقل الشاعران إلى المدح فالبوصيرى يبدأ مدحه للنبى - ﷺ - بقوله :

ظلمتُ سُنَّة من أحيا الظلام إلى   أنِ اشتكتْ قدماه الضُّرَّ من وَرَم

و " شوقى " يبدأ مدحه بقوله :

لزمت باب أمير الأنبياء ، ومن   يُمْسِكْ بمفتاح باب الله يغتنم

ومن المدح حديث الشاعرين عن " الإسراء والمعراج " ، وهنا نلمس فى " البوصيرى " صدق إيمانه وقوة يقينه وشروق باطنه وشدة محبته للنبى - ﷺ - فيقول :

سريتَ من حَرَم ليلا إلى حرم   كما سرى البدر فى داج من الظُّلَم

ويصل فى وصف هذا الحادث العظيم إلى قوله :

خفضتَ كلَّ مقام بالإضافة إذ نوديت بالرفع مثلَ المفرد العلم

أما " شوقى " فيقول فى وصف أخاذ وتصوير يملأ النفس إشراقاً وبهجة ، ودبياجة مشرقة تتلألأ كالنور فى جبين المؤمن صادق الإيمان :

أسرى بك الله ليلاً ، إذ ملائكُه والرُّسل فى المسجد الأقصى على قدم

لما خطرت به التفوا بسيدهم كالشهب بالبدر ، أو كالجند بالعلم

صلى وراءك منهم كلٌّ ذى خطر ومن يفز بحبيب الله يأتمِم

جُبْت السموات أو ما فوقهن بهم على مُنَوَّرَةٍ درية اللُّجُم

وفى تصوير " شوقى " للبراق خطآن :

الأول : حين صور البراق تصويراً حسياً بأنها درية اللجم ؛ إذ هذا وصف لا قيمة له حين يلحق بدابة تجوب السموات وعلى متنها أشرف الخلق ، وهى دابة مأمورة معدة لهذا الغرض ، فهذا الوصف المصنوع ليس فيه فخار ولا مكرمة للنبى المختار - ﷺ - ؛ إذ الجوهر هو محل الافتخار وليس الأعراض والقشور .

والثانى : خطأ تاريخى ، ما كان لمثل شوقى فى ثقافته أن يقع فيه ؛ إذ من المعلوم أن النبى - ﷺ - ركب البراق فى إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى أما عروجه إلى السموات العلا فلم يكن على البراق ، لكن شوقى جعله وسيلته فى هذا وذاك حين قال :

جُبْت السموات أو ما فوقهن بهم على مُنَوَّرَةٍ درية اللُّجُم (1)

---

(1) راجع: شرح نهج البردة للشيخ سليم البشرى ص ٧٧ مكتبة الآداب بمصر سنة ١٩٩٩م .

أو قوله :

حتى بلغت سماءً لا يُطَار لها ... على جناح ، ولا يسعى على قدم

فكل من " شوقى " و " البوصيرى " ، قد تعرضا لصفات المدح فى رسول الله – ﷺ – حسية ومعنوية ، فإن أجمل أحدهما فى بعض الموضوعات أطال فى بعضها الآخر ، وذلك بحسب المقام . ولكن " شوقى " – على العموم – يزيد عن " البوصيرى " ويتميز بأمور منها :

١- اعترافه بالضعف أمام البوصيرى ، وفى ذلك من التواضع لصاحب البردة ما يرفع من شأن " شوقى " ؛ لأن من تواضع لله رفعه الله . يقول شوقى :

المادحون وأربابُ الهوى تبع ... لصاحب البردة الفيحاء ذى القَدم

مديحةُ فيكَ حب خالص وهوى ... وصادق الحب يملى صادق الكلم

الله يشهد أنى لا أعارضه ... من ذا يعارض صوب العارض العرم

وإنما أنا بعض الغابطين ، ومن ... يغبطْ وليَّكَ لا يُذْمَم ، ولا يُلَم

هذا مقام من الرحمن مقتبس ... ترمى مهابتهُ سحبانَ بالبَكم

٢- وفى حديث " البوصيرى " عن صفات النبى – ﷺ – لا يذكر أن طلبه مجاب من قبل الله عز وجل ، ولكن " شوقى " يذكر ذلك فالبوصيرى يقول :

(نبينًا) الآمرُ الناهى فلا أحدٌ ... أبرَّ فى قول " لا " منه أو " نعم "

وشوقى يقول :

إن قلت فى الأمر:"لا"أو قلت فيه:"نعم" ... فخيرة الله فى " لا " منك أو " نعم "

فالبوصيرى يذكر أن النبى - ﷺ - هو الآمر فى الأمور كلها ، فقوله هو الحاسم ، ينزل عليه أصحابه يأتمرون به وينتهون عنده ، وفى ذلك إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾(سورة النساء "٦٥") ، وهو بار بالمؤمنين فى أمره ونهيه لا يدانيه فى هذا البر أحد ، و " شوقى " يأتى بالمعنى السابق نفسه ولكن يزيد على صاحبه حين يجعل أوامر النبى - ﷺ - ونواهيه تمضى بموافقة الله له فى أمره ونهيه ، فإذا قال " نعم " يوافقه الله ، وإذا قال " لا " يوافقه الله ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علّمه شديد القوى .

٣- أوجز " البوصيرى " فى حديثه عن " المسيح " عليه السلام ، فجاء ذكره فى بردته فى بيت واحد هو :

دعْ ما ادعته النصارى فى نبيهم   واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

وحتى هذا البيت المفرد جاء مجملاً فى مضمونه فقوله : " دع ما ادعته النصارى فى نبيهم " كلام عام يحتاج إلى تفصيل .

لكن شوقى أطنب فى ذكر عيسى عليه السلام فذكر كثيراً من صفاته ذكراً واضحاً لا يحتاج إلى إعمال فكر أو مراجعة علم ، فتحدث عن بعض معجزاته وفند بعض الافتراءات التى قيلت عنه وذكر صفات أنصاره وحوارييه .

يقول شوقى :

أخوك عيسى دعا ميْتاً ، فقام له   وأنت أحييت أجيالاً من الرِّمم

وفى موضع آخر يقول :

جلَّ المسيح ، وذاق الصَّلْبَ شانِئُه   إن العقاب بقدر الذنب والجُرُم

ويتحدث عن المسيحية وما خاضته من معارك مع جبهة الشرك ، ونصرة الله عز وجل لها فيقول :

سل المسيحية الغراء : كم شربت … بالصاب من شهوات الظالم العلم

طريدة الشرك ، يؤذيها ، ويوسعها … فى كل حين قتالاً ساطع الحدم

لولا حماة لها هبوا لنصرتها … بالسيف، ما انتفعت بالرفق والرَّحِم

لولا مكانٌ لعيسى عند مرسله … وحرمة وجبت للروح فى القِدَم

لَسُمِّرَ البدنُ الطهرُ الشريفُ علَى … لوحين، لم يخش موذيه، ولم يجم

ويتحدث " شوقى " عن أشياع عيسى عليه السلام أو أنصار المسيحية والمبشرين بها فى عصرنا فيقول :

أشياعُ عيسى أعدوا كلَّ قاصمة … ولم نعد سوى حالات منقصم

فشوقى – رحمه الله – يبين أن المبشرين بالمسيحية أعدوا عدتهم فصنعوا الأسلحة الفتاكة وتفوقوا فى مجال القتال وتجرأوا على ديار الإسلام بما أوتوا من قوة وعتاد فى الوقت الذى قعد فيه أهل الإسلام عن هذا الهدف رغم أن دينهم يأمرهم بإعداد العدة وأخذ الاستعداد ، يقول تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ... ﴾ (سورة الأنفال " ٦٠ ") .

ومن هنا يتضح أن " شوقى " فاق البوصيرى فأطنب فى ذكر المسيح ودعوته وربط الماضى بالحاضر ، على خلاف البوصيرى الذى أوجز فى ذكره إلى حد بعيد .

٤- فى حديث الشاعرين عن القرآن زاد " البوصيرى " عن " شوقى " فى عدد الأبيات فاستغرق حديث الأول عنه سبعة عشر بيتاً من قصيدته على حين

جاء ذكر القرآن الكريم عند الأخير فى ثلاثة أبيات فقط ، ولكن للإنصاف نقول : إن " شوقى " رغم إجماله جاء بأبيات أحكم نسجاً ، وأسلس تعبيراً ، ولكن ذلك لا يجعله يفوق " البوصيرى " فى ذكر معانى القرآن الكريم ؛ فقد يعد إيجاز شوقى تقصيراً ؛ حيث أطال فى مواضع لا تستحق الإطالة ، والقرآن هو دستور المسلمين فكان الأجدر به أن يوليه قدراً كبيراً من عنايته ؛ وذلك لما فيه من آيات وعبر وقصص ومعجزات .

وبالمقارنة بين بيتين من الشعر أحدهما لشوقى والآخر للبوصيرى يمكن إدراك الفرق بين الشاعرين ، يقول " البوصيرى " فى الإشادة بمعانى القرآن :

فما تَطاوَلُ آمالُ المديح إلى ما فيه من كرم الأخلاق والشِّيَم

و " شوقى " يقول فى المعنى نفسه :

يكاد فى لفظة منه مشرفة يوصيك بالحق ، والتقوى وبالرحم

فمدح " البوصيرى " لآيات القرآن الكريم أقرب إلى مدح الأشخاص ؛ لكن مدح " شوقى " يركز على نواحى إعجازه اللفظى والقيمى ، حيث تعطيك لفظة واحدة منه معانى كثيرة ، وتقفك على وصايا عديدة ، وهو قمة الفصاحة ومنتهى البيان ، ولذا فقد تحدى المولى عز وجل فصحاء العرب أن يأتوا بكلمات منه أو أحرف فعجزوا وأعياهم ذلك كل الإعياء .

لقد أعطى " شوقى " للمديح من روحه وثقافته وفكره ما جعله يقف على أعظم المعانى ، وأجمل الألفاظ وأرق الأساليب ، وهى ميزة قد لا تتحقق فى غيره ممن مدحوا النبى - ﷺ - قبله أو بعده ، مع الاحتفاظ لكل واحد من السابق واللاحق بقدره وجهده وإخلاصه .

٥- أتى " شوقى " فى مدحه للنبى - ﷺ - ببعض ملامح العصر من ذكر البلدان و أسماء الملوك من عجم ومن عرب ، ولكن " البوصيرى " لم يفعل ذلك : يقول " شوقى " :

دع عنك روما ، وآثينا ، وما حوتا ... كلُ اليواقيت فى بغداد والتُوَم

وخلِّ كسرى ، وإيوانا يدِلُ به ... هوى على أثر النيران والأيم

واترك رعمسيسَ . إن الملك مظهرُه ... فى نهضة العدل . لا فى نهضة الهرم

دارُ الشرائع روما كلما ذُكِرَتْ ... دارُ السلام لها ألقت يد السَّلَم

ما ضارعها بياناً عند ملتَأم ... ولا حكتْها قضاءً عند مختصَم

ولا احتوت فى طراز من قياصرها ... على رشيدٍ ومأمون ، ومعتصم

فقد خلع " شوقى " على معانيه من ثقافته التاريخية ما طبعها بطابع عصرها ، وجعل القارئ فى معايشة تامة لأحداث عصر النبوة وما صاحبه أو أعقبه من مآثر للعرب فى عصور الازدهار ، وهى مقارنة لطيفة تضيف إلى المدح طرافة وتزيده قوة .

٦- انفرد " شوقى " عن " البوصيرى " بالتطرق إلى أغراض لم تخطر لصاحبه على بال ولم ترد له على خاطر ؛ حيث صور فيها سمات عصره وروح زمنه ، كما رد على شبهات أثيرت حول الإسلام ودحض مفتريات وجهت إلى الدين الإسلامى مثل فرية انتشار الإسلام بحد السيف ، فجاء دفاع " شوقى " عن الإسلام فى أسلوب قوى متين وحجج دامغة مفحمة استقى مصادرها من تاريخ الأمم والإسلام ، ومن فلسفة الحياة التى خبرها " شوقى " وثقافته التى أحاط بها وتعلمها وجمع فيها بين ثقافة الشرق وتراثه وثقافة الغرب وحداثته .

وقد عرض " شوقى " كل ذلك عرضاً طريفاً شيقاً فيه جمال وسحر وبيان ، ومن هذا التفرد فى الأغراض والأفكار ما جاء به شوقى من حديث عن الشريعة المحمدية وكيف أن مجيئها للدنيا كان حتماً وضرورة فى الوقت الذى عمت فيه الفوضى وانتشر الظلم وحل الفساد أرجاء الكون ، بحيث أضحى الكون فى أمس الحاجة إلى شرع تشرق به جنباته ونور يمحو ظلام الجهل ويبدد خرافات الوهم ويرسى الحب والعفاف والطهر .

يقول " شوقى " :

أتيتَ والناس فوضى لا تمرُّ بهم ... إلا على صنم ، قد هام فى صنم

والأرضُ مملوءةٌ جوراً ، مسخرة ... لكل طاغية فى الخلق محتكم

مسيطِرُ الفرسِ يبغى فى رعيته ... وقيصرُ الروم من كِبْرٍ أصم عَمِ

يعذبان عباد الله فى شُبَهٍ ... ويذبحان كما ضحيت بالغنم

والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم ... كالليث بالبُهْم ، أو كالحوت بالبَلَم

ودافع " شوقى " عن الإسلام ورد شبهة انتشاره بالسيف فقال :

قالوا : غزوت ، ورسْلُ الله ما بعثوا ... لقتل نفس ، ولا جاءوا لسفك دم

جهل ، وتضليل أحلام ، وسفسطةٌ ... فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما أتى لك عفواً كلُّ ذى حسب ... تكفل السيف بالجهال والعمم

والشرُّ إن تلقه بالخير ضقت به ... ذرعاً ، وإن تلقه بالشر ينحسم

سل المسيحية الغراء : كم شرِبت ... بالصاب من شهوات الظالم الغَلِم

طريدة الشرك ، يؤذيها ، ويوسعها ... فى كل حين قتالاً ساطع الحدم

لولا حماة لها هبوا لنصرتها ... بالسيف، ما انتفعت بالرفق والرَّحِم

ومما انفرد به " شوقى " ذكره لآلات الحرب ومعداتها ، ووصفه لساحات القتال وما يقع فيها من تناحر ، وهى خاصية من خواصه فى نهج البردة لم نجدها عند " البوصيرى " . مما تقدم يتضح لنا أن " شوقى " قلد "البوصيرى" فى نهجه ، حيث نظم قصيدته – ابتداءً – على وزن بردة البوصيرى ورويها وأفاد منه فى كثير من معانيها ، ولكنه أتى بأشياء لم يأت بها البوصيرى ، وقد أشرنا إلى شئ منها فيما سبق ، وقد كان شوقى فى بعض الأحيان مجملاً بينما كان البوصيرى مفصلاً ومسهباً كما رأينا من حديثهما عن القرآن الكريم ، وكان شوقى مسهباً فى أمور أوجز فيها البوصيرى كما رأينا من ذكرهما المسيح عليه السلام حيث لم يزد البوصيرى فى ذكره عن بيت واحد ، بينما شوقى ذكره فى مواطن كثيرة مفصلاً القول فيه وفى دعوته وراداً شبهة الصلب عنه .

ولسنا فى هذه المقارنة نريد أن نفاضل بين الشاعرين أو نعلى من شأن أحدهما عن الآخر ، ولكن طبيعة الدراسة الأدبية تقتضى قراءة الشاعرين وتتطلب الوقوف على بعض الوفاق أو الاختلاف فى التعبير والصياغة وطريقة العرض وما يلزم ذلك من انعكاس الثقافة والبيئة على كل منهما .

ثانياً : الأسلوب

البردة ونهجها من بحر البسيط التام ، وأجزاؤه هى : مستفعلن فاعلن مستفلعن فعلن ، وهو وزن متوافق مع التجربة التى تأثر بها الشاعران ، وإن كان لدىً شئ من التحفظ على العلاقة بين الوزن والمعنى ، فكل بحر – من وجهة نظرى – يصلح لكل تجربة ولست أوافق من يذهب إلى تحديد طابع نفسى لكل وزن أو مجموعة من الأوزان الشعرية (١) فإن النغمة المرتفعة قد تناسب الغضب والفرح على السواء،وقد تكون بعض حالات الغضب والفرح

---

(١) التفسير النفسى للأدب – د / عز الدين إسماعيل ص ٥٨ ، ٥٩ .

ذات نغمة منخفضة ، فقد يكون الشاعر هادئاً ويعبر عن غضبه بنغمة عالية ، وقد يكون ثائراً هائجاً ويعبر عن غضبه وهيجانه بنغمة منخفضة ، وقد تلعب طريقة القراءة دوراً بارزاً فى الارتفاع بالنغمة أو انخفاضها ، " فليس هناك بحر أليق لنظم الرثاء أو المدح أو الفخر ، ولكن نظم الموضوع الواحد فى بحور مختلفة يجعل لكل تجربة شكلها وإيقاعها المتميز " (1) .

وقد رتب " البوصيرى " أفكار قصيدته ترتيباً منسقاً فى أسلوب رصين وألفاظ سهلة المأخذ ، فحين تقرأ البردة ترى أنها مبوبة الأفكار والمعانى ، فتستطيع أن تضع أفكاراً وعناوين لكل مجموعة من الأبيات لما بينها من وحدة وترابط ، ولكن حين تقرأ نهج البردة ترى الأمر على خلاف ذلك ، فشوقى قد تتداخل عنده المعانى والأفكار فيحدثك عن فكرة ، ثم ينتقل منها إلى فكرة أخرى ، ثم يعود – فى بعض الأحيان – إلى الفكرة التى تركها ، فيحدث بذلك نوعاً من تخلخل البناء فى النص الشعرى ، والتفكك فى العرض والترتيب ، فليس للمنطق سلطان على النص ، ولا للحوادث تعاقب فى العرض والسرد ، ومن قبيل ذلك : وصفه لغار حراء ، فقد استغرق عدة أبيات من قصيدته ، حتى إذا مضيت معه فى قصة الغار واستقر الأمر فى ذهنك نقلك فجأة إلى وصف معجزات النبى – ﷺ –، ثم يعود بعد ذلك إلى حديث الغار يقول شوقى:

سائل حراء،وروحَ القدس: هل علما	مصون سر عن الإدراك منكتم
كم جيئة وذهاب شرفت بهما	بطحاءُ مكة فى الإصباح والغسم
ووحشةِ لابن عبد الله بينهما	أشهى من الأنس بالأحباب والحشم
يسامر الوحى فيها قبل مهبطه	ومن يبشر بسيمَى الخير يتّسِم

(1) موسيقى الشعر العربى دراسة فنية وعروضية – د / حسنى عبد الجليل يوسف ، ص ٢٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م .

ثم يثب من وصف الغار إلى المعجزات قائلاً :

لما دعا الصحبُ يستسقون من ظمـأ   فاضت يـداه مـن التسـنيم بالسَّـنِم

وظللتـه ، فصـارت تسـتظل بــه   غمامـةٌ جذبتْـها خِـيرَةُ الدِّيَـم

محبــةٌ لرســول الله أشْـرِبَها   قعائدُ الدير ، والرهبـانُ فـى القمـم

ثم يعاود الحديث عن الغار قائلاً :

ونودى : اقـرأ تعـالى الله قائلـها   لم تتصلْ قبلُ مَـنْ قيلـت لـه بفـم

ويختار " البوصيرى " الألفاظ السهلة ، حيث يلاحظ أن البردة لها جمهور عريض من عامة الناس وكذا من المثقفين ، ولعل السر فى ذلك ما تمتاز به من سهولة الألفاظ وموافقتها للذوق العام وكأن " البوصيرى " كـان يخـاطب بـها طوائف المجتمع كلها ، فلم يخص بها علية القوم أو خواص المثقفين والعلماء ، وهذا على خلاف " شوقى " فقد جاءت ألفاظه تخاطب فئة المثقفين ، حيث ينتقى الألفاظ الجزلة الرصينة القوية التى تناسب طائفة معينة هى طائفة المثقفيـن ، ومن هنا كان قارئ البردة يروقه معانيها المتناسقة وألفاظها السهلة وأما من يقرأ النهج فيعجبه فصاحة الشاعر وجزالة ألفاظه ، وهى صفات تـروق بالدرجـة الأولى البلاغيين وذوى الثقافة اللغوية ، حيث يقفهم شوقى علـى دروس فـى بلاغة الأسلوب وفصاحة اللفظ وقـوة السـبك وجمـال العبـارة ، وإن كـان البوصيرى قد تفوق على شوقى فى أحيان كثيرة ، ومن مآخذ الأسـلوب علـى الشاعرين : استعمال البوصيرى مصطلحات العلوم فى شعره كما نـرى فـى قوله :

خفضـتَ كـلَّ مقـام بالإضافـة إذ   نوديت بالرفع مثـلَ المفـرد العلـم

فقد أفسد هذا البيت ما فيه من تورية باستخدام اصطلاحات النحاة من خفض ، وإضافة ، ونداء ، ورفع ، ومفرد ، وعلم ، وما إلى ذلك .

وأما شوقى فقد أفرط إلى حد غير مقبول فى استخدام المحسنات البديعية ومنها قوله :

ذُكِرتَ باليتم فى القرآن تكرمة وقيمة اللؤلؤ المكنون فى اليُتَم

ففيه حسن تعليل ، وكذا قوله :

لقبتموه أمينَ القوم فى صغر وما الأمينُ على قول بمتهم

أو قوله :

لقد أنلتك أذناً غيرَ واعية ورُبَّ مُنْتَصِتٍ والقلبُ فى صمم

ففيهما طباق بين أمين ومتهم ، وبين منتصت وصمم .

ومثلهما قوله :

يا ناعس الطرف، لاذقت الهوى أبداً أسهرتَ مُضنَاكَ فى حفظ الهوى فنم

فبين (أسهرت) و (نم) طباق .

وقد استخدام الجناس كثيراً ومنه قوله :

يَفْنَى الزمانُ . ويبقى من إساءتها جُرحٌ بآدمَ يبكى منه فى الأَدَم

فبين (آدم) و (أدم) جناس .

ولاشك فى أن هذه المحسنات البديعية وإن أعطت الشكل مظهراً جميلاً إلا أنها – بالإكثار منها – تصرف القارئ عن ملاحظة المعانى الطريفة إلى الشكل الحسن والرواء الجميل واللفظ الرقيق ، وهذا فى حد ذاته يفقد النص قدراً كبيراً من أهميته .

ثالثاً : العاطفة والخيال والموسيقى

لاشك فى أن القصيدتين تنبعان من مصادر واحدة ، أو – على الأرجح – مصادر متقاربة ؛ إذ الباعث عليهما واحد ، فالبوصيرى قضى شطراً كبيراً من حياته فى غفلة وتقصير فى أمر الطاعة والعبادة ، وقدّر له فى أخريات عمره أن يصاب بمرض كاد أن يفضى به إلى الموت ، أقعده عن حركة الحياة ، وأفقده عافيته ، فنذر إن هو شفى منه أن ينشئ قصيدة يمدح بها المصطفى – ﷺ – ، فعافاه الله عز وجل من مرضه ، فأنشأ البردة عبر فيها عن حبه للنبى الكريم عليه الصلاة والسلام ، وعن تقصيره فى جنب الله وقدم فيها كل آيات الندم والتوبة والاستغفار عما مضى من عمره ، باكياً حزيناً أثناء ذلك كله ، وراجياً من الله عز وجل قبول ندمه وتوبته ، مبتهلاً إليه متضرعاً أن يقيل عثرته وألا يخيب رجاءه .

ومن ذلك قوله عن النبى – ﷺ – :

خدمتُه بمديح أستقيل به ذنوبَ عُمْرٍ مضى فى الشعر والخِدَم

إذ قلدانىَ ما تُخْشَى عواقبُه كأننى بهما هَدْىٌ من النَّعَم

و " شوقى " – رحمه الله تعالى – قضى شطراً كبيراً من حياته هو الآخر لاهياً عابثاً يعاقر الكاس ويتغزل فى الفتيات ، ثم بدا له فى نهاية عمره أن يتوب إلى الله ويقلع عن غيه ، ويخلع نفسه من ربقة الذنوب ومن حياة اللهو والشراب ، فمدح النبى – ﷺ – بقصيدة طويلة على نهج بردة البوصيرى وعلى وزنها ، مقدماً فيها ندمه على عمر مضى فى غفلة شديدة يقول فيها :

إن جل ذنبى عن الغفران لى أمل فى الله يجعلنى فى خير معتصَم

ألقِى رجائى إذا عَزَّ المُجِيرُ على مفرِّجِ الكرب فى الدارين والغَمم

إذا خفضتُ جَناح الذل أسأله عزَّ الشفاعة ؛ لم أسألْ سوى أمَم

وإن تقَّدَم ذو تقوى بصالحةٍ قدمت بين يديه عَبْرَةَ الندم

لزمت باب أمير الأنبياء ، ومن يُمْسِكْ بمفتاح باب الله يغتنم

فالباعث على القصيدتين هو الابتهال إلى الله والتضرع إليه سبحانه أن يقبل توبة العاصى وندمه على ما بدر منه من تقصير ، وقد استشفع كلاهما بالنبى – ﷺ – فى تحقق الرجاء فقدم كل شاعر قصيدة فى مدح خير البرية رسول الله عليه الصلاة والسلام .

فعاطفة الشاعرين واحدة أو متقاربة إلى حد كبير ، فهى صادرة عن شاعرين أحسا مرارة الذنب وذاقا ذل المعصية ، ورغبا إلى الله فى قبول التوبة والندم على ما سلف منهما . وهو شعور صادق ؛ لأنه نابع من نفس معذبة وقلب مقروح، فليس فيه مبالغة أو تصنع ؛ لأن المقام مقام مدح النبى – ﷺ – ، والبوح بحب الله ورسوله .

وإذا كانت العاطفة هى مجموعة النوازع الداخلية التى تحيل المعانى إلى صور حية نحسها ونتأثر بها ، فإن عاطفة شوقى تبدو أكثر تأثيراً فى القارئ من عاطفة البوصيرى ؛ لأن نص شوقى مليئ بالشحنات العاطفية التى تهز القارئ والسامع ، فى قوة وتدفق شديدين .

والعاطفة لدى " شوقى " تقوم على دعائم إسلامية وعربية ، حيث يعد " شوقى " شاعر العرب والمسلمين ، ومن هنا كان اتجاهه إلى مدح النبى – ﷺ – ، حيث إن هذا النبى الكريم هو رمز هذا الدين ، وهو عربى ، شرف العرب بالانتماء إليه وإلى الكتاب المعجز الذى أنزل عليه ، ولغته يتحدث بها ويتخاطب عدة ملايين من العرب والمسلمين ، وما دام العرب هم مصدر هذه اللغة ، وعلى رجل منهم نزل وحى السماء ، فله – دون شك – حرمة تدفع مثل " شوقى " إلى التغنى بأمجاد الدين وأخلاق الرسول – ﷺ – ، وهى معان

لها من الأثر فى نفس الشاعر ما ليس لسواها من آثار الماضى ؛ ولذا لم تكن إشادة شوقى بالنبى ودعوته وأصحابه ومعجزاته لهدف سياسى ، وإنما كان الهدف الإيمانى أقوى من كل هدف .

وأما الخيال : فالبردة تفوق النهج فيه تصويراً وجمالاً ، ذلك أن " البوصيرى " خلع على قصيدته من روح الدين وبث فيها من إلهاماته الصوفية وفيوضاته الروحانية ما صبغها بصبغة روحانية خالصة ، فكأنها تأوهات صوفى معذب بالحب والعشق الإلهى .

أما نهج البردة فقد أعمل فيها " شوقى " الصنعة والتكلف اللفظى والتأنق فى الأسلوب فأفسد بهذا الشكل الزخرفى كثيراً من الصور ، التى جعلت القارئ يعجب بجمالها وتأنقها وإبداعها أكثر من إعجابه بما تنطوى عليه من محتوى فكرى ومضمون أخلاقى .

على أننى أكون مجافياً للحقيقة إذا قلت إن الخيال عند صاحب البردة " البوصيرى " قوى محلق فى كل قصيدته وأنه يتفوق على " شوقى " فى كل صوره ، بل قد يكون تأثر الأول بالأسلوب المنطقى وتأثر شعره بالفلسفة قد حد من الخيال فى بعض الأحيان ، أو فى كثير من الأحيان ، غير أن الذى حقق له التميز فى مواطن كثيرة حسن تعبيره وعاطفته المتدفقة بالإيمان والقوة ، وهى – لاشك – عاطفة صادقة لا مجال للارتياب فيها أو التقليل من شأنها ؛ إذ هى عاطفة إنسان تائب إلى الله تعالى ، نادم على تفريطه فى حق الله عز وجل ، وفى الوقت نفسه هو إنسان معجب بشخص الرسول – ﷺ – وبدينه وصحبه الكرام وبكتابه الذى تنزل عليه فيه هدى ورحمة ، فكان هذا الإيمان وذلك الإعجاب هما سبب بقاء النص وخلوده وإعجاب القارئ والمستمع به فى كل عصر .

ومن الحق القول بأن " شوقى " قد بلغ فى الخيال أعلى درجة وأتى بأرق الصور وأجمل التشبيهات حتى صارت قصيدته لؤلؤة فى جيد حسناء أو فرقداً فى أفق السماء .

وانظر إلى قوله :

وصاحب الحوض يومَ الرسْلُ سائلةُ   متى الورودُ؟وجبريل الأمين ظَمِى

فقد استخدم " شوقى " الكناية استخداماً حسناً جميلاً حيث كنَّى عن النبى – ﷺ – بقوله : " وصاحب الحوض " ففى الوقت الذى يقف فيه الرسل والأنبياء فى انتظار الإذن بورود الماء وجبريل عليه السلام أمين وحى السماء شديد الظمأ ، يكون محمد – ﷺ – هو صاحب هذا الحوض ، فقد أضفت الكناية على البيت معنى فى منتهى القوة والجمال .

وفى التعبير بالاستفهام فى وقوله :

يا جاهلين على الهادى ودعوته   هل تجهلون مكان الصادق العلَمِ ؟

إنكار عليهم وتسفيه لهم على جهلهم وحمقهم بانحرافهم عن الصواب وعدم تصديقهم بدعوة النبى – ﷺ – ، رغم أنهم أكثر الناس دراية ومعرفة بصدقه ومكانته فى قومه .

وفى مطلع قصيدة " شوقى " براعة استهلال حيث يقول :

ريمٌ على القاع بين البان والعلم   أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

وفيه طباق بين " أحل " و " الحرم " يزيد المعنى وضوحاً ، فالضد يظهر حسنه الضد .

ولا يخفى ما فى قوله :

" الحاملات لواء الحسن مختلفاً " من كناية ، حيث عبر عن منتهى الحسن بحمل لوائه .

وفى قوله واصفاً محبوبته أو معشوقته (الرمز) :

مَن أنبت الغصن من صمصامةٍ ذكـر   وأخرج الرِّيم مـــن ضِرغامـــة قـرم

يتعجب الشاعر متسائلاً : كيف يولد لمثل هذا الرجل الشبيه بالسيف فـى مضائه وحدته مثل هذه الفتاة التى تشبه الغصن فى لدونته وتثنيـه وجمالـه ، وكيف يكون لمن يشبه الأسد فى قوته وسطوته وبأسه مثل هذه الفتاة التى تشبه الغزال فى رقته ودلاله ، وضعفه . فقد جاءت الاستعارة بالمعانى الرائقة وجمعت بين المتناقضين فى أسلوب طريف ، وكذا فقد أكد الاستفهام فى البيت معنى التعجب ، وقد ساعد ذلك كله فى رسم صـورة كليـة كـون التعجب والاستفهام والاستعارة أجزاءها ، ونسجوا خيوطها .

وفى قول شوقى واصفاً النفس :

ركضتها فى مريع المعصيـات ومـا   أخذت من حميـة الطاعـات للتخـم

استعان الشاعر بالاستعارة المكنية فى تصوير نفسه المنطلقة والمسترسلة فى غيها ؛ حيث شبه النفس السائمة تشبيهاً مضمراً فى النفس بـالجواد النـافر الذى ركضه الفارس ليعدو ، فمضى منطلقاً كالريح العاصف ، أو شـبه نفسـه الغاوية بالبهيم الذى يستطيب المرعى ويسترسل فيه لا يصده عنه صادٌ ، وفيـه تشبيه ضمنى لمن يتعفف عن مقارفة المعاصى بمن يمسك نفسه عن تناول مـا يهيضه من ألوان الطعام .

لاشك فى أن أمير الشعراء " أحمد شوقى " شاعر موهوب حقق فى نـهج البردة كل معانى الشاعرية ، حيث عبر عن عاطفته الدينية وإحساسـاته التـى تفيض بالحب والوله والعشق للنبى ودعوته مستخدماً فى ذلك كل وسائل التعبير التى تنقل تجربته فى صدق إلى القارئ ، فجاءت ألفاظه منتقاة موحية تنفذ فـى يسر إلى عواطف قارئه وسامعه على السواء فتثير عاطفة مشابهة عند المتلقى .

وقد اختار شوقى من الألفاظ والأساليب أحفلها بالمعانى وأقدرهـــا علـــى تصوير المشاعر الإنسانية التى ينفذ منها الشاعر إلى أعماق النفوس البشـــرية وينقل إليها تجاربه ، ومن ذلك قوله :

لا تعذلـوه إذا طـاف الذهـول بـــه   مات الحبيب فَضلَّ الصب عـن رغـم

فهو يصور ذهول " عمر بن الخطاب " رضى الله عنه حين علـــم بنبـــأ وفاة الرسول – ﷺ – ؛ لأنها لحظة حرجة ، أو هى من ألمع ساعات الحـــرج فى تاريخ المسلمين ، ويرى أن الموقف لا يلام فيه أحد ؛ إذ تفقد فيـــه العقـــول اتزانها ، ويذهل كل ذى عقل عن عقله ، ويخرج الحليم أو الحكيم عـــن حلمـــه وحكمته ؛ لأن حب النبى والارتباط به شديدان ، ولا تحتمل قلوب تمكن منـــها هذا الحب وملك عليها كل أرجائها لحظة الفراق .

وتلعب الموسيقى وجرس الألفاظ دوراً مهماً فى قصيدتى (البوصـــيرى وشوقى) ؛ فشوقى : اختار ألفاظاً ذات وقع خاص ، وتتآلف هذه الألفاظ فـــى صورة صوتية معينة تبعث فى العبارة والفكرة روحاً تنفذ إلى النفس من أقـــوب طريق .

وهذه الموسيقى الداخلية إما أن تكون واضحة يسهل إدراكها منذ البداية ، وهى التى يكون مصدرها الجناس والطبـــاق والســـجع وغيرهـــا مـــن ألـــوان الزخارف اللفظية .

ومن ذلك : الجناس ، وهو يبدو بصورة شـــائعة فـــى القصيـــدة كقـــول شوقى :

يفنى الزمان ويبقى مـــن إســـاءتها   جرح بـــآدم يبكـــى منـــه فـــى الأدم

أو قوله :

الله قســـم بيـــن النـــاس رزقـــهم   وأنت خـــيرت فـــى الأرزاق والقســـم

أو الطباق مثل قوله :

يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أبـداً   أسهرت مضناك فى حفظ الهوى فنـم

ومن حسن التعليل قوله :

ذُكِرْتَ باليتم فـى القـرآن تكرمـة   وقيمة اللؤلـؤ المكنـون فـى اليُتـم

وقد تكون الموسيقى خفية لا تدرك بسهولة ويسر ، ولكنها تشيع فى جـو النص وتستنبط من روحه ، ويكون مصدرها حسن اختيار الألفاظ والـتراكيب ، فتكون بمثابة الموسيقى المحلقة فى النص أو التـى ترافـق الألفـاظ وتوافـق المعانى ، فتهيئ وجدان السامع وعواطفه لتقبُّل التجربة والتأثر بـها ، وهـذه الموسيقى تنتج عن اكتمال العناصر الفنية للشاعر ، ومن ذلك قول شوقى :

إن جل ذنبى عن الغفران لـى أمـل   فى الله يجعلنى فـى خـير معتصَـم

أُلْقِى رجائى إذا عَزَّ المُجِـيرُ علـى   مفرِّجِ الكرب فـى الداريـن والغَمـم

إذا خفضـتُ جَنـاح الـذل أسـأله   عِزَّ الشفاعة ؛ لم أسألْ سـوى أَمَـم

وإن تقـَّدَم ذو تقـوى بصالحــةٍ   قدمـت بيـن يديـه عَـبْرَةَ النـدم

لزمت باب أمـير الأنبيـاء ، ومـن   يُمْسِـكْ بمفتـاح بـاب الله يغتنـم

فحين تقرأ هذه الأبيات تحس بوقعها الحزين فى نفسك وقد لعبت الألفـاظ دوراً مباشراً فى ذلك . كل ذلك إضافة إلى الموسيقى الخارجية للنـص وهـى قائمة على تفعيلات بحر البسيط الذى تكثر فيه الأحرف الساكنة التى ترتاح إليها النفس وينتج عنها إطالة المقاطع ومد الكلمات ، وفى ذلك راحة للنفس وهـدوء فى الأداء ورقة فى المعالجة ؛ إذ المقام مقام مدح للنبى - ﷺ - وهو يسـتدعى التذلل والرجاء والخضوع لله والتوسل إليه بكل طاعة والتقرب إليـه بـالعمل

الخالص ، فارتفاع النبرة والصوت لا يناسب مقام التذلل والخضوع ، ومن هنا كان بحر البسيط بتفعيلتيه (مستفعلن فاعلن) أنسب البحور لهذا الغرض .

وأما " البوصيرى " فقد اتخذ إلى جانب لغته الهامسة وروحه العالية ونبضه الإيمانى المنتظم ، اتخذ من موسيقى الأبيات الخارجية التى جاءت على وزن البسيط التام كذلك ، ومن جرس الألفاظ والدقة الشديدة فى اختيار كلماته وجمله ، وكذا جمال صوره وتشبيهاته ، كل ذلك جعله مادة ثرية لموسيقاه ، التى تؤثر بدورها فى عاطفة الشاعر والمتلقى وترسم لوحة شعرية نابضة بالحياة وناطقة بمراسم الجمال فيها .

وأخيراً :

فما زالت بردة المديح للبوصيرى تحظى برضى القراء وإقبالهم عليها بشكل يدعو إلى العجب ، فرغم مرور الأعوام المتتالية والقرون العديدة عليها إلا أنها ما زالت تتلى فى المجالس وتقرأ فى المحافل وكأنها ورد من الأوراد التى يتقرب بها إلى الله عز وجل ، فلم تمت البردة بموت منشئها ولا تزال الصلة بينها وبين القارئ كل يوم فى ازدياد ، ويكفيك لكى تدرك مدى شيوعها وانتشارها على ألسنة الناس أن تزور مسجدى السيدة زينب والحسين بن على رضى الله عنهم لترى هذه الحشود المجتمعة والحلقات المستديرة والملتفة حول البردة ينشدونها ويرتلون أبياتها فى تنغيم جميل وأداء حسن رائع يدل على حب وعشق لمعانيها وألفاظها ، بل إن بعض الصوفية يقرأونها فى اليوم مرة أو مرتين – وتلحظ ذلك إذا زرت مسجد الإمام البوصيرى بالإسكندرية – على أنها ورد من الأوراد .

ويفسر أحد الأدباء سر هذا الإقبال الشديد على البردة البوصيرية ، والتصاقها بوجدانات الجماهير ، نظراً لأنها نظمت فى عصر صوفى بطبعه ،

أو كان الأكثر تصوفاً فى العصور الإسلامية منذ مجيئ الرسالة ، وكذلك لأن " البوصيرى " كان ينتمى صوفياً إلى الطريقة الشاذلية المنتشرة فى البقاع المصرية منذ القرن السابع الهجرى ، ونظراً — كذلك — لما أحاطها بها الصوفية من هالات ، فقد ادعوا أنها تجلب البركة ، وأنها مطية إلى الشفاعة ، ووسيلة من وسائل التقرب إلى الله " [1] .

وقد أتيح لأمير الشعراء " أحمد شوقى " أن ينشئ بردته على نهج بردة " البوصيرى " ويأتى فيها بالمعانى نفسها وربما زاد عليها ، أو أتى بما لم يأت به صاحبه ، وقد صاغها " شوقى " فى قالب فنى جميل ، وبلغ من حب الناس لها وإعجاب الجماهير بفنها وصياغتها أن قام بعض الأدباء بشرحها وبيان ما فيها من معان وقيم أدبية وفنية فضلاً عن القيم الأخلاقية ، ومن هؤلاء : الشيخ " سليم البشرى " رحمه الله تعالى [2] وقدم لهذا الشرح الأديب الكبير : محمد المويلحى صاحب (حديث عيسى بن هشام) .

ورغم هذه الحفاوة التى قوبلت بها قصيدة " شوقى " فإن تأثيرها كان مقصوراً — فى الغالب — على الطبقة المثقفة والمتذوقة للشعر الرصين ، وهى طبقة لم تكن قريبة من حياة عامة الشعب واهتماماتها ونوازعها ، وإذا كان صوت " أم كلثوم " قد دوى إلى آفاق بعيدة وبلغ آماداً واسعة من العالم متغنياً بنهج البردة فنفذ بها إلى القلوب ورددها الملايين من الأفراد فى أنحاء الدنيا كلها وجعل البردة على كل لسان ، رغم ذلك كله فإن نهج البردة لم يتح لها

---

(1) البوصيرى المادح الأعظم للرسول . عبد العال الحمامصى ص ٤١ .

(2) هو سليم بن أبى فراج بن سليم بن أبى فراج البشرى . شيخ الجامع الأزهر (١٢٨٤ – ١٣٣٥هـ = ١٨٦٧ – ١٩١٧م) من فقهاء المالكية ، ولد فى محلة بشر (من أعمال شبراخيت بمصر) وتولى نقابة المالكية ثم مشيخة الأزهر مرتين . راجع تقديم محمد المويلحى لشرح نهج البردة هامش ص ٣٥ مكتبة الآداب بمصر ١٩٩٩م .

من الذيوع والانتشار ما أتيح لبردة البوصيري ، ورغم ما قد يقال من أن قصيدة " شوقي " جاءت في كثير من جوانبها أكثر تفوقاً في الشاعرية وفي الأسلوب من قصيدة " البوصيري " إلا أن ذلك لا يكفل لها ما أتيح للبردة ، " فالبردة قد أخذت حظها من الإنشاد والرواية بما يجعلها أكثر القصائد النبوية جرياً على الألسنة ، واستشهاداً في كتب الأدب والتاريخ .([1])

ولكن يكفي " شوقي " فضلاً ما أثاره من روح دينية في نفوس الشباب والشيوخ ، وعزة قومية نحن في أمس الحاجة إليهما في عصرنا وخصوصاً في تلك الأيام التي كثرت فيها التحديات لديننا وقوميتنا ، بل منذ أنشد " شوقي " قصيدته هذه وحتى وقتنا الراهن .

تأثر شوقي بالبوصيري :

لقد تأثر شوقي بالبوصيري إلى حد كبير ، فاحتذى حذوه ، وتشابه معه في كثير من الأفكار والمعاني ، فأفاد من بردته واستلهم روحها ، وطبعها بطابع نفسه وخلع عليها من ثقافته وفكره ما كتب لها الذيوع والانتشار ، وجاءت عاطفة الشاعرين متشابهة أو متقاربة ، وإن اختلف الأسلوب ، فبينما ينزع البوصيري إلى السهولة والوضوح يسلك شوقي في انتقاء ألفاظه وعباراته مسلكاً وعراً ، ويحرص على لغته الجزلة الرصينة حرصاً شديداً .

وإذا كان البوصيري قد جرى على سنة القدماء في بدء القصائد بذكر الديار والوقوف على الأطلال فنجده يقول في مطلعه :

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

ويقول في موطن آخر من قصيدته :

لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل ولا أرقت لذكر البان والعلم

([1]) البوصيري المادح الأعظم للرسول ، عبد العال الحمامصي ص ٤٣ .

فتلاحظ ذكره للديار والآثار والأطلال ، ووقوفه على المعالم البائدة والآثار الزائلة .

ولكن حين نقرأ نهج البردة لشوقى نراه وإن تأثر بالبوصيرى خاصة ، وبالقدماء عامة فى بدء قصيدته بالتشبيب ، إلا أنه لم يقف على الديار والآثار أو يبكى على الأطلال ، بل اقتصر على التشبيب وأتى بمعان جديدة ، لم يقع عليها القدماء ، وإن سار على طريقتهم كما قال " محمد المويلحى " : " لقد وفق بحمد الله شاعرنا هذا " أحمد شوقى " إلى سلوك هذا السبيل فى شعره ، فلم يقتصر على قرض القريض فى ما تجرى عليه الأحوال فى عصرنا الحاضر ، بل سار على نهج المتقدمين وانتحى مناحيهم فى فنون الشعر ، واقتدى بهم فى هذه القصيدة " (1) .

وإذا كان شوقى قد سار على نهج الأقدمين إلا أنه تناول أفكارهم وزاد عليها ، فاختصر بعض معانى البوصيرى وأفكاره وفصل فى مواضع أجمل فيها صاحب البردة ، وقد عالج كلاهما نواحى أدبية وخلقية بأسلوب رائع ، ويلاحظ على أسلوب البوصيرى أن ألفاظه قوالب لمعانيه بحيث تظهر قوة الترابط بين الألفاظ ومعانيها . وهى ميزة تبدو أوضح فى البردة وإن لم تخل منها أبيات نهج البردة .

ويمتاز البوصيرى بأنه لا تكلف عنده فكلامه يأتى عفواً لا تأنق فيه ولا تصنع ، وإن وجدنا فى بردته ألفاظاً فخمة وأساليب رصينة قوية .

وفى أسلوب شوقى كثير من الصناعة ، إذ هو من محترفى هذا المذهب (التجويد فى الشعر) فالإبداع عنده أثر من آثار الصنعة الشعرية . ولذا تكثر عنده التشبيهات الجيدة والاستعارات والصور المبتكرة التى تميزه عن غيره من الشعراء .

---

(1) مقدمة نهج البردة لمحمد المويلحى ص ٣٤ .

وفى النهاية :

فإن الشاعرين " البوصيرى وشوقى " قد أخلصا وصدقا فى مدح النبى – ﷺ – ، ومن هنا كتب لبردتيهما من الذيوع وبُعْد الصيت ما لم يكتب لغيرهما من مدائح الشعراء ، رغم أن هناك كثيراً من التجارب التى يحاكى بها قائلوها بردة البوصيرى ويترسموا طريقة شوقى مثل البارودى وأحمد محفوظ ، ومحمد خليل الخطيب ، ومحمد حامد الأبنودى ، والضابط : محمد توفيق على وأخيراً : الدكتور " أحمد عمر هاشم " أستاذ الحديث بجامعة الأزهر .

أسأل الله – عز وجل – أن يكتب لهذه الدراسة القبول ، وما توفيقى إلا بالله .

المصادر والمراجع

١- الأسس الفنية للإبداع الأدبى د. عبد العزيز شرف ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ سنة ١٩٩٣م .

٢- أصول النقد الأدبى لأحمد الشايب ط٤ مكتبة النهضة المصرية د.ت .

٣- البوصيرى المادح الأعظم للرسول ، عبد العال الحمامصى ، دار المعارف بمصر سلسلة كتابك ١٩٧٨م .

٤- دراسات فى علم النفس الأدبى ، حامد عبد القادر ، المطبعة النموذجية سنة ١٩٤٩م .

٥- ديوان ابن الفارض – مكتبة زهران بمصر د . ت .

٦- ديوان البوصيرى – تحقيق محمد سيد كيلانى ط٢ ، مكتبة مصطفى البابى الحلبى بمصر ١٩٧٣م .

٧- سرح العيون لابن نباته ، دار الكتب المصرية .

٨- شرح نهج البردة للشيخ سليم البشرى مكتبة الآداب بمصر ١٩٩٩م .

٩- الشوقيات . لأحمد شوقى ط١ ، طبعة المكتبة التجاربة الكبرى ١٩٧٩م.

١٠- الصورة الأدبية د. مصطفى ناصف ، مكتبة مصر ، د.ت .

١١- فى الأدب والنقد د. محمد مندور ط٣ ، القاهرة ١٩٥٦م .

١٢- قطوف . عبد العزيز البشرى ، دار الكاتب المصرى ، الجزء الثانى سنة ١٩٤٧م .

١٣- محاضرات فى أدب العصر الجاهلى – د. عبد الحميد المسلوت – القاهرة د. ت .

١٤- المدائح النبوية فى الأدب العربى د. زكى مبارك طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة : ذاكرة الكتابة عدد ٤٨ لسنة ٢٠٠٣م .

١٥- معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب ، د. مجدى وهبة وكامل المهندس ط٢ بيروت مكتبة لبنان ١٩٨٤م.

١٦- المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، طبعة وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٩٧م.

١٧- المنتخب من أدب العرب ج٢ طه حسين وآخرون ، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠١م .

١٨- النقد العربى الحديث ومذاهبه د. محمد عبد المنعم خفاجى د.ت .

الفهـــرس



المؤتلف والمختلف

فى

التوابـــــــــع

دكتور

سعيد محمد مغازى عوض فودة

مدرس اللغويات

فى كلية اللغة العربية

جامعة الأزهر - إيتاى البارود



مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تمسك بهديه إلى يوم الدين ، **وبعد** : فالتابع هو الاسم المشارك لما قبله فى إعرابه مطلقا ([1]) ، وهو على خمسة أنواع : النعت والتوكيد وعطف البيان وعطف النسق والبدل ، ثم إن وجه انحصار التوابع فى هذه الأنواع الخمسة أن التابع إما أن يكون بواسطة حرف وإما لا ، فالذى يكون بواسطة حرف هو عطف النسق ، والذى لا يكون بواسطة حرف إما أن يكون له ألفاظ محصورة معروفة ، أو يكون بإعادة اللفظ الأول أو تقويته بموافقه معنىً أوْلاَ ، فالذى لا يكون بواسطة حرف فإن كانت له ألفاظ محصورة معروفة ، أو كان بإعادة اللفظ الأول أو تقويته بموافقه معنى فهو التوكيد ، والذى لا يكون بواسطة حرف وليس من النوعين السابقين فإما أن يكون بالمشتق أو ما فى قوته وهو النعت ، وإما أن يكون بالجامد وهو عطف البيان.([2])

والناظر فى هذا الباب – أعنى باب التوابع – يعلم أنه توجد أوجه ائتلاف كما أنه توجد أوجه اختلاف فيما بينها ، وليس هذا لكل ناظر ، فهى لم يجمعها عنوان يوضحها ، ولذلك كان البحث عنها أمرا هاما يسترعى النظر ، ومن ثم عمدت لجمعها ، ولَمِّ شتاتها ودراستها دراسة موضوعية ، وتنقية أحكامها فى بحث مستقل حتى يسهل على القارئ الوصول إلى بغيته ، فكان لى ما أردت ، فسميته : **المؤتلف والمختلف فى التوابع** .

([1]) شرح ابن عقيل ١٩٠/٣.

([2]) عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك ٢٩٩/٣ .

وقد اقتضت طبيعته أن يشتمل على مقدمة وفصلين تعقبهما خاتمة وفهرس للمصادر والمراجع وآخر للموضوعات .

أما المقدمة فقد اشتملت على تعريف التابع ، وأنواعه ، ووجه انحصاره فى هذه الأنواع ، وسبب اختيارى لهذا البحث ، والخطة التى اتبعتها ، ومنهجى فيه .

وأما الفصل الأول فهو بعنوان : المؤتلف فى التوابع .

وجعلته فى عشرة مباحث :

المبحث الأول : أوجه الائتلاف بين النعت وعطف البيان .

المبحث الثانى : أوجه الائتلاف بين النعت والتوكيد .

المبحث الثالث : أوجه الائتلاف بين النعت وعطف النسق .

المبحث الرابع : أوجه الائتلاف بين النعت والبدل .

المبحث الخامس : أوجه الائتلاف بين عطف البيان والتوكيد .

المبحث السادس : أوجه الائتلاف بين عطف البيان وعطف النسق .

المبحث السابع : أوجه الائتلاف بين عطف البيان والبدل .

المبحث الثامن : أوجه الائتلاف بين التوكيد وعطف النسق .

المبحث التاسع : أوجه الائتلاف بين التوكيد والبدل .

المبحث العاشر: أوجه الائتلاف بين عطف النسق والبدل .

وأما الفصل الثانى فهو بعنوان : المختلف فى التوابع .

وجعلته فى عشرة مباحث :

المبحث الأول : أوجه الاختلاف بين النعت وعطف البيان .

المبحث الثانى : أوجه الاختلاف بين النعت والتوكيد .

المبحث الثالث : أوجه الاختلاف بين النعت وعطف النسق .

المبحث الرابع : أوجه الاختلاف بين النعت والبدل .

المبحث الخامس : أوجه الاختلاف بين عطف البيان والتوكيد .

المبحث السادس : أوجه الاختلاف بين عطف البيان وعطف النسق .

المبحث السابع : أوجه الاختلاف بين عطف البيان والبدل .

المبحث الثامن : أوجه الاختلاف بين التوكيد وعطف النسق .

المبحث التاسع : أوجه الاختلاف بين التوكيد والبدل .

المبحث العاشر : أوجه الاختلاف بين عطف النسق والبدل .

وتمثل منهجى فى دراسة هذه المباحث فى المنهج الاستقرائى والاستنباطى .

وأما الخاتمة فقد ضمنتها أهم النتائج ، ثم سجلت فى نهاية البحث فهرسا لأهم المراجع التى اعتمدت عليها ، وفهرسا آخر للموضوعات .

هذا وقد اجتهدت قدر استطاعتى طمعا فى الاقتراب من الصواب ، شأنى شأن أى إنسان يؤدى عملا ما ، فهو ينشد فيه الكمال – والكمال لله وحده – ، ولذا فإننى ألتمس من كل من نظر الغلط فى هذا العمل أن يصفح ، ولا يكن من أناس بالغلط يفرحون ، وليصلح ما يجد .

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ ([1])

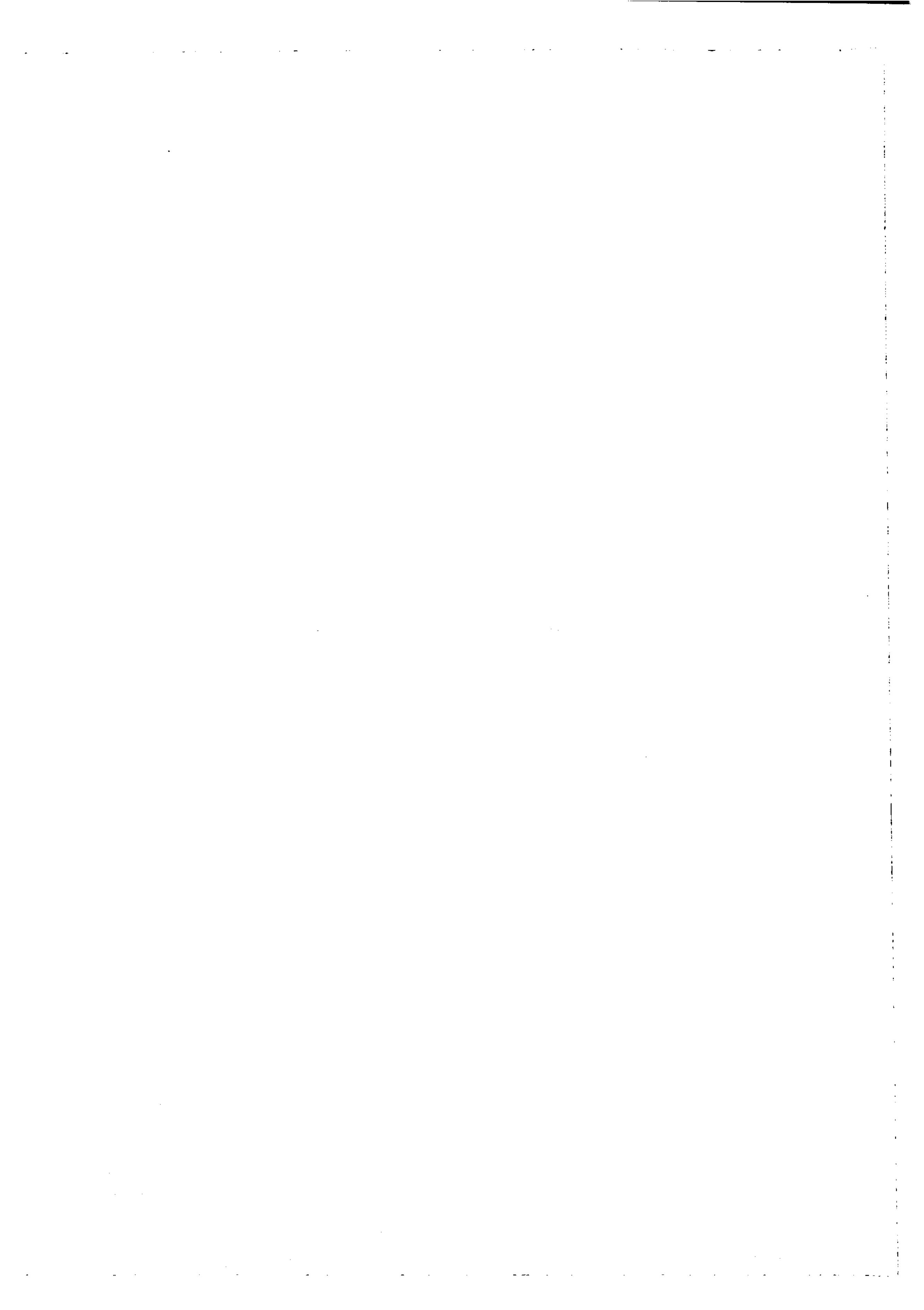
دكتور

سعيد محمد مغازى

([1]) سورة هود من الآية (٨٨) .

الفصل الأول

المؤتلف فى التوابع



المبحث الأول
أوجه الائتلاف بين النعت وعطف البيان

أما النعت : فهو التابع (1) الذى يكمل متبوعه (2) ببيان صفة من صفاته (3) .

---

(1) (التابع) يشمل التوابع كلها ، وخرج بقيد التكميل : ما عدا النعت من التوابع ، وإنما خرج بقية التوابع لأنه ليس شيء منها يدل على صفة المتبوع ، أو صفة ما تعلق بالمتبوع ، ولهذا وجب فى النعت أن يكون مشتقا ليدل على الذات ، وعلى المعنى القائم بها ، وعطف البيان والبدل وإن جاز ذلك فيهما إلا أنه لا يقصد بهما التكميل بإيضاح المتبوع أو تخصيصه وضعا .

منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل ١٩١/٣ .

(2) اعلم أن النحاة يفسرون قولهم فى تعريف النعت : (المتمم لمتبوعه) بأحد تفسيرين :

الأول : أن معناه : المفيد لما يطلبه المتبوع بحسب المقام ، وممن اختار هذا التفسير الأشمونى [٥٩/٣] ، وهو تفسير شامل لكل المعانى التى يرد لها النعت من التوضيح والتخصيص والمدح والذم والترحم والتعميم والإبهام والتوكيد و التفصيل ، فلا يرد عليه الاعتراض بأنه غير جامع .

والتفسير الثانى : حاصله أن معنى المتمم لمتبوعه الموضح له فى المعارف والمخصص له فى النكرات ، وهذا تفسير قاصر ، لأنه لا يشمل ما يكون النعت فيه لغير التوضيح والتخصيص ، ومعنى هذا أن تعريف النعت -على تفسير المتمم بهذا التفسير - غير جامع ، وكل تعريف غير جامع يكون فاسداً ، لخروج بعض أفراد المعرف عنه .

إلا أنه يمكن أن يقال : إن التوضيح فى المعارف والتخصيص فى النكرات هما أشهر الأغراض التى يأتى لها النعت ، وما عداهما من الأغراض نادر قد لا يلتفت له. وقد يمكن أن يقال : إن المدح والذم والترحم وما عدا هذه الثلاثة كل واحد منها يدل على التوضيح إن كان المنعوت معرفة ، وعلى التخصيص إن كان المنعوت نكرة ، وعلى ذلك تكون العبارة شاملة . عدة السالك ٣٠١/٣ ، ٣٠٢ بتصرف يسير .

(3) الصفة تطلق باعتبارين : عام وخاص ، فالعام ما دل على ذات باعتبار معنى هو المقصود ، والخاص باعتبار التابع وهو أن يقال : تابع على معنى فى متبوعه من =

نحو : مررت برجل كريم ، أو من صفات ما تعلق به –وهو سَبِبيُّه– نحو : مررت برجل كريم أبوه .(1)

وأما عطف (2) البيان (3) : فهو التابع (4) الجامد المشبه للصفة فى

= غير تقييد ، فكلمة : (تابع) تخرج الخبر ؛ إذ الخبر ليس بتابع ، وإنما هو جــزء مستقل بخلاف الصفة ، فإنها ليست بمستقلة؛(من غير تقييد) يخرج منه الحال ، فـإن الحال تدل على هيئة فاعل أو مفعول:الإيضاح فى شرح المفصل ٤٤١/١.

(1) أوضح المسالك ٣٠٠/٣ ، وشرح ابن عقيل ١٩١/٣ ، وحاشية الخضرى ١١٩/٢ .

(2) العطف لغة الرجوع ، أطلق على التابع المخصوص ، لأن المتكلم رجع إلـى الأول فأوضحه بالثانى ، أو شركه معه فى الحكم ، وهو فى الأصل مصدر قولك : عطفت الشيء إذا ثنيته فجعلت أحد طرفيه على طرفه الآخر ، وهـو – أيضـا – مصـدر قولك: عطف الفارس على قرنه أى : مساويه فى الشجاعة .

حاشية الخضرى ١٣٨/٢ ، وعدة السالك ٣٤٦/٣ وانظر:لسان العرب (عطـف) ٩/ ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(3) سمى هذا النوع (عطف بيان) لأن اللفظ الثانى تكرار للفظ الأول ، لأن الثانى يشـبه أن يكون مرادفا للأول ، لأن الذات المدلول عليها باللفظين واحدة ، وإنمـا يؤتـى بالثانى لزيادة البيان . عدة السالك ٣٤٦/٣ وانظر حاشية الصبان ٨٥/٣ .

ولتعلم أن حقيقة عطف البيان تخالف حقيقة عطف النسق ، فلذلك لـم يذكـر لـهما تعريف واحد يجمعهما ، لأن الحقائق المختلفة لا يجمعها تعريف واحـد . عـدة السـالك ٣٤٦/٣ .

كما ينبغى أن تعلم أن كثيرا من النحويين لا يكادون يعرفون عطف البيـان علـى حقيقته وإنما يذكرونه عارضا فى مواضع . انظر : الأشباه والنظائر ٢٦٢/٢ .

(4)(التابع) : جنس فى التعريف يشمل جميع التوابع ، وخرج بـ (الجامد) الصفة ، لأنها مشتقة أو مؤولة به ،و(المشبه للصفة) فصل أول يخرج به النعت ،و(فـى إيضـاح متبوعه.. إلخ) فصل ثان يخرج به بقية التوابع وهى : التوكيد وعطف النسق والبدل ، فإنه لا يؤتى بواحد من هذه الثلاثة لقصد الإيضاح أو التخصيص استقلالا ، فإن أفاد =

إيضاح متبوعه وعدم استقلاله [1] نحو [2] : **أقسم بالله أبو حفص عمر** فـ (عمر) عطف بيان ؛ لأنه موضح لأبى حفص .[3]

= واحد منها شيئا من ذلك كعطف أحد المترادفين على الآخر عطف نسق وكبدل الكل من الكل ، فإن هذه الفائدة ليست مقصودة .

عدة السالك ٣٤٦/٣ ، ٣٤٧ ، ومنحة الجليل ٢١٩/٣ .

[1] التحقيق فى ذلك أن عطف البيان يأتى لأغراض كثيرة ، وأن أشهرها أربعة :

الأول : توضيح متبوعه وهذا يكون فى المعارف نحو : أقسم بالله أبو حفص عمر .

الثانى : تخصيص متبوعه وهذا يكون فى النكرات نحو قوله تعالى **﴿ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾** عند من جوز مجيء عطف البيان فى النكرات .

الثالث : المدح نحو قوله تعالى : **﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾** ذكر هذا الزمخشرى فى الكشاف ٦٤٦/١.

الرابع : التأكيد وذلك كما فى قول الشاعر : **لقائل يا نصر نصر نصرا** .

ذكره بعضهم ، والمختار فى هذا البيت أن الثانى توكيد لفظى للأول .

منحة الجليل ٢١٨/٣ ،٢١٩ وانظر : أوضح المسالك ٣٤٦/٣-٣٤٨.

[2] رجز لرؤبة فى : شرح المفصل لابن يعيش ٧١/٣، ولعبد الله بن كيسبة أو لأعرابى فى : خزانة الأدب ١٥٤/٥ ، ١٥٥، ١٥٦ ، ولأعرابى فى : التصريح ١٢١/١ ، وبلا نسبة فى : لسان العرب (فجر) ١٨٩/١٠ ، (نقب) ٢٤٩/١٤ ، وشرح شذور الذهب ٤٠٦ ، والشاهد فيه قوله : (أبو حفص عمر) حيث جاء قوله (عمر) عطف بيان على قوله (أبو حفص) . أبو حفص : كنية لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ، و(حفص) فى الأصل : اسم من أسماء الأسد .

[3] شرح ابن عقيل ٢١٨/٣ ، ٢١٩ وانظر : أوضح المسالك ٣٤٦/٣ ، ٣٤٧ ، وحاشية الخضرى ١٣٨/٢ .

ومن هنا **أقول** : إن عطف البيان يجامع النعت من حيث إنه يبين ويوضح كما يفعل النعت. (1)

يقول ابن يعيش : " عطف البيان مجراه مجرى النعت يؤتى به لإيضاح ما يجرى عليه ، وإزالة الاشتراك الكائن فيه ، فهو من تمامه كما أن النعت من تمام المنعوت نحو قولك : مررت بأخيك زيد ، بينت الأخ بقولك : زيد ، وفصلته من أخ آخر ليس بزيد ، كما تفعل الصفة فى قولك : مررت بأخيك الطويل ، تفصله من أخ آخر ليس بطويل ، ولذلك قالوا : إن كان له إخوه فهو عطف بيان ، وإن لم يكن له أخ غيره فهو بدل ، وهو جار على ما قبله فى إعرابه كالنعت ، إن كان مرفوعا رفعت ، وإن كان منصوبا نصبت ، وإن كان مجرورا خفضت (2) انتهى .

إذن فجملة الأمر – كما يرى ابن يعيش – أن عطف البيان(3) يشبه الصفة من أربعة أوجه :

أحدها : أن فيه بيانا للاسم المتبوع (4) كما فى الصفة .

---

(1)انظر : التوطئة ١٧٨، ١٧٩ ، وشرح الجمل ٢٩٤/١ ، وشفاء العليل ٧٦٣/٢ ، وشرح المكودى ٢٠٠ ، وإتحاف ذوى الاستحقاق ١٩٥/٢ .

(2)شرح المفصل ٧١/٣ وانظر : شرح المقدمة الجزولية ٦٦٤/٢ ، وشرح عمدة الحافظ ٥٩٣/٢

(3) اعلم أن عطف البيان من قبل التوابع قائم بنفسه على خفائه ، وأحكامه فى التكرير والعطف والإعراب فى التقديم والتأخير والعامل فيه أحكام الصفة .
الأشباه والنظائر ٢٦٣/٢ .

(4) الغرض من عطف البيان تبيين الاسم المتبوع وإيضاحه .
ابن الناظم ٥١٤ ، ٥١٥ ، والهمع ١٣٢/٣ .

الثانى : أن العامل فيه هو العامل فى الأول المتبوع ([1]) بدليل قولك : يا زيدُ زيدُ وزيداً ، بالرفع على اللفظ والنصب على الموضع ، كما تقول : يا زيد الظريفُ والظريفَ ، و: يا عبد الله زيدا بالنصب كما تقول : يا عبد الله الظريف .

الثالث : أنه جار عليه فى تعريفه ([2]) كالصفة .([3])

الرابع : امتناعه أن يجرى على المضمر ([4]) ....

([1]) انظر : المقتضب ٣١٥/٤ ، والأصول ٢٣/٢ ، وأسرار العربية ٢٦١ ، وشرح الجمل ٢١٥/١ ، والمساعد ٤١٥/٢ ، والهمع ١١٤/٣ ، وشرح الأشمونى ٥٨/٣ ، وحاشية الصبان ٥٨/٣ .

([2]) على مذهب البصريين . انظر ارتشاف الضرب ١٩٤٣/٤ ، وشفاء العليل ٧٦٣/٢ والمساعد ٤٢٣/٢ .

هذا ولا يشترط التساوى فى رتبة التعريف ، خلافا لابن عصفور حيث ذهب إلى أن عطف البيان لا يكون إلا أعرف من المعطوف عليه . شرح الجمل ٢٩٤/١ .وانظر الكتاب ١٨٩/٢ ، وارتشاف الضرب ١٩٤٤/٤ .

([3]) أعلم أن الصفة توافق موصوفها تعريفا وتنكير ، وإنما وجبت الموافقة فى ذلك حذراً من التدافع بين ما هو فى المعنى واحد؛لأن فى التعريف إيضاحا وفى التنكير إبهاما ، والنعت والمنعوت فى المعنى واحد فتدافعا . الهمع ١١٧/٣ .

([4]) لا يكون عطف البيان مضمراً وفاقاً ، ولا تابعا لمضمر على الصحيح ، لأنه فى الجوامد نظير النعت فى المشتق ، وجوز بعضهم جريانه على المضمر ، فإنه قال فى : قاموا إلا زيدا : إن (زيدا) بيان للمضمر فى (قاموا) . الهمع ١٣٣/٣ . وانظر : ارتشاف الضرب ١٩٤٣/٤ .

وقياس مذهب الكسائى جواز إتباع عطف البيان ضمير الغائب قياسا على النعت .

انظر : شرح التسهيل لابن مالك ٣٢٥/٣ .

كما يمتنع ([1]) من الصفة . ([2])

([1]) المضمر لا يقع موصوفا ولا صفة . انظر : شرح المفصل للخوارزمي ٢/٩٧ . ، والإيضاح في شرح المفصل ١/٤٤٥ .

خلافا للكسائي فإنه اجاز أن ينعت الضمير بنعت مدح نحو قوله تعالى ﴿ لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ ، أو ذم نحو : مررت به الخبيث ، أو ترحم نحو قول الشاعر :

قد أصبحت بقَرقَرَى كَوَانِسَا   فلا تلمه أن ينام البائسا

المغني ٢/٨٥ ، ٨٦ وانظر : المساعد ٢/٤١٩ ، والهمع ٣/١٢٠ ، ١٢١،وشرح الأشموني ٣/٧٢ ، ٧٣ ، وحاشية الدسوقي ٣/١٥ .

([2]) شرح المفصل ٣/٧١ ، ٧٢ وانظر : شرح التسهيل لابن مالك ٣/٣٢٥ ، وشرح عمدة الحافظ ٢/٥٩٨ ، والهمع ٣/١٣١، ١٣٥ والأشباه والنظائر ٢/٢٥٩ ، وشرح الأشموني ٣/٨٥ ، وحاشية الصبان ٣/٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ .

المبحث الثانى

أوجه الائتلاف بين النعت والتوكيد

التوكيد مصدر : وكّد ، والتأكيد مصدر : أكّد ، وهما لغتان ([1]) ، وهو : تابع يقصد به كون المتبوع على ظاهره ،([2]) وهو قسمان : توكيد معنوى وهو بألفاظ محصورة ([3]) ، وهو على ضربين :

أحدهما : ما يرفع توهم مضاف إلى المؤكد ، وله لفظان : النفس نحو : جاء زيد نفسه ، والعين نحو : جاء زيد عينه .

الثانى : ما يرفع توهم عدم إرادة الشمول ، والمستعمل لذلك : كلا وكلتا وكل وجميع .

وتوكيد لفظى ([4]) وهو على ضربين – كذلك – .

([1]) شرح المفصل لابن يعيش ٣٩/٣ ، والهمع ١٣٦/٣ ، وانظر : لسان العرب (أكد) ١٦٩/١ ، (وكد) ٣٨٢/١٥ .

([2]) الهمع ١٣٦/٣ .

([3]) يرد على هذا الحصر أنه قد يقال : زارنى القوم ثلاثتهم ، أو يقال : أما القوم فقد زارونى ثلاثتهم ، برفع (ثلاثتهم) فى المثالين على أنه توكيد ، وعلى هذا يكون لفظ (ثلاثة) وأخواته من ألفاظ التوكيد المعنوى ، مع أنه لم يذكره أحد من النحاة .

والجواب عن هذا : أنهم حين يعدون ألفاظ التوكيد المعنوى إنما يذكرون الألفاظ التى اشتهر استعمالها فى هذا المعنى ، فلا ينافى أن هناك ألفاظا غيرها تستعمل أحيانا فى التوكيد المعنوى ولكنها لم تشتهر .

ثم إن هذين المثالين اللذين ذكرتهما يجوز فى كل واحد منهما نصب (ثلاثتهم) على أنه حال . انظر : عدة السالك ٣٢٧/٣ .

([4]) اعلم أن التوكيد اللفظى أوسع مجالا من التوكيد المعنوى ، لأنه يدخل فى المفردات الثلاث وفى الجمل ، ولا يتقيد بمظهر أو مضمر معرفة أو نكرة ، بل يجوز مطلقا، =

أحدهما : تكرار اللفظ الأول بعينه اعتناء به نحو قوله تعالى : [1] ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتْ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [2]

الثانى : توكيد بالمرادف ، وعبر عنه ابن مالك بتقوية الأول بموافقه معنًى نحو : قُمْ أنت ، و : قمتُ أنا. [3]

أما أوجه الائتلاف بين النعت والتوكيد فإن هذا ممثل فيما يلى :

الوجه الأول : أن التوكيد يشبه النعت فى أنه تابع من غير واسطة حرف. [4]

الوجه الثانى : أن التوكيد يشبه النعت فى أنه تابع من غير أن ينوى بالأول الطرح .[5]

الوجه الثالث : أن العامل فى الصفة هو العامل فى المتبوع ،وكذلك فى التوكيد .[6]

الوجه الرابع : أن النعت ربما تبع فى الجر غير ما هو له دون رابط إن أمن اللبس نحو قولهم : هذا جحر ضب خرب ، فحق (خرب)

= إلا أن السماع فى بعضها أكثر ، فلا يكاد يسمع أو ينقل : إن إن زيدا قائم ، وإنما أكثر ما يأتى فى تكرار الاسم أو الجملة . الأشباه والنظائر ١٢٢/٢ .

(١) سورة الفجر الآيتان ٢١، ٢٢ .

(٢)شرح ابن عقيل ٢٠٦/٣ ، ٢٠٧ ، ٢١٤ ، وحاشية الخضرى ١٣٦/٢ .

(٣) شرح التسهيل ٣٠١/٣ ، ٣٠٢ .

(٤) شرح الجمل لابن عصفور ٢٦٩/١ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) وقيل : العامل فيهما تبعيتهما لما جريا عليه . التصريح ١٠٨/٢ ، ١١٥ . وانظر : حاشية الشيخ يس ١١٤/٢ ، وعدة السالك ٢٩٩/٣ .

أن يرتفع ، لأنه نعت (جحر) ، و(جحر) مرفوع ، لكنه جعل تابعا لـ(ضب) ، لمجاورته إياه مع أمن البس ، وقد يفعل ذلك بالتوكيد .[1]

الوجه الخامس : أن النكرة كما أنها لا تنعت بالمعرفة [2] فكذلك لا تؤكد .[3]

الوجه السادس : أنه يجوز تعدد النعوت [4] ، كما يجوز ذلك في المؤكدات .[5]

الوجه السابع : أنه لا يجوز عطف الصفات المتفقة المعاني على بعض [6].

---

(1) شرح التسهيل لابن مالك ٣٠٨/٣ ، ٣٠٩ وانظر : شفاء العليل ٧٤٨/٢ ، ٧٤٩ ، وحاشية الشيخ يس ١٠٩/٢ ، وعدة السالك ٣٠٣/٣ ، والتوهم عند النحاة ٧٦ .

(2) البسيط فى شرح جمل الزجاجى ٣٠٠/١ ، ٣١٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ .

(3) الصحيح أنه لا يجوز توكيد النكرة أصلاً لا بالنفس ولا بالعين ، ولا بكل ولا ما في معناها ، لأن أسماء التوكيد كلها معارف إما بالإضافة نحو : نفسه وعينه وكله ، وإما بالعلمية نحو : أجمع وأكتع ، أو بنية الإضافة تريد : أجمعه وأكتعه .

أما ما أنشدوا من قوله : حولا أكتعا ، و:يوما أجمعا ، وفرع (أجمع) فشاذ ، وينبغى أن يحمل على البدل لا على التوكيد ؛ لامتناع توكيد النكرة بهذه الأسماء .

شرح الجمل ٢٦٩/١ .

وانظر : البسيط فى شرح جمل الزجاجى ٣٧١/١، ٣٧٤ - ٣٧٧ .

(4) أوضح المسالك ٣١٣/٣ ، والتصريح ١١٣/٢ .

(5) شرح عمدة الحافظ ٥٥٣/١ ، ٥٥٩ ، والتصريح ١٢٤/٢ .

(6) والسبب فى ذلك أنه يؤدى إلى عطف الشىء على نفسه ، وظاهر كلامهم الجواز ولوفى الجمل ، ونقل الدمامينى عن الواحدى ما يدل على الوجوب فى الجمل نحو : مررت برجل يحفظ القرآن ويعرف الفقه ويتقى الله .

انظر : حاشية الشيخ يس ١٢٠/٢ .

كما أنه لا يجوز عطف المؤكدات على بعض .[1]

الوجه الثامن : أنه يجوز عطف الصفات المختلفة المعانى على بعض ، كما أنه يجوز ذلك فى التوكيد اللفظى [2] .

الوجه التاسع : أن التوهم يكون فى النعت والتوكيد . [3]

---

(1) هذا فى التوكيد المعنوى . شرح عمدة الحافظ ٥٥٣/١ ، ٥٥٩ ، والبسيط ٣٨٣/١، ٣٨٥.

(2) إن كان المؤكد جملة فالأكثر اقترانها بالعاطف وهو (ثم) خاصة نحو قوله تعالى : " كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون " ، وقد تأتى الجملة المؤكدة بدون العاطف نحو : قولة عليه السلام " " والله لأغزون قريشا ، والله لأغزون قريشا ، والله لأغزون قريشا " كررها ثلاث مرات ، ويجب الترك للعاطف عند اللبس وإيهام التعدد نحو " ضربت زيدا ضربت زيدا . أوضح المسالك ٣٣٦/٣ ، والتصريح ١٢٧/٢ ، ١٢٨ وانظر : شرح الرضى على الكافية ٣٦٨/٢ ، وارتشاف الضرب ١٩٥٩/٤.

وإنما جاز العطف فى التوكيد اللفظى دون ألفاظ التوكيد المعنوى لأن التأكيد اللفظى لما كانت ألفاظه متفقة اغتفر فيه العاطف ، لأنه وإن كان يدل على المغايرة لكن الاتفاق ينفى ذلك ، بخلاف ألفاظ التوكيد المعنوى فإنها لما كانت مختلفة كان الإتيان بالعاطف مقويا للمغايرة ، فلذلك لم يجز الإتيان به فيها . حاشية الشيخ يس ١٢٧/٢.

(3) التوهم عند النحاة ١٦١ ، ١٦٢ .

المبحث الثالث

أوجه الائتلاف بين النعت وعطف النسق

يأتلف النعت مع عطف النسق (1) فى عدة أوجه :

الوجه الأول : أن العامل فى الصفة هو العامل فى الموصوف،(2) وكذلك الحال فى المعطوف والمعطوف عليه عطف نسق .(3)

الوجه الثانى : أن إعرابهما كإعراب ما يجريان عليه .(4)

الوجه الثالث : صحة القطع إلى الرفع أو النصب فى الصفة (5) ، والصحيح أن القطع يدخل - كذلك - عطف النسق (6).

---

(1) بفتح السين اسم مصدر من نسقت الكلام أنسقه عطفت بعضه على بعض ، والمصدر: نسقا بالسكون ، قيل : وبالفتح أيضا ، ويقال : نسقت الدر نظمته ، ونسقت الشىء بالشىء إذا أتبعته إياه ، والمراد هنا : المنسوق إطلاقا للمصدر على المفعول . حاشية الخضرى ١٤١/٢ وانظر : لسان العرب (نسق) ١٢٧/١٤ .
والنسق عبارة الكوفيين ، وأكثر ما يقول سيبويه : باب الشِّركة،ارتشاف الضرب ١٩٧٥/٤ وانظر : الكتاب ٤٤١/١، ٣٢/٣ ، والمساعد ٤٤١/٢ .

(2) أسرار العربية ٢٦١ ، واللباب فى علل البناء والإعراب ٤٠٦/١ ، وعدة السالك ٢٩٩/٣ .

(3) البسيط فى شرح جمل الزجاجى ٣٢٩/١ ، ٣٣١ ، وعدة السالك ٣٠٠/٣ .

(4) شرح المفصل للخوارزمى ٩٥/٢ ، ١٢٧ ،وأسرار العربية ٢٦٠ ، ٢٦٧ ، وشرح المكودى ١٩١ ، ٢٠١.

(5) شرح عمدة الحافظ ٥٤٣/١ - ٥٤٦ ، والبسيط فى شرح جمل الزجاجى ٣١٦/١ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

(6) النحو الوافى ٤٣٥/٣ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ .

الوجه الرابع : أن الصفة تطابق الموصوف فى التعريف والتنكير [1] ، وكذلك الأمر فى عطف النسق .[2]

الوجه الخامس : أن الصفات المتعددة يجوز عطف بعضها على بعض [3] ، وهذا هو حال عطف النسق .[4]

الوجه السادس : أن الصفات المتعددة هى لموصوف واحد [5] ، وكذلك المعطوفات إذا تكررت تكون على الأول - على الأصح-. [6]

الوجه السابع: أنه لا يجوز فصل الموصوف المبهم - كاسم الإشارة ونحوه - من صفته الذى لا يستغنى عنها ، وكذلك لا يجوز الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه عطف نسق إذا كان المعطوف متمما للمعطوف عليه .[7]

---

(1) شرح المفصل للخوارزمى ٩٥/٢ ، وأسرار العربية ٢٦٠ ، والفصول الخمسون ٢٣٤.

(2) التوطئة ١٩٦ .

(3) اللباب فى علل البناء و الإعراب ٤٠٨/١ ، والفصول الخمسون٢٣٥ ، والبسيط فى شرح جمل الزجاجى ٣١٨/١.

(4) علل النحو ٣٧٧ ، والتوطئة ١٩٦ .

(5) اللباب فى علل البناء والإعراب ٤٠٧/١ ، وشرح ابن عقيل ٣/ ٢٠٣ ، وحاشية الخضرى ١٢٨/٢ .

(6) هذا مقيد بما إذا لم يكن العاطف مرتبا . حاشية الشيخ يس ١٥٢/٢ ، وحاشية الصبان ١١٩/٣.

(7) النحو الوافى ٤٣٥/٣ ، ٤٣٦ .

الوجه الثامن : أنه يصح الفصل بين الصفة وموصوفها بـ(كان) الزائدة بلفظ الماضى نحو : سعيت لزيارة صديقٍ - كان - مريضٍ ، كذلك يصح الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بـ(كان) الزائدة بلفظ الماضى نحو : الصديق الحق مخلص فى الشدة - كان - والرخاء .(1)

الوجه التاسع : أنه يصح حذف الموصوف (2) ، كما أنه يصح حذف المعطوف .(3)

الوجه العاشر : أنه ليس من اللازم فى الصفة - ولا فى عطف النسق - أن تكون لفظا مفردا ، فقد تكون مفردة ، وقد تكون جملة أو شبه جملة .(4)

الوجه الحادى عشر : أن التوهم يكون فى الصفة (5) ، كما أنه فى عطف النسق .(6)

---

(1) المصدر السابق ٤٣٦/٣ .

(2) أمالى ابن الشجرى ٢٥/١ ، ٩٩/٢ ، ٥/٣ ، وشرح المفصل للخوارزمى ١٠٦/٢ ، واللباب فى علل البناء والإعراب ٤٠٦/١ ، وشرح المكودى ١٩٥ .

(3) شرح ابن عقيل ٢٤٢/٣ ، وحاشية الخضرى ١٥٦/٢ .

(4) النحو الوافى ٤٣٦/٣، ٤٧٢ ، ٤٧٦ .

(5) التوهم عند النحاة ١٦٢ .

(6) السابق ١٣٨ .

المبحث الرابع

أوجه الائتلاف بين النعت والبدل

البدل ([1]) : هو التابع المقصود بالحكم بلا واسطة . ([2])

([1]) هذه هي تسمية البصريين لهذا النوع من التوابع ، أما الكوفيون فيسمونه : الترجمة والتبيين ، حكى ذلك الأخفش ، وحكى ابن كيسان أنهم يسمونه : التكرير . شرح الأشموني ٣/١٢٣ ، وعدة السالك ٣/٣٩٩.

([2]) التابع ، جنس ، و (المقصود بالحكم) يخرج : النعت والتوكيد وعطف البيان ، لأن كل واحد منها مكمل للمقصود بالحكم لا مقصود به ، وأما النسق فثلاثة أنواع :
أحدها: ما ليس مقصودا بالحكم نحو : جاء زيد لا عمرو ، و : ماجاء زيد بل عمرو ، أو : لكن عمرو.

أما الأول فواضح ؛ لأن الحكم السابق منفي عنه ، وأما الآخران فلأن الحكم السابق هو نفي المجيء ، والمقصود به إنما هو الأول ،وذلك لأن المعطوف بـ(بل) والمعطوف بـ(لكن) بعد النفي يثبت لهما نقيض الحكم السابق ، وأما الحكم المذكور فالمقصود به هو الأول ، فقولك : ما جاء زيد بل عمرو معناه : أن عدم المجيء ثابت لزيد ، وأن عمرا ثبت له المجيء ، وكذلك شأن مثال (لكن) .

النوع الثاني : ما هو مقصود بالحكم هو وما قبله ، فيصدق عليه أنه مقصود بالحكم لا أنه المقصود ، وذلك كالمعطوف بالواو نحو : جاء زيد وعمرو ، و : ما جاء زيد ولا عمرو .

وهذان النوعان خارجان بما خرج به النعت والتوكيد وعطف البيان .

النوع الثالث : ما هو مقصود بالحكم دون ما قبله ، وهذا هو المعطوف بـ(بل) بعد الإثبات نحو : جاءني زيد بل عمرو .

وهذا النوع خرج بقوله : (بلا واسطة) ، والغرض الذي يقصده المتكلم من الإتيان في كلامه بالبدل بعد ذكره المبدل منه هو إفادة توكيد الحكم وتقريره بواسطة ذكر الاسم =

واعلم أولاً أن الأغراض التى يأتى لها النعت فى الكلام كثيرة [1] ، وأن الذى يعنينى أن أذكره لك من هذه الأغراض : الإيضاح وفسره قوم بأنه: رفع الاشتراك اللفظى الواقع فى المعارف على سبيل الاتفاق .

ومعنى هذا أنه قد يتفق أن يكون لك عدة أصدقاء كل واحد منهم يسمى: سعيدا ، فإذا قال لك قائل : حضر سعيد ، لم تدر أى السعيدين ، فيلزمه أن يضيف إلى اسمه نعتا يوضحه لك فيقول : حضر سعيد الكاتب مثلا .

كما فسره آخرون بأنه : رفع الاحتمال فى المعارف .[2]

واعلم ثانيا أن الغرض الذى يقصده المتحدث من الإتيان فى كلامه بالبدل بعد ذكره المبدل منه هو إفادة توكيد الحكم وتقريره ، وكذلك ظهور الأمر بعد أن لم يكن ظاهرا .[3]

= مقصودا بالحكم بعد أن يمهد لذلك بالتصريح بتلك النسبة إلى ما قبله ، فأنت حين تقول : أعجبنى الأستاذ علمه ، وقد ذكرت الاسم الثانى مقصودا لك بنسبة الحكم إليه بعد أن ذكرت هذا الحكم مصرحا بنسبته إلى الاسم الأول ، كنت كمن ذكر الحكم والمحكوم عليه مرتين ؟ وهذا هو السر فى قولهم : البدل فى حكم تكرير العامل . أوضح المسالك ٣٩٩-٤٠١ ، وشرح شذور الذهب ٤١٠ ، وشرح ابن عقيل ٢٤٧/٣، وحاشية الخضرى ١٥٩/٢ ، وعدة المسالك ٣٩٩/٣ ، ٤٠٠

(١) أذكر منها – تتمة للفائدة – التخصيص نحو : جاءنى رجل عالم ، والمدح نحو : مررت بزيد الكريم ، والذم نحو : مررت بزيد الفاسق ، والتعميم نحو : " إن الله يرزق عباده الطائعين والعاصين " ، والترحم نحو : مررت بزيد المسكين ، والإبهام نحو : " تصدق بصدقة قليلة أو كثيرة " ، والتأكيد نحو : أمس الدابر لا يعود .

شرح ابن عقيل ١٩١/٣ ، ١٩٢ ، وعدة السالك ٣٠٠/٣ ، ٣٠١ .

(٢) انظر : عدة السالك ٣٠٠/٣ .

(٣) السابق ٣٩٩/٣ ، ٤٠٣ .

أى أن فى البدل إيضاحا للمبدل ورفعَ لبس كما يكون ذلك فى الصفة (1) ، فقد حصل باجتماع البدل والمبدل منه من البيان ما يحصل بالنعت . (2)

غير أن البيان فى البدل مقدم ، وفى النعت مؤخر (3) .

ومن هنا قال السيوطى: " ومن المقاربة التى بين الوصف والبدل : أن الصفة موضحة كما أن البدل (4) موضح (5) " . انتهى

إذن فالنعت والبدل لا يخلوان عن بيان وإيضاح (6) ، بل إنهما متداخلان ، يقول **ابن** جنى : " حدثنا أبو على أن الزيادى سأل أبا الحسن عن قولهم : مررت برجل قائم زيد أبوه ، أأبوه بدل أم صفة ؟ قال : فقال أبو الحسن : لا أبالى بأيهما أجبت " قال **ابن** جنى : " أفلا ترى إلى تداخل الوصف والبدل (7) " . انتهى .

---

(1) اعلم أنه قد جيء بها فى الأصل لفائدة إزالة الاشتراك أو العموم . الهمع ١٢٩/٣ .

(2) شرح المفصل لابن يعيش ٦٦/٣ .

(3) الأشباه والنظائر ٢٦١/٢ .

(4) إذا قلت : كيف يكون البدل إيضاحا للمبدل منه وهو من غير جملته ، قلت : لما لم يظهر العامل فى البدل ، وإنما دل عليه العامل فى المبدل منه ، واتصل البدل بالمبدل منه فى اللفظ جاز أن يوضحه : شرح المفصل لابن يعيش ٦٧/٣ .

(5) الأشباه والنظائر ٢٦٥/٢ .

(6) انظر : شرح المقدمة الجزولية ٦٦٤/٢ ، وحاشية الصبان ١٢٣/٣ .

(7) الخصائص ٤٢٨/٢ وانظر : الأشباه والنظائر ٢٦٠/٢ .

المبحث الخامس

أوجه الائتلاف بين عطف البيان والتوكيد

يأتلف عطف البيان مع التوكيد فى عدة أوجه :

الوجه الأول : أن عطف البيان يجرى مجرى التوكيد فى تقوية دلالة متبوعة . (١)

الوجه الثانى : أن العامل فى عطف البيان هو العامل فى المتبوع ، وكذلك الحال فى التوكيد . (٢)

الوجه الثالث : أن عطف البيان والتوكيد لا يدلان على معنى فى متبوعهما (٣) ولا فيما يتعلق به (٤) .

الوجه الرابع : أن عطف البيان يوافق متبوعه فى الإفراد والتذكير وفروعهما ،وكذلك الأمر فى التوكيد . (٥)

---

(١) شرح الكافيه الشافية ١١٩١/٣ وانظر : شرح المفصل للخوارزمى ٧٨/٢ ، وأسرار العربية ٢٥٣ .

(٢) وقيل : العامل فيهما تبعيتهما لما جريا عليه . التصريح ١٠٨/٢،وشرح الاشمونى ٥٨/٣ وعدة السالك ٢٩٩/٣ .

(٣) قيل : إن من أغراض عطف البيان : توضيح متبوعه ، أما التوكيد فهو لا يوضح متبوعه . شرح ابن عقيل ٢١٨/٣ ، ٢١٩ .

(٤) أما البيان فلأن ثانى الاسمين هو عين الأول ، وأما التوكيد فلأن نفس الشىء لا معنى فيه . التصريح ١٠٨/٢ وانظر : البسيط فى شرح جمل الزجاجى ٣٧١/١ ، ٣٧٤ .

(٥) ارتشاف الضرب ١٩٤٤/٤ ، ١٩٤٧ ، والتصريح ١٣١/٢ .

الوجه الخامس : أن عطف البيان يوافق متبوعه فى أوجه الإعراب الثلاثة وكذلك التوكيد. [1]

الوجه السادس : أن عطف البيان يختص بالمعارف ، والتوكيد المعنوى لا يتبع إلا المعارف . [2]

الوجه السابع : أن عطف البيان قد يكون بلفظ الأول على جهة التأكيد [3] ، وهكذا يكون التوكيد اللفظى . [4]

الوجه الثامن : أن عطف البيان لا يصح حذفه [5] ، كما أنه لا يصح حذف المؤكد . [6]

---

(١) التصريح ٢/١٣١.

(٢) شرح المفصل للخوارزمى ٢/٨٣ ، ٨٤ ، وأسرار العربية ٢٥٤ ، والفصول الخمسون ٢٣٦ .

(٣) وذلك كقول الشاعر : إنى وأسطار سطرن سطرا .:. لقائل يا نصر نصر نصرا .

(٤) شرح المقدمة الجزولية ٢/٦٧٦ ، ٦٧٧ ، والأشباه والنظائر ٢/٢٦٠ .

(٥) لأنه يؤتى به لإيضاح ما يجرى عليه وإزالة الاشتراك الكائن فيه فهو من تمامه ، وما سمى بيانا إلا لأنه تكرار للأول لزيادة البيان ، فلو حذف لبطل سر المجىء به . شرح المفصل لابن يعيش ٣/٧١ ، والتصريح ٢/١٣٠.

(٦) والسبب فى ذلك أن التأكيد ليس فيه زيادة على المؤكد ، بل هو بلفظه أو بمعناه ، فلو حذف لبطل سر التأكيد . الأشباه والنظائر ٢/٢٥٧.

المبحث السادس

أوجه الائتلاف بين عطف البيان وعطف النسق

يأتلف عطف البيان مع عطف النسق فى عدة أوجه .

الوجه الأول : أن عطف البيان – وكذلك عطف النسق – يوافقان متبوعهما فى التعريف والتنكير .(1)

الوجه الثانى : أن عطف البيان – على رأى – (2) تجوز مخالفته لمتبوعه تعريفا وتنكيرا ، (3) وهكذا يكون عطف النسق . (4)

الوجه الثالث : أن عطف البيان – وكذلك عطف النسق – يوافقان متبوعهما فى أوجه الإعراب .(5)

الوجه الرابع : أن عطف البيان يجوز فيه القطع ، وكذلك عطف النسق فى الرأى الصحيح .(6)

الوجه الخامس : أن عطف البيان لا يكون ملحوظا فى النية إحلاله محل الأول (7) ، وهكذا عطف النسق .(8)

الوجه السادس : أن عطف البيان – وكذلك عطف النسق – لا يعدان من جملة أخرى مستقلة عن جملة متبوعهما .(9)

---

(1) أوضح المسالك ٣٤٨/٣ ، ٣٥٣، والتصريح ١٣١/٢ ، ١٣٣ .

(2) أعنى الزمخشرى حين جعل " مقام إبراهيم " عطف بيان لقوله : " آيات بينات " . الكشاف ٤٤٧/١ وانظر : البحر المحيط ٢٧١/٣ ، والدر المصون ١٦٩/٢-١٧١ .

(3) حاشية الشيخ يس ١٣١/٢ ، ١٣٢ .

(4) شرح ابن عقيل ٢٢٤/٣ - ٢٤٥، وحاشية الخضرى ١٤١/٢ - ١٥٩ .

(5) أوضح المسالك ٣٤٨/٣ ، ٣٥٣ ، والتصريح ١٣١/٢ ، ١٣٤ .

(6) النحو الوافى ٤٣٥/٣ ، ٥٠٢ حاشية (1) ، ٥٤٣ ، ٦٦٠، ٦٦١ .

(7) أى أن متبوعه لا يعد فى حكم الطرح . التصريح ١٣٤/٢ ، والنحو الوافى ٥٥٠/٣ .

(8) حاشية الصبان ٨٩/٣ .

(9) التصريح ١٣٤/٢ ، وعدة السالك ٢٩٩/٣ ، ٣٠٠ .

الوجه السابع : أن عطف البيان – وكذلك عطف النسق – لا يجوز تقديمهما على متبوعهما .[1]

الوجه الثامن : أن عطف البيان – وكذلك عطف النسق – لا يدلان على معنى فى متبوعهما .[2]

الوجه التاسع : أن عطف البيان يخالف متبوعه فى لفظه ويوافقه فى معناه [3] ، وقد يكون كذلك عطف النسق .[4]

الوجه العاشر : أن الغرض من عطف البيان الإيضاح [5] ، وعطف النسق إذا كان مرادفا للمعطوف عليه لا يخلو من إيضاح .[6]

الوجه الحادى عشر : أن عطف النسق – وكذلك عطف البيان [7] – يكون عطفا على اللفظ وعلى المحل .[8]

---

(١) البسيط فى شرح جمل الزجاجى ٨٠٣/٢ ، والنحو الوافى ٤٣٥/٣ ، ٦٥٧.

(٢) التصريح ١٠٨/٢ .

(٣) ارتشاف الضرب ١٩٤٣/٤ ، ١٩٤٤ ، والتصريح ، ١٣٠/٢ .

(٤) إن المغايرة هى الأصل الغالب فى عطف النسق بين المتعاطفين ، لكن العرب قد تعطف – لغرض بلاغى – الشيء على نفسه إذا اختلف اللفظان ، كقولهم : وألفى قولها كذبا ومينًا ، ، فقد عطفوا (المين) على الكذب ومعناهما واحد واللفظان مختلفان لغرض بلاغى هو تقوية معنى المعطوف عليه وتأكيده ، وهذا النوع من العطف – على قلته – قياسى .

انظر :ابن الشجرى ٢٥٣/٣ ، وحاشية الشيخ يس ٣٤/٢ ،والنحو الوافى ٦٥٩/٣ ، ٦٦٠.

(٥) الإيضاح فى شرح المفصل ٤٥٣/١ ، و شرح المكودى ٢٠٠ .

(٦) حاشية الشيخ يس ١٣١/٢ .

(٧) كما فى قول رؤبة : لقائل يا نصر نصر نصرا ، حيث إن قوله (نصر) الثانى عطف بيان على الأول باعتبار لفظه ، وقوله (نصرا) الثالث عطف بيان عليه باعتبار محله ، فعطف البيان يجوز فيه الإتباع على اللفظ وعلى المحل .

(٨) حاشية الصبان ٨٩/٣ .

المبحث السابع

أوجه الائتلاف بين عطف البيان والبدل

اعلم أن عطف البيان له شبه ببدل الشيء من الشيء ([1]) وهو هو من حيث إن كل واحد منهما تابع وإن الثانى هو الأول فى الحقيقة .([2])

([1]) هذا هو أحد أقسام البدل وهو : البدل المطابق للمبدل منه المساوى له فى المعنى نحو قوله تعالى :﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ، وسمى بدل شيء من شيء لوجوده فيما لا يطلق عليه(كل) ، وقد يقال : بدل كل من كل .

أما الثانى فهو بدل بعض من كل وهو بدل الجزء من كله ، قليلا كان ذلك الجزء نحو : أكلت الرغيف ثلثه ، أو مساويا نحو : أكلت الرغيف نصفه ، أو أكثر نحو : أكلت الرغيف ثلثيه .

وأما الثالث : فهو بدل الاشتمال وهو الدال على معنى فى متبوعه نحو : أعجبنى زيد علمه .

وأما الرابع : فهو البدل المباين للمبدل منه وهو على قسمين :

أحدهما : ما يقصد متبوعه كما يقصد هو ، ويسمى بدل الإضراب ، وبدل البداء نحو : أكلت خبزا لحما .

الثانى : ما لا يقصد متبوعه ، بل يكون المقصود البدل فقط ، وإنما غلط المتكلم فذكر المبدل منه ، ويسمى بدل الغلط والنسيان نحو : رأيت رجلا حمارا .

وزاد قوم قسما خامسا وسموه : بدل كل من بعض ، واستدلوا له بقول الشاعر :

رحم الله أعظما دفنوها بسجستان طلحة الطلحات

فإن (طلحة) بدل من قوله (أعظما) ، و(طلحة) كل ، والأعظم جمع (عظم) وهو بعض (طلحة) . أوضح المسالك ٣/٤٠١ -٤٠٣ ، وشرح ابن عقيل ٣/٢٤٩ ، وحاشية الخضرى ٢/١٦١ ، ١٦٢ ، وعدة السالك ٣/٤٠١ .

([2]) شرح المفصل لابن يعيش ٣/٧٢ .

فما يحكم عليه بأنه عطف بيان باعتبار كونه موضحا أو مخصصا لمتبوعه يجوز الحكم عليه بأنه بدل باعتبار كونه مقصودا بالنسبة على نية تكرار العامل ، لإفادة معنى تقرير الكلام وتوكيده .[1]

يقول الرضى : " أنا إلى الآن لم يظهر لى فرق جلى بين بدل الكل من الكل وبين عطف البيان ، بل لا أرى عطف البيان إلا البدل ، كما هو ظاهر كلام **سيبويه** ، فإنه لم يذكر عطف البيان ، بل قال : أما بدل المعرفة من النكرة فنحو : مررت برجل عبد الله ، كأنه قيل : بمن مررت ؟ أو ظن أنه يقال له ذلك ، فأبدل مكانه ما هو أعرف منه ، ومثله قوله تعالى : [2] ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم * صراط الله ﴾ . انتهى [3]

فإذا ما أردت أن أحدد أوجه الائتلاف بين عطف البيان وبين البدل رأيت الشيخ موفق الدين بن يعيش يجملها فى قوله : " جملة الأمر أن عطف البيان يشبه البدل من أربعة أوجه :

أحدها : أن فيه بيانا [4] كما فى البدل .[5]

---

(1) ابن الناظم ٥١٧ .

(2) سورة الشورى من الآيتين ٥٢ ، ٥٣ .

(3) شرح الرضى على الكافية ٣٧٩/٢ ، ٣٨٠ وانظر : ٣٦١/١ وانظر كذلك : الكتاب ١٤/٢ ، والمنصف من الكلام على مغنى ابن هشام للشمنى القسم الثانى م ٣٩٧/١ ، وحاشية الأمير على مغنى ابن هشام ٨٥/٢ ، وحاشية الصبان ٨٨/٣ .

(4) هو تكرار للأول لزيادة بيان . الهمع ١٣١/٣ .

(5) البدل إعلام السامع بمجموعى الاسمين أو الفعلين على جهة البيان . شرح الأنموذج فى النحو ٧٤ ، وشرح الجمل ٢٧٩/١ .

الثانى : أنه يكون بالأسماء الجوامد (1) كالبدل .(2)

الثالث (3) : أنه قد يخون أخص من متبوعه وأعم منه (4) كالبدل .

الرابع : أنه قد يكون لفظه لفظ الاسم الأول على جهة التأكيد (5) كما كان فى البدل كذلك (6) كقولك : يا زيد زيد زيدا ، كما تقول : يا زيد زيد ، وعلى ذلك قول رؤبة : (7)

---

(1) اعلم أن عطف البيان يجب جموده ولو تأويلا ، والمراد بالجامد تأويلا : العلم الذى كان أصله صفة فغلبت . الهمع ٣/١٣١ وانظر : شرح الجمل ١/٢٩٤ ، وشرح عمدة الحافظ ٢/٥٩٦ .

(٢) الفصول الخمسون ٢٣٦ ، وحاشية الشيخ يس ٢/١١٤ .

(٣) الأشباه والنظائر ٢/٢٦٠ .

(٤) لم يشترط بعض النحاة كون عطف البيان أخص من المتبوع أو غير أخص ، واشترط بعضهم زيادة تخصيصه وليس بصحيح ، لأنه فى الجوامد بمنزلة النعت فى المشتق ، ولا يشترط زيادة تخصص النعت فكذا عطف البيان ، بل الأولى بهما العكس ، لأنهما مكملان ، وقد جعل سيبويه : (ذا الجمة) من : يا هذا ذا الجمة عطف بيان مع أن (هذا) أخص . الهمع ٣/١٣١ ، ١٣٢ وانظر : الكتاب ٢/١٨٨، وشرح المقدمة الجزولية ٢/٦٦٣ ، وشرح الجمل ١/٢٩٤ ، وشرح التسهيل ٣/٣٢٦ ، وابن الناظم ٥١٧ ، وارتشاف الضرب ٤/١٩٤٤، وشفاء العليل ٢/٧٦٤.

(٥) شرح الرضى على الكافية ١/٣٦٣ ، وارتشاف الضرب ٤/١٩٤٦ .

(٦) البدل إعلام السامع بمجموعى الاسمين أو الفعلين على جهة التأكيد . شرح الجمل ١/٢٧٩ .

(٧) هذان بيتان من الرجز ، وهما منسوبان لرؤبة فى ديوانه ١٧٤ ،والكتاب ٢/١٨٥ ، والخصائص ١/٣٤٠، وتذكرة النحاة ٤٢٠، والدرر اللوامع ١/٥٢٠ ومنسوب لذى =

إنى وأسطار سطرن سطرا   لقائل يا نصر نصر نصرا [1] "انتهى"

الوجه الخامس : أن عطف البيان يجرى مجرى البدل فى صلاحيته للاستقلال .[2]

= الرمة فى : شرح شذور الذهب ٤٠٨ ، ٤٢١ وبلانسبة فى : المقتضب ٢٠٩/٤ ، ٢١٠ ، والأصول ٣٣٤/١ ، ٣٣٥ ، وإصلاح الخلل الواقع فى الجمل ٦٩ ، وشرح الرضى على الكافية ٣٦٣/١ ، وارتشاف الضرب ١٦١٤/٣ ، ١٩٦٤/٤ . وهذا البيت ينشد على أوجه : (نصر) الأول روى فيه وجهان : ضمه ونصبه ، و(نصر) الثانى روى بأربعة أوجه : ضمه ، ورفعه منونا ، ونصبه ، وجره ، و(نصر) الثالث روى فيه وجه واحد وهو النصب ، وتوجيه هذه الروايات : ضم الأول مع رفع الثانى على أن يكون الثانى عطف بيان على اللفظ عند سيبويه والمبرد وأبى حيان ، وقال الرضى : هو توكيد لفظى ، وضعف البيان والبدل بقوله : لأن البدل وعطف البيان يفيدان ما لا يفيده الأول من غير معنى التأكيد ، والثانى فيما نحن فيه لا يفيد إلا التأكيد .

- ضم الأول مع نصب الثانى عطف بيان على المحل ، أو توكيداً ونصب بتقدير (أعنى) .
- ضم الأول مع ضم الثانى على أنه بدل .
- نصب الأول وجر الثانى على إضافة الأول إلى الثانى ، وإعراب (نصر) الثالث : أن يكون عطف بيان أو توكيدا على المحل إذا ضم نصر الأول . انظر : إصلاح الخلل ٦٩ حاشية (٢) .

(1) شرح المفصل لابن يعيش ٧٢/٣ .

(2) شرح الكافية الشافية ١١٩١/٣ ، والهمع ١٣٥/٣ .

المبحث الثامن

أوجه الائتلاف بين التوكيد وعطف النسق

يأتلف التوكيد مع عطف النسق فى عدة أوجه :

الوجه الأول : أن الجملة المؤكدة فى التوكيد اللفظى قد تقترن بعاطف نحو قوله تعالى:﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ*ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ وقوله تعالى :﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى*ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ ، وعطف النسق يتبع بواسطة حرف العطف . (1)

الوجه الثانى : أن العامل فى التوكيد هو العامل فى المتبوع ، وكذلك النسق (2) .

الوجه الثالث : أن إعرابهما كإعراب ما يجريان عليه .(3)

الوجه الرابع : أن ألفاظ التوكيد المعنوى محصورة (4) ، وكذلك حروف عطف النسق (5) .

---

(1) أمالى ابن الشجرى ٨٨/٣ ، وشرح الكافية الشافية ١١٨٣/٣ ، ١١٨٤ ، وابن الناظم ٥٠٩ .

(2) على رأى الجمهور : إن العامل فيه عامل متبوعه بواسطة الحرف ، خلافا لمن ذهب إلى أن العامل هو الحرف . التصريح ١٠٨/٢ وانظر : شرح المفصل لابن يعيش ٧٤/٣ ، ٧٥ ، والبسيط ٣٢٩/١ ، ٣٣١ ، وحاشية الصبان ٨٥/٣ .

(3) التوطئة ١٩٦ ، ٢٠٠ .

(4) أسرار العربية ٢٥٣ ، وشرح المفصل لابن يعيش ٤٠/٣ ، والإيضاح فى شرح المفصل ٤٣٧/١ .

(5) الفصول الخمسون ٢٣٦ ، وشرح المكودى ٢٠١ .

الوجه الخامس : أن الاسم الظاهر يؤكد بظاهر مثله (١) ، وكذلك فى عطف النسق يعطف ظاهر على ظاهر مثله .(٢)

الوجه السادس : أن الاسم المضمر يؤكد بالظاهر (٣) وبمثله من المضمرات (٤) ، وكذلك فى عطف النسق يعطف ظاهر على مضمر ، ومضمر على مضمر .(٥)

الوجه السابع : أنه يجوز الفصل بين التأكيد والمؤكد كما يجوز ذلك بين العطف والمعطوف .(٦)

الوجه الثامن : أنه يجوز حذف المؤكد (٧) ، كما يجوز ذلك فى المعطوف عليه (٨).

---

(١) ولا يؤكد بمضمر ، فلا تقول : جاءنى زيد هو ، ولا : مررت بزيد هو ، لأن المضمر أعرف من المظهر فلم يجز أن يكون توكيداً له ، ولأن الغرض من التوكيد الإيضاح والبيان وإزالة اللبس، والمضمر أخفى من الظاهر فلا يصلح أن يكون مبينا له . شرح المفصل لابن يعيش ٤٢/٣ ، والإيضاح في شرح المفصل ٤٣٨/١ ، ٤٣٩.

(٢) شرح المفصل لابن يعيش ٧٥/٣ ،وأوضح المسالك ٣٨٩/٣ .

(٣) وذلك يكون بالنفس والعين وكل وأجمع وتوابعهما ، لأن المظهر أبين من المضمر فيصلح أن يكون تأكيدا له ومبينا . شرح المفصل لابن يعيش ٤٢/٣ .

(٤) الإيضاح فى شرح المفصل ٤٣٨/١ ، ٤٣٩ .

(٥) شرح المفصل للخوارزمى ١٢٧/٢ ، وشرح المفصل لابن يعيش ٧٥/٣ .

(٦) الهمع ١١٥/٣ .

(٧) على رأى من أجاز ذلك . ارتشاف الضرب ١٩٥٣/٤ ، والهمع ١٤٣/٣ .

(٨) شرح المكودى ٢٠٩ .

المبحث التاسع

أوجه الائتلاف بين التوكيد والبدل

يأتلف التوكيد مع البدل فى عدة أوجه :

الوجه الأول : أنهما تكريران [١] يلحقان الأول فى أحد أقسام [٢] البدل. [٣]

الوجه الثانى : أن كل واحد منهما لا يتقدم على صاحبه. [٤]

الوجه الثالث : أن إعرابهما كإعراب ما يجريان [٥] عليه. [٦]

---

(١) اعلم أن فائدة تكرير اللفظ رفع توهم المتكلم أن السامع لم يسمع ما ذكر ، وفائدة تكرير المعنى رفع توهم السامع أن المتكلم تجوّز فى كلامه ، وفائدة تكرير الإحاطة رفع توهم السامع أن المتكلم وضع الأعم فى كلامه موضع الأخص ، وما تضمنته هذه الزيادة من فائدة تكرير اللفظ ليس بلازم له ، لأنه قد تكون فائدة تكرير اللفظ تمكين المعنى فى نفس السامع ، كما يكون ذلك - أيضا - فائدة تكرير المعنى وتكرير الإحاطة . شرح المقدمة الجزولية ٦٨٤/٢ .

(٢) البدل تابع للمبدل منه ، وهو مع تبعيته فى تقدير المستقل بمقتضى العامل وفى حكم تكريره . شرح المقدمة الجزولية ٦٦٤/٢ ، ، وشرح التسهيل ٣٢٩/٣ ، وارتشاف الضرب ١٩٦١/٤ .

(٣) الأشباه والنظائر ٢٦٥/٢ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) لما كان إعراب البدل بتبعية الأول جاز أن يعتبر غير مستقل . شرح الرضى على الكافية ٣٨٢/٢ ، وشرح الأشمونى ٥٦/٣ ، ٥٧ .

(٦) الأشباه والنظائر ٢٦٥/٢ .

الوجه الرابع : أنك فى التوكيد مسدد لمعنى المؤكد، وكذلك فـــى البــدل ([1]) يعنى بالأول فتبدل منه .([2])

الوجه الخامس : أنه يجوز الفصل بين التأكيد والمؤكد ([3]) ، كما أنه يجــوز ذلك بين البدل والمبدل منه .([4])

([1]) اعلم أن فى البدل رفع المجاز وإبطال التوسع الذى كان يجوز فى المبدل منـــــه ، ألا ترى أنك إذا قلت : جاءنى أخوك جاز أن تريد : كتابه أو رسوله ، فإذا قلت : (زيــد) زال ذلك الاحتمال كما لو قلت : نفسه أو عينه ، فقد حصل باجتماع البدل والمبدل منه من التأكيد ما يحصل بالنفس والعين . شرح المفصل لابن يعيش ٦٦/٣ .

([2]) الأشباه والنظائر ٢٦٥/٢ .

([3]) من ذلك قوله تعالى : ﴿ ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ﴾ .

انظر : شرح التسهيل ٢٨٧/٣ ، ٢٨٨ ، والهمع ١١٥/٣ .

([4]) من ذلك قوله تعالى : ﴿ قم الليل إلا قليلا * نصفه ﴾ . انظر : الهمع ١١٥/٣ .

المبحث العاشر

أوجه الائتلاف بين عطف النسق والبدل

يأتلف عطف النسق مع البدل فى عدة أوجه :

الوجه الأول : أن عطف النسق يتبع ما قبله فى المظهر والمضمر ، وكذلك البدل .(1)

الوجه الثانى : أن عطف النسق يتبع ما قبله فى الإعراب ، (2) وكذلك البدل .(3)

الوجه الثالث : أن عطف النسق يكون مفردا تابعا لمفرد (4) ، وكذلك البدل .(5)

الوجه الرابع : أن عطف النسق يكون جملة تابعة لجملة (6) ، وكذلك البدل .(7)

---

(1) شرح المفصل لابن يعيش ٦٩/٣ وانظر : شرح التسهيل لابن مالك ٣٣٢/٣ .

(2) اعلم أنه تجوز المخالفة فى الإعراب إذا عرف المراد نحو : مررت بزيد وعمرو أى: وعمرو كذلك ، و: لقيت زيدا وعمرو أى : وعمرو كذلك . شرح الرضى على الكافية ٣٥٥/٢ .

(3) شرح المفصل لابن يعيش ٧٤/٣ .

(4) ارتشاف الضرب ٢٠١٢/٤ .

(5) شرح المفصل لابن يعيش ٧٥/٣ .

(6) فى عطف الجملة الاسمية على الفعلية وبالعكس ثلاثة أقوال . انظر : الهمع ١٩٢/٣، وشرح الأشمونى ١٢٢/٣ .

(7) شرح المفصل لابن يعيش ٧٥/٣ ، وارتشاف الضرب ١٩٧٢/٤ ، والهمع ١٥٣/٣ ، وشرح الأشمونى ١٣٢/٣ .

الوجه الخامس : أنه يبدل الفعل من الفعل ([1]) كما يعطف الفعل على الفعل . ([2])

الوجه السادس : أنه يعطف المفرد على الجملة وبالعكس في النسق([3]) ، وكذلك البدل .([4])

الوجه السابع : أن عطف النسق يجوز جعله مستقلا وغير مستقل ، وكذلك البدل .([5])

([1]) بدل كل من كل باتفاق ، وبدل اشتمال على الصحيح ، ولا يبدل بدل بعض ، وأما بدل الغلط فالقياس يقتضيه . ارتشاف الضرب ١٩٧٣/٤ ، والهمع ١٥٣/٣ ، وشرح الأشمونى ١٣١/٣ .

([2]) ينبغى أن يشترط لإبدال الفعل ما اشترط لعطف الفعل على الفعل وهو الاتحاد فى الزمان دون الاتحاد فى النوع حتى يجوز : إن جئتنى تمش إلىّ أكرمك . حاشية الصبان ١٣١/٣ وانظر : شرح الجمل ٢٥٠/١ ، والهمع ١٩١/٣ ، وحاشية الخضرى ١٦٥/٢ .

([3]) إذا تجانسا بالتأويل نحو : زيد أبوه كريم وعالم إخوته ، لكن عطف الجملة على المفرد أولى من العكس ، لكونها فرعا عليه فى كونها ذات محل من الإعراب ، فالأولى كونها تابعة له فى الإعراب فنحو : مررت برجل شريف وأبوه كريم أولى من نحو : برجل أبوه كريم وشريف ، ولا سيما إذا كانت الجملة والمفرد صفتين ، لأن تطابق الصفة والموصوف أكثر من تطابق المبتدأ والخبر ، والحال وصاحبها . شرح الرضى على الكافية ٣٥٤/٢ . وانظر : شرح الجمل ٢٢٣/١ .

([4]) شفاء العليل ٧٧٣/٢ ، والهمع ١٥٤/٣ ، وشرح الأشمونى ١٣٢/٣ .

([5]) اعلم أن البدل لما لم يكن له معنى فى المتبوع حتى يحتاج إلى المتبوع ،ولم يفهم معناه منه جاز اعتباره مستقلا لفظا أى : صالحا لأن يقوم مقام المتبوع نحو : يا زيد أخ ، و: يا أخانا زيدُ مبنيين ، ولما كان إعرابه بتبعية الأول جاز أن يعتبر غير مستقل نحو: يا غلام بشرٌ وبشراً معربا بالوجهين ، و: يا أخانا زيداً بالنصب . =

الوجه الثامن : أن البدل لا يشترط مطابقته في التعريف والتنكير (١) ، وكذلك عطف النسق .(٢)

الوجه التاسع : أنه يحصل باجتماع البدل والمبدل منه من البيان ما يحصل باجتماع المعطوف والمعطوف عليه .(٣)

الوجه العاشر : أنه قد يحذف المعطوف عليه (٤) ، وكذلك المبدل منه .(٥)

= وكذلك عطف النسق يجوز جعله مستقلا نحو : يا زيد وعمرُو ، وغير مستقل نحو: يا زيد والحارث ، للعلة المذكورة . شرح الرضى على الكافية ٣٨٢/٢ وانظر : ٣٣٩، ٣٤٠ ، وكذلك : المنصف للشمنى القسم الثانى م ٣٩٨/١ .

(١) سواء أكانت النكرة من لفظ الأولى أم لم تكن ، موصوفة أم غير موصوفة .
وذهب الكوفيون والبغداديون إلى اشتراط وصف النكرة إذا أبدلت من المعرفة ، وعن الكوفيين أنه لا يجوز إبدال النكرة من المعرفة إلا أن يكون من لفظ الأول ، ونسب إلى نحاة بغداد لا إلى نحاة الكوفة . ارتشاف الضرب ١٩٦٢/٤ وانظر : شرح الجمل ٢٨٦/١ ، وشرح التسهيل لابن مالك ٣٣١/٣ ، والمساعد ٤٢٨/٢ ، ٤٢٩ .

(٢) خلاف ما إذا اقتضى ما قبل المعطوف عليه كونه نكرة كمجرور (رب) أو المجرور بـ(كم) وجب كون المعطوف كذلك . شرح الرضى على الكافية ٣٣٩/٢ وانظر : شرح المفصل لابن يعيش ٦٨/٣ .

(٣) شرح المفصل لابن يعيش ٦٦/٣ .

(٤) وذلك بعد (بلى) وأخوتها من حروف الجواب ، تقول لمن قال : ما قام زيد : بلى وعمرو أى : بلى قام زيد وعمرو ، لأنها حرف تصديق ، فيدل على المعطوف عليه الذى هو المصدق المثبت .
شرح التسهيل لابن مالك ٣٨١/٣ ، وشرح الرضى على الكافية ٣٤٩/٢ ، وشرح ابن عقيل ٢٤٣/٣ ، وشرح المكودى ٢٠٩ ، والهمع ١٩٤/٣ ، وحاشية الخضرى ١٥٧/٢ .

(٥) قول النحويين : إنه فى حكم تنحية الأول الذى هو المبدل منه ووضع البدل مكانه ليس ذلك على معنى إلغائه وإزالة فائدته ، بل على معنى أن البدل قائم بنفسه وأنه معتمد =

الوجه الحادى عشر : أنه يأتى فى البدل ما الثانى فيه ليس الأول إلا أنه بعضه أو معنى يشتمل عليه وهو ضمير يعلقه بالأول (1) ، وكذلك عطف النسق الثانى فيه ليس الأول ، ولذلك احتاج إلى حرف عطف . (2)

الوجه الثانى عشر : أن البدل منه ما يجرى مجرى الإضراب (3) ، وعطف النسق منه ما يجرى مجرى الإضراب والاستدراك . (4)

= الحديث ، وليس مبينا للمبدل منه كتبيين النعت الذى هو من تمام المنعوت ، والدليل على أن المبدل منه ليس بملغى ولا مطرحا أنك تقول : زيد رأيت أباه عمرا ، فتجعل (عمرا) بدلا من (أباه) ، فلو كان المبدل مطرحا لكان تقدير الكلام : زيد رأيت عمرا ، فتبقى الجملة التى هى خبر بلا عائد وذلك ممتنع .

شرح المفصل لابن يعيش ٦٦/٣ وانظر : المقتضب ٢١١/٤ ، والتوطئة ٢٠٢ ، وشرح الأشمونى ١٣٣/٣ ، وحاشية الصبان ٨٨/٣ .

وفى جواز حذف المبدل منه فى الصلة وإبقاء البدل رأيان :

قيل يجوز نحو : أحسن إلى الذى وصفت زيدا ، أى : وصفته ، وقيل : لا ، لأن البدل للإسهاب والحذف ينافيه . التسهيل ١٣٧ ، وشرح التسهيل لابن مالك ٣٣٩/٣ وارتشاف الضرب ١٩٧١/٤ ، وشفاء العليل ٧٧٣/٢ ، والمساعد ٤٣٨/٢ ، والهمع ١٥٤/٣ .

(1) اعلم أنه يشترط عود ضمير فى بدل البعض وبدل الاشتمال على المبدل منه ملفوظا أو مقدرا ، بخلاف بدل الكل ، لأنه نفس المبدل منه فى المعنى ، ومن النحويين من لا يلتزم فى هذين البدلين – أيضا – ضميرا ، لكن وجوده أكثر من عدمه . راجع : : ما يجوز تعدده وما لا يجوز ٣٨ ، ٣٩ .

(2) ارتشاف الضرب ١٩٦٥/٤ ، ١٩٦٦ ، ١٩٧٥ .

(3) أوضح المسالك ٤٠٣/٣ ، والأشباه والنظائر ١٣٠/٢ .

(4) أوضح المسالك ٣٥٤/٣ ، وشرح المكودى ٢٠٦ ، وعدة السالك ٣٥٤/٣ ، ٣٨٣ ، ٣٦٨.

الوجه الثالث عشر : أن عطف النسق منه ما يكون عطفا على اللفظ ، ومنه ما يكون عطفا على المحل (1) ، وكذلك البدل .(2)

الوجه الرابع عشر : : أن البدل يقدر معه العامل (3) ، وكذلك (4)

---

(1) الهمع ٣/١٩٥ ، ١٩٦ ، حاشية الصبان ٣/٨٩ .

(2) الأشباه والنظائر ٢/٢٦٢ .

(3) على رأى من ذهب إلى أن المقدر هو العامل فى البدل ، إلا أنه حذف لدلالة الأول عليه ، وذلك أنك إذا قلت : مررت بأخيك زيد فتقديره : مررت بأخيك بزيد ، وإذا قلت : رأيت أخاك زيدا فتقديره : رأيت أخاك رأيت زيدا .

والدليل على أن البدل على نية تكرار العامل ثلاثة أدلة : شرعى ولغوى وقياسى : فالشرعى قوله تعالى :﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾

واللغوى قول الشاعر: إذا ما مات ميت من تميم ... فسرك أن يعيش فجىء بزاد

بخبز أو بتمر أو بسمن ... أو الشىء الملفف فى البجاد

والقياس : يا أخانا زيد ، لو كان فى غير نية النداء لقال : يا أخانا زيدا . شرح المفصل لابن يعيش ٣/٦٧ ، والأشباه والنظائر ٢/١٢٩ وانظر : الخصائص ٢/٤٢٧ ، ٤٢٨ ، واللباب فى علل البناء والإعراب ١/٤١٤ ، وشرح التسهيل لابن مالك ٣/٣٣٠ ، والهمع ٣/١١٤ ، وحاشية الصبان ٣/٥٨ ، ٨٨ .

(4) اعلم أنه لا يشترط فى صحة العطف تقدير العامل بعد العاطف ، بل يشترط صلاحية المعطوف أو ما هو بمعناه لمباشرة العامل ، فلو كان ما بعد العاطف لا يصلح لمباشرة العامل ، ولا هو بمعنى ما يصلح لمباشرته أضمر له عامل مدلول عليه بما قبل العاطف ، وجعل من عطف الجمل نحو قوله تعالى:﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ ، فـ (زوجك) مرفوع بـ(ليسكن) مضمرا ، مدلول عليه بـ(اسكن) ، والمحوج إلى هذا التقدير : أن فعل الأمر لا يرفع إلا ضمير المأمور المخاطب ، لكنه وإن لم يكن صالحا لرفع غيره فهو صالح للدلالة على ما يرفعه ، وكل ما يستحقه المعطوف من التقدير المذكور مستحق فى البدل نحو : ادخلوا أولكم وأخركم ، فـ(أولكم وآخركم)=

النسق .([1])

الوجه الخامس عشر : أنه يجوز الفصل بين البدل والمبدل منه كما جاز ذلك بين المعطوف والمعطوف ([2]) عليه . ([3])

= مقدر قبلهما (ليدخل) ، لأن (ادخل) لا يرفع إلا ضمير المأمور المخاطب ، نص على هذا المعنى سيبويه – رحمه الله – ، فإن جعل (أولكم وآخركم) بدلا فهو وعامله من إبدال الجمل بعضها من بعض كما يقال فى العطف . شرح التسهيل ٣٧١/٣ ، ٣٧٢ وانظر : ارتشاف الضرب ٢٠١٢/٤ ،وشفاء العليل ٧٩٢/٢ ، والمساعد ٤٦٨/٢ ، ٤٦٩ .

([1]) على رأى من ذهب إلى أن العامل فى المعطوف محذوف ، فإن قلت : ضربت زيدا وعمراً ، فالمراد : وضربت عمرا ، فحذفت الثانية لدلالة الأولى عليه ، وبقى عمله فى (عمرا) على ما كان . شرح المفصل لابن يعيش ٧٥/٣ ، وشرح الجمل ٢٦١/١ ، وحاشية الخضرى ١٢٠/٢ .

([2]) حق التابع أن يكون متصلا بمتبوعه ، فإن فصل بينهما بغير أجنبى حسن كقوله تعالى:﴿ أفى الله شك فاطر السموات والأرض﴾ ، ففصل بالمبتدأ بين الصفة والموصوف ، لكونه بعض الخبر ، وكقوله تعالى :﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ففصل بالفعل ومفعوله الثانى بين الصفة والموصوف ، لإضافة المفعول الأول إليه، فلم يعد الفاصل أجنبيا .

ومن الفصل بما ليس أجنبيا محضا : الفصل بـ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ بين الأيدى والأرجل ، لأن المجموع عمل واحد ، قصد الإعلام بترتيبه فحسن ، وكان ذلك أسهل من الجملة المعترض بها بين شيئين ، امتزاجهما أشد من امتزاج المعطوف والمعطوف عليه كالموصول والصلة ، والموصوف والصفة .

فلو جيء بين المعطوف والمعطوف عليه بجملة لا يكون مضمونها جزء ما توسطت فيه ، ولا هى حالية ولا اعتراضية ، تمحضت أجنبيتها ولم يجز الفصل بها . شرح الكافية الشافية ١١٤٨/٢ ، ١١٤٩.

([3]) الهمع ١١٥/٣ ، وحاشية الصبان ٥٨/٣ .

الفصل الثانى

المختلف فى التوابع

المبحث الأول

أوجه الاختلاف بين النعت وعطف البيان

اعلم أن الصفة تختلف عن عطف البيان من عدة أوجه :

الوجه الأول : أن الصفة مشتقة أبدا من معنى فى الموصوف أو فى شبيه استحق أن يوضع له اسم منه ، ([1]) أى أن الصفة إنما تكون بما هو مأخوذ من فعل أو حلية نحو : ضارب ومضروب ، وعالم ومعلوم ، وطويل وقصير ونحوها من الصفات ، فـ(طويل) مثلا مشتق من الطول ، فإذا قلت : رجل طويل ، فالرجل استحق أن يكون طويلا اسما له واقعا عليه بطريق وجود الطول فيه .([2])

وأما عطف البيان فلا يكون مشتقا ، أعنى أنه يكون بالأسماء الصريحة غير المأخوذة من الفعل كالكنى والأعلام نحو قولك : ضربت أبا محمد زيدا، و: أكرمت خالدا أبا الوليد ، بينت الكنية بالعلم ، والعلم بالكنية.([3])

([1]) اعلم أن النعت بالمصدر جاء فى كلام العرب كثيرا ، وهو على خلاف الأصل ، لأن المصدر جامد لكنه شبيه بالمشتق ، فإذا وقع نعتا التزم فيه أن يكون مصدر ثلاثى ، أو بزنة مصدر ثلاثى ، وأن لا يكون ميميا ، كما التزم فيه إفراده وتذكيره فتقول : مررت برجل عدل ، و : برجلين عدل ، و : برجال عدل ، و: بامرأة عدل، و : بامرأتين عدل ، و: بنساء عدل ، وسبب ذلك أن النعت فى الحقيقة محذوف والأصل : مررت برجلين ذوى عدل ، فحذف المضاف وبقى المضاف إليه على ما كان عليه من الإفراد .

شرح الكافية الشافية ١١٦٠/٣ ، وشرح المكودى ١٩٣ ، والتصريح ١١٣/٢ ، والأشباه والنظائر ١٢٠/٢ ، والنحو الوافى ٤٦٠/٣ ، ٤٦١ ، ٤٦٤ .

([2]) هذا رأى الأكثرين ، وذهب بعضهم إلى عدم الاشتراط ، وأن الضابط دلالته على معنى فى متبوعه كالرجل الدال على الرجولية . حاشية الصبان ٦٢/٣ .

([3]) شرح المفصل لابن يعيش ٧١/٣، ٧٢ ، وشرح المقدمة الجزولية ٦٦٣/٢ ، وابن الناظم ٥١٥ ، والأشباه والنظائر ٢٥٨/٢ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣ ، وحاشية الصبان ٨٦/٣ .

الوجه الثانى : أن الصفة تكون فى المعرفة والنكرة (1) ، وعطف البيان لا يكون إلا فى (2) المعارف. (3)

الوجه الثالث : أن عطف البيان على الانفراد يدل على المقصود ، بمعنى أنك إذا قلت : زيد أبو عبد الله ، دل (أبو عبد الله) – لو انفرد – على الرجل المخصوص الذى قصد به (زيد) (4) ، وأما الصفة فليست كذلك ، لأنك إذا قلت : رجل طويل ، ثم أفردت (الطويل) ولم تقرر جريه على رجل لم يدل عليه وإنما يدل على شيء من صفته (الطول) .(5)

الوجه الرابع :أن الصفة حكمها أن تكون أعم من الموصوف أو مساوية ولا تكون أخص منه (6) ، لأنها تستمد من الفعل بدليل تحملها للضمير ، فلذلك انحطت رتبتها لنظرها إلى ما أصله التنكير ،

---

(1) علمنا أن الصفة توافق موصوفها فى ذلك ، وقلنا إنما وجبت الموافقة فى ذلك حذرا من التدافع بين ما هو فى المعنى واحد ، لأن فى التعريف إيضاحا وفى التنكير إبهاما ، والنعت والمنعوت فى المعنى واحد فتدافعا .انظر ص٧٩٥/حاشية (٣) من هذا البحث.

(2) ذهب الكوفيون – وتبعهم جماعة – إلى أن عطف البيان يكون فى النكرات أيضا . شرح الجمل ٢٤٩/١ ، وشرح الكافية الشافية ١١٩٣/٣ ، وشرح عمدة الحافظ ٥٩٥/٢ ، وارتشاف الضرب ١٩٤٣/٤ ، والمساعد ٤٢٤/٢ ، وشرح المكودى ٢٠٠ ، والهمع ١٣٢/٣ .

(3) شرح المفصل لابن يعيش ٧٢/٣ ،وشرح التسهيل لابن مالك ٣٢٦/٣ ، والأشباه والنظائر ٢٥٩/٢ .

(4) أى أنه يكشف المتبوع بنفسه لا بمعنى فى المتبوع ولا فى سببيه. شرح الأشمونى ٨٦/٣.

(5) الأشباه والنظائر ٢٥٨/٢ ، ٢٥٩ وانظر : شرح الجمل ٢٩٥/١ ، والهمع ١٣٥/٣ ، والنحو الوافى ٥٤٤/٣ حاشية (٢) .

(6) علل النحو ٣٨١ ، وشرح الجمل ١٩٩/١ ، وشرح التسهيل لابن مالك ٣٠٧/٣ ، ٣٠٨ ، ٣٢٦ ، وإتحاف ذوى الاستحقاق ١٨٣/٢ .

ولا يلزم ذلك فى عطف البيان [1] ، ألا ترى أنك تقول : مررت بأخيك زيد ، و زيد أخص من أخيك .[2]

الوجه الخامس : أن الصفة قد تكون جملة[3]، وعطف البيان ليس كذلك.[4]

الوجه السادس : أن الصفة منها ما يكون للمدح،ولا كذلك فى عطف البيان.[5]

الوجه السابع : أن الصفة يجوز فيها القطع إلى النصب والرفع ، فتنتصب بإضمار فعل ، وترتفع بإضمار مبتدأ [6] ، ولا يجوز ذلك فى عطف البيان ، لعدم المدح والذم المقتضى للقطع [7] .

---

(1) زعم أكثر المتأخرين أن متبوع عطف البيان لا يفوقه فى الاختصاص بل يساويه أو يكون أعم منه ، والصحيح جواز الثلاثة ، لأنه بمنزلة النعت ، وهو يكون فى الاختصاص فائقا ومفوقا ومساويا ، فليكن العطف كذلك ، واشترط بعضهم أن يكون عطف البيان أعرف من متبوعه ، وعلله بأن الابتداء بالأخص يوجب الاكتفاء به ، وعدم الحاجة إلى الإتيان بما هو دونه . شرح المقدمة الجزولية ٦٦٣/٢ ، وشرح التسهيل لابن مالك ٣٢٦/٣ ، وشرح عمدة الحافظ ٥٩٨/٢ - ٦٠٥ ، والهمع ١٣٢/٣.

(2) شرح المفصل لابن يعيش ٧٢/٣ ، والتوطئة ١٩٣ ، وشرح الأنموذج فى النحو ٧٦ ، وشرح الكافية الشافية ١١٩٣/٣ ١١٩٤ ، والأشباه والنظائر ٢٥٩/٢ .

(3) وذلك بثلاثة شروط ، شرط فى المنعوت وهو أن يكون منكرا ، وشرطان فى الجملة : أحدهما : أن تكون مشتملة على ضمير يربطها بالموصوف . الثانى : أن تكون خبرية. شرح الأشمونى ٦٣/٣ .

(4) الأشباه والنظائر ٢٥٩/٢ .

(5) المصدر السابق .

(6) إذا كان النعت لمجرد مدح أو ذم أو ترحم فلا يجوز إظهار العامل ، وإنما التزم حذف العامل ليكون حذفه الملتزم أمارة على قصد إنشاء المدح أو الذم أو الترحم ، أما إذا كان للتوضيح أو للتخصيص أو للتعميم أو للإبهام أو للتفصيل فإنه يجوز إظهاره .
شرح الأشمونى ٦٩/٣ ، ٧٠ وحاشية الصبان ٦٩/٣ ، ٧٠ وانظر : شرح عمدة الحافظ ٥٤٣/١ .

(7) شرح المفصل لابن يعيش ٧٢/٣ ، والأشباه والنظائر ٢٥٩/٢ ، ٢٦٠ .

الوجه الثامن ([1]): أن الصفة تتحمل الضمير([2])، وعطف البيان لا يتحملـه([3]).

([1]) عن ابن هشام أنه قال فى تذكرته : " هذا الوجه ناشئ عن الأول ، فينبغى أن يهذب فيقال : يكون فى الحقيقة لغير الأول نحو : مررت برجل قائم أبوه ، والبيان لا يكون إلا للأول " . انتهى انظر : الأشباه والنظائر ٢/٢٦٣ .

([2]) لابد فى الصفة من ضمير يعود على الموصوف ، لأن ذلك من ضرورة كونه مشتقا أن يعمل فى فاعل مضمر أو مظهر ، فالمضمر هو الموصوف فى المعنى ، والمظهر لابد أن يصحبه ضمير الموصوف ليصير من سببه به كقولك : مررت برجل قائم زيد عنده ، فلو لا الهاء لكان الكلام أجنبيا من الأول ، ولم يكن صفة له . اللباب فى علل البناء والإعراب ١/٤٠٥ .

([3]) الأشباه والنظائر ٢/٢٥٩ ، ٢٦٣ .

المبحث الثانى

أوجه الاختلاف بين النعت والتوكيد

تختلف الصفة عن التوكيد من عدة أوجه :

الوجه الأول : أنه يصح حذف الموصوف (1) ، ولا يصح حذف المؤكد (2)، والسبب فى ذلك أن الصفة فيها معنى زائد على الموصوف ، فإذا علم الموصوف جاز حذفه وإبقاؤها ، لإفادتها المعنى الزائد على الموصوف ، لأنها بمنزلة المستقل بالنظر إلى المعنى الزائد ، وأما التأكيد فليس فيه زيادة على المؤكد ، بل هو بلفظه أو بمعناه (3) ، فلو حذف لبطل سر (4) التأكيد .(5)

---

(1) اعلم أنه يكثر حذف الموصوف للعلم به إذا كانت الصفة صالحة لمباشرة العامل كقوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾ ، فإن لم تصلح لمباشرة العامل امتنع الحذف غالبا إلا فى الضرورة كقوله :

كأنكَ من جَمالِ بنى أُقَيشٍ ... يُقَعْقَعُ بين رجليه بَشَنِّ

وقولى (غالبا) تنبيه على نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وهو مطرد فى النفى كقولهم : ما منهما مات حتى رأيته يفعل كذا ، واعلم أنه قد تحذف الصفة للعلم بها ، فيكتفى بنيتها كقوله تعالى :﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ أى : قومك المعاندون . شرح التسهيل لابن مالك ٣/٣٢٤ ، وابن الناظم ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، وارتشاف الضرب ٤/١٩٣٧ ، وشرح ابن عقيل ٣/٢٠٥ ، وشرح المكودى ١٩٥ ، وحاشية الخضرى ٢/١٣٠ .

(2) فى توكيد محذوف خلاف ، والصحيح عدم الجواز ، لأن إجازة مثل ذلك يحتاج إلى سماع من العرب ، ولأن التوكيد بابه الإطناب والحذف للاختصار فتدافعا ، ولأنه لا دليل على المحذوف . الهمع ٣/١٤٣ وانظر : شرح التسهيل لابن مالك ٣/٢٩٩ .

(3) ولأن الغرض من التوكيد التقوية والحذف ينافيه . حاشية الصبان ٣/٨٤ .

(4) اعلم أن التوكيد وإن كان معناه جامدا لكن كون معناه مفهوما من المتبوع لو سكت عنه منع من اعتبار مستقلا . شرح الرضى على الكافية ٢/٣٨٢ ، و المنصف للشمنى القسم الثانى م ١/٣٩٨ .

(5) الأشباه والنظائر ٢/٢٥٧ وانظر : شفاء العليل ٢/٧٣٩ ، ٧٥٩ ، والهمع ٣/١٤٣ .

الوجه الثانى :أن الصفات المتعددة يجوز عطف [1] بعضها على بعض[2] ، والتوكيد المتعدد لا يعطف بعضه على بعض [3] ، والسبب أن ألفاظ الصفات متعددة المعانى ، وألفاظ التوكيد – المعنوى – متحدة المعانى [4].

الوجه الثالث : أن الصفات يجوز قطعها [5] عن إعراب متبوعها [6] ، وألفاظ التوكيد لا يجوز قطعها عن إعراب متبوعها [7] ، والسبب أن القطع إنما يكون لمعنى مدح أو ذم وهو موجود

---

(1) يجوز عطف بعض الصفات على بعض تنبيها على زيادة المدح والذم . اللباب فى علل البناء والإعراب ٤٠٨/١ .

(2) انظر حكم تعدد النعت فى : ما يجوز تعدده وما لا يجوز ١٣.

(3) لا يقال : قام زيد نفسه وعينه ، ولا : جاء القوم كلهم وأجمعون ، وأجازه بعضهم وهو قول ابن الطراوة . اللباب فى علل البناء والإعراب ٤٠٣/١ ، والهمع ١٤٣/٣ ، وشرح الأشمونى ٧٧/٣ ، وحاشية الشيخ يس ١٢٤/٢ .

(4) الأشباه والنظائر ٢٥٧/٢ وانظر : شرح الكافية الشافية ١١٨٢/٣ .

(5) إذا كثرت النعوت والمنعوت لا يتعين إلا بجميعها لزم إتباعها كقولك : ايتنى برجل مسلم عربى النسب فقيه نحوى كاتب ، فهذه النعوت المتوالية على هذا الوجه – وأشباهها – بمنزلة نعت واحد لا يستغنى عنه فلا تقطع ، فلو حصل التعيين بدونها جاز للمتكلم أن يتبعها وأن يقطعها وأن يتبع بعضا بشرط تقديم المتبع وتأخير المقطوع، والإتباع أجود ، وكذلك يجوز القطع والإتباع فيما لا يحصل التعيين بدونه إذا قصد المتكلم تنزيله منزلة ما يحصل التعيين بدونه لتعظيم أو غيره .

شرح التسهيل لابن مالك ٣١٩/٣ ، وشفاء العليل ٧٥٧/٢ ، وشرح ابن عقيل ٢٠٣/٣ ، وإتحاف ذوى الاستحقاق ١٨٨/٢ ، وحاشية الخضرى ١٢٨/٢ .

(6) اللباب فى علل البناء والإعراب ٤٠٧/١ ، والفصول الخمسون ٢٣٥ ، وشرح الجمل ٢٠٧/١ ، وشرح الأشمونى ٦٩/٣ .

(7) الهمع ١٤٣/٣ ، وشرح الأشمونى ٧٧/٣ .

فى الصفات ، فلذلك جاز قطعها ، وأما التوكيد فلا يستفاد منه مدح ولا ذم (1) ، فلذلك لم يجز قطعه (2) .

الوجه الرابع : أن التوكيد يكون بالضمائر دون الصفات ، والسبب أن التوكيد يقوى المعنى فى نفس السامع بالنسبة إلى رفع مجاز الحكم (3) وإن كان المحكوم عليه فى نهاية الإيضاح ، فلذلك احتيج إليه .

وأما الصفة فلأن المقصود منها إيضاح المحكوم عليه وهو فى نهاية الإيضاح فلا يحتاج إلي إيضاح ، لأنه إن كان لمتكلم أو لمخاطب فقرينة التكلم أو الخطاب توضحهما ، وإن كان لغائب فالقرينة الظاهرة توضحه فلا يحتاج إلى إيضاح .(4)

الوجه الخامس : أن الصفة تتبع المعرفة (5) والنكرة (6) ، والتوكيد لا يتبع إلا

---

(1) ولمنافاة القطع مقصود التوكيد . حاشية الصبان ٣/٧٧ .

(2) الأشباه والنظائر ٢/٢٥٧ .

(3) التوكيد لرفع توهم المجاز . الهمع ٣/١٣٧ .

(4) الأشباه والنظائر ٢/٢٥٧ ، ٢٥٨ وانظر : التوطئة ١٩١ ، والهمع ٣/١٣٦ .

(5) إنما كانت الصفة كالموصوف فى التعريف والتنكير ، لأن الصفة هى الموصوف فى المعنى ، ومحال أن يكون الشيء الواحد معرفة ونكرة فى حال واحدة . اللباب فى علل البناء والإعراب ١/٤٠٥ .

واعلم أن الأصل ألا توصف المعارف ، لأنها وضعت فى أول أحوالها تدل على شخص بعينه لا يشاركه فيه غيره ، وذلك أنهم سموا الشخص زيدا على تقدير أنه ليس فى العالم قد سمي بزيد سواه ، ثم التسمية للآخر على هذه النية ، فلما كانت الأشخاص أكثر من الأسماء اشترك فى الاسم الواحد جماعة ، فإذا قال القائل : جاءنى زيد ، فخاف ألا يعرف المخاطب (زيدا) الذى بِعَيْنِه ، لاشتراك جماعة فيه ، بينه بالنعت فصارت نعوت المعارف دواخل عليها ؛ إذ أشبهت النكرة من هذا الوجه . علل النحو ٣٨٠.

(6) هذا مذهب الجمهور، وأجاز الأخفش وصف النكرة – إذا خصصت – بالمعرفة، وأجاز بعضهم وصف المعرفة بالنكرة ، وأجازه ابن الطراوة بشرط كون الوصف خاصا بذلك =

المعارف (1) – أعنى التوكيد المعنوى.(2) ، بمعنى: أن النكرات تؤكد بتكرير ألفاظها دون معانى ألفاظها وتوصف ، والسبب أن معانى ألفاظها معارف ، ولا تؤكد النكرات بالمعارف ، وأما الوصف فإنها (3) توصف بما يوافقها في التنكير .(4)

الوجه السادس : أن التوكيد إن كان معنويا فألفاظه محصورة (5) ، وألفاظ الصفات ليست كذلك ، وإن كان لفظيا (6) فإنه يجرى في

= الموصوف . شرح الأشمونى ٦٠/٣ وانظر ارتشاف الضرب ١٩٠٨/٤ ، والمساعد ٤٠٢/٢ ، وحاشية الصبان ٦٠/٣ .

(1) اعلم أن الغرض من التوكيد إثبات الخبر عن المخبر عنه ، وذلك أنك إذا قلت : جاءنى زيد نفسه ، أخبرت أن الذى تولى المجيء هو بعينه ، فلذلك دخل التوكيد فى الكلام ،ولهذه العلة لم يجز أن تؤكد النكرة ، لأنه ليس لها عين ثابتة كالمعارف ، فلم يحتج إلى إثباتها إذا كانت لا تثبت بالتوكيد ، فلهذا أسقط التوكيد عنها .علل النحو ٣٨٧ .

(2) مذهب البصريين أنه لا يجوز توكيد النكرة ، سواء كانت محدودة كيوم وليلة و شهر وحول ، أو غير محدودة كوقت وزمن وحين ، ومذهب الكوفيين جواز توكيد النكرة المحدودة ؛ لحصول الفائدة بذلك نحو : صمت شهرا كلهً ، ومنه قوله :

تحملنى الذ لفاء حولا أكتعا

وقوله : قد صَرَّت البكْرة يوما أجمعا .

اللباب فى علل البناء والإعراب ٣٩٥/١ – ٣٩٧.

(3) اعلم أن الأصل فى النكرة أن توصف ، لأن الغرض من الصفة تخصيص الموصوف، فلما كانت النكرات مجهولة احتاجت إلى التخصيص . علل النحو ٣٨٠.

(4) الأشباه والنظائر ٢٥٨/٢ .

(5) شرح الأنموذج فى النحو ٦٦ ، وارتشاف الضرب ١٩٤٧/٤ ، والهمع ١٤٣/٣ .

(6) التوكيد اللفظى يكون بإعادة اللفظ الأول – أو مرادفه – مفردا كان أو مركبا ، مضافا أو جملة ، أو كلاما نكرة أو معرفة ، ظاهرا أو مضمرا ، اسما أو فعلا أو حرفا . شفاء العليل ٧٤٢/٢ ، والهمع ١٤٣/٣ ، وحاشية الصبان ٥٧/٣ .

الكلمة بأسرها [1] منفردة ومركبة [2] ، والصفة ليست كذلك.[3]

الوجه السابع : أنه يجب [4] ترتيب ألفاظ التوكيد إذا اجتمعت .[5]

الوجه الثامن : أن الصفة يشترط فيها أن تكون مشتقة [6] ، ولا كذلك في التوكيد .[7]

---

(1) التوكيد اللفظى قد يكون بتكرار اللفظ مرتين - وهو الأكثر - وقد يكون بثلاث مرات نحو : ألا حبذا حبذا حبذا   حبيبٌ تَحَمَّلْتُ فيه الأذى
ارتشاف الضرب ١٩٥٨/٤.

(2) الأكثر فى التوكيد اللفظى أن يكون فى الجمل وكثيرا ما يقترن بعاطف، ويجب الترك عند إيهام التعدد نحو: ضربت زيدا ضربت زيدا، ولو قيل: ثم ضربت زيدا لتوهم أن الضرب تكرر منك مرتين تراخت إحداهما عن الأخرى، والغرض أنه لم يقع إلا مرة واحدة .
شرح الأشمونى ٨١/٣ وانظر : شرح التسهيل لابن مالك ٣٠٥/٣ .

(3) الأشباه والنظائر ٢٥٨/٢ .

(4) قيل لا يجب الترتيب بل يحسن. الهمع ١٣٩/٣ وانظر: شرح المفصل لابن يعيش ٤٦/٣.

(5) الهمع ١٣٩/٣ ، ١٤٣ وانظر : علل النحو ٣٨٧ ، ٣٨٨ ،وشرح الجمل ٢٦٦/١ ، وارتشاف الضرب ١٩٥١/٤ ، وشفاء العليل ٧٣٨/٢ ، وحاشية الشيخ يس ١٢٤/٢.

(6) إنما لزم أن تكون الصفة بالمشتق أو الجارى مجراه ، لأن الفرق إنما يحصل بأمر عارض يوجد فى أحد الشيئين أو الأشياء دون باقيها ، وهذا إنما يكون فى المشتقات.
اللباب فى علل البناء والإعراب ٤٠٤/١ ، ٤٠٥ وانظر : ابن الناظم ٤٩٠ ، ٤٩١.
والمراد بالمشتق : ما دل على حدث وصاحبه وذلك اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعل التفضيل ، ولا يرد اسم الزمان والمكان والآلة ، لأنها ليست مشتقة بالمعنى المذكور ، أو أن تكون مؤولة المشتق ، والمراد : ما أقيم المشتق فى المعنى من الجوامد . الفصول الخمسون ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، وشرح التسهيل ٣١٣/٣ ، ٣١٤ ، وارتشاف الضرب ١٩١٧/٤ ، وشرح الاشمونى ٦٢/٣.

(7) الأشباه والنظائر ٢٥٨/٢ .

المبحث الثالث

أوجه الاختلاف بين النعت وعطف النسق

تختلف الصفة عن عطف النسق من عدة أوجه :

الوجه الأول : أن الصفة تكون مشتقة أو ما هو فى حكمه [1] ، ولا يشترط ذلك فى عطف النسق .[2]

الوجه الثانى : أن الصفة حكمها أن تكون أعم من الموصوف أو مساوية له [3] ، وليس كذلك عطف النسق .[4]

الوجه الثالث : يشترط لصحة العطف أن يكون المعطوف صالحاً بنفسه أو بما هو بمعناه لمباشرة العامل المذكور[5] ، ولا يشترط ذلك فى الصفة .[6]

الوجه الرابع : أن الصفة يجوز فيها القطع[7]،وليس ذلك فى عطف النسق.[8]

الوجه الخامس: يشترط أن يكون المتبوع اسما إذا كان التابع صفة [9] ، أما إن كان التابع عطف نسق [10] فقد يكون المتبوع اسما أو غير اسم .[11]

---

[1] اللباب فى علل البناء والإعراب ٤٠٤/١ ؛ وشرح المكودى ١٩٢ .

[2] الإيضاح فى شرح المفصل ١/ ٤٥٤ .

[3] علل النحو ٣٨١ ، وشرح المفصل للخوارزمى ١٠١/٢.

[4] شرح ابن عقيل ٢٢٤/٣ – ٢٤٥ ، وحاشية الخضرى ١٤١/٢ – ١٥٩ .

[5] أى للوقوع بعده مباشرة من غير أن يمنع من ذلك مانع . حاشية الصبان ٨٩/٣ ، والنحو الوافى ٣ /٦٥٥ .

[6] ارتشاف الضرب ١٩٠٧/٤ ، ١٩٢٢ .

[7] شرح المكودى ١٩٤ .

[8] الإيضاح فى شرح المفصل ٤٥٤/١ – ٤٥٧ .

[9] وكذلك إن كان توكيدا معنويا أو عطف بيان .

[10] وكذلك إن كان توكيدا لفظيا أو بدلا .

[11] النحو الوافى ٤٣٧/٣ .

الوجه السادس : أن النعت ينقسم باعتبار معناه [1] إلـــى : نعـت حقيقـى ، وسببى ، ومؤسس ، ومؤكد ، وتمــهيد [2] ، وليسـت هـذه القسمة فى عطف النسق .[3]

الوجه السابع : أن الصفات المتعددة تكون لموصوفها [4] ، أما المعطوفـات إذا تكررت فلا تكون على الأول إن كان العاطف مرتبا .[5]

الوجه الثامن : أنه لا يجوز تقديم الصفة على الموصوف [6] ، ويجوز تقديم

---

(1) كما ينقسم باعتبار لفظه إلى مفرد ، وجملة ، وشبه جملة . النحو الوافى ٣/٤٥٨ .

(2) الحقيقى هو ما يدل على معنى فى نفس منعوته الأصلى أو فيما هـو بمنزلتـه وحكمـه المعنوى ، وعلامته : أن يشتمل على ضمير مستتر – أصالة أو تحويلا – يعود على ذلـك المنعوت .

والسببى هو الذى يدل على معنى فى شيء بعده له صلة وارتباط بالمنعوت نحـو : هـذا بيت متسع أرجاؤه ، وعلامته : أن يذكر بعده اسم ظاهر – غالبا – مرفوع به ، مشـتمل على ضمير يعود على المنعوت مباشرة ، ويربط بينه وبين هذا الاسم الظاهر الذى ينصب عليه معنى النعت .

والمؤسس هو الذى يدل على معنى جديد لا يفهم من الجملة بغير وجوده نحـو : راقنـى الخطيب الشاعر ، فكلمة (الشاعر) نعت أفاد معنى جديدا لا يستفاد إلا من ذكرها.

والمؤكد هو الذى يدل على معنى يفهم من الجملة بدون وجوده نحو : تخيرت من الأطبـاء النِّطاسيَّ البارعَ ، فالبارع نعت مفهوم المعنى من كلمة (النِّطاسى) التى بمعناه ، ومـن الجملة قبله أيضا ، لأن االتخير لايكون – فى الأغلب – إلا للبارع .

والتمهيد هو أن يكون النعت جامدا وغير مقصود لذاته ، والمقصود هو ما بعده ، وإنمـا ذكر السابق ليكون توطئة وتمهيدا لنعت مشتق بعده يتجه القصد له نحو : استعنت بـأخ أخ مخلص . النحو الوافى ٣/٤٤١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٦.

(3) شرح ابن عقيل ٣/٢٢٤ – ٢٤٥ ، وحاشية الخضرى ٢/١٤١ – ١٥٩.

(4) اللباب فى علل البناء والإعراب ١/٤٠٧.

(5) حاشية الصبان ٣/١١٩.

(6) الهمع ٣/١٢٧ ، وحاشية الخضرى ٢/١١٩ ، والنحو الوافى ٣/٤٩٨ .

المعطوف على المعطوف عليه .([1])

([1]) قال أبو حيان : " يجوز تقديم المعطوف على المعطوف عليه بخمسة شروط عند أصحابنا:
أحدها : أن يكون العطف بالواو خاصة ، وهو مذهب البصريين ، وأجاز ذلك هشام بـ (الفاء) و(ثم) و(أو) و (لا) وقال هو جيد ، وقال : وإن كانت الأداة ترفع جاز تقديم النسق ، تقول : متى وخرج الأمير خروجك ،وكذلك فى (كيف) و(أين) وفى جميع الصفات التامة نحو : خلفك وعبد الله رجل ، ولا يجيز : هل وزيد عمرو منطلقان ، ولا : فيك وزيد عمرو راغبان ، وأجاز هذا كله : أحمد بن يحيى ،ولا يجوز شيء من هذا على مذهب سيبويه ، لا فى التام ولا فى الناقص .
الشرط الثانى : أن لا يؤدى إلى وقوع حرف العطف صدرا ، لا تقول : وعمرو زيد قائمان ، تريد : زيد وعمرو قائمان ، ولا نعلم خلافا فى هذا الشرط .
الشرط الثالث : أن لا يؤدى إلى مباشرة حرف العطف عاملا غير متصرف ، فلا تقول : إن عمرا وزيدا قائمان ، ولا : ما أحسن وزيدا عمرا .
الشرط الرابع : أن لا يكون المعطوف محفوظا ، فلا تقول : مررت وعمرو بزيد .
الشرط الخامس: أن يكون الفعل لا يستغنى بفاعل واحد نحو: اختصم زيد وعمرو،فذهب هشام إلى أنه لا يجوز: اختصم وعمرو زيد، وهو مذهب البصريين،وأجاز ذلك أحمد بن يحيى .
وإذا اجتمعت هذه الشروط فمذهب البصريين أنه لا يجوز ذلك إلا فى الشعر ، وهو عندهم فى المنصوب أقبح منه فى المرفوع ، ومذهب الكوفيين جواز ذلك فى الشعر وفى الكلام " انتهى.
ارتشاف الضرب ٢٠١٨/٤ ، ٢٠١٩ وانظر : الكتاب ٤٤١/١ ، وشرح الجمل ٢٤٥/١ ، وشفاء العليل ٧٩٧/٢ ، والمساعد ٤٧٦/٢ .

المبحث الرابع

أوجه الاختلاف بين النعت والبدل

يختلف النعت عن البدل من عدة أوجه :

الوجه الأول : أن النعت يكون بالمشتق أو ما هو فى حكمه (1) ، ولا كذلك البدل فإن حقه أن يكون بالأسماء الجامدة (2) أو المصادر .(3)

الوجه الثانى : أن النعت يطابق المنعوت تعريفا وتنكيرا ، والبدل لا يلزم فيه (4) ذلك (5) .

---

(1) شرح الأنموذج فى النحو ٦٩ ، وشرح الكافية الشافية ١١٥٧/٣ ، ١١٥٨ ، والأشباه والنظائر ١١٩/٢ .

(2) يقول الرضى : " الأغلب أن يكون البدل جامدا بحيث لو حذفت الأول لاستقل الثانى ولم يحتج إلى متبوع قبله ، فإن لم يكن جامدا كقوله :

فلا وأبيك خير منك إنى ليؤذينى التحمحم والصهيل

قدرَ الموصوف أى : فلا وأبيك رجل خير منك ، بخلاف الصفة ، فإنك لو حذفت الأول فى : جاءنى زيد العالم ، لاحتاج الثانى إلى مقدر قبله ، لأن الوصف لابد له من موصوف " . انتهى شرح الرضى على الكافية ٣٨١/٢ ، ٣٨٢ وانظر : المنصف للشمنى القسم الثانى م ٣٩٨/١ .

(3) الأشباه والنظائر ٢٦٤/٢ ، ٢٦٥ وانظر : اللباب فى علل البناء والإعراب ٤١٠/١ .

(4) ليس الأمر فى البدل والمبدل منه كالصفة والموصوف فيلزم تطابقهما فى التعريف والتنكير كما كان ذلك فى الصفة والموصوف لأن الصفة من تمام الموصوف وتحلية له، والبدل منقطع من المبدل منه يقدر فى موضع الأول ، فلذلك يجوز بدل المعرفة من المعرفة نحو قولك : مررت بأخيك زيد ، والنكرة من المعرفة نحو قولك : مررت بأخيك رجل صالح ، ولا يحسن بدل النكرة من المعرفة حتى توصف كما فى المثال ، لأن البيان مرتبط بهما جميعا ، والنكرة من النكرة نحو قوله تعالى : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ ﴾ فقوله (مفازا)نكرة وقد أبدل من النكرة وهو (حدائق) ، والمعرفة من النكرة نحو قولك : مررت برجل زيد .

شرح المفصل لابن يعيش ٦٨/٣ ، ٦٩.

(5) اللباب فى علل البناء والإعراب ٤١٠/١ ، ٤١٢ ، والهمع ١٥٠/٣ ، والأشباه والنظائر ٢٦٤/٢، ٢٦٦.

الوجه الثالث : أن البدل يجرى فى المظهر والمضمر [1] ، والنعت ليس كذلك .[2]

الوجه الرابع : أن فى البدل ما يلزم فيه ضمير ظاهر إلى اللفظ وذلك البعض والاشتمال [3] ، وليس كذلك الصفة إذا كانت للأول ، بل يكون

---

(1) هو فى ذلك على ثلاثة أضرب : **بدل مظهر من مضمر** نحو قولك : رأيته زيدا ، وهذا من بدل الشيء ، وبدل مضمر من مظهر نحو قولك : رأيت زيداً إياه ، أبدل المضمر (إياه) من المظهر (زيدا) للبيان ، **وبدل مضمر من مضمر** نحو قولك : رأيته إياه ، فـ(إياه) ضمير منفصل وهو بدل من الهاء فى (رأيته) وهو ضمير متصل ، وساغ ذلك لأن الضمير المنفصل يجرى عند بعضهم مجرى الأجنبى . واعلم أن المضمرات كلها لك أن تبدل منها إلا ضمير المتكلم والمخاطب ، فلا يحسن البدل من كل واحد منهما عند أكثر النحويين لو قلت : مررت بك زيد ، أو : مررت بى زيد ، أو : بى المسكين ، لم يجز شيء من ذلك ، لأن الغرض من البدل البيان ، وضمير المخاطب والمتكلم فى غاية الوضوح ، فلم يحتج إلى بيان . وقد أجاز ذلك **أبو الحسن الأخفش** واحتج بقوله تعالى : " ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ فقوله ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ عنده بدل من الكاف والميم ، وهو ضمير المخاطبين ، ولا دليل قاطع في ذلك ، لأنه يحتمل أن يكون﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ مبتدأ مستأنفا ، وخبره ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقد أجمعوا على جواز ذلك فى بدل الاشتمال نحو قول الشاعر :

ذرينى إن أمرك لن يطاعا ∴ وما ألفيتنى حلمى مضاعا .

وربما جاء – أيضا – فى بدل البعض نحو قوله :

أوعدنى بالسجن والأداهم   رجلى فرجلى شثْنة المناسم

وساغ ذلك هنا لأن فيه إيضاحا ؛ إذ كان الثانى مما يشتمل عليه الأول أو بعضا منه . شرح المفصل لابن يعيش ٦٩/٣ ، ٧٠ وانظر : معانى القرآن للأخفش ٤٨٢/٢ ، واللباب فى علل البناء الإعراب ٤١٢/١ ، والهمع ١٥١/٣ .

(2) الأشباه والنظائر ٢٦٤/٢.

(3) على الصحيح ليحصل الربط ، ولم يشترط ذلك فى بدل الكل ، لأنه نفس المبدل منه فى المعنى ، كما أن جملة الخبر التى هى نفس المبتدأ فى المعنى لا تحتاج إلى ذلك ، ومن النحويين من لا يلتزم فى هذين البدلين – أيضا – ضميرا ، لكن وجوده أكثر من عدمه. الهمع ١٤٨/٣ .

مستترا غير ظاهر إلى اللفظ . [1]

الوجه الخامس : أن البدل لا يتحمل ضميرا البتة ، وليس كذلك الصفة .[2]

الوجه السادس : أن البدل ينقسم إلى بدل بعض وكل واشتمال ، و الصفة لا تنقسم هذه القسمة .[3]

الوجه السابع : أن البدل منه ما يجرى مجرى الغلط، وليس ذلك في الصفة.[4]

الوجه الثامن : أن البدل لا يكون للمدح والذم كما تكون الصفة . [5]

الوجه التاسع : أن الفعل يبدل منه ولا يوصف .[6]

الوجه العاشر : أن الصفة تكون جملة تجرى على المفرد ، وفي البدل لا يكون كذلك ، فلا تبدل الجملة [7] من المفرد .[8]

---

[1] الأشباه والنظائر ٢/٢٦٥ .

[2] السابق ٢/٢٦٦ .

[3] اللباب في علل البناء الإعراب ١/٤١٠ ، والأشباه والنظائر ٢/٢٦٤ ، والهمع ٣/١٤٧.

[4] الأشباه والنظائر ٢/٢٦٤ ، والهمع ٣/١٤٩ .

[5] الأشباه والنظائر ٢/٢٦٤ .

[6] السابق ٢/٢٦٦ .

[7] على رأى الجمهور ، وقيل : تبدل الجملة من المفرد نحو قوله :

إلى الله أشكو بالمدينه حاجة وبالشام أخرى كيف يلتقيان

فـ(كيف يلتقيان) بدل من (حاجة) و(أخرى) كأنه قال : أشكو هاتين الحاجتين لتعذر التقائهما ، قيل : ومنه قوله تعالى :﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ فـ(إن) وما بعدها بدل من (ما) وصلتها .

وما استشهدوا به مردود ، فليس (كيف يلتقيان) بدلا بل استئنافا للاستبعاد وكذا (إن ربك) ، لئلا يؤدى إلى إسناد الفعل إلى الجملة وهو ممنوع . الهمع ٣/١٥٤ وانظر : التسهيل ١٧٣ ، وشرح التسهيل لابن مالك ٣/٣٣٩ ، ٣٤٠ ، و ارتشاف الضرب ٤/١٩٧٢ ، وشفاء العليل ٢/٧٧٣ ، والمساعد ٢/٤٣٨ ، وشرح الأشمونى ٣/١٣٢ .

[8] الأشباه والنظائر ٢/٢٦٤ .

الوجه الحادى عشر : أن الوصف يكون بمعنى فى شىء من أسباب الموصوف ، [1] والبدل لا يكون كذلك ، لو قلت : سلب زيد ثوب أخيه لما جاز . [2]

الوجه الثانى عشر : أن البدل موضوع على مسمى المبدل منه بالخصوصية من غير زيادة ولا نقصان [3] ، والوصف ليس موضوعا على مسمى الموصوف بالوضع بل بالالتزام .[4]

الوجه الثالث عشر : أن البدل يجرى مجرى جملة أخرى [5] ، ولا كذلك الصفة .[6]

---

(1) النعت إنما يؤثر به بيانا للمنعوت ، فيصير فى التقدير كجزء من المنعوت . علل النحو ٣٨٧.

وقد تضيف العرب الموصوف إلى صفته ، إلا أن ذلك من القلة بحيث لا يقاس عليه ، لأن فيه إضافة الشيء إلى نفسه ، لأن الصفة هى الموصوف فى المعنى ، فمن ذلك : صلاة الأولى ، و: مسجد الجامع ، ودار الآخرة ، يريدون : الصلاة الأولى ، و: المسجد الجامع ، و: الدار الآخرة . شرح الجمل ٢٢٢/١ .

(2) الأشباه والنظائر ٢٦٤/٢ .

(3) الغرض من البدل أن يجمع المخاطب البدل والمبدل منه ، على أنه قد يجوز أن يفهم بالمبدل منه وحده ، وقد يجوز أن يفهم بهما جميعا . علل النحو ٣٨٧ .

(4) الأشباه والنظائر ٢٦٥/٢ .

(5) لما لم يكن للبدل معنى فى المتبوع حتى يحتاج إلى المتبوع - كما احتاج الوصف - ولم يفهم معناه من المتبوع كما فهم ذلك فى التأكيد جاز اعتباره مستقلا لفظا ، أى صالحا لأن يقوم مقام المتبوع ، ولما كان إعرابه بتبعية الأول جاز أن يعتبر غير مستقل تارة أخرى . شرح الرضى على الكافية ٣٨٢/٢ وانظر : المنصف للشمنى القسم الثانى م٣٩٨/١.

(6) الأشباه والنظائر ٢٦٤/٢ ، والهمع ١٥٢/٣ .

المبحث الخامس

أوجه الاختلاف بين عطف البيان والتوكيد

يختلف عطف البيان عن التوكيد من وجهين :

الوجه الأول : أن عطف البيان لا يكون بألفاظ محصورة ، والتوكيد (1) يكـــون بألفاظ محصورة . (2)

الوجه الثانى : أن التوكيد برفع المجاز (3) ، وعطف البيـــان (4) إنمـــا يرفـــع الاشتراك .(5)

---

(1) أعنى التوكيد المعنوى ، وله سبعة ألفاظ : النفس والعين وكلا وكلتا وكل وجميع وعامة .

هذه هى الألفاظ التى اشتهر استعمالها فى هذا المعنى ، ولا ينـــافى أن هنـــاك ألفـــاظاً غيرها تستعمل أحيانا فى التوكيد المعنوى ، ولكنها لم تشتهر . أوضـــح المســـالك ٣/٣٢٧ ، ٣٢٨ ، وعدة السالك ٣/٣٢٧ .

أما التوكيد اللفظى فليس عليه باب يحصره ، لأنه يكـــون فـــى الأســـماء والأفعـــال والحروف والجمل ، وكل كلام تريد توكيده . شرح المفصل لابن يعيش ٣/٤١ .

(2) الأشباه والنظائر ٢/٢٦٣ وانظر : شرح الأنموذج فى النحو ٦٦ ، وشرح الجمل ١/٢٩٤.

(3)اعلم أن فائدة التوكيد تمكين المعنى فى نفس المخاطب وإزالة الغلط فى التأويل ، وذلك مـن قبل أن المجاز فى كلامهم كثير شائع ، يعبرون بأكثر الشىء عن جميعه ، وبالمسبب عـن السبب . شرح المفصل لابن يعيش ٣/٤٠ ، ٤١ .

(4) من أغراض عطف البيان توضيح متبوعه ، أما التوكيد فلا يوضح متبوعه . شرح ابـــن عقيل ٣/٢١٨ ، ٢١٩ .

(5) الأشباه والنظائر ٢/٢٦٣ وانظر : ١٢٨ وكذلك : شـــرح الكافيـــة الشـــافية ٣/١١٩٢ ، والهمع ٣/١٣٥ .

ووجه ثالث على رأى الكوفيين : أنهما يتخالفان فى التعريف والتنكير فى نحو: صمت شهرا كله [1] ، ولا يجوز ذلك فى عطف البيان[2] خلافا للزمخشرى [3]

---

[1] اعلم أن النكرات لا تؤكد بالتأكيد المعنوى ، وإنما تؤكد بالتأكيد اللفظى لا غير ، وإنما لم تؤكد النكرات بالتأكيد المعنوى لأن النكرة لم يثبت لها حقيقة ، والتأكيد المعنوى إنما هو لتمكين معنى الاسم وتقرير حقيقته ، وتمكين ما لم يثبت فى النفس محال .

أما التوكيد اللفظى فهو أمر راجع إلى اللفظ ، وتمكينه من ذهن المخاطب و سمعه خوفا من توهم المجاز ، أو توهم غفلة عن استماعه ، فاللفظ هو المقصود فى التوكيد اللفظى ، فأما المعنوى فإنما المراد منه الحقيقة ، ولذلك أعيد المعنى فى غير ذلك اللفظ .

وكذلك لأن الألفاظ التى يؤكد بها فى المعنى معارف ، فلا تتبع النكرات توكيداً لها ، لأن التوكيد كالصفة وذهب الكوفيون إلى جواز توكيد النكرة بالتأكيد المعنوى إذا كانت النكرة محدودة . شرح المفصل لابن يعيش ٣/٤٤.

[2] لأن عطف البيان لا يكون إلا فى المعارف ، وعليه فقد ذهب البصريون إلى امتناع كون عطف البيان ومتبوعه نكرتين ، وذهب الكوفيون وجماعة إلى جواز ذلك ، فيكونان منكرين كما يكونان معرفين .

وجوز الزمخشرى تخالفهما ، وقوله فى هذا مخالف لإجماع البصريين والكوفيين فلا يلتفت إليه .

راجع ذلك فى : ما يجوز تعدده وما لا يجوز ١٧ - ١٩ .

[3] الأشباه النظائر ٢/٢٦٣ ، ٢٦٤ .

المبحث السادس

أوجه الاختلاف بين عطف البيان وعطف النسق

يختلف عطف البيان عن عطف النسق من عدة أوجه :

الوجه الأول : أن أحد حروف العطف يتوسط بين المعطوف والمعطوف عليه في عطف النسق ([1]) ، وليس كذلك في عطف البيان . ([2])

الوجه الثاني : أن عطف البيان يكون في الجوامد ([3]) ، ولا يشترط ذلك في عطف النسق ([4]) .

الوجه الثالث : أن عطف البيان لا يكون إلا في المعرفة تابعا لمعرفة ([5]) ، ولا يشترط ذلك في عطف النسق . ([6])

الوجه الرابع : أن عطف البيان يخالف متبوعه في لفظه ويوافقه في معناه ، وليس كذلك عطف النسق . ([7])

الوجه الخامس : أن الغرض من عطف البيان الإيضاح أو التخصيص ([8]) ، وليس كذلك عطف النسق .([9])

([1]) التوطئة ١٩٦ ، وشرح عمدة الحافظ ٦٠٦/٢ .

([2]) عدة السالك ٣٥٣/٣ .

([3]) التصريح ١٣٢/٢ ، وحاشية الشيخ يس ١٣٣/٢ .

([4]) أوضح المسالك ٣٥٣/٣ .

([5]) على مذهب جمهور البصريين . أوضح المسالك ٣٤٨/٣ ، والتصريح ١٣١/٢ .

([6]) شرح عمدة الحافظ ٦٠٦/٢ – ٦٧٠ .

([7]) يقول النحاة : إن (المغايرة) هي الأصل الغالب في عطف النسق بين المتعاطفين ، يريدون : أن يكون المعطوف مغايرا المعطوف عليه في لفظه وفي معناه معا ، فلا يعطف الشيء على نفسه ، هذا هو الأصل الغالب . النحو الوافي ٦٥٩/٣ .

([8]) عطف البيان يوضح أو يخصص متبوعه بلفظ يدل عليه وهو عين معناه، فهو بمنزلة التفسير له باسم آخر مرادف يكون أشهر منه في العرف والاستعمال . النحو الوافي ٥٤٢/٣ .

([9]) التابع والمتبوع في عطف النسق مختلفان تماما من ناحيتهما المعنوية . النحو الوافي ٤٣٧/٣ وانظر : التصريح ١٣١/٢ .

الوجه السادس : أن عطف البيان لا يكون ضميرا ولا تابعا لضمير (1) ، ولا يشترط ذلك فى عطف النسق . (2)

الوجه السابع : أن عطف البيان لا يقع جملة ولا تابعا لجملة(3) ، وليس كذلك عطف النسق . (4)

الوجه الثامن : أن عطف البيان لا يكون فعلا ولا تابعا لفعل (5) ، وليس كذلك عطف النسق .(6)

الوجه التاسع : أن العامل فى عطف البيان العامل فى متبوعه (7) ، وليس كذلك فى عطف النسق . (8)

الوجه العاشر : أن عطف البيان لا يصح حذفه (9) ، وليس كذلك المعطوف . (10)

---

(1) الصحيح أن متبوع عطف البيان لا يكون ضميرا ، فإن جاء ضميرا وجب إعراب التابع بدلاً وليس عطف بيان . ارتشاف الضرب ١٩٤٣/٤ ، والتصريح ١٣٣/٢ ، والنحو الوافى ٥٤١/٣ حاشية (٢) ، ٥٤٣ حاشية (٥) ، ٥٥ .

(2) ارتشاف الضرب ٢٠١٢/٤ ، والنحو الوافى ٤٣٧/٣ .

(3) المغنى ٥٨/٢ ، والتصريح ١٣٤/٢ .

(4) المغنى ٧٠/٢، وحاشية الشيخ يس ١٣٤/٢ ، ١٥٣ ، والنحو الوافى ٦٤١/٣ ، ٦٥٢.

(5) التصريح ١٣٤/٢ .

(6) التصريح ١٥٢/٢ ، والنحو الوافى ٦٤١/٣ .

(7) وقيل : بتقدير تكرار العامل . البسيط فى شرح جمل الزجاجى ٢٩٥/١ .

(8) حاشية الصبان ٥٨/٣ .

(9) شرح المفصل لابن يعيش ٧١/٣ ، والمغنى ٥٨/٢ .

(10) أمالى ابن الشجرى ١٠٠/٣ ، والتصريح ١٥٣/٢ ، ١٥٤ ، والنحو الوافى ٦٣٦/٣ .

الوجه الحادى عشر : أن عطف البيان يوافق متبوعه فـــى الإفــراد والتذكــير وفروعهمـــا([1]) ، وليس كـــذلك المعطـــوف والمعطـــوف عليه . ([2])

الوجه الثانى عشر : أن العطف على التوهم يكون فى عطف النسق ولا يكـــون فى عطف البيان . ([3])

([1]) أوضح المسالك ٣٤٨/٣ ، والتصريح ١٣١/٢ ، والنحو الوافى ٥٤٤/٣ .

([2]) شرح عمدة الحافظ ٦٠٦/٢ – ٦٧٠ ،وارتشاف الضرب ٢٠١٢/٤ .

([3]) الهمع ١٩٦/٣ ، وحاشية الصبان ٨٩/٣ ، والنحو الوافى ٦٥٩/٣ ، والتوهم عند النحـــاة ١٣٨ – ١٦١ .

المبحث السابع

أوجه الاختلاف بين عطف البيان والبدل

اعلم أنه ليس كل ما جاز أن يكون عطف بيان جاز أن يكون بدلا ، فهناك مواضع يتعين أن يكون التابع فيها عطف بيان ولا يجوز أن يكون بدلا ، ويضبط ذلك بأحد أمرين :

الأمر الأول : أن يكون التابع غير مستغنٍ عنه .

الأمر الثانى : أن يكون التابع غير صالح لأن يوضع فى مكان المتبوع.([1])

ومعنى هذا أن باب العطف أوسع من باب البدل .([2])

وللتوضيح أقول .

يختلف عطف البيان عن البدل من عدة أوجه :

الوجه الأول : أن عطف البيان فى التقدير من جملة واحدة بدليل قولهم : يا أخانا زيدا ، والبدل فى التقدير من جملة أخرى على الصحيح بدليل قولهم : يا أخانا زيد . ([3])

الوجه الثانى : أن عطف البيان يشترط مطابقته لما قبله فى التعريف ([4]) .

([1]) حاشية الخضرى ٢/١٤٠ ، ومنحة الجليل ٣/٢٢١ .

([2]) الأشباه والنظائر ٢/٢٦٢ .

([3]) شرح المفصل لابن يعيش ٣/٧٢ ، والمغنى ٢/٨٧ ، والهمع ٣/١٤٤ ، والأشباه والنظائر ٢/٢٦٠ ، ٢٦٤ ، وشرح الأشمونى ٣/٨٨ ، وحاشية الدسوقى ٣/٢٢ ، وحاشية الصبان ٣/١٣١ .

([4]) احتجوا بأن البيان بيان كاسمه ، والنكرة مجهولة ، والمجهول لا يبين المجهول ، ورد بأن بعض النكرات أخص من بعض والأخص يبين الأعم .حاشية الصبان ٣/٨٦ وانظر : الهمع ٣/١٣٢ .

بخلاف البدل فإنه يجوز أن تبدل النكرة من المعرفة (١) ، والمعرفة من النكرة .(٢)

الوجه الثالث : أن عطف البيان لا يكون مضمرا (٣) ولا تابعا المضمر (٤).

---

(١) اشترط الكوفيون فى إبدال النكرة من المعرفة اتحاد اللفظين كما فى (الناصية) و(ناصية) ، والعرب لا تلتزم ذلك ، ومن الحجج عليهم قول الشاعر :

ولم يلبث العصران يومٌ وليلةٌ إذا طلبا أن يُدركا ما تَيَمَّمَا

شرح التسهيل لابن مالك ٣٣١/٣ ، وشرح عمدة الحافظ ٥٨١/٢ .

(٢) شرح المفصل لابن يعيش ٧٢/٣ ، ٧٣ ، وشرح الجمل ٢٩٤/١ ، وشرح الرضى على الكافية ٣٨٣/٢ ، والمغنى ٨٦/٢ ، والمنصف للشمنى القسم الثانى م ٣٩٩/١ ، والهمع ١٣٣/٣ ، والأشباه والنظائر ٢٦٠/٢ ، وحاشية الدسوقى ١٧/٣ .

(٣) أى : يكون المتبوع ضميرا وعطف البيان مبين له ، فكما يقال : الضمير لا ينعت ولا ينعت به تقول : الضمير لا يعطف عطف بيان ولا يعطف عليه غير بيانا له . حاشية الدسوقى ١٥/٣ .

(٤) قال ابن هشام : " لأنه فى الجوامد نظير النعت فى المشتق " . انتهى المغنى ٨٥/٢ وانظر : الهمع : ١٣٣/٣ .

وأنت خبير بأن هذا التعليل إنما يقتضى منع كون عطف البيان ضميرا ، ولا يقتضى منع كون متبوعه ضميرا مع أنه من جملة المدعى ، فالدليل أخص منه . حاشية الدسوقى ١٥/٣ .

مع أن الزمخشرى أجاز فى قوله تعالى﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أن يكون قوله ﴿ أن اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ عطف بيان للهاء من قوله ﴿ أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ ، وهو مردود .

الكشاف ٦٥٧/١ وانظر : البحر المحيط ٤١٨/٤ ، والدر المصون ٦٥٧/٢ ، ٦٥٨ ، والمغنى ٣١/١ ، والمنصف للشمنى القسم الأول م ٤٠٨/١ ، والهمع ١٣٣/٣ ، و حاشية الدسوقى ٨٩/١ ، ٩٠ .

بخلاف البدل (1) فإنه يجوز (2) فيه ذلك .(3)

الوجه الرابع : أن البدل قد يكون غير الأول في بدل البعض والاشتمال والغلط ، بخلاف عطف (4) البيان . (5)

---

(1) البدل يكون تابعا للمضمر نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ ، وما امتنع الزمخشري من تجويز كون﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ بدلا من الهاء في (به) إلا لأن ذلك يخل بعائد الموصول ، وهو مردود بأن المضمر خلو الصلة من العائد في اللفظ لا في التقدير . المغني ٨٦/٢ ، والمنصف للشمني القسم الثاني م ٤٠١/١، وحاشية الدسوقي ١٦/٣ وانظر : الكشاف ٦٥٦/١ ، والبحر المحيط ٤١٨/٤، والدر المصون ٦٥٧/٢ ، ٦٥٨ .

(2) أجاز النحويون أن يكون البدل مضمرا تابعا لمضمر أو لمظهر . انظر : الفصل الثاني ، المبحث الرابع ص٨٤٠ حاشية ١ .

وزيادة في التوضيح أقول : خالف ابن مالك في ذلك فقال : إن إبدال الضمير من الظاهر لم يسمع ، وإن الصواب في إبدال الضمير من الضمير قول الكوفيين إنه توكيد كما في : قمت أنت .

ويعني ذلك أن ابن مالك يمنع إبدال الضمير من الضمير ومن الظاهر ، فعلى مذهبه كل من عطف البيان والبدل لا يكون ضميرا ، ويكون البدل تابعا لمضمر دون عطف البيان .

شرح التسهيل ٣٣٢/٣ وانظر : شرح الأشموني ١٣٠/٣ ، وحاشية الصبان ١٣٠/٣ ، وانظر حاشية الدسوقي ١٧/٣.

(3) شرح المفصل لابن يعيش ٧٣/٣ ، والتصريح ١٣٣/٢ ، و الأشباه والنظائر ٢٦٠/٢.

(4) بمعنى أن عطف البيان هو المعطوف لا غير ، والبدل قد لا يكون المبدل بل بعضه ، أو مشتملا عليه ، أو لا واحدا منهما وهو بدل الغلط . الأشباه والنظائر ٢٦٥/٢ .

(5) شرح المفصل لابن يعيش ٧٣/٣ ، والأشباه والنظائر ٢٦٠/٢ .

الوجه الخامس : أن عطف البيان لا يكون جملة ، بخلاف البدل نحو قوله تعالى : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ (١) لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢)؛ونحو قوله تعالى: ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ (٣) مِثْلُكُمْ ﴾ (٤) قال ابن هشام : " وهو أصح الأقوال فى : عرفت زيدا أبو من (٥) هو (٦) " . انتهى

الوجه السادس : أن عطف البيان لا يكون تابعا لجملة بخلاف البدل (٧) نحو قوله تعالى ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ *اتَّبِعُوا (٨) مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ (٩) ، وقوله تعالى ﴿ أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ (١٠) بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴾ . (١١)

---

(١) بدل من ما قيل للرسل . البحر المحيط ٣١١/٩ ، والدر المصون ٦٩/٦ .

(٢) سورة فصلت الآية ٤٣ .

(٣) بدل من (النجوى) . إعراب القرآن وبيانه ٢٨١/٦ .

(٤) سورة الأنبياء من الآية ٣ .

(٥) هو مبتدأ ، وأبو : خبر ، ومَنْ : مضاف إليه ، والجملة بدل من (زيد) .

(٦) المغنى ٨٦/٢ وانظر : شرح التسهيل لابن مالك ٣٣٩/٣، ٣٤٠ ، وشفاء العليل ٧٧٣/٢، ٧٧٤ ، والهمع ١٣٣/٣ ، والأشباه والنظائر ٢٦١/٢ ، وحاشية الدسوقى ١٧/٣ .

(٧) فإنه يكون تابعا لجملة والفرض أنه جملة ؛ إذا لا يبدل مفرد من جملة ، واشترط بعضهم لإبدال الجملة من الجملة أن تكون الثانية أوفى بتأدية المعنى المقصود من الأولى . ابن الناظم ٥٦٣ ، وحاشية الدسوقى ١٧/٣ .

(٨) بدل من قوله (اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) . إملاء ما من به الرحمن ٤٦٥ ، والبحر المحيط ٥٦/٩ ، والدر المصون ٤٧٩/٥ .

(٩) سورة يس من الآيتين ٢٠ ، ٢١ .

(١٠) بدل من جملة (أمدكم) الأولى . البحر المحيط ١٧٩/٨ ، والدر المصون ٢٨٢/٥ ، وإعراب القرآن وبيانه ١٠٨/٧.

(١١) سورة الشعراء من الآيتين ١٣٢،١٣٣ وانظر: المغنى ٨٦/٢، وحاشية الدسوقى ١٧/٣، ١٨.

الوجه السابع : أن عطف البيان لا يكون فعلا تابعا لفعل بخلاف البدل [1] نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝ يُضَاعَفْ [2] لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ . [3]

الوجه الثامن : أن عطف البيان لا يكون بلفظ الأول [4] ، ويجوز ذلك في البدل [5] بشرط أن يكون مع الثانى زيادة بيان ، كقراءة

---

(1) شرط ابن مالك لإبدال الفعل من الفعل أن يكون موافقاً له فى المعنى مع زيادة بيان . شرح التسهيل ٣/٣٤٠ .

(2) بدل من (يلق) بدليل الجزم ، لا أنه من بدل الجملة من الجملة . الإملاء ٤٦١ .

(3) سورة الفرقان من الآيتين ٦٨ ، ٦٩ وانظر : المغنى ٢/٨٦ ، وشفاء العليل ٢/٧٧٤ ، وشرح المكودى ٢١١ ، ٢١٢ ، والأشباه والنظائر ٢/٢٦١ .

(4) سواء اتصل بالثانى زيادة بيان أو لا ، لأن الشيء لا يبين بنفسه ، وعن الدماميني أنه اعترض بأنه إذا اتصل بالثانى زيادة بيان كان بها غير الأول ، فلا مانع من كونه يجوز أن يكون بيانا ، ولا يظنهم يختلفون فيه ، والذى لا يكون بياناً ما إذا لم يتصل بالثانى زيادة ، بيان ، فحينئذ لا فرق بين البدل وعطف البيان . حاشية الدسوقى ٣/١٨ وانظر : ابن الناظم ٥١٦ .

(5) هذا الفرق إنما هو على ما ذهب إليه ابن الطراوة من أن عطف البيان لا يكون من لفظ الأول ، وتبعه على ذلك ابن مالك وابنه ، وحجتهم أن الشيء لا يبين نفسه . انظر : شرح التسهيل ٣/٣٣٢ - ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، وابن الناظم ٥١٦ ، ٥١٧ ، والمغنى ٢/٨٦ ، والهمع ٣/١٣٥ ، وحاشية الدسوقى ٣/١٩ .

ولابن هشام فى ذلك نظر من أوجه :

أحدها : أنه يقتضى أن البدل ليس مبينا للمبدل منه وليس كذلك ، لأن فيه بيانا للمبدل منه، وإنما يختلف البدل عن عطف البيان فى أنه بمنزلة جملة استؤنفت للتبيين ، والعطف تبيين بالمفرد المحض .

الثانى : أن اللفظ المكرر إذا اتصل به ما لم يتصل بالأول اتجه كون الثانى بيانا بسبب ما فيه من زيادة الفائدة ؛ إذ لا معنى للبيان إلا التوضيح بزيادة الفائدة .

يعقوب : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلَّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ (١) بنصب (كل) (٢) الثانية (٣) ؛ فإنها قد اتصل بها ذكر سبب الجثو(٤) ، وكقول الحماسى : (٥)

رُوَيْدَ بنى شيبانَ بعضَ وعيدكم ... تُلاقُوا غداً خيْلى على سَفَوَانِ

تُلاقُوا جِيَادًا لا تحيدُ عن الوَغَى ... إذا ما غدتْ فى المأزق المتدانى

تلاقوهم فتعرفوا كيف صبْرهم ... على ما جنتْ فيهم يدُ الحَدَثَانِ (٦)

=فالحق أنه لا فرق بين البدل والبيان فى أنه إن اتصل اللفظ الثانى بما لم يتصل بالأول صح كونه بيانا وبدلا ، وإلا فلا يصح أن يكون واحد منهما .

الثالث : أن البيان يتصور مع كون المكرر مجردا ، وذلك فى مثل قولك : يا زيد زيد - بتنوين الثانى ولا يصح أن يكون بالرفع فقط ، والأصح أن يكون بدلا ، لصحة حلوله محل المبدل منه ، وكلامنا فيما يتعين فيه البيان - إذا قلته وبحضرتك اثنان اسم كل منهما (زيد) ، فإنك لما تذكر الأول يتوهم كل منهما أنه المقصود ، فإذا كررته تكرر خطابك لأحدهما وإقبالك عليه فظهر المراد .

المغنى ٨٦/٢ ، ٨٧ بتصرف وانظر : المنصف للشمنى القسم الثانى م ٤٠٥/١ - ٤٠٧، وحاشية الأمير ٨٦/٢ ، وحاشية الدسوقى ١٩/٣ - ٢١ .

(١) سورة الجاثية من الآية ٢٨ .

(٢) على أنها بدل لا على أنها عطف بيان ، لأن الشيء لا يبين بنفسه ، وأما بالرفع فيكون جملة مستأنفة . البحر المحيط ٤٥٢/٩ ، والدر المصون ١٣٢/٦ .

(٣) المحتسب لابن جنى ٣١٠/٢ ، والإملاء ٥٢٩ .

(٤) ارتشاف الضرب ١٩٦٤/٤ ، ١٩٦٥، وشرح الأشمونى ١٣٢/٣ ،والنحو الوافى ٦٧٦/٣.

(٥) الطويل : شرح المفصل لابن يعيش ٤١/٤ ، ولسان العرب (رود) ٣٦٧/٥ ،وشرح شواهد المغنى للسيوطى ٨٥٣/٢ .

(٦) المغنى ٨٦/٢ ، وشفاء العليل ٧٦٨/٢ ،والأشباه والنظائر ٢٦١/٢ ، وحاشية الدسوقى ١٨/٣ ، ١٩ .

الوجه التاسع : أن متبوع عطف البيان هو المقصود بالنسبة ، وليس كذلك البدل ، (1) فالمقصود التابع لا المتبوع ، وإنما ذكر الأول توطئة وتمهيدا . (2)

الوجه العاشر : أن فى البدل ما يجرى مجرى الغلط ، وليس هذا فى عطف البيان . (3)

الوجه الحادى عشر : أن عطف البيان ليس فى نية إحلاله (4) محل الأول بخلاف البدل (5) ، ولهذا امتنع وتعين عطف البيان ، **فى نحو** : يا زيد الحارث ، (6) **وفى نحو** : يا زيد الرجل ، و:

---

(1) يقول الرضى:"إنا لا نسلم أن المقصود بالنسبة فى بدل الكل هو الثانى فقط ، ولا فى سائر الأبدال إلا الغلط ، فإن كون الثانى فيه هو المقصود دون الأول ظاهر ، وإنما قلنا ذلك : لأن الأول فى الأبدال الثلاثة منسوب إليه فى الظاهر ، ولا بد أن يكون فى ذكره فائدة لم تحصل لو لم يذكر كما يذكر فى الأبدال الثلاثة ، صونا لكلام الفصحاء عن اللغو ، ولا سيما كلامه تعالى ، وكلام نبيه - ﷺ - ، فادعاء كونه غير مقصود بالنسبة مع كونه منسوبا إليه فى الظاهر ، واشتماله على فائدة يصح أن ينسب إليه لأجلها دعوى خلاف الظاهر " . انتهى

شرح الرضى على الكافية ٣٨٠/٢ وانظر : المنصف للشمنى القسم الثانى م٣٩٧/١ .

(2) الأشباه والنظائر ٢٦٤/٢ وانظر:شرح الجمل ٢٩٥/١ .

(3) الأشباه والنظائر ٢٦٥/٢ .

(4) أى : ليس على نية تكرار العامل . حاشية الدسوقى ٢١/٣ .

(5) أى : فإنه فى نية إحلاله محل الأول من حيث تكرار العامل . حاشية الدسوقى ٢٢/٣ وانظر : الأشباه والنظائر ٢٦٥/٢ .

(6) لأن البدل فى نية إحلاله محل الأول ، ولو جعل بدلا للزم عليه نداء ما فيه (أل) وهو لا يجوز ، لأن (يا) لا تباشر (أل) . حاشية الدسوقى ٢٢/٣ وانظر : المنصف للشمنى القسم الثانى م ٤٠٨/١ ، وحاشية الأمير ٨٧/٢ .

يا غلام الرجل الصالح ، (1) **وفى نحو**: يا سعيد كرز بالرفع ، أو : كرزا بالنصب ،(2) بخلاف : يا سعيد كرز بالضم فإنه بالعكس (3) ، **وفى نحو** : أنا الضارب الرجل زيد (4) ، **وفى نحو** : زيد أفضل الناس الرجال والنساء ، أو : النساء والرجال (5) ، **وفى نحو** : يا أيها الرجل غلام زيد ، (6) وفى نحو : أى الرجلين زيد وعمرو جاءك (7) ، **وفى نحو**: جاءنى

---

(1) حيث أتبع اسم الجنس ذا (أل) المنادى المضموم ، أما إذا أفردت التابع للمنادى المنصوب نصب نحو : يأخانا زيدا ، أو المضموم جاز نصبه ورفعه نحو : يا غلام بشراً أو : بشرٌ كالنعت نحو : يا أخانا العاقلُ ، و: يا فاسقُ الخبيثُ والخبيثَ ، فلو أبدلت (بشرا) على أنه بدل تعين ضمه فتقول : يا غلامُ بشرُ . ارتشاف الضرب ١٩٦٤/٤ .

(2) لأنك لو جعلته بدلا لكان على نية تكرار العامل ، فيلزم عليه نصب المنادى المفرد ، أو رفعه منونا وهو لا يجوز . حاشية الدسوقى ٢٢/٣ وانظر : المنصف للشمنى القسم الثانى م ٤٠٨/١ ، وحاشية الأمير ٨٧/٢ .

(3) أى : فهو بدل ، لأنه يجوز : يا كرز . حاشية الدسوقى ٢٢/٣ .

(4) يتعين أنه بيان ولا يصح أن يكون بدلا ، وإلا لزم إضافة ما فيه (أل) للمجرد منها وهو لا يجوز . حاشية الدسوقى ٢٢/٣ وانظر : المنصف للشمنى القسم الثانى م ٤٠٨/١ ، وحاشية الأمير ٨٧/٢ .

(5) يتعين أنه بيان لا بدل ، لأن (أفعل) التفضيل بعض ما يضاف إليه ،والبدل يحل محل المبدل منه ، فيصبح المعنى : زيد أفضل النساء ، فيفيد أنه من النساء وليس كذلك . حاشية الدسوقى ٢٢/٣ وانظر : ارتشاف الضرب ١٩٤٥/٤ ، والهمع ١٣٤/٣.

(6) أى : أنه يتعين أن يكون بيانا ، ولا يصح أن يكون بدلا وإلا لحل محل الرجل ، فيفيد أن نعت (أى) فى النداء يكون معرفا بالإضافة مع أنه إنما يكون محلى بـ (أل) أو اسم إشارة . حاشية الدسوقى ٢٢/٣ وانظر : ارتشاف الضرب ١٩٤٥/٤ .

(7) يتعين أن زيدا وعمرا بيان لا بدل وإلا لحل محل الرجلين ، فيلزم إضافة (أى) إلى مفرد معرفة مع فقد شرطه وهو : نية الإجراء ، أو تكرير (أى). حاشية الدسوقى ٢٢/٣ .

كلا أخويك [1] زيد وعمرو[2] ، وفى نحو : هند ضربت الرجل أخاها [3] ، وفى نحو : يا زيد هذا [4] ، وفى نحو : [5]

فيا أخوينا عبد شمس ونوفلا ** أعيذكما بالله أن تُحْدِثا حربا

وفى نحو : يا أيها الرجل زيدٌ . [6]

زيادة وتفصيل

هكذا اتضح لنا كيف أن باب العطف أوسع من باب البدل ، فليس كل ما جاز أن يكون عطف بيان جاز أن يكون بدلا .

---

[1] (زيد وعمرو) بيان لأخويك لا بدل منه ؛ إذ لو حلا محله لزم إضافة (كلا) لمتعدد مفرق من غير ضرورة ، وهى إنما تضاف إلى معرف دال على اثنين بكلمة واحدة من غير تفرق . حاشية الدسوقى ٢٢/٣ وانظر : المنصف للشمنى القسم الثانى م ٤٠٨/١ ، ٤٠٩ ، وحاشية الأمير ٨٧/٢ .

[2] المغنى ٨٧/٢ ، والأشباه والنظائر ٢٦١/٢ .

[3] يتعين أن يكون (أخاها) عطف بيان على (الرجل) ولا يجوز أن يكون بدلا ، لأن الكلام يفتقر إلى رابط ، ولا رابط إلا التابع على عطف البيان ، أعنى أنه إذا كان التابع مشتملا على ضمير والمتبوع جزء من جملة واقعة خبرا وليس فى هذه الجملة ضمير يربطها بالمبتدأ ، تعين أن يكون عطف بيان . ارتشاف الضرب ١٩٤٥/٤ ، وشرح الأشمونى ٨٧/٣ ، وحاشية الخضرى ١٤٠/٢ ، ومنحة الجليل ٢٢١/٣ ، ٢٢٢ .

[4] حيث أتبع المنادى المضموم باسم الإشارة . ارتشاف الضرب ١٩٤٥/٤ .

[5] من الطويل ، وهو منسوب لطالب بن أبى طالب فى : التصريح ١٣٢/٢ ، والعينى على الأشمونى ٨٧/٣ ، والدرر اللوامع ٣٧٨/٢ وبلا نسبة فى : إصلاح الخلل ٧٠.

والشاهد فيه قوله : فيا أخوينا عبد شمس ونوفلا ، حيث أتبع المنادى المضاف على سبيل التفصيل بما هو مضاف وما هو مفرد ، فتعينا أن يكونا عطف بيان .

[6] حيث أتبع موصوف (أى) فى النداء بمنون . ارتشاف الضرب ١٩٤٥/٤ .

ولتعلم أن أكثر ما يجئ عطف البيان تابعا للأسماء المبهمة كقولك : يا هذا زيد ، ألا ترى أنه ينون (زيد) ، فدل على أنه ليس ببدل ، وعلى هذا تقول : يا أيها الرجل زيد ، فـ (زيد) لا يكون بدلا من (الرجل) ، لأن (أى) لا توصف إلا بما لا (لام) فيه؛ وإنما يكون بدلا من (أى) ، فلذلك كان مبنيا على الضم غير منون ، وهذا المكان من أوضح فروقه ، وهو من المواضع التى لا يقع فيها البدل ، وللبدل مواضع يخالف لفظه فيها لفظ عطف البيان . (1)

يقول **ابن يعيش** : " تبين الفرق بينهما بيانا شافيا فى موضعين :

أحدهما : النداء نحو قولك : يا أخانا زيدا ، ولو كان بدلا لقلت : يا أخانا زيد بالضم ولم يجز نصبه ولا تنوينه ، لأنه من جملة أخرى غير الأول ، كأنك قلت : يا أخانا يا زيد ، فالعامل الذى هو (يا) فى حكم التكرير .

وكذلك تبين الفرق بينهما فى قولك : أنا الضارب الرجل زيد (2) ، إن جعلت (زيدا) عطف بيان جازت المسألة ، وإن جعلته بدلا لم تجز ، لأن حد

---

(1) الأشباه والنظائر ٢/٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(2) مثله قوله المرّار الأسدى :

أنا ابنُ التَّارِكِ البَكْرِىِّ بِشْرٍ ** عليه الطيرُ تَرْقُبُهُ وُقُوعَا

أضاف (التارك) إلى (البكرى) على حد (الضارب الرجل) ، وخفض (بشرا) عطف بيان على (البكرى) ، ولا يجوز كونه بدلا ؛ إذ لا يصح أن يكون التقدير : : أنا ابن التارك بشر ، لأن حكم البدل أن يقدر فى موضع الأول ، خلافا لمن أجاز إضافة الوصف المقترن بـ (أل) إلى العلم ، ومعنى هذا أنه يجوز إحلال التابع محل المتبوع ، ومتى جاز ذلك صح فى المتبوع الوجهان :

أن يكون عطف بيان ، وأن يكون بدلا ، وهذا غير مقبول عند جمهور العلماء ، والأول مذهب سيبويه وهو الصحيح للسماع والقياس :

عطف البيان أن تجرى الأسماء الصريحة مجرى الصفات ، فيعمل فيه العامل وهو فى موضعه بواسطة المتبوع ، والبدل يعمل فيه العامل على تقدير تنحية تنحية الأول ووضعه موضعه مباشرا للعامل " ([1]) . انتهى

ولا يعنى هذا أنه لا يرى اختلافا يذكر بين عطف البيان والبدل إلا فى هذين الموضعين ، بل إن وجه الاختلاف – كما قال – يتبين بيانا شافيا فيما ذكر.

ولذا نراه يقول – أيضا – : " ومن الفصل بين البدل وعطف البيان : أن المقصود بالحديث فى عطف البيان هو الأول ، والثانى بيان كالنعت المستغنى عنه ، والمقصود بالحديث فى البدل هو الثانى ، لأن البدل والمبدل منه اسمان بإزاء مسمى ، مترادفان عليه ، والثانى منهما أشهر عند المخاطب فوقع الاعتماد عليه ، وصار الأول كالتوطئة والبساط لذكر الثانى .

وعلى هذا لو قلت : زوجتك بنتى فاطمة وكانت عائشة فإن أردت عطف البيان صح النكاح ، لأن الغلط وقع فى البيان وهو الثانى ، وإن أردت البدل لم يصح النكاح ، لأن الغلط وقع فيما هو معتمد الحديث وهو الثانى " ([2]) . انتهى .

= فأما السماع فإن سيبويه رواه مجرورا ، قال : سمعناه ممن يوثق به عن العرب ، ولا سبيل إلى رد رواية الثقة .

وأما القياس فإن عطف البيان تابع كالنعت ، وقد يجوز فى التابع ما لا يجوز فى المتبوع ، ألا ترى أنك تقول : يا أيها الرجل ذو الجمة ، فتجعل (ذو الجمة) نعتا للرجل، ولا يجوز أن يقع موقعه، وكذلك تقول : يا زيد الطويل ، ولا يجوز : يا الطويل .

شرح المفصل لابن يعيش ٧٣/٣ وانظر : الكتاب ١٨٢/١ .

([1]) شرح المفصل لابن يعيش ٧٣/٣ .

([2]) السابق ٧٤/٣ وانظر : الأشباه والنظائر ٢٦٢/٢ .

المبحث الثامن

أوجه الاختلاف بين التوكيد وعطف النسق

يختلف التوكيد عن عطف النسق من عدة أوجه :

الوجه الأول : أن التوكيد مقصود به بيان متبوعه فينزل منه منزلة جزئه فلا يحتاج إلى رابط ، أما عطف النسق فيحتاج إلى رابط . (1)

الوجه الثانى : أن العامل فى التوكيد هو العامل فى المتبوع (2) ، وأما النسق فالعامل فيه محذوف . (3)

الوجه الثالث : أن التوكيد منه ما هو لفظى وما هو معنوى (4) ، أما النسق فليست فيه هذه القسمة .(5)

الوجه الرابع : أن التوكيد اللفظى يكون بتكرير اللفظ دون عطف (6) ، بخلاف عطف النسق . (7)

الوجه الخامس : أن بعض ألفاظ التوكيد المعنوى تلى العوامل (8) ،

---

(1) ابن الناظم ٥١٩ ، ٥٤٧ .

(2) الهمع ٣/١١٤ ، وعدة السالك ٣/٢٩٩ .

(3) على رأى من ذهب إلى ذلك . التصريح ٢/١٠٨ ، وحاشية الصبان ٣/٥٨ .

(4) أسرار العربية ٢٥٣ .

(5) النحو الوافى ٣/٥٥٥ .

(6) هذا فى الاسم والفعل والحرف عدا الجملة . شرح المفصل لابن يعيش ٣/٣٩ .

(7) النحو الوافى ٣/٥٥٥ ، ٥٥٦ .

(8) معنى قولى (تلى العوامل) أن العوامل تعمل فيها لا بحكم التبعية ، بل تكون فاعلة ومفعولة ومجرورة تقول : طابت نفسُه ، و : صحت عينُه ، و : جاءنى كلُّ القوم ، و: أخرج الله نفسَه ، و: رأيت كلَّ القوم ، و: نزلت بنفسِ الجبل ، و: مررت بكلِّ القوم ، فالنفس والعين لم يتمكنا فى التأكيد ، بل الغالب عليهما الاسمية بخلاف (كل) ، فإن التأكيد غالب عليها لما فيها من معنى الإحاطة والعموم فهى مشابهة لأجمعين . شرح المفصل =

بخلاف حروف العطف . [1]

الوجه السادس : أن ألفاظ التوكيد المعنوى يمكن اجتماعها فى وقت واحد [2] ، بخلاف حرف العطف . [3]

الوجه السابع : أنه لا يجوز حذف المؤكد [4] ، بخلاف المعطوف عليه فإنـــه يجوز حذفه . [5]

الوجه الثامن : أنه يجوز تقديم المعطوف على المعطوف عليه [6] ، وليس ذلك فى التوكيد . [7]

= لابن يعيش ٤٢/٣ وانظر : علل النحو ٣٨٨ ، وشرح التسهيل لابـــن مـــالك ٢٩٦/٣، ٢٩٩، وشرح عمدة الحافظ ٥٧٠/١ ، ٥٧٤ ، وارتشاف الضرب ١٩٥٥/٤ .

(١) التصريح ١٣٥/٢ ـ ١٥٥ .

(٢) الهمع ١٣٩/٣ ، والنحو الوافى ٥١٩/٣ ، ٥٢١ .

(٣) النحو الوافى ٥٥٧/٣ ـ ٦٢٩ .

(٤) على رأى من ذهب إلى ذلك ، وحجته أن التوكيد بابه الإطناب ، والحـــذف للاختصـــار فتدافعا ، ولأنه لا دليل على المحذوف.الهمع ١٤٣/٣ ، والنحو الوافى ٥٢٢/٣، ٥٣٧.

(٥) أمالى ابن الشجرى ١٠٠/٣ ، وشرح الرضى على الكافية ٣٤٩/٢ .

(٦) انظر : النحو الوافى ٦٤٠/٣ ، ٦٥٧ ، وص٨٣٨، حاشية (١) من هذا البحث .

(٧) أمالى ابن الشجرى ٢٧٥/١ ، وشرح المكودى ١٩٥ ، والنحو الوافى ٥٢١ .

المبحث التاسع

أوجه الاختلاف بين التوكيد والبدل

يختلف التوكيد عن البدل من عدة أوجه :

الوجه الأول : أن ألفاظ التوكيد المعنوى محصورة ، وأن التوكيد اللفظى يكون بإعادة اللفظ الأول (1) ، أما البدل فليس كذلك . (2)

الوجه الثانى : أن التوكيد قد يكون المراد منه الإحاطة والشمول ، وليس هذا فى البدل . (3)

الوجه الثالث : أن التوكيد المعنوى لا يتبع إلا المعارف (4) ، والبدل لا يشترط مطابقته لما قبله فى التعريف . (5)

الوجه الرابع : أن المقصود فى البدل التابع لا المتبوع (6) ، وليس كذلك فى التوكيد .(7)

---

(1) أو تقويته بموافقته معنى كقوله (أنت بالخير حقيق قمن).شرح الأشمونى ٣/٨٠ ، ٨١ .

(2) الأشباه والنظائر ٢/٢٦٥ .

(3) السابق وانظر : شرح المفصل لابن يعيش ٣/٤١ ، وشرح الجمل ١/٢٦٦ ، وشرح ابن عقيل ٣/٢٠٧ .

(4) وسببه أن ألفاظ التوكيد المعنوى معرفة ، فلو وقعت تأكيدا للنكرات لتناقض الكلام ؛ إذ المؤكد حينئذ يقتضى العموم ، والمؤكد يقتضى الخصوص . شرح الأنموذج فى النحو ٦٧، ٦٨ .

(5) شرح المفصل لابن يعيش ٣/٦٨ .

(6)الذى عليه الاعتماد من الاسمين - البدل والمبدل منه - هو الاسم الثانى ، وذكر الأول توطئة لبيان الثانى . شرح المفصل لابن يعيش ٣/٦٦ .

(7) لأن التوكيد تابع يقرر أمر المتبوع فى النسبة والشمول . شرح الرضى على الكافية ٢/٣٥٧ .

الوجه الخامس : أن البدل ينقسم إلى بدل كل وبعض واشتمال ([1]) ، والتوكيد ليس كذلك . ([2])

الوجه السادس : أن البدل منه ما يجرى مجرى الغلط والنسيان ([3]) ، وليس ذلك فى التوكيد . ([4])

([1]) شرح ابن عقيل ٣/٢٤٩ .

([2]) التوكيد قسمان : توكيد تكرار ، وتوكيد إحاطة ، وتوكيد التكرار ينقسم إلى تكرار لفظ ، وتكرار معنى . الفصول الخمسون ٢٣٥ .

([3]) أوضح المسالك ٣/٤٠٣ .

([4]) اعلم أن الغرض الذى وضع له التوكيد أحد ثلاثة أشياء :

أحدها : أن يدفع المتكلم ضرر غفلة السامع عنه .

الثانى : أن يدفع ظنه بالمتكلم الغلط ، فإن قصد المتكلم أحد هذين الأمرين فلابد أن يكرر اللفظ – الذى ظن غفلة السامع عنه ، أو ظن أن السامع ظن به الغلط فيه- تكريرا لفظيا نحو : ضرب زيد زيد ، أو : ضرب ضرب زيد ، ولا يفيد فى دفع هذا الظن التكرير المعنوى .

الثالث : أن يدفع المتكلم عن نفسه ظن السامع به تجوزا . شرح الرضى على الكافية ٢/٣٥٧ – ٣٥٩ وانظر : شرح المفصل لابن يعيش ٣/٤٠ .

المبحث العاشر

أوجه الاختلاف بين عطف النسق والبدل

يختلف عطف النسق عن البدل من عدة أوجه :

الوجه الأول : أن عطف النسق يتوسط بينه وبين متبوعه أحد حروفه ،وليس ذلك فى البدل .([1])

الوجه الثانى : أنه يجوز تقديم المعطوف على المعطوف عليه ([2]) ، وليس ذلك فى البدل .([3])

الوجه الثالث : أن الاسم الثانى فى عطف النسق غير الأول ، أما فى البدل فقد يكون الأول فى المعنى أو بعضه أو مشتملا عليه .([4])

الوجه الرابع : أن عطف النسق لا يتضمن الأول فيه الثانى ، بخلاف بدل الاشتمال فإنه يتضمن الأول ([5]) فيه الثانى([6]) .

الوجه الخامس : أن البدل ينقسم إلى بدل كل وبعض واشتمال ،وعطف النسق لا ينقسم هذه القسمة .([7])

([1]) اللباب فىعلل البناء والإعراب ٤١٠/١ ، ٤١٦ ، وشرح المفصل لابن يعيش ٦٣/٣ ، ٧٤ ، وشرح الكافيه الشافية ١٢٠٢/٣ ، ١٢٧٦ ، وشرح الرضى على الكافية ٣٣١/٢ ، ٣٧٩ ، وحاشية الخضرى ١٤١/٢ ، ١٤٢ ، ١٥٩ .

([2]) انظر : النحو الوافى ٦٤٠/٣ ، ٦٥٧ ، وص٨٣٨ حاشية (١) من هذا البحث .

([3]) شرح التسهيل لابن مالك ٣٧١/٣ ، وشرح الرضى على الكافية ٣٥٠/٢ ، وشرح الأشمونى ٥٨/٣ .

([4]) شرح المفصل لابن يعيش ٦٤/٣ ، ٧٤ .

([5]) اختلف النحاة فى بدل الاشتمال ، هل المشتمل هو الأول الذى هو المبدل منه أو الثانى الذى هو المبدل أو العامل فى المبدل منه ؟ .

راجع ذلك فى : ما يجوز تعدده وما لا يجوز ٣٧ حاشية (٥) .

([6]) شرح المفصل لابن يعيش ٦٤/٣ ، ٧٤ .

([7]) أوضح المسالك ٣٥٣/٣ ، ٤٠١ ، وحاشية الخضرى ١٤٢/٢ ، ١٦١ .

الوجه السادس : أن بدل الغلط والنسيان لا يكون فى كلام فصيح (1) ، وليس كذلك عطف النسق . (2)

الوجه السابع : أن عطف النسق مقصود بالنسبة مع متبوعه، بخلاف البدل (3)، لأنه هو المقصود دون متبوعه . (4)

الوجه الثامن : أن البدل يقدر معه العامل (5) ، ولا كذلك عطف النسق .(6)

الوجه التاسع : أن العاطف كحرف النداء ، والمعطوف صالح لمباشرته له ، ولذلك لم يجز: يا زيدُ وعمرًا ، ولا : يا زيدُ وعمروٌ بالتنوين،

---

(1) أنكر أبو العباس المبرد – وغيره – وقوع بدل الغلط والنسيان فى القرآن الكريم ، أو فى الشعر ، أو فى كلام مستقيم .المقتضب ١/١٦٦ ، ٤/٢٩٧ .

ومن النحويين من زعم أنه وجد فى كلام العرب . انظر : ما يجوز تعدده وما لا يجوز ٢٤ ، ٢٥ .

(2) شرح المفصل لابن يعيش ٣/٦٦ .

(3) ألا ترى أنك إذا قلت : قام زيد وعمرو ، أعلمته بالقيام بمجموع زيد وعمرو ، إلا أن الثانى وهو (عمرو) ليس فيه بيان لـ(زيد) كما فى قولك : قام زيد أخوك ، بيان لزيد بالأخ . شرح الجمل ١/٢٨٠ .

(4) شرح المفصل لابن يعيش ٣/٦٦ ، ٧٤ ، وشرح الرضى على الكافية ٢/٣٣١ ، وحاشية الصبان ٣/١٢٣.

(5) وهذا خلاف من ذهب إلى أن العامل فى البدل هو العامل فى المبدل منه ، وذلك لتعلقهما به من طريق واحد . انظر : الكتاب ١/١٥٠ ، والمقتضب ٤/٢٩٥ ، ٣٩٩ ، والخصائص ٢/٤٢٨ واللباب فى علل البناء والإعراب ١/٤١٤ .

(6) على رأى من قال : إن العامل هو المذكور ، فإذا قلت : قام عمرو وزيد ، فأصله : قام عمرو قام زيد ، فحذفت (قام) الثانية لدلالة الأولى عليها ، وصار الفعل الأول عاملا فى المعطوف والمعطوف عليه . شرح المفصل لابن يعيش ٣/٧٥ ، وشرح الجمل ١/٢٦١ ، وابن الناظم ٥٤٧ ، والهمع ٣/١١٤ .

كما جاز: يا غلام بشرٌ ، و : بشراً فى البدل .[1]

الوجه العاشر : أن عطف النسق يكون عطفا على التوهم ، والبدل لا يكون على التوهم . [2]

---

[1] شرح الرضى على الكافية ٣٨٣/٢ ، والمنصف للشمنى القسم الثانى م٣٩٨/١، ٣٩٩.

[2] اعلم أن لنا عطفا على اللفظ ، وعطفا على الموضع ، وعطفا على التوهم ، أما البدل فإنه يكون على اللفظ وعلى الموضع ، ولا يكون على التوهم ، ومن هنا كان باب العطف أوسع من باب البدل .

والفرق بين العطف على الموضع والعطف على التوهم : أن العطف على الموضع عامله موجود وأثره مفقود ، والعطف على التوهم أثره موجود وعامله مفقود .

الأشباه والنظائر ٢٦٢/٢ ، والهمع ١٩٥/٣ - ١٩٧ ، وحاشية الصبان ٨٩/٣ ، والتوهم عند النحاة ١٣٧ - ٢٠٤

الخاتمـــــة

بعد هذه الرحلة العلمية مع أوجه الائتلاف والاختلاف فى التوابع انتــهى بنا البحث إلى نتائج ، من أهمها :

أولاً : أن هذا البحث يمتاز بوحدة موضوعه ، فالقارئ لا يستفيد مـــن أوجــه الائتلاف بين النعت وعطف البيان - مثلا - إلا إذا قـــرأ بقيــة أوجــه الائتلاف بينه وبين غيره من التوابع ، وكذلك أوجه الاختلاف ، فحكم كل وجه من كل تابع - حسب الاتفاق والاختلاف فيه - متناثر بين أوجه الائتلاف والاختلاف حسب منهج البحث .

ثانياً : أنه وجب فى النعت أن يكون مشتقا ليدل على الذات وعلى المعنى القـائم بها ، وعطف البيان والبدل وإن جاز فيهما أن يكونا مشتقين إلا أنـــه لا يقصد بهما التكميل بإيضاح المتبوع ، أو تخصيصه وضعا .

ثالثاً : أن حقيقة عطف البيان تخالف حقيقة عطف النسق ، فلذلك لم يذكر لـــهما تعريف واحد يجمعهما ، لأن الحقائق المختلفة لا يجمعها تعريف واحد.

رابعاً : أن كثيرا مـــن النحويين لا يكادون يعرفون عطف البيان على حقيقته ، وإنما يذكرونه عارضا فى مواضع .

خامساً : أن عطف البيان لا يكون مضمرا وفاقا ، ولا تابـــا لمضمـــر علـــى الصحيح ، لأنه فى الجوامد نظير النعت فى المشتق ، وجوز بعضــــهم جريانه على المضمر ، وقياس مذهب الكسائى جواز إتباع عطف البيان ضمير الغائب قياسا على النعت .

سادساً : أن عطف البيان من قبل التوابع قائم بنفسه على خفائه ، وأحكامه فـــى التكرير والعطف والإعراب والتقديم والتأخير والعامل فيه أحكام الصفة.

سابعاً : زعم أكثر المتأخرين أن متبوع عطف البيان لا يفوقه فى الاختصــاص بل يساويه أو يكون أعم منه ، والصحيح جواز الثلاثة ، لأنه بمنزلـــة

النعت وهو يكون فى الاختصاص فائقا ومفوقا ومساويا فليكن العطف كذلك .

ثامناً : أنه لا يجوز توكيد النكرة أصلا لا بالنفس ولا بالعين ولا بكل ولا ما فى معناها ، أما ما أنشدوا من قوله (حولا أكتعا) و (يوما أجمعا) فشاذ ، وينبغى أن يحمل على البدل لا على التوكيد .

تاسعاً : أنه فى توكيد محذوف خلاف والصحيح عدم الجواز ، لأنه لا دليل على المحذوف ، ولأن التوكيد بابه الإطناب والحذف للاختصار فتدافعا ، ولأن إجازة مثل ذلك يحتاج إلى سماع من العرب .

عاشراً: أن البدل يكون موضحا للمبدل منه مع أنه من غير جملته ، وإنما ذلك لأنه لما لم يظهر العامل فى البدل ، وإنما دل عليه العامل فى المبدل منه ، واتصل البدل بالمبدل فى اللفظ جاز أن يوضحه .

حادى عشر : أنه ينبغى أن يشترط لإبدال الفعل ما اشترط لعطف الفعل على الفعل وهو الاتحاد فى الزمان دون الاتحاد فى النوع .

ثانى عشر : أنه ليس الأمر فى البدل والمبدل منه كالصفة والموصوف فيلزم تطابقهما فى التعريف والتنكير كما كان ذلك فى الصفة والموصوف ، لأن الصفة من تمام الموصوف وتحلية له ، والبدل منقطع من المبدل منه يقدر فى موضع الأول .

ثالث عشر : أنه لما لم يكن للبدل معنى فى المتبوع حتى يحتاج إلى المتبوع - كما احتاج الوصف - ولم يفهم معناه من المتبوع - كما فهم ذلك فى التوكيد - جاز اعتباره مستقلا لفظا ، أى صالحا لأن يقوم مقام المتبوع ، ولما كان إعرابه بتبعية الأول جاز أن يعتبر غير مستقل تارة أخرى .

رابع عشر : أن باب العطف أوسع من باب البدل ، لأن العطف يكون على اللفظ وعلى الموضع وعلى التوهم ، والبدل يكون على اللفظ وعلى الموضع ، ولا يكون على التوهم .

خامس عشر : أن التفرقة بين عطف البيان والبدل قائمة على غير أساس سليم ، فمن الخير توحيدهما لما فى هذا من التيسير ، ومجاراة الأصول اللغوية العامة .

أما الرأى الذى يفرق بينهما فى بعض حالات فرأى قام على التخيل والحذف والتقدير من غير داع ، ومن غير فائدة ترتجى ، ومن السداد إهماله وإغفاله .

نعم قد تكون التفرقة بينهما سائغة فى بعض الصور ، ولكن من ناحية أخرى دقيقة غير تلك التى تصدى لها المانعون هى : أن لعطف البيان غرضا معنويا هاما هو : إيضاح الذات نفسها أو تخصيصها ، أما بدل الكل فله غرض آخر يختلف عن هذا تماما هو :

الدلالة على ذات المتبوع بلفظ آخر يساويه فى المعنى بحيث يقع اللفظان على ذات واحدة وفرد معين واحد فى حقيقته ، ولا يضر أن يختلفا فى المفهوم بعض الاختلاف اليسير ما دامت حقيقة الذات المقصودة واحدة ، كالاختلاف الذى فى نحو: عرفت سعيدا أخاك، ولا شأن لبدل الكل بالإيضاح والتخصيص ، فحيث اقتضى المقام إيضاح حقيقة الذات أو تخصيصها - والإيضاح والتخصيص هنا ذاتيان أى : يقعان وينصبان على الذات - فاللفظ عطف بيان ليس غير ، بشرط أن تجتمع فيه بقية الشروط الواجبة فى عطف البيان .

وحيث اقتضى المقام الدلالة على ذات المتبوع نفسها بلفظ أخر يساويه تماما فى المدلول فاللفظ بدل كل من كل ، وبخاصة إذا فقد اللفظ شرطا من شروط عطف البيان .

هذه هي ناحية التفرقة الحقة التى يجب الاقتصار عليها نزولا على أحكام اللغة ، وتقديرا لخصائصها ، وكشفا لأسرارها ، بل إن هذه التفرقة نفسها قد يمكن رفضها . (1)

وبعد : فهذه بعض النتائج التى اشتمل عليها البحث ، فإن كنت قد وفقت فيها – وهذا ما أبغي –فذلك فضل الله يوتيه من يشاء ، وإن كان غير ذلك فحسبى أنى اجتهدت ولم أدخر وسعا .

ولا يفوتنى أن أنوه بعظيم فضل الشيخ العلامة جلال الدين السيوطى ، فقد أفدت منه كثيرا فى كتابه / الأشباه والنظائر ، فجزاه الله عنى وعن العربية خير الجزاء .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُون * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (2)

دكتور

سعيد محمد مغازى عوض فودة

---

(1) النحو الوافى ٣/٥٤٦ ، ٥٤٩ .

(2) سورة الصافات الآيات ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ .

صفحة فارغة

صفحة فارغة

صفحة فارغة

صفحة فارغة

صفحة فارغة

صفحة فارغة

صفحة فارغة

صفحة فارغة

فهرست الموضوعات

فهرست الموضوعات